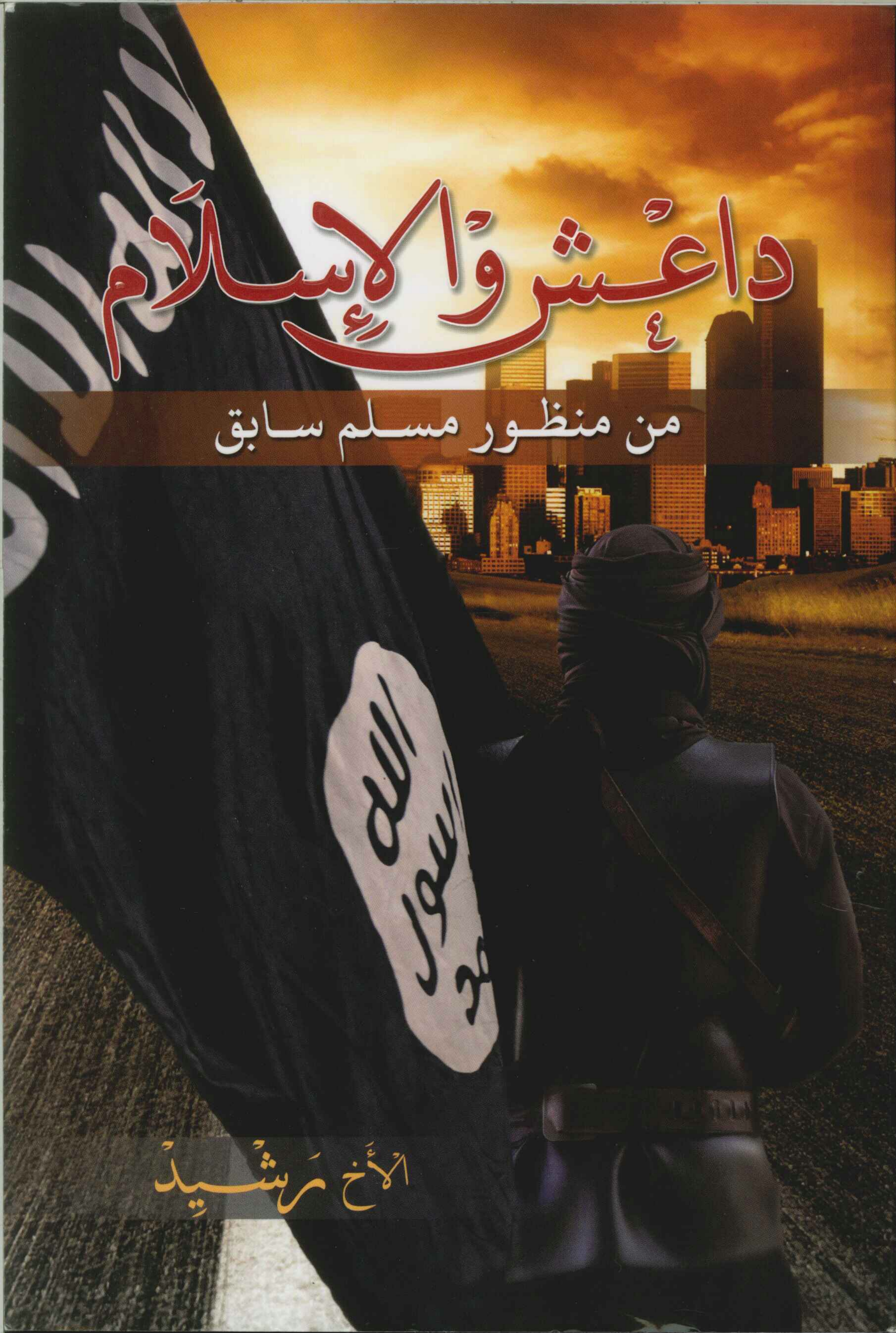

داعش والإسلام
من منظور مسلم سابق
الأخ رشيد

بحث كاشف لحقائق صادمة

«تحليل فريد وشامل لإيديولوجية الإرهاب. لا يوجد أي كتاب آخر يوضح العلاقة بين داعش وجذور الإسلام أفضل من هذا الكتاب....»

— **حامد عبد الصمد**، كاتب

«كتاب مؤلم يكشف منابع الإرهاب الإسلامي، يساعدني كمسلم ملتزم، في البحث عن نسخة إنسانية من الإسلام، تحرر المسلمين من الدم، ليكونوا جزءًا من تقدم العالم، وليس تدميره.»

— **سعيد شعيب**،كاتب وباحث

«في المصادر التأسيسية المهمة.. المصداقية تسبق الصدق دائمًا.. وهذا الكتاب الاستثنائي في بابه ومضمونه من المصادر المبكرة لهمٍ عالمي مقيم.. كما ان مؤلفه الأستاذ رشيد من الثقات القلائل في عصرنا الذين يجمعون بين المصداقية والصدق معًا.»

— **د. عصام عبدالله**، كاتب وأستاذ فلسفة

«كتـاب يرفـع نقابـا يسـتر الحقائـق. يقـوم على المصارحـة و الحقائـق و ليس على مداعبـة المشـاعر. قـد يصـدم بعـض القـراء بصراحتـه و لكنـه مؤلـف صـادق مـع نفسـه. كتـاب جديـر بالقـراءة لاسـيما فى الأوضـاع الحاليـة.»

— **د. وجدي ثابت غبريال،** كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة لاروشل، فرنسا

«كنـت أتمـنى أن أملـك مـا يملـك صديـقي العزيـز رشـيد المغـربي، هـذا الكـم الهائـل مـن المعلومـات الموثقـة عـن الإسـلام.... لقـد قـرأت كتابـه بشـغف وبكثـير مـن المتعـة.... أحـترم فيـه تلـك السـكينة الـتي يسـتطيع أن يحافـظ عليهـا وهـو في قلـب عاصفـة هوجـاء قلعـت جـذور أمـة بكاملهـا على مـدى ١٤٠٠ عامٍ.... ليـس هـذا وحسـب، بـل قدرتـه اللغويـة الـتي تمكنـه مـن الوصـول بسـهولة إلى عقـل قارئـه ومشـاهده، وإلى عمـق قلبـه....»

— **د. وفاء سلطان**

إهداء

إلى والدي ووالدتي رغم اختلافنا

إلى وطني رغم أني حرمت منه

إلى إخوتي وأخواتي الذين تألموا معي

إلى زوجتي وأولادي الذين ضحوا معي

إلى أصدقائي الذين آزروني في رحلتي

إلى عشاق الحرية في كل مكان

إليكم جميعا أهدي هذا الكتاب

داعش والإسلام

من منظور مسلم سابق

الأخ رشيد



"ISIS and Islam: Through the Eyes of a Former Muslim"
Brother Rachid

by
Water Life Publishing® 2016 © Copyright USA
ISBN 978-1-935577-57-7
WLP Print Code: 201605-00101-10000

«داعش والإسلام: من منظور مسلم سابق»

Water Life Publishing®

www. WaterLifePublishing.com

Orders:
orders@waterlifepublishing.com

Contact us:
isbook@waterlifepublishing.com

Printed on 30% post consumer recycled paper.



الفهرس

مقدمة لا بد منها

ولدت في أسرة مسلمة وتربيت ونشأت في بيئة مسلمة خالصة. وما زال والداي وأغلب أهلي مسلمين حتى كتابة هذا الكتاب. وأنا أحب أهلي، وأحب وطني الذي تركته مضطرا لا راغبا. وأحب العادات الشرقية التي تربينا عليها وحُسْن الضيافة التي تجعل أهلنا يذبحون آخر كبش يملكونه أو يقدمون آخر كسرة خبز لأجل ضيف حتى لو كانوا بعدها سيتضورون جوعًا أياما. أحب العلاقات الأسرية والاجتماعية التي تجمعنا والمناسبات والأعياد التي ما زالت راسخة في كياني وتحرك وجداني. لكن وسط هذا الحب توجد أسئلة وحقائق صعبة علينا أن نطرحها بكل جرأة.

في ظل ما يحصل الآن في العالم الإسلامي من إرهاب وقتل، أسألُ نفسي: هل يمكنني أن أصف والدي المسلم إمام مسجد القرية المخلص لدينه الذي يستيقظ لصلاة الفجر كل يوم حتى في ليالي الشتاء الباردة وهو يرجف من شدة البرد إرهابيا لمجرد أنه مسلم؟ وماذا عن والدتي المسلمة القروية البسيطة التي تدعو من كل قلبها لكل أولادها بالخير والنجاح ويرق قلبها حينما ترى متسولا في الطريق وتحاول مساعدته رغم قلّة الحيلة، بل قد تبكي لمجرد رؤية مأساة شخص آخر حتى لو لم تكن تعرفه؟ هل يمكنني أن أسمّي سيدة مثل هذه بكل طيبتها ورقة قلبها إرهابية لمجرد أنها مسلمة؟ بالطبع لا. لا يستطيع أي شخص أن يقول ذلك، إلا إذا كان التعصب الأعمى جعله يكره المسلمين جميعًا دون تمييز بينهم.

بالمقابل، أليس أعضاء داعش والقاعدة وبوكو حرام وطالبان... وغيرها من الحركات الإسلامية مسلمين؟ ألا يشهدون أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيمون الصلاة، ويصومون ويلتزمون حتى بأدق تفاصيل دينهم؟ فكيف نقول إذن أن المسلمين مسالمون؟ ألا تتمّ عمليات القتل تحت صراخ «الله أكبر»؟ ألم تسجل داعش الكثير من الأشرطة تظهر فيها عمليات قتل بوحشية مستندة على النصوص الدينية؟ ألا يموتون في سبيل معتقداتهم الدينية؟ فكيف نقول عنهم إنهم ليسوا مسلمين ولا يمثلون الإسلام؟

إنها معضلة تواجه العالمين الشرقي والغربي، ويواجهها رجال الإعلام والمتخصصون ورجال السياسة والناس العاديون، فيبادر السياسيون من أجل حساباتهم السياسية بسرعة إلى تبرئة الإسلام في كل عملية إرهابية ترتكب باسمه. فقد برّأ بوش الإسلام من عمليات ١١ سبتمبر،[1] وبرّأ أوباما الإسلام من إرهاب داعش،[2] في حين أن فرانسوا هولاند برأ الإسلام من

---

١. تصريح الرئيس السابق جورج بوش قال فيه: «وجه الأرهاب ليس هو الإيمان الحقيقي للإسلام، هذا ليس الإسلام، الإسلام هو السلام، هؤلاء الإرهابيون لا يمثلون السلام، إنهم يمثلون الشر والحرب».

٢. «تصريح أوباما بـ «عدم إسلامية» تنظيم داعش يشعل الجدل على موقع تويتر»، وقد جاء في كلام

مذبحة شارلي إيبدو.[٣] بالمقابل، يميل المتطرفون في الغرب إلى وضع المسلمين بوجهاتهم كلها والإسلام نفسه في سلة واحدة، فكلهم إرهابيون، وكلهم متطرفون، فيضيع الإنسان العادي بين هؤلاء وأولئك. وما يزيد الطين بلة أن المسلمين يقومون بالدفاع بشراسة عن الإسلام، مبرئين إياه من كل عملية إرهابية تحت شعار أن تلك الجماعات الإرهابية لا تمثل الإسلام. فيتساءل الناس: من يمثل الإسلام إذن؟ إذا كانت كل تلك الجماعات لا تمثل الإسلام، فدلّونا على من يمثله؟

صار المدافعون يتحدثون عن الجهاد على أنه هو الجهاد الداخلي الروحي، وأن الإسلام لا يحارب إلا المعتدين، وأن الإسلام مشتق من كلمة «سِلْم»، وأنه لم يأت إلا بالسلم والسلام، وأن المغرضين هم الذين شوهوا صورته عبر التاريخ. لكن السؤال المقابل الذي يطرحه كل من يستمع إلى تلك الدفاعات المتكررة: ماذا عن الفتوحات الإسلامية التي تمت من العصر الأول للإسلام والتي قامت عليها الإمبراطوريات الإسلامية عبر التاريخ؟ هل أساء هؤلاء كلهم فهم الإسلام؟ فما هذا الدين الذي أسيء فهمه أربعة عشر قرنا من الزمن منذ ظهوره إلى اليوم؟ دلونا على مرحلة واحدة من مراحله تجلى فيها هذا الدين بأبهى صوره وأوضحها دون سوء فهم؟

وسط هذا الضجيج من المهاجمين والمدافعين، تم إخراس الأصوات كلها التي تنتقد الإسلام أو المسلمين باعتبارها أصواتا سببها «الإسلاموفوبيا»، وعُدَّ أصحابها مروجين للكراهية. فتم الخلط بشكل عجيب بين انتقاد الإسلام كدين وعقيدة وبين كره الناس أو كره الأشخاص (المسلمين)، وكأن الإسلام هو المسلمون.

الرئيس أوباما: «داعش ليس إسلاميا، ليس هناك دين يقر بقتل الأبرياء».

٣. العربية نت، «هولاند: منفذو هجمات باريس لا علاقة لهم بالإسلام».

هـل يسـتطيع أي شـخص أن ينتقـد الإسـلام أو تصرفـات المسـلمين دون اتهامـه بالعـداء أو الكراهيـة او الإسـلاموفوبيا؟ مـاذا لـو وُلِد هذا الشـخص مسـلما وتربى مسـلما وعاش مسـلما وأحـب المسـلمين مـن كل قلبـه لكنه اختـار طريقـا مغايرا في فـترة لاحقـة مـن حياتـه؟ هـل سـيتهم هـو الآخـر بالإسـلاموفوبيا في حـين قـضى معظـم وقتـه في دراسـة الإسـلام والعيـش بـين المسـلمين؟ وهـل يمكـن أن يجـد مـن يعـاني مـن الإسـلاموفوبيا أن أقـرب المقربـين إليـه مسـلمون؟

في زمـن يصعـب فيـه قـول الحقيقـة دون أن يتـم تصنيفـك أو نعتـك بالعـداء والكراهيـة، قـررت أن أخـرج عـن صمـتي وأقـول الحقيقـة.. تلـك الحقيقـة الـتي تربيـت عليهـا ودرسـتها وتعلمتهـا مـن أسرتي ومجتمـعي، ثـم كـبرت وأتيحـت لي الفرصـة لأدرسـها بشـكل أعمـق. ربمـا تلـك الحقيقـة لـن تـرضي الكثيريـن، ولكنهـا قـد تبـدد حـيرة كثيريـن يـودون إجابـة مقنعـة على تسـاؤلاتهم دون اللجـوء إلى الدفـاع المسـتميت عـن الإسـلام ودون تطـرف مضـاد يدعـو إلى طـرد المسـلمين أو إبادتهـم.

ستسـاعد الحقيقـة الـتي أريـد أن أظهرهـا في فـك لغـز الحـيرة الـتي عـبّر عنهـا أحدهـم حـين سـألني بعـد محـاضرة ألقيتهـا: كيـف أوفـق بـين نظـرتي إلى جـاري المسـلم اللطيـف المـؤدب الخلـوق ومـا أراه على التلفزيـون وعلى الأخبـار مـن قتـل وتدمـير يتـم على أيـدي مسـلمين؟ كيـف أوفـق بـين تحيـة جـاري المسـلم لي كل صبـاح بابتسـامة ربمـا لا أجدهـا حـتى مـن جـيراني الآخريـن غـير المسـلمين والكراهيـة الـتي ينـادي بهـا الشـيوخ وبعـض المسـلمين في الجانـب الآخـر مـن الكـرة الأرضيـة؟ يمثّـل هـذا السـؤال لـب المشـكلة، وسـيعمل هـذا الكتـاب على حـلّ تعقيـدات هـذه المشـكلة.

أقـول لقـرائي مـن المسـلمين إن غايـتي مـن هـذا الكتـاب هي تسـليط الضـوء على سـبب مشـكلاتنا ومعاناتنـا كشـعوب إسـلامية (وأنـا أعُـدّ نفـسي ثقافيـا منتميًا إلى الأمـة الإسـلامية حـتى لـو اتخـذتُ مسـارا آخـر لحيـاتي في فـترة لاحقـة). أريد

أن أضع يدي على الجرح. ولكن وضع يدي على الجرح لا يعني أبدا أني أكره المجروح. بل أريده أن يتعافى. ولكي يتعافى، عليه أن يعرف مصدر الألم ويواجهه بكل شجاعة. أمّا بالنسبة للقراء من غير المسلمين، فإني أريد أن أشارك معكم تجربة من داخل الإسلام كما رأيته وشربته واستنشقته داخل عائلة محافظة. فرغم أني درست الإسلام مدة زادت عن العشرين سنة الآن، إلا أني أستطيع أن أقول إن ما عشته بالتجربة يضع الأساس لما درسته لاحقا. فهناك أشياء لا تُدرس بل تعاش. والإسلام، مهما درسته، شيء لا تستطيع أن تفهمه كمن عاشه وأحس به وصدّقه وآمن به وجعله كل شيء في حياته. لا تستطيع أن تفهم ذهنية من يفجر نفسه إلا إذا عشت تلك التجربة الدينية الفريدة. لا تستطيع أن تتكهن بتصرفات الجهاديين إلا إذا كنت جزءا من تلك الثقافة.. جزءا من البيئة الحاضنة التي تربى فيها جهاديون كثيرون. وما تتعلمه من الأحاديث العفوية من والدتك ووالدك وجيرانك، ودروس المسجد، وخطبة الجمعة البعيدة عن الإعلام، والجلسات الخاصة التي لا مجال فيها لمساومات سياسية أو اعتبارات دولية هو ما ينطبع في داخلك ويكوّن شخصيتك ويعطيك فكرة عن الإسلام كما نحس به وكما نحلم به وكما نريده. وبطبيعة الحال، فإن ذلك لا يغني عن الدراسة الأكاديمية. لكن الدراسة الأكاديمية وحدها تكاد تكون كوصفات الطعام التي تعطيك فكرة عن الطعام الشرقي وكيف تحضره، لكنها لا تحولك بالضرورة إلى طباخ شرقي. فطعام أمي سيبقى دائما الطبخ الأصيل أو النكهة الأصلية.

لأجل هذه الأسباب أقول، مع احترامي لرؤساء العالم، وبشكل خاص رؤساء أمريكا ورؤساء الدول الأوروبية، أنهم لن يفهموا الإسلام كما فهمته ولن يعرفوه كما عشته ويعيشه الملايين من بني جلدتي. فصوت الآذان كان أول شيء سمعته أذناي حتى قبل أن ينطقوا اسمي أو يسمعوني أول أنشودة. ليت السياسيين يتوقفون عن لعب دور الفقهاء وتعليمنا نحن

من كبرنا في الإسلام ما هو الإسلام وما ليس بإسلام. إني أقول لهم جميعا بأعلى صوتي: لا تعطوا أنفسكم الحق في تأويل الإسلام وتفسيره وأنتم لا تعرفون عنه إلا القليل. فلا أوباما ولا بوش ولا هولاند جلس معي أمام أبي الفقيه يتعلم آيات القرآن اليوم كله. لم يقم واحد منهم لصلاة الفجر الرابعة صباحا يتوضأ ويصلي أيام الشتاء القارسة حتى يقول لي ما هو الإسلام. ولم يشاهد واحد منهم حرب الخليج، وكيف نقلتها إذاعاتنا لنا، وكيف كان يعلق عليها أهلي وأصدقائي المسلمون. ولم يجلس واحد منهم وسط المساجد ليرفع كفيه بالدعاء على الكفار وعلى النصارى واليهود خلف الإمام بصوت اختلط فيه البكاء بالمشاعر الجياشة وقراءة القرآن حتى يعطي لنفسه الحق في أن يعلّمني ما هو الإسلام.

أقول لهؤلاء السياسيين يمكنكم بكل بساطة أن تدينوا الإرهابيين وتتركوا الإسلام لمن يحق لهم تفسيره. سمّوا الإرهاب إرهابا. لا تدينوا الإسلام ولا تبرئوه، لأن ذلك ليس من مهمتكم ولا من اختصاصكم. إنها مهمة ملقاة على عاتق المسلمين ومن نشأوا وتربوا وتعلموا الإسلام، وعلى عاتق الباحثين والمتخصصين. وبالمقابل، على المسلمين، إن أرادوا أن يبرئوا الإسلام مما نراه من قتل وذبح وتهجير، أن يبرهنوا ذلك من خلال النصوص ومن خلال ما عاشه أسلافنا من أعلام الإسلام ورموزه وقادته. على المسلمين أن يبرهنوا ذلك بالفعل وبالأدلة والبراهين، لا بالأقوال والشعارات الخاوية التي لا هم لها إلا الدفاع على حساب الحقيقة.

حتى نفهم «داعش» أو«تنظيم الدولة» كما سمى نفسه، علينا أن نفهم الإسلام قبل السياسة والجغرافيا. فليست داعش كيانا سياسيا محضا، فمنطلقها الأساسي ديني وعقيدتها القتالية دينية. وكذلك الذين تم تجنيدهم أو تحريضهم على الالتحاق، فقد لعب الدين الدور الأساسي في إقناعهم، والبروباغاندا التي يقومون بها على وسائل التواصل الاجتماعي دينيةٌ خالصة.

ولذلـك، مـن دون فهـم الإسـلام كعقيـدة وكمحفـز للجهاديـين، سـتبقى داعـش ظاهـرة غامضـة. وسـيخطئ الذيـن يتعاملـون معهـا في القضـاء عليهـا. أمـا محاولة استبعاد الدين كأهـم عامـل (لا مجـرد أحـد العوامـل) فإنـه مـن قبيـل السـذاجة الغربيـة في التعامـل مـع الإرهـاب. ومـن المؤسـف أنـه إن لـم يتـدارك الدارسـون فداحتهـا كخطـأ في المقاربـة، سـيكونون مسـاهمين في تمديـد عمـر الإرهـاب وفي تأخـير نتائـج الحـربَ عليـه، بـل حـتى تفاقمـه إلى حـدود قـد تخـرج عـن السـيطرة. فـلا يتـم القضـاء على أي مـرض إلا بمعرفـة أسـبابه. ومحاولـة القضـاء على داعـش دون فهـم الإسـلام مثـل محاولـة القضـاء على الإيبـولا دون معرفـة نـوع الفـيروس وكيـف تنتقـل عـدواه بـين النـاس.

ملحوظـة: سأسـتخدم في هـذا الكتـاب تعبـيري «داعـش» و «تنظيـم الدولـة» كمرادفتـين للكيـان نفسـه.



- 1 -

في البدء كانت الكراهية

من أين نبدأ؟

لن نفهم «داعش» ولا أية جماعة إسلامية إن لم نفهم الكراهية المغروسة في نفوسنا نحن الذين ولدنا وعشنا كمسلمين تجاه الكفار التقليديين. والكفار التقليديون المقصودون هنا هم النصارى واليهود، لأنهما هما العدوان الرئيسيان لمهد الإسلام، أو هكذا عدّهما محمد. فاستمر ذلك العداء أو ذلك التصور من بداية الإسلام إلى اليوم. لمدة ألف وأربعمئة سنة ونحن نعد اليهود والنصارى أعداءنا الرئيسيين. وقد يظهر بين الفينة والأخرى أعداء آخرون ندخلهم تحت مسمى الكفار، أو تحت مسمى المرتدين، لكن النصيب الأكبر من العداء ـ الذي ترسخ لدينا من خلال النصوص ومن خلال ما يتردد وسط مجتمعاتنا وأوساطنا الدينية ـ هو دائما لليهود والنصارى.

بلغ بنا هذا العداء إلى درجة أنه أحيانا حتى لو كان العدو الواضح شخصا آخر، نشك أن وراءه اليهود والنصارى. وقد انسحب هذا حتى على أحداث ١١ سبتمبر. فرغم أن الأدلة الواضحة التي لا تقبل الجدل تشير إلى القاعدة، إلا أنه ما زال حتى الآن من يعد اليهود وراءها، بتغطية من أمريكا النصرانية، حتى تكون مبررا لمهاجمة الإسلام ولضرب بلدان المسلمين. والدليل الذي يسوقونه هو أنه لم يكن أي يهودي في البرجين حين تم تدميرهما[١].. فالعدو دائما هو اليهود والنصارى الذين يحيكون الخطط لمهاجمتنا وضرب إسلامنا. بل إن «داعش» نفسها وهي تذبح وتقتل «المسلمين» وغير المسلمين راجت شائعات رددتها وسائل الإعلام العربية أن إسرائيل هي من خلقتها، وأن أبا بكر البغدادي هو مجرد عميل إسرائيلي اسمه إليوت شيمون[٢] تم تدريبه في الموساد وتعليمه فن الخطابة وأصول الدين الإسلامي، وأن من يقف وراءه هو جهاز المخابرات الأمريكية بمساعدة الموساد لتنفيذ خطة ما يسمى بعش الدبابير.[٣] والغاية من ذلك هي جمع الإرهابيين جميعًا في تنظيم واحد لضرب أهداف كثيرة من بينها تشويه صورة الإسلام ونشر الفوضى في الشرق الأوسط لتبقى إسرائيل قوية، وليتم اتخاذ ذلك حجة لاستغلال أمريكا لثروات العراق وسوريا وتقسيمهما إلى دويلات صغيرة حتى لا يشكلا أي خطر على إسرائيل في المستقبل... . ونسبت النظرية نفسها إلى هيلاري كلينتون (تقول أحيانا بعض وسائل الإعلام العربية إنها ذكرت ذلك في كتابها، في حين يقول بعضها الآخر في تصريحات لها دون تحديد مكانها) أنها اعترفت بأن أمريكا هي من صنعت داعش[٤].

---

١. رغم عدم صحة هذا الادعاء وكذبه، تجد أن بعض المواقع العربية والإسلامية ما زالت ترد ده، وقد جاء بصيغ مختلفة أكثرها انتشارا هذه الصيغة التي قالت إن «٤٠٠٠ يهودي غابوا عن عملهم في مركز التجارة العالمي يوم الهجمات».

٢. جريدة اليوم السابع، تحت عنوان «موقع أمريكي: أمير داعش عميل للموساد الإسرائيلي واسمه «إليوت شمون» ، وقد تحدثت صحف كثيرة عن هذا الأمر.

٣. موقع إم بي سي، «وزير سعودي: داعش ينفذ خطة «عش الدبابير».. والخوارج ليسوا «نبتة صحابية»»، وهذا تصريح رسمي لوزير الأوقاف والدعوة والإرشاد الشيخ صالح آل الشيخ.

٤. جريدة النهار، «ما هو سرّ الاجتياح المفاجئ لبلدة عرسال؟ هيلاري كلينتون: نحن مَن أسّس «داعش»!».

بطبيعة الحال، هذه النظرية أشبه بنوع من الشوربة اختلطت فيها المتناقضات كلها، لكنها تعكس أننا تربينا في ثقافتنا على ألا نصدق ما تراه أعيننا وما نسمعه بآذاننا إن كان يجعلنا نصطدم مع حقيقتنا. فعلينا أن نلوم الآخر على كل شيء. فحتى بالنسبة لداعش، لا نريد أن نقر بأنها نتيجة التقى فيها التعليم مع الأسرة مع النصوص الإسلامية والإعلام الإسلامي وأموال النفط السعودي ـ التي رسخت الإسلام الأصلي في نفوس الكثيرين ـ فتمازجت هذه العوامل كلها وأنتجت لنا إرهابيين مستعدين للذهاب إلى أي مكان فيه توتر، وأعطتهم الفرصة لتفريغ تلك الشحنات من الكراهية ضد العدو الذي يُفَضّل أن يكون نصرانيا أو يهوديا أو له علاقة بهم من قريب أو من بعيد، أو يساعدهم أو يمثل مصلحة لهم، لأن من شأن ذلك أن يروي الغل والكراهية التي رضعناها منذ الصغر، أو بتعبير قرآني لتشفى صدورنا،[٥] عوض أن نقر بذلك علينا أن نرمي اللوم على الآخر. وبطبيعة الحال، من سيكون أفضل مرشح لذلك اللوم؟ إنه العدوان اللدودان التقليديان: اليهود والنصارى اللذان يريدان ضرب بلداننا وديننا، فيصير بقدرة الله أبو بكر البغدادي حتى لو كان عربيا أصيلا يصير عميلا صهيونيا. ويتقبل الناس الفكرة ويصير من الصعب إقناعهم بغيرها حتى لو كنت تملك الأدلة على ذلك.

ينطبق الأمر نفسه على أحداث شارلي الإرهابية التي تمت ٧ يناير ٢٠١٥، حيث قالت الأغلبية الساحقة من المعلقين باللغة العربية الذين قرأت لهم على المواقع وعلى صفحات الأخبار إنها من تدبير المخابرات الفرنسية[٦] لوقف زحف الإسلام وتشويه صورته بعد أن صار الأوروبيون يعتنقون الإسلام بكثرة، رغم وجود الكاميرات ورغم صياح الإرهابيين بالله أكبر وأنهم

---

٥. قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (سورة التوبة، الآية ١٤)

٦. موقع هسبريس، «ناشطو الانترنت بالعالم يشككون في حقيقة «مجزرة فرنسا»».

انتقموا للنبي من شارلي، فإن كل ذلك يبدو في أعين الغالبية من الشباب المسلم مجرد تمثيلية أو مسرحية سخيفة من المخابرات الفرنسية.

فلماذا هذا العداء كله، ومن أين جاء؟ لماذا نؤمن بنظرية المؤامرة من الغرب الكافر، ومن اليهود الصهاينة؟

النصوص الدينية والتنشئة

تعود البداية الأولى إلى النصوص الإسلامية، لأن الإسلام هو الذي حدد هويتنا الثقافية والتاريخية، وهو الذي حدد تربيتنا في البيت ودراستنا في المدارس التقليدية وفي المدارس الحكومية وأثر في إعلامنا وفي كتبنا والمواد التي نقرؤها. لا يوجد شيء نجا من التأثير الإسلامي في بلداننا الإسلامية. فمن المؤكد أن طريقة التفكير تعود إلى النصوص التي تراكمت في ثقافتنا على مدى أربعة عشر قرنا وصارت جزءا لا يتجزأ من تكويننا. بل صارت الهواء الذي نستنشقه والماء الذي نشربه.

نؤمن كمسلمين أن الإنسان يولد مسلما بالفطرة، فكل مولود في العالم هو مسلم لكن والديه يقومان بتحويله إلى دين آخر، وبشكل خاص في ما يتعلق باليهود والنصارى. فهما يهودانه أو ينصرانه.[٧] وأتذكر كمولود في أسرة مسلمة، لا مسلمة عادية، بل محافظة أيضا، أن والدتي أخبرتني أن والدي أتى حين وُلدت أخذني بين يديه وأذّن في أذني وكأنه سيقوم بالصلاة. كان يقتدي بما فعله النبي محمد مع الحسين حفيده.[٨] وفي الأذان يعلن الإنسان الشهادة التي هي الركن الأول الأساسي في الإسلام، أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. ومعنى ذلك أن نتبرأ من أي دين آخر غير الإسلام ومن أي إله آخر غير الله.

---

٧. يقول الحديث «ما مِن مَولودٍ إلاّ يُولَدُ على الفِطرَةِ، فأبَواهُ يُهوِّدانِهِ أوِ يُنَصِّرانِهِ أو يُمجِّسانه»، صحيح البخاري ١: ٤٥٤، كتاب الجنائز، باب إذا أَسْلَمَ الصبيُّ فماتَ هل يُصلَّى عليه، وهل يعرَضُ على الصبيِّ الإسلامُ؟

٨. يقول الحديث «عن عبد الله بن أبي رافع ، عن أبيه: «أن النبيّ (ص) أَذَّنَ في أُذن الحسن بن عليّ حين ولدته فاطمة» مسند أحمد ٧: ٥٣٧.

عندما كنت في سن الرابعة من العمر، بدأ والدي أول دروسه الدينية لي. أراد أن يعلمني كيفية الصلاة. وقد قالت لي أمي، وأنا صغير منذ تعلمت المشي، إني كنت أحاول تقليده في الصلاة، وأقف إلى جانبه وأحاول أن أفعل كما يفعل. وبطبيعة الحال، كنت أفتخر بوالدي وأعده نموذجا لي، شأني شأن أي طفل. أردتُ أن أفعل كل شيء مثله بما في ذلك الصلاة. لكني أتذكر حادثة في صغري أمرني فيها والدي بأن أخلع سروالي حتى يعلمني كيف أقوم بالاستنجاء، فخجلت وامتنعت فضربني. وبعدها علّمني الصلاة رغم أن الإسلام كدين يأمر الآباء بتعليم أبنائهم الصلاة على سبع سنين وأن يضربوهم عليها إن امتنعوا حين يَبلغون العاشرة.[٩] لكن أبي، كونه إمام المسجد وواحدا من رموز القرية في التقوى والتدين، أراد أن يكون أكثر حرصا على تعليمي. فبدأ معي منذ سن مبكرة جدًا. ومن السور الأولى التي نتعلمها كأطفال سورة الفاتحة. فهي بمنزلة الصلاة الربانية عند المسيحيين، ولا يمكن لأي مسلم أن يؤدي صلاته من دون أن يقرأ الفاتحة. فالصلاة لا تجوز من دونها. وهي أول سورة تجدها في المصحف حين تفتحه. ويحفظها الكبار والصغار في العالم الإسلامي عن ظهر قلب. ومن ضمن ما نقوله في هذه السورة: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.[١٠] وقد شرح لي والدي حين صرت أكبر سنا أن المقصود بالمغضوب عليهم في هذه السورة هم اليهود، لأن الله غاضب عليهم ولعنهم. وأما المقصود بالضالين فهم النصارى، لأنهم ضلوا الطريق بعد عيسى، حيث ألّهوه وحرفوا دينهم واتبعوا طريقا غير الطريق المستقيم. ليت هذا كان رأي والدي فقط، لكني سمعته من جدي الذي يحفظ القرآن عن ظهر قلب، وسمعته من والدتي، وسمعته حتى من أصدقائي في المدرسة. بل ردده علينا المعلمون في مدرستنا. وحين كبرت وقرأت الأحاديث وتفاسير

٩. يقول الحديث «مروا صبيانكم بالصلاة إذا بلغوا سبعاً، واضربوهم عليها إذا بلغوا عشراً، وفرقوا بينهم في المضاجع»، مسند أحمد ٢: ٣٧٦.

١٠. سورة الفاتحة، الآيات ٦و٧.

القرآن وجدته مكتوبا فيها.[11] بل حين أردت مؤخرا أن أفحص المقررات المدرسية في المغرب إن كانت هذه العقيدة موجودة فيها حتى الآن أم لا، وجدتها في أحد المقررات المدرسية.

لا يقتصر الأمر على المغرب فحسب، بل ينسحب على العالم الإسلامي كله. بل إن تلفزيون PeaceTV بث يوم ١٧ أكتوبر ٢٠٠٦ خطبة للشيخ الماليزي «حسين يي» ترجمها موقع ميمري يقول فيها إن الله عندما يقول «المغضوب عليهم» أو يذكر الغضب، فهو يقصد اليهود، وحين يقول الضالين أو يتحدث عن الضلال، فهو يتحدث عن النصارى. ثم يسأل: لماذا لم يذكر القرآن الهندوس؟ ويقول لمستمعيه: ينبغي أن نعرف السبب، لأننا نقرأ هذه الآيات كل يوم. يقول «لأن اليهود تعدوا كثيرا في عصيان أوامر الله، عملوا أشياء في منتهى التطرف. فأكثر أمة تطرفًا على هذه الأرض هي اليهود. فإذا ذُكر التطرف أو المتطرفون، فإن ذلك ينطبق على اليهود لا على المسلمين. فهم متطرفو العالم...ولماذا دُعي النصارى ضالين؟ لأنهم دائما يتلاعبون بالعالم.»[12] هذا هو حال العالم الإسلامي من المغرب لماليزيا. نعتقد كلنا أن اليهود مغضوب عليهم من الله والنصارى ضالون. وعلى كل مسلم تقي أن يصلي خمس صلوات في اليوم، وهو بالتالي يردد هذه الآيات على الأقل سبع عشرة مرة كل يوم. وهكذا نذكّر أنفسنا كل يوم بأن اليهود مغضوب عليهم وأن النصارى ضالون.

ما الذي يدور في خلد طفل صغير عندما تعلمه أن الله غاضب على اليهود، وأنهم يستحقون غضبه، وأن النصارى ليسوا أحسن حالا لأنهم ضالون في طريق خطأ؟ وهكذا انطبع في تفكيري وجود عدوين .. نوع من الخوف

---

١١. جاء في مسند أحمد أن محمدا سأله رجل «يا رسول الله من هؤلاء المغضوب عليهم؟ فأشار إلى اليهود فقال: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الضالون ـ يعني النصارى» مسند أحمد ٦: ٧٦، انظر كذلك تفسير الطبري ١: ٦٧، لسورة الفاتحة الآية ٦ «غيرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ هم اليهود... النَّصَارَى هُمُ الضَّالونَ».

12. MMEMRI TV, “Malaysian Cleric Hussein Ye Explains Why the Jews....”

مـن عدويـن خطريـن همـا اليهـود والنصـارى. لـم أنـس أنهمـا أعـداء في أي يـوم، لأني كنـت أذكـر نفـسي فيـه بهـذه الفكـرة سـبع عـشرة مـرة كل يـوم. أليـس هـذا هـو مـا نطلـق عليـه غسـيل الدمـاغ؟ لا توجـد مؤسسـة واحـدة إسـلامية في العالـم الإسـلامي مـن المؤسسـات الرسـمية لا تعلـم أن المقصـود في هـذه السـورة هـم اليهـود والنصـارى. فالأزهـر يعلـم ذلـك، وكذلـك مـدارس وجامعـات المملكـة العربيـة السـعودية، ومواقعهـا على الإنترنـت، وفيديوهـات الشـيوخ على اليوتـوب.

الكراهية في الثقافة السائدة

لا يتوقـف الأمـر عنـد هـذا الحـد. إذ نتخيـل دائمـا في أحاديثنـا اليوميـة أن الغـرب يخطـط لنـا الدسـائس يوميـا، للنيـل مـن بلداننـا ومـن إسـلامنا. عندمـا كنـت في سـن الثانيـة عـشر واجهـت لأول مـرة فكـرا مختلفـا ودينـا مختلفـا عـن ديـني، كنـت أسـتمع إلى راديـو مونـتي كارلـو (إذاعـة حـول العالـم)، وسـمعت قصـة المسـيح كمـا وردت في الإنجيـل. كنـت لأول مـرة أواجـه بأفـكار مخالفـة تمامـا، بـل مضـادة لمـا أعرفـه مـن القـرآن. كنـت غاضبـا لأن البرنامـج كان يبـث باللغـة العربيـة مـن دولـة أجنبيـة لا تتحـدث العربيـة. فـلا بـد أن فرنسـا النصرانيـة هـذه (الـتي احتلـت المغـرب عقـودا مـن الزمـن) تريـد أن تغزونـا بالفكـر بعـد أن طردناهـا. وبمـا أنهـا لـم تسـتطع أن تغزونـا عسـكريا مـرة أخـرى فقـد علّمـت بعضـا مـن أبنائهـا اللغـة العربيـة ووجهـت إذاعاتهـا نحونـا لتغييرنـا عـن ديننـا؟ لمـاذا؟ لأنهـم يحسـدوننا على ديننـا الجميـل الذي لا مثيـل له. ويحسـدوننا على القـرآن، وعلى نبينـا، وعلى أننـا خـير أمـة أخرجـت للنـاس! هكـذا نظـرت إلى الأمـر.

لـم تكـن هـذه نظـرتي وحدي. بـل سـمعتها مـن أصدقـائي في المدرسـة، وسـمعتها تـتردد في البيـت بطـرق شـتى وفي مناسـبات متعـددة مـن الأشـخاص كلهـم الذيـن سـهروا على تربيـتي أو كان لهـم تأثـير في حيـاتي. وبطبيعـة الحـال، عرفـت لاحقـا

كم كنت مخطئا. إذ كان المذيعون مسيحيين من الشرق الأوسط (من لبنان ومصر) وكانوا يؤمنون أن من واجبهم تبشير العالم العربي فاستأجروا الوقت من إذاعة حول العالم ساعة في اليوم كانوا يستغلونها لعمل برامج راديو لشمال إفريقيا. وبطبيعة الحال، فإن الأقرب للتصديق وقتها كانت نظرية المؤامرة. والسؤال هنا: من الذي ولّد عندنا فكر المؤامرة هذا؟ لماذا نحس بأننا مستهدفون على الدوام كأمة إسلامية؟ وأن أعداءنا من النصارى واليهود هم من يخططون ضدنا (ويمثلهم بطبيعة الحال في الوقت الحاضر الغرب أو أوربا وأمريكا، وإسرائيل كممثلة لليهود)؟ ونجد الجواب على هذا السؤال في الجذور أيضا ، في النصوص القرآنية المقدسة عندنا والتي انصهرت مع ثقافتنا وشكلت وجداننا.

تجربة محمد هي المقياس

واجه محمد في بداية دعوته، كما صورتها لنا أقدم سيرة وصلتنا عنه وكما وصلنا من خلال كتب الحديث والتفاسير القديمة للقرآن، مقاومة عنيدة من قومه. كان في بداية دعوته ليِّنًا طيبا مع المسيحيين واليهود ولاسيما أنه رأى نفسه على أنه يدعو إلى الإله نفسه ويحمل الفكرة نفسها التي نقلها أنبياء بني إسرائيل ورسلهم. بل تحكي كتب السيرة أن أول من استشاره هو ورقة بن نوفل النصراني،[١٣] وأن أول شيء فعله عندما تعرض أتباعه للاضطهاد هو أنه طلب منهم أن يهاجروا إلى الحبشة المسيحية لأن فيها ملكا (يقصد النجاشي) لا يُظلم عنده أحد حيث قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه.»[١٤] لكن حين تحول محمد إلى المدينة، كان يأمل أن يؤازره اليهود والنصارى، فرفضوا ذلك. فتحول محمد من المهادنة إلى

١٣. السيرة النبوية لابن هشام ١: ٤٠٧، خديجة (ض) تخبر ورقة بن نوفل حديث رسول الله (ص).
١٤. السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٩٠، ذكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة.

العداء التام مع أهل الكتاب، فعادى كتبهم ومعتقداتهم ووجودهم حوله، فطرد من استطاع منهم، وقتل من استطاع منهم، وأخضع لسيطرته من استطاع من القبائل المجاورة له والتي تدين باليهودية أو المسيحية. وقد دارت حروب كثيرة من حروب محمد مع جيرانه من المسيحيين واليهود. وكان يتم تصويرهم على أنهم لا يريدون الدخول في الإسلام حسدا من عند أنفسهم رغم أنهم كانوا يعلمون أنه الحق،[١٥] ويكيدون للمسلمين ويتربصون بهم. وتم تعميم هذا الصراع بين محمد وجيرانه ليصير هو الطابع الذي وصف به المسيحيون واليهود عبر التاريخ في التراث الإسلامي. وكأن تجربة محمد مع جماعة صغيرة في محيطه هي المقياس لكل اليهود ولكل المسيحيين عبر العصور والأمكنة. ولذلك حين يتحدث بعض شيوخ الإسلام في الفضائيات أو في كتبهم، فإنهم يصفون اليهود والنصارى بناء على ما قاله القرآن، ويجمعونهم في سلة واحدة. إذ يتحدثون عن اليهود عامّة بأل التعريف وعن النصارى عامةً بأل التعريف.

نظرية المؤامرة في النصوص الدينية

من تلك النصوص التي تجعل اليهود والنصارى خلف كل نظريات المؤامرة ما جاء في سورة البقرة، وهي السورة التي يعتقد المسلمون أنها أوحيت إلى محمد حين انتقل إلى المدينة في بداية الفترة المدنية، حيث تقول «وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ».[١٦] يقول الطبري، وهو من أقدم المفسرين للقرآن (القرن الثامن والتاسع الميلادي)، إن معنى هذه الآيات أنه «حسدكم أهل الكتاب على ما أعطاكم الله من التوفيق.»[١٧] ويؤكد هذا مفسر آخر، وهو ابن كثير سوريّ المولد والنشأة (القرن الرابع عشر

١٥. سورة آل عمران، الآية ٧١، «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ».
١٦. سورة البقرة، الآية ١٠٩.
١٧. تفسير الطبري للبقرة ١٠٩، ١: ٣٨٥.

الميلادي)، حيث يقول: «من بعد ما تبين أن محمداً رسول الله، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، فكفروا به حسداً وبغياً، إذ كان من غيرهم.»[١٨] وبطبيعة الحال، لا يبقى هذا الكلام رهين الكتب، بل يتردد عبر آليات كثيرة من الأحاديث اليومية إلى دروس المسجد وخطبة الجمعة إلى المدرسة والتلفزيون والإذاعة التي تستشهد كلها بهذه الآيات وهذه التفاسير ويعلمونها للأجيال الصاعدة على أساس أنها حقيقة مطلقة - أن اليهود والنصارى (في أي زمان ومكان، وبغض النظر عن الظروف) يودون أن يرجعوا المسلمين كفارا بدافع الحسد فقط. وما دام الله قد قال ذلك في كتابه الذي لا يأتيه الباطل، فإن كلامه سيبقى ساري المفعول عبر العصور، فيستشهد الخطباء ورجال الدين والكتب الإسلاميةُ بالاستعمار وبالحروب الصليبية وبغزو أمريكا لأفغانستان والعراق وباحتلال إسرائيل لفلسطين وبتدخل أمريكا في شؤون الشرق الأوسط كدليل على صحة تلك الآيات. وحين تسأل لماذا يفعلون ذلك؟ تأتيك الإجابة التالية: لأنهم لن يرضوا أبدًا عن العالم الإسلامي حتى يردوه كافرا. فالمنطق الإسلامي يعلّمنا أن تلك الأحداث ما هي إلا تأكيدات لصحة القرآن وصحة ما قاله في يهود ونصارى القبائل المجاورة لمحمد، وهو أمر سيسري مفعوله إلى يوم القيامة في حق كل اليهود وكل النصارى.

هذه الآيات قرآن نتلوه ويتردد على مسامعنا في البيت وفي الصلاة وفي كل شيء. تخيل أنك لو تسمع يوميا حولك أن اليهود والنصارى يخططون لتغيير دينك لأنهم يحسدونك على نعمة الإسلام. فكيف سيكون شعورك؟ وكيف ستكبر؟ كيف ستتكون شخصية طفل وهو يتصور كل يوم أن اليهود والنصارى لا شغل لهم إلا أن يحيكوا المؤامرات ضده لأنهم يريدون أن يردّوه كافرا. فأمريكا تكره الإسلام وتحيك المؤامرات له، وإسرائيل تفعل

١٨. تفسير ابن كثير للبقرة ١٠٩، ١: ٢٦٤.

الشيء نفسه. وأما العوامل السياسية عندنا فثانوية. فالعامل الأساسي هو الدين. فأمريكا لا تقوم بالتدخل لمصالحها السياسية والجيوستراتيجية فقط، بل لأنها تكره الإسلام. هذا هو ما نعتقده. وحتى لو تدخلت لصالحنا في وقت من الأوقات كما في حرب الخليج الأولى، حين حمت بلدانا إسلامية من تهور صدام حسين، أو كما في حال ليبيا حين تدخلت لتقود حلف الشمال الأطلسي لحماية الليبيين من بطش القذافي، أو حين تدخلت في البوسنة، فإن هذا سرعان ما ننساه. بل لا نعطيه أية قيمة، لأننا نعد أن أمريكا تضمر الكراهية لنا ولإسلامنا، ولا تساعدنا لسواد عيوننا أو محبة أو رأفة بنا، بل هناك مصلحة لها وراء الأمر. فهي لا تقوم بذلك لوجه الله تعالى، وبالتالي لا يشفع لها تدخلها لصالحنا أبدا، لأن الأساس الذي نعرفه هو أنها تكرهنا وستظل كذلك، لأن الله قال ذلك في القرآن. والله أصدق من أمريكا ومن سياستها الخارجية.

الآية الأخرى القريبة من الآية السابقة في المعنى موجودة في السورة نفسها، وتليها ببضع آيات فقط. تقول:

> وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ.[١٩]

والمعنى المستخلص هنا أيضا ليس من عندي، بل أعتمد في ذلك على المفسرين الذين لهم وزن ديني عند المسلمين، حيث يقول المفسر الكبير الطبري: «وليست اليهودُ يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبدا، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم.»[٢٠] فهذا ليس مجرد تاريخ يقرؤه المسلم ليتعلم منه الدروس والعبر ولا يطبقه في العصر الحاضر. لا أبدًا. إنه نص مقدس

١٩. سورة البقرة، الآية ١٢٠.
٢٠. تفسير الطبري للبقرة ١٢٠، ١: ٤١١.

يقـدم حقيقـة عـن اليهـود والنصـارى أينمـا كانـوا في الزمـان والمـكان. فهـم لـن يرضـوا عـن المسـلمين كلهـم. لـن يرضـوا عـن أي مسـلم حـتى يتبـع ملتهـم.

تأثير النصوص الدينية على النقاش والإعلام

هـذا الـكلام سـمعته شـخصيا مـرارا وتكـرارا. بـل حـتى في النقـاش حـين نناقـش الأخبـار على التلفزيـون ونعلـق على حـرب أو تصريـح أمريكـي، حيـث ينطلـق أحـد الحاضريـن ويتلـو الآيـة القرآنيـة مسـتخدما إياهـا كدليـل فيسـكت الـكل ولا يسـتطيع أحـد أن يـرد، لأن الـرد معنـاه أنـك تكـذب القرآن وتعـارض الله نفسـه. فلـو قلنـا إن إسرائيـل وعرفـات توصـلا إلى اتفـاق، ينـبري واحـد قائـلًا: سـيخرق اليهـود الاتفـاق، ولـن يسـتمروا فيـه لأن الله قـال: «ولـن تـرضى عنـك اليهـود ولا النصـارى حـتى تتبـع ملتهـم». فـلا توجـد أيـة تنـازلات يمكـن أن ترضيهـم إلا أن نتنـازل عـن ديننـا. فـلا جـدوى مـن المفاوضـات وغيرهـا. ولا يصلـح مـع إسرائيـل إلا الجهـاد. فـالله قـد صـدق في وصفـه لهـم ولأمريـكا الكافـرة. هكـذا تتـم النقاشـات وهـذا هـو المنطـق المتحكـم فيهـا.

لذلـك أضحـك مـن السـذاجة الغربيـة حـين يقـوم بعـض المحللـين بـشرح ديننا لنـا ويستشـهدون بتجربتهـم أو سـفرهم إلى مـكان مـا ويعـدّون ذلـك دليـلًا على محبـة العالـم الإسـلامي للغـرب. إذ لـم يجلـس هـؤلاء مـعي حـول المائدة ويسـمعوا والدي وهـو يناقـش عـمي ويستشـهد بهـذه الآيـة. ولـم يسـمعوا الشـيوخ حـين يجتمعـون معًـا ويناقشـون الأمـور الراهنـة، حيـث يؤكـد الواحـد منهـم وجهـة نظـر الآخـر بالآيـات القرآنيـة والأحاديـث. ولـم يكونـوا مـعي حـين كنـت في المدرسـة ثـم في الجامعـة حـين كان الطلبـة والأسـاتذة يعرضـون صـور القتـلى وصـور الأطفـال مـن حـرب أمريـكا على العـراق ومـن حـرب إسرائيـل مـع الفلسـطينيين وهـم يستشـهدون بالآيـات القرآنيـة الـتي أشرت إليهـا هنـا. فهـل يعتقـدون أن آلاف التلاميـذ لـن تتأثـر ولـن تتشـكل شـخصيتهم بهـذا الترديـد المتكـرر الممتـد عـبر العالـم الإسـلامي كلـه مـن المغـرب إلى ماليزيـا؟

يتردد صدى هذه الآية من سورة البقرة حتى في الفتاوى على الإنترنت. مثلا، جاء في مجلة البحوث الإسلامية المنشورة على الموقع الرسمي للمملكة العربية السعودية، بقلم محمد بن سعد الشويعر (وهو حاصل على الدكتوراه من جامعة الأزهر في مصر وعمل مستشارا لمفتي المملكة العربية السعودية الشيخ عبد العزيز ابن باز، وأيضا للمفتي العام الحالي عبد العزيز آل الشيخ) في تعليقه على هذه الآية: «لهذا سيظل اليهود في الدرجة الأولى، ثم النصارى جاهدين في محاربة هذا الدين، كائدين لأبنائه بسبل وغايات مختلفة ، فهم متعصبون لعقائدهم ، شديدو الحرص على جذب الناس إليها، ويبذلون في هذا السبيل أموالا وجهودا، ولا يتورعون عن سفك الدماء، وتخريب البيوت والديار؛ لتحقيق هدفهم الأسمى، وهو صد الناس عن دين الله.»[٢١] هذا شخص له وزنه. فما بالك بالذين يتبعونه!

ليس الأمر حكرا على المملكة العربية السعودية حتى لا يقول قائل إنه مذهب الوهابية. بل ينسحب حتى على المغرب المعتدل الذي يتبع المذهب المالكي، لا المذهب الحنبلي. نجد مثلا على موقعه الرسمي لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الآيات نفسها التي ذكرت هنا كلها مكتوبة في مقال تحت عنوان «مستقبل الإسلام في المغرب». ويعلق عليها الكاتب قائلًا:

> وحياتنا المعاصرة ليست سوى حلقة من ذلك الصراع الخطير بين الحق والباطل والنور والظلام، والفكرة والصنمية وإن كانت الظروف العالمية الحاضرة قد أدخلت على ميدان الصراع الفكري والحضاري عوامل جديدة وسريعة من وسائل النشر والاذاعة والتقارب الزمني والمكاني لدرجة جعلت أجزاء الكرة الأرضية أكثر التصاقا واتصالا ببعضها مما مضى.[٢٢]

٢١. مجلة البحوث الإسلامية، تحت عنوان «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى».
٢٢. مجلة دعوة الحق، «مستقبل الإسلام في المغرب».

وهكـذا يتـم تصويـر صراعنـا مـع اليهـود والنصـارى على أنـه صراع بـين الحـق والباطـل، بـين النـور والظـلام، حـتى لـو تغـيرت الظـروف والوسـائل.

النصوص الدينية حددت للمسلمين أعداءهم

هنالـك آيـة أخـرى في هـذا السـياق مـن سـورة المائـدة، سـورة مدنيـة أخـرى أتـت في مرحلـة لاحقـة مـن حيـاة محمـد حـين صـار لدى محمـد جيـش وعصابـة قويـة مـن المحاربـين. تقـول الآيـة: «لَتَجِـدَنَّ أَشَـدَّ النَّـاسِ عَـدَاوَةً لِّلَّذِيـنَ آمَنُـواْ الْيَهُـودَ وَالَّذِيـنَ أَشْرَكُـواْ».[٢٣] سـأضطر إلى تـرك بقيـة الآيـة إلى حـين لأن فيهـا نـوعا مـن التمويـه الذي سأكشـفه في مكانـه. تقـر الآيـة في شـطرها الأول بـأن اليهـود هـم أشـد النـاس عـداوة للذيـن آمنـوا (طبعـا الذيـن آمنـوا المقصـود بهـا هنـا هـم المسـلمون). ولـم يـشر القـرآن هنـا إلى بعـض اليهـود، أو اليهـود المجاوريـن لمحمـد مـن القبائـل الـتي كانـت له مشـكلات معهـا، بـل اليهـود عامـة بـأل التعريـف، أي كل اليهـود في أي عـصر وأي مـكان. وليـت هـذا كان مجـرد اسـتنتاج خطـأ مـني أو تحامـلًا مـني على النـص. فلـو كان كذلـك لارتحنـا مـن التعصـب الإسـلامي تجـاه اليهـود الذي اسـتنزفنا واسـتنزف طاقـات أجيـال منـا.

تفسـيري ليـس خطـأ، بـل إنـه تفسـير مؤصَّـل في كتـب التفاسـير الإسـلامية المعتمـدة. يقـول ابـن كثـير الفقيـه السـوري الذي تتلمـذ على يـد ابـن تيميـة أب السـلفية معلقـا على هـذه الآيـة نفسـها: «مـا ذاك إلا لأن كفـر اليهـود كفـر عنـاد وجحـود ومُباهتـةٍ للحـق وغَمْـطٍ للنـاس وتنقُّـصٍ بحَمَلَـة العلـم، ولهـذا قتلـوا كثـيراً مـن الأنبيـاء حـتى همـوا بقتـل رسـول الله (ص) غـير مـرة، وسـحروه، وألبـوا عليـه أشـباههم مـن المشركـين عليهـم لعائـن الله المتتابعـة إلى يـوم القيامـة.»[٢٤] وهكـذا يعتقـد ابـن كثـير أن الكفـر والجحـود همـا صفتـان أساسـيتان ملازمتـان مـن صفـات الجنـس اليهـودي، كانتـا فيهـم قديمًـا فقتلـوا

٢٣. سورة المائدة، الآية ٨٢.

٢٤. تفسير ابن كثير لسورة المائدة الآية ٨٢، ٣: ١٥٢.

الأنبياء قبل مجيء محمد، واستمرتا فيهم في عهد محمد، فحاولوا قتله أيضًا (وهذه إشارة إلى السم الذي يعتقد المسلمون أن فتاة يهودية في خيبر وضعته لمحمد في الشاة، أو قصة بني النضير مع الحجر الذي تخيل محمد أنهم خططوا لرميه عليه من فوق سطح أحد المنازل)، وستستمران فيهم إلى يوم القيامة، ولذلك يدعو عليهم باللعنة إلى يوم القيامة. هذه صورة نمطية لليهود موجودة في الدول الإسلامية كلها.. في إعلامها الرسمي، وفي المقررات المدرسية، وفي المواقع، وتتردد في الأحاديث اليومية، وبين رجال الدين وفي المواعظ والخطب المنبرية، فشكلت وعينا ولا وعينا، وصرنا ننظر إلى اليهودي بحذر وخوف واحتقار في الوقت نفسه، إلى درجة أنني حتى بعد أن تركت الإسلام ومضت على إيماني بالمسيح سنوات، كنت على أعصابي حينما التقيت مرة شخصا في أحد الاجتماعات عرفت أنه يهودي. أصبت بنوع من الخوف الداخلي وأنا أمد يدي للسلام عليه، نوع من الفوبيا. ولولا وعيي بأن رد فعلي هذا جاء نتيجة للتربية من الصغر ونتيجة الترسبات النفسية التي علقت بي، لما كنت قد تجاوزت تلك العقدة.

ليس هذا وليد الصدفة ولا مجرد حالة خاصة، بل هي حالة موجودة في التراث الإسلامي كله من دون استثناء. فعلى سبيل المثال، نشرت مجلة الحق التابعة لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في المغرب الآتي:

> إن الحرب الضارية بين إسرائيل والدول العربية، ليست إلا نتيجة للحقد الديني اليهودي اللئيم الموروث من الآباء والأجداد السابقين، وكدليل على ذلك نحب أن نستعرض في إيجاز مختصر موقف اليهود العدائي من الرسول الكريم، ومن الإسلام والقرآن والمسلمين منذ البعثة الشريفة إلى أن سمت يهودية خبيثة النبي العظيم في ذراع شاة.[٢٥]

٢٥. مجلة دعوة الحق، «موقف اليهود العدائي من الرسول الكريم (صلعم)».

فالصراع الإسرائيلي العربي ليس صراعا على الأرض كما يتخيله بعضهم، بل كان في نظري ـ وما زال كذلك في نظر المسلمين من خلال كتبهم وإعلامهم ـ صراعا مزمنًا بدأ منذ عهد محمد ومستمرًا إلى اليوم لأن اليهود في نظر المسلمين مجبولون ومطبوعون على العداء. فكُرْهنا لليهود عقيدة قبل أن يكون سياسة.

نأتي إلى بقية الآية التي تبدو في ظاهرها وكأنها تمدح النصارى، حيث تقول: «وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ»[٢٦] نعم، هي تمدح في ظاهرها النصارى، غير أنها في سياقها تمدح نوعا خاصا من النصارى. وفي الحقيقة، ينخدع كثيرون بهذه الآية. فقد سمعت وقرأت لمسيحيين ومسلمين يستشهدون بها في سبيل إقامة نوع من الحوار أو لادعاء أن القرآن مدح النصارى. وهذا في الحقيقة إما انخداع بالنص أو اقتطاع متعمد للنص من سياقه من دون الرجوع إلى ما قاله المفسرون المعتمدون في العالم الإسلامي عنه. فالنص يمدح النصارى الذين آمنوا بالإسلام، يعني النصارى الذين هم في طريقهم إلى اعتناق الإسلام لا النصارى الذين بقوا أو صمموا على أن يبقوا نصارى، لأن الآية التي بعدها تكمل وتقول عنهم «وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ»[٢٧] يعني أن هؤلاء النصارى إذا سمعوا القرآن تفيض أعينهم بالدموع ويعترفون بأنه الحق فيقولون آمنا به ويطلبون أن يكتبوا مع المسلمين. فكيف نقول إن هذه الآية تمدح النصارى؟ لقد كانوا نصارى وتخلوا عن إيمانهم المسيحي، لأنه لا يمكن أن ندعي أنهم جمعوا بين الاثنين بين الإسلام والمسيحية، أو بتعبير آخر أنهم كانوا كفارا ومؤمنين في الوقت نفسه.

---

٢٦. سورة المائدة، الآية ٨٢.
٢٧. سورة المائدة، الآية ٨٣.

التعميم في نظرتنا للآخر

إن إحدى آفاتنا في العالم الإسلامي هي التعميم. لم نتعلم المنطق في المدارس ولم نتعلم المغالطات المنطقية قط. وفي الحقيقة، لم أتعلم التفكير النقدي بصفة نظامية إلا لما انخرطت في جامعة غربية. وأما في مراحلي الدراسية السابقة كلها، لم يكن هناك درس اسمه التفكير النقدي. فنظامنا التعليمي مبني على الحفظ والذاكرة، لا على قوة التحليل النقدي. بل إن مدارسنا تشجع الطالب على الاستظهار منذ الصغر. وحين تمتحنه، فإنها تمتحنه في قدرته على استظهار ما خزنته ذاكرته على نحو خاص. وهذا نظام سببه الإسلام أيضا، لأن العالِم عندنا في العالَم الإسلامي هو الذي لديه قدرة على حفظ النصوص وعلى استظهارها. وليس العالِم الذي لديه قدرة على التحليل والنقد والاستنتاج العلمي والمنطقي. فالسلطة هي سلطة النص، وما عليك إلا أن تحفظ النص مثل النصوص القانونية. جعلنا هذا النمط من التعليم نتجاوز الخطوط الحمراء في مغالطاتنا المنطقية حتى صارت عادية، بل صارت هي الحجة لا العكس. ومن أشد هذه المغالطات فتكا النمطية وتعميم صفة معينة على الجنس كله. إذ كوّنّا صورة نمطية لليهود والنصارى لن تمحى من مجتمعاتنا إلا حين نعيد النظر في كل شيء بدءا من التربية التي نتلقاها في الأسرة مرورا بالمدرسة والنظام التعليمي وصولا إلى الإعلام والكتابة.

إليك هذا النص القرآني، مثلًا: «مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ».[٢٨] يعلمنا هذا النص أن الكفار من أهل الكتاب (باستثناء الذين أسلموا منهم) والمشركين الوثنيين لا يريدون الخير بالمسلمين. فهم يريدون دائما الشر لهم. وهنا أدرج قول الطبري. فرغم أنه من أوائل المفسرين إلا أنه يفسر هذا النص

٢٨. سورة البقرة، الآية ١٠٥.

بالمفهوم نفسه الذي نفهمه نحن في المغرب في القرن الحادي والعشرين، مع أنه يفصلنا عن الطبري إحدى عشر قرنا. يقول:

> وفي هذه الآية دلالة بيّنة على أن الله تبارك وتعالى نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين، والاستماع من قولهم وقبول شيء مما يأتونهم به، على وجه النصيحة لهم منهم بإطلاعه جلّ ثناؤه إياهم على ما يستبطنه لهم أهل الكتاب والمشركون من الضغن والحسد وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مستبطنون.[٢٩]

فهو يحث المسلمين على عدم الثقة بنصائح الكفار من النصارى واليهود والمشركين مهما بدت في خارجها لصالح المسلمين ،لأنها في باطنها خبث ومكر منهم. ولماذا؟ لأن الله يعلم خبايا أنفسهم ويعلم أنهم يريدون الشر بالمسلمين وإن أظهروا خلافه.

لا ينطبق هذا على اليهود والنصارى ومشركي عصر محمد فحسب، بل ينطبق على اليهود والنصارى في عصر الطبري أيضا بعد حوالي ثلاثة قرون من موت محمد. وينطبق أيضًا على اليهود والنصارى ومشركي العصر الحاضر. وللتثبّت من ذلك، ذهبت إلى أحد المواقع الإلكترونية للدكتور سَفَر الحَوَالي، وهو شيخ سعودي معاصر، حيث ألقى محاضرة عنوانها «هذا الدين». وبطبيعة الحال، ذكر العديد من الآيات ومنها الآية التي نحن بصددها. وقال بعد الاستشهاد بها: «فالآيات كثيرة جداً، ولعل المقام يطول بنا لو استطردنا فيها وفي تفسيرها، وكلها تدل على أن هذا العالم الغربي ينقم على هذه الأمة.»[٣٠] قد يرفض بعضهم هذا الربط مدعيًا أن سَفَر الحَوَالي مجرد داعية سعودي وهابي، وأنه بطبيعة الحال سيتبنى مثل

---

٢٩. تفسير الطبري لسورة البقرة الآية ١٠٥، ١: ٣٧٥.
٣٠. الدكتور سفر الحوالي، محاضرة بعنوان «هذا الدين».

تلك التفاسير. غير أن المشكلة تتمثل في أن أصحاب هذا الرأي لا يعملون مسحا شاملا للدول الإسلامية وكتبها ومدارسها ليطلعوا على حقيقة الأمر. فكلما ظهر صوت شاذ في الغرب، يقول إن هذا ليس هو الإسلام، يعطيه الإعلام حيزا كبيرا ويتناسى أو يتجاهل أنه في الحقيقة لا يمثل إلا نفسه، وأنه يبيع نسخة مجملة من الإسلام لا تعرفها الغالبية العظمى التي تشربت هذه النصوص طيلة قرون وصارت جزءا لا يتجزأ من كتبها ومن ثقافتها.

ها هو كاتب في المغرب من الجهة الأخرى للعالم الإسلامي يكتب بتفصيل أكثر في جريدة إلكترونية معتمدا على الآية نفسها التي سُقْتُها هنا. والكاتب ذوالفقار بلعويدي مسلم ملتزم كتب مقاله عن موضوع التدخل الفرنسي في دولة مالي. لنأخذ بعين الاعتبار أن فرنسا دولة محسوبة على النصرانية ومالي بلد مسلم. ويُعّدّ هذا التدخل في نظر المسلمين تأكيدا لما علّمه القرآن. قال في مقاله:

> ولقد كانت فرنسا في حربها للمسلمين كما أخبر العليم الخبير في قوله:{ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم}[٣١] فهي التي اتفقت مع الإسبان وهم من أهل الكتاب على اقتسام الصحراء المغربية سنة ١٩٠٠م، حيث أخذت فرنسا ما عرف فيما بعد بموريتانيا وأخذت إسبانيا ما عرف بالصحراء المغربية. ثم اتفقت في سنة ١٩٠٤م مع الإنكليز وهم من أهل الكتاب على أن تترك إنكلترا حرية تصرف فرنسا في المغرب، مقابل أن تترك فرنسا حرية عمل إنكلترا في مصر.[٣٢]

٣١. سورة البقرة، الآية ١٠٥.

٣٢. هسبريس، «التدخل الفرنسي في دولة مالي بين عودة المستعمر وهوان المستنصر».

ليست هذه الجريدة الإلكترونية جريدة إسلامية بل جريدة منفتحة تكتب في موضوعات شتى. ولو لم يكن القارئ مستعدًا ليقبل هذا الكلام، لما كان ليكتبه الكاتب أصلا. إنه التحليل السطحي المنتشر في العالم الإسلامي كله، سواء أتعلّق الأمر بالسعودية كبلد إسلامي متشدد أم بالمغرب كبلد إسلامي منفتح. وهذه الكراهية موجودةٌ في نصوص كثيرة. اخترت في البداية أن أركز أكثر على ما احتوى منها على نظرية المؤامرة، لأنها واحدة من الأفكار التي أصّلت لمبدأ الكراهية وجعلته جزءا لا يتجزأ من تكويننا وتفكيرنا وطريقة تحليلنا للسياسة والاقتصاد والعلاقات الخارجية وكل شيء يدور من حولنا. فالدين نظّارتنا التي نرى من خلالها العالم، ولا يستطيع أي محلل سياسي أن يتغاضى عن دور الدين في تكوين شعوبنا أو يتجاهل تأثيره في نظرتنا إلى لعالم وعلاقتنا بالآخر.

تأثير النصوص على نظرتنا للأمريكيين

أتذكر يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ كنت في منزل أحد أصدقائي الأمريكيين الذي كان يعيش في الدار البيضاء مع عائلته. كنت عندهم ضيفا ذلك اليوم، كنا نتحدث في أمور كثيرة فوصلته مكالمة بالبيت تخبره عن الأحداث، ففتحنا التلفزيون لنشاهد الأخبار. كان وقعها عليه أكثر من وقعها عليّ. كان ينظر إلي بعينين متسائلتين، كنا لم نعرف بعد أن هناك طائرة ثانية قد ارتطمت بالبرج الجنوبي. قلت له من دون أدنى تفكير: «لا أعتقد أنها حادثة. أعتقد أنها عمل مدبر من إرهابيين مسلمين.» حاولنا تتبع الأخبار من الإنترنت، لأن محطات التلفزيون المحلية لم تعطنا تفاصيل أكثر. وبعد مدة من ارتطام الطائرة الثانية تأكدت تكهناتي. قال لي صديقي والخوف في عينيه: «ما الذي عليّ أن أفعله؟ هل يمكنني أن أخرج اليوم أم عليّ أن ألزم البيت؟ هل تعتقد أني سأكون في مأمن؟» قلت له وأنا أخفف عنه حدة الصدمة: «لا أعتقد أنك ستكون في خطر. أنت في واحد من

أكثر البلدان أمانا حاليا.» لم أقل كلامي لأني أضمن تصرفات الناس تجاه أمريكي كافر، لكني قلتها لأني أعلم القبضة الأمنية الحديدية الموجودة في المغرب. فلا أحد يستطيع أن يتحرك. فالشرطة والأجهزة الأمنية تتحكم في زمام الأمور، وهم لا يريدون أية مشكلات مع أمريكا. وإذا فُقد الأمن في المغرب، فلن أضمن حياة صديقي. بل لن أضمن حياتي أنا شخصيا. فالعداء موجود ضد الآخر، وسيظهر كلما سمحت له الفرصة بذلك.

ما حصل في ليبيا يؤكد كلامي. رغم أن أمريكا هي التي ساعدت الليبيين في التخلص من ديكتاتورهم، لكن أول الأجانب الذين تم قتلهم في ليبيا كانوا أمريكيين، حيث قُتل أربعة أشخاص بينهم السفير الأمريكي كريستوفر ستيفنز. وقد أوردت الديلي ميل أن ستيفنز بعث قبل وفاته يقول إن حراسة السفارة الأمريكية في بنغازي في خطر بسبب قيام تهديد مجموعة الحراسة الليبية بالانسحاب من حراسة السفارة بسبب سياسة الولايات المتحدة الأمريكية. ورغم أن الرئيس الأمريكي نسب القتل في بداية الأمر إلى الاحتجاجات على فيلم مسيء لمحمد، إلا أنه تم التحقق لاحقا من أن الأمر لم تكن له علاقة بتلك الاحتجاجات. بل كان مخططا له مسبقا. وقد أشارت أصابع الاتهام إلى مجموعة أنصار الشريعة وتورط عناصر إسلامية في هذا الهجوم منهم أحمد أبو ختالة الليبي الذي تم القبض عليه في يونيو ٢٠١٤. وحتى لو كان بسبب الاحتجاجات على الفيلم المسيء، كيف يتم تناسي معروف الولايات المتحدة بهذه السرعة ولومها على فيلم لم تقم أصلا بإنتاجه كدولة، بل فعله أحد مواطنيها من دون موافقة أو إذن من الدولة نفسها؟ قام بصنع الفيلم شخص هامشي غير معروف. ومع ذلك، تم إلقاء المسؤولية على أمريكا كلها. وحصل هجوم آخر في الوقت نفسه على السفارة الأمريكية في القاهرة أيضا، لكن لم يسفر عن قتلى بسبب وجود الجيش ووجود حماية أمنية. فكيف يهجمون على السفارة الأمريكية، وأمريكا ليست هي المنتجة للفيلم؟ وهل خرج

أي من الشيوخ أو أي من الإعلاميين يوضح أنه لا ينبغي أن نلوم أمريكا كدولة على فعل فرد من أفرادها؟ طبعا لا. فالشعب جاهز للتعميم لأن لدينا صورة نمطية مسبقة مطبوعة في أذهاننا، سواء أتعلّق الأمر بليبيا أم بمصر أم بدول إسلامية أخرى.

لم يكن السفير الأمريكي هو الوحيد الذي تم قتله بمعية رفاقه في السفارة، بل قُتِل أمريكي آخر اسمه روني سميث في ديسمبر ٢٠١٣. كان روني معلما في ليبيا وكان يحب الشعب الليبي. كنت أتابع تعليقات الناس على تويتر تتعلق بمقتله، فرأيت بعض التعليقات من المسلمين تقول إنه لم يكن يعلّم الليبيين حبا فيهم، بل كان مبشرا مرسلا من كنيسته في تكساس. فبرّروا قتله بالقول إنه يستحق ذلك لأنه يقوم بتنصير المسلمين متظاهرًا بأنه يقوم بتعليمهم. تم قتل روني سميث غدرا وهو يقوم بالرياضة في «الفويهات» أحد أحياء بنغازي. ترك روني طفلا صغيرا وأرملة تدعى أنيتا سميث طلعت على وسائل الإعلام العربية وقالت باللغة العربية: «أنا أريد أن يعرف الشعب الليبي أنني أحبكم، وأنا أفتقدكم جدا. والناس الذين قتلوا زوجي أنا أسامحكم بغفران المسيح لأن سيدنا المسيح علمنا أن نحب كل الناس حتى أعداءنا.»[٣٣] قالت ذلك وهي تقاوم الدموع وتبتلع غصتها. هنالك فرق كبير بين ما تعلمته أنيتا في صغرها وجعلها تتغلب على غضبها وتغفر للناس حتى لو كانوا قتلة زوجها ومُيَتِّمي طفلها، في حين أن ما تعلمناه نحن في بلداننا منذ الصغر أن الغرب الصليبي حتى لو ساعدنا فهو يكرهنا في داخله. فكبرنا مسمّمين بأفكار تجعلنا غير قابلين لتقبُّل الآخر، مفترضين دائما أن دوافعه شريرة حتى لو كانت طيبة، ولم نعد قادرين على الغفران أو المسامحة حتى وإن أخطأ في حقنا. لم يأت الذين التحقوا بداعش من بلدان إسلامية مختلفة من الفضاء، بل

٣٣. العربية نت، «أرملة مدرّس أميركي لقاتليه في ليبيا: أحبكم وأسامحكم».

تعرضوا للأفكار نفسها وللغسيل نفسه الذي تعرضت له أنا والملايين مثلي منذ الصغر. غير أن الفرق هو أنني قررت أن أتخلص من تلك الأفكار وقاومتها في حين أن آخرين استسلموا لها وصدقوا أنها الحقيقة المطلقة.



-2-

كراهية تتحول إلى عداوة دائمة: عداؤنا الأبدي لليهود والنصارى

تأثير نظرية المؤامرة على المسلمين

نظرية المؤامرة موجودة في البلدان كلها، لكنها تعشش في دمائنا في العالم الإسلامي، بحيث لا يكاد شيء يخلو منها، حتى إني صرت أداعب بعض أصدقائي وأقول لهم: لن أتعجب إذا استيقظ أحد المسلمين في يوم من الأيام ووجد كرسي الحمام مكسورا فألقى باللوم على إسرائيل وأمريكا. فقد صار الأمر خارج حدود المعقول. فالناس تشكك في كل شيء. وليس هذا الشك قائمًا على انعدام الثقة بأمريكا وإسرائيل وسياستيهما، بل يرجع إلى نتيجة الثقافة التي تربينا فيها. فالغرب كله بالنسبة لنا حاقد علينا. ونحن لا نجعل الاستعمار وتدخلات أمريكا سببا بل حجة تؤكد صحة ثقافتنا. يقول لي بعض أصدقائي المسلمين: ألا ترى ما تفعله إسرائيل بالفلسطينيين؟ ألا تشجب الاحتلال وقتل الأبرياء؟ حينها أبادره بالسؤال الذي يصيبه في مقتل: هل نشأ كُرهنا لليهود بعد

تأسيس دولة إسرائيل أم قبله؟ هل بدأنا نكره اليهود بعد سنة ١٩٤٨؟ وبطبيعة الحال، لا يستطيع أي عاقل أن يدعي ذلك. فكُتُبنا تشهد علينا بأننا تعلَّمنا كره اليهود من أمهات الكتب قبل أن يكون هناك شيء اسمه دولة إسرائيل. فالعدواة موجودة أصلًا، لكننا نستخدم فلسطين لتغذية تلك العداوة ولتكريسها أكثر أو لتبريرها. فالشعوب الإسلامية كلها تجمع على عداوة اليهود.

ما الذي يجمع المغربي بالفلسطيني؟ هل السبب هو الاحتلال؟ لدينا في المغرب مدينتان محتلتان، وهما سبتة ومليلية في شمال المغرب، لكننا لا نكره الإسبان كما نكره اليهود، ولا نبرر عمليات التفجير في سبتة ومليلية، ولم أر أية دولة إسلامية خرجت في مظاهرات للتنديد بالاحتلال الإسباني لسبتة ومليلية. لماذا؟ لأن عداوة اليهود مكرسة أكثر في كتبنا من أي شعب آخر، كجنس لا كدولة، كعرق لا كسياسة. فنحن كبرنا على الاعتقاد بأن اليهودي، أي يهودي، غدار مخادع! إذ ننسب طبع الغدر إلى اليهود كلهم. نقول في أمثلتنا الشعبية في المغرب: «كل عند اليهودي ولا تبت عنده، ولا تأكل عند النصراني وبت عنده.» والقصد أن أكل اليهودي حلال عندنا، لأن الإسلام يتفق مع اليهودية على تحريم أكل لحم الخنزير مثلا وتحريم الدم، ولكن المسيحي لا يحرم ذلك. ولذلك ينبغي أن نثق بأكل اليهودي ولا نثق بأكل المسيحي لأنه قد يستخدم تلك المحرمات في إعداد الأكل. لكن في مسألة المبيت، فإننا نفضل المسيحي، لأنه لن يغدر بنا فيقتلنا في الليل. وأما اليهودي، فالغدر وارد ومتوقع منه. لقد خلق فينا الإسلام ثقافة عدائية لكل ما هو مسيحي ولكل ما هو يهودي بشكلٍ أقوى. بل نهانا الإسلام عن اتخاذ أصدقاء من اليهود أو النصارى. وبطبيعة الحال، يتجاوز بعض المسلمين هذه النصوص ويتخذون أصدقاء يهودًا ومسيحيين، لكن هذا يعني فقط أنهم غلبوا مصالحهم أو إنسانيتهم على ثقافتهم واختاروا التخلص منها شعوريا أو لا شعوريا. وأما الحقيقة المرة

فهي أن هناك كثيرين بقوا تحت تأثير ثقافة العداء ولم يستطيعوا تجاوزها. وستطفو على السطح حين تسمح الظروف بذلك، وستترجم تلك العداوة إلى فعل حقيقي على أرض الواقع حين تكون الفرصة مواتية. لقد تم تجهيز الأرض وتجهيز أجيال كاملة لكي تتبع كل من يقودها لتنفيذ ما تقتضيه العداوة من قتل وتدمير للآخر.

النصوص نهتنا عن صداقة اليهود والنصارى

أبدأ ببعض النصوص التي لا غبار عليها، والتي تشكل ركنا أساسيا في العداء لليهود والنصارى. يقول القرآن في سورة المائدة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»[١] تشكل هذه الآية فقرة مهمة من العمود الفقري لعقيدة اسمها الولاء والبراء. فهي تنهى المسلمين عن اتخاذ اليهود والنصارى أصدقاء، ومن يفعل ذلك فإنه صار يهوديا ونصرانيا، وهو أقبح ما يمكن أن يتصوره المسلم. كان هذا المفهوم سائدًا منذ العصر الأول للإسلام، وقد عكسه الطبري في شرحه لهذه الآية حيث قال:

> إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين جميعا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارا وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله، وأخبر أنه من اتخذهم نصيرا وحليفا ووليا من دون الله ورسوله والمؤمنين، فإنَّه منهم في التحزّب على الله وعلى رسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريئان.[٢]

ولم يختلف عنه كثيرا تفسير ابن كثير الذي تفصله عن تفسير الطبري حوالي خمسة قرون، حيث أكد هو الآخر الفهم نفسه لهذا النص فقال:

---

١. سورة المائدة، الآية ٥١.

٢. تفسير الطبري ٦: ١٨٠، لسورة المائدة الآية ٥١.

> ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله قاتلهم الله ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك، فقال {وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} الآية.[٣]

فاليهود والنصارى، بحسب هذه الآية وبحسب فهم المفسرين المعتمدين من المسلمين، أصدقاء وحلفاء بينهم منذ عهد محمد إلى يوم القيامة.[٤] كلهم متفقون فيما بينهم يساند بعضهم بعضًا ومتحدون ضد المسلمين. وما أمريكا وإسرائيل إلا تأكيد لهذا الاعتقاد. فلا ينبغي لنا كأفراد مسلمين أن نتخذ النصارى واليهود أصدقاء ولا أن نفضلهم على المسلمين. ولا ينبغي لنا كدول أن نفعل ذلك، ولذلك تتهم الجماعات الإسلامية كلها الحكومات العربية بالعمالة للغرب لأنها تراخت في تطبيق هذا المبدأ، في حين أن الشيوخ الذين يدافعون عن موقف الحكومات يقولون إن هذه السياسة هي من باب المصلحة فقط. ويعني هذا في التحليل الأخير أنها ليست صداقة حقيقية نابعة من القلب، بل صداقة مزيفة مبنية على المصالح. وأما العداء فموجود في القلب، لأن العداوة لا ينبغي بالضرورة أن تظهر في الخارج، بل يكفي الاعتقاد بها في القلب. أما في الخارج، فيتم الإفصاح عنها وتطبيقها فقط حين تكون الظروف مواتية ولا تكون مصالح المسلمين مهددة.

كانت والدتي حين تود أن تسبني أو تسب أي شخص أساء لها تصفه بأنه يهودي أو نصراني. صار هذان المصطلحان في التراث الشعبي المغربي (وبقية العالم الإسلامي) بمنزلة مسبات وشتائم. بل إننا حين نتبادل الأحاديث، ونسرد القصص، ويأتي ذكر اليهودي في معرض الحديث، علينا الاعتذار عن ذلك وكأنك تقول كلمة قبيحة، فنقول: «كان هناك يهودي. «حاشاك!»

---

٣. تفسير ابن كثير٣: ١٢٣، لسورة المائدة الآية ٥١.

٤. مع العلم أن هذا الأمر غير صحيح، فالتاريخ يثبت أن المسيحيين واليهود دخلوا في صراعات كثيرة، بدأت منذ اضطهاد اليهود للمسيحيين في العصر الأول للمسيحية، واستمرت حتى اضطهاد المسيحيين لليهود في أوروبا.

ويدل هذا على أن كلمة يهودي لا تليق بالمقام. من المستحيل أن يكون هذا العداء وليد صدفة أو جاء بمعزل عن الدين. فالدين هو الذي طغى على تفاصيل حياتنا وولّد لدينا هذا العداء المستديم لكل من هو غير مسلم، ولليهود وأصدقائهم النصارى بشكل خاص.

ليتخيل القارئ لو قلبت الآية ونشرتها في صحيفة غربية: «يا أيها المسيحيون لا تتخذوا السنة ولا الشيعة أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين.» لو قلت هذا الكلام لاتُّهِمتُ بالعنصرية والإسلاموفوبيا وتمت محاكمتي بسبب هذه العبارة، بينما يقرؤها المسلمون في القرآن ويرددونها على مسامع المسيحيين في كل العالم في العراق ومصر وفي البلدان الغربية، ويعدّونها حقا إلهيا، ولا يجرؤ أحد حتى على انتقاد هذه الآية لأنه سيحاكم إن كان في بلد عربي، أو سيُعَدّ معاديًا للمسلمين وكارها لهم إذا كان في بلد غربي. إن اللباقة السياسية ستقتل الناس وحسهم النقدي لهذا الفكر الذي ينشر ثقافة الكراهية بين الناس وينتهج أسلوب التعميم والنمطية.

النصوص علمتنا كره اليهود والنصارى ولعنهم

أحيانا يجد النص القرآني سببا للعن اليهود والنصارى، حيث يقول: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ».[٥] ويعني تعبير «قاتلهم الله» لعنهم الله. فالقرآن يلعن اليهود جميعًا والنصارى جميعًا في كل زمان ومكان بسبب معتقداتهم (بغض النظر عما إذا كان القرآن قد أصاب في تلخيصه لهذه المعتقدات أم لا). تخيل لو كان الوضع مقلوبًا، وكتبت مثلا: «وقال المسلمون السُّنة محمد رسول الله

٥. سورة التوبة، الآية ٣٠.

وقال الشيعة علي ولي الله...لعنهم الله أنى يؤفكون»، ثم صار هذا الكلام عبارة عن قراءات يتعبد بها المسيحيون داخل الكنائس أو اليهود داخل اجتماعاتهم. فهل كان هذا سيمر مرور الكرام؟ نرى المساجد اليوم تنتشر في أوروبا وأمريكا وآسيا بتمويل سعودي وتتلو على الملأ خطابات وآيات مثل هذه على أساس أنها أقوال إلهية يُلعن فيها اليهود والنصارى علنا، ومع ذلك يتهم الغرب بالإسلاموفوبيا ولا يُتهم المسلمون بالعنصرية في ترديدهم لآيات أقل ما يقال عنها إنها عنصرية لأنها تلعن الناس بناء على معتقداتهم. ولكم أن تتخيلوا المسيحيين في مصر مثلا، الطفل الصغير الذي يسمع ليل نهار آيات تلعنه بمكبرات الصوت ولا يستطيع أن يفتح فاه أو يقول كلمة واحدة وإلا حوكم بتهمة ازدراء الإسلام. وينطبق الشيء نفسه على وضع المسيحيين في العراق والأردن، عليهم أن يسمعوا الإهانة ويقبلوها، وعليهم أن يقولوا أمام وسائل الإعلام: إننا نعيش في ود ووئام مع إخوتنا المسلمين. يقولون ذلك وهم يبتلعون غصة الإهانات التي يسمعونها علنا من دون أن يستطيعوا الرد. والطامة الكبرى هي أن هذه النصوص تدرَّس في بعض البلدان للمسلم والمسيحي على السواء، وعلى الطفل المسيحي أن يحفظها عن ظهر قلب حتى لو كانت تلعنه وتلعن إيمانه. تخيلوا طفلا مسلما يتلو هذه الآية على طفل مسيحي ويهينه بها، والآخر يبكي لا يعلم كيف يرد، ولا يستطيع والده أن يحتج لأنها نصوص إلهية مقدسة عند المسلم وإلا سيتم تحويله إلى المحاكمة.

ينهى القرآن صراحة عن اتخاذ الكفار أصدقاء، ولذلك يصعب على المسلم الذي يود أن يطبق دينه أن يندمج في المجتمعات الغربية، لأن نصوصه لا تشجعه على الاندماج. بل تحرضه على عدم الاندماج، وتشجعه على كراهية الكفار وبغضهم في الله. فلبُّ عقيدة الولاء والبراء هو أن تتبرأ من الكفار وتُوالي المسلمين، أو كما عرَّفَها مفتي السعودية السابق ابن باز: «معناه

محبة المؤمنين وموالاتهم، وبغض الكافرين ومعاداتهم.»[٦] وفي موقع آخر، يقول الشيخ السعودي المشهور محمد بن صالح العثيمين: «فالكافر عدو لله ولرسوله وللمؤمنين، ويجب علينا أن نكرهه من كل قلوبنا.»[٧] ويشمل هذا كل كافر كيفما كان. والكافر هو كل غير مسلم. فالإسلام يأمر المليار ونصف المليار مسلم (إن أرادوا فعلا التمسك بالدين) بأن يعادوا خمسة مليار ونصف المليار الآخرين، وأن يتخذوا المسلمين فقط أصدقاء لهم، حتى لو كان هؤلاء الكفار من الأقرباء ومن العائلة. تقول الآية في سورة التوبة (وهي من أواخر القرآن الذي أتى به محمد بعدما تكونت الدولة الإسلامية): «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».[٨] بل إن بعض الآيات جاءت بمناسبة تشجيع المسلمين على مواجهة أقربائهم في الحرب إن كانوا كفارا: «لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ».[٩] فهذه الآية جاءت حين واجه أصحاب محمد عائلاتهم بالسيف وقتلوا أفرادا من أقرب المقربين إليهم. يقول ابن كثير واحد من أكبر المفسرين المعتمدين في العالم الإسلامي:

> {وَلَوْ كَانُواْ آبَآءَهُمْ} نزلت في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر {أَوْ أَبْنَآءَهُمْ} في الصديق [يقصد أبا بكر] همَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن {أَوْ إِخْوَانَهُمْ} في مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ {أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} في عمر قتل قريباً له يومئذ أيضاً، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ.[١٠]

٦. موقع الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، معنى الولاء والبراء.
٧. موقع طريق الإسلام، «ماهو الولاء والبراء؟».
٨. سورة التوبة، الآية ٢٣.
٩. سورة المجادلة، الآية ٢٢.
١٠. تفسير ابن كثير ٨: ٨٦، لسورة المجادلة، الآية ٢٢.

فإذا كان المسلمون الأوائل قد واجهوا أفرادا من عائلاتهم وقتلوهم لأنهم كانوا كفارًا، فلا غرابة أن تتكون لدينا عداوة كبيرة للكافر كيفما كان. فالقرآن يعطيني الحق في كره أقرب المقربين لي، لأنه لا يمكن تفضيل القرابة الدموية على الأخوة الإيمانية. فالأخوة الإسلامية أقوى من أية قرابة. ولا يسمح هذا التفكير بأية روابط أخرى تعلو على الدين، لا روابط العائلة ولا روابط الوطن. فالرابطة المهيمنة هي رابطة الإيمان، لأنها التي تحكم باقي الروابط. ولا مانع في الإسلام من الإحسان لوالديك إن كانوا كفارا، والإحسان للمسيحي والكافر، لكن هذا لا يعني حبه في القلب، بل ينبغي كرهه وبغضه في الله. وبهذه المناسبة هناك حديث قاله محمد يقول: «إن أوسط عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله.»[١١] فالإيمان الحقيقي يتضمن أن نحب المسلمين في الله، ونبغض الكفار في الله، وإلا فلن نكون مسلمين حقيقيين.

بطبيعة الحال هناك استثناء لهذه القاعدة. فحين نكون مهزومين ومستضعفين ونريد أن نكسب تعاطف الناس، فإنه يمكننا أن نتظاهر بالمحبة للكافر، ولكن علينا أن نبطن البغضاء في دواخلنا. وهذا مبدأ قرآني، من بين الآيات التي تؤكده، قوله «لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً».[١٢] ومن هذه الآية نبع مصطلح التقية، إلا أن بعضهم يعتقد أن التقية هي مبدأ يتبعه الشيعة أكثر من السُّنة، لكنه في الحقيقة مبدأ متأصل في القرآن بغض النظر عن الفرقة التي تبنته أكثر نتيجة الاضطهاد الذي حصل لها. فالسُّنة لم يكونوا بحاجة إليه نظرا لكونهم الأغلبية دائما. أما الشيعة، فقد احتاجوا إلى هذا المبدأ القرآني نظرا لكونهم الأقلية، فاشتهروا به أكثر من السنة. فها هو الطبري المفسر السني المذهب من

١١. مسند أحمد ٥: ٣٦٢.
١٢. سورة آل عمران، الآية ٢٨.

القرن الثالث والرابع الهجري يقول: «إلا أن تتقوا منهم تقاة، إلا أن تكونوا في سلطانهم، فتخافوهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتضمروا لهم العداوة.»[١٣] وقد صّرح لي بعض الأصدقاء المسلمين أنهم يطبقون هذا المبدأ في حياتهم في الغرب، حيث يضحكون في وجوه الآخرين ثم يلعنونهم في داخلهم أو في غرفهم المغلقة، حفاظا على مصالحهم وحفاظا على وضعهم الاجتماعي. هذا التعليم خطر جدا لأنه يجعل المسلم منفصلا عن المجتمع كارها له، متظاهرا بالاندماج فيه في حين أنه يضمر شيئا آخر. وبطبيعة الحال، ولحسن الحظ، ليس المسلمون كلهم ملتزمين بتطبيق دينهم، وإلا صار الأمر كارثة حقيقية في المجتمعات كلها التي يوجد فيها مسلمون. فكون هذه العقيدة موجودة في الكتب لا يعني بالضرورة تبنّي كل مسلم لها. ولكنها موجودة، وحين ينتبه المسلم ويريد أن يتوب ويتبنى الدين على أصوله، سيكون مضطرا إلى تبني هذا المبدأ الخطير في كراهية كل من هو غير مسلم، وبشكل خاص اليهود والنصارى.

هذه العداوة عداوة دائمة لأنها صارت عداوة مقدسة، منبعها النص، لا عداوة زائلة بزوال الظروف. لقد تشكلت هويتي على أساس أني مسلم، وبالتالي أنا أفضل من غير المسلمين، وعلينا كمسلمين أن نحب المسلمين دون غيرهم، وندعو في دعائنا للمسلمين فقط، بل ندعو على الكافرين ونفرح حين تصيبهم الكوارث. ونحن نعُدّ الأعاصير التي تصيب أمريكا عقابا من الله لأمريكا ونفرح بها، ونفرح بالزلازل التي تصيب الغرب «الكافر»، لأنها في نظرنا عقاب يستحقونه على ما يقومون به ضد المسلمين، وأن الله ينتقم لنا ويصيبهم بالأوبئة والأمراض والزلازل والأعاصير. وحين تصيبنا المصائب نفسها، نعدّها ابتلاء من الله وامتحانا، وأحيانا عقابا من الله لأننا لم نتشبث بالإسلام أكثر ولم نطبقه بالحرف كما نزل. بل شاع

١٣. تفسير الطبري ٣: ١٥٤، لسورة آل عمران، الآية ٢٨.

عندنا المنكر والشر وانحلال الأخلاق، ولو تبنا وتمسكنا بالإسلام كما يجب، سوف يرفع الله عنا تلك الابتلاءات.

الإرهابيون تأثروا بالنصوص

تشرّب الإرهابيون الذين يلتحقون بالدولة الإسلامية اليوم هذه العقائد منذ الطفولة، وساهم في غرسها نظام تعليمي متأسلم فيه خليط من المواد الغربية وجرعة زائدة من المواد الإسلامية. وبسبب أموال السعودية التي أغرقت بها الدول العربية والإسلامية، فإن الكتب الإسلامية غزت المعارض حتى صارت أكثر المبيعات في المعارض التي تقام في القاهرة والدار البيضاء وبيروت والرياض. وموضوعاتها متكررة أحيانا كثيرة، ولا بد أن تحتوي على مواد تتعلق بالكفر والإيمان، والعلاقة بين الكافر والمسلم. فانسلخ الشباب المسلم عن المجتمع وصار يعيش نوعا من اليوتوبيا الإسلامية. وكل من أراد من الشباب المسلم في أوروبا وأمريكا التدين، سيجد نفسه جغرافيًا في أوروبا وأمريكا، ولكنه في الحقيقة يعيش تاريخيًا في القرن السابع الميلادي، يعيش حربا بين الرسول والكفار ويعيش حربا بين الكفر والإيمان. ربما وُلد كثيرون منهم على أراض غربية، لكن عقولهم صناعة إسلامية، محشوة بعقيدة الولاء والبراء، بالحب في الله للمسلمين والبغض في الله للكافرين، ومحشوة أيضا بضرورة التبرؤ من الكفار ومن أعيادهم ومن عاداتهم وتقاليدهم لأنها كفرية وضد الإيمان الإسلامي.

ما الذي يدفع شابا من لندن إلى ترك بريطانيا ليلتحق بالمجاهدين في الرقة؟ من الذي أقنعه بأن هذا القرار جيد، وأن منافعه أكثر من مساوئه؟ لا يوجد أي تفسير منطقي إلا كون هذا الشخص قد اقتنع بأن الانضمام إلى المؤمنين في حربهم ضد الكفار هو القرار الصائب في الحياة، وأن المعركة الأزلية هي بين الكفر والإيمان، وأن هناك عداوة أزلية قائمة بين معسكر الرسول والمسلمين من جهة، ومعسكر الكفار من النصارى واليهود والمشركين

من جهة أخرى. فهو يعيش هذا الفكر منذ مدة. وقد تغلغل في كيانه وتشرّبه وصار يشكل هويته وقضيته. وحين يتحول الأمر إلى قضية، من الصعب أن تثني الشخص عنه. ويقوم كثيرون من الآباء المسلمين عن حسن نية بإشباع أبنائهم بجرعات من الإسلام نظرا لكونهم يعيشون في الغرب. فهم يعتقدون أنهم بذلك يحافظون على هويتهم في أبنائهم، لكنهم يفاجؤون بأنهم كوّنوا إرهابيين تركوهم والتحقوا بالدولة الإسلامية. ويشبه الأمر تماما ما حصل لأحمد المثنى (يمنيّ الأصل) الذي فوجئ بأن ابنه ناصر المثنى البالغ من العمر ٢٠ سنة، والذي كان في بداية دراسته في كلية الطب، قد ترك الدراسة فجأة، وظهر في مقطع فيديو مع الدولة الإسلامية يدعو الشباب إلى الالتحاق بصفوفها. ليس هذا فحسب، بل أخذ معه أخاه الأصغر، «أصيلًا». ومن بين الكلام الذي قاله الأب: «إن ناصرًا كان قد ترعرع في بلده بريطانيا وأحبها واحترمها.» ومع احترامي لمشاعر الأب المدمرة، لكني أعتقد أنه أساء التقدير. فمن المؤكد أن ناصرًا لم يحب بريطانيا ولم يحترمها، وإلا لماذا ذهب ليحارب في صفوف أعدائها؟ إنه الولاء للإسلام والمسلمين والوقوف معهم ضد الكفار حتى لو كانوا أقرباء. قال أحمد مثنى: «إن ابنه ناصر تعرض لـ«غسيل دماغ» منذ أن بدأ التنقل بين مساجد مختلفة في بريطانيا.»[١٤] قد يكون ابنه تعرض لجرعة زائدة من العقائد طيلة فترة معينة بسبب تردده إلى المساجد، لكن من المؤكد أنه تلقى بذرة معينة قبل ذلك ساعدت في سهولة تلقي المعلومة وتبنّيها من دون مناقشتها وغربلتها وانتقادها.

---

١٤. موقع العربية نت، «والد أحد مقاتلي «داعش» يصف ابنه بالـ«شيطان»».

النصوص مزقتنا بين كرهنا للغرب وحب حضارته

هنا أستحضر أنا نفسي ابن خالتي الذي كنت صديقا مقربا منه وكان يعلم بانتقادي للإسلام قبل مغادرته للمغرب. ذهب إلى بلجيكا واستقر هناك فترة لا بأس بها. لم يكن متشددا ولا متعصبا للإسلام، بل كان منفتحا بشكل كبير حتى إن أقرب أصدقائه هم بلجيكيون ساعدوه في الحصول على فيزا ثم في الاستقرار في بروكسيل. وتزوج بفتاة غير مسلمة، لكن تدريجيا صار أكثر تشددا، وصار يعلم أولاده الإسلام أكثر، ويصر على انتقاد الغرب الكافر، وبلجيكا العنصرية في نظره، ويستمع إلى الأشرطة التي يصدرها شيوخ السعودية. وحين أردت زيارته مؤخرا، رفض مقابلتي لأني أنتقد الإسلام. وقال حرفيًا إنه لا يريد أن يراني ولا يريدني أن أحضر حتى جنازته. وبرر ذلك قائلًا بأنه يمكن أن يتساهل في كل شيء إلا في أن يهان نبيه ودينه (بسبب انتقادي للإسلام علانية على التلفزيون وفي الإنترنت). فالدين صار هو هويته الأساسية. صار أهم من أن يهان هو شخصيا، وهذا أمر مفهوم إذا عرفنا أن أغلب الشباب حين يغادرون بلدانهم الأصلية يجدون أنفسهم أقل اندماجا بسبب اللغة وبسبب الصعوبات الثقافية فيشعرون بفقدان الهوية، فيلجؤون إلى التدين حفاظا على الهوية فيعزلهم الدين أكثر عن محيطهم. ولا غرابة حينها أن تظهر الكراهية التي زرعت على مر السنين.وتبدأ في إعطاء أُكُلها.

يهرب أغلب الشباب من الدول الإسلامية ملتحقا بالدول الغربية لأنها تعطي فرصا أكثر، لكنه يريد أن يجعلها لاحقا مثل البلدان الإسلامية التي هرب منها، وكأنه يعتقد أن البلدان الغربية وصلت إلى تلك الرفاهية التكنولوجية والاقتصادية والسياسية بمعزل عن حريتها. وهو يريد أن يجعلها مسلمة غير مدرك أن مجرد إرجاعها إسلامية سيعني فقدان تلك الامتيازات كلها لأنه لا حرية في الإسلام، ولا تقدُّم من دون حرية. يذكّرني

هذا بما اقتبسه أحد أصدقائي على تويتر: «لو خيروا العرب بين دولتين: علمانية ودينية، لصوّتوا للدولة الدينية وذهبوا للعيش في الدولة العلمانية»[١٥] لأن الدولة العلمانية تحفظ حقوقهم أكثر من الدولة الدينية التي يشتاقون إليها. وبالتالي، تجدنا نحن الذين كبرنا في الإسلام نريد خيرات الغرب، وأموال الغرب، وتكنولوجيا الغرب، ولكننا نلعن هذا الغرب ونلعن أخلاقه ونلعن عري بناته، ونتهمه بالانحلال والتفسخ.

إنه نوع من الازدواجية، حيث نعلم أننا لا نستطيع العيش من دون الكافر، لكننا نكرهه. نعلم أن منتوجاتنا كلها المتداولة في العالم الإسلامي تأتي من الغرب الكافر غير الإسلامي، ونأخذها منه من دون تعليق، لكن نشتمه ونسبّه علنا ونوصي أبناءنا بأن لا ينجرفوا وراء هذا الغزو الثقافي الذي يصدره لنا هذا الغرب الكافر. صرنا نعيش نوعا من الشيزوفرينيا، نوعا من حب حضارة الكافر وتقدمه، ممزوجة ببغضه وبغض مبادئه. لأننا نعُدّ الإسلام أسمى من مبادئ الغرب الكافر، أسمى من حريتهم، أسمى من ديموقراطيتهم، أسمى من دساتيرهم. علمونا أن شريعة قطع اليد إلهية، وشريعة الرجم إلهية، وشريعة الجلد إلهية، وأن النظم الغربية هي التي شوهت قوانيننا، كما في المغرب الذي يتبنى خليطا هجينا بين الإسلام والقانون الفرنسي. فنظام الأسرة ونظام الإرث إسلامي، لكن مواد كثيرة في نظام العقوبات في القانون الجنائي فرنسية، وبالتالي نرى أن الغرب هو من أفسد قوانيننا، وأن تطبيق الشريعة الإسلامية حرفيًا مسألة وقت، فنتخلص من مبادئ الغرب وقوانينه. وما زالت الدول الإسلامية تعيش حتى الآن في هذا التناقض، حيث تعلّم أبناءها أن الشريعة الإسلامية ونظام الحدود أسمى القوانين لأنه قانون إلهي، لكنها في الوقت نفسه لا تتبناه على أرض الواقع، فتخلق لدى الشاب المسلم نوعا من الصراع الداخلي. ولذلك

١٥. المقولة تعود للكاتب العراقي الدكتور علي الوردي (١٩١٣ ـ ١٩٩٥).

صار الشباب يشتاق إلى الالتحاق بالجماعات الإسلامية لأنها تعده بتطبيق الشريعة المغيَّبة. ولذا لا ينبغي أن نستغرب حين نجد الكثير من الشباب من الدول العربية يلتحق بالدولة الإسلامية، سواء من المغرب أو تونس أو الأردن أو مصر أو السعودية. والسبب في ذلك هو أننا شحنّاهم بقصص الدولة الإسلامية المثالية التي يحكم فيها الإسلام، ثم حرمناهم منها على أرض الواقع، فخلقنا بهذا فراغا ملأته تلك الجماعات وأعطتهم وعودا براقة ببلد إسلامي خالٍ من القوانين الغربية الكافرة. فلا غرابة إذن أن تنجذب هذه الأعداد الهائلة من الشباب المسلم في الغرب والشرق نحو الدولة الإسلامية.

ازدواجية الخطاب في البلدان الإسلامية

تدعو المساجد في العالم الإسلامي على الكفار باستمرار بالهلاك والدمار وتيتيم أطفالهم وترميل نسائهم، وتجميد الدم في عروقهم، ولاسيما إذا كان الكفار مثل أمريكا وإسرائيل. كم من الخطب التي تلقى على مرأى ومسمع من الحكومات الإسلامية من دون أن تحرك ساكنا! فالمغرب حليف لأمريكا لكنه بالمقابل يطلق العنان لخطبائه ببث فكر الكراهية تجاه الكفار وبشكل خاص أمريكا وإسرائيل. والسعودية حليفة لأمريكا، لكنها بالمقابل تترك المواقع والأشرطة والإذاعات والخطب والدروس التي يحرض فيها الشيوخ على أمريكا وينعتونها بأنها العدو الأكبر للمسلمين. وتكمن المشكلة هنا في أن تمويل هذه المساجد حكومي في الغالب. وهكذا نعيش نحن بين دولة تبدو في سياستها الرسمية موالية لأمريكا، لكنها تبدو في سياستها الداخلية معادية لأمريكا. ولذلك تجد اليوم الشباب الجهادي يعدّ الحكومات العربية عميلة ومنافقة، لأنها موالية للغرب وبشكل خاص أمريكا. فالرسالة التي تلقاها منذ صغره مفادها أن التفكير الديني صحيح وحق، وأن أمريكا معتدية. وعندما صار عنده وعي سياسي،

رأى أن بلاده تساند سياسة أمريكا وتُحالفها. فالاستنتاج الوحيد أمامه هو أن حكومته أيضا كافرة عميلة لأنها لم تعارض ولم تكره الكفار بل إنها تواليهم. وموالاة الكفار ناقض من نواقض الإسلام العشرة. فمن ساند الكفار ووالاهم صار غير مسلم، لأنه يصير منهم (أي كافرا مثلهم).

لم نرث هذه الأدعية على الكفار من العدم، بل إن النبي محمدًا دعا على الكفار بالأسماء. دعا على قبائل عربية لمدة شهر في صلواته: «اللَّهُمَّ الْعَنْ بَنِي لِحْيَانَ. وَالْعَنْ رِعْلاً وَذَكْوَانَ»، ثُمَّ وَقَعَ سَاجِداً قَالَ خفَافٌ: فَجُعِلَتْ لَعْنَةُ الْكَفَرَةِ مِنْ أَجْلِ ذلِكَ.»[١٦] وأكثر من هذا نجد محمدا على فراش الموت في آخر ما قاله على هذه الأرض أنه لعن اليهود والنصارى، حيث قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.»[١٧] اتخذ المسلمون هذه الأدعية دليلًا على جواز لعن اليهود والنصارى. ومن المؤسف أن يتم هذا الأمر في كل البلدان الإسلامية حتى التي فيها يهود ومسيحيون، وعلى رعايا هذه الأقليات أن يسمعوا الدعاء واللعنات تصب عليهم من المنابر وخطب الجمعة، ويقبلوها بصمت وذل، لأن أي انتقاد سيُحسب انتقادًا للإسلام وحطًّا من شأنه، وهو شيء يقود إلى السجن أو حتى القتل في بعض الأحيان. تخيل لو أن المسلمين يمرون بالكنائس في أمريكا كل يوم وأن الكنائس تلعنهم بمكبرات الصوت قائلة: «لعن الله المسلمين لأنهم اتخذوا قبر نبيهم مسجدا!» كيف سيتصرف العالم وقتها؟ لكن لا أحد يحرك ساكنا وهم يرون ويسمعون عنصرية الإسلام تجاه اليهود والمسيحيين، بل تجاه كل من لم يؤمن بالإسلام أيضًا، كما سنرى في الفصل اللاحق.

---

١٦. صحيح مسلم ٥: ١٤٨، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب «استحباب القنوت في جميع الصلاة، إذا نزلت بالمسلمين نازلة».

١٧. الحديث مروي عن عائشة، صحيح مسلم ٥: ١١، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب «النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور».

3

نحن والآخر: ملائكة وشياطين

ثقافتنا الإسلامية تخشى الآخر

كبرت في ثقافة تخشى الآخر وتفترض فيه الشر. نؤمن بالحسد من الناس ونؤمن بالعين الشريرة، ونعزو كثيرًا من الأمور الناتجة عن تصرفاتنا السيئة، أو قراراتنا غير الصائبة، أو كسلنا وخمولنا إلى الحسد والسحر والعين، وهو نوع من الهروب من تحمل المسؤولية. كانت والدتي توصيني ألا أخبر الجيران عن معدلاتي في المدرسة وألا أخبرهم عن أسرارنا لأنهم قد يحسدوننا فتتدنى علاماتي أو يصيبنا مكروه في المواشي والأملاك. كانت تطلب مني الحذر لأن العين حق وتصيب الناس، وتحكي لي القصص التي تثبت ذلك. ومصدر هذه الأمور هو الدين الإسلامي، حيث ورث الإسلام عادات وتقاليد العرب التي كانت العين جزءا منها، فصارت عقيدة مقدسة تنتشر حيثما انتشر الإسلام. إذ قال النبي محمد: «العين

حـق»[١] بـل إن محمـدا قـال بـأن أكـثر الذيـن يموتـون مـن المسـلمين سـيموتون بسـبب العـين.[٢] وتعتقـد البنـت الـتي لا تـتزوج أنهـا مسـحورة وأن جارتهـا أو إحـدى معارفهـا هي الـتي سـحرتها. والسـحر حـق في الإسـلام ومذكـور في القرآن على أسـاس أنـه مؤثـر في حيـاة النـاس.[٣] بـل إن السـعودية تحكـم بالإعـدام على مـن يمـارس السـحر. وهنالـك وحـدة خاصـة في جهـاز الشرطـة السـعودية مختصة بمكافحـة السـحر فقـط. وقـد قامـت الدولـة الإسـلامية بإعـدام بضعـة أشـخاص بتهمـة السـحر في سـاحات عامـة بقطـع الـرؤوس.

تجـد أن الشـاب الذي لا ينجـح مشروعـه، أو الذي يفشـل زواجـه، أو الذي لا يجـد عمـلا أو يصـاب بإحبـاط يلجـأ إلى الفقهـاء وأصحـاب الرقيـة اعتقـادا منـه أنـه مسـحور وأن العـين أصابتـه. وهنالـك قنـوات خاصـة يتزعمهـا شـيوخ يفـسرون الأحـلام ويقومـون بالرقيـة عـبر الهاتـف للمتصلـين مـن المسـلمين. بـل توجـد خطـوط هاتفيـة سـاخنة فقـط لهـذا الأمـر. صحيـح أنـه لا يخلـو مجتمـع مـن الشـعوذة والتنجيـم بمـا فيهـا المجتمعـات الغربيـة، لكـنّ هنالـك فرقًـا بـين أن تكـون الشـعوذة مجـرد شـعوذة وأن تكـون دينـا مكرسـا بسـبب نصـوص دينيـة قدسـناها فصـارت الحقيقـة المطلقـة الـتي نؤمـن بهـا. فالإسـلام علّمنـا أن النـبي محمـدًا نفسـه قـد سـحر حـتى صـار يخيـل إليـه أنـه مـارس الجنـس مـع نسـائه بينمـا لـم يقـم بذلـك في الواقـع،[٤] فصـارت تختلـط عليـه الحقيقـة بالخيـال. وبطبيعـة الحـال، فـإن أفضـل مـن يلـقى عليـه اللـوم في هـذا السـحر هـم اليهـود. جـاء في الحديـث عـن عائشـة «أنَّ النـبيَّ سُـحرَ حـتّى كان يُخيَّـلُ إليـه أنـهُ صَنـعَ شـيئاً ولـم يَصنعْـه.»[٥] وفي روايـة أخـرى «عَـنْ عَائِشَـةَ ، قَالَـتْ: سَـحَرَ رَسُـولَ اللّٰهِ

١. صحيح البخاري ٥: ٢١٦٧، كتاب الطب، باب «العين حق».
٢. جـاء في الحديـث «جـل مـن يمـوت مـن أمـتي، بعـد قضـاء الله وكتابـه وقـدره، بالأنفـس، يعـني العـين»، الألبـاني، السلسـلة الصحيحـة ٧٤٧.
٣. سورة البقرة، الآية ١٠٢.
٤. «عَـنْ عَائِشَـةَ قَالَـتْ: كَانَ رَسُـولُ اللهِ سُـحِرَ حَـتَّى كَانَ يَـرَى أَنَّـهُ يَـأْتِي النِّسَـاءَ وَلاَ يَأْتِيهِـنَّ»، صحيـح البخـاري ٥: ٢١٧٥، كتـاب الطـب، بـاب «هـل يسـتخرج السـحر».
٥. صحيح البخاري ٣: ١١٥٩، كتاب الجزية والموادعة، باب «هل يُعفى عنِ الذمّي إذا سَحر؟».

يَهُودِيٌّ مِنْ يَهُودِ بَنِي زُرَيْقٍ. يُقَالُ لَهُ: لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ. قَالَتْ: حَتَّى كَانَ رَسُولُ اللهِ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ، وَمَا يَفْعَلُهُ.»[٦] لقد تمت شيطنة اليهود في التراث الإسلامي كله حتى في أعمال السحر. ويعود هذا الفكر إلى نظرتنا إلى الآخر كمسؤول عن فشلنا ومصائبنا، وهي نظرة دينية كرسها الإسلام. ولذلك صار «الآخر» في نظرنا شريرًا نتوجس خيفة منه، ولاسيما إذا كان هذا الآخر كافرا.

ثقافتنا الإسلامية علمتنا إلقاء اللوم على الآخر

كرست لغتنا وثقافتنا رمي المسؤولية في فشلنا على الآخر في كل شيء. فحتى اللغة اليومية تجد في الغرب من يصل متأخرا يقول: أنا آسف قد جئت متأخرا. فتقديم الاعتذار بالضمير المتكلم يدل على تحمل المسؤولية الكاملة، بينما نقول في لغاتنا العامة: «فاتني الوقت»، و«ذهب عني القطار»، و«أخذني النوم»، و«وقع مني الكوب»، و«خانتني الذاكرة»، و«ذهبت عني الطائرة». فلا نتحمل المسؤولية بصفة شخصية: فالوقت هو الذي فات، ولهذا هو الذي يتحمل مسؤولية تأخُّرنا. والقطار هو المذنب لأنه ذهب عني، والنوم هو الذي أخذني...وهكذا لم نتعلم حتى في لغتنا ثقافة تحمل المسؤولية. نفس الشيء ينطبق حتى على المستوى الدولي، فنحن نرمي بهزائمنا على الاستعمار، وعلى الغرب الكافر وعلى اليهود، وعلى الأعداء الذين يتربصون بأوطاننا وبديننا. وتشجع الحكومات هذا النوع من التفكير لأنه يعفيها من المحاسبة. فنحن نحمل القضاء والقدر مسؤولية الحوادث، والفيضانات، والأمراض... ولا نحاسب المسؤولين عن التقصير (إلا نادرا)، لأن موت الضحايا كان مكتوبا مقدرا.

---

٦. صحيح مسلم ١٤: ١٤٣، كتاب السلام، باب «السحر».

إن أسهل من نرمي عليه هزائمنا هو الغرب الكافر وربيبته إسرائيل. فالغرب الكافر هو الذي ينهب ثرواتنا ويستغل عقولنا، ويسرق أدمغتنا، ويأخذ منا مفكرينا، ويصدر لنا ثقافة الانحلال، وأمراضه الاجتماعية، ويريد أن يفسدنا لأننا خطر عليه. وبعد انهيار الشيوعية الآن، صار عدوه اللدود هو الإسلام. لهذه المقولات صدى واسع في الإعلام وداخل الحلقات النقاشية، وفي الشارع، ولا أحد يريد التصدي لها، وتعليم الناس بدلها ثقافة تحمل المسؤولية. فنحن الذين فشلنا ومؤسساتنا التعليمية هي التي فشلت. وأما الذين هربوا من أوطاننا بحثا عن مستقبل أفضل فلم يسرقهم أحد منا. لكن هم من اختاروا أماكن أفضل حيث سيُمْكِنهم تنمية قدراتهم وإظهار مواهبهم والتنعم بعيش أفضل.

تكمن خطورة ترديد هذه المقولات في أنها تكرس عداوة داخلية وحقدا على الآخر ولاسيما الغرب الكافر، وتجعل طاقات الشباب منصبة على الرغبة في الانتقام ورغبة في الأخذ بالثأر من هذا الغرب المسؤول عن مصائبنا. لذلك حين أشاهد أشرطة القاعدة وأشرطة الدولة الإسلامية، فإني لا أتعجب! صحيح أن الجرعة مركزة فيها جدا، لكنك تجد الخطاب نفسه في مساجد وجرائد ومواقع إلكترونية كثيرة في العالم الإسلامي بتشجيع من الحكومات وبتكريس ملحوظ من المؤسسات الدينية والتعليمية. والدول الإسلامية غير جادة حتى الآن في الحد من ظاهرة حقن الشباب بالعداوة ضد الغرب الكافر، وضد الصليبيين، وضد النصارى واليهود، لأنها تعرف ضِمنا أن ذلك جزء لا يتجزأ من الدين وأن كل من يقف ضده سيواجه الرموز الدينية.

شيطنة اليهود والنصارى في النصوص الدينية

لقد قام الإسلام بشيطنة الكفار وغير المسلمين كلهم بصفة عامة، واليهود والنصارى بشكل خاص بحيث تم تشويه صورتهم في الخيال الشعبي

للمسلمين، حتى في الأفلام التي تصور اليهود، ولا سيما الأفلام الدينية، تكون صورتهم بشعة ويتسمون بالاحتيال والمكر والخديعة والكيد للرسول وللمسلمين. ويأتي هذا نتيجة للفكر الذي وصلنا عن اليهود والنصارى. فاليهود هم إخوة القردة والخنازير أينما حلوا وارتحلوا. وقد شتم محمد اليهود الذين كانوا في عصره بمخاطبتهم بإخوة القردة والخنازير حين كان يحاصر قبيلة يهودية اسمهم بنو قريظة. فقالوا: «يا أبا القاسم لم تكُ فحاشاً. فحاصرهم حتى نزلوا على حُكم سعد بن معاذ وكانوا حلفاءه فحكم فيهم أن يقتل مقاتلتهم وتسبي ذراريهم ونساؤهم.»[٧] هذه الصورة مستمدة من القرآن الذي أخبر أن الله عاقبهم على عدم حفظ السبت بأن مسخهم إلى قردة وخنازير.[٨] بل ويذكرهم القرآن بهذه الحادثة بغرض إذلالهم:

> قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ.[٩]

وقد قال عن هذه الآية أحد عمالقة المفسرين المسلمين القرطبي (القرن الثالث عشر الميلادي) «لما نزلت هذه الآية قال المسلمون لهم: يا إخوة القِردة والخنازير فنكّسوا رؤوسَهم افتضاحاً، وفيهم يقول الشاعر: فلعنة الله على اليهود**إن اليهود إخوة القرود.»[١٠]

تخيلوا لو كان اليهود أو المسيحيون يتلون هذا الكلام عن المسلمين في كنائسهم ومعابدهم ويُسمِعونه إياهم في الخطب بالمكبرات الصوتية؟ تخيلوا

---

٧. المستدرك على الصحيحين ٣: ٣٧.
٨. سورة البقرة الآية ٦٥، وسورة الأعراف الآية ١٦٦، وسورة المائدة الآية ٦٠.
٩. سورة المائدة الآيات ٥٩ و٦٠.
١٠. تفسير القرطبي ٦: ٢٣٦، لسورة المائدة الآية ٦٠.

لو كُتب مقال واحد في إحدى الصحف الأمريكية يقول إن المسلمين قردة وخنازير! تخيلوا لو أذاعت إحدى القنوات الأمريكية برنامجا قالت فيه إن المسلمين إخوة القردة والخنازير. لو حدث هذا لاستنكر العالم كله هذه العنصرية، وسيكون المسلمون أول المستنكرين. لكن المسلمين، بالمقابل، يقبلون هذا الكلام في حق اليهود ويقدسونه ويمنعون من ينتقده بحجة أنه شخص يحث على الكراهية وأنه يدعو إلى العنصرية ضد المسلمين ودينهم!

ليت الأمر انتهى عند تصوير اليهود بأنهم إخوة القردة والخنازير، بل إن محمدا صوّرهم فئرانا. إذ صرح أن الفئران هم يهود مسخهم الله على شكل فئران، وتدعى الفأرة في الإسلام بالفويسقة، (وهو تصغير الفسق)، وبالتالي فاليهود فاسقون كما رأينا في الآية السابقة. وقد مسخ الله قبيلة منهم فصارت فئرانا. قال محمد: «فُقِدَتْ أُمَّةٌ من بني إسرائيلَ لا يدرى ما فعلت، وإني لا أراها إلا الفأر: إذا وضعَ لها ألبان الإبلِ لم تَشرَب، وإذا وُضِعَ لها ألبانُ الشاءِ شَربت.»[١١] والامتحان للتأكد من هذه المعلومة هو أن الفأر في نظر محمد لا يشرب لبن الإبل لأنها محرمة على اليهود في التوراة،[١٢] ويشرب لبن الشاة لأنها غير محرمة عندهم. فاليهود في نظر محمد، حتى وهم ممسوخون على شكل فئران، يحافظون على تعاليم التوراة وكأنهم «فئران متدينة». هذه الكتب التي تحمل هذه التعاليم عنصرية بامتياز، لكنها تترجم وتباع في المعارض الدولية بتمويل من أموال البترول ودول الخليج، بل يتم الدفاع عن صحتها وصحة محتوياتها أيضًا على أساس أن قائلها هو محمد، وهو نبي من عند الله لا يمكن أن يخطئ أو يقول شيئا غير صحيح.

١١. صحيح البخاري ٣: ١٢٠٣، كتاب بدء الخلق، باب «خيرُ مالِ المسلم غَنَمٌ يَتبعُ بها شَعفَ الجبال».
١٢. سفر اللاويين الأصحاح ١١، الآية ٤، وأيضا سفر التثنية الأصحاح ١٤، الآية ٧.

النصوص صورت اليهود كعدو أبدي

العداء لليهود وشيطنتهم أمر متشعب ومتجذر. فقد صورهم الإسلام على أنهم العدو اللدود الذي سيبقى عدوا للمسلمين إلى يوم القيامة لدرجة أن الأشجار والأحجار تدرك شر اليهود. جاء في الحديث الصحيح المروي عن محمد قوله:

لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ. فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ. حَتَّى يَخْتَبِىءَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ. فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ هَـذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي. فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ. إِلاَّ الْغَرْقَدَ. فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِهِم.[١٣]

لنتخيل طفلا مسلما تُتلى هذه النصوص أمامه ويتعلمها في المدارس ويُمتحن فيها، ويكتب عنها الأبحاث عندما يكون في الإعدادي والثانوي، ويدرسها للأجيال الأخرى، ويسمعها في المواعظ وعلى الفضائيات وفي الفتاوى. ألا يكون قد تربى على كره اليهود والاستعداد لخوض المعركة الفاصلة معهم؟

لا علاقة لهذه النصوص بوجود دولة إسرائيل. فقد كانت موجودة قبل اثني عشر قرنا من وجود إسرائيل. إنها نصوص تربينا عليها جميعا منذ الصغر، ومفادها أننا في يوم من الأيام سنواجه اليهود وسنقتلهم وستتحالف معنا الأشجار والحجارة، إلا شجر الغرقد لأنه يبدو أنه شجر موالٍ لليهود. فهو شجر يهودي لن يبلغ عنهم. وستتحالف الطبيعة معنا لنقتل اليهود ونتخلص منهم. وتترجم هذه النصوص إلى مختلف اللغات بأموال البترول من بينها الإنجليزية والفرنسية واللغات الرئيسية كلها في العالم. بل تدرَّس في أقسام الدراسات الإسلامية في الجامعات الإسلامية عبر العالم من بينها

١٣. صحيح مسلم ١٨: ٣٧، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيتمنى أن يكون مكان الميت، من البلاء».

الأزهر وكبريات الجامعات السعودية من دون رقيب أو حسيب. ومع ذلك لا يعدّها أحد نصوصًا تحرض على الكراهية ضد عرق معين.

مناسبة مع ما ذكرت، نشرت جريدة آفاق الإلكترونية خبرا عن الداعية محمد العريفي الذي كان يتحدث إلى قناة الأقصى الفلسطينية بتاريخ ١٢ سبتمبر ٢٠٠٨ يقول إن:

> التقارير لمن ذهبوا إلى هناك [يقصد إسرائيل] ورأوها يقولون إن كثيرا من اليهود يزرع حول بيته غرقدا .. لأجل إذا جاء القتال يستطيع أن يختبئ... لأنه ليس برجل ليقف أمام المسلم ويقاتله.[١٤]

من أين أتى الداعية العريفي بكلامه؟ إنما يريد من وراء ذلك إثبات أن ما قاله محمد صحيح، حتى لو كان غير صحيح على أرض الواقع، وحتى لو كان أغلب يهود إسرائيل يعيشون في المدن ولا يزرعون أي شجر أمام بيوتهم. فالمهم هو أن يقول الداعية أي كلام يردده ليدغدغ به مشاعر المسلمين ويؤكد لهم صحة الحديث وصحة انتصارهم القادم على اليهود بمساعدة الحجر والشجر.

جاء في فتوى على موقع تابع لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية ما يلي:

> فالحرب التي ذكر النبي أن المسلمين يقاتلون فيها اليهود ويسلطون عليهم تكون في آخر الزمان، والظاهر أنها تكون عند خروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم وظهور المهدي، ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود حتى يقول الحجر وراءه يهودي: تعال يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله!» ..وتكمل الفتوى لتصل إلى الخلاصة التالية: «ويجب التنبه إلى أن المسلمين لا يجوز لهم أن يتوقفوا عن جهاد اليهود إلى أن يأتي ذلك الزمن.[١٥]

١٤. جريدة آفاق الإلكترونية، «الداعية السعودي محمد العريفي: اليهود يزرعون شجر الغرقد...».
١٥. إسلام ويب، فتوى تحت عنوان «نبوءة الرسول في قتال المسلمين لليهود».

من أين أتى موقع إسلام ويب القطري بفتواه؟ إنها بطبيعة الحال مستلهمة من النصوص الإسلامية الكثيرة المتراكمة عبر التاريخ والتي تعلم في معظمها العداء لليهود والنصارى. ولذلك من غير المستغرب أن يكون اسم التحالف الذي ضم بن لادن والظواهري في فبراير ١٩٩٨ حين أعلنوا الجهاد ضد الغرب الكافر «الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين». فلاختيار الاسم دلالاته الواضحة، وهي أنه سيلقى قبولا واسعا بين الإسلاميين ووسط الشعوب الإسلامية. فكلمة «اليهود» تستدعي وقعًا خاصًا عند المسلمين، ولا تعني كلمة «الصليبيين» فقط النصارى بل تعني النصارى المحاربين، وهي بالتالي تزيد المسلم تصميما على خوض الحرب ضد هؤلاء الكفار. لقد انطلق بن لادن والظواهري من الأرضية التي اشتركا فيها مع مسلمين كثيرين، أرضية العداء لليهود والنصارى. انطلقا من مشاعر الكراهية التي حُقنت بها أجيال من المسلمين وما زالت إلى اليوم. ولذلك كانت للقاعدة شعبية واسعة عند قطاع كبير من المسلمين أول ما تم تأسيسها، حتى صارت قبلة للكثير من الجهاديين في العالم العربي والإسلامي قبل أن يخطف تنظيم الدولة «داعش» الأضواء من القاعدة ويصير القبلة الجديدة.

النصوص تنعت اليهود والنصارى بأقبح الصفات

ليست شيطنة اليهود والنصارى جديدة بل أمر قديم. فالقرآن يصف كل غير مؤمن بأوصاف قبيحة تعد من أكثر المسبات قباحة في الثقافة العربية. فصفة الكلب مثلا ليست صفة جميلة عند العرب، فالغرب لا يستقبح كلمة كلب إذا وصف بها إنسان، لكن عند العرب إذا وصفت شخصا بالكلب فتلك من أقبح الشتائم التي يمكن أن يستخدمها المرء، وهي تعادل استخدام كلمة «خنزير» كشتيمة بالإنجليزية. لكن القرآن يستخدمها لوصف غير المؤمنين به من دون شعور بالحرج. يقول القرآن:

«فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا».[١٦] تخيلوا لو كانت الآية معكوسة وكان فيها «فمثلهم كمثل الكلب، ذلك مثل القوم المسلمين.» فكيف سيكون الوضع؟ لن يقبل مسلم أن يوصف بهذا الوصف (البشع حسب الثقافة العربية)، فكيف إذن يصير كلاما مقدسا يتلوه الإنسان في صلاته وهو كلام يصف أكثر من خمسة مليارات شخص من غير المسلمين في العالم؟

ينطبق الشيء نفسه على الحمار. فالحمار عند الأمريكيين رمز جيد اليوم، ولذلك يتخذه الحزب الديموقراطي كرمز للذكاء والشجاعة (رغم أنه استخدم أول مرة كرمز للغباء والعناد سنة ١٨٢٨ ضد المرشح الرئاسي آنذاك أندرو جاكسون والذي صار لاحقا الرئيس السابع للولايات المتحدة الأمريكية). والحمار في الثقافة العربية رمز للغباء دائما، وحين يشتم العربي مستخدما كلمة «حمار» فهو يقصد الإهانة الشديدة. لكن القرآن يستخدمها ضد اليهود ويقرؤها المسلمون اليوم من دون شعور بأي ذنب. يقول القرآن: «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».[١٧] فالحمار لا يعرف محتوى الكتب التي يحملها، لأنه حمار أي لأنه غبي. وكذلك فإن اليهود أغبياء في نظر القرآن يحملون التوراة وهم لا يعرفون محتواها.

تخيلوا لو قال شخص: «مثل الذين حُمِّلُوا القرآن ثم لم يحملوه كمثل الحمار يحمل أسفارا»، ونشر ذلك في الجرائد، وقرأها الناس في الكنائس والمجامع اليهودية. كيف سيكون رد فعل المسلمين عبر العالم؟ إنهم يثورون لمجرد رسم كاريكاتور ويرون أن العالم يجرح مشاعرهم، لكنهم يسبون اليهود وينعتون غير المسلمين من يهود وغير يهود بالكلاب والحمير ويعدّون ذلك

١٦. سورة الأعراف، الآية ١٧٦.
١٧. سورة الجمعة، الآية ٥.

كلاما مقدسا يتعبدون به، بل ويتلونه في الصلوات ويقرؤونه في خطب الجمعة ويستشهدون به في البرامج الدينية على غباء اليهود وعلى حيوانية غير المسلمين من دون أي اهتمام بمشاعر أحد، وكأن المسلمين هم الوحيدون في العالم الذين لهم مشاعر. وأما باقي العالم فيحق للمسلمين سبهم وشتمهم ولعنهم بأقذع الألفاظ والصفات من دون أن يحق لشخص أن يعترض.

تتجلى شيطنة الآخر أيضا في وصفنا للكفار بأنهم نجسون، نجسون في ذواتهم، وأن المسلمين أطهر وأنظف منهم، حيث يقول القرآن: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».[١٨] وجاء في تفاسير كبار المفسرين المسلمين لهذه الآية: «معنى ذلك: ما المشركون إلا رجس خنزير أو كلب.»[١٩] بل إن أحد اعلام الإسلام، وهو الحسن البصري (القرن السابع والثامن الميلادي)، قال: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ قال: لا تصافحوهم، فمن صافحهم فليتوضأ».[٢٠] ويُعَدّ النصارى واليهود مشركين لأنهم أشركوا مع الله أحدا آخر في العبادة (بحسب الإسلام). وبهذا الخصوص كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز[٢١] إلى عُمّاله «أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين وأَتْبَعَ في نهيه قول الله: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ.»[٢٢] فما نتعلمه كمسلمين عن غير المسلمين «الكفار» أنهم نجسون في ذواتهم. فالكافر المشرك نجس في ذاته، بينما المسلم نقي في ذاته. وذلك راجع إلى ما قاله القرآن وإلى ما قاله محمد في الحديث أيضًا: «إِنَّ الْمُسْلِمَ لا يَنجُسُ.»[٢٣] فنظرة الإسلام إلى الكفار نظرة احتقار، وهي نظرة عنصرية بامتياز.

١٨. سورة التوبة، الآية ٢٨.
١٩. تفسير الطبري ١٠: ٧٧، لسورة التوبة الآية ٢٨.
٢٠. نفس المصدر.
٢١. الخليفة الثامن في الدولة الأموية، عاش من ٦٨١ م إلى ٧٢٠ م.
٢٢. نفس المصدر.
٢٣. صحيح البخاري ١: ١٠٩، كتاب الغسل، باب «عَرَق الجُنُبِ، وَأَنَّ المسْلمَ لا ينجُسُ».

هـذه النظـرة هي الـتي جعلـت محمـدا يطـرد اليهـود والنصـارى مـن جزيـرة العـرب، حيـث قـال في حديـث له يـوصي أتباعـه مـن المسـلمين وهـو على فـراش المـوت: «أخرِجـوا المشركـينَ مِـن جَزيـرةِ العَـرب.»[٢٤] وفي روايـة أخـرى يفصـل أكـثر فيقـول: «لأُخْرِجَـنَّ الْيَهُـودَ وَالنَّصَـارَى مِـنْ جَزِيـرَةِ الْعَـرَبِ، حَـتَّى لاَ أَدَعَ إِلاَّ مُسْلِماً.»[٢٥] هـذا هـو السـبب الحقيـقي الذي يجعـل المملكـة العربيـة السـعودية إلى اليـوم تمنـع غـير المسـلمين من دخـول مكـة، لأنهـم في نظرهـا أنجاس سينجسـون هـذا المـكان المقـدس. فهـم أحقـر المخلوقـات وإذا دخلـوا هـذا المـكان سـيكون دخولهـم يشـبه دخـول خنزيـر إلى مسـجد. ومـا يؤكـد هـذا المفهـوم وجـود فتـاوى متعـددة تعلـم التعليـم نفسـه، وكمثـال على مـا أقـول هـذه الفتـوى الموجـودة على موقـع إسـلام ويـب القطـري الـتي تقـول: «فـلا يجـوز لغـير المسـلم دخـول مكـة لقـوله تعـالى: (يـا أيهـا الذيـن آمنـوا إنمـا المشركـون نجـس فـلا يقربـوا المسـجد الحـرام).[٢٦]»[٢٧] هـذه الآيـة الـتي تجعـل المشركـين «يهـودا ونصـارى» نجسـين هي الآيـة نفسـها الـتي تسـتخدم في منعهـم مـن دخـول مكـة. تخيلـوا لـو قامـت إيطاليـا بطـرد المسـلمين مـن مدينـة رومـا تحـت عنـوان «لنخرجـن المسـلمين من رومـا حـتى لا نـدع فيهـا إلا مسـيحيا»، أو تحـت عنـوان «إنمـا المسـلمون نجـس فـلا يقربـوا مدنكـم.» سـتكون عندئـذٍ عنصريـة محضـة لكنهـا لا تبـدو كذلـك إلا إذا عكسـنا الأمـر. فالمسـلمون تعـوّدوا حفـظ هـذه النصـوص وترديدهـا حـتى صـارت مسـلّمات، وصـار مـن الصعـب إقنـاع المسـلم أنهـا عنصريـة. فهـو يراهـا حقيقـة لا جـدال فيهـا، ولا ينظـر إليهـا إلا مـن الداخـل. إنـه لا يضـع نفسـه مـكان اليهـودي والمسـيحي وغـير المسـلم عمومـا، بـل يعـدّ احتقـاره لهـم أمـرا عاديـا لأنـه صـادر مـن الله. فـالله هـو الذي حكـم بنجاسـتهم، وهـو الذي حكـم عـن طريـق نبيـه بطردهـم مـن المـدن والأمـاكـن الـتي قدسـها.

٢٤. صحيح البخاري ٣: ١١٥٦، كتاب الجزية والموادعة، باب «إخراج اليهود من جزيرة العرب».
٢٥. صحيح مسلم ١٢: ٧٤، كتاب الجهاد والسير، باب «إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب».
٢٦. سورة التوبة، الآية ٢٨.
٢٧. إسلام ويب، فتوى تحت عنوان «لا يجوز لغير المسلم دخول مكة».

النصوص تحمل اليهود والنصارى مصائب المسلمين

يمضي الفكر الإسلامي أبعد من ذلك فيجعل اليهود والنصارى كبش فداء للمسلمين يوم القيامة. قال محمد: «يَجِيءُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، بِذُنُوبٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ، فَيَغْفِرُهَا اللهُ لَهُمْ. وَيَضَعُهَا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.»[٢٨] جعلت الكراهية لليهود والنصارى في المخيلة الإسلامية إيّاهم أكباش فداء يتحملون ذنوب المسلمين ويدفعون ثمنها. ولذلك لا غرابة أن نلقي اليوم فشلنا في العالم الإسلام وذنوبنا كلها حتى لو كانت مثل الجبال، على اليهود والنصارى، لأن هذا الفكر متجذر في أعماقنا بسبب التلقين الذي نتلقاه من النصوص الدينية الإسلامية والتي ربتنا على كراهية مبطنة تجاه غيرنا، نصوص نُشَيطن فيها اليهودي والمسيحي على نحو خاصٍ حتى جعلناهم الضحية التي تحمل أخطاءنا.

من شدة كرهنا لليهود والنصارى صرنا نمسح فيهم جميع مصائب الأمة الإسلامية. بل حتى موت محمد منسوب إلى اليهود. فقد جاء في نصوص كثيرة أن من قام بدس السم لمحمد يهودية، وأنه بعد ثلاث سنين من تلك الحادثة مات محمد بأثر السم الذي أكله في خيبر، حيث كان يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة، ما أزالُ أجِدُ ألم الطعام الذي أكلتُ بخَيبَرَ، فهذا أوان وجدتُ انقطاع أبهَري مِن ذلك السُّمّ.»[٢٩] فاليهود سحرة وقتلة، هم الذين سحروا النبي وهم الذين قتلوه. ولذلك فهمنا من هذه النصوص أنهم سيستمرون إلى يوم القيامة في عمل الدسائس وفي الكيد للمسلمين. هذا الكلام يردده المشايخ التقليديون وحتى أولئك الذين يدعون الإصلاح مثل الشيخ العصري عدنان إبراهيم الذي يخطب في مسجد الشورى في العاصمة النمساوية، ويروج لنفسه على أساس أنه مصلح، أو بعبارته مارتن

٢٨. صحيح مسلم ١٧: ٧٤، كتاب التوبة، باب «سعة رحمة الله على المؤمنين».
٢٩. صحيح البخاري ٤: ١٦١١، كتاب المغازي، باب «مرضِ النبّي ووفاتِهِ».

لوثر الإسلام.[٣٠] فهو يتبنى الفكر الإسلامي التقليدي نفسه، ولذلك قال في إحدى خطبه عن اليهود:

> لو كانت لنا ذاكرة لانبغى أن نأخذ بثأر محمد، لو كان لنا فكر ينبغي علينا أن نعيد فلسفة وتوظيف الحقائق التاريخية كي نؤدب هؤلاء الأقزام الأوغاد [اليهود]، محمد عليه الصلاة وأفضل السلام مات شهيدا بيد اليهود... مات على أيدي يهود، أقول لكم أيضا رسولكم عليه الصلاة وأفضل السلام، دُبرت له خمس عشرة محاولة اغتيال، خمس عشرة محاولة، ثلاثة قام بها المشركون، وثنتا عشرة محاولة منها قام بها تعلمون من؟ اليهود، لعنة الله على اليهود، هذا الذي يقدرون عليه، الخسة والنذالة والقتل والغيلة، الغدر.[٣١]

إن كان هذا يتردد في المساجد الأوروبية من دون حسيب أو رقيب، فلا ينبغي أن نستغرب استهداف اليهود في هذه الدول.

الهجوم على الرموز المسيحية واليهودية سببه النصوص

كُرْهنا لليهود سابق لوجود إسرائيل، بل هو متأصل في وعينا ولا وعينا بسبب هذا التراكم الهائل من النصوص الدينية التي جعلتنا نكوّن ثقافة عدائية تجاه اليهود والنصارى بشكل خاص. فلا غرابة إن قامت الجماعات الإسلامية اليوم باستهداف الكنائس المسيحية ودور العبادة اليهودية والمقابر. ففي ليبيا مثلا، رغم أن الغرب «الصليبي» في نظر المسلمين هو من ساعد سكان بنغازي في النجاة من مجازر القذافي الذي توعد أن يتعقب الثوار «زنقة زنقة»، ذهب بعض السكان إلى المقابر المسيحية، بمجرد أن تحررت المدينة، وكسروا الصلبان الموجودة عليها، فاضطر المجلس الانتقالي الليبي

٣٠. برنامج في الصميم، الحلقة ١٤.

٣١. فيديو لخطبة الشيخ عدنان إبراهيم، «Take Revenge for Muhammad».

إلى تقديم اعتذار بعد أن انتشر مقطع الفيديو على اليوتوب يُظهِر الاعتداء على مقابر الكومنولث والمقابر العسكرية البريطانية وإزاحة شواهدها وتحطيم صلبانها. قال مراسل بي بي سي في طرابلس جابرييل غيتهاوس معلقا على هذا الموضوع: «إن المسلحين أشاروا خلال مقطع الفيديو إلى استهداف قبور «الكلاب المسيحيين» والنصب التذكارية اليهودية.»[٣٢] لاحظ كلمة الكلاب، ألا تدل هذه الكلمة على أن هناك ثقافة منتشرة بين العامة من الناس تصف المسيحيين بـ «الكلاب»؟ ألا يدل ذلك على أن الذين قاموا بهذا العمل يتصرفون بناء على ثقافة منتشرة ومتحكمة في عقولنا؟ صحيح أن المجلس الانتقالي الليبي اعتذر، لكن اعتذاره نابع من حسابات سياسية، ولا يستطيع أن ينكر تفشي هذه الثقافة في المجتمع الليبي مثله مثل باقي المجتمعات الإسلامية الأخرى.

في هجمات ١٦ مايو ٢٠٠٣ في المغرب، تم استهداف مطعم إسباني، والقنصلية البلجيكية، ونادي يهودي، ومقبرة يهودية، وفندق فرح، وهو فندق خمس نجوم. لماذا تم اختيار هذه الأهداف؟ من المؤكد أن المطعم الإسباني حوى أكبر عدد من الأجانب أو المغاربة المتأثرين بالأجانب «النصارى»، في حين أن المقبرة اليهودية تحوي رفات «اليهود»، بينما كان أغلب نزلاء الفندق ذي النجوم الخمس من الأجانب «النصارى». وأما النادي اليهودي، فاسمه يدل على كل شيء. والقنصلية البلجيكية بطبيعة الحال قنصلية «للنصارى». فالأهداف تدل على أن المقصود هم اليهود والنصارى، لأنهم يُنظَرُ إليهم كسبب في انتشار الفساد في المجتمعات الإسلامية. فالمطعم الإسباني يوزع «الكحول» على زبنائه. ويوفر الفندق أيضا هذه الإمكانية لزبنائه. وهذه أمور يراها المسلم الملتزم بدينه أنها من الفواحش التي يمارسها «النصارى» داخل بلد مسلم. ولذلك عليهم تطهير بلدهم من نجاسة «النصارى» كما

٣٢. بي بي سي عربي، «اعتذار ليبي عن اعتداء على مقابر جنود بريطانيين في بنغازي».

طهر محمد بن عبد الله بلاده من نجاسة النصارى واليهود وطردهم شر طردة من أرضهم ومن قراهم بل وأخذها منهم بمباركة إلهية.

يوم ٩ يناير ٢٠١٥، أي بعد أحداث شارلي إيبدو بيومين، قام أميدي كوليبالي، وهو مسلم فرنسي من أصول مالية، باحتجاز رهائن في متجر يهودي، ثم قام بقتل أربعة يهود في المتجر. ووُجد بحوزته خرائط لمدارس يهودية يُعتقد أنه كان ينوي استهدافها.[٣٣] وكانت الشرطية التي قتلها أميدي كوليبالي على مقربة من مدرسة يهودية يُعتَقَد أنها هي الوجهة الرئيسية التي كان يقصدها في الأول.[٣٤] وفي يوم السبت ١٤ فبراير ٢٠١٥، قام شاب دانماركي مسلم من أصول فلسطينية اسمه عمر عبد الحميد حسين بإطلاق النار على مبنى كان يوجد فيه الرسام السويدي لارش فيلكس الذي رسم النبي محمدًا في رسوم كاريكاتورية سنة ٢٠٠٧، ثم هاجم كنيسا يهوديا بعد ذلك كانت تقام فيه مراسيم احتفالية (لاحظ أنه اختار يوم السبت يوم العبادة اليهودي). وأسفر الهجوم عن مقتل حارس أمن لا يزيد عمره عن ٣٧ سنة وإصابة اثنين آخرين من رجال الشرطة. وفي المحصلة العامة أسفر الهجوم عن مقتل اثنين وجرح خمسة رجال من الشرطة.[٣٥] فما الذي يدفع هؤلاء الشباب المسلمين إلى استهداف أهداف يهودية؟

الدين والثقافة سببان رئيسيان في العداء لليهود

إن محاولة اختصار الموضوع في النزاع الإسرائيلي الفلسطيني كسبب هو تجاهل مقصود لتأثير التراث الإسلامي في تكوين المسلمين النفسي والعقدي (الأيديولوجي) تجاه غير المسلمين ولاسيما اليهود والنصارى. إن هذا التكوين هو السبب الرئيسي والأهم، ولكن يتم تبريرهذا العداء

33. Mirror, “Paris terror attack: Jewish schools and police on high alert amid terror target fears.”
34. The Wall Street Journal, “French Prosecutors Investigate Whether Gunman Targeted Jewish School.”
٣٥. سي إن إن عربي، «من هو عمر عبدالحميد حسين منفذ هجوم كوبنهاغن؟»، وأيضا بي بي سي عربي، «مسلح كوبنهاغن «من مواليد الدنمارك وله ماض عنيف».

بمبررات شتى. وهذا هو ما يفسر السبب الرئيسي وراء نزوح اليهود وهروبهم من الدول الإسلامية عبر التاريخ[٣٦]. وحتى في المغرب الذي كان يعد مقارنة مع باقي الدول الإسلامية أفضل مكان لليهود في العالم الإسلامي، فإن عدد اليهود تناقص مع الزمن بسبب تضييق الخناق عليهم وبسبب العداء المتأصل في المجتمع تجاههم. فلولا السلطة الحاكمة لتم تقطيع أوصال اليهود في المغرب، ولكانوا أول ضحية مع أول انفلات أمني. فالسلطة تراعي العلاقات السياسية، بينما لا تبالي العامة من الناس بتلك العلاقات، بل مستعدة لتفجير ذلك الغضب المخزون عبر التاريخ في نفوسهم على اليهود والنصارى. فاليهود والنصارى هم أفضل الأهداف التي يستهدفها المتطرفون في كل بلد إسلامي، ولا يمكن أن يرجع هذا الخيار إلى النزاعات السياسية وحدها، بل يرجع أساسا إلى الثقافة الدينية.

يمكنك أن تجد في موقع الإخوان المسلمين إثباتًا لهذه الحقيقة التي تعرفها الجماعات الإسلامية حق المعرفة، لكن وسائل الإعلام الغربية تريد أن تبرر هذا العداء بالسياسة وتهرب من رابط الدين، لأن حقيقته مخيفة ومفزعة. ففي صفحة «ويكي إخوان»، نجد الإخواني الفلسطيني الشيخ عبد القادر الشطلي، خريج الجامعة الإسلامية في غزة، والحاصل على بكالوريوس في الشريعة الإسلامية يقول:

٣٦. اليوم يهرب اليهود من أوروبا لنفس الأسباب، بسبب استهدافهم من طرف المسلمين.

> إن الصراع بيننا وبين اليهود هو صراع قدري وهو صراع مستمر لا ينتهي حتى يأذن الله لنا بالنصر عليهم والدليل على ذلك أن الله عز وجل عندما تحدث عن الصراع بيننا وبين بني إسرائيل بشقيهم - اليهود والنصارى - استخدم حرف النفي (لن) الذي يفيد التأبيد فقال سبحانه: (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) كما يتضح لنا من هذه الآية والآيات الآنفة الذكر حقيقة الصراع فهو صراع ديني.[٣٧]

فالصراع ديني وليس صراعا على الأرض. فالصراع على الأرض ثانوي تستخدمه الجماعات الإسلامية لدغدغة مشاعر المسلمين. وأما الحقيقة فهي أن وصفنا لليهود بالقردة والخنازير وشيطنتهم في التراث الإسلامي هو أمر سابق لكل صراع على الأرض. وتتعمد الخطب في يوم الجمعة والدروس الخلط بين صراع محمد مع يهود عصره ونصارى عصره وباقي «الكفار» في محيطه وتعميم تلك النظرة على صراع اليوم بين العالم الإسلامي من جهة، واليهود والنصارى متمثلين في الغرب من جهة أخرى. إنه نوع من إعادة إنتاج الصراع نفسه بصيغة أخرى ومحاولة لإسقاط الماضي على الحاضر والربط بينهما.

حتى في الأمثال الشعبية التي تمثل تجسيدًا وتلخيصًا لثقافة شعب وكيفية تلخيص أفكاره في جمل وأمثال تبلغ المقصود، نجد احتقارًا شنيعا لليهود، مثل مغربي مشهور يقول: «خسارة في اليهودي عيناه!» فحتى العينان يعَدّان خسارة في حق اليهودي. فالعمى لائق به. وهناك مثل آخر على تجمع المصائب على الشخص يقول: «الثقل والعقبة والحمار يهودي.» والمعنى هو أنه التقت مصيبة الثقل مع العقبة، وهي المكان المرتفع. ويعني تعبير «الحمار يهودي» أنه هو الآخر لا يريد الصعود بسبب عناده وخبثه. ويظهرهذا لنا صورة نمطية يحملها الخيال الشعبي المغربي عن اليهود. وهناك مثل يضرب على عدم جدوى بعض الأعمال التي لا يجني منها المرء شيئا فنقول: «نْحال

٣٧. ويكيبيديا الإخوان المسلمون، «صراعنا مع اليهود...».

اللي كايحسن لولاد اليهود لا أجر لا منفعة.» والمعنى هو «إنه مثل الذي يقص شعر أطفال اليهود، لا يأخذ أجرا ولا منفعة»، أي أن حلاقة أطفال اليهود لن تحصل من ورائها على الأجر الإلهي ولا الأجرة المادية، بعكس حلاق أولاد المسلمين الذي يعطيه الله الأجر، ويعطيه أب الأولاد أجرة. فالصورة النمطية في هذا المثل أن اليهودي شحيح لا يعطي المال، والله لا يجازي المسلم إذا قام بعمل خير في أطفال اليهود مثل قص شعر رؤوسهم. فهذه الأمثال تعطينا فكرة بسيطة عن نظرة المغاربة إلى اليهود رغم أنه البلد الأكثر رحمة باليهود من باقي البلدان الإسلامية. واليوم لدينا النظرة نفسها، حيث ننظر نظرة احتقار وكراهية لليهود.

لقد كبرت، كباقي الشباب المسلم، في هذه الثقافة. واعتقدت بفعل النصوص الإسلامية المقدسة أن اليهود «قردة وخنازير» و«فئران» بل أغبياء مثل «الحمير»، وأن غير المسلمين «كلاب»، وأنهم نجسون وقذرون، وأننا كمسلمين أنظف من الكفار الحثالة. فنحن نغسل أرجلنا خمس مرات في اليوم. وأما الكافر فهو مثل الكلب غير طاهر، أو كما كان يقال لنا «رِجل المسلم أطهر من وجه الكافر»، لأن المسلم يغسل رجله خمس مرات بينما الكافر يمكن أن يغسل وجهه مرة واحدة فقط حين يستيقظ صباحا. تجعلنا هذه الثقافة نُشَيطن غير المسلم، ولاسيما الأعداء التقليديين، فننظر إليهم نظرة دونية. ونعيش حالة انفصام تجاههم من ناحية. فنحن منبهرون بتقدمهم وبعلومهم. ومن ناحية أخرى، نرى في نصوصنا أنهم محتقرون وأقل منا شأنا، فتتولد داخلنا مجموعة من المتناقضات، ونعيش حالة من الصراع الداخلي، حيث نعشق بلدانهم ونلعنهم. نريد هواتفهم وحواسيبهم وآلاتهم، لكننا نشتمهم ونسبهم. ونتمنى الحصول على فيزا لننعم بخيراتهم، ونريد أن نتزوج بناتهم ليسلمن، لكننا في الوقت نفسه نكرههم ونبغضهم. لقد نجحت النصوص الإسلامية في تشويه دواخلنا، وفي تشويه إنسانيتنا، وفي التلاعب بمشاعرنا، بل في خلق خلل وعقد نفسية في أغلبية

الشباب المسلم. لقد حولتنا هذه النصوص إلى حالات نفسية تحتاج إلى علاج. وتشكل هذه النفسية الأرض الخصبة للجهاديين، بل وتشكل النواة الأساسية التي يعتمد عليها تنظيم داعش وباقي التنظيمات الجهادية في استقطاب المتعاطفين والأعضاء النشطين والذئاب المنفردة.

-4-

خير أمة أُخرِجَت للناس: الإسلام والاستعلاء الديني

التدين والكبرياء

يخلق التديـن نـوعا مـن الكبريـاء في الإنسـان، فيجعلـه يظـن أن الآخرين أقـل شـأنًا منـه، وهنـا لـب المشـكلة. يعتقـد المتديـن أنـه أحسـن مـن النـاس لأنـه يصـلي ويصـوم ويقـوم بطقـوس معينـة، بينمـا لا يقـوم الآخرون بتلـك الطقـوس، وهـو بالتـالي أفضـل منهـم. ويجعـل القـرآن مـن هـذه القاعـدة أساسـا له: «يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ إِنَّـا خَلَقْنَاكُـم مِّـن ذَكَـرٍ وَأُنـثَى وَجَعَلْنَاكُـمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِـلَ لِتَعَارَفُـوا إِنَّ أَكْرَمَكُـمْ عِنـدَ اللهِ أَتْقَاكُـمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِـيرٌ»[1] فكرامتنا في هـذه الحالـة لا تسـتمد مـن إنسـانيتنا، بـل مـن تقوانـا. والتقـوى مرتبطـة بمـدى التديـن. فالتقـوى في المفهـوم الإسـلامي هي مـدى الـتزام المسـلم بالديـن، حيـث يقـول الطـبري المفسـر الإسـلامي المعـروف في تفسـيره لهـذه الآيـة: «يقـول

١. سورة الحجرات، الآية ١٣.

تعالى ذكره: إن أكرمكم أيها الناس عند ربكم، أشدّكم اتقاء له بأداء فرائضه واجتناب معاصيه.»[٢]

بناء على هذا المقياس، فإن المسلم الملتزم أفضل وأكرم من المسلم غير الملتزم، والمسلم بصفة عامة خير من غير المسلم. وهكذا يكون كل غير مسلم، حتى لو كان صالحا، أقل من المسلم شأنا فقط لكونه غير مسلم. وهذه التفاضلية المبنية على الدين هي التي جعلتنا كمسلمين نعتقد على الدوام أننا أفضل من باقي الشعوب وباقي الأمم. فنحن أفضل من اليهود وأفضل من النصارى، وحتما أفضل من باقي المشركين. هذه النظرة الدونية للآخر واحدة من أكبر المصائب التي ابتلينا بها في العالم الإسلامي. يقول القرآن واصفا المسلمين: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ».[٣] إن ما يسترعي الانتباه هنا أن الآية تقول عن المسلمين أنهم خير أمة لأنهم يأمرون بالمعروف (الإسلامي) أي الأوامر الإسلامية، وينهون عن المنكر (الإسلامي) أي النواهي الإسلامية. أما أهل الكتاب (من اليهود والنصارى) فخير لهم لو آمنوا (يعني صاروا مسلمين). وبالفعل آمن بعضهم بالإسلام، لكن أكثرهم فاسقون!

الدين سبب نظرتنا الاستعلائية تجاه الغرب

هذه النظرة الاستعلائية هي التي شكلتني وشكّلت الكثير من الشباب مثلي. فنحن كمسلمين الأفضل أخلاقا، ونحن الأعلى والأمثل، في حين أن الغرب منحل أخلاقيا، وهو سبب الأمراض والبلايا، حيث يغلب عليه التفكك الأسري، ويرمون المسنين في دور العجزة، ولديهم الشذوذ الجنسي، والزواج بين رجل ورجل معترف به علنا، والناس تمارس الفحشاء في الشارع،

٢. تفسير الطبري ٢٦: ٨٩، للحجرات ١٣.
٣. سورة آل عمران، الآية ١١٠.

والرجل يقبل الفتاة من دون حياء، والمرأة عندهم سلعة في الإعلانات. وأما نحن فنساؤنا، والحمد لله، مستورات بالحجاب. ونسبة الأيدز عندهم عالية، وأما نحن، فالحمد لله، نِسَبنا قليلة. وحتى هذه النِسَب التي دخلت هي بفعل الأجانب الذين يأتون سياحا عندنا، إلخ. ومن المؤسف أن هوليود ساهمت في تكريس هذه النظرة النمطية لدينا وساعدت في غرسها في أذهاننا... فصرنا نردد هذا الكلام الإنشائي ونقنع به أنفسنا في عالمنا الإسلامي، علما أننا بالمقابل نعلم أن الكثير من الموبقات تمارس بالسر وأحيانا بالعلن. فالزنى والفساد موجودان بكثرة ولكننا نتكتم عليهما. وممارسات الشذوذ موجودة في بلداننا بكثرة، وكل ما نلوم عليه الغرب موجود عندنا. بل لدينا زنى محارم، واغتصاب قاصرات وقاصرين، وحمل وإجهاض، وأطفال متخلى عنهم، ورشوة، وفساد ربما بصورة أشد. لكن الفرق أن الغرب يناقش كل شيء ويخرجه للعلن ويسن القوانين ليجعل ما يتعلق بالحريات الشخصية محميا بقوة القانون وما يتعلق بالفساد المالي وغيره يعاقب عليه القانون، ويتم فضحه كما تتم محاسبة أصحابه، في حين أننا نلجأ إلى الإنكار، فنتظاهر بعدم وجود فساد ونرمي به غيرنا. وهكذا تستمر أمراضنا وتستمر معاناتنا ويستمر نفاقنا، بل يتفاقم لتتعمق أزمتنا.

يعتقد بعض الزعماء في الغرب أنهم يفهمون العالم الإسلامي جيدا فيتصرفون بطريقة تجعل شبابنا يزداد تشبثا بفكرة «الخيرية أو الأفضلية». ففي ٩ أبريل ٢٠٠٩ في قمة العشرين في لندن، انحنى الرئيس الأمريكي أوباما أثناء تحيته للعاهل السعودي آنذاك الملك عبد الله. ربما اعتقد أوباما أنها أفضل طريقة لإظهار الاحترام لملك واحدة من أكثر الدول الإسلامية تأثيرا. وربما ظن أن تصرفه ذاك سيخلق تعاطفا معه ويغير الصورة النمطية التي لدى المسلمين عن أمريكا. لكن بالمقابل، كيف رآها المسلم؟ بما أني ترعرعت في بيئة إسلامية وولدت وكبرت في تلك الثقافة وتشربتها من كل من هم حولي، فإني رأيت في ذلك التصرف مجرد خضوع وخنوع، فالرئيس

أوباما قال للعالم الإسلامي بطريقة أخرى: نعم. أنتم خير أمة أخرجت للناس. ورئيس أعظم دولة في العالم ينحني لكم ويقبل يد واحد من ملوككم. فالله في نظر المسلم (في هذه الحالة) يجعل حتى ملوك ورؤساء الغرب ينحنون للمسلمين ويصغرون أمامهم. كُتبت تعليقات كثيرة مماثلة حول هذه الحادثة. قال أحدهم: «الله سبحانه و تعالى الذي سخره لما قام به وفي هذا تذكرة بأنه لا عزة لنا إلا بالإسلام.»[٤] وقال معلق آخر على بوابة الفجر: «الله في خلقه شؤون ..وهذه هيبة من عند الله تعالى ... اللَّهُمَّ أعل شأن الإسلام والمسلمين..»[٥] وفتح منتدى آخر نقاشا بهذه المناسبة تحت عنوان «شوفوا كيف أذل الله الكفار واقتربت نهايتهم.»[٦] هذه هي النظرة التي نفسر بها الأحداث. لدينا نظارات أخرى نرى من خلالها العالم، وهي نظرة لا يفهمها الغرب. ولذلك عوض أن يساعدنا في التخلي عنها، فإنه يكرسها أكثر بتصرفات غير مسؤولة وغير مدروسة.

نعود إلى الآية التي تجعلنا خير أمة، هذه الآية التي فسرها أحد صحابة محمد والذي روى كما هائلا من الأحاديث عن النبي، واسمه أبو هريرة. فقال «{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}.[٧] قال: خير النَّاس للناس، تأتونَ بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يَدخُلوا في الإسلام»[٨] يعني هذا أن أفضلية الأمة الإسلامية تكمن في قوتها العسكرية ونصرة الله لها. فهي التي تأتي بالكفار بالسلاسل في أعناقهم فتدخلهم في الإسلام. فالغلبة والقهر وإجبار الناس على الدخول في الإسلام هي العوامل التي تجعل المسلمين خير أمة أخرجت للناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه الآية هو إدخال الناس في الإسلام.

---

٤. شبكة أبو نواف، «أوباما ينحني للملك عبدالله»، ومواقع أخرى كثيرة.
٥. بوابة الفجر الإلكترونية، «لماذا ينحني الرئيس الأمريكي أمام ملوك السعودية؟».
٦. منتدى المؤشر نت، «أوباما ينحني أمام خادم الحرمين».
٧. سورة آل عمران، الآية ١١٠.
٨. صحيح البخاري ٤: ١٦٦٠، كتاب التفسير، باب {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} (آل عمران: ١١٠).

كيف نبرر تخلفنا في العالم الإسلامي؟

يدرك الشباب المسلم اليوم أننا في أسفل القائمة في كل شيء، ونُصِر في الوقت نفسه على أننا خير أمة أخرجت للناس، لأن القرآن قال ذلك، ولا بد أنه صادق لأنه كلام الله، فكيف نفسر هذا التناقض؟ إننا نفسره بكوننا خرجنا عن الدين، أو على قول عمر بن الخطاب أحد أهم رجالات الإسلام الأوائل: «إنا كنا أذلّ قوم فأعزّنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزّ بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله.»[٩] فعزتنا هي بالإسلام، وما دمنا في ذيل الأمم اليوم، فلا بد أن السبب هو ابتعادنا عن صحيح الدين، وبالتالي نصير في دوامة ونتدين أكثر لعلنا نستعيد المجد الغابر.

نحن أمة ماضوية لا تعيش وتخطط للمستقبل، بل تنظر إلى الماضي، نعيش على أمجاد معارك الرسول وانتصاراته، ومعارك الصحابة والخلفاء، وعلى زمن الفتوحات، فنعتقد أننا كنا خير أمة بسبب تلك الغزوات وتلك الفتوحات. ونرى أن ذلك النصر كان من الله. فقد نَصَرَ المسلمين الأوائل لأنهم كانوا أتقياء «كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.» ونحن اليوم نتقهقر إلى الخلف بسبب عدم تديننا. فلا يصلي كثيرون منا الصلوات الخمس بانتظام، ولا يطبق كثيرون منا الإسلامَ كما جاء به محمد بن عبد الله. ولذلك لا بد أن ما يصيبنا هو نوع من العقاب الإلهي على تفريطنا في الدين. وإذا رجعنا إلى الدين، ستعود الفتوحات، ويعود الغزو، ونسترجع الأراضي المسلوبة منا، وبشكل خاص فلسطين والأندلس، ونستعيد ما ضاع منا من أمجاد.

تكاد تكون هذه النظرة الطاغية على الشباب المسلم وعلى الجماعات الإسلامية، سواء أكانت الجهادية منها أم الدعوية. فكلها ترى أن العودة إلى الدين هي السبيل إلى العزة، وأن تلك العزة ستعود في يوم من الأيام

٩. المستدرك على الصحيحين ١: ١٣٠.

ويستعيد العالم الإسلامي دفة القيادة فيقهر العالم «المسيحي واليهودي» وبلدان الكفر كلها، وتتحقق بذلك كلمات القرآن مرة أخرى: «إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا».[١٠] إنه النصر الذي يحلم به الشباب المسلم، النصر الذي لا يرونه يتحقق إلا من خلال التدين، والتطبيق الصارم للشريعة الإسلامية. لذلك لا نستغرب إن قامت جماعات مثل القاعدة أو داعش أو جبهة النصرة ودعت إلى تطبيق صارم للشريعة. نجحت الجماعات الإسلامية حتى بعد الثورات العربية في كل من المغرب وتونس ومصر وليبيا، وهي التي تقود المشهد في سوريا واليمن بسبب تشبع شباب المنطقة بهذه النظرية التي تربط بين حالتها المزرية والتخلي عن الدين، تربط بين فساد الحكام والتفريط في الدين. وتنظر الجماعات الإسلامية حتى إلى السعودية على أنها نظام حكم يستخدم الدين لإحكام قبضته، لكنه في الحقيقة ليس نظاما إسلاميا بكل ما تحمله الكلمة من معنى. فهو يوالي الكفار، وينفذ أجندتهم السياسية، ويخضع لرغباتهم وسياساتهم.

هذه هي النظرة نفسها التي يراها الشباب في كل الدول العربية والإسلامية. إنهم يرون وجوب زوال الأنظمة لا بسبب قمعها وتسلطها فحسب، بل بسبب تفريطها في الدين. ولذلك من السهولة بمكان أن تختطف الجماعات الإسلامية الثورة في كل بلد مسلم، لأن الناس هناك جاهزون لإعطاء السلطة لمن يعيد لهم المجد الضائع من خلال إعادة الدين وتطبيق الشريعة. وبطبيعة الحال، فإن غالبية هؤلاء لا تعرف بالضبط ما الذي يعنيه تطبيق الشريعة. فهم يرون تطبيق الشريعة من وجهة نظر وردية، تلك التي صورتها الخطب المنبرية والفضائيات الإسلامية، حيث سيسود العدل، وتختفي السرقات خوفا من الحدود القاسية، ويختفي الزنى خوفا من الرجم،

---

١٠. سورة النصر.

ويصير بإمكان الناس ترك محلاتهم غير مقفلة ويذهبون للصلاة من دون أن يتجرأ شخص على مد يده إلى أية بضاعة أو أي محل لسببين، أولهما هو أن الكل سيكون مجبرا على الالتحاق بالصلاة، وثانيهما هو أن أي يد ستمتد إلى أية بضاعة سَتُقْطَعْ. وسوف تزول البنوك ويزول الربا، وسوف تصير الأموال موجودة بوفرة، ويعم الخير على الجميع. وسوف تزول الخمور والسجائر، وتصير الدولة دولة الصلاة والتقوى ودولة الحجاب، وتزول منها المنكرات كلها ، مثل العري والرقص والأغاني وغيرها. تجعل هذه النظرة التفاؤلية البسيطة الناس يقولون «نعم» للجماعات الإسلامية التي ستعيد لهم عدل عمر بن الخطاب الذي تصوره لنا تلك الروايات على أنه نام على تراب المسجد، فمر به أحد وعلّق متعجبا كيف ينام خليفة من دون حراسة تلك النومة البسيطة التي تدل على راحة ضمير وعلى انعدام أي خوف على حياته من رعيته، فقال «عدلت فأمنت فنمت.»[١١]

خير أمة بين الدين والواقع

فهل نحن فعلا خير أمة أُخرجت للناس؟ هل العالم الإسلامي هو خير الأمم؟ وإن كان نعم ففي أي شيء بالضبط؟ هل نحن الشعوب الأولى في الإنتاج؟ هل نحن الشعوب الأولى في العلم والتكنولوجيا؟ هل نحن الشعوب الأولى في حقوق الإنسان؟ هل نحن الشعوب الأولى في الشفافية؟ إن العكس هو الصحيح. فالإحصائيات تجعلنا نخجل من وضعنا بين باقي الدول. فالدول الإسلامية تحتل أسفل القائمة في مؤشر الشفافية العالمي. فالصومال، على سبيل المثال، في أسفل القائمة، وهي بلد إسلامي، وتليها بلدان مثل: السودان، أفغانستان، العراق، تركمنستان، أوزبكستان، ليبيا، اليمن، سوريا، بينما تخلو قائمة العشرين بلدًا الأولى في المؤشر من أي بلد مسلم. وتحتل الإمارات العربية المرتبة ٢٥ وقطر المرتبة ٢٦، وأما باقي البلدان الإسلامية

---

١١. فيض القدير ٤: ٤٩٧.

فهي تحت الرتبة الخمسين لا محالة.[١٢] ألا يدل هذا على تغلغل الفساد في البلدان الإسلامية؟

أما فيما يتعلق بالتعليم العالي، فعندما نظرت إلى القائمة العالمية للجامعات التي تحتل المراتب الأولى في العالم بحسب صحيفة الغارديان البريطانية، فإنني لم أر أية جامعة من العالم الإسلامي في قائمة المائة الأولى، بينما وجدت جامعة واحدة من إسرائيل رغم أنها بلد في الشرق الأوسط ومواردها أقل بكثير من الكثير من البلدان الإسلامية ولاسيما بلدان الخليج.[١٣] وفي مؤشر آخر، لم أجد إلا عشر جامعات إسلامية ضمن أول ٥٠٠ جامعة في العالم،[١٤] مع العلم أن العالم الإسلامي يضم حوالي مليار ونصف المليار من السكان، أي تقريبا خمس سكان العالم. ومع ذلك فإن وضعنا سيئ للغاية في ترتيب الجامعات. وأما إذا تحدثنا عن معايير أخرى، فمعدلات الأمية مثلا سيئة جدا في بلدان العالم الإسلامي. إذ نشرت منظمة التعاون الإسلامي (التي كانت تحمل اسم منظمة المؤتمر الإسلامي وتضم ٥٧ دولة إسلامية) أن معدل العالم أجمع في القدرة على القراءة والكتابة لدى الكبار هو ٧٩,٦ بالمئة، بينما معدل الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي هو ٧٠,٢ بالمئة، في حين أن المعدل في البدان المتقدمة هو ٩٧,٨ بالمئة.[١٥] وبحسب مؤشر الازدهار العالمي، فإن الدول التي تحتل أعلى القائمة لا تضم أي بلد إسلامي حتى وصلت إلى الرتبة ٢٨ التي تحتلها الإمارات، بينما يمكننا أن نجد في ذيل القائمة بلدانًا إسلامية مثل اليمن ١٣٨، وأفغانستان ١٣٧، والسودان ١٣٠، وسوريا ١٢٩، والعراق ١٢٨، وباكستان ١٢٧، ومصر ١١٦، وإيران ١٢٧.[١٦] والبلدان التي تحتل المراتب الأولى هي حتما البلدان الكافرة. وأما من

---

١٢. مؤشر الشفافية الدولية لسنة ٢٠١٤.

13. The Guardian, “World’s top 100 universities 2014....”

١٤. تصنيف شانجهاي، «النشرة الصحفية للترتيب الأكاديمي للجامعات العالمية».

١٥. منظمة المؤتمر الإسلامي، «التعليم والتنمية العلمية...»، صفحة ٣ شكل رقم ١.

16. The Legatum Prosperity Index.

ناحية الإنتاج المعرفي، فعدد المقالات المنشورة (بِغضّ النظر عن قيمتها) من دول منظمة المؤتمر الإسلامي الـ ٥٧ مجتمعة أقل مما تنشره إنجلترا وحدها، وأقل من اليابان وحدها، وحتما أقل من ألمانيا. وأما الولايات المتحدة فتكاد تنشر ضعف ما تنتجه الدول الإسلامية الـ ٥٧ مجتمعة.[١٧] بل إن ما تنفقه تلك البلدان كلها متحدة على التطوير والبحث كنسبة مئوية من الإجمالي العالمي لا يتعدى ١,٨ في المائة، بينما تنفق الولايات المتحدة الأمريكية وحدها ٣٣,٥ بالمئة.[١٨] وأما الإنتاج ونسبة المساهمة في الناتج العالمي، فإن دول المنظمة الـ ٥٧ تشكل حوالي ٢٢,٨ بالمئة من سكان العالم، ومع ذلك لا تنتج هذه الدول إلا ١٠,٩ بالمئة من الناتج العالمي. ويعني هذا أنها تستهلك أكثر مما تنتج.[١٩]

أما إذا نظرنا إلى القوة العسكرية، فحتما أن دول العالم الإسلامي ليست الأولى عسكريا ولاسيما في ضوء الاضطرابات التي تعيشها اليوم والحروب التي تخوضها داخل الدولة نفسها. فمن ضمن الدول العشرة الأوائل لا توجد إلا تركيا في المرتبة الثامنة.[٢٠] تقدم هذه الأرقام مجرد لمحة بسيطة تجعل أي شاب مسلم يعرف كيف يبحث في الإنترنت يصل إلى حقيقةٍ يراها في محيطه لكنه سيتأكد منها بالأرقام، وهي أننا أبدا لسنا خير أمة أخرجت للناس. بل نحن، بحسب المقاييس كلها، من ضمن أسوأ البلدان وأسوأ الأمم، وأننا لا نتفوق في أي شيء إلا في الادعاء بأننا خير أمة. ففي هذه الدعاية وحدها أعتقد أننا نتفوق على الأمم الأخرى كلها.

---

١٧. منظمة المؤتمر الإسلامي، «التعليم والتنمية العلمية...»، صفحة ٤٤ شكل رقم ٤٨.
١٨. منظمة المؤتمر الإسلامي، «التعليم والتنمية العلمية...»، صفحة ٣٥ شكل رقم ٣٩.
١٩. منظمة المؤتمر الإسلامي، «التقرير الاقتصادي السنوي»، صفحة ٣٠ شكل ٢,١ الناتج المحلي الإجمالي.
20. Global Fire Power "Countries Ranked by Military Strength."

التناقضات وحلم الدولة الإسلامية

رغم هذه الأرقام والمعطيات، هنالك نوع من الشعور بالاستعلاء على الآخر نتيجة للنصوص الدينية التي تم شحننا بها منذ الصغر. فقد تمت صناعتنا في الماضي ولن نستطيع الانعتاق منه بسهولة. فنحن خير أمة أخرجت للناس في نظرنا نحن فقط. لدينا أحسن نبي، وأفضل كتاب، وأفضل دين، وأفصح لغة. ونحن من سيغزو العالم وسيخضعه لسيطرتنا ليصير العالم كله خاضعا لحكم الله تحت أقدام الأمة الإسلامية. غذّت هذه النظرة البسيطة التي تجدها عند المسلم النصوص والتراث المتراكم، وكأن كل شيء نعيشه من دول وكيانات هو شيء مؤقت، وأننا ننتظر بفارغ الصبر أن نحكم الكفار ونخضعهم لراية الإسلام. يجعل هذا الإحساس المسلم دائما في حالة ترقب خصوصا إذا تشرّب النصوص أكثر وصار مهووسا بها. وستحوّله لا محالة إلى كائن مؤقت يعيش على حافة الانتظار، انتظار اليوم الموعود حين تنتصر الأمة الإسلامية على أعدائها، ويصير المسلمون السادة، والكفار عبيدًا، يخدمونهم ويطيعونهم ويعطونهم الجزية عن يد وهم صاغرون، أو يستسلمون فيُسْلِمُون.

هذا الشعور هو ما يدفع الجماعات الإسلامية كلها إلى تبني الخلافة الإسلامية والحلم بها. ولا ينظر المسلم بصفة عامة إلى الغرب كمقياس، بل عليه أن يكون مختلفا عن الغرب. عليه أن يرفض طرق الغرب من أصغر شيء وأتفهه إلى أكبره. ولذلك تُكَفِّرُ الجماعات الإسلامية الديموقراطية، وتُكَفِّرُ نظام الانتخابات وتُكَفِّرُ كل شيء يأتي من الغرب، وتدعو في الوقت نفسه إلى العودة إلى نظام الشورى الإسلامي وإلى نماذج الحكم التي كانت موجودة في القرن الأول الهجري (كما سأوضح لاحقا)، بل حتى النماذج الناجحة في الغرب من حقوق إنسان وحرية لا ترى فيها

إلا المساوئ والسلبيات. ويرفض الإسلام عموما كل شيء من الكفار حتى لو بدا في ظاهره جيدا، لأنه في باطنه سيئ حسب اعتقاده.

التحذير من التبعية لليهود والنصارى

لقد حذر محمد المسلمين مرارا من التبعية للنصارى واليهود. ويبدو من النصوص الإسلامية القديمة أن المسلمين الأوائل كانوا تابعين للمسيحيين ويحاولون تقليدهم أو التعلم منهم في أشياء كثيرة، فصيغت نصوص تنهاهم عن ذلك. روى أحد صحابة محمد يدعى أبو سعيد الخدري، عن محمد أنه قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ. شِبْراً بِشِبْرٍ، وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ. حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍ لاَتَّبَعْتُمُوهُمْ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ آلْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ :فَمَنْ؟»[٢١] لقد حذرهم محمد من اتباع اليهود والنصارى وهو يعلم أنهم سيفعلون، لأن تأثير المسيحيين كان جليا في الشعوب كلها التي كانت حولهم، من الشام والعراق ومصر وباقي شمال إفريقيا. ويبدو أن غزو المسلمين لتلك البلدان لم يفد تلك البلدان بقدر ما استفاد المسلمون من البلدان التي غزوها. لقد أخذوا خيراتها وسبوا نساءها وتعلموا اللغات والطب والترجمة والفلسفة وحتى الهندسة عن طريق أبنائها، ثم نسبوا الحضارة إلى أنفسهم ونسوا ما فعله المسيحيون في تلك البلدان.

إنها دعاية متعمدة تهدف إلى تجاهل عمل المترجمين المسيحيين السريان، وتجاهل الأطباء المسيحيين وأعمالهم، وتجاهل المساهمات المسيحية كلها، لأن المسلم لا ينبغي أن يمجد الكافر. ويبدو أن المسيحيين لم ينتبهوا لهذا المبدأ، حيث كانوا يعتقدون أن التاريخ سينصفهم. لكن التاريخ يكتبه المنتصر. لقد كان المسلمون يحكمون بالسيف، ولم يكن هناك خيار للمسيحيين إلا أن يستسلموا للحكم ويعيشوا أجيالا محاولين إرضاء حكامهم من

٢١. صحيح مسلم ١٦: ١٨٩، كتاب العلم، باب «اتباع سنن اليهود والنصارى».

المسلمين. فاستفاد هؤلاء الحكام من خبرتهم واستخدموها أيما استخدام، ثم صرنا اليوم نسمع عن الحضارة الإسلامية الأموية والعباسية ولا نسمع عن المسيحيين السريان أو الأقباط وكأنهم لم يفعلوا شيئا يذكر. فالآلة الإعلامية الإسلامية لا تمدح الكافر أبدا، بل تمدح المسلم وتلمع صورته على حساب الكافر، لأنه لا ينبغي تفضيل كافر على مسلم مهما عمل.

يعلمنا الإسلام أن كل شيء غير الإسلام جاهلية، فما قبل الإسلام كان جاهلية، ثم جاء خير البرية لينير لها الطريق، فيتم تصوير مرحلة ما قبل الإسلام بأبشع الصور لكي يتم تلميع صورة الإسلام، وكأن البشرية كانت تغرق في ظلام دامس إلى أن جاء محمد، وكأنه لم تكن هناك حضارة ولا أي شيء حتى أتى محمد وأتى الإسلام. يقول القرآن لزوجات النبي: «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى»[٢٢] فالجاهلية الأولى فيها تبرج، بينما الإسلام هو من أتى بالحشمة. وحين نأتي إلى الأحكام - رغم أن الإسلام أخذ الكثير من أحكامه من تلك «الجاهلية» - فإنه يذم أحكامها ويمدح أحكام الإسلام، حيث يقول القرآن: «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ».[٢٣] حكم الله أن الإسلام أفضل من حكم الجاهلية، لذلك تُعَدّ حتى القوانين الغربية قوانين جاهلية. فالحاكمية هي لله وحده. وأما كل ما عداه فيدخل ضمن حكم «الجاهلية».

لقد عَدَّ القرآن كل الذين لم يحكموا بشريعته الإسلامية فاسقين، ظالمين، كافرين، حيث يقول مثلا: «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».[٢٤] ولكي تزداد الصورة قتامة، يتم تصوير المرأة على أنها كانت تُقتل في «الجاهلية»، وأنها كانت تدفن حية لأن العرب يفضلون الذكر

٢٢. سورة الأحزاب، الآية ٣٣.
٢٣. سورة المائدة، الآية ٥٠.
٢٤. سورة المائدة، الآية ٤٥، في نفس السورة نجد «وَمَن لَّمْ يُحْكُم بِمَا أَنزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» (الآية ٤٤)، ثم في نفس السورة «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» (الآية ٤٧).

على الأنثى ويشعرون بالعار من ولادة الأنثى، وأنها كانت تورث كالمتاع، إذ لم يكن لها أية قيمة، وأن الإسلام حين جاء أعطى المرأة قيمة ونهى عن وأد البنات. وبطبيعة الحال، فإن هذا الكلام الدعائي لا يصمد أمام أسئلة بسيطة. فإذا كانت المرأة تدفن حية فمن أين أتت زوجات العرب الباقين؟ ومن أين أخذ محمد زوجاته؟ وإذا كانت المرأة تورث وليست لها قيمة، لماذا كانت خديجة زوجة محمد تاجرة ولها عبيد ولها تجارة، وهي التي استخدمت محمدا في تجارتها لا العكس؟ قد تكون بعض الحالات الاستثنائية يقتل فيها الرجل ابنته لكنها ليست حالة عامة. ويحصل هذا اليوم أيضا. إذ هناك من يقتل ابنته، لكن لا يمكننا القول إنهم في القرن الحادي والعشرين يقتلون الإناث. يجعل هذا المنظور المسلمَ يحتقر كل ما هو غير إسلامي، ويرفض باقي الثقافات وباقي العادات، لأنه يعدّ كل ما عدا الإسلام غير صالح وشريرًا، فالإسلام وحده في نظره يأتي بالخير للبشرية. ولذلك هناك دائما مقاومة لعادات الغرب وتقاليده وكل ما يأتي منه، لأنه من المفروض أن الإسلام يحوي عناصر التقدم والتفوق كلها. فكأن الحاجة إلى الآخر بمنزلة اعتراف ضمني بتفوقه على شريعة الإسلام.

النصوص الدينية والعنصرية

من مظاهر الادعاء بالتميز والتفوق في الإسلام تمييز العرب عن باقي الناس وتمييز اللغة العربية عن باقي اللغات. فالإسلام علّمنا أن لغتنا العربية أفصح اللغات، وأن العرب أفضل الأجناس، وأن قريشا أفضل القبائل على الإطلاق، وأن القرآن أفضل كتاب جاء، وأن النبي محمد أفضل نبي. فهو أتى من أفضل قبيلة ومن أفضل نسب. فقد قال مرة: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة،

وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً فأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً.»[٢٥] ولا يسعني في وصف هذا الكلام إلا أن أقول إنه عنصرية عرقية باسم الدين. والمشكلة أن هذه النصوص مقدسة عند المسلم. فهو يؤمن بأن محمدا قال هذا الكلام، ولذلك ينبغي أن يكون صحيحا حتى لو كان اليوم يعدّ عنصريًا. قال الشيخ ابن تيمية الحراني أحد أعلام الإسلام: «والذي عليه أهل السنة والجماعة أن جنس العرب أفضل من جنس العجم عبرانيهم وسريانيهم ورومیهم وفارسیهم وغيرهم وأن قريشاً أفضل العرب وأن بني هاشم أفضل قريش وأن رسول الله(ص) أفضل بني هاشم فهو أفضل الخلق نفساً وأفضلهم نسباً.»[٢٦] فكيف ننظر إذن إلى باقي الأمم إن كنا نحن الأفضل على الإطلاق؟ شعور بالفخر والاستعلاء، وشعور بالاحتقار تجاه الآخرين، هذا ما كنت أشعره وأنا أقرأ هذه النصوص مؤمنا بها وبقدسيتها. لم أشك فيها ولم أسائلها، بل كانت تغذي الكبرياء الفارغة داخلي، لذلك تجد تصريحات وشتائم كثيرة ضد الغربيين عموما وضد كل من هو غير مسلم. نسميهم العلوج،[٢٧] كما فعل الصحاف في الحرب على العراق، ونطلق عليهم لفظ الكلاب بكل حرية، ونسمي اليهود خنازير من دون أن نحس بالذنب. ولا يقتصر هذا على المسلم العادي البسيط، بل تجده عند علماء الإسلام الكبار أيضا. لنقرأ ابن تيمية مرة أخرى ماذا يقول: «فغلب على العرب القوة العقلية النطقية، .. وغلب على الروم القوة الشهوية من الطعام والنكاح... وغلب على الفرس القوة الغضبية.. ولهذا كانت العرب أفضل الأمم، وتليها الفرس لأن القوة الدفعية أرفع، وتليها الروم.»[٢٨] يتمتع العرب بقوة عقلية أكبر من باقي الأمم!! ولذلك نحن سادة

---

٢٥. مسند أحمد، ١: ٣٤٥.
٢٦. فيض القدير، ٤: ٦٧٦.
٢٧. العلج في لسان العرب لابن منظور هو: الكافر؛ ويقال للرجل القويّ الضخم من الكفار: عِلْج.
٢٨. مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥: ٤٢٨.

العلم وسادة التكنولوجيا وسادة التقدم! العالم أعمى لذلك لا يرى تقدمنا الواضح، نراه وحدنا بعيني محمد وعيني ابن تيمية.

قال محمد إن كفار قريش هم قادة الكفار عالميا، وإن مسلمي قريش هم قادة المسلمين عالميا. ولذلك ينبغي أن تكون الخلافة في قريش، بمعنى أن الخليفة لا يصح أن يكون من أي جنس آخر، حيث قال بحسب الحديث: «النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ فِي هَذَا الشَّأْنِ. مُسْلِمُهُمْ تَبَعٌ لِمُسْلِمِهِمْ. وَكَافِرُهُمْ تَبَعٌ لِكَافِرِهِمْ.»[٢٩] وهذا ما يفسر كون الخليفة البغدادي من قريش، من سلالة النبي محمد كما ادعى. فهو لا يكتسب شرعية إلا إذا كان من قريش. ويعرف علماء الإسلام هذا الأمر لأنه من النصوص المقدسة لديهم. هل يعلم المسلمون من الأجناس الأخرى هذا التفضيل؟ كيف يفسرونه؟ ينبغي أن تكون الخلافة لقرشي لأنه الأفضل، حتى لو بقي شخصان فقط في العالم كله، واحد قرشي والآخر غير قرشي.[٣٠] وقد حض محمد على حب العرب دون غيرهم من الأجناس، فقال: «حُبُّ الْعَرَبِ إِيمَانٌ وَبُغْضُهُمْ نِفَاقٌ.»[٣١] وماذا عن حب باقي الأجناس؟ لماذا يتم تخصيص العرب بهذا الحب وجعله إيمانا؟ أليست هذه النصوص تكريسا للعنصرية؟

تدرَّس هذه النصوص حتى في الجامعات للطلاب، وقد جاء جزء من الكلام الذي أوردته في موقع جامعة أم القرى في السعودية، حيث أن الدكتور محمد بن يوسف فجال، وهو أستاذ للغة العربية لمدة زادت عن العشرين سنة ويعمل مستشارا في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الرياض، كتب مقالا على موقع الجامعة أسماه «فضل اللغة العربية على اللغات كفضل القمر ليلة البدر على الكواكب»، ثم سرد أقوال ابن تيمية عن فضل العرب

٢٩. صحيح مسلم ١٢: ١٥٧، كتاب الإمارة، باب «الناس تبع لقريش والخلافة في قريش».
٣٠. يقول الحديث «لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ، مَا بَقِيَ مِنَ النَّاسِ اثْنَانِ»، صحيح مسلم ١٢: ١٥٨، كتاب الإمارة، باب «الناس تبع لقريش والخلافة في قريش».
٣١. المستدرك على الصحيحين ٤: ٩٧، ذكر فضائل القبائل، فضل كافة العرب.

وختـم مقـاله بقـوله: «هـذا مـا أردت بيانـه، ليتضـح لـكل ذي عقـل وقلـب وعلـم أن جنـس العـرب أفضـلُ مـن جنـس العجـم، وأن لسـانهم أتـمُّ الألسـنة بيانـاً. هـذا مـا عليـه أهـل السـنة والجماعـة.»[٣٢] ليتخيـل القـارئ لـو قـال هـذا الـكلام أي أسـتاذ جامـعي في أيـة جامعـة غربيـة، لـو فضّـل الجنـس الأوروبي على بـاقي الأجنـاس، ولغـة معينـة على بـاقي اللغـات مدعيًـا أنهـا الأفضـل على الإطـلاق. فهـل كان سـيبقى في منصبـه الجامـعي؟ لكـن في بلداننـا قـل مـا شـئت ولاسـيما إذا كان لديـك نـص ديـني يؤيـد مـا تقـوله.

مـاذا نتوقـع مـن شـباب يتخـرج مـن هـذه الجامعـات؟ هـل نتوقـع منهـم المنـاداة بالمسـاواة في الحقـوق بـين البـشر؟ صحيـح أني عـربي، صحيـح أنـه كان بإمـكاني أن أبـقى أسـيرا لهـذه النصـوص وأتغـنى بجنـسي وبلغـتي، لكـني لـم أقبـل ذلـك على حسـاب الإنسـانية والبشريـة. فحـبي لنفـسي ولشـعبي لا يعطيـني الحـق أن أجعـل نفـسي أفضـل مـن بـاقي الأجنـاس. تنطلـق آفـة الجمـاعات الإسـلامية من هـذه النصـوص لتؤسـس نـوعًا مـن الاسـتعلاء الديـني، ونـوعًا مـن النازية المقدسـة الـتي سـتؤدي حتمـا إلى الطغيـان والاسـتبداد ضـد الآخريـن. ألـم تبـدأ النازيـة بالعقيـدة نفسـها؟ تنظيـم الدولـة مبـني على هـذه العقيـدة. فالمسـلم أفضـل، ولذلـك سـتحكم الخلافـة العالـم. والعـربي المسـلم أفضـل الفضـلاء، ولذلـك تقـف على رأس الهـرم قيـادة عربيـة. والعـربي القـرشي أفضلهـم على الإطـلاق، ولذلـك صـار أبـو بكـر البغـدادي الخليفـة، تمامـا مثلمـا فعـل محمـد. ومحمـد هـو النـبي لأنـه هـو الأفضـل على الإطـلاق، وقبيلتـه هي أم القبائـل، أمـا الباقـون فينبـغي أن يبقـوا تحـت أقـدام المسـلمين خاضعـين لهـم لأن هـذه هي حكمـة الله ومشـيئته في الإسـلام!

٣٢. موقع جامعة أم القرى، «فضل اللغة العربية على اللغات...».

5

المسيحيون تحت رحمة الإسلام: من النبي إلى الخليفة

داعش تطرد المسيحيين من الموصل

كانت أكبر صدمة للعالم حين بدأت الدولة الإسلامية هي صور النازحين المسيحيين من بيوتهم في الموصل. ففي يوم الخميس ١٧ يوليو ٢٠١٤، تم توزيع بيان من الدولة الإسلامية على المسيحيين يعطيهم ثلاثة خيارات: «إما اعتناق الإسلام أو عقد الذمة وسداد الجزية. وإذا رفضوا فلن يتبقى لهم سوى حد السيف.»[١] تمت تلاوة البيان في المساجد وعبر مكبرات الصوت وتوزيعه مطبوعا في الشوارع. كان عدد المسيحيين في الموصل حوالي مئة ألف شخص مسيحي قبل الاجتياح الأمريكي سنة ٢٠٠٣، لكن بعدها بدأ مسيحيو الموصل في التناقص بسبب استهدافهم المتكرر. إذ هاجر بعضهم، ونزح آخرون إلى مناطق أخرى مجاورة وبشكل

١. بي بي سي عربي، «تنظيم الدولة الإسلامية يخير مسيحيي الموصل بين اعتناق الإسلام أودفع الجزية وإما القتل».

خاص كردستان. فقد أشارت التقديرات إلى وجود حوالي خمسة آلاف شخص قبل دخول داعش للموصل، هؤلاء الخمسة آلاف تم إعطاؤهم مهلة لا تتعدى يومين للتفاعل مع البيان. ويقول البيان إن زعيم الدولة الإسلامية «الخليفة» أبو بكر البغدادي، وافق على السماح للذين لا يريدون الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، بأن يخرجوا من المدينة بأنفسهم فقط، خارج دولة الخلافة، بحلول ظهر يوم السبت.»[٢] حينها صرح بطريرك الكلدان لويس ساكو لفرانس ٢٤ بأنه «لأول مرة في تاريخ العراق، تفرغ الموصل الآن من المسيحيين... وبحسب ساكو، فإن مغادرة المسيحيين لثاني أكبر مدينة في العراق التي تضم نحو ٣٠ كنيسة يعود تاريخ بعضها إلى نحو ١٥٠٠ سنة، جاءت بعدما وزعت «الدولة الإسلامية» بيانا يطالبهم بتركها.»[٣]

كان العالم مصدوما، وخرجت تصريحات كثيرة تدين هذا العمل الإجرامي حتى من جهات إسلامية، حتى الأزهر الذي قال إنه يعرب عن «انزعاجه الشديد تجاه ما يتواتر من أنباء بشأن عمليات التهجير القسري لمسيحي مدينة الموصل، الأمر الذي يتناقض كليًّا مع المبادئ والتعاليم الإسلامية السمحة، والتي تدعو إلى التعايش والتواصل بين الناس كافة.»[٤] وبطبيعة الحال، فإن الأزهر يريد أن يحسن صورة الإسلام، لكنه لن يستطيع أن ينكر النصوص التي اعتمدتها داعش في تهجير المسيحيين من الموصل، ولا يستطيع أن ينكر التشابه بين ما فعله محمد والصحابة من بعده في المسيحيين واليهود في شبه الجزيرة العربية وما فعلته داعش مع المسيحيين في الموصل وتعاطف السكان المسلمين مع داعش ضد جيرانهم المسيحيين. فقد صرح رئيس أساقفة الكلدان في الموصل إيميل شمعون نونا بالقول أن:

٢. سي إن إن عربي، «المهلة تنتهي السبت ... «داعش» تخيّر مسيحيي الموصل بين الإسلام أو الجزية أو القتل».
٣. موقع فرانس ٢٤، «المسيحيون يغادرون الموصل قبيل انتهاء المهلة التي حددتها لهم «الدولة الإسلامية»».
٤. صحيفة الوطن، «الأزهر يدين التهجير القسري لمسيحيي الموصل: يتنافى مع الإسلام».

> المسيحيين في الشرق الأوسط غدوا بين فكي كماشة، فمن جهة هناك الجماعات المتطرفة التي تستخدم السلاح لغة، ومن جهة أخرى المجتمعات المسلمة التي تنغلق وتعود إلى الوراء عوض أن تنفتح على العالم وتحترم الآخر واختلافه.[٥]

بل إن المطران تحدث عن تواطؤ واضح للعامة من المسلمين مع داعش ضد المسيحيين حيث قال: «تواطؤ سكان الموصل مع داعش ليس بغريب. كان جليًا حتى قبل سقوطها. هناك تعاطف كبير بين بعض سكان الموصل وهذه الجماعة المتطرفة.»[٦]

أكد مسيحيون كثيرون، منهم من استجوبتهم بنفسي حين هجرت عائلاتهم، هذا التواطؤ. وصرح لي بعضهم أنه تلقى تهديدات وسخرية حتى من أقرب جيرانهم من المسلمين حيث قالوا لهم بالحرف: «سنذبحكم يا عباد الصليب، يا كلاب»، «سنأخذ ممتلكاتكم حين تدخل الدولة الإسلامية.» استغرب أحد هؤلاء المسيحيين الذين استجوبتهم في مقابلتي المسجلة معه كيف أن أصدقاء الأمس من المسلمين انقلبوا ضدهم إلى أعداء في مدة قصيرة بمجرد أن استقووا بأخبار قدوم داعش إلى المنطقة. كان مصدوما وهو يكلمني، ولا يعلم أن الثقافة الإسلامية قد ساهمت في صنع الكثير من مشاعرنا وأن أصدقاء الأمس لم يتحولوا فجأة إلى أعداء. بل إن العداء كان متأصلا في النفوس ولم يكن يجد الفرصة للخروج إلا في الظروف المواتية له. بل حتى المدافعون عن المسيحيين قالوا: «هؤلاء أهل ذمة» علينا حسن معاملتهم! حتى المصطلح الذي يدافعون به عن المسيحيين مصطلح إسلامي سنَّه محمد وصحابته. ويعني مصطلح «أهل الذمة» أنهم مواطنون من الدرجة الثانية يتعهد المسلمون بحمايتهم في حال دفعوا الجزية وخضعوا للشروط المذلة التي تفرضها عليهم الدولة

٥. موقع جريدة إيلاف الإلكترونية، «رئيس أساقفة الموصل يستغرب موقف الأزهر الفاتر من داعش».
٦. بوابة الفجر، «رئيس أساقفة الموصل يستغرب موقف الأزهر الفاتر من داعش».

الإسلامية، وهي الشروط نفسها التي اقترحتها عليهم داعش ورفضوها مفضلين الخروج من الموصل على العيش في حالة ذل وهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون.

النصوص وراء طرد داعش للمسيحيين

من أين أتت داعش بفكرة طرد المسيحيين والاستيلاء على ممتلكاتهم؟ من أين أتت بفكرة إعطائهم ثلاثة خيارات؟ هل هي فكرة من صناعة داعش أم من صناعة القرآن والحديث؟ علينا أن نكون صريحين وأن نواجه أنفسنا بأسئلة مباشرة. فاللف والدوران هو الذي ضيّع الشرق الأوسط. فالمسيحيون خضعوا طول التاريخ لشروط مذلة لهم حماية لأنفسهم ولرعاياهم، لكن اتضح أن تلك الشروط لم تحمهم من القتل والتآكل عبر التاريخ. بل ساهمت في خلق ضغوط عليهم أدت في أحيان كثيرة إلى تخلي الكثيرين عن مسيحيتهم والانضمام إلى ديانة الأغلبية تفاديا لشروط التحقير والذل. وهذه هي الغاية التي فُرضت من أجلها تلك الشروط. فقد هاجر بعض الذين كانت لديهم القدرة المادية على فعل ذلك، في حين قُتل آخرون بسبب ثباتهم وإصرارهم على حقوقهم. وأما المسلمون فإنهم دائما في وضع المدافع عن الدين. فواحد يمارس الشطط باسم الدين وواحد يبرئ الدين من أفعال الآخر، وهكذا نضيع نحن بين المطبقين لتعاليم دينهم وبين المبرئين الذين يزينون صورة الدين في وسائل الإعلام. فلا المبرئون استطاعوا فعل شيء لإنقاذ الضحايا غير تلميع صورة دينهم، ولا المتدينون غيروا نظرتهم حين سمعوا آراء المبرئين. والضحية دائمًا هم المسيحيون الذين وقعوا بين المبرئ والمطبق. والمهم هو لديهم أن يفلت الدين من قفص الاتهام. لكن الدين ليس بريئا، بل إنه المسؤول الأول على مآسي المسيحيين، منذ فجر الإسلام إلى اليوم.

النص القرآني واضح وضوح الشمس في معاملة اليهود والنصارى، حيث يقول:

قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ.[٧]

وتطبق الجماعات الإسلامية هذا النص تطبيقا حرفيا على المسيحيين، وأقصد هنا المسيحيين المسالمين. وأما إذا قاوم أي شخص أو رفض أو احتج أو انتقد الإسلام وهذه الأحكام الجائرة، فلن يبقى بعد تحت حكم «أهل الذمة». سيصير حينها تحت حكم الكافر المحارب الذي يجب قتله على أساس أنه محارب للدولة. فلو قام مسيحيو الموصل بالمجادلة مع أعضاء داعش واتهامهم بالظلم أو أي شيء من هذا القبيل، لتعرّضوا للتصفية الجسدية لأنهم سيعدّون حينها كفارا محاربين يُقتلون كما يقتل أي كافر محارب. قال المفسر الكبير ابن جرير الطبري عن هذا النص:

قاتِلُوا أيها المؤمنون القوم الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بالْيَوْمِ الآخِرِ يقول: ولا يصدّقون بجنة ولا نار، وَلا يُحَرّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الحَقّ يقول: ولا يطيعون الله طاعة الحقّ، يعني: أنهم لا يطيعون طاعة أهل الإسلام مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ وهم اليهود والنصارى.[٨]

وتعليقا على إعطائهم الجزية وهم صاغرون، يقول المفسر نفسه:

وأما قوله: وَهُمْ صَاغِرُونَ فإن معناه: وهم أذلاء مقهورون، يقال للذليل الحقير: صاغر... فقال بعضهم: أن يعطيها وهو قائم والآخذ جالس... وقال آخرون: معنى قوله: حتى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ عن أنفسهم بأيديهم يمشون بها وهم كارهون.[٩]

٧. سورة التوبة، الآية ٢٩.
٨. تفسير الطبري ١٠: ٧٨، لسورة التوبة ٢٩.
٩. تفسير الطبري ١٠: ٧٨، لسورة التوبة ٢٩.

بطبيعة الحال، تعد الجزية ضريبة مذلة للمسيحيين. ورغم ذلك يدافع بعض المسلمين عن الجزية لأنها أمر قرآني، ويقولون إنها مجرد ضريبة بسيطة أو يقولون إنها بدل حماية يدفعها المسيحي حتى نحميه، أو هي بدل الجندية. فالمسيحي لا يشارك في الجندية الإسلامية، وبالمقابل يدفع بدل ذلك الإعفاء مالا. وهذه كلها تبريرات لا غير، لأن الجزية في القرآن ضريبة يصاحبها الذل، ولا يدفعها المسلم حتى لو كان لا يشارك في الجندية. فهي ضريبة بدل ضرب عنق المسيحي، يشتري بها عنقه. إنها مثل إتاوة يفرضها القوي على الضعيف مع شروط مذلة تصاحبها، يقبلها المنهزم لأنه ليس له إلا خيار الموت بعدها أو الاستسلام المطلق، أي «الدخول في الإسلام». فالمسيحيون يدفعون الجزية عن يد وهم صاغرون أذلاء محتقرون، والجزية ليست مجرد ضريبة قليلة، بل هي عن كل فرد ذكر بالغ. فلو كنت أنا أبا لثلاثة أطفال بالغين، سأدفع دينارا أو دينارين (بحسب الحاكم) عن نفسي وعن كل ولد من أولادي الثلاثة. ويعادل الدينار بلغتنا في العصر الحاضر ربع الحد الأدنى للدخل السنوي للأسرة. ومعنى ذلك أنه لو كان دخلي متدنيا، فسأدفعه كله بما أني سأدفع عن نفسي وعن أولادي الثلاثة، بينما يدفع المسلم ٢,٥ بالمئة كمقدار للزكاة عن الفاضل من ماله بعد أن يكون قد أخذ كل احتياجاته من أكل وملبس ومشرب. فالباقي من المال الذي دار عليه الحول هو الذي يدفع عنه الزكاة للعائلة كلها بغض النظر عن عدد أفرادها وبغض النظر عن كون أفرادها بالغين أم غير بالغين. فأين العدل في ذلك؟

لنتخيل دولة تفرض نوعين من الضرائب بناء على ديانة المواطن، حيث يدفع المواطن المسلم ضريبة مخففة ٢,٥ بالمئة وهو مرفوع الرأس عن الفائض من ماله الذي دار عليه الحول، ويدفع المواطن المسيحي عن كل ذكر بالغ ربع دخله بغض النظر عن تلبية احتياجاته، ولا يهم إن كان المال قد دار عليه الحول أم لا، ويدفعه وهو ذليل محتقر صاغر. فهل هذه

هي الدولة الإسلامية التي يدعون العالم إلى العيش في كنفها؟ لا يقول الشيوخ الذين يدينون داعش إن نظام الجزية معيب أو غير عادل تجاه غير المسلمين، وبشكل خاص من اليهود والمسيحيين. لكنهم يقولون إن طريقة تطبيقه ووقت تطبيقه معيبان، لكنهم متفقون كلهم على أنه تشريع إلهي ينبغي أن يطبق على المسيحيين واليهود في يوم من الأيام. وهذه مصيبة، فلا فرق في الفكرة بين مسلم معتدل ومسلم متشدد في هذا الأمر. فالفرق يكمن في وقت التطبيق وكيفيته فحسب.

لم يكن طلب الجزية من المسيحيين من طرف داعش الأول من نوعه. إذ سبقتهم الجماعات الإسلامية (القاعدة) في ٢٠٠٤، حيث طلبت من المسيحيين في الدورة بدفع أموال لمساعدة المجاهدين كجزية مقابل ضمان حمايتهم (المنطق نفسه الذي يدافع به المسلمون عن الجزية وتبريرها). وهذه الفكرة «وهي برغم غرابتها على ثقافة المجتمع العراقي وعدم قبولها من قبل السكان المسلمين، فقد أدت الى تفريغ مناطق كاملة من المسيحيين.»[١٠] فالدورة التي كانت تسمى فاتيكان العراق صارت خالية تماما من المسيحيين.

إن نص سورة التوبة ٢٩ ساري المفعول إلى اليوم. إنه ليس نصا تاريخيا خاصا بالنصارى واليهود في عصر محمد. لقد فهمه الجيل الأول في الإسلام على أنه صالح للتطبيق في عصرهم. وتتابعت الخلافات بعد ذلك، واعتقدت كلها بصحته لزمانها. ولا يوجد من عدّه غير صالح لوقته. وفيه يذكر القتال والجزية، وهما الخياران اللذان أعطتهما الدولة الإسلامية للمسيحيين في الموصل، إضافة إلى خيار ثالث وهو الدخول في الإسلام، وهذا شيء مفهوم ومعروف. فمن صار مسلما سقطت عنه الجزية وسقط عنه السيف، لأن دم المسلم (المسلم الحقيقي) حرام على أخيه المسلم. وتوضح الآية الخامسة من سورة التوبة أن دخول الشخص الكافر في الإسلام كفيل بأن يعفيه من القتال والجزية: «فَإِذَا

١٠. معهد العربية للدراسات، «المسيحيون في العراق : علامات الزوال الأخير».

انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»[11] وتجعل التوبة مع الصلاة والزكاة (وهذا يعني إسلام الشخص) المسلمين يخلون سبيل الكافر لأنه صار مسلما مثلهم.

التشابه بين طرد محمد لليهود وطرد داعش للمسيحيين

تعيد مشاهد طرد المسيحيين من بيوتهم وخروجهم منها بعدما كتب عليها «حرف النون» إلى ذهن من يطلع على التراث الإسلامي مشاهد خروج قبيلة يهودية من شبه الجزيرة العربية وصفها القرآن بتشفٍّ وفرحة فقال على لسان الله:

> هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.[12]

لقد طرد محمد قبيلة بني النضير اليهودية من بيوتهم، وحرق محمد وجيشه نخلهم وزراعتهم، وأعطوهم مهلة للخروج من بيوتهم. وبما أنهم يهود لم يريدوا أن يتركوا كلمات التوراة التي يكتبونها على قوائم أبوابهم، فصاروا بسرعة يحاولون خلعها من الأبواب. فاعتقد المسلمون أن اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم فأخذوا يتشفون فيهم ويساعدونهم في تخريب البيوت ونزع أبوابها وهم

١١. سورة التوبة، الآية ٥.

١٢. سورة الحشر، الآيات ٢ إلى ٤.

يضحكون على هذا العمل، وكأنه نصرة من الله لهم لأنه يقوم بعمل التخريب على أيديهم. وأكد حتى المفسرون المسلمون هذه الحقيقة، فقد قال الطبري:

> هم بنو النضير قاتلهم النبيّ (ص) حتى صالحهم على الجلاء، فأجلاهم إلى الشام، «يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ» [يقصد] بني النضير من اليهود، وأنهم يخربِون مساكنهم، وذلك أنهم كانوا ينظرون إلى الخشبة فيما ذُكر في منازلهم مما يستحسنونه، أو العمود أو الباب، فينزعون ذلك منها بأيديهم وأيدي المؤمنين.[١٣]

عندما كنا صغارا، كنا نردد هذه الآيات في القرآن من دون فهم لمجرد الحفظ. لكن الفقيه كان أحيانا يتولى الشرح ويحكي لنا كيف أن الرسول طرد يهود بني النضير، وحرق نخلهم، وساعدهم المسلمون على تخريب بيوتهم. كنا نفرح ونهلل، لأن الله نصر نبيه على اليهود فأجلاهم إلى الشام. لا شك أن الذين طردوا مسيحيي الموصل لا تغيب عنهم هذه الصورة. بل رأوا فيها انتصارا من الله على مسيحيي الموصل، ولاسيما أنهم من الأغنياء وأن بيوتهم جميلة. لقد رأوا في ذلك نصرا إلهيا. لم يشتغلوا على تلك البيوت ولم يتعبوا فيها، إنما أخذوها بكل بساطة، لأن المسيحيين رفضوا الدخول في الإسلام، وخرجوا منها في أقل من ٤٨ ساعة. أخذها الإخوة منهم وتقاسموها بينهم لأنها غنيمة صارت من أملاك الدولة الإسلامية. وبطبيعة الحال، فإن حرف النون المكتوب يعني نصراني. فالمسلمون الملتزمون بالإسلام يصرون على عدم تسمية المسيحيين بالمسيحيين، بل يسمونهم نصارى لأنهم يعدون أن الله هو الذي سماهم في القرآن نصارى إمعانا في احتقارهم. لم يسمّهم مسيحيين لأنهم إذا حملوا اسم المسيح سيكون ذلك شرفا لهم. فهم لا يحملون اسم المسيح بل يحملون اسم منطقة. وبالمناسبة، لم أرَ قط السلفيين والشيوخ الأكثر تشددا

١٣. تفسير الطبري ٢٨: ٣٠، لسورة الحشر الآية ٢.

في الفضائيات أو في الخطب يستخدمون تعبير «مسيحيين». بل يخاطبون المسيحيين بالنصارى دائما إمعانا في احتقارهم والتزاما بالتسمية القرآنية.

حين رأيت ما حصل لمسيحيي الموصل، أصابتني رغبة في البكاء والدموع. رأيت كيف أن المسيحيين في الموصل فجأة خسروا كل شيء. تخيل شخصا اشتغل حياته كلها وبنى بيته وجمع ماله فجأة يترك كل شيء. بل إن بعضهم بَلَّغَ عنهم جيرانهم لكي تأتي عناصر الدولة لتضع علامة نون على بيته، بحسب ما قال لي شهود عيان من المسيحيين المهجرين. وبسبب ذلك الألم الذي كان يعتمل في قلبي، نظمت قصيدة في الموضوع أسميتها «نون» وتناقلها المسيحيون العراقيون عبر العالم كله وتداولوها على مواقع التواصل الاجتماعي. بل صاروا يرددونها في مظاهراتهم كما حصل في كندا يوم ٣٠ أغسطس ٢٠١٤، حيث سارت مسيرة كبيرة كان من قادتها الأب كميل إسحاق راعي كاتدرائية مار يعقوب للسريان الأرثوذكس في مونتريال - كندا. تلا الأب كميل القصيدة ولحنها ورددها معه المئات من المشاركين في المظاهرة.

النصوص تحرض على اضطهاد اليهود والمسيحيين

الكره للمسيحيين متجذر في قلبي منذ الصغر. وكانت كلمة نصارى شتيمة في قريتي. فحين نريد أن نقول عن شخص إنه عديم الرحمة، فإننا نقول إنه «نصراني». فالنصراني في مخيلتي كان الشخص عديم الرحمة والكافر الذي لا يؤمن بالله. وحين كبرت وقرأت النصوص الإسلامية ودرستها عن قرب، عرفت أن ما تردد داخل مجتمعي ليس إلا صدى لتعاليم إسلامية قديمة توراثتها الأجيال حتى صارت تجري فينا مجرى الدم. لم نعد نحتاج إلى مدارس لنتعلمها، لأنها صارت كالقصص التي تحكيها الجدات لأحفادهن، حيث لا أحد يبذل مجهودا لكي يعلمها لك. صارت جزءا من الثقافة، جزءا من الجينات الثقافية المتوارثة.

نصوص كثيرة تكرس لهذه الثقافة وتؤصل لها، ومنها هذا الحديث الذي قاله محمد: «لاَ تَبْدَؤُوا الْيَهُودَ وَلاَ النَّصَارَى بِالسَّلاَمِ . فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ.»[١٤] المسلم مطالب بأن لا يلقي السلام على أي يهودي أو مسيحي يلقاه في الطريق، بل عليه أن يزحمه إلى أضيق الطريق بحيث يضيق عليه حتى في سيره. وبطبيعة الحال، لن يستطيع المسلمون ممارسة هذا الحديث في المجتمعات التي فيها قانون غير إسلامي، لكن تخيلوا لو بقي المسيحيون في الموصل تحت حكم الشريعة الإسلامية، لمارس المسلمون عليهم هناك هذا النص ولما كان من حقهم الاعتراض لأنه شرع الله ورسوله. ولن يستطيع مشايخ السعودية وجامعاتها والأزهر نفسه إنكار هذا النص. لكنهم سيقولون: «الظرف الحالي غير مناسب لتطبيقه.» لكن «داعش» تعد الظرف مناسبا. ولم لا وهي تسيطر على أماكن شاسعة وتستطيع تطبيق الإسلام فيها كما جاء في نصوصه. وفي تفسير هذا الحديث كوارث لا حصر لها منها معاملة عنصرية بامتياز. فقد قال العالم السوري يحيي بن شرف النووي من القرن الثالث عشر الميلادي:

> اتفق العلماء على الرد على أهل الكتاب إذا سَلَّموا، لكن لا يقال لهم وعليكم السلام بل يقال عليكم فقط أو وعليكم... «وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه» قال أصحابنا: لا يُترك للذمي صدر الطريق، بل يضطر إلى أضيقه إذا كان المسلمون يطرقون. فإن خلت الطريق عن الزحمة فلا حرج. قالوا: وليكن التضييق بحيث لا يقع في وهدة ولا يصدمه جدار ونحوه.[١٥]

هذا الأمر يشبه الممارسات النازية التي كانت تمارس ضد اليهود. فالعلامات على بيوت المسيحيين في الموصل وهذا الحديث الذي يمنع المسيحيين واليهود من استخدام وسط الطريق وإفساحها للمسلم لأنه أولى بها ممارسات عنصرية على

١٤. صحيح مسلم ١٤: ١٢١، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، وكيف يرد عليهم.
١٥. شرح النووي على صحيح مسلم ١٤: ١٢١، ١٢٣.

العالـم أجمـع أن يحاربهـا في النصـوص قبـل الواقـع. فـإن تركنـا هـذا الفكـر ينتشر ـ بحجـة أنـه ديـن علينـا احترامـه ـ فـإن محاربتـه على أرض الواقـع لـن تجـدي نفعـا. فالفكـر هـو المصـدر الرئيـسي للممارسـة. وعلينـا أن نهـزم هـذا الفكـر العنـصري. هـل سـيقبل المسـلمون أن يكـون لدى المسـيحيين أو اليهـود نـص مقـدس يقرؤونـه ويعلمونـه في جامعاتهـم ومراكزهـم ويـردده رجـال دينهـم ومؤسسـاتهم الدينيـة وفضائياتهـم ليقولـوا: «لا تبـدؤوا المسـلمين بالسـلام، وإذا لقيتـم أحدهـم في طريـق فاضطـروه إلى أضيقـه»؟ ومـن المؤسـف أن هـذه النصـوص تترجـم للغـات الأجنبيـة وتغـزو حـتى عقـول الشـباب المسـلم الذي ولد في بيئـات تحـترم حقـوق الإنسـان ولا تمـيز بـين البـشر على أسـاس الديـن أو العـرق أو الجنـس.

لـم يتـم إجـلاء المسـيحيين بـكل بسـاطة مـن دون نـص يقيـس عليـه المتطرفون عملهـم أو يسـتندون عليـه في تنفيـذ أوامرهـم. فلـو لـم يكـن هنـاك أي نـص ديـني لكانـوا في حـرج أمـام أتباعهـم. فهـم لديهـم فقهـاء وقضـاة شرعيـون ومجلس شـورى يحـاول أن يبحـث في النصـوص قبـل الإقـدام على أي قـرار كبـير كهـذا. وبالتـالي، فـإن مـن النصـوص الـتي تـبرر طـرد المسـيحيين هـو مـا فعلـه الرسـول نفسـه وتبعـه الصحابـة مـن بعـده. لقـد تعهـد محمـد أمـام أصحابـه قائـلا: «لأُخْرِجَـنَّ الْيَهُـودَ وَالنَّصَـارَى مِـنْ جَزِيـرَةِ الْعَـرَبِ، حَـتَّى لاَ أَدَعَ إِلاَّ مُسْـلِماً.»[16] وقد نفـذ عمـر بـن الخطـاب هـذه الوصيـة لمحمـد في مـا بعـد. ولذلـك هـو مـن روى هـذا الحديـث بنفسـه. فالمسـيحيون إذن مكروهـون مـن محمـد ومـن صحابتـه وخلفائـه، ولا غرابـة أن يكـون البغـدادي ـ وهـو خليفـة الرسـول كمـا يـدعي ـ كارهـا للمسـيحيين وطـاردا لهـم اقتـداء بسـنة الرسـول والخلفـاء.

١٦. صحيح مسلم ١٢: ٧٤، كتاب الجهاد والسير، باب «إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب».

الفتاوى الدينية تعتمد على النصوص

ما زلت تجد إلى اليوم على مواقع السعودية فتاوى تحرم وجود المسيحيين واليهود وكل مشرك في جزيرة العرب. فما هو الفرق بين داعش وبين السعودية وهي تسمح لرجال دين (وهم رجال دولة معتمدين في الوقت نفسه) بأن ينشروا فكرهم هذا على مواقع رسمية من دون محاسبة؟ هذه فتوى ابن باز المفتي السابق للمملكة العربية السعودية الذي جاءه سؤال من أحد المسلمين فأجابه بفتوى:

> السؤال: يقول الرسول (ص) : «لا يجتمع في جزيرة العرب دينان.»[١٧] لكننا نجد في معظم بلدان الجزيرة العربية وجوداً كثيفاً للعمالة غير الإسلامية، وصل بها الأمر إلى حد بناء دور عبادة لها سواء أكانت للنصارى أم للهندوس أم للسِّيخ. ما الموقف الواجب على حكومات هذه البلدان اتخاذه حيال هذه الظاهرة المؤلمة ذات الخطر الداهم؟ [١٨]

الجواب: لقد صح أن الرسول (ص) قال:

> «لا يجتمع في الجزيرة دينان»، وصح عنه أيضاً أنه أمر بإخراج اليهود والنصارى من الجزيرة، وأمر أن لا يبقى فيها إلا مسلم، وأوصى عند موته (ص) بإخراج المشركين من الجزيرة، فهذا أمر ثابت عن رسول الله (ص) وليس فيه شك. والواجب على الحكام أن ينفذوا هذه الوصية كما نفذها خليفة المسلمين عمر (ض) بإخراج اليهود من خيبر وإجلائهم، فعلى الحكام في السعودية وفي الخليج وفي جميع أجزاء الجزيرة، عليهم جميعاً أن يجتهدوا كثيراً في إخراج النصارى والبوذيين والوثنيين والهندوس وغيرهم من الكفرة وألا يستقدموا إلا المسلمين.[١٩]

١٧. الموطأ للإمام مالك ٤: ٢٣٤.
١٨. موقع الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، فتوى «وجوب إخراج الكفار من جزيرة العرب».
١٩. نفس المصدر.

هـذا كلام لشـخص رفيـع المسـتوى في دولـة تـدعي اليـوم أنهـا ضـد الإرهـاب وضـد داعـش ولا توافـق على تصرفـات هـذا التنظيـم، لكنهـا في المقابـل تنـشر الفكـر المؤسـس له بـل والمطابـق له نظريـا. والفـرق هـو أن داعـش أخرجتـه إلى أرض الواقـع، بينمـا تكتـفي السـعودية بنـشره حـتى الآن وتطبيقـه تطبيقـا محـدودا بمنـع المشركـين مـن دخـول مكـة.

محمد هو القدوة في التعامل مع الكفار

ليـس الحقـد على المسـيحيين والإصرار على التنكيـل بهـم وليـد اليوم، بـل له جذور في الديـن. وتشـكل تلـك القصـص الـتي سـمعناها وقرأناهـا عـن النـبي محمـد ومعاملاتـه مـع النصـارى الوجـدان الأصـلي لـكل مسـلم يحـب النـبي ويقدسـه. لقـد قرأنـا عـن حروبـه مـع المشركـين والكفـار واحتفلنـا بهـا. ومـا زلنـا إلى اليوم نحتفـل بذكـرى معركـة بـدر بـين محمـد والمشركـين وانتصـار محمـد على الكفـار في كل ١٧ رمضـان رغـم أن الحـدث يعـود إلى أكـثر مـن ١٤٠٠ سـنة مضـت. وسـيجد كل مـن يدرسـها جيـدًا أنهـا عبـارة عـن معركـة خاضهـا محمـد للاسـتيلاء على قافلـة لقريـش كانـت محملـة بالبضائـع وراجعـة مـن الشـام كمـا تقـول القصـة. وكان غـرض محمـد وأصحابـه أن يمارسـوا مـا يمارسـه القراصنـة اليـوم. كانـوا قراصنـة مطروديـن مـن مجتمعهـم، فأحبـوا الانتقـام باعـتراض القافلـة وأخـذ كل الأمـوال، لكـن القافلـة نجـت وخرجـت القبيلـة مسـتنكرة هـذا العمـل. فالتـقى الجمعـان وخسرت قبيلـة محمـد أمـام المسـلمين فعُـدَّ ذلـك نـصرا مـن الله وأن الله أرسـل ملائكتـه ليسـاعدوا محمـدًا، وكأن الله كان موافقـا على عمليـة القرصنـة، بـل ومـؤازرا لنبيـه. يقـول القـرآن واصفـا المعركـة:

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.[٢٠]

فضرب الأعناق ليس من ابتداع داعش بل هو سُنة سنها محمد وسنها القرآن بوحي من الله وبتأييد من الملائكة. وما زال المسلمون إلى اليوم يحتفلون بهذا النصر الذي قطعت فيه رؤوس أناس لمجرد أنهم خرجوا ليدافعوا عن قافلتهم التي أراد أن يعترضها محمد وقراصنته.

صحيح أن قصص العهد القديم تحتوي عنفا مماثلا عند اليهود والمسيحيين، لكن القساوسة ورجال الدين المسيحيين لا يجعلون تلك القصص مقياسا للحياة اليوم، بل يستخلصون منها العبر الروحية فقط ويتركون الجانب المادي منها على أساس أنه كان ظرفا خاصا يليق بالخلفية والظروف التي كانت وقتها، وبالتالي لن تجد القس «ريك وارن»، أو المبشر «بيلي غراهام»، أو بابا الفاتيكان، يطلع على إحدى القنوات وهو يقول للمسيحيين علينا أن نطبق دوران يشوع حول أريحا اليوم وندور حول القاهرة أو الرياض لنسقطها، لنحتلها ونجعلها بلدا مسيحيا. فقد حسم اللاهوت المسيحي هذا الموضوع منذ زمن، بينما ما زال المسلمون يعتقدون أن محمدا هو النموذج الأسمى الذي يجب الاقتداء به في كل شيء، ابتداء من طريقة لباسه وأكله وطريقة نومه، بل حتى في دخوله للحمام وطريقة ممارسته للجنس، وصولا إلى الحرب وتكتيكاتها وقراراتها وكيفية تعامله مع أعدائه من اليهود والمسيحيين والمشركين الوثنيين. وكلها أحكام دقيقة يعدّها المسلمون نموذجا مثاليا ينبغي تطبيقه بالحرف اليوم. وهذه هي الكارثة الكبرى. إذ يتفق داعش والسعودية والأزهر على هذا المبدأ، غير أن الفرق هو أن داعش خرجت

٢٠. سورة الأنفال، الآيات ١٢ و ١٣.

للتطبيق بينما يقول الآخرون إن الظروف ليست مواتية لتطبيق كل شيء فيطبقون بعضه ويتركون الآخر.

قال القرآن عن محمد: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ».[٢١] إنه هو الأسوة في كل شيء. فتعاليمه حتى في الأمور الصغيرة هي التي لها الأهمية، وعلى المسلم أن يرفض كل ما يخالفها من تعاليم البشر. قال المفسر الكبير القرطبي الذي عاش في القرن الثالث عشر: «الأسوة هي القدوة. والأسوة ما يتأسّى به؛ أي يُتعزَّى به. فيقتدَى به في جميع أفعاله ويتعزّى به في جميع أحواله.»[٢٢] تتحكم تعاليم محمد ومعاملاته في كل صغيرة وكبيرة في حياة المسلم، حيث جاء في الحديث:

> عَنْ عَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ سَلْمَانَ ، قَالَ: قِيلَ لَهُ: قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى الْخِرَاءَةَ. قَالَ، فَقَالَ: أَجَلْ . لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ، أوَ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِاليَمِينَ، أَوْ أَنْ نسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلاَثَةِ أَحْجَارٍ. أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ [يعني: روث] أَوْ بِعَظْمٍ.[٢٣]

ولذلك فإن أية محاولة لفصل تصرفات الجماعات الإسلامية عن الدين الإسلامي هي محاولة فاشلة ومقاربة لن تنجح، لأنهم أكثر الجماعات التصاقا بالنصوص وأكثرهم بحثا على تطبيقها بحذافيرها. وسيقرأ الشباب المسلم وسيعرف من الذي يتمسك بالنصوص أكثر. فليس الحل محاولة تشويه العلاقة بين الإسلام والجماعات الإسلامية، بإضفاء «السلم» على الإسلام، و«الإرهاب» على الجماعات. إذ سيجد كل من يقرأ هذه النصوص أن الجماعات الإسلامية أكثر إخلاصا لروح النص من الآخرين المجملين لصورة الإسلام.

---

٢١. سورة الأحزاب، الآية ٢١.
٢٢. تفسير القرطبي ١٤: ١٥٦، لسورة الأحزاب الآية ٢١.
٢٣. صحيح مسلم ٣: ١٢٣، كتاب الطهارة، باب «الاستطابة».

كيف عامل محمد وصحابته المسيحيين؟

كيف كانت معاملات المسلمين الأوائل مع قبائل «النصارى»؟ احتدم نقاش لاهوتي حاد بين محمد و«نصارى» نجران، وهي واحدة من القبائل العربية المسيحية المعاصرة لمحمد، حول طبيعة المسيح. ويبدو أن النقاش لم يعجب محمدا، فأراد أن يحسمه، لكن ليس بالمناظرة العقلية المنطقية. بل أراد أن يحسمه بطريقته. يقول القرآن واصفا الحدث:

> إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ.[٢٤]

لقد طلب محمد أن يخرج هو وأبناء قبيلة نجران المسيحية في مواجهة اسمها المباهلة أو الملاعنة. كانت هذه الملاعنة طريقة للدعاء على الكاذب، لكن تنفيذ اللعنة قد يتم عن طريق الخصم نفسه ويعده نوعا من الاستجابة الإلهية لوقوع اللعنة. فالمفسر ابن كثير مثلا يذكر لنا أن محمدا بعث برسالة إلى نصارى أهل نجران خلال أطوار هذه الملاعنة، حيث قال ناقلا إحدى الروايات المتعلقة بالواقعة إن رسول الله (ص)، كتب إلى أهل نجران مايلي:

٢٤. سورة آل عمران، الآيات ٥٩ إلى ٦١.

باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، من محمد النبي رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران سلْم أنتم، فإني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب. أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب، والسلام.[٢٥]

كان ذلك تهديدًا صريحًا بإعلان الحرب في حال رفضهم لاقتراحات محمد. فخاف قادة قبيلة نجران في نهاية الأمر من محمد وتراجعوا عن الملاعنة، لأنهم علموا أن الملاعنة ستنتهي بقتلهم، ليس لأن الله سيستجيب من السماء لدعاء محمد ويلعنهم بل لعلمهم أن محمدا سينفذ هذه الاستجابة بسيوف جيشه. فكانوا أول قبيلة تدفع الجزية لمحمد، وعقدوا معه صلحا بطعم المر. سجّل لنا المحدثون المسلمون هذا الصلح كالتالي:

صَالَحَ رَسُولُ الله (ص) أَهْلَ نَجْرَانَ عَلَى أَلْفَيْ حُلَّةٍ. النِّصْفُ في صَفَرٍ وَالبقية في رَجَبٍ يُؤَدُّونَهَا إِلَى الْمُسْلِمِينَ وَعَارِيَةَ ثَلاَثِينَ دِرْعاً وَثَلاَثِينَ فَرَساً وَثَلاَثِينَ بَعِيراً وَثَلاَثِينَ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ السِّلاَحِ يَغْزُونَ بِهَا وَالْمُسْلِمُونَ ضَامِنُونَ لَهَا حَتَّى يَرُدُّوهَا عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ بالْيَمَنِ كَيْدٌ ذَاتُ غَدْرَةٌ عَلَى أَنْ لاَ تُهْدَمَ لَهُمْ بَيْعَةٌ، وَلاَ يُخْرَجَ لَهُمْ قَسٌّ، وَلاَ يُفْتَنُوا عن دِينِهِمْ، مَا لَمْ يُحْدِثُوا حَدَثاً، أَوْ يَأْكُلُوا الرِّبَا.[٢٦]

لو كان نصارى نجران يخافون اللعنة من الله، فما الداعي إلى الصلح ودفع الجزية في هذا المقام؟ فهل يدفع جزية كل من تراجع عن المناظرة والملاعنة؟ فالأمر واضح أشد الوضوح على أنه كان إعلان حرب من طرف محمد وأصحابه، ولم تكن عند أهل نجران إلا خيارات قليلة، فاختاروا دفع الجزية حفاظا على حياتهم وحياة أولادهم. لكن من المؤسف أنه بعد

٢٥. تفسير ابن كثير ٢: ٤٧، لسورة آل عمران الآية ٥٩.
٢٦. سنن أبي دواد ٨: ٢٩٣، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في أخذ الجزية، رواه ابن عباس.

مجيء عمر بن الخطاب، تم إجلاؤهم من قبيلتهم بعد بضعة سنوات من العهد الذي أبرموه مع محمد. وهذه هي المشكلة: قد تتغير أحوال أي مسيحي أو يهودي يعيش في ظل الدولة الإسلامية بتغير الحاكم، لأن القانون الذي يحتكم إليه أصلا قانون جائر مهلهل يمكن أن يفسر على أكثر من وجه، لأن شرطا مثل شرط بقاء المسيحيين في أرض المسلمين (مثل ما حصل مع مسيحيي نجران) «ما لم يحدثوا حدثا أو يأكلوا الربا» شرط مهلهل. فكل شيء يمكن أن يفسر بأنهم أحدثوا حدثا ويعاقبوا من أجله. وهذا هو ما حصل بالفعل. فقد طردهم عمر بن الخطاب إلى الكوفة بعدما كثر عددهم وصار يخاف ثورتهم على المسلمين.[٢٧] أليس هذا ما فعلته داعش بمسيحيي الموصل؟ وهكذا يكرر التاريخ نفسه، حيث تجعل داعش السلف النموذج الذي ينبغي أن يحتذى به في التعامل مع النصارى واليهود. ولن يجدوا في التاريخ الإسلامي أفضل من محمد وصحابته الأوائل نموذجا. ولذلك فهم يطبقون بالحرف ما قرؤوه، بل ويعدّون أنفسهم في قمة التدين إن صاروا على نهج محمد والخلفاء.

لم يتوقف الأمر عند محمد والخلفاء، بل إن تاريخ الشرق الأوسط وشمال إفريقيا لخير شاهد على أن الإسلام أصر منذ ظهوره إلى اليوم على محو الوجود المسيحي من هذه المنطقة. فبعدما كان الشرق الأوسط ذا أغلبية ساحقة من المسيحيين سواء أكان ذلك في سوريا أم العراق أم مصر أم لبنان، أوشكت الأقليات المسيحية هناك على أن تندثر اليوم بسبب ما تعرضت له على مر التاريخ. أما شمال إفريقيا، فقد استطاع الإسلام محو المسيحية منها محوا تاما. ولولا التاريخ والبقايا الأثرية الموجودة في كل من الجزائر وتونس وفي التراث الأمازيغي، لاعتقدنا أنه لم يكن للمسيحية وجود

٢٧. جاء في مصنف ابن أبي شيبة ٨: ٥٦٥ مايلي: «كان أهل نجران قد بلغوا أربعين ألفًا، قال: وكان عمر يخافهم أن يميلوا على المسلمين، فتحاسدوا بينهم، قال: فأتوا عمر، فقالوا: إنا قد تحاسدنا بيننا فأَجْلِنَا، قال: وكان رسول الله (ص) قد كتب لهم كتابًا أن لا يجلوا، قال: فاغتنمها عمر فأجلاهم...» .

قط في شمال إفريقيا. فنحن لا نجد اليوم من كنيسة قرطاج التي كان يفتخر بها شمال إفريقيا إلا الأطلال. وفي سوق أهراس (الجزائر حاليا) أو هيبو في القرن الرابع الميلادي، ولد الفيلسوف واللاهوتي العظيم أبو اللاهوت الغربي القديس أوغسطينوس الأمازيغي. وفي القرن الثاني للميلاد وفي قرطاج بالتحديد (تونس حاليا)، ولد اللاهوتي الكبير ترتليانوس الذي صاغ واحدا من أهم المصطلحات المسيحية (مصطلح الثالوث المقدس) وصاحب المقولة الشهيرة: دماء الشهداء بذار الكنيسة.[٢٨] ولا ننس، بطبيعة الحال، كبريانوس الذي ولد في القرن الثالث الميلادي في قرطاج أيضا، وصار لاحقا أسقف قرطاج ومات شهيدا بسبب إيمانه في قصة إعدام شهيرة، حيث تقدم بنفسه إلى منصة الإعدام وخلع عباءته وأعدمته السلطات الرومانية بقطع رأسه،[٢٩] مع العلم أنه قبل ذلك نجد القديس مرقس ليبي الأصل، وهو مؤسس المسيحية القبطية وناشرها في مصر، وصارت بسببه الإسكندرية عاصمة للعلم ومدرسة للمسيحية الأرثوذكسية. وأما ليبيا، فقد أنجبت سمعان القيرواني المشهور الذي حمل الصليب عن المسيح وعاد لينشرها في ليبيا، وبشكل خاص في قيرونا التي كانت تضم تجمعا ليهود الشتات. وكان أوريجانوس المفسر العظيم للكتاب المقدس من مواليد مدينة الإسكندرية أيضا في القرن الثاني الميلادي. كتب أكثر من ٦٠٠٠ مؤلَّف. وهو من أكبر علماء المسيحية في القرون الأولى.

الإسلام طمس تاريخ شمال إفريقيا

تبخّر هذا كله، ولم نعد نقرأ في كتب التاريخ إلا عن التاريخ الإسلامي. ففي المغرب مثلا، بدأتُ دراسة التاريخ في المرحلة الابتدائية بدرس واحد عن سكان المغرب الأصليين الأمازيغ، وبعد ذلك لم أقرأ إلا عن التاريخ

28. Apologeticus, Chapter 50.

٢٩. التراث المسيحي في شمال إفريقيا ١٥٨.

الإسلامي. ونحن لا نعرف إلا القليل عن تاريخ المنطقة المسيحي والوثني، وكأنه مرحلة جاهلية لا ينبغي أن نفتخر بها ولا أن تُذكر. فمعظم سكان شمال إفريقيا لا يعلمون شيئا عن تاريخها المسيحي. لا يعلمون من هو القديس أغسطينوس ولا من هو ترتليانوس ولا من هو كبريانوس، ولا يعلمون أن الكنيسة هناك ولدت واحدا من أكبر التيارات المسيحية التي كانت تحارب الظلم وتحارب البطش، وتحولت بعد ذلك إلى ما يعرف بحركة الدوناتيين. وتفخر شوارع المغرب وتونس والجزائر بالفاتحين العرب، وتحمل أسماءهم، ولا تذكر شيئا عن تاريخها قبل الإسلام إلا بعض الآثار المتناثرة هنا وهناك والتي لا يعرفها إلا المتخصصون. إنه طمس متعمد لكل ما هو غير إسلامي، رغم أن المغرب شهد مقاومة كبيرة لدخول العرب المسلمين. يتم تصوير الإسلام وكأنه جاء منقذا لتلك المناطق من الجهل والظلام، وأن الناس كانوا ينتظرون ويتلهفون إلى دخول الإسلام لشمال إفريقيا، في حين أن سكان شمال إفريقيا الأمازيغ كانوا رافضين ومقاومين للإسلام.

يقول لنا ابن خلدون المؤرخ التونسي الذي عاش في القرن الرابع عشر أن الأمازيغ «ارتدوا بإفريقية المغرب اثنتي عشرة مرة وزحفوا في كلها للمسلمين ولم يثبت إسلامهم إلا في أيام موسى بن نصير وقيل بعدها»،[٣٠] بسبب ما تعرضوا له من قتل وسلب ونهب من طرف الغزاة العرب المسلمين. فعمرو بن العاص الذين حكم مصر أيام خلافة عمر بن الخطاب لم يطلب الجزية فقط من سكان برقة (ليبيا حاليا) حتى يتركهم في حالهم. بل عندما عجزوا عن دفع الجزية نظرا لفقرهم وقلة أموالهم طلب منهم بيع أولادهم لتسديد الجزية. يقول البلاذري المؤرخ الفارسي من القرن التاسع: «عمرو بن العاص كتب في شرطه إلى أهل لواتة من البربر من أهل برقة، أن عليكم أن تبيعوا أبناءكم ونساءكم فيما عليكم من الجزية.»[٣١]

٣٠. تاريخ ابن خلدون ٦: ١٢١.
٣١. فتوح البلدان ١: ٢٦٥.

يتحدث ابن خلدون عن الأمازيغ فيقول: «فكان البربر بإفريقية والمغرب قبل الإسلام تحت ملك الفرنج وعلى دين النصرانية الذي اجتمعوا عليه.» ثم يكمل لنا الصورة عما حصل لهم على يد الغزاة: «فكان من هزيمة العرب لهم وفتحهم لسبيطلة وتخريبهم إياها وقتلهم جرجير ملكهم. وما نفلهم الله من أموالهم وبناتهم.»[٣٢] قام عمرو بن العاص بنهب الأمازيغ وبإرغامهم بقوة السيف على دخول الإسلام، ومن أبى منهم أباده. ويسجل لنا ابن خلدون هذا بكل وضوح فيقول عن عمرو بن العاص: «ووضع السيف في أهل البلاد لأنهم كانوا إذا جاءت عساكر المسلمين، أسلموا فإذا رجعوا عنهم ارتدوا... وكان يغزو ويبعث السرايا للإغارة والنهب ودخل أكثر البربر في الإسلام.»[٣٣] وفي مكان آخر يتحدث عما فعله المسلمون العرب بالأمازيغ الذين رفضوا الإسلام: «فأثخن العرب فيهم واتبعوهم في الضواحي والجبال والقفار حتى دخلوا في دين الإسلام طوعاً وكرهاً وانقادوا إلى إيالة مصر.»[٣٤] كلام واضح يدل على أن الأمازيغ تعرضوا لأبشع حملات التحويل القسري إلى الإسلام.

حدثت تحت قيادة موسى بن نصير، وهو أحد أمراء الحرب الذين قادوا الجيوش العربية للدولة الأموية والذي عيّنه الوليد بن عبد الملك سادس خلفاء بني أمية واليا على إفريقيا، أكثر التوسعات التاريخية حتى وصلت «الأندلس». وكان موسى بن نصير الذي أرسله الوليد هذا أكثر من فتك بالأمازيغ، وهو الذي قضى على المسيحية نهائيا في شمال إفريقيا. يقول ابن خلكان المؤرخ الكردي الذي ولد في أربيل وعاش في دمشق في القرن الثالث عشر الميلادي: «ثم خرج موسى غازياً، وتتبع البربر وقتل فيهم قتلاً ذريعاً، وسبى سبياً عظيماً.»[٣٥] وأعظم ما قام به موسى بن نصير هو سبيه الذي لم يوجد له مثيل في التاريخ الإسلامي. يقول ابن كثير المفسر والمؤرخ

---

٣٢. تاريخ ابن خلدون ٦: ١٢٥ .
٣٣. نفس المصدر ٣: ١٢.
٣٤. نفس المصدر ٧: ٩.
٣٥. وفيات الأعيان ٣: ١٦٠.

المسلم السوري من القرن الرابع عشر: «ولم يسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير أمير المغرب.»[٣٦] دخل موسى بن نصير منطقة اسمها سقوما آنذاك، وهي قريبة من مدينة فاس المدينة المشهورة حاليا في المغرب، وبعث منها مائة ألف من السبايا حتى إن الوليد الخليفة نفسه لما سمع الخبر لم يصدقه، واعتقد أنها مجرد مزحة. يقول ابن خلدون في تاريخه:

> موسى بن نصير لما فتح سقوما كتب إلى الوليد بن عبد الملك أنه صار لك من سقوما مائة ألف رأس. فكتب إليه الوليد بن عبد الملك: ويحك إني أظنها من بعض كذباتك فإن كنت صادقاً فهذا محشر الأمة.[٣٧]

هذا غيض من فيض. أما ما حدث في مصر[٣٨] وفي العراق وسوريا فلا يسع هذا الكتاب لذكره، ولكنه لا يختلف كثيرا عما حصل في شمال إفريقيا. لكن الفرق يكمن في أنه في مصر والبلدان الأخرى بقيت بقايا المسيحية تقاوم وفي كل حملة تفقد الكثير من المنتمين إليها إما عن طريق الإسلام القسري، أو عن طريق الاضطهاد، أو عن طريق القتل، أو الضغوطات الاجتماعية التي حصلت بسبب حكم الغالبية المسلمة، أما في شمال إفريقيا فقد تم القضاء على المسيحية فيها قضاء تاما.

النصوص تحث على مخالفة اليهود والمسيحيين

لم ينته صراعنا كمسلمين مع «النصارى» في نصوص التاريخ، بل هو متجذر في حياتنا اليومية حتى لو لم يظهر على السطح إلا في بعض الأحداث

٣٦. البداية والنهاية ٩: ١٧١.
٣٧. تاريخ ابن خلدون ٦: ١٢٥.
٣٨. عندما حصل جوع في المدينة أيام عمر بن الخطاب بعث رسالة إلى واليه عمرو بن العاص آنذاك، وطلب منه المدد فبعث إليه عمر بن الخطاب قائلا «فكتب إليه عمرو: من عبد الملك عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين أما بعد: فيا لبيك ثم يا لبيك قد بعثتُ إليك بعير أوّلها عندك وآخرها عندي والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. فبعث إليه بعير عظمة فكان أوّلها بالمدينة وآخرها بمصر يتبع بعضها بعضًا.» المواعظ والاعتبار للمقريزي ٣: ٢٥٢.

الكبيرة، لكن في تفاصيله نعيشه كل يوم من دون أن نشعر. نطلق في المغرب على كل أجنبي كلمة «كاوري» وهي كلمة إلى وقت قريب لم أكن أعرف معناها، إلى أن اتصل بي شخص من تركيا مرة، وقال لي بأن الأتراك كانوا يسمّون الأرمن هناك «كاوري» Gawri وهي تصحيف لكلمة كافر. فنحن ننعت أي أجنبي بأنه مجرد كافر، وقيمة الكافر أدنى من قيمة المسلم.

كنت أصحو في الصباح الباكر وأقول «صباح الخير» لوالدي، فيؤنبني على ذلك قائلا: تحيتنا السلام عليكم. أما صباح الخير فهي تحية النصارى. حين كنت أهاتف بنت عمي التي كانت مثل أختي، وبنات خالتي وأصدقائي الكثيرين كلهم، كنت أقول «ألو»، يجيبون على الهاتف: السلام عليكم. فكنت أسألهم: لماذا لا تقولون ألو كبقية خلق الله في العالم؟ فكانوا يردّون: تحية الإسلام هي السلام عليكم. أما ألو فهي من النصارى والغرب والكفار!! وكأننا نريد أن نأخذ التكنولوجيا من الغرب الكافر لكن نريد أن نؤسلمها. نأخذ آخر إصدارات الهواتف النقالة من الكفار ثم نجعل عليها رنتنا، وهي الآذان وصوت الله أكبر، أو القرآن وكأننا نريد أن نثبت لأنفسنا أننا ننتصر على هؤلاء الكفار ونؤسلم منتجاتهم. إنها عقدة متأصلة فينا دينيا.

حين كان أبو بكر البغدادي يلقي خطبته الأولى يوم الرابع من يوليو ٢٠١٤ بعد أيام من إعلان الخلافة، انتبهت وسائل الإعلام إلى ساعته التي كان يرتديها في يده اليمنى، تحدثوا عن ماركتها وعن نوعها تخمينا، لكن الذي لم يعطه الكثيرون أهمية هو لماذا يرتديها على يده اليمنى؟ ولماذا يلبس الإسلاميون كلهم ابتداء من بن لادن والظواهري والكثير من المجاهدين الساعة على يمناهم؟ ما هو السر وراء ذلك؟ إن السر وراء ذلك هو مخالفة اليهود والنصارى. فالمسلمون مأمورون بأن يخالفوا المشركين، ولاسيما اليهود والنصارى، حتى في المظهر. ففي اللحية مثلا قال محمد: «خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ،

وَفِّرُوا اللِّحَى، وَأَحْفُوا الشَّوَارِبَ.»[٣٩] وفي حديث آخر قال محمد: «غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود.»[٤٠] فاليهود في نظر محمد لا يصبغون شعرهم، لذلك أمر أصحابه بأن يصبغوا ولهذا كان بن لادن يصبغ شعره. وقد رأى محمدٌ واحدا من أصحابه اسمه عبد الله بن عمرو بن العاص يلبس ثوبين أحمرين فقال له: «إِنَّ هَذِهِ مِنْ ثِيَابِ الْكُفَّارِ، فَلاَ تَلْبَسْهَا.»[٤١]

القاعدة في الإسلام أن «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ.»[٤٢] وبالتالي لا ينبغي للمسلم أن يتشبه بالمسيحيين واليهود، بل عليه أن يخالفهم في كل شيء، حتى في طريقة الكلام وطريقة اللباس. ولذلك يتساءل بعض الباحثين عن الأسباب الكامنة وراء عدم اندماج الشباب المسلم وسط المجتمعات الغربية. والواضح أن من الأسباب الرئيسية هي هذه الأفكار الهدامة التي تجعل المرء في حالة صراع مع مجتمع يعيش داخله، لأنه مطالب بأن يخالفه في كل شيء حتى في المظاهر وطريقة الكلام. لذلك لا غرابة أن يكون الكثير من الشباب الإسلامي الملتزم يعيش بجسده في الغرب لكن عقله في الشرق وفي زمن غير زماننا. إنه يعيش مع محمد وصحابته في القرن السابع في شبه الجزيرة العربية، يعيش مشكلاتهم وعداواتهم ويعيد صياغتها في القرن الحادي والعشرين ليرى من هم ضحاياها الجدد.

داعش تذبح المسيحيين

نشر تنظيم داعش في فرعه الليبي يوم الخامس عشر من فبراير ٢٠١٥ الفيديو المؤلم الذي يظهر ذبح ٢١ مسيحيًا قبطيًا من مصر ذاكرا أنهم من الكنيسة المصرية المحاربة. وقد نشر التنظيم عنهم مقالا في العدد السابع

٣٩. صحيح البخاري ٥: ٢٢٠٩، كتاب اللباس، باب «تَقْلِيمِ الأَظْفَارِ».
٤٠. مسند أحمد ٢: ٥١٣، في رواية أخرى نجد «غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى».
٤١. صحيح مسلم ١٤: ٤٤، كتاب اللباس والزينة، باب «النهي عن لبس الرجلِ الثوبَ المعصفر».
٤٢. سنن أبي داود ١١: ٧٢، كتاب اللباس، باب «في لبس الشهرة».

من مجلة دابق،[٤٣] حيث قال التنظيم حينها إن القبض على المسيحيين الأقباط كان للثأر لكاميليا شحاتة ووفاء قسطنطين (المسيحيتين اللتين تقول الجماعات الإسلامية والسلفية أنهما أسلمتا وأن الكنيسة قد قتلت وفاء قسطنطين بعدما رفضت التخلي عن إسلامها وعذبت كامليا شحاتة لتعود عن إسلامها فعادت تحت التعذيب). وأشارت المجلة إلى حادثة كنيسة النجاة في العراق التي حصلت يوم ٣١ أكتوبر ٢٠١٠ وأدت إلى مقتل العشرات من المسيحيين، وهي حادثة سأتطرق إليها لاحقا. استشهد التنظيم في المجلة بآية من القرآن: «مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ».[٤٤] أي أنه ينبغي أن يكونوا أشداء على الكفار ورحماء بينهم (أي بين المسلمين الحقيقيين)، ولا رحمة لغير المسلمين.

تقول المجلة في آخر المقال المخصص لهذا الحدث: «أخيرا من المهم أن للمسلمين في كل مكان أن يعلموا أنه لا شك في الأجر العظيم الذي سيعطى يوم الحساب لكل من سفك دماء هؤلاء الأقباط الصليبيين أينما وجدوا.»[٤٥] وفي ١٥ أبريل ٢٠١٥ بث تنظيم الدولة شريطا آخر مدته تقرب من النصف ساعة يظهر فيه قتل ٢٨ إثيوبيًا مسيحيًا، ١٢ منهم قتلوا ذبحا، و١٦ منهم قتلوا رميا بالرصاص. وقد حمل الفيديو عنوان «حتى تأتيهم البينة»، وهي جملة مقتبسة من الآية الأولى من سورة البينة التي تتحدث في بدايتها عن المسيحيين والمشركين «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ».[٤٦] كما بث التنظيم في الشريط نفسه...

٤٣. مجلة دابق، العدد السابع، صفحة ٣٠-٣٢.
٤٤. سورة الفتح، الآية ٢٩.
٤٥. مجلة دابق، العدد السابع، صفحة٣٢.
٤٦. سورة البينة، الآية ١.

صورا لتدمير كنائس وتدمير قبور مسيحية وتماثيل لرموز دينية وصلبان في مناطق أُشِيرَ في الفيديو إلى أنها تقع في محافظة الموصل العراقية، معلنا أن عملية التدمير هذه جاءت بعدما رفض سكانها المسيحيون خياري دفع الجزية أو اعتناق الإسلام... وقال رجل في الشريط إنه «على أرض الخلافة في ليبيا» تجري «دعوة النصارى إلى الإسلام»، معلقا على ما ذكر أنها مشاهد لاعتناق مسيحيين أفارقة للإسلام في ليبيا. لكن الرجل نفسه حذر أنه «من أبى الإسلام، فما له سوى حد السيف.»[٤٧]

ووصف الشريط الكنيسة الإثيوبية بأنها كنيسة محاربة لكونها تابعة لدولة تحارب الجماعات الإسلامية في الصومال.

قتل المسيحيين الأقباط وقتل المسيحيين الإثيوبيين نوع من إعادة تمثيل التاريخ الإسلامي القديم «للدولة الإسلامية»، لدولة «الخلافة» القديمة، تعيدها دولة الخلافة الجديدة على أرض الواقع. فأمجاد الماضي وفتوحات الرموز الإسلامية الكبيرة للبلدان المسيحية وتخيير الناس بين الإسلام أو الجزية أو القتل تعود من جديد على يد الخليفة الجديد. وهذه هي الفكرة الأساسية. وأما الذين يتجاهلون دور النصوص الدينية فلن يدركوا مدى تأثير هذه الفكرة في الذين يؤمنون بأن الإسلام عاش أبهى عصوره في عهد الفتوحات وفي عهد السبي والغزو، حين كان السيف هو الفاصل وكانت الدولة الإسلامية قوية. تحيي تلك الفكرة الدافع الديني، والنخوة العربية في قلوب الشباب وتدغدغ مشاعرهم، فيشعرون بأن دولة الخلافة تعيد لهم عزهم المفقود، وتعيد لهم قوتهم وبطشهم وإخضاعهم لليهود والنصارى بقوة السيف لسيطرة الإسلام. والمفارقة المؤلمة أن الكنيسة الإثيوبية كانت أول كنيسة تستضيف المسلمين المضطهدين من قريش في هجرتهم الأولى حين كانوا وقتها مجرد عشرات فقط، فسعوا إلى الاحتماء بالنجاشي الذي

٤٧. العربية نت، «بالفيديو... داعش يعدم ٢٨ إثيوبياً مسيحياً في ليبيا».

قال عنه محمد «إنه ملك لا يظلم عنده أحد.»[٤٨] وفعلا حماهم النجاشي رغم أنهم من ملة تخالف المسيحية، بل تطعن في عقائدها. لكن حين قويت شوكة المسلمين لم يتذكروا عطف المسيحيين عليهم، فقام محمد بطردهم شر طردة من شبه الجزيرة العربية. وها هم اليوم أبناء الخلافة المزعومة يقطعون رؤوس أبناء الملك الذي حمى أجدادهم والذي لولاه لربما لم تقم للإسلام قائمة قط.

نماذج أخرى للهجوم على المسيحيين

بسبب كاميليا شحاتة ووفاء قسطنطين، قامت دولة العراق الإسلامية[٤٩] من قبل، خصوصا يوم ٣١ أكتوبر ٢٠١٠ بمهاجمة كنيسة سيدة النجاة للسريان الكاثوليك في بغداد مساء أثناء مراسيم القداس، واحتجزت العشرات من المصلين كرهائن مطالبة الكنيسة المصرية بإطلاق سراح «كاميليا ووفاء قسطنطين». دخل الانتحاريون وقتلوا الأب ثائر سعد الله عبدال من مواليد ١٩٧٨ وقتلوا الأب وسيم صبيح بطرس من مواليد ١٩٨٣. وقمت شخصيا باستجواب أم جان[٥٠] وابنتها جوان في أكتوبر ٢٠١٤ بعدما حصلتا على حق اللجوء في أستراليا. فقدت أم جان أربعة أفراد من عائلتها في هذه الحادثة. إذ قُتل زوجها يونان كوركيس الساعور، وابنها جان يونان، وزوجته ريتا متى كوركيس، وابنهما ذو الأربعة شهور ساندرو، وهو أصغر شهيد في هذه المجزرة التي ذهب ضحيتها حوالي ٥٨ شخصًا و ٧٨ جريحًا. كان الإرهابيون يصيحون «الله أكبر» وهم يقتلون المسيحيين. قالوا للمسيحيين: «حلال قتلكم.» وقالوا أيضا: «إذا قتلناكم سنذهب للجنة وأنتم ستذهبون للنار.» صاحوا في المسيحيين داخل الكنيسة: «كلكم كفار!» ثم قالوا: «نحن هنا لننتقم لحرق القرآن وأيضا لاحتجاز المسلمات في مصر.» قالت واحدة

٤٨. السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٩٠، ذكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة.
٤٩. تأسست في أكتوبر ٢٠٠٦ وتعدّ النواة الأصلية لداعش.
٥٠. أصرت على أن أسميها أم جان أثناء الحوار تخليدا لاسم ابنها الذي قتل في هذا الهجوم الدموي.

مـن الشـاهدات الناجيـات: «إنهـم يكرهوننـا. قالـوا لنـا إننـا سـنُقتل كلنـا»[٥١] ونـشر بعدهـا بيـان لتنظيـم القاعـدة في العـراق يقـول إن «المهلـة الـتي أعطيـت للكنيسـة القبطيـة في مـصر المسـلمة لتكشـف مـكان شـقيقتينا الأسـيرتين وتطلـق سراحهمـا انتهـت.» وأضـاف البيـان: «بالتـالي يعلـن المجلـس الحـربي في دولـة العـراق الإسـلامية أن كل المراكـز والمنظمـات والقـادة والمؤمنين المسـيحيين أصبحـت أهدافـا مشروعـة للمجاهديـن حيـث يسـتطيعون الوصـول إليهـم.»[٥٢]

لقـد نفـذت داعـش في ليبيـا هـذا التهديـد حـين ذبحـت ٢١ قبطيـا مسـيحيا انتقامـا لوفـاء قسـطنطين وكاميليـا شـحاتة. وسيسـتمر مسلسـل الانتقـام بحجـة أو بغـير حجـة. إن لـم تكـن وفـاء وكاميليـا، فسـيجدون ألـف حجـة. لـم يُقـدم الشـيخ الدكتـور زغلـول النجـار الذي روج لكذبـة قتـل وفـاء قسـطنطين للمحاكمـة، رغـم أنـه تـم رفـع دعـوى عليـه مـن طـرف محـامٍ قبطـي كونـه يثـير المسـلمين ضـد الكنيسـة مـن خـلال ترويجـه للأكاذيـب. فالنظـام القضـائي لـن يتعاطـف مـع المحـامي المسـيحي ضـد شـيخ مسـلم، ولـن يقدمـه للمحاكمـة أبـدا،[٥٣] وبالتـالي بإمـكان أي شـيخ أن يتهـم الكنيسـة بـأي شيء حـتى بجرائـم القتـل أو بالسـحر والشـعوذة لتكـون حجـة للهجـوم على الكنيسـة. ولا يمكـن للمسـيحيين الاعـتراض أو تقديـم المروجـين لهـذه الإشـاعات للمحاكمـة.

مثـلا، محمـد سـليم العـوا، وهـو مـن كبـار علمـاء الإسـلام في مـصر، على قنـاة الجزيـرة في برنامـج «بـلا حـدود» الذي يقدمـه الإخـواني (مـصري الأصـل) أحمـد منصـور، قـال بالحـرف: «السـلاح الذي يـأتي بـه القبطـي لـكي يخزنـه في الكنيسـة لا معـنى له إلا أنـه اسـتعداد لاسـتعماله ضـد المسـلمين»،[٥٤] متهمـا الكنيسـة القبطيـة بتخزيـن الأسـلحة داخـل الكنائـس والأديـرة. وقد اسـتنكرت

٥١. سـمعت بعـض هـذه التصريحـات منهـا مـن لقـائي مـع أم جـان، وقـد رُويـت على أفـواه شـهود آخريـن على موقـع جريـدة الغارديـان، «Baghdad church siege survivors speak of taunts, killings and explosions».

٥٢. بي بي سي عربي، «تنظيم «دولة العراق الاسلامية» يتوعد المسيحيين».

٥٣. صحيفة الشرق الأوسط، العدد ١٠٨٦٦، «تجدد الجدل حول اختفاء سيدة قبطية أشهرت إسلامها...».

٥٤. برنامج بلا حدود، بتاريخ ٢٣ سبتمبر ٢٠١٠.

الكنيسة القبطية هذه التصريحات، لكنه لم يقدم للمحاكمة. واتّهم الشيخ محمد حسان الكنيسة في اطفيح في محافظة حلوان جنوب القاهرة بأنها كانت تمارس السحر على المسلمين، مبررا هجوم الغوغاء من المسلمين على الكنيسة وحرقها يوم ٥ مارس ٢٠١١. وتظاهر الأقباط في الأيام التالية للحادث أمام مبنى ماسبيرو، مقرّ التلفزيون المصري. وتدخّل الشيخ محمد حسان للإصلاح، كما قال، لكنه وجد تبريرا لهجوم المسلمين على الكنيسة لأن فيها كتب سحر وأسماء أفراد مسلمين مكتوبة على أوراق كأهداف لهذا السحر المزعوم، في حين أن القصة كلها سببها علاقة حب بين شاب مسيحي وفتاة مسلمة، وهو أمر يعَدّ إهانة للأسرة المسلمة، لأن المسلمة يحرم عليها الاقتران بالكافر.[٥٥] كل هذه الأحداث تدل على شيء واحد أن هناك علاقة متوترة بين المسلمين والمسيحيين سببها تلك النصوص التي تساعد على اضطهاد المسيحيين وإيجاد مبررات للمسلمين للقيام بذلك.

النصوص تتحمل المسؤولية

قتل المسيحيين في العراق، وقتل المسيحيين المصريين في ليبيا، أمر تتحمل مسؤوليته النصوص الإسلامية التي ربت أجيالا كاملة على كره المسيحيين وعدم السلام عليهم وعدم تهنئتهم في أعيادهم. والأمثلة كثيرة على هذه التربية التي تسود جميع بلدان العالم الإسلامي. ورد مثلا سؤال للشيخ السعودي محمد صالح المنجد على موقعه «الإسلام سؤال وجواب» يقول: ما حكم تهنئة النصارى في أعيادهم بكلمة: «كل سنة وأنتم طيبون»؟ فأجاب كالآتي: «المحذور في تهنئة النصارى في أعيادهم هو إظهار الفرحة لهم، وإبداء المجاملة والموافقة على صنيعهم، ولو كان في الظاهر دون الباطن.» واستند في فتواه على قول شيخ الإسلام ابن تيمية السوري من القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادي حيث قال: «لا يحل للمسلمين أن يتشبهوا بهم

٥٥. موقع الأقباط متحدون، «سحر كنيسة اطفيح».

في شيء، مما يختص بأعيادهم، لا من طعام، ولا لباس ولا اغتسال، ولا إيقاد نيران، ولا تبطيل عادة من معيشة أو عبادة، وغير ذلك، ولا يحل فعل وليمة، ولا الإهداء، ولا البيع بما يستعان به على ذلك لأجل ذلك، ولا تمكين الصبيان ونحوهم من اللعب الذي في الأعياد، ولا إظهار زينة.» واستند أيضًا إلى أوامر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب: «وقد شرط عليهم أمير المومنين عمر بن الخطاب والصحابة وسائر أئمة المسلمين أن لا يظهروا أعيادهم في دار [بلاد] المسلمين، وإنما يعملونها سرا في مساكنهم.»[٥٦] ولا يتوقف هذا المنع عند عيد معين، بل تم تحريم كل من عيد الحب، وعيد ميلاد المسيح، واحتفالات رأس السنة، واحتفالات عيد الأم، والاحتفالات الغربية كلها، سواء أكانت تلك التي تمت للمسيحية بصلة كدين أم تلك التي جاءت من الثقافة العلمانية البعيدة عن الدين. فكلها سواء لأنها جميعها من الغرب الكافر ومن النصارى واليهود.

هنالك عشرات المقاطع المرئية على يوتوب يحرم فيها شيوخ الإسلام المعايدة أو المشاركة مع النصارى واليهود وباقي الكفار في احتفالاتهم وأفراحهم. جاء في فتوى أخرى على الموقع الرسمي التابع لوزارة الأوقاف الإسلامية القطرية: «لا يجوز تهنئة النصارى أو غيرهم من الكفار بأعيادهم لأنها من خصائص دينهم أو مناهجهم الباطلة.»[٥٧] لم تأت هذه الفتاوى من عدم، بل إن هناك أقوالا في الكتب الإسلامية وثقها الفقهاء المسلمون واعتمدوا عليها في أحكامهم تعود إلى أعمدة الإسلام مثل عمر بن الخطاب الذي كان أحد الأوائل الذين أيدوا النبي محمدًا، والذي كان محمد يدعو الله أن يعز الإسلام به. قال: «اجْتَنِبُوا أعداءَ الله في عِيْدِهِمْ.»[٥٨] ويقصد اليهود والنصارى. وقال أيضا عنهم في مكان آخر: «لا تَعَلَّمُوا رَطَانَةَ الأعاجِمِ، ولا

٥٦. موقع الإسلام وجواب، فتوى بعنوان: «تهنئة النصارى في أعيادهم»، برقم ١٠٦٦٦٨.
٥٧. موقع إسلام ويب، «حكم تهنئة وزيارة النصارى في كنائسهم في أعيادهم»، فتوى رقم ١٠٥١٦٤.
٥٨. السنن الكبرى للبيهقي ١٤: ١١٣، «باب كراهية الدخول على أهل الذمة في كنائسهم والتشبه بهم...».

تَدْخُلُوا على المشركِينَ في كَنَائِسِهِمْ يومَ عِيْدِهِمْ، فَإِنَّ السُّخْطَةَ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ.»[٥٩] فهنا ينهى عن تعلم طريقتهم في الكلام وأيضا زيارتهم في أماكن عبادتهم لأن اللعنات تنزل عليهم يوم عيدهم، فلا ينبغي لمسلم أن يدخل حتى لا تصيبه تلك اللعنات.

في عملية خطف المصريين في ليبيا وذبحهم على يد داعش، تظهر ثمار هذه العداوة التي تغرسها النصوص. فأحد الناجين يروي كيفية خطف ١٤ منهم في المرة الثانية بعدما تم خطف سبعة من طرف سائق مسلم أوصلهم بنفسه إلى التنظيم الإرهابي، وعاد مدعيا أنه تم اختطافهم منه. يقول الشاهد:

> وفي الثانية عشر بعد منتصف الليل، حدثت عملية الاختطاف الثانية التي شارك فيها عدد كبير من عناصر التنظيم الإرهابي، وتمت العملية بدقة حيث دخلوا لغرف بعينها يسكن فيها الأقباط رغم امتلاء البيت بالمصريين مسلمين ومسيحيين. ويؤكد هذا أن من اقتحم البيت كانت له سابق معرفة بمن فيه، وأماكن غرف الأقباط على وجه التحديد، مؤكدا أن هناك مصريين شاركوا في الإرشاد عن زملائهم.[٦٠]

فما الذي يدفع مصريين مسلمين يتشاركون السكن نفسه والخبز والملح مع مواطنين مصريين آخرين مسيحيين إلى التبليغ عنهم لدى جماعات إرهابية؟ إن لم يكن الدين قد لعب دورا في تكوينهم منذ الصغر، فما الذي يجعلهم بهذه القسوة ضد مواطنيهم، وهم يعرفون أنهم يسلمونهم إلى جماعات لا ترحم؟ إنها النصوص الدينية التي علمت وربت أجيالا على ثقافة الكراهية للمسيحيين.

---

٥٩. نفس المصدر.
٦٠. صحيفة الوطن نيوز، «لغز اختطاف الضحايا: مصريون شاركوا في الإرشاد عنهم...».

ليس هذا فحسب، بل إننا تربينا على مناداة المسيحيين بعُبّاد الصليب إمعاناً في إذلالهم. بل هناك كتب تنشرها الدول الإسلامية فيها تسمية المسيحيين بعباد الصليب كشتيمة لهم، مثل كتاب «منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب»، وهو منشور في المملكة العربية السعودية. وفي موقع آخر مشهور في العالم الإسلامي من مؤسسه المصري وائل غنيم الذي اشتهر أيام الثورة المصرية، ثورة ٢٥ يناير، نقرأ مقالًا بعنوان «تحذير الموحدين من أعياد عباد الصليب».[٦١] فهذه الكراهية للصليب متجذرة في عقلية المسلم، حتى إني كنت أشمئز من رؤية الصليب من دون سبب. يقول محمد في واحد من الأحاديث المشهورة عنه: «لا تَقومُ الساعةُ حتّى يَنزِلَ فيكُمُ ابنُ مريمَ حَكَماً مُقْسِطاً، فيَكسِرَ الصليبَ.»[٦٢] وهو حديث تحت باب «كسر الصليب، وقتل الخنزير» في هذا الكتاب. وهي الكلمات التي ترمز إلى المسيحيين. فهم عباد الصليب، وأكلة لحم الخنزير، هذه هي النمطية التي يتم رسم المسيحي من خلالها في عقل المسلم. وبناء على هذه النمطية كرهنا للمسيحي يعني كره الصليب وكره الخنزير. ولذلك لا غرابة أن نرى صور المجاهدين في سوريا وفي العراق يهاجمون الكنائس المسيحية التي تعود إلى بداية المسيحية ويكسرون صلبانها ويحطمون أيقوناتها،[٦٣] لأن المسيح بنفسه في نظرهم سيعود في يوم من الأيام ليحطم معبودات المسيحيين ومقدساتهم، وسيكسرها أمام أعينهم.

هذا الحديث، حديث عودة المسيح لكسر الصليب، هو الحديث نفسه الذي تم الاستشهاد به في فيديو نحر الأقباط المسيحيين وهم يصيحون تحت السكين: «يا رب يسوع!»[٦٤] إن لاهوت الكراهية لكل ما هو مسيحي هو السبب في هذه الهجمة الشرسة التي نراها أكثر كلما انتشر التشدد

٦١. طريق الإسلام، «تحذير الموحدين من أعياد عباد الصليب».
٦٢. صحيح البخاري ٢: ٨٧٦، كتاب المظالم، باب كسرِ الصّليبِ وقتلِ الخِنزيرِ.
٦٣. مثلاً، كسرت داعش صلبان كنائس الرقة، انظر العربية نت «"داعش" تكسر الصلبان...».
٦٤. مركز الحياة للإعلام، فيديو «رسالة موقعة بالدماء إلى أمة الصليب».

الإسلامي وكلما عادت الجماعات الإسلامية إلى روح النصوص. لذلك لا ينبغي أن نستغرب أن يكون عنوان الفيديو الذي أنتجته داعش فرع ليبيا بعد ذبح الأقباط «رسالة موقعة بالدماء إلى أمة الصليب». إن الصليب رمز العداء في العقل المسلم، ورمز المعبودات المنافسة للإسلام، ولذلك على الإسلام أن يغلب الصليب ويكسره، فلا غرابة أن يشتري المسلمون الكنائس في الشرق والغرب ليحولوها إلى مساجد لأنها تشعرهم بنشوة الانتصار، بنشوة كسر الصليب ورفع راية الإسلام. فالدعشنة معششة في قلوب الكثير من المسلمين بسبب تلك النصوص التي ولّدتها فيهم وربتها ونمتها حتى ولدت لنا القاعدة وداعش وبوكو حرام وغيرها من الجماعات الإسلامية. لذلك لا يمكن القضاء على الأعراض من دون معرفة جذور المرض. إنها النصوص التي تستشهد بها داعش والقاعدة وتنفذها، وتستشهد بها قطر والسعودية والمشايخ في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه ويضعونها في الخطب والأشرطة، لكنهم أجبن من أن ينفذوها. فهم يكتفون بإصدار الفتاوى وينتظرون من يقرؤها فينفذها لهم. هم يُنَظِّرُون وداعش تنفذ.

-6-

من محمد إلى داعش: التكفير آفة إسلامية

خطورة مصطلح «كافر»

من أخطر المصطلحات العنصرية الموجودة في القاموس الإسلامي مصطلح «كافر»، هذا المصطلح يردده المسلمون في حق كل من لا يؤمن بالإسلام ولا يؤمن برسوله، وفي حق كل من ثبتت عليه تهمة تخرجه من الإسلام، مثل إنكار أي عنصر أساسي في الإسلام أو كما يسمونه بلغة الفقه «إنكار معلوم من الدين بالضرورة.»[1] وتعني تهمة الكفر إن لحقت بأي مسلم أن دمه صار حلالا. فبدلًا من أن تُنطق كلمة «اقتلوه» بصراحة، تتم الإشارة إليه أنه كافر، أو أنه كفر وارتد عن الإسلام، ما يعني أن حياته صارت مهددة بالقتل في أية لحظة، وأحيانا أخرى تقرن الكلمة بأمر القتل.

بطبيعة الحال، يخرج كثيرون من مجمِّلي الإسلام ليقولوا إن كلمة «كافر» كلمة بسيطة، لأنها تعني فقط أنك غير مؤمن بما لدي. فأنت كافر عندي وأنا «كافر» عندك أيضا، لأني «غير مؤمن» بما عندك. وقد استخدم هذه

١. يعرف موقع إسلام ويب التابع لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المعلوم من الدين بالضرورة كالآتي: «هو ما علمه عامة المسلمين من الدين بالأولية من دون نظر ولا تأمل وجوبا أو تحريما»، انظر موقع إسلام ويب، «معنى «المعلوم من الدين بالضرورة»»، الفتوى رقم ٧٨١٥١.

التخريجة والمراوغة في الحديث شيخ الأزهر أحمد الطيب في حوار له مع القناة المصرية الأولى، حيث قال إن:

> مصطلح كافر هو مصطلح إضافي، يعني أنا مؤمن بهذا الرأي وكافر بهذا الرأي، الكفر هو إنكار شيء ما... المسيحيون كما يشغب كثير من الشباب الذي لا يفهم الإسلام، أنهم يسمون كفارا لأنهم كفروا بالإسلام، نعم، لأنهم لا يؤمنون بمحمد (ص) ولا بالقرآن، أعتبرهم [أعدّهم] من هذه الناحية كفار [كفارًا] بالنسبة لي، لكن في نفس الشيء، بما أنني كمسلم، لا أؤمن بالتثليث، ولا أومن بالمسيحية كما هي الآن، أنا أعتبر [أُعَد] كافرا بالنسبة لهم.[٢]

وبالمقابل، استشهد الشيخ ياسر برهامي الطبيب المصري السلفي بالآيات القرآنية التي تكفر المسيحيين وقال إنه يكفرهم استنادا على تلك الآيات القرآنية، لأن الله هو من كفّرهم.[٣] لم يلجأ ياسر برهامي إلى المراوغة، بل اكتفى بوصف المسيحيين بأنهم كفار بناء على ما جاء في القرآن، على نقيض شيخ الأزهر الذي استخدم المصطلح وفسره بأنه نسبي. فما هي خطورة كلمة كافر وما الذي تعنيه؟ وهل لها معنى لغوي يفيد فقط أن الشخص «غير مؤمن»، أم أنها أخطر من ذلك؟

أوصاف الكفار في القرآن

لقد كفّر القرآن المسيحيين في أكثر من موضع، حيث قال: «لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ»،[٤] ما يعني أنهم كفار بسبب عقيدتهم في المسيح، وكفّرهم في موضع آخر حين قال: «لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ

---

٢. يوتيوب، فيديو لشيخ الأزهر «شيخ الأزهر أحمد الطيب: المسيحيون كفار و نحن كفار عندهم».
٣. يوتيوب، فيديو «وائل الإبراشي للشيخ ياسر برهامي هل المسيحيين كفرة؟».
٤. سورة المائدة، الآية ١٧.

قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ».[٥] ما يعني أن القرآن يكفّرهم بسبب عقيدتهم في الله (بغض النظر عن إذا كان الفهم القرآني للعقيدة صحيحا أم لا). ثم نجده في موضع آخر يكفر اليهود والنصارى على السواء. فقد كفّر النصارى بسبب عقيدتهم في المسيح، وكفّر اليهود بسبب عقيدتهم في شخص يسمَّى «عزيرًا» «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ».[٦] وفي سورة أخرى ينعت أهل الكتاب (اليهود والنصارى) بالكفر: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ».[٧] فهل يقصد القرآن مجرد الإشارة إلى عدم إيمانهم أم أن الكفر أخطر؟ إن الآيات الأخرى التي تصف الكفار تجعل كلمة «الكفر» بأل التعريف تُحصر في غير المسلم دون غيره، باستثناء المسلم الذي كفر ببعض الأجزاء من الإسلام أو ببعض أركانه فصار بذلك مرتدا كافرا.

يصف القرآن الكافرين بأنهم شرُّ الدواب، وبالتالي ينزع عنهم صفة الإنسانية: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ»[٨] وجريمتهم أنهم «لا يؤمنون بمحمد وبدينه»، وهو الوصف نفسه الذي تجده في سورة أخرى، حيث عدَّهم شرَّ الخليقة على الإطلاق: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ».[٩] ولو افترضنا أن معنى الكافر نسبي، حيث المسيحي كافر بالنسبة للمسلم كما أن المسلم كافر بالنسبة للمسيحي، هل سيقبل المسلم بأن ينعت بأنه «شر الدواب» و«شر البرية»؟

٥. سورة المائدة، الآية ٧٣.
٦. سورة التوبة، الآية ٣٠.
٧. سورة البينة، الآية ١.
٨. سورة الأنفال، الآية ٥٥.
٩. سورة البينة، الآية ٦.

لا توجد آية واحدة في القرآن تطلق على المسلم لفظة «كافر» كوصف. وتوجد آية واحدة تتحدث عن فعل لا عن وصف «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»[١٠] إن أوصاف القرآن للكافرين هي التي تحسم الأمر، فمصطلح الكفر القصد منه الذم والتقبيح والعنصرية تجاه من لا يؤمن بالإسلام، وليس مجرد تعبير آخر بديل لمصطلح «غير مؤمن». يقول القرآن إن الذين كفروا هم مجرد حيوانات تأكل «وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ».[١١] بل يصفهم بأنهم أغبياء لا يفهمون: «إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ».[١٢] بل يلعنهم الله مرارا وتكرارا في القرآن.

لو كان هذا المصطلح نسبيًّا، كما يقول شيخ الأزهر، لكانت هذه اللعنة تجوز أيضا في حق المسلمين لأنهم كفار بالنسبة للمسيحيين. فهل سيقبل شيخ الأزهر أن يلعنه الله أو يلعنه «النصارى»؟ يقول القرآن: «فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ».[١٣] فالكافرون تأتي هنا بأل التعريف، وهي تضم الكافرين جميعًا أينما كانوا. وفي آية أخرى يقول عنهم: «إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا»،[١٤] بل إن الله يكره الكافرين ولا يحبهم ويتخذهم أعداء له. إذ لديه عداوة شخصية معهم، حيث يقول القرآن: «فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ».[١٥] ويقول في مكان آخر: «فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ».[١٦] ومناسبة هذه الآية الأخيرة أنها نزلت في حق اليهود، كما تقول كتب التفاسير، بمعنى أن الله عدو لليهود شخصيا. يقول مفسر القرآن الكبير الطبري: «وهذا الخبر

١٠. سورة البقرة، الآية ٢٥٦.
١١. سورة محمد، الآية ١٢.
١٢. سورة الأنفال، الآية ٦٥.
١٣. سورة البقرة، الآية ٨٩.
١٤. سورة الأحزاب، الآية ٦٤.
١٥. سورة آل عمران، الآية ٣٢.
١٦. سورة البقرة، الآية ٩٨.

يدل على أن الله أنزل هذه الآية توبيخا لليهود في كفرهم بمحمد (ص)، وإخبارا منه لهم أن من كان عدوًّا لمحمد فالله له عدوّ.»[١٧] وقد جعل القرآن الكفار مجرمين أيضا، وأعطاهم لقبا ينعتهم بالإجرام الذي يستحقون عليه العقاب حيث يقول: «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ».[١٨] وبطبيعة الحال، لا يدخل المسلمون في عداد المجرمين إذا سلمنا بأن المصطلح يعني فقط غير مؤمن. فالقرآن يقول في آية أخرى من آياته: «أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟»[١٩] يدل هذا السيل الهائل من الآيات على أن القرآن خصص حيزا كبيرا لوصف الكفار بكل الأوصاف المحقرة والمذلة التي تجعلهم في أدنى المراتب وتجعلهم من أعتى العصاة والمجرمين الذين يستحقون العقاب دنيا وآخرة.

قال محمد في أحد أحاديثه: «أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لأَخِيهِ يَا كَافِرُ. فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا.»[٢٠] ولو كان مصطلح كافر نسبيا لماذا يبوء بها أحدهما؟ ألا يكون الاثنان كافرين أحدهما بما لدى الآخر؟ يعني استخدام مصطلح كافر في هذا الحديث أنه مصطلح خطير يُخرج المسلم من ملته ويجعله حالة يجب التعامل معها وفق قوانين مختلفة عن القانون العادي. وبالتالي، فإن مصطلح «كافر» مصطلح عنصري، مصطلح يجعل الإنسان في مرتبة ثانية أقل من المسلم. وسواء أكان ذلك في سياق مجتمع ما مسلم أم غير مسلم، فإن لدى المسلم امتيازات كثيرة لأنه مسلم. وأما غير المسلم فهو «كافر»، وهو مواطن من الدرجة الثانية .. هذا إذا عدّهُ الإسلام «كافرا» مسالما، لأن هناك أنواعًا من الكفار كما سأوضح لاحقا. لكن سأكتفي هنا بالكافر

١٧. تفسير الطبري ١: ٣٤٩، لسورة البقرة الآية ٩٨.
١٨. سورة الجاثية، الآية ٣١.
١٩. سورة القلم، الآيات ٣٥ و ٣٦.
٢٠. صحيح البخاري ٥: ٢٢٦٤، كتاب الأدب، باب «مَنْ كَفَّرَ أَخَاهُ بِغَيْرِ تَأْوِيلٍ فَهْوَ كَمَا قَالَ»، وأيضا في صحيح مسلم ٢: ٤٢، كتاب الإيمان، باب «بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر».

الطيب الوديع الذليل الذي يقبل أحكام الإسلام ويدفع الجزية ولا يقول كلمة واحدة احتجاجا على أوضاعه و يقبل أن يعيش تحت رحمة المسلمين. هذا الكافر هو أقل مكانة من المسلم في كل شيء، ولذلك يعيش المسيحيون مأساة في العالم الإسلامي، سواء أكان ذلك في مصر أم في العراق أم في سوريا أم إيران أم باكستان وباقي بلدان العالم الإسلامي، بل حتى في الأردن، رغم أن وضعهم هناك أفضل من باقي البلدان الإسلامية، فإن بعض الوظائف وبعض الأمور لا يمكنهم القيام بها أو الحصول عليها مثل مواطنيهم المسلمين.

الكافر عدو للمسلم وأقل قيمة منه

الكافر مثلا عدو للمسلم كيفما كان، حيث يقول القرآن في هذا الصدد: «إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا».[٢١] ويقول في مكان آخر: «لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ».[٢٢] فلا ينبغي للمسلم أن يتخذ أصدقاء من غير المسلمين، لأن الكفار أعداء مهما كانوا طيبين. فهم أولا وأخيرا أعداء لله وبالتالي هم أعداء المسلم بالضرورة. فالله يريد المسلمين أن يتخذوا أعداءه أعداء لهم، بل إن دعاء المسلم ينبغي أن يكون كالتالي: «وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.»[٢٣] وهذا الدعاء واحد من أشهر الأدعية التي يرددها المسلمون في صلاة الجمعة وفي الأدعية الجماعية وفي المناسبات وغيرها. وهي عبارة عن دعاء لينصرهم الله على الكافرين جميعًا كيفما كانوا حتى لو كانوا يشتركون معهم في الوطن نفسه، بل حتى لو كانوا جيرانا لهم.

لنفترض أن مسلما قتل كافرا، فإنه لا يُقتل «نفسا بنفس»[٢٤]، لأن دم المسلم أغلى من دم الكافر. فليس لدم الكافر القيمة نفسها عند الله كالتي لدم المسلم،

---

٢١. سورة النساء، الآية ١٠١.

٢٢. سورة آل عمران، الآية ٢٨.

٢٣. سورة البقرة، الآية ١٨٦.

٢٤. جاء في القرآن «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ

وبالتالي لا يُقْتَلُ مسلمٌ بكَافِر. هذه قاعدة إسلامية معروفة مبنية على الحديث المحمدي الصحيح الذي يقول: «لا يُقتَلُ مسلمُ بكافر.»[٢٥] ويتكرر الكلام نفسه في كتب كثيرة. ولغرض الاختصار، فإني سآخذ مثالا آخر من مسند أحمد الذي يقول: «إن النبي قضى أن لا يقتل مسلم بكافر.»[٢٦] يقول أحد شراح الأحاديث المشهورين في العالم الإسلامي ابن حجر العسقلاني، المصري، الذي ولد في القاهرة وعاش في القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلادي: «وأما ترك قتل المسلم بالكافر فأخذ به الجمهور.»[٢٧] يعني أن علماء الإسلام اتفقوا على تطبيق هذه القاعدة المأخوذة من الحديث ولم يقتلوا أي مسلم بكافر. فهل تجعل هذه القاعدة الآن مصطلح «كافر» مجرد مصطلح يساوي قولك «غير مؤمن»؟!

إن شيخ الأزهر يعلم هذه الأمور، ولكن من السهل جدا أن يجعلها أمام العامة تبدو سهلة وبسيطة حتى يتقبلها المسيحيون في حقهم فيحصل التطبيع مع مصطلح كافر. وفي الحقيقة، على المجتمع الدولي كله أن يندد بهذا المصطلح، لأن المسيحيين العرب لا يستخدمونه على الإطلاق. فالمسلمون وحدهم يستخدمونه، وهو مسبّة وشتيمة وتقليل من قيمة الإنسان، بل مصطلح عنصري لأنه يجعل دم المسلم أغلى من دم غيره. وفي ظل داعش اليوم لو عاش مسيحي مثلا وسطهم وقبل الجزية والشروط التعسفية والاحتقارية كلها التي تفرض عليه.. لو قتله مسلم فإنه لا يُقتل به جزاءً، بل يدفع المقابل ماديا كتعويض لأهله وذويه، حتى لو كان له عهد وكانت له ذمة. وقد حصلت حادثة مماثلة أيام محمد حيث قتل هلال بن أمية كافرا له عهد، فخطب محمد وقال: «أَلَم تَرَ إلى ما صَنَعَ صَاحِبُكُمْ هلالُ

وَالأُنثَى بِالأُنثَى» (سورة البقرة، الآية ١٧٨)، لكن الكافر لا يدخل في القصاص.

٢٥. صحيح البخاري ٣: ١١١٠، كتاب الجهاد والسير، باب فَكَاكِ الأَسِيرِ.

٢٦. مسند أحمد ٢: ٣٧٢.

٢٧. فتح الباري في شرح صحيح البخاري ١٤: ٢٥٩.

بنُ أُمَيَّةَ، لو قَتَلْتُ مؤمناً بكافرٍ لَقَتَلْتُهُ، فَدُوهُ.»[٢٨] يعني أنه لولا تلك القاعدة لقَتَلَ محمدٌ القاتلَ، لكن بما أنها قاعدة شرعية فإنه لم يستطع خرقها وطالبهم بأن يدفعوا الدية فقط. وقد شرح هذا الأمر المفسرون وقالوا بأن «خطبة يوم الفتح كانت بسبب القتيل الذي قتلته خزاعة وكان له عهد، فخطب النبي فقال: «لو قتلت مؤمناً بكافر لقتلته به.»[٢٩]

ما هي عقوبة المسلم الذي يقتل كافرا (له عهد أو ذمة) عمدا؟ ليست عليه أية عقوبة دنيوية. إن عقوبته هي أنه في الآخرة سيحرم من الجنة بضعة سنوات، لكنه لن يخلد في النار، بل سيعود إلى الجنة بعد قضاء فترة وجيزة في جهنم في حالة مشابهة بالمطهر عند بعض المسيحيين. وقد ورد حديث عن محمد بهذا الخصوص يقول فيه: «مَن قَتَل نفساً مُعاهداً لم يرحْ رائحةَ الجنة، وإنَّ رِيحها لَيُوجدُ من مَسيرةِ أربعينَ عاماً.»[٣٠] قال أحد شراح الحديث:

> والمراد بهذا النفي وإن كان عاماً التخصيص بزمان ما لما تعاضدت الأدلة العقلية والنقلية أن من مات مسلماً ولو كان من أهل الكبائر فهو محكوم بإسلامه غير مخلد في النار ومآله إلى الجنة ولو عذب قبل ذلك.[٣١]

وهذا هو ما يشجع المسلمين على قتل الكفار من النصارى واليهود. ففي مصر لم يحصل حتى الآن أن أعدم شخص مسلم لقتل شخص مسيحي، ولن يحصل حتما في ظل الحكومات التي تتبنى الشريعة الإسلامية، لأنه أمر يعارض أحكام الإسلام المبنية على السنة النبوية.

٢٨. السنن الكبرى للبيهقي ١٢: ٣٩، جماع أبواب تحريم القتل، باب «فيمن لا قصاص بينه باختلاف الدينين».
٢٩. فتح الباري في شرح صحيح البخاري ١٤: ٢٥٨.
٣٠. صحيح البخاري ٣: ١١٥٥، كتاب الجزية والموادعة، باب «إِثم مَن قَتلَ مُعاهِداً بغير جُرمٍ».
٣١. فتح الباري في شرح صحيح البخاري ١٤: ٢٥٧.

مـاذا عـن القتـل غـير العمـد؟ قـد يحصـل مثـل هـذا القتـل تجـاه مسـلم أو مسـيحي أو يهـودي، فـإن حصـل تجـاه المسـيحي أو اليهـودي، فإنـه يدفـع له ديـة (تعويضًـا ماديًـا) يسـاوي نصـف مـا يعطـى في حـال قتـل المسـلم لقـول محمـد: «عَقْـلُ [ديـة] أَهْـلِ الذِّمَّـةِ نِصْـفُ عَقْـلِ الْمُسْـلِمِينَ وَهُـمُ الْيَهُـودُ وَالنَّصَـارَى.»[٣٢] وجـاء نفـس الـكلام في كتـاب آخـر مـن كتـب الحديـث «خَطَـبَ رسـولُ الله النَّـاسَ عامَ الفَتْـحِ فقـالَ: «أَيُّهَـا النـاسَ... لاَ يُقْتَـلُ مُؤْمِـنٌ بكافـرٍ، دِيَـةُ الكافـرِ نصـفُ دِيَـةِ المؤمـنِ ..إلـخ الحديـث.»[٣٣] ديـة الكافـر نصـف ديـة المسـلم! أليسـت هـذه هي العنصريـة بعينهـا؟ هـل سـيقبل المسـلم أن يعيـش في ظـل دولـة تعطـي مثـلا ديـة المسـيحي ضعـف ديـة المسـلم؟ هـل سـيقبل أن يعيـش في دولـة لا يقتـل فيهـا المسـيحي إن قتـل مسـلما حـتى لـو كان متعمـدا؟ فكيـف يحـاول بعـض المسـلمين الترويـج لمصطلـح كافـر على أسـاس أنـه مجـرد بديـل لغـوي لكلمـة «غـير مؤمـن»؟

الكافر مصطلح عنصري

ليـت الأمـر توقـف عنـد هـذا الحـد، بـل إن مصطلـح «كافـر» فيـه الكثـير مـن الحمولـة العنصريـة الـتي تجعلـه واحـدا مـن المصطلحـات الـتي تسـتلزم منعـه على الصعيـد الدولي، لأنـه مصطلـح يعـارض المواثيـق الدوليـة لحقـوق الإنسـان. فشـهادة الكافـر لا تجـوز في الإسـلام، لأن القـرآن يقـول «وَأَشْـهِدُوا ذَوَيْ عَـدْلٍ مِّنكُـمْ.»[٣٤] وتشـترط الآيـة شرطـين اثنـين في الشـهادة: أن يكـون الشـاهد عـدلا، وأن يكـون «منكـم»، أي مسـلما. فالكافـر ليـس عـدلا، بـل هـو ظالـم بشـهادة القـرآن: «سَـنُلْقِي فِي قُلُـوبِ الَّذِيـنَ كَفَـرُواْ الرُّعْـبَ بِمَـا أَشْرَكُـواْ بِـاللهِ مَـا لَـمْ يُـنَزِّلْ بِـهِ سُـلْطَانًا وَمَأْوَاهُـمُ النَّـارُ وَبِئْـسَ مَثْـوَى الظَّالِمِـينَ».[٣٥] وهـو حتمـا

٣٢. سنن النسائي الصغرى ٨: ٤١٤، كتاب القسامة، باب «كم دية الكافر».
٣٣. السنن الكبرى للبيهقي ١٢: ٣٨، كتاب جماع أبواب تحريم القتل، باب «فيمن لا قصاص بينه باختلاف الدينين».
٣٤. سورة الطلاق، الآية ٢.
٣٥. سورة آل عمران، الآية ١٥١.

ليس من المسلمين، ولذلك قال علماء الإسلام بعدم جواز شهادة الكافر: «عن الزهريّ، قال: مضت السنة أن لا تجوز شهادة كافر في حَضَرٍ ولا سَفَرٍ، إنما هي في المسلمين.»[٣٦] وقال ابن قدامة وهو عالم مسلم فلسطيني الأصل من القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلادي: «وأما شهادة الكافر على المسلم فلا تجوز مطلقاً.»[٣٧] ليس هذا فحسب، بل لو مات مثلا رجل مسلم وتم تصنيف ابنه أنه كافر، فإن ابنه لا يرثه، ويمكن للأبناء أن يستثنوا أخاهم من الإرث إذا استطاعوا أن يثبتوا عليه تهمة الكفر لقول محمد: «لاَ يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ، وَلاَ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ.»[٣٨] توضح هذه النصوص كلها أن مصطلح «كافر» ليس مجرد بديل لغوي لتعبير «غير مؤمن»، بل في الحقيقة هو وصف لوضع اجتماعي يجعل كل من هو غير مسلم في مرتبة دون مرتبة المسلم، في دمه وفي ماله وفي شهادته.

تمتد تبعيات مصطلح الكفر حتى تصل إلى الزواج. فالمسلم يستطيع أن يتزوج الكافرة المسيحية واليهودية. لكن «الكافر» اليهودي أو المسيحي لا يتزوج المسلمة بناء على أوامر القرآن: «وَلا تَنْكِحُوا الـمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ».[٣٩] ولذلك قال العلماء المفسرون للقرآن عن هذه الآية إنها تعني «أن الله قد حرم على المؤمنات أن ينكحن مشركا، كائنا من كان المشرك من أيّ أصناف الشرك كان. فلا تُنكحوهن أيها المؤمنون منهم فإن ذلك حرام عليكم.»[٤٠] تخيل لو أن هناك قانونًا في إحدى الدول الأوروبية أو في أمريكا أو كندا يمنع المسلم من الزواج من أية فتاة مسيحية بينما يعطي الحق للمسيحيين بالزواج من المسلمات. ألن يكون هذا قمة العنصرية؟ يميز مصطلح كافر بين الناس

---

٣٦. تفسير الطبري ٧: ٧٣، لسورة المائدة الآية ١٠٦.
٣٧. الشرح الكبير لابن قدامة ٤: ١٧٢.
٣٨. صحيح البخاري ٦: ٢٤٨٤، كتاب الفرائض، باب «لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ».
٣٩. سورة البقرة، الآية ٢٢١.
٤٠. تفسير الطبري ٢: ٢٢٤، لسورة البقرة ٢٢١.

بناء على الدين في الزواج، وعندما يتم تطبيق الشريعة الإسلامية في أي بلد يصير من المستحيل على غير المسلمين الزواج من مسلمات. ولذلك حينما يريد فرنسيون مثلا الزواج من مغربيات تسأل المحكمة المغربية إن كان الفرنسي مسلمًا أم لا. وعليه أن يثبت أنه أسلم بوثيقة معينة. ويقوم بعض الرجال بذلك من دون اقتناع رغبة منهم في إتمام مراسيم الزواج من دون تعقيد. ويضطر آخرون إلى الزواج في الخارج، ويبقى لديه عقد زواج غير معترف به داخل المغرب طول عمره . ويحصل الشيء نفسه للمغربيات اللواتي يردن الزواج من عرب مسيحيين سواء في الأردن أو مصر أو لبنان أو العراق. إذ تضطر بعضهن إلى الهروب إلى بلدان أوروبية لإجراء مراسيم الزواج، في حين تتدبر أخريات شؤونهن بالتزوير أو غيرها من الوسائل. إنها مأساة تعيشها النساء في العالم الإسلامي بسبب هذه التعاليم العنصرية. ومع ذلك هناك من يريد الدفاع عنها، ويريد تطبيقها في أوروبا وأمريكا بحجة أنها الأصلح للشعوب.

ماذا عن الوظائف العمومية؟ من مبادئ العدالة الإجتماعية في البلدان المتقدمة أن يكون المواطنون سواسية في حصولهم على الوظائف العمومية، إلا أن الشريعة الإسلامية لا تهتم لهذا الأمر. فالأسبقية والأفضلية هي دائما للمسلم. فالمسلم أفضل من الكافر: دمه أفضل منه، وشهادته أعدل من الكافر، ولذلك هناك بعض الوظائف التي ينبغي أن تكون حكرا على المسلم وحده ولا ينبغي للكافر أن يحصل عليها البتة، منها الوزارات التنفيذية ومنها القضاء، لأنها تتضمن شرط العدالة، وهو أمر غير متوفر في الكافر. وبما أنه قاضٍ، ينبغي أن يحكم بالشريعة الإسلامية وهو كافر بها، فلا يجوز أن يكون قاضيا. ناهيك عن منصب الرئيس أو نائب ولي أمر المسلمين، فهذا حتما أمر لا يجوز شرعا.

سُئل فضيلة الشيخ الدكتور عبد الحي يوسف، الأستاذ في قسم الثقافة الإسلامية في جامعة الخرطوم، هذا السؤال: «ما حكم أن يتولّى غير المسلم منصب الرئيس أو نائب الرئيس أو الوزير أو القاضي وما شابه ذلك من مناصب؟» فكان جوابه كالتالي:

> أجمع أهل العلم على أن الولاية لا تنعقد لكافر، وأنه متى ما طرأ الكفر على الوالي وجب عزله؛ لعموم قوله تعالى (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا)[41] ولأن الإمامة منصب ديني القصد منه حفظ الدين وسياسة الدنيا به، ولا يتصور ذلك من كافر، وأما الوزارة فقد فرَّق أهل العلم بين وزارة التنفيذ ووزارة التفويض، فجوَّزوا أن يتولى غير المسلم وزارة التنفيذ التي لا تختص بوضع السياسات ولا تأثير لها في القرار، وأما وزارة التفويض فلا يتولاها غير المسلم. ومنصب القضاء كمنصب الإمامة لا يجوز لغير المسلم أن يتولاه، ومثله ولاية الزكاة وقيادة الجيش، فهذه المناصب الأربعة، أعني: الإمامة العظمى وولاية القضاء وولاية الزكاة وقيادة الجيش لا يتولاها إلا المسلم الثقة؛ لأنها وظائف ذات طبيعة دينية، والله تعالى أعلم.[42]

لم تصدر هذه الفتوى عن شخص غير عالم بالشرع الإسلامي، بل عن أستاذ محاضر في جامعة إسلامية. وليس هذا القول استثناء في السودان مثلا، بل هو قول معروف في الإسلام ويُعمل به، وأكده علماء الإسلام قديما وحديثا. قال القاضي عياض العالم المغربي الذي عاش في القرن الحادي عشر والثاني عشر الميلادي: «أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل، قال: وكذا لو ترك إقامة الصلوات والدعاء إليها.»[43] وقال ابن المنذر النيسابوري من القرن التاسع والعاشر الميلادي: «أجمع كل من

---

٤١. سورة النساء، الآية ١٤١.
٤٢. شبكة المشكاة الإسلامية، فتوى «تولي غير المسلم منصب الرئيس أو نائبه!».
٤٣. شرح النووي على صحيح مسلم ١٢: ١٨٠.

يحفظ عنه من أهل العلم أن الكافر لا ولاية له على مسلم بحال.»[٤٤] وقد أوردتُ هذه الأقوال اختصارا. وأما من يريد أن يتعمق فيها، فليبحث في الإنترنت عن الفتاوى الموجودة في مصر وفي السعودية وسيرى بنفسه كمية الفتاوى والأقوال التي تظهر أن المسيحيين واليهود لا يستطيعون الحصول على المناصب السيادية بناء على النصوص الدينية. ولذلك لا يحصل المصريون المسيحيون في مصر على وظائف مثلا في المخابرات أو منصب الرئاسة. ولا يمكن بأي حال من الأحوال حصول هذا الأمر لأن الشريعة الإسلامية أولا وأخيرا هي التي تحكم في مصر حين يتعلق الأمر بهذه الجزئية، حتى وإن كانت مصر لا تطبق جزئيات أخرى من الشريعة الإسلامية.

أحكام الكافر المرتد والمحارب

مصطلح «كافر» إذن ليس بمصطلح عادي عابر، بل هو مصطلح عنصري. ولو قلنا إن هذا يتعلق بالكافر العادي الطيب، فماذا عن التصنيفات الأخرى لمصطلح الكافر؟ هناك كفار يتعامل معهم الإسلام بمنطق آخر. فهناك الكافر المرتد، وهذا النوع من الكافر ليس له أي حق من الحقوق، بل يجب قتله سواء أَوُلِدَ مسلما وارتد حين كبر، أم اختار الإسلام في يوم من الأيام وتراجع عن قراره فيما بعد. هذا إجماع المدارس الفقهية الأربع، ويكمن الاختلاف فقط في الوقت الذي ينبغي أن يمنح له كفرصة للتراجع عن قراره، حيث جاء في الحديث الصحيح قول محمد: «من بدَّلَ دِينَهُ فاقتلوه.»[٤٥] وهناك نص آخر يوصي بالشيء، نفسه، حيث قال محمد: «لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إلاَّ بِإِحدَى ثَلاَثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِ، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ، الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ.»[٤٦] وأنا مثلا، كمسلم سابق، أدخل في هذا الإطار. فأنا أُعَدُّ كافرا مرتدا في

٤٤. أحكام أهل الذمة لابن القيم ٢: ٧٨٧.
٤٥. صحيح البخاري ٦: ٢٥٣٧، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين، باب «حُكْمِ الْمُرْتَدِّ وَالْمُرْتَدَّةِ واستتابتهم».
٤٦. صحيح مسلم ١١: ١٣٨، كتاب القسامة والمحاربين، باب «ما يباح به دم المسلم».

نظـر الإسـلام لأني ولدت في أسرة مسـلمة. فأنـا مسـلم بالـولادة «مـن المصنـع»، وحـين كـبرت واخـترت تـرك الإسـلام، صرت كافـرًا مـن نـوع «المرتديـن» الذيـن لا حـق لهـم في الحيـاة. فـكل مـن تـم تصنيفـه في هـذه الخانـة وتـم إثبـات تهمـة الـردة عليـه، سـواء بقـول أم بفعـل، فإنـه يُحكـم عليـه بالقتـل حـدا.

أمـا النـوع الآخـر مـن الكفـار فهـو الكافـر المحـارب. والكافـر المحـارب هـو كل كافـر قـاوم الإسـلام سـواء بأفعـاله أم بأقـواله، ولا تتبـقى له حـتى تلـك الحقـوق المبتـورة. إذ يحـرم مـن كل شيء. ويذكـر ابـن القيـم الجوزيـة العالـم الدمشـقي الذي عاش في القـرن الرابـع عـشر الميـلادي أن الذمي يصـير محاربـا إذا فعـل واحـدا أو أكـثر مـن الأمـور التاليـة:

> إذا امتنـع الذمي مـن بـذل الجزيـة ومـن جريـان أحكامنـا عليهـم صـار ناقضـا للعهـد، إن فـتن مسـلما عـن دينـه، إذا فعـل مـا فيـه إدخـال غضاضـة ونقـص على الإسـلام، وهي أربعـة أشـياء: ذكـر الله، وكتابـه، ورسـوله، بمـا لا ينبـغي.[٤٧]

وقـد جـاء في القـرآن مـا يؤكـد أن كل مـن طعـن في الديـن مـن الكفـار صـار كافـرا محاربـا تجـب محاربتـه وقتلـه: «وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَانَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ».[٤٨] وقـال الشـافعي الفقيـه الذي ولد في غـزة في القـرن الثامـن الميـلادي وعاش حـتى العشريـة الثانيـة مـن القـرن التاسـع الميـلادي (وهـو صاحـب ثالـث أكـبر مدرسـة فقهيـة ولذلـك سـمي مذهبـه عليـه «المذهـب الشـافعي» حيـث يعـد ثالـث كبـار الأئمـة الأربعـة) في كتابـه الأم:

٤٧. أحكام أهل الذمة ٣: ١٣٦٤–١٣٧٠.
٤٨. سورة التوبة، الآية ١٢.

وعلى أنَّ أحداً منكم إنْ ذَكَرَ محمداً أو كتابَ الله عزّ وجلّ أو دِينَهُ بما لا يَنْبَغِي أَنْ يَذْكُرَهُ به، فقد بَرِئَتْ منه ذِمَّةُ اللهِ، ثم ذِمَّةُ أميرِ المؤمنين وجميعِ المسلمين، ونَقَضَ ما أعطي عليه الأمان، وحَلَّ لأميرِ المؤمنين مَالهُ وَدَمهُ؛ كما تَحِلُّ أَموالُ أهلِ الحربِ ودماؤهم.[٤٩]

بمعنى أنه طالما عاش المسيحي أو اليهودي ذليلا مهانا محتقرا، ولا يرفع صوته ولا يعترض، ولا ينتقد الدين الإسلامي، فإنه مواطن من الدرجة الثانية في أحسن الأحوال، ويتمتع بنوع من الحماية، لكنه في الأول والأخير تحت رحمة المسلمين. لكن لو تكلم واعترض وطعن في الدين الإسلامي، صار دمه هدرا ويحق حينها قتله شرعا.

حين يقول لي بعض المسلمين لقد عشنا جنبا إلى جنب مع المسيحيين في مصر أو في العراق أو الأردن، أقول لهم دائما: عشتم جنبا إلى جنب مع المسيحيين لكن على حساب المسيحيين، اعتنق من اعتنق منهم الإسلام قهرا وهربا من الحالة التي يعيشها بسبب الضغوط المادية والاجتماعية، ومنهم من عاش ذليلا لا يفتح فمه، ومنهم من تم قتله أو تمت محاكمته، ومنهم من هاجر. وهكذا تم تناقص المسيحيين عبر التاريخ في الشرق الأوسط كله وتم القضاء عليهم في شمال إفريقيا، بسبب هذه الممارسات بل وأكثر منها. وهذه هي السياسة التي تجري حتى اليوم. فأسطورة العيش المشترك لا تصمد، لقد كان عيشا مشتركا مرا بطعم العلقم في حلق المسيحيين، يبتلعون مرارته بصمت وهم ينزفون، ويتناقصون حد الانقراض كما حصل في شمال إفريقيا كالجزائر والمغرب وتونس.

٤٩. كتاب الأم للإمام الشافعي ٤: ٢٨٠.

داعش طبقت نصوص التكفير

طبقت داعش اليوم هذه النصوص وأخرجتها إلى أرض الواقع، وصارت تصنف الناس إلى كفار ومؤمنين، فالمسلم الحق في نظر داعش كما في النصوص الإسلامية وبتخريج الفقهاء هو المسلم الذي يلتزم بالإسلام كله، والكافر هو من كفر بالإسلام سواء أفعل ذلك جزئيا أم كليا، إما بالقول أو بالعمل. ولذلك قتلت داعش الكثير من الناس الذين يحسبون مسلمين في نظر العامة ولكنهم بالمقاييس التي وضعها علماء الإسلام لتمييز الكافر من المسلم هم كفار حتما، فاستباحوا دماءهم وقتلوهم بدم بارد، كما فعلوا بالشيعة، والمتعاونين مع الأنظمة سواء في سوريا أو العراق، أو المتعاونين مع دول التحالف. وتوجه إلى هؤلاء كلهم تهمة الردة ويتم قتلهم بناء على أحاديث الردة التي سُقتها من قبل. فداعش لا تقتل المسلمين الذين يخضعون لقانون الدولة الإسلامية من دون اعتراض، مثل محمد تماما، لأنه لم يقتل من استسلم له وعاش تحت رحمته مؤمنا به أو منافقا مظهرا الإيمان ومبطنا للرفض. عاش هؤلاء كلهم تحت ظل الدولة الإسلامية الأولى من دون مشكلات كثيرة تذكر (عدا ما قبلوه من ذل وخنوع طبعا)، لكن الذين انتقدوا محمدا أو هجوه بالشعر فقد بعث لهم من يقتلهم ويقوم بتصفيتهم، مثل كعب بن الأشرف اليهودي.[٥٠] وتفعل داعش الشيء نفسه، فلا تقتل إلا الذين يسببون لها المشكلات، والذين يتعاونون مع أعداء الدولة الإسلامية من أنظمة عميلة، أو من صليبيين وكفار، أو من شيعة (كفار أيضا في نظر داعش وعلماء أهل السنة). فالقول بأن أغلب ضحايا داعش مسلمون هو قول غير صحيح حين ندقق فيه. ففي نظر

---

٥٠. قال محمد لأصحابه «مَن لكعبِ بنِ الأشرف، فإنه قد آذَى الله ورسولَه؟ قال محمدُ بنُ مَسلمةَ: أتحب أن أقتلَهُ يا رسولَ الله؟ قال: نعم. قال فأتاهُ فقال: إن هذا ـ يعني النبيَّ (ص) ـ قد عَنّانا وسألنا الصدَقة. قال: وأيضاً واللهِ لتَمَلُّنَّهُ. قال: فإنا اتَبعناه فنكرَهُ أن نَدَعَه حتى ننظُرَ إلى ما يَصيرُ أمرُه. قال: فلم يَزَل يكلِّمهُ حتى استَمكنَ منه فقتله». صحيح البخاري ٣: ١١٠٣، كتاب الجهاد والسير، باب «الكذب في الحرب».

من هم مسلمون؟ لأن مصطلح مسلم هو مصطلح نسبي. فالمسلم الشيعي مسلم في نظره هو، لكنه في نظر المسلم السني كافر. والمسلم السني في نظر الشيعي ليس بمسلم بل كافر. والمسلم المتعاون مع الغرب ومع الكفار خرج من ملة الإسلام حتى لو اعترف بفمه أنه مسلم، فهو بفعله قد ارتد عن الإسلام، كما سنرى لاحقا في الفصل المتعلق بنواقض الإسلام، وبالتالي جاز قتله والاستيلاء على ماله وممتلكاته وعلى أولاده. إنها الشريعة الإسلامية التي لا ترحم أحدا.

يبدأ الإرهاب أولا بالتكفير وينتهي بالقتل. فقبل القتل هناك التصنيف، وأخطر تصنيف هو حين نصنف الناس إلى مؤمنين وكفرة، إلى مسلمين يجب حفظ دمائهم وكفار يمكن قتلهم لأن دماءهم رخيصة في عيني الله فكم بالأحرى في عيني أتباعه! فالقرآن يقول: «مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ».[٥١] نعم إنهم أشداء على الكفار، يقسون عليهم ويقتلونهم من دون رحمة، رحماء فقط بينهم. فقبل أن تقتل داعش أي شخص، فإنها تصنفه لكي يسهل قتله على أتباعها، واجدةً له الحكم الشرعي الذي يبرر قتله. وفي التاريخ الإسلامي قامت الحكومات الإسلامية والمؤسسات الإسلامية بتكفير الكثير من الأشخاص تمهيدا لقتلهم. ففي بداية الإسلام ومباشرة بعد موت محمد، تمت أول عملية تكفير جماعية لقبائل مسلمة، حيث توقفت قبائل كثيرة عن إرسال الأموال لأن محمدا قد مات.

التكفير منذ بداية الإسلام

كان محمد هو الذي فرض على القبائل التي أسلمت دفع الزكاة له كزعيم للأمة الإسلامية على أساس أنه ينفق من هذه الأموال على الجماعة المسلمة، وينفق منها على الحروب والغزوات، ويعطي منها للمجاهدين معه وللفقراء

٥١. سورة الفتح، الآية ٢٩.

وغيرهـم، وبمجـرد أن اعتـلى أبـو بكـر الخلافـة وقعـت هـذه المشـكلة. فالقبائـل العربيـة الـتي دانـت لمحمـد بالإسـلام اعتقـدت أنهـا أخـيرا قـد تحـررت مـن هذه الضريبـة الدينيـة الثقيلـة المفروضـة عليهـم. فـدار حـوار بـين اثنـين مـن كبـار القـادة المسـلمين، اثنـين مـن كبـار الخلفـاء بعـد محمـد بـل وأصهـاره ومـن أقرب المقربـين منـه، نقلتـه لنـا كتـب الحديـث حيـث جـاء في روايـة منهـا:

لَمَّـا تُـوُفِّيَ رَسُـولُ اللهِ وَاسْـتُخْلِفَ أَبُـو بَكْـرٍ بَعْـدَهُ، وَكَفَـرَ مَـنْ كَفَـرَ مِـنَ الْعَـرَبِ، قَـالَ عُمَـرُ بْـنُ الْخَطَّـابِ لأَبِي بَكْـرٍ: كَيْـفَ تُقَاتِـلُ النَّـاسَ، وَقَـدْ قَـالَ رَسُـولُ اللهِ: «أُمِـرْتُ أَنْ أُقَاتِـلَ النَّـاسَ حَـتَّى يَقُولُـوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ. فَمَـنْ قَـالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ فَقَـدْ عَصَـمَ مِـنِّي مَـالَهُ وَنَفْسَـهُ إِلاَّ بِحَقِّـهِ، وَحِسَـابُهُ عَلَى اللهِ؟» فَقَـالَ أَبُـو بَكْـرٍ: وَاللهِ لأُقَاتِلَـنَّ مَـنْ فَـرَّقَ بَـيْنَ الصَّـلاَةِ وَالـزَّكَاةِ، فَـإِنَّ الـزَّكَاةَ حَـقُّ الْمَـالِ، وَاللهِ لَـوْ مَنَعُـونِي عِقَـالاً كَانُـوا يُؤَدُّونَـهُ إِلَى رَسُـولِ اللهِ لَقَاتَلْتُهُـمْ عَلَى مَنْعِـهِ. فَقَـالَ عُمَـرُ بْـنُ الْخَطَّـابِ: فَـوَاللهِ مَـا هُـوَ إِلاَّ أَنْ رَأَيْـتُ اللهَ عَـزَّ وَجَـلَّ قَـدْ شَرَحَ صَـدْرَ أَبِي بَكْـرٍ لِلْقِتَـالِ، فَعَرَفْـتُ أَنَّـهُ الْحَـقُّ.[٥٢]

نلاحـظ أن الحديـث يتحـدث عـن كفـر القبائـل العربيـة، لقـد كفرهـم الخليفـة وعـدّ أموالهـم وأنفسـهم حـلالا. فأعلـن عليهـم الحـرب لمجـرد أنهـم أوقفـوا ركنـا مـن أركان الإسـلام أو شـعيرة واحـدة مـن شـعائره. فحـتى لـو شـهدوا الشـهادتين وصلـوا وصامـوا وحجـوا، فإنهـم كفـار وليسـوا بمسـلمين في نظـر أبي بكـر. وقـد احتـج عليـه عمـر بالقـول إن محمـدا سـبق أن قـال إن مـن أسـلم يصـير معصـوم النفـس والمـال. فـشرح له أبـو بكـر أن مـن توقـف عـن الـزكاة مثلـه مثـل مـن توقـف عـن الصـلاة وعـن بـاقي الشـعائر، فهـو كافـر يجـوز قتـاله بالسـيف.

٥٢. صحيـح مسـلم ١: ١٧٤-١٨٠، كتـاب الإيمـان، بـاب «الأمـر بقتـال النـاس حـتى يقولـوا لا إله إلا الله محمـد رسـول الله».

هـذا الفكـر هـو بالضبـط مـا يحرّك «داعـش» اليـوم في سياسـتها تجـاه الشـيعة وتجـاه المسـلمين المتعاونـين مـع النظـام العـراقي أو السـوري أو غيرهـم مـن الأنظمـة المعاديـة للتنظيـم. فهـم كفـرة تجوز معاملتهـم بمثـل الطريقـة الـتي تعامـل بهـا أبـو بكـر مـع القبائـل العربيـة الـتي توقفـت عـن دفـع الـزكاة بمجـرد مـوت محمـد. فالتوقـف عـن تأديـة ركـن مـن أركان الإسـلام يُعَـدّ ردة تسـتوجب القتـال، وبالتـالي كانـت حـروب أبي بكـر مبنيـة على عمليـة تكفـير وتصنيـف، تبعهـا قتـال وقتـل، بطبيعـة الحـال. واليـوم، يكـفي أن يتـم تصنيـف مجموعـة مـن النـاس بأنهـم كفـار ومرتـدون وإثبـات أنهـم أخلـوا بأحـد أركان الإسـلام أو أساسـياته ليتـم تجنيـد الشـباب المسـلم المتحمـس لقتالهـم واسـتباحة أموالهـم ودمائهـم. فالتكفـير هـو الفكـر التمهيـدي لعمليـة القتـل.

لـم يتوقـف التكفـير الجمـاعي عنـد حـروب الـردة الـتي قـام بهـا أبـو بكـر الخليفـة الأول لمحمـد. بـل طغـت ظاهـرة التكفـير على التاريـخ الإسـلامي كلـه منـذ عهـد محمـد إلى اليـوم، وأقصـد بالتكفـير الجمـاعي والفـردي، أي تكفـير جمـاعات بكاملهـا أو تكفـير أفـراد معينـين. وقـد أُزهِقـت أرواح كثيريـن عـبر التاريـخ الإسـلامي بسـبب التكفـير. فالتكفـير عقيـدة أساسـية في الإسـلام، لكـن السـؤال الذي اختلفـت فيـه الجمـاعات الإسـلامية عـبر التاريـخ هـو: مـن ينطبـق عليـه حكـم الكفـر؟ أو بالأحـرى مـن يبنـغي أن نكفـر؟ مـن نحكـم عليـه بالكفـر ومـن لا ينبـغي الحكـم عليـه بالكفـر؟

تكفير الفرق الإسلامية

لـم يكـن اختـلاف المسـلمين الأسـاسي عـبر التاريـخ حـول وجـود مسـألة التكفـير في الإسـلام، بـل كان الخـلاف الأسـاسي في مسـألة أيـن ينبـغي أن ترسـم الحـدود بـين الكفـر والإيمـان - مـتى نقـوم بإطـلاق حكـم الكفـر على شـخص مـا أو مجموعـة مـا؟ فقـد وضـع محمـد اللبنـات الأساسـية للتكفـير، حيـث حكـم بنفسـه أن أغلبيـة المسـلمين هـم كفـار في النـار، وأن أمتـه

ستنقسم إلى ٧٣ فرقة كلهم في النار إلا واحدة. وقد جاء هذا الكلام في حديث مشهور يردده المسلمون والمشايخ ويقرأ في المنابر في خطب الجمعة، وينشر في الكتب والمراجع الدينية: يقول هذا الحديث: «أَلاَ إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افترَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هذِهِ المِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ: ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الجنة.»[٥٣] فبحسب هذا الحديث، فإن هناك اثنتين وسبعين فرقة «إسلامية» ستدخل النار لأنها في الحقيقة ليست فرقا إسلامية. فهي تدعى وتسمى فرقا إسلامية ولكن حقيقة أمرها أن أعضاءها غير مسلمين. فنسبة ١ من كل ٧٣ كفرقة ناجية ضئيلة جدا. وبالتالي لا غرابة أن تقتل داعش اليوم الكثير من الفرق التي تعد «إسلامية» في نظر رؤساء الغرب وفي نظر الإعلام، بل وفي نظر عامة المسلمين، لكنها في نظر داعش هي فرق المرتدين والعملاء والكفرة في ثوب إسلامي. وليس تفكير داعش هذا بالتفكير المنحرف عن تفكير محمد وأصحابه وعن فكرة الحديث الذي أشرت إليه.

هناك أقوال أخرى لمحمد تصف بعض الناس بالمسلمين ظاهريا ثم تطالب بقتلهم، لأنهم إنما هم في الحقيقة ليسوا بمسلمين بل كفار في داخلهم حيث قال محمد:

> سَيَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ أَحْدَاثُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ. يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ . يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ. فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ. فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْراً، لِمَنْ قَتَلَهُمْ، عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.[٥٤]

٥٣. سنن أبي داود ١٢: ٣٤٣، كتاب السنة، باب «شرح السنة».
٥٤. صحيح مسلم ٧: ١٤١، كتاب الزكاة، باب «التحريض على قتل الخوارج».

وتكمل بعض النصوص الأخرى في الإطار نفسه وصفهم بما لا يدع مجالا للشك في أن الحديث يتعلق بمسلمين مطبقين للدين ظاهريا: «يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاَتَكُمْ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ، وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ..»[٥٥] أمر محمد أصحابه بأن يقتلوا «الخوارج»، أي الخارجين عن الأئمة، رغم أن صلاتهم الإسلامية من أحسن الصلوات، وصيامهم أحسن صيام، ويقرؤون القرآن، ويطبقون شعائر الإسلام، لكنهم بحسبه ليسوا بمسلمين لأنهم لا يؤمنون فعلا بالقرآن ولا بالإسلام في دواخلهم ولا يطبقونه كما يجب. فالأمر إذن متروك للتقييم الشخصي. إذ يمكن أن يصنف كل شخص في الإسلام غيره بأنه من الخوارج. فبعض علماء الإسلام اليوم يعدون «داعش» من الخوارج، منهم مفتي السعودية الحالي الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ، والذي استخدم هذا الحديث لتبرير قتلهم.[٥٦] وتعدّ داعش من يقاتلونها الخوارج المقصودين بهذا الحديث. فكل منهم يريد أن يستخدم الحديث لصالحه على أساس أنه يتحدث عن الخصم، حيث يتهم كل طرف خصومه بأنهم هم الخوارج.

الخوارج جماعة إسلامية أخرى أنتجتها عقيدة التكفير. فهي من الجماعات الإسلامية الأولى التي يراها علماء الإسلام بأنها غالت في تطبيق التكفير فكفروها وأباحوا دماءها بعقيدتها نفسها، أي تكفير من يستخدم التكفير، وكأنها حلقة من التكفير الذي لا ينتهي. نشأت هذه الجماعة في العصر المبكر للإسلام، وعلى وجه التحديد في عهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب. وهناك من يعود بها إلى قبل ذلك. وألصقت تسمية الخوارج بهم من طرف أعدائهم، وأما هم فكانت لهم أسماء أخرى، حيث سمّوا أنفسهم جماعة المؤمنين على أساس أن الآخرين كفار، وسُموا بالشُّرَاة أي الذين اشتروا الآخرة بالدنيا وسموا أيضا بالمُحَكِّمَة لأنهم ينادون بأنه لا

٥٥. صحيح البخاري ٤: ١٩٢٨، فضائل القرآن، باب «مَنْ رَايَا بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ أَوْ تَأَكَّلَ بِهِ أَوْ فَخَرَ بِهِ».
٥٦. سي إن إن بالعربية، «مفتي السعودية: «داعش» والقاعدة من الخوارج يستحلان الدماء...».

حكم إلا لله، أي أن الأحكام كلها ينبغي أن تنبثق من القرآن لا من أحكام البشر، تماما كما تقول داعش اليوم والقاعدة وأخواتها من التنظيمات الإسلامية. كان الخوارج من حفظة القرآن، وسبب خلافهم مع علي أنه قَبِلَ تحكيم الناس بينه وبين معاوية بن أبي سفيان بعد أن نشبت الحرب بينهما كصراع على السلطة وعلى إمارة المؤمنين.

لما قبل علي التحكيم انشقت عنه مجموعة من الأتباع فسموا الخوارج، وأهم ما يميزهم أنهم يكفرون معاوية ومن تبعه ويعلنون الحرب عليهم، ويكفرون عَلِيًّا لأنه صالح «الكفار». فمن صالحهم وحَكَّمَ غير كتاب الله هو كافر مثلهم، وهكذا كفروا عليا أيضا ومن تبعه وعدّوا أنفسهم هم الجماعة المؤمنة ونصبوا أميرا عليهم، ويعرفون بأنهم يكفرون مرتكب الكبيرة (أي كبائر الذنوب مثل القتل أو الزنى)، فأعلن علي الحرب عليهم وأبادهم كلهم تقريبا[٥٧] (حوالي ٤٠٠٠ شخص) في معركة النهروان التي حصلت «لسخرية القدر» في ما يسمى العراق حاليا، حوالي ٣٥ كلم جنوب شرق بغداد. حصل كل هذا بعد حوالي ٢٧ سنة فقط من موت محمد، زعيم الإسلام وفي عهد أهم أعمدة الإسلام وعلى يد علي، وهو الخليفة وابن عم محمد وصهره وأحد أقرب المقربين منه. فكيف نلوم ما يحصل على يد داعش اليوم ونبرئ الإسلام من تلك الرابطة بينه وبين التكفير والقتل الجماعي الذي تمارسه داعش؟ ألا يشبه ما عملته داعش ما فعله علي بالخوارج في الأماكن نفسها تقريبا؟ والفرق بين ما حصل في عهد علي وما يحصل على يد داعش هو الزمن والأشخاص فقط، وهو فرق ١٤٠٠ سنة وخليفة آخر يسمى البغدادي. وأما الأماكن فهي الأماكن نفسها والأسباب والدوافع هي الأسباب والدوافع نفسها، والنصوص هي النصوص نفسها. والضحايا هم بالآلاف في الحالتين، والسبب هو التكفير. من يكفر من؟

٥٧. انظر كتاب إزالة الشبهات لمحمد عمارة صفحة ٤٠٢.

نماذج من التكفير في التاريخ المعاصر

التكفير سلاح ذو حدين، يستخدمه الشيوخ والحكام المسلمون وتستخدمه الجماعات والمؤسسات الإسلامية. هناك حوادث مشهورة على مر التاريخ الإسلامي لمن تم تكفيرهم وتمت تصفيتهم بناء على حكم التكفير. فالتكفير هو الزناد الذي يطلق الرصاصة والمُنَفِّذ مجرد فوهة مسدس تمر من خلاله الرصاصة. ومن أشهر الأمثلة المعاصرة هي قضية الدكتور فرج فودة «المسلم» في نظره هو، والكافر في نظرالرموز الدينية في بلده من شيوخ وعلماء وقادة التيارات الدينية. نادى فرج فودة بالدولة المدنية وبفشل المشروع الإسلامي ووجوب تبني نظام علماني في مصر. وكتب في هذا السياق كتبا مهمة مثل «الحقيقة الغائبة» وقام بمناظرات مع المروجين لمشروع الدولة الإسلامية من أمثال د. محمد عمارة، والشيخ الأزهري محمد الغزالي، والمستشار مأمون الهضيبي ابن ثاني مرشد لجماعة الإخوان، والذي بدوره سيصير المرشد السادس لجماعة الإخوان لاحقا سنة ٢٠٠٢. تم تكفير فرج فودة بعد هذه المناظرات رغم أنه مسلم (في نظر نفسه) بسبب مجرد معارضته لفكرة كون الإسلام دينًا ودولة. فجعله رفضه للدولة الدينية كافرا في نظر خصومه وهم الأغلبية.

بعد هذه المناظرات أصدرت ندوة علماء الأزهر فتوى بأن فرج فودة كافر يجب قتله. و تم هذا فعلًا لاحقا يوم ٨ يونيو ١٩٩٢ على يد شابين مسلمين عَلِمَا بالفتوى فأطلقا الرصاص عليه بينما كان يتجه لركوب سيارته برفقة أحد أصدقائه وابنه. وقد توفي على إثر تلك الرصاصات حين نقل للمستشفى، بينما نجا مرافقوه لأن إصاباتهم لم تكن بليغة. وحين ألقي القبض على أحد الجناة وتمت مساءلته في المحكمة عن سبب قتله لفرج فودة، قال لأنه مرتد، والمرتد يقتل بحسب فتوى الشيخ عمر عبد

الرحمان،[٥٨] مفتي الجماعة الإسلامية. وحين سئل كيف عرف أنه مرتد وهل قرأ أيًّا من كتب الدكتور فرج فودة، قال بأنه أمي لا يعرف القراءة والكتابة. ويعني هذا بكل اختصار أنه سمع التكفير من الشيوخ. وأثناء المحاكمة، تطوع الشيخ محمد الغزالي (الذي كان مناظرا للدكتور فرج فودة) للشهادة، فشهد لصالح الجاني وطالب بتبرئته من تهمة القتل لأن فرج فودة كافر مرتد ويجب قتله. فالقتل لا نقاش فيه، إنما ارتكب الجاني خطأ بأنه قام بالافتئات على السلطة، أي نفذ حكم القتل بدل السلطات. والافتئات على السلطة لا عقوبة عليه في الشرع. وتقدم للشهادة أيضا الدكتور محمود مزروعة وهو آنذاك رئيس قسم العقائد والأديان بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر فقال عن فرج فودة: «ومثل هذا مرتد بإجماع المسلمين. ولا يحتاج الأمر إلى هيئة تحكم بارتداده.»[٥٩]

ليس هذا فحسب بل قام العديد من الشيوخ بتبرير قتل فرج فودة وفرحوا بذلك. فالمستشار الهضيبي الذي كان أيضا خصما في مناظرة فودة رحب بالخبر وبرره في إذاعة صوت الكويت. وألف الشيخ عبد الغفار عزيز كتابا بعنوان «من قتل فرج فودة؟» ليتهم فرج فودة بأنه هو السبب في قتل نفسه لأنه جلب ذلك على نفسه. شارك الكثيرون في قتل فرج فودة منهم الذي وفر السلاح مثل محمد أبو العلا الذي أفرج عنه محمد مرسي الرئيس (الإسلامي). وعندما خرج، افتخر بأنه شارك في قتل فرج فودة قائلًا على الفضائيات إنه غير نادم على ذلك لأن فرج فودة كافر. ومنهم الذي أطلق الرصاص، ومنهم الذي وفر الدراجة النارية التي ركب عليها المنفذان، كل هؤلاء مشتركون أدانتهم المحكمة وحكمت عليهم بأحكام متفرقة بين الإعدام والسجن. لكن الشركاء الآخرين الذين أفتوا بالقتل أو صنفوا الدكتور فرج فودة على أنه كافر بقوا أحرارا طلقاء، لأن التكفير

٥٨. انظر روز اليوسف، مقال «الذين اغتالوا فرج فودة بالفتاوى».
٥٩. ميدل إيست أونلاين، «الشبكة الجهنمية التي قتلت فرج فودة».

مسألة مألوفة في العالم الإسلامي، ولا يوجد أي قانون حتى الآن في العالم الإسلامي يجرم التكفير. فما زال يُنظر إلى تكفير الناس وإباحة دمائهم على أساس أنه من اختصاص رجال الدين الذين يستطيعون ممارسته في حق من يرونه كافرا.

محمود محمد طه، حالة أخرى في السودان، تم إعدامه سنة ١٩٨٥. قبل الإعدام تم تكفيره من هيئات إسلامية متعددة ومن شيوخ مسلمين، وهذا هو السبب الذي عجل بإعدامه، فقد تم تكفيره رسميا من طرف المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، حيث قال: «يجب على المسلمين أن يعاملوه معاملة المرتدين.»[٦٠] ويعرف كل مسلم كيف ينبغي أن يعامل المرتد. وصدرت أيضًا فتوى مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر بتاريخ ١٩٧٢/٦/٥م أن كلام محمود طه كفر صراح لا يصح السكوت عليه. صدر الحكم بردة محمود طه بناء على منظومة القضاء السوداني، أولا من المحكمة الشرعية، ثم من المحكمة الجنائية، ثم قرار محكمة الاستئناف[٦١]. وبالفعل تم تنفيذ حكم الإعدام فيه يوم الجمعة ١٨ يناير ١٩٨٥.

ما زالت حتى الآن المواقع الإسلامية تفتي بتكفير أتباع محمود محمد طه في السودان ويدعون الجمهوريين. فقد جاء في موقع إسلامي شهير:

٦٠. شبكة المشكاة الإسلامية، «هل يعتبر الجمهوريون «جماعة محمود محمد طه» من الفرق المارقة؟...»
٦١. صدر الحكم بردة محمود طه من المحكمة الشرعية يوم ١٩٦٨/١١/١٨م، ثم صدر حكم آخر من المحكمة الجنائية رقم ٤ بأم درمان بتاريخ ١٩٨٥/١/٨م، ثم قرار محكمة الاستئناف الجنائية في الخرطوم الصادر في ١٩٨٥/١/١٥م.

> أفتت هيئات شرعية ومجامع فقهية ومحاكم إسلامية معتبرة بردة الرجل [محمود محمد طه] وفساد فكره، وأن هذا الحكم ينسحب على كل من يؤمن بأفكاره تلك ويتابعه في هرطقته وزندقته.... لا يحل لمسلم أن يتزوج من نسائهم؛ لقوله تعالى (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) ولو استبان لزوج أن امرأته تعتنق هذا الفكر لوجب عليه فراقها إن لم تتب؛ لقوله تعالى (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) ولا يحل لمسلمة كذلك أن تتزوج رجلاً يعتنق هذا الفكر؛ لقوله تعالى (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم.)[٦٢]

هذه مجرد أمثلة بسيطة لا يستطيع أحد أن ينكر وجودها في تاريخنا المعاصر، ولذلك لا تعدّ داعش استثناء في هذا المجال. الاختلاف هو مدى تطبيق التكفير أو إلى أي حد يمكن تطبيقه على أرض الواقع. فلا تهتم داعش للبلدان الغربية والمنظمات التي ستعترض أو تنادي بحقوق الإنسان أو تحرجها في المحافل الدولية، بينما الدول الإسلامية تراعي أحيانا العلاقات الدولية وتخضع للضغوط والمساومات. ولذلك نجد «داعش» تقتل من تراهم كفارا علنا بل تصر على نشر صورهم وتتباهى بذلك على الإنترنت لكي توصل رسالة للرأي العام الإسلامي بأنها ليست جبانة كأنظمتهم، وأنها تختلف عن تلك الدول التي تعرف «الحق» ولا تطبقه إلا بشكل محدود. ترسم داعش لنفسها صورة الدولة الإسلامية كما عرفها المسلمون في عهد الرسول وسُطِّرت في الكتب المعتمدة، الدولة التي لا تخشى إلا الله، وتطبق أحكامه مهما كلفتها تلك الأحكام، تطبقها من دون خوف من أحد ومن دون مراعاة لأحد. فهي تريد أن تقول للمسلمين إنها دولة الخلافة المنشودة التي تحرص على تطبيق النص وتطبيق أحكام الله في الكفار المرتدين، وإن

---

٦٢. سورة البقرة، الآية ٢٢١. شبكة المشكاة الإسلامية، «هل يعتبر الجمهوريون «جماعة محمود محمد طه» من الفرق المارقة؟...»

هؤلاء القتلى ليسوا مسلمين كما يروج بعضهم، بل هم كفار إذا ما تم وضعهم في ميزان الكفر والإيمان. لم تأتِ داعش بجديد، بل تتبع تاريخا طويلا من التكفير منذ بزوغ الإسلام إلى اليوم.

هناك استثناء واحد في قضية التكفير ومنعه في الدول الإسلامية. فقد جرمت تونس «العلمانية» نوعا ما التكفير في دستورها لعام ٢٠١٤ على مضض بعد صراع مع حزب النهضة، حيث يقول الفصل السادس من الدستور التونسي: «تلتزم الدّولة بنشر قيم الاعتدال والتّسامح وبحماية المقدّسات ومنع النّيل منها، كما تلتزم بمنع دعوات التّكفير والتّحريض على الكراهية والعنف وبالتّصدّي لها.»[٦٣] وكان السبب المباشر في تجريم التكفير في الدستور التونسي اغتيال سياسيين تونسيين هما شكري بلعيد ومحمد براهمي[٦٤]، على أيدي إسلاميين[٦٥] بعد أن تم تكفير الاثنين وإهدار دمهما.[٦٦] وقد قام حزب النهضة التونسي الإسلامي بالاعتراض على هذا الفصل[٦٧]، كما أن نوابا منه استقالوا بعد أن صادق البرلمان التونسي على الفصل المذكور. وقال أحد النواب المستقيلين أحمد السميعي معلّقًا على الفصل السادس: «فصل يتعارض مع تعاليم الدين الإسلامي ويشرّع لنشر الكفر والإلحاد وعبادة الأوثان ويمنع التكفير الذي جاء في شرع الله.»[٦٨] واستقال نائب آخر من حزب النهضة عزوز الشوالي، وهو أستاذ محاضر في جامع الزيتونة الديني حاصل على الدكتوراة في الشريعة الإسلامية، وعلق على الفصل الذي منع التكفير بقوله إن «إقرار الفصل السادس بمصطلحاته العامة يخالف تعاليم الدين الإسلامي ويتضارب مع الأحكام الشرعية في

٦٣. دستور الجمهورية التونسية، الفصل السادس.
٦٤. اغتيل شكري بلعيد يوم ٦ فبراير ٢٠١٣ و اغتيل محمد براهمي في ٢٥ يوليو ٢٠١٣.
٦٥. طالب إسلاميون برأس شكري بلعيد قبل مقتله في فيديو على اليوتوب، يوتيوب، «التكفير=إرهاب: المطالبة برأس شكري بلعيد...».
٦٦. صرحت بسمة الخلفاوي زوجة شكري بلعيد أن التكفير هو السبب في اغتيال زوجها شكري بلعيد، يوتيوب، «بسمة الخلفاوي: التكفير هو جرم وهو إلّي أدّى إلى إغتيال شكري بلعيد».
٦٧. قناة الحرة، «تونس.. «تجريم التكفير» يعيق إقرار الدستور الجديد».
٦٨. الجزيرة نت، «الدستور التونسي وأزمة الفصل السادس».

كتـاب الله.»[٦٩] ورغـم اعتمـاد هـذا الدسـتور في تونـس، إلا أن هنـاك ٣٣ عالمـا وشـيخا مسـلما أمضـوا فتـوى ضـد هـذا الدسـتور. تقـول الفتـوى إن «مـا جـاء في الفصـل السـادس يخـلّ بأعظـم كلّيـات الإسـلام الضروريـة الخمـس ويفتـح البـاب على مصراعيـه لانتشـار الإلحـاد ومـا يخالـف العقيـدة الإسـلامية»،[٧٠] إضافـة إلى اسـتنكار العديـد مـن الجمعيـات الإسـلامية لهـذا الفصـل.. إذن حـتى الاسـتثناء التونـسي يعـد اسـتثناء له ظروفـه، ومـع ذلـك يعـد في نظـر الكثـير مـن الإسـلاميين فصـلا يتعـارض مـع الإسـلام، وقـد تتـم إزالتـه مـن الدسـتور في أي فرصـة تتـاح للإسـلاميين في المسـتقبل.

٦٩. الجزيرة نت، «الدستور التونسي وأزمة الفصل السادس».
٧٠. جريدة إيلاف الإلكترونية، «أئمة تونس وشيوخها ينتفضون رفضًا للدستور الجديد».

-٦-

كيف تصير كافرًا: نواقض الإسلام العشرة

نواقض الإسلام قانون للتكفير

إذا كان التكفير مصيبة، فإن طريقة تصنيف الناس وتقسيمهم إلى كفار مصيبة أعظم. ولا يعلمُ معظم المسلمين أن هناك عشرة نواقض للإسلام، عشرة أشياء إن ارتكبتها تدخل الكفر من بابه الأوسع، وتلتحق بالمسيحيين والنصارى وباقي الكفار. بل إن كفر المسلم بعد أن كان مسلما أعظم وأكبر جرما. وينشر كل يوم تنظيم الدولة صورا ومقالات على المنتديات وعلى وسائل التواصل الاجتماعي تجد بينها صورًا لتنفيذ العقوبات الشرعية المنصوص عليها في القرآن والحديث من ضمنها الكثير من الأعناق التي تضرب بعد تلاوة البيان الشرعي الذي يَصْدُرُ عن القاضي الشرعي الذي غالبا ما يكون شخصا يعرف أحكام الدين ويعرف المذاهب الفقهية وما قررته في حق مرتكبي تلك «المخالفات» في نظرهم. ومن ضمن الحدود التي تتكرر حد قتل المرتدين. والمرتد اسم عام يشمل

كل من تم تصنيفه أنه كفر وارتكب ناقضا من نواقض الإسلام بالقول أو الفعل أو بالاثنين معا.

لا يمكن الحديث عن نواقض الإسلام من دون ذكر محمد بن عبد الوهاب الذي سميت الوهابية على اسمه، وهي التيار الديني الذي يسيطر على السعودية إلى اليوم. وهذا هو الشيخ الذي تحالف وقتها مع محمد بن سعود مؤسس الدولة السعودية الأولى في القرن الثامن عشر. كان هذا الشيخ من الأوائل الذين جمعوا نواقض الإسلام وفصلوها وشرحوها وألفوا فيها، فقد قام بتلخيص هذه النواقض وشرحها للناس وتعميمها عليهم. وما زالت توجد نبذ وكتب على النت أومطبوعة منسوبة إليه تباع وتوزع على الناس ليفهموا هذه النواقض. وبدوره، يشرح موقع الشيخ عبد العزيز بن باز مفتي السعودية السابق الذي توفي سنة ١٩٩٩ هذه النواقض ويفصّلها لمن يريد الاطلاع عليها.[١] وأما موقع دار الإفتاء السعودية، وهو موقع حكومي رسمي، فيتحدث عن نواقض الإسلام على أساس أنها كثيرة جدا وليست عشرة فقط. فالنواقض العشرة هي المشهورة، لكن يمكن أن تتعداها إلى أخرى[٢] ويعرض أيضًا منبر التوحيد والجهاد للشيخ محمد المقدسي، الأب الروحي لأبي مصعب الزرقاوي، المؤسس الحقيقي لما صار يعرف اليوم بتنظيم الدولة الإسلامية (أو داعش) نواقض الإسلام العشرة ويشرحها مقتبسا إياها من محمد بن عبد الوهاب.[٣] فما هي هذه النواقض يا ترى؟

---

١. موقع الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن باز، «نواقض الإسلام».
٢. مجلة البحوث الإسلامية، «ما هي نواقض الإسلام؟»، الفتوى رقم ١٦٤٨٧.
٣. موقع التوحيد والجهاد، «شرح نواقض الإسلام».

الناقض الأول: الشرك بالله

كل من أشرك شخصا آخر وعبده مع الله في نظر الدولة الإسلامية يعد مشركا قد كفر بالإسلام. ولِمَ هذه الصرامة في الحكم؟ لأن القرآن قال: «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ».[٤] فالشرك من أعظم الأشياء التي يمكن للمرءِ ارتكابها في الإسلام. فالله يغفر القتل والزنى والأعمال الأخرى كلها. يمكن أن ترتكبها وتبقى مسلما، لكن مرتكب الشرك لا يمكن أن يبقى مسلما. ولذلك حين سأل أحد الصحابة محمدا: «أيُّ الذَّنبِ أعظمُ عندَ الله ؟ قال: أن تجعلَ للهِ نداً وهوَ خلَقَكَ.»[٥] وينفي الشرك الإسلام عن صاحبه لأنه جرم عظيم لا يغتفر، ولذلك تجد المسلمين يعدّون المسيحيين مشركين وليسوا مجرد كفار بالمعنى العام، بل هم كفار ومشركون، لأنهم أشركوا عبادة المسيح (وهو مخلوق في نظرهم) مع الله، مع العلم أن هذه النظرة تختلف كليا عن النظرة اللاهوتية المسيحية التي تعدّ المسيح كلمة الله الذي ظهر في الجسد وليس شخصا منفصلا عن الله. لكن على العموم حتى اليهود يعدون مشركين لأنهم في نظر القرآن يعبدون عزيرا: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ».[٦] وحتى لو كان الأمر غير صحيح على أرض الواقع، فلا يهم الأمرُ المسلمين. فكوني مسلما سابقا أعرف أن المسلمين لا يعيرون الانتباه لما يقوله الناس فيما يتعلق بالشرع. فإذا قالها القرآن، فإنها حتما صحيحة، وكل من يقولُ عكسَ ذلك كاذب حتى لو كان صادقا. المهم عندنا هو القرآن، والقرآن قال بأن اليهود مشركون، إذن الأمر محسوم.

يقول محمد بن عبد الوهاب في كتابه عن نواقض الإسلام:

---

٤. سورة النساء، الآية ٤٨.

٥. صحيح البخاري ٤: ١٦٢٦، كتاب التفسير، باب «قوله تعالى: {فَلاَ تَجْعَلُواْ للهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (البقرة: ٢٢)».

٦. سورة التوبة، الآية ٣٠.

المشرك حلال الدم والمال: قال تعالى «فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».[٧] وحين يُقتل المشرك، فقتْله لا يكفر عنه. بل سيدخل جهنم خالدًا فيها أبدا. يقول القرآن «إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ.»[٨]

مع العلم أن هذه الآية الأخيرة جاءت في معرض الحديث عن المسيحيين ونهيهم عن عبادة المسيح. فإذا رأينا الدولة الإسلامية تقتل الإيزيديين ولا تعطيهم الخيار، فلأن التاريخ الإسلامي لا يعطي المشركين الخيار. أعطى محمّد النصارى الخيار رغم أنهم مشركون، لأنهم أصحاب كتاب ولأن عندهم شيئا من الحق. وأما الإيزيديون فحالهم مختلف، لأن محمدا لم يعط قريشا أي خيارات إلا الإسلام أو القتل. ففي عام الفتح دخل عليهم محمد بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، ودخلت قريش كلها تحت راية الإسلام بحد السيف. يقول الحديث إن كل من اعترضهم في الطريق أناموه، أي قتلوه وطيروا عنقه.[٩] ولذلك كان الإيزيدون أمام خيارين إما الإسلام أو القتل. ولا يعني الإسلام أن يسلموا حين تكون السيوف على رقابهم، بل عليهم الإسلام قبل أن تتمكن الدولة الإسلامية منهم، ويسمون ذلك «أن تتوب قبل القدرة عليك». فإذا قدروا عليهم قتلوهم، لأنه لا توبة بعد القدرة عليهم.

نشر تنظيم الدولة في ٢٠ أغسطس ٢٠١٤ فيديو لمئات الإيزيديين الذين أسلموا[١٠] بعدما أعدم المئات من الذين قدر عليهم ولم يتوبوا قبل وصول التنظيم. وقد هاجم التنظيم بشراسة الإيزيديين في مدينة سنجار وأرغم الآلاف منهم

---

٧. سورة التوبة، الآية ٥.
٨. سورة المائدة، الآية ٧٢.
٩. الحديث في صحيح مسلم عن أبي هريرة يقول بأن محمدا قال لهم «"انْظُرُوا. إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ غَداً أَنْ تَحْصِدُوهُمْ حَصْداً" وَأَخْفَى بِيَدِهِ. وَوَضَعَ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ. وَقَالَ: "مَوْعِدُكُمُ الصَّفَا" قَالَ: فَمَا أَشْرَفَ يَوْمَئِذٍ لَهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ أَنَامُوهُ. صحيح مسلم١٢: ١٠٥، كتاب الجهاد والسير، باب «فتح مكة».
١٠. الوطن، «بالفيديو | "داعش" تجبر مئات الإيزيديين على اعتناق الإسلام».

على ترك منازلهم واللجوء إلى جبل سنجار، حيث بقوا محاصرين هناك من شهر أغسطس إلى شهر ديسمبر من ٢٠١٤، أي حوالي أربعة شهور من الحصار، كان هذا هو السبب المباشر المعلن الذي بسببه شَحنت قوات التحالف الرأي الدولي للتدخل ضد التنظيم في العراق، ولولا التدخل الدولي وفك الحصار عن الإيزيديين، لكنا رأينا واحدة من أكبر المجازر في القرن الحادي والعشرين، وربما رأينا أكبر عملية أسلمة قسرية. ورغم ذلك تم ذبح المئات من الإيزيديين وأخذ نسائهم سبايا لتباع في سوق النخاسة، كما فعل المسلمون الأوائل في الشعوب التي غزوها. وقد صرح الكاتب أمين بوزان الأمين العام لحركة الشعب الكردستاني في سوريا في حوار مع جريدة القدس:

> أن مثل هذه الجرائم ليست الأولى من نوعها التي ترتكب بحق الطائفة الإيزيدية، ففي عهد الفتوحات والغزوات الإسلاميّة تكررت مثل هذه الأعمال وها نحن اليوم نرى السيناريو ذاته يتكرر مع هذه الطائفة مرة أخرى تحت راية الإسلام، لكن في الحقيقة هدف تنظيم الدولة هو الخراب والدمار وتهجير السكان من أماكنهم، متسائلاً: «أي شريعة وأي دين يقبل بنحر الرجال واختطاف النساء؟»[١١]

وقد أكدت الأمم المتحدث من خلال التقارير التي تصلها أن مقاتلي التنظيم يخيرون الإيزيديين بين الإسلام والقتل، بعكس المسيحيين الذين يحظون بالخيار الثالث، وهو الجزية، حيث قال كريستوف هينز مقرر الأمم المتحدة الخاص والمعني بحالات الإعدام خارج سلطة القضاء: «إن المنظمة الدولية تلقت تقارير تفيد بأن مقاتلي الدولة الإسلامية يطاردون أفراد الأقليات ويأمرونهم باعتناق الإسلام أو الموت.»[١٢]

١١. القدس العربي، «جوع وتشريد وإبادة جماعية - الإيزيديون يفرون من سيف داعش...».
١٢. نفس المصدر السابق.

الإيزيدون أتباع ديانة قديمة في العراق تمثل مزيجًا من العقائد والأديان، ولكن المسلمين يعدّونهم عبدة الشيطان لمجرد أنهم يعتقدون بطاووس ملك ويعبدونه على أساس أنه حاكم الكون. فتشابُه قصته مع قصة الشيطان في العقيدة الإسلامية جعل المسلمين يحكمون عليهم بأنهم عبدة الشيطان، ولا محالة أن عبدة الشيطان مشركون ويدخلون في إطار من يجب ذبحهم إن لم يعتنقوا الإسلام. فوظيفة الإسلام هي محو الشرك من الأرض وتوحيد الله وإخضاع العالم كله له وحده دون شريك له[١٣]. وأغلب الإيزيديين أكراد، ويقارب عددهم اليوم المليون أغلبهم يتمركز في العراق. وما حصل لهم مأساة بكل المقاييس، لكنها في نظر تنظيم الدولة هي عين ما يجب عمله، لأن محمدا نفسه لم يشفق على قبيلته وأهله وأخضعهم لخيار السيف أو الإسلام. ومن المؤكد أن الإيزيديين ليسوا أحسن من قبيلة محمد وعشيرته. فتطبيق الشرع أهم من مشاعر الشفقة.

الناقض الثاني: جعل وسيط بين الله والإنسان

«من جعل بينه وبين الله وسائط، يدعوهم، ويسألهم الشفاعة، ويتوكل عليهم؛ كَفَرَ إجماعاً.» يوجد في بلدان إسلامية كثيرة نوع من الإسلام الشعبي الذي لا يخضع كثيرا للعقائد الصارمة كما جاءت في الكتب، بل يتبع العرف الشعبي السائد. من تلك العادات زيارة الأضرحة وتقديسها. وتولي الطرق الصوفية ذلك أهمية كبيرة، بينما تعارض التيارات الإسلامية والجماعات الجهادية التي تحاول تطبيق الشريعة، كما جاءت في القرون الأولى، هذه الممارسات وتعدّها شركا مُخرجا من الملة، وبالتالي ليس لدى أغلب المسلمين في المغرب مثلا إشكال في زيارة الأضرحة والتبرك بها،

١٣. يقول القرآن على لسان الله «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» (الذاريات ٥٦) ويقول أيضا «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه» (الأنفال ٣٩).

لكنهم من المؤكد في نظر تنظيم الدولة مشركون وكفار لأنهم يرتبكون كبيرة من الكبائر، بل يرتكبون ناقضا من نواقض الإسلام.

حارب محمد بن عبد الوهاب الأضرحة وهدمها، وقام بتسوية القبور المبنية بالأرض. لذلك لا وجود للأضرحة في السعودية، بل هنالك من طالب بإزالة حتى ضريح النبي محمد لأنه يدخل في نفس النهي.[١٤] وقد تمت تسوية قبور عائلة النبي وإزالة الأسماء عنها سنة ١٩٢٤ حتى لا يعرف أصحابها ولا يتبرك بهم الحجاج، والنصوص التي يستندون عليها كثيرة منها أن القرآن خاض معركة ضد القرشيين ليس لأنهم كانوا غير مؤمنين بالله بل لأنهم اتخذوا وسطاء معه: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ».[١٥] ومن أوائل المهام العسكرية التي أمر بها علي بن أبي طالب[١٦] أنه بعث أحد مبعوثيه فقط لتحطيم القبور وتدمير التماثيل: «عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ الأَسْدِيِّ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَلاَّ أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ؟ أَنْ لاَ تَدَعَ تِمْثَالاً إِلاَّ طَمَسْتَهُ. وَلاَ قَبْراً مُشْرِفاً إِلاَّ سَوَّيْتَهُ.»[١٧]

فلا غرابة أن تقوم الدولة الإسلامية بتفجير قبر النبي يونس حتى لا يتبرك به المسلمون ويرتكبوا واحدة من أكبر الكبائر. ففي يوليو ٢٠١٤، قام التنظيم بزرع عبوات ناسفة في المرقد قرب شرق الموصل وتم نسفه بالكامل رغم قدمه.[١٨] وتم تصوير ذلك بالفيديو من طرف التنظيم وعرضه على أساس أنه إحياء لسُنة قد تركتها الدول الإسلامية. وفي ٢٣ من شهر أغسطس ٢٠١٥، دمر التنظيم في سوريا معبد بعل شمين الروماني الذي يعود

١٤. بحسب ما جاء في صحيفة الأندبندنت البريطانية التي كشفت عن وثيقة من إعداد أستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، وبحوزة لجنة رئاسة الحرمين، تحت عنوان: "Saudis risk new Muslim division with proposal to move Mohamed's tomb".

١٥. سورة الزمر، الآية ٣.

١٦. ابن عم النبي محمد وأول من آمن به من الرجال وزوج ابنته، والذي تربى على يديه وكبر عنده.

١٧. صحيح مسلم ٧: ٣٢، كتاب الجنائز، باب «تسوية القبور».

١٨. العربية نت، «بالفيديو.. داعش يفجر مرقد النبي يونس بالعراق».

إلى القـرن الأول الميـلادي وهـو مـن الـتراث العالـمي.[١٩] لكـن التنظيـم لا يهمـه الـتراث العالـمي بقـدر مـا يهمـه الديـن وتنفيـذ أحـكام الإسـلام، فنـشر صـورًا لتفخيـخ المعبـد وتدمـيره كُتِـب على إحداهـا: «نسـف معبـد بعـل شـمين الوثـني بالكامـل». فالمهـم عندهـم أنـه ينبـغي أن تُدَمَّـر مظاهـر الـشرك والوثنيـة.

في شـهر فبرايـر ٢٠١٥، قـام تنظيـم الدولـة بنـشر فيديـو يوضـح فيـه لمـاذا قـام بتحطيـم التماثيـل الأثريـة في متحـف مدينـة الموصـل مـن ضمنهـا الثـور الأشـوري الذي يعـود إلى القـرن التاسـع قبـل الميـلاد.[٢٠] وقـد حمـل الفيديـو عنـوان «الآمـرون بالمعـروف والناهـون عـن المنكـر»، وهـو عنـوان مأخـوذ مـن القـرآن نفسـه، حيـث يقـول عـن المسـلمين: «كُنتُـمْ خَـيْرَ أُمَّـةٍ أُخْرِجَـتْ لِلنَّـاسِ تَأْمُـرُونَ بِالْمَعْـرُوفِ وَتَنْهَـوْنَ عَـنِ الْمُنكَـرِ».[٢١] ومـن المؤكـد أن تنظيـم الدولـة يعـدّ تحطيـم الأصنـام نهيـا عـن المنكـر. وطـول الفيديـو خمـس دقائـق يتـم خلالهـا توضيـح أسـباب التحطيـم ثـم عمليـة الكسر والتحطيـم. وقـد قـام قبـل ذلـك سـنة ٢٠٠١ تنظيـم طالبـان بنسـف تماثيـل بـوذا القديمـة، رغـم أنهـا إرث حضـاري عالـمي يعـود عمـره إلى حـوالي ألـفي عام. ورغـم جهـود الوسـاطة لإيقـاف عمليـة التحطيـم، أصرت طالبـان على تنفيـذ الأمـر، وهـو مـا تـم بالفعـل. وقـد شرح وكيل أحمـد متـوكل وزيـر خارجيـة طالبـان وقتهـا سـبب التدمـير قائـلا: «مرسـومنا بتدمـير هـذه الأصنـام يسـتند إلى التعاليـم الإسـلامية، وأننـا لـن نسـتثني تماثيـل مـن عـصر مـا قبـل الإسـلام أو مـا بعـده.»[٢٢] والغريـب أن اليابـان وقتهـا طالبـت تدخـل البـلدان الإسـلامية لإيقـاف عمليـة التدمـير. ومـا لا تعلمـه اليابـان والبـلدان الغربيـة مـا ينـشر بالعربيـة على مواقـع هـذه الدول نفسـها. خـذ قطـر مثـلا. نجـد في موقعهـا الرسـمي «إسـلام ويـب» سـؤالا ورد مـن أحـد القـراء

---

١٩. بي بي سي عـربي، «اليونسـكو: تدمـير معبـد بعـل شـمين في تدمـر في سـوريا جريمـة حـرب»، مقـال آخـر على نفـس الموقـع «صـور بالقمـر الصنـاعي تظهـر تدمـير معبـد بعـل شـمين...».

٢٠. بي بي سي عربي، «تنظيم الدولة "يحطم تماثيل أثرية" في العراق».

٢١. سورة آل عمران، الآية ١١٠.

٢٢. الشرق الأوسط، «طالبان تصر على تدمير تماثيل بوذا رغم جهود الوساطة ومخاوف دولية...».

لوزارتها الإسلامية يقول: «ما هو الحكم الشرعي في ما تقوم به حكومة طالبان من تحطيم الأصنام والتماثيل القائمة هناك؟ وهل هنالك مبرر شرعي للدعوات التي رفعها البعض وشنعوا فيها على طالبان؟» فما كان من الموقع إلا أن أصدر فتوى يقول فيها: «دلت الأدلة الشرعية على وجوب هدم الأوثان والأصنام، متى تمكن المسلمون من ذلك، سواء وجد [أُوجِدَ] من يعبدها أو [أم] لم يوجد.»[٢٣] واستدل الموقع على فتواه هذه بما قاله النبي محمد في حديث يشرح فيه أن الله أرسله «بِصِلَةِ الأَرْحَامِ وَكَسْرِ الأَوْثَانِ وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لاَ يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ.»[٢٤] وقد قال علي بن أبي طالب: «كنا مع رسول الله في جنازة فقال: «من يأتي المدينة فلا يدع قبراً إلا سوّاه ولا صورة إلا لطخها ولا وثناً إلا كسره.»[٢٥] وقد قال محمد بعد أن تم تنفيذ وصيته: «من عاد فصنع شيئاً من ذلك فقد كفر بما أنزل الله على محمد.»[٢٦]

كذلك نجد في القرآن أمثلة تشجع على تحطيم الأوثان، حيث يورد مثلا حوارا لإبراهيم مع أبيه:

> إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ.... قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ، وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ، فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ.[٢٧]

واللافت للنظر أن هذه الآيات هي نفسها التي قرأها تنظيم الدولة في الخلفية بينما كان أعضاؤه يكسرون التماثيل في الفيديو المذكور. وقد استنكر العالم كله الحدث دون أن يعرف جذوره. فمحمد نفسه قد أمر بتحطيم التماثيل:

٢٣. إسلام ويب، «وجوب إزالة الأصنام».
٢٤. صحيح مسلم ٦: ٩٥، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب «إسلام عمرو بن عبسة».
٢٥. مسند الإمام أحمد ١: ١٤٠.
٢٦. مسند الإمام أحمد، مسند علي بن أبي طالب.
٢٧. سورة الأنبياء، الآيات ٥٢ إلى ٥٨.

«دَخلَ النبيّ مكةَ وحَولَ الكعبةِ ثلاثمائةٍ وستونَ نُصُباً، فجعَلَ يَطعنُها بعُودٍ في يدِه وجعَلَ يقول: {جَآءَ الحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ}[٢٨] الآية.»[٢٩] وطعنها بالعود علامة لأصحابه أن يقوموا بتحطيمها كما حطم إبراهيم تماثيل قومه في القرآن.

أما فيما يتعلق بالفتاوى فهنالك فتوى في موقع السعودية الرسمي تحرم إقامة التماثيل لأي غرض كان. وقد جاءت هذه الفتوى جوابا على سؤال يقول: «ما موقف الإسلام من إقامة التماثيل لشتى الأغراض؟» فجاء الجواب:

> إقامة التماثيل لأي غرض من الأغراض محرمة سواء كان [أكان] ذلك لتخليد ذكرى الملوك وقادة الجيوش والوجهاء والمصلحين أم كان رمزًا للعقل والشجاعة كتمثال أبي الهول أم لغير ذلك من الأغراض؛ لعموم الأحاديث الصحيحة الواردة في المنع من ذلك؛ ولأنه ذريعة إلى الشرك.[٣٠]

فهنالك كمٌّ هائل من النصوص الثقيلة التي يواجهها الشباب المسلم، نصوص تحرم التماثيل وتأمر بتحطيمها من جهة، ومجتمع يقدس القبور والأضرحة ويقوم بعمل متاحف للتماثيل من جهة أخرى. هذه الأزمة بين النص والواقع هي سبب تطرف الشباب. فالنص عندهم مقدس ينبغي أن يسري على المجتمع لا العكس، حيث ينبغي إخضاع المجتمع لسلطة النص. وأما الحكومات الإسلامية فهي تنافق المجتمع الدولي، لأنها من جانب تعلم الشباب في مقرراتها هذه النصوص وتنص عليها في مواقعها الرسمية بينما تبيع للغرب اللغة الدبلوماسية التي تندد بما يفعله تنظيم الدولة. لكن الحقيقة الساطعة هي أن فتاواها تشجع على ما يفعله تنظيم الدولة مئة بالمئة.

---

٢٨. سورة الإسراء، الآية ٨١.
٢٩. صحيح مسلم ١٢: ١٠٦، كتاب الجهاد والسير، باب «إزالة الأصنام من حول الكعبة».
٣٠. مجلة البحوث الإسلامية، «ما موقف الإسلام من إقامة التماثيل لشتى الأغراض؟».

كان والدي لا يشتري لأختي حتى دمية لتلعب بها لأن الدمى حرام. وكانت أمي من الجانب الآخر تشتري الدمى خفية لأختي وتحذرها بأن تخفيها حتى لا يكتشفها أبي حين يعود إلى المنزل، وتوصيني أنا بالذات ألا أشي بها وبأختي. وحين سألت أبي عن سبب اعتراضه على الدمى، علمني قصة عن محمد حيث اشترت له زوجته عائشة وسادة صغيرة ليتكئ عليها وفيها تصاوير، قالت:

> فَلَمْ يَدْخُلْ. فَقُلْتُ أَتُوبُ إِلَى اللهِ مِمَّا أَذْنَبْتُ. قَالَ «مَا هَذِهِ النُّمْرُقَةُ». قُلْتُ لِتَجْلِسَ عَلَيْهَا وَتَوَسَّدَهَا. قَالَ «إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ. وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لاَ تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ الصُّورَةُ.»[٣١]

لا يريد والدي أن تمتنع الملائكة عن الدخول إلى البيت بسبب دمية أختي، ولا يريد أن يحاسب يوم القيامة على مساهمته في إحضار هذه الصورة إلى البيت. فأصحابها سيحاسبون يوم القيامة على محاولتهم مضاهاة خلق الله فيطلب منهم الله إحياء الصورة. وبما أنهم لن يستطيعوا فعل ذلك فسيتسمر عذابهم للأبد. وبما أن من يشتري منهم ذلك يساعدهم في الكفر، فإنه سيعذب معهم بطريقة أو بأخرى. وهكذا فإن أكثر الناس عذابا يوم القيامة هم المصورون[٣٢] بحسب محمد، أي الذين يقومون بتصوير ما فيه روح، مثل الحيوان أو الإنسان. وعلى هذا، فإن من المؤكد أن والت ديزني الذي أمتع العالم كله برسوماته سيُشْوَى في نار جهنم بحسب الإسلام لأنه خلق لنا واحدا من أكثر الشخصيات الخيالية تأثيرا هو «ميكي ماوس». وسيطلب منه الله أن ينفخ الروح في ميكي ودونالد داك وبلوتو...وبما أنه لن يستطيع

---

٣١. صحيح البخاري ٥: ٢٢٢١، كتاب اللباس، باب «مَنْ كَرِهَ الْقُعُودَ عَلَى الصُّورَةِ».

٣٢. جاء الحديث في صحيح البخاري ٥: ٢٢٢٠، كتاب اللباس، باب «عَذَابِ الْمُصَوِّرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»: «عَنْ مُسْلِمٍ قَالَ كُنَّا مَعَ مَسْرُوقٍ فِي دَارِ يَسَارِ بْنِ نُمَيْرٍ، فَرَأَى فِي صُفَّتِهِ تَمَاثِيلَ فَقَالَ سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ يَقُولُ «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ»».

ذلك، فسيشوى هناك للأبد. لذلك لا تجد في البلدان الإسلامية الملتزمة مثل السعودية فن النحت، ولا يعلّق المسلمون الملتزمون في بيوتهم صورا لكل ما فيه روح مثل الحيوانات والأشخاص، إنما يضعون الآيات القرآنية أو صور الطبيعة. ولم ينجح أي فن في العالم الإسلامي باستثناء المعمار والخط لأنه لا يتضمن صورًا. فإذا كان هذا يحصل لمن يضع التصاوير والدمى فما بالك بالأضرحة والتماثيل؟ وأما عوام المسلمين الذين لا يعيرون هذه النصوص أي انتباه، فهم في نظر تنظيم الدولة وغيره من التنظيمات الإسلامية مجرد مسلمين ضالين، وإن أصروا على عاداتهم السيئة تلك بعد تنبيههم فهم حتما يصبحون في عداد المشركين الذين يستحقون العقاب.

الناقض الثالث: عدم تكفير الكافر

«من لم يكفر المشركين، أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم صار كافرا». لتفسير هذا الناقض أضرب مثلا: حين يقول القرآن إن المسيحيين كفار، ثم يأتي شخص مسلم لطيف ويعارض ويقول بأن المسيحيين مؤمنون وليسوا بكفار، يتم تكفير ذلك المسلم هو الآخر. مما يعني أن تنظيم الدولة حين يكفّر شخصا ويهم بقتله، لا يجوز الاعتراض على ذلك. وإن اعترض أحد من أعضائه أو السكان على ذلك التكفير، فإنه حتما سيلحق بذلك الشخص الكافر إن لم يتب قبل فوات الأوان لأنه شك في كفره واعترض على تكفيره. ويتم تكفير كل الذين يحاولون قراءة الإسلام قراءة جديدة ويحاولون التقريب بين الأديان ومحاربة التكفير هم الآخرين لأنهم لا يكفّرون من كفره القرآن. ويتم تبرير هذا الناقض بآية قرآنية هي الأخرى تعتمد على قصة إبراهيم القرآنية:

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ.[٣٣]

بحسب هذه الآية، فإن إبراهيم قد قام بتكفير قومه وقطع معهم كل علاقة، بل أظهر لهم العداوة والبغضاء، وبالتالي لا يمكن أن تزول تلك العداوة إلا بعد أن يؤمنوا بالله وحده دون وسطاء أو أصنام. وهكذا على المسلم المتلزم بدينه أن يكفر كل من كفّره القرآن وأن يقطع علاقته بهم ولا ينبغي أن يظن بأنهم غير كفار أو يساعدهم في كفرهم بأي شكل من الأشكال. ولكم أن تتخيلوا الانعزال التام للمسلم عن باقي الناس المصنفين كفارًا بسبب هذه الأحكام الجائرة.

الناقض الرابع: الاعتقاد بسمو أي قانون على الإسلام

«من اعتقد أن غير هدي النبي أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه - كالذي يفضل حكم الطواغيت على حكمه - فهو كافر». يحتم هذا الناقض على المسلم أن يؤمن على الدوام بأن الشريعة الإسلامية هي أحسن قانون ممكن في تاريخ البشرية، لأنها قانون إلهي يسمو على القوانين البشرية كلها. ولا ينبغي لأية دولة إسلامية أن تضع أي قانون وضعي فوق الشريعة الإلهية، لأن القرآن يقول: «إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ».[٣٤] ويقول أيضا: «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ».[٣٥] يدخل في هذا الإطار من لم يحكم بالشريعة الإسلامية ووضع قوانين بشرية بدلها، أو من حكم الشريعة في بضعة أشياء وحكم القوانين الوضعية في أشياء أخرى. ولذلك لا غرابة أن تعدّ التنظيمات الإسلامية الدول الإسلامية مثل العراق والمغرب

---

٣٣. سورة الممتحنة، الآية ٤.
٣٤. سورة الأنعام، الآية ٥٧.
٣٥. سورة المائدة، الآية ٤٤.

ومصر دولا كافرة، لأنها دول لا تطبق الشريعة الإسلامية إلا في بضعة أشياء مثل الميراث والأحوال الشخصية، لكن لا يوجد مثلا قطع ليد السارق، ولا رجم للزاني، ولا جلد، وبالتالي قد فضلت هذه الدول القوانين الوضعية على الشريعة الإلهية. لذلك يعلنون الجهاد عليها، ويريدون إزالتها حتى يكون الحكم كله لله، ولا مكان لحكم الإنسان فيه. ويفتخر تنظيم الدولة بأنه تنظيم لا يعير القوانين الوضعية أي اعتبار. فهو يجلد ويرجم ويقطع حتى لو تعالت الأصوات الدولية. فشريعة الله أهم من أصوات الدول الكافرة. ويسمى هذا المبدأ توحيد الحاكمية، وهو مبدأ أساسي عند كل التنظيمات الإسلامية الجهادية. فالله ينبغي أن يتفرد في حكمه، «وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا».[٣٦]

هذه نظرة لا يفهمها الإعلام الغربي حين يحلل بيانات تنظيم الدولة. فهم لا يرونها من خلال عيون أصحابها، بل يرونها بعيون غربية. يبارك كثيرون من شيوخ السعودية تطبيق الشريعة ويشهدون الجلد وقطع الرؤوس في الساحات العامة، ولا يكترثون بما يقوله الغرب عنهم. ففي نظرهم، شريعتهم أفضل من كل القوانين الغربية مجتمعة، التي مهما بدت أنها أفضل في ظاهرها، فهي في باطنها سيئة. ومن القصص التي تدخل في هذا الباب قصة المدون رائف بدوي الذي كان لي شرف استجواب زوجته وأطفاله، وقد أدمعت عيناي حين قالت الطفلة نجوى البالغة من العمر ١٠ سنين وقت إجراء الحوار (أواخر ٢٠١٤) إنها تتمنى أن تلعب مع والدها وأن تنام معه في السرير نفسه.[٣٧] لكن رائف بدوي لحد كتابة هذه السطور ما زال يقبع في سجون السعودية بسبب مدونته ومنتداه الإلكتروني الذي قام من خلاله بالمناداة بأفكار ليبرالية حيث سمى موقعه «الشبكة الليبرالية السعودية الحرة»، انتقد فيه الدين الإسلامي وانتقد نظام بلده السعودية

٣٦. سورة الكهف الآية ٢٦.

37. Youtube, “An interview with Raif Badawi’s daughter #FreeRaif.”

وانتقد هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويقبع رائف بدوي المولود سنة ١٩٨٤ في السجن منذ ٢٠١٢ بسبب كتاباته. وحوكم في بداية الأمر بتهمة الردة، وكاد يُحكم عليه بالقتل كعقوبة له في تلك الحالة، لكن بعد توبته أمام القاضي وتبرؤه من أقواله، تم الحكم عليه بسبب العبارات التي عُدّتْ كفرا بعشر سنوات سجنا وألف جلدة تفرق على عشرين مرة وغرامة حوالي ٢٦٠,٠٠٠ دولار أمريكي.

تم فعلا تنفيذ أول خمسين جلدة في ٩ يناير ٢٠١٥، بينما تم تأجيل الدفعات الأخرى تحت الضغوط الدولية التي مارستها حكومات مختلفة وجمعيات حقوقية. ومن بين التهم التي جاءت في صك الحكم تهمة غريبة تدخل تحت هذا الباب، والتهمة تقول:

> تفضيله قانون الغرب الكافر على قانون بلاده ودستورها الذي هو الكتاب والسنة مشبها من قال الله فيهم: «يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَـؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَن يَلْعَنِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا».[٣٨]

والسبب هو أن رائف بدوي كتب من بين ما كتب حرفيًّا في مدونته أنه «في الغرب قانون أفضل حتى من السعودية.»[٣٩] تخيلوا شخصا يحاكم بسبب تهمة أنه قال «إن قانون بلد آخر أحسن من قانون بلده»! فالشريعة هي قانون بلده، وبالتالي إذا قال إن قانون أية دولة كافرة، حتى لو كان قانون أمريكا، أحسن من قانون بلده سيُعدُّ كافرا ينبغي أن يُحاسب. فشريعة الله هي أحسن الشرائع حتى لو قطعت الأيدي، وقطعت الرؤوس وجلدت الناس أمام المساجد وهم يتفرجون بعد انتهاء خطبة الجمعة وكأنهم أمام

٣٨. سورة النساء، الآيات ٥١ و ٥٢.
٣٩. صك الاتهام الصادر عن المحكمة الجزائية بجدة ضد رائف بدوي رقم ٣٤١٨٤٣٩٤ ص ٥٠، بتاريخ ٢٠ فبراير ٢٠١٣ (١٠ ـ ٤ ـ ١٤٣٤ هجرية).

فيلم، وحتى لو رأى الشباب البلدان الغربية ورأوا أقرانهم ينعمون بحرية التعبير وحرية الرأي، وحتى لو كانت السعودية لا تسمح إلى اليوم للمرأة حتى بقيادة السيارة، فإن من العار بل جريمة في نظرهم أن يقال إن قوانين الغرب الكافر أحسن من قانون بلدهم. فعليهم أن ينافقوا ويقولوا رغم كل شيء: ما أحسن هذه الشريعة وما أروعها من شريعة، شريعة رب العالمين!

الناقض الخامس: بغض أي شيء في الإسلام

مَن أبغض شيئا مما جاء به الرسول ولو عمل به فقد كفر، كأن يبغض الصلاة فإنه يكفر ولو صلى، أو يبغض صيام رمضان فهو كافر حتى لو صامه، أو يبغض إقامة الحدود على الزاني أو السارق أو كره ذلك فهذا يَكْفُرُ؛ لأنه أبغض وكره ما أنزله الله. يقول القرآن: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ».[٤٠] لو أثبتت الدولة الإسلامية على أي شخص موجود داخلها أنه قد صرح بكرهه لأي شيء من الفرائض والحدود الإسلامية، فسيكون أمره عظيما إن لم يعلن التوبة ويتراجع عن أقواله. فبُغض الحدود الإسلامية والأوامر القرآنية كفر يستحق صاحبه القتل.

الناقض السادس: الاستهزاء بأي شيء في الإسلام

من استهزأ بشيء من دين الرسول (الإسلام) أو ثوابه أو عقابه كفر، يقول القرآن: «قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ».[٤١] يدخل في هذا الإطار كل من استهزأ بأية صغيرة أو كبيرة في الدين الإسلامي، عشرات الصور تعرضها المنتديات الإسلامية لقطع رؤوس المتسهزئين بالإسلام من طرف تنظيم الدولة في المناطق التي يديرها في

٤٠. سورة محمد، الآية ٩.
٤١. سورة التوبة، الآيات ٦٥ و ٦٦.

العـراق وسـوريا، وغالبـا مـا يُطبـع على الصـورة «قتـل مرتـد» أو قتل شـخص سـب الله أو سـب الرسـول، لأن الاسـتهزاء بـأي شيء إسـلامي يعـني سـب الله والرسـول. وسـأفصّل في فصـل لاحـق عقوبـة شـاتم الرسـول، لكـن هنـا سـأكتفي ببعـض الأمثلـة الـتي تكـفي لهـذا المقـام.

جـاء في صـك الحكـم على رائـف بـدوي السـعودي المحكـوم عليـه بألـف جـلدة أنـه اسـتهزأ بديـن الله، حيـث قـال عـن رمضـان: «جـاء شـهر النفـاق والإزعاج. ليتـه لـم يـأت علي وأنـا في السـعودية لكـن مجـبرا لا بطـل.» وقـال أيضـا: «السـيف والقـرآن أخطـر مـن القنبلـة النوويـة.» قـال القـاضي معلقـا على كتابـات رائـف:

> ولمـا في هـذه العبـارات الـتي أقـر بهـا... مـن انتهـاك لحرمـة الديـن وأهلـه وانتقاصـا ممـن جعـل الكتـاب والسـنة دسـتورا ونبراسـا.. ولمـا تبثـه مثـل هـذه الأفـكار مـن التشـكيك في ثوابـت الديـن.[٤٢]

ولذلـك رأى القـاضي في البدايـة أن رائـف مرتـد لأنـه ارتكـب أكـثر مـن ناقـض مـن نواقـض الإسـلام. يقـول القـاضي في صـك الاتهـام:

> أولا ثبتـت لدي ردة المـدعى عليـه عـن الإسـلام بارتـكاب نواقـض مـن نواقضـه، وثبـت لدي مراجعتـه للإسـلام [يعـني تراجـع عـن أقـواله أكيـد خوفـا مـن القتـل] مـن بعـد ذلـك فأصبـح حينئـذ معصـوم الدم والمـال وحسـابه على الله تعـالى.[٤٣]

ولهـذا السـبب يقـضي فقـط عقوبـة عـشر سـنوات في السـجن والجـلد كمـا أنـه ممنـوع مـن السـفر لمـدة عـشر سـنوات بعـد خروجـه مـن السـجن، سـيخرج

---

٤٢. صـك الاتهـام الصـادر عـن المحكمـة الجزائيـة بجـدة ضـد رائـف بـدوي رقـم ٣٤١٨٤٣٩٤ ص ٥٢، بتاريـخ ٢٠ فبرايـر ٢٠١٣ (١٠ ـ ٤ ـ ١٤٣٤ هجريـة).

٤٣. صـك الاتهـام الحكـم الابتـدائي الصـادر عـن المحكمـة الجزائيـة بجـدة، القـاضي نـاصر بـن ابراهيـم بـن عتيـق الذي ينـوب عـن القـاضي عبـد الرحيـم بـن ابراهيـم المحيذيـف ، صفحـة ٤٤ .

مـن السـجن الأصغـر إلى السـجن الأكـبر (السـعودية). يعَـدُّ هـذا الحكـم مخففـا بالنسـبة لعقوبـة الـردة الـتي تقتـضي القتـل بالسـيف. فنواقـض الإسـلام ليسـت بالأمـر الهـين في الدولـة الإسـلامية سـواء أكانـت السـعودية أم تنظيـم الدولـة.

كانـت هنالـك حالـة أخـرى في موريتانيـا، حيـث أصـدر القضـاء الموريتـاني، لأول مـرة منـذ اسـتقلال البـلد عام ١٩٦٠، حكمـا بالإعـدام بتهمـة الـردة في حـق الشـاب محمـد شـيخ ولد امخيطـير البالـغ مـن العمـر ٣٠ عامـا يـوم الأربعـاء ٢٤ ديسـمبر ٢٠١٤ عشـية أعيـاد الميـلاد في الغـرب. لا أدري إن كان التاريـخ جـاء هنـا صدفـة أم مقصـودًا لبعـث رسـالة للشـباب المتأثـر بالغـرب. جـاء الحكـم بسـبب مقـال كتبـه هـذا الشـاب منتقـدا فيـه أوضـاع فئـة المعلمـين «الحرفيـين» في بـلده وكيـف يتعامـل معهـم النظـام بمكيالـين. وأرجـع المقـال السـبب في ذلـك إلى الديـن وكيـف تعامـل النـبي محمـد بمكيالـين: مكيـال مـع اليهـود حيـث قتلهـم ومكيـال مـع قومـه العـرب حيـث عفـا عـن أهلـه القرشـيين حـين دخـل بلدهم، رغـم أن محمدًاهاجـم يهـود بـني قريظـة ويهـود بـني النضـير بنـاء على مجـرد نيتهـم حـين خمـن أنهـم يريـدون أذيتـه، بينمـا آذاه أهـل قبيلتـه بالفعـل ولـم يعاملهـم كمـا عامـل قبائـل اليهـود. وخلاصـة المقـال هـو أن محمـدا كان يسـتخدم مكيالـين في التعامـل مـع النـاس: مكيـالا لأهـل قبيلتـه ومكيـالا للآخريـن، أو بحسـب تعبـيره «الأخـوة و علاقـة الدم و القـربى تمنـح حـق الرحمـة لقريـش في الفتـح و تحـرم بـني قريظـة مـن ذلـك الحـق.»[٤٤] حمـل هـذا المقـال عنـوان «الديـن والتديـن»، وأوضـح فيـه الكاتـب أن مـا يتعـرض له أهلـه مـن الحرفيـين مـن التهميـش سـببه الديـن ورجـال الديـن.

فجّـر هـذا المقـال الذي كُتِـبَ في نهايـة ٢٠١٣ موجـة مـن الغضـب في موريتانيـا، وبعدهـا خرجـت مظاهـرات مطالبـة بقتـل الشـاب محمـد، مـا أدى إلى القبـض عليـه لاحقـا في الثـاني مـن شـهر ينايـر ٢٠١٤، ثـم تـم الحكـم عليـه بالإعـدام

٤٤. الحـوار المتمـدن، «مقـال يوصـل صاحبـه الى مقصلـة الاعـدام...»، و نـشر لاحقـا في مواقـع عديـدة بعـد أنـا ثـارت الضجـة حـوله.

في نهاية السنة نفسها. وعندما تم نطق الحكم أغمي على الشاب، لأنه لم يكن ينتظر هذا الحكم القاسي[٤٥]، بينما انطلقت الزغاريد وصيحات «الله أكبر» داخل المحكمة. وبعدها خرجت السيارات والدراجات تطلق أبواقها في شوارع نواذيبو مرحبة بالحكم في حق من يستهزئ بالرسول وبالدين الإسلامي عموما.[٤٦] اعتمد القاضي عبد الله ولد شماد الذي حكم على محمد الشيخ في حكمه على المادة ٣٠٦ من القانون الجنائي الموريتاني، والمتعلقة بما جاء به الإسلام بخصوص الاستهزاء بالدين واعتباره مخرجا من الملة الإسلامية. تقول هذه المادة:

> كل مسلم ذكرا كان أو أنثى ارتد عن الإسلام صراحة، أو قال أو فعل ما يقتضي أو يتضمن ذلك، أو أنكر ما علم من الدين ضرورة، أو استهزأ بالله أو ملائكته أو كتبه أو أنبيائه يحبس ثلاثة أيام، يستتاب أثناءها، فإن لم يتب حكم عليه بالقتل كفرا وآل ماله إلى بيت مال المسلمين. وإن تاب قبل تنفيذ الحكم عليه رفعت قضيته بوساطة النيابة العامة إلى المحكمة العليا؛ وبتحقق هذه الأخيرة من صدق التوبة تقرر بوساطة قرار سقوط الحد عنه وإعادة ماله إليه. وفي جميع الحالات التي يدرأ فيه الحد عن المتهم بالردة يمكن الحكم عليه بالعقوبات التعزيرية المنصوص عليها في الفقرة الأولى من هذه المادة. وكل شخص يظهر الاسلام ويسر الكفر يعتبر زنديقا يعاقب بالقتل متى عثر عليه بدون استتابة ولا تقبل توبته إلا إذا أعلنها قبل الاطلاع على زندقته.[٤٧]

٤٥. فرانس ٢٤، «الحكم بالإعدام على الشاب الموريتاني محمد شيخ ولد محمد بتهمة الردة»، وقد تناقلت تفاصيل الحكم وسائل إعلام أخرى كثيرة.

٤٦. تفاصيل المحاكمة موجودة على مواقع إعلامية كثيرة منها مثلا قناة الحرة: «القضاء الموريتاني يحكم بالإعدام على شاب متهم بالردة».

٤٧. موقع وزارة العدل للجمهورية الإسلامية الموريتانية، «القانون الجنائي الموريتاني».

هل سيقبل القاضي توبة محمد ولد الشيخ التي أعلنها في المحكمة؟ يبدو أن القاضي لم يعط لذلك أي اعتبار لأنه عدّه زنديقا كان يخفي الكفر داخله وأنه إنما غير كلامه بعد القبض عليه.

اتصلت شخصيا بأخت محمد الشيخ، السيدة عائشة الشيخ، فأخبرتني بأن الأمر لم يتوقف عند ذلك الحد، بل تم تطليق أخيها من زوجته التي تزوجها قبل ثلاثة أشهر فقط قبل توقيفه. وتم ذلك التطليق دون علمه وتم تزويجها لشخص آخر غصبا عنها، لأن المرأة المسلمة يحرم عليها البقاء في عصمة شخص كافر. واستأنف المحامون الحكم، وما زالت القضية جارية حتى كتابة هذه السطور. إن رائف بدوي ومحمد الشيخ مجرد مثلين للمأساة التي يعيشها الشباب المسلم، وأنا واحد من هؤلاء. ولو لم أنفذ بجلدي من المغرب، لكان حالي حالهم الآن.

الناقض السابع: ارتكاب أعمال السحر

«السحر ومنه الصرف والعطف، فمن فعله أو رضي به كفر»، والدليل قول القرآن: «وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ».[٤٨] إن حكم الساحر في الإسلام هو القتل.[٤٩] ففي السعودية، يتم تنفيذ القتل في حق الكثيرين ممن يقبض عليهم ويحاكمون بتهمة السحر. ففي يوم الثلاثاء ٥ أغسطس ٢٠١٤، تم تنفيذ حكم القتل في حق محمد بن بكر بن صالح العلاوي.[٥٠] ونشرت العربية على موقعها بتاريخ ٣٠ ديسمبر ٢٠١٤ خبر القبض على ساحر في الرياض يقوم بأعمال سحر ليقرب بين الأزواج.[٥١] وأثناء الحرب السعودية على الحوثيين، وبالضبط يوم ١٥ أيار ٢٠١٥ نشرت

٤٨. سورة البقرة، الآية ١٠٢

٤٩. هذا رأي أصحاب المذهب المالكي والمذهب الحنبلي (الذي تتبعه السعودية) والحنفي، أما الشافعية ففرقوا بين السحر الذي فيه كفر والسحر الذي ليس فيه كفر، انظر التفاصيل في «حكم السحر والساحر» على موقع إسلام ويب، مقالات مثلاً.

٥٠. صحيفة سبق الإلكترونية، «تنفيذ حُكم القتل تعزيرًا في سعوديين أحدهما ساحر والآخر قَتَل ابنه».

٥١. العربية نت، «القبض على ساحر في الرياض».

جريدة الرياض خبر القبض على يمني حاول التسلل للسعودية للقيام بأعمال السحر والشعوذة.[٥٢] بل إن هناك وحدة خاصة في الشرطة السعودية متخصصة في السحر والشعوذة والقبض على السحرة، تشبه وحدة مكافحة الإرهاب في الدول الغربية، وقد قامت بإلقاء القبض على أكثر من ألفي ساحر ومشعوذ سنة ٢٠٠٩، وهي الجهة الأمنية الوحيدة في العالم المتخصصة في محاربة السحر والشعوذة.[٥٣] وفي لائحة النظام الخاص بجرائم السحر والشعوذة في السعودية هناك مادة تحدد العقوبة وهي المادة التاسعة حيث تقول: «يعاقب من ثبت شرعا قيامه بارتكاب جريمة السحر بالقتل، وإذا رأت المحكمة المختصة - لأسباب تقدرها - عدم إيقاع عقوبة القتل، فيعاقب بالسجن مدة لا تقل عن خمس عشرة سنة وبغرامة لا تقل عن ثلاثمائة ألف ريال، ولا تزيد على خمسمائة ألف ريال.»[٥٤]

يتبنى تنظيم الدولة الموقف نفسه من السحر، مثله مثل المملكة العربية السعودية بسبب التحاق فئة كبيرة من الشباب السعودي المتدين بالتنظيم وشغلت مناصب قضائية وشرعية، وبالتالي يغلب المذهب الحنبلي على سائر الأحكام.[٥٥] وقد قمت بتنزيل العشرات من الصور لأحكام الإعدام بفصل الرأس في الساحات العامة على أشخاص اتهموا بالسحر، من المنبر الإعلامي الجهادي ـ وهو منتدى ينشر كل ما يتعلق بالتنظيم من بيانات وصور وفيديوهات ـ منها صور تُظهر أنه يوم ١٨ ديسمبر ٢٠١٤ تم تنفيذ حكم القتل في شخص متهم بالسحر في ناحية العلم في ولاية صلاح الدين، وعُرضت المواد التي كان يستخدمها ونشرت الصور تحت اسم المكتب

---

٥٢. جريدة الرياض، «القبض على يمني يشتبه أنه ساحر حاول التسلل إلى الحدود».

٥٣. موقع العربية نت يتحدث عن هذه الوحدة وعن مداهماتها، تحت عنوان: «السعودية.. «الهيئة» تداهم سحرة أساؤوا إلى المصحف تقرباً للشيطان».

٥٤. جريدة اليوم الإلكترونية، «القتل عقوبة جرائم السحر والشعوذة أو السجن ١٥ عامًا».

٥٥. يقدر عدد السعوديين في التنظيم بحوالي ٣٠٠٠ شخص، بحسب تقرير سوفان غروب، وهم يتزعمون التنظيم في مراكز قيادية انظر صحيفة القدس العربي مثلاً تحت عنوان: «تقرير أمريكي: المقاتلون الأجانب يشكلون غالبية قيادات تنظيم داعش».

الإعلامي لولاية صلاح الدين. وقبل كل تنفيذ للحكم، تتم تلاوة البيان على الحاضرين الذين سيشهدون التنفيذ. ويتضمن البيان الحكم الشرعي وأدلته من القرآن والسنة.

في ٦ فبراير ٢٠١٥ تم تنفيذ حكم القتل بقطع الرأس في ولاية الرقة (منطقة الدبسي، القاطع الغربي) على شخص كبير في السن (يظهر من لحيته البيضاء) وتم نشر تقرير مصور يوضح عملية التنفيذ، فما سبب هذه الأحكام؟ أوضح التقرير أن الإسلام بنصوصه المقدسة علّم أن للسحر تأثيرًا كبيرًا في حياة الناس، ويمكن أن يضر بهم حتى لو مورس من بعيد بوساطة طلاسم وتعويذات وبخور.. وغيرها. فالسحر في القرآن يستطيع أن يفرق بين الإنسان وزوجته: «فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ».[٥٦] ويعتقد المسلمون أن محمدًا نفسه تعرض للسحر على يد يهودي اسمه لبيد بن الأعصم، حيث سحره في مشط وضع فيه شعرا ورماه في بئر.[٥٧] ويرى المسلمون أن هذا السحر هو السبب الذي أثر في ذاكرة محمد وعلى قواه العقلية حتى إنه لم يعد يتذكر إن مارس الجنس مع زوجته أم لا. فإذا كان الرسول نفسه قد تأثر بالسحر فإن المسلمين العاديين سيكونون أكثر تأثرا، ولذلك توجد سورة قرآنية يتلوها المسلم خوفا من السحر والحسد، وهذا هو موضوعها الأساسي. وقد كان محمد يتلوها على جسده حتى تقيه من السحر.[٥٨] تقول هذه السورة، وهي السورة ما

٥٦. سورة البقرة، الآية ١٠٢.

٥٧. جاء الحديث في الصحيحين عن عائشة «عن عائشةَ قالت: «سُحِرَ النبيُّ حتّى كان يُخيَّلُ إليهِ أنهُ يَفعَلُ الشيءَ وما يَفعلُهُ، حتّى كان ذاتَ يومٍ دَعا ودعا ثم قال: أشَعَرتِ أنَّ اللهَ أفتاني فيما فيه شفائي ؟ أتاني رجُلانِ فقَعدَ أحدُهما عندَ رأسي والآخرُ عندَ رجليَّ، فقال أحدهما للآخر: ما وَجَعُ الرجُلِ ؟ فقال: مَطبوب. قال: ومَن طَبَّهُ ؟ قال: لَبيدُ بنُ الأعصَمِ. قال: فيما ذا؟ قال: في مُشطٍ ومُشاقةٍ وجُفِّ طَلْعةِ ذَكَر. قال: فأينَ هوَ ؟ قال: في بئرِ ذَرْوانَ.» صحيح البخاري ٣: ١١٩٢-١١٩٣، كتاب بدء الخلق، باب «صفة إبليس وجنوده»، وفي رواية في صحيح البخاري نفسه أن النبي كان «يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِي أَهْلَهُ وَلاَ يَأْتِي».

٥٨. جاء في صحيح البخاري: كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} و {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} و {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. صحيح البخاري ٤: ١٩١٦ كتاب فضائل القرآن، باب «فضل المعوذات».

قبل الأخيرة في القرآن: «قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ، وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ في العُقَدِ، ومِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إذَا حَسَدَ».[٥٩] تدلّ هذه السورة على أن محمدا كان يخاف من الساحرات اللاتي ينفثن سحرهن في العقد، لذلك علّم المسلمين أن يستعيذوا بالله من الحسد ومن شر السحر، ومن شر الليل لأنه هو أكثر الأوقات التي يمارس فيها السحر وتنشط فيها الشياطين.

استدل موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية على ضرورة قتل الساحر بما فعله الصحابة أنفسهم. فعمر بن الخطاب الخليفة الثاني وصهر النبي وأحد أهم رموز الإسلام كتب كتاباً قبل موته بسنة واحدة مفاده «أن اقتلوا كل ساحر وساحرة.» قال الراوي: فقتلنا ثلاث سواحر في يوم. رواه أحمد وأبو داود.»[٦٠] ليس هذا فحسب بل إن جمعا من كبار الصحابة والتابعين قد قتل السحرة: «روي قتل السحرة عن عدد من الصحابة منهم عثمان وابن عمر وأبي موسى وقيس بن سعد، ومن التابعين سبعة منهم عمر بن عبد العزيز.»[٦١]

تجعل هذه المعطيات كلها قتل السعودية للسحرة، وتخصيص وحدة خاصة لذلك، وقتل تنظيم الدولة للسحرة، ممارسات شائعة في الإسلام، بل هي من صميم الإسلام نفسه. والدول التي لا تطبق هذا الحد إنما هي دول عوضت أحكام الشريعة بالقوانين الوضعية تأسيا بالغرب. فلو طبقت الإسلام الحقيقي لقتلت السحرة. ففي المغرب، مثلا، تنتشر أعمال السحر والشعوذة حتى صار يضرب المثل بالسحر المغربي من حيث القوة والفعالية في العالم العربي حيث تكثر الأضرحة وأعمال السحر. ولا تطبق فيه أحكام المذهب المالكي الذي يتبعه. ويأمر المذهب المالكي بقتل الساحر،[٦٢] لكن رغم وجود هذا الحكم، إلا أن المملكة تتجاهله وتعطله لأنها تأثرت بالقانون الفرنسي

---

٥٩. سورة الفلق.
٦٠. إسلام ويب، «حكم السحر والساحر».
٦١. نفس المصدر السابق.
٦٢. قال المالكية: «الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب بل يتحتم قتله كالزنديق»، الفقه على المذاهب الأربعة ٥: ٤٠٤.

الذي تـرك آثـارا واضحـة للعيـان، إضافـة إلى انتشـار التديـن الصـوفي الذي يتقبـل هـذه الأمـور بـل ويشـجع عليهـا. ونـشر مركـز بيـو للأبحـاث إحصائيـات عـن الاعتقـاد بالسـحر في بعـض البـلدان الإسـلامية، وقـد كان نصيـب تونـس ٨٩ بالمئة مـن الأشـخاص المسـتجوبين يؤمنـون بذلـك. وأمـا نصيـب المغـرب فقـد كان ٧٨ بالمئـة. وفي مسـألة الإيمـان بالعـين كان نصيـب التونسـيين ٩٠ بالمئـة ونصيـب المغاربـة ٨٠ بالمئـة مـن السـكان يؤمنـون بالعـين الشريـرة.[٦٣] يشـكل الاعتقـاد بالسـحر في العالـم الإسـلامي وبتأثـير العـين مشـكلة لدى النـاس وانعـدام الثقـة بينهـم. كـم مـن الأشـخاص يعتقـدون أن جيرانهـم هـم السـبب في تعاسـتهم وأنهـم سـحروهم؟ كـم مـن الفتيـات يعتقـدن أن السـبب في تأخـر زواجهـن أو فشـلهن في علاقـات زوجيـة أو عاطفيـة سـببه السـحر؟ الاعتقـاد هـو السـبب، بـدءا مـن الإنسـان المسـلم البسـيط وصـولا إلى تنظيـم الدولـة.

الناقض الثامن: مساعدة الكفار ضد المسلمين

مظاهـرة المشركـين ومعاونتهـم على المسـلمين، والدليـل قـول القـرآن: «وَمَـنْ يَتَوَلَّهُـمْ مِنْكُـمْ فَإِنَّـهُ مِنْهُـمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الظَّالِمِـينَ».[٦٤] يـشرح الشـيخ السـعودي عبـد العزيـز الراجـحي ـ وهـو أسـتاذ بجامعـة الإمـام محمـد بـن سـعود الإسـلامية في الريـاض ـ هـذا الناقـض كالتـالي:

> إذا أعان [المسـلم] المشركـين على المسـلمين فمعنـاه أنـه تـولى المشركين وأحبهـم وتوليهـم ردة لأن هـذا يـدل على محبتهـم فـإذا أعانهـم على المسـلمين بالمـال أو بالسـلاح أو بالـرأي دل على محبتهـم ومحبتهـم ردة، فأصـل التـولي هـو المحبـة، وينشـأ عنهـا الإعانـة والمسـاعدة بالـرأي أو بالمـال أو بالسـلاح فـإذا أعان المشركـين على المسـلمين فمعنـاه أنـه فضـل المشركـين على المسـلمين.[٦٥]

63. Pew Research Center, "The World's Muslims: Unity and Diversity," Chapter 4.

٦٤. سورة المائدة، الآية ٥١.

٦٥. صيد الفوائد، «شرح نواقض الإسلام»، للشيخ عبد العزيز الراجحي.

وهكذا فإن أي مسلم يساعد الكفار ضد المسلمين مرتد لأنه ارتكب ناقضا من نواقض الإسلام، وبالتالي فعقوبته القتل. ولذلك حين يمسك أعضاء تنظيم الدولة بأي شخص يساعد قوات التحالف إما بزرع الشرائح في سياراتهم أو في أماكن وجودهم أو بالتبليغ عنهم فإنهم يعدّونه مرتدا يجب تطبيق حكم القتل في حقه. وكذلك هو الحال إذا أمسكوا بأي شخص يناصر القوات العراقية أو القوات الأمريكية أو القوات السورية، لأنهم في نظر التنظيم كفار وأعداء، وكل من يناصر عدوه على المسلمين (أي على تنظيم الدولة) يصير حلال الدم. والسبب هو اعتمادهم على هذا الناقض الذي صاغه محمد بن عبد الوهاب الذي بدوره اعتمد في صياغته على آيات القرآن التي تحرم على المسلم موالاة الكفار وحبهم ومساندتهم ضد المسلمين.

الدول التي تساند أمريكا في حربها على تنظيم الدولة كافرة بحكم القرآن، وبالتالي كافرة عند تنظيم الدولة أيضا، ولذلك يبيحون قيام عمليات عنف فيها، سواء أكان ذلك بالتفجير أم بالقتل أو أي شيء يضر بمصالحها وينتقم من تدخلها ضدهم. يبث التنظيم عشرات الصور لعمليات قتل العملاء وقتل المتعاونين بناء على هذا الناقض. ففي يوم ٢٦ فبراير ٢٠١٥، نشر المنبر الإعلامي الجهادي تقريرا مصورا يظهر فيه اعتقال خلية من أربعة أشخاص يلبسون اللباس البرتقالي معصوبي العينين تم إعدامهم رميا بالرصاص من طرف ملثمين يلبسون اللباس الأسود (عناصر تنظيم الدولة). وقد حمل التقرير عنوان «اعتقال خلية تجسس وتنفيذ حكم الله فيهم». والملاحظة المهمة هي أن الحكم هو حكم الله وليس حكم تنظيم الدولة.. حكم الله كما جاء في القرآن والسنة وفي سيرة الصحابة والتابعين.

في ١٥ ديسمبر ٢٠١٤، نشر المنبر الإعلامي الجهادي تقريرا مصورا بشعا لعملية إعدام جماعي لثلاثة عشر شخصا أمام جمع من الناس وسط المدينة أمام

مبنى كبير وسط ناحية العلم شرق تكريت. كانوا كلهم يلبسون الثياب البرتقالية، وتم رميهم جميعا بالرصاص. وقد حمل التقرير المصور عنوان: «تنفيذ حكم الله في ١٣ من صحوة ما يسمى (فرسان العلم) أمام جمع من المسلمين في صلاح الدين.» وقد صرح شيخ عشيرة البونمر في ٢ نوفمبر ٢٠١٤ لراديو روسيا اليوم أن تنظيم الدولة قد قتل نحو ٥٠٠ من عشيرة البونمر بالخطف والغدر والاغتيال،[٦٦] بينما كان لا يزال مصير المئات من شباب العشيرة مجهولا. ونشر التنظيم أيضا تسجيلا وحشيا آخر في ٢٨ أغسطس ٢٠١٤ يظهر العشرات من الجنود السوريين يقتادهم عناصر من التنظيم مجردين من كل ملابسهم، والمصورون يضحكون ويستمتعون برؤية الجنود عرايا، بل ويستفزونهم بكلمات تقال للغنم حين تساق. ولم يُظْهِر الفيديو المكان الذي ساقوهم إليه، لكن من المؤكد أنهم كانوا في طريقهم إلى عملية إعدام جماعية. وقد تمت هذه العملية بعد أن سيطر التنظيم على مطار الطبقة العسكري في محافظة الرقة شرق سوريا.[٦٧] فهذه مجرد أمثلة بسيطة، وأما عمليات الذبح والدفن الجماعي فسأتحدث عنها بالتفصيل في فصل لاحق. وتظهر هذه الأمثلة بوضوح أن كل من يتعاون مع «الكافر» سواء أكان من الصحوات، أم من العشائر، أم من داخل الدولة، أم من الجيش، أم أية جهة، فإن جزاءه الموت عند التنظيم، ولا رحمة لهم. فهم لا يعدّون مسلمين أصلا. إذ ارتدوا عن الإسلام بسبب ارتكابهم واحدًا من أعظم نواقض الإسلام، وهو موالاة الكافر ضد المسلم.

الناقض التاسع: الاعتقاد بحرية العقيدة

من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد فهو كافر، لقول القرآن: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ

٦٦. راديو روسيا اليوم، «شيخ البونمر لـRT: «داعش» قتلت نحو ٥٠٠ من أبناء العشيرة».
٦٧. العربية نت، «فيديو وحشي.. داعش يسوق جنودا من النظام السوري كالغنم».

الْخَاسِرِينَ».[٦٨] يعني أن كل من اعتقد أنه بإمكان المسيحي أن يبقى مسيحيا ويدخل الجنة أو اليهودي أو غيره فهو كافر، وكل من اعتقد بإمكانية نجاة أي شخص من عذاب الله دون اعتناقه الإسلام فهو كافر. يقول الشيخ عبد العزيز الراجحي الأستاذ المشارك في الدراسات الإسلامية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض:

> المعنى أنه يعتقد أنه يجوز له الخروج عن شريعة محمد، ويتعبد لله بغير الشريعة التي أتى بها الرسول، وأنه يصل إلى الله ويكون من أهل الجنة ولو لم يعمل بشريعة محمد كما قال بعض الفلاسفة يتعبد لله عن طريق الفلسفة أو عن طريق الصابئة أو عن طريق التصوف، وأنه يصل إلى الله عن طريق محمد أو عن طريق غيره، ويقول: كلها سواء، هذا كافر لأنه ليس هناك طريق يصل به إلى الله إلا عن طريق الرسول. ولا يسع أحدا الخروج عن شريعته لأنها عامة للثقلين وهي خاتمة الشرائع.[٦٩]

وهكذا، على المسلم أن يعتقد أنه لا يمكن لأي إنسان أن «يخلص» إلا عن طريق الإسلام الذي أتى به محمد، وبالتالي فإن كل من لا يؤمن بمحمد في العالم هالك لا محالة. لكن إذا اعتقد المسلم بغير ذلك، فيلحق بالكفار ويصير في صفوفهم ويبطل إسلامه.

الناقض العاشر والأخير: اللامبالاة تجاه الإسلام

الإعراض عن دين الله كفر، كأن لا يتعلمه المرء ولا يعمل به. والدليل هو قول القرآن: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ».[٧٠] من أعرض عن الإسلام ولم يرد تعلمه أو العمل به يصير كافرا. وتدخل أمور كثيرة تحت هذا الباب. فهو باب مطاط واسع

٦٨. سورة آل عمران، الآية ٨٥.
٦٩. صيد الفوائد، «شرح نواقض الإسلام»، للشيخ عبد العزيز الراجحي.
٧٠. سورة السجدة، الآية ٢٢.

يعطـي للدولـة الإسـلامية الحـق في تكفـير الكثـير مـن النـاس. ومـن أمثلـة ذلـك تـرك الصـلاة. فـكل مسـلم تـرك الصـلاة ولـم يعـد يصليهـا يعـد كافـرا خارجـا من ملـة الإسـلام. قال محمـد: «إِنَّ بَـيْنَ الرَّجُـلِ وَبَـيْنَ الـشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَـرْكَ الصَّـلاَةِ».[٧١] بـل إن محمـدا قـال إن العهـد الذي بينـه وبـين بـاقي المسـلمين هـو الصـلاة. والمعنى هـو أنـه إذا توقـف المسـلم عـن الصـلاة، فقـد نقـض العهـد ولـم يعـد تحـت حماية المسـلمين.[٧٢] وقـد اتفقـت ثلاثـة مذاهـب إسـلامية على أن تـارك الصـلاة يقتـل (المذهـب المالـكي، والشـافعي، والحنبـلي) مـع فـارق بسـيط، ألا وهـو أن أصحـاب المذهـب المالـكي والشـافعي قالـوا بأنهـم يمنحـون رافـض الصـلاة فرصـة الاسـتتابة. فـإن لـم يُصَلِّ يُقتَـل حـدًّا، بينمـا يحكـم الحنبـلي بأنـه يقتـل لأنـه مرتـد، في حين أن أصحـاب المذهـب الحنـفي قالـوا إنـه يـضرب ويسـجن حـتى يتـوب ويعـود إلى الصـلاة مـن جديـد. فـإن لـم يفعـل يبـق في حبسـه حـتى يمـوت.[٧٣]

كتـب الشـيخ المـصري يوسـف القرضـاوي المقيـم في دولـة قطـر، رئيـس اتحـاد علمـاء المسـلمين على موقعـه:

> يجـب على المتدينـين أن يقاطعـوا كل تـارك للصـلاة، مـصر على تركهـا، بعـد أن يسـدوا إليـه النصيحـة.. وكذلـك لا يجـوز لـلأب أن يـزوج ابنتـه مـن تـارك للصـلاة لأنـه في الحقيقـة ليـس بمسـلم وليـس أهـلا لهـا. ولا أمينـا عليهـا، ولا على أولادهـا... ولا يجـوز لصاحـب المؤسسـة أن يوظـف تـارك الصـلاة لأنـه يعينـه بـرزق الله على معصيـة الله.[٧٤]

ويمـضي الشـيخ القرضـاوي ليوضـح حكـم الإسـلام في تـارك الصـلاة على المذهـب الحنبـلي:

---

٧١. صحيح مسلم ٢: ٥٩، كتاب الإيمان، باب «بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة».
٧٢. يقول الحديث «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»، مسند أحمد ٦: ٤٧٥.
٧٣. إسـلام ويـب، فتـوى «التفصيـل في حكـم تـارك الصـلاة». كذلـك انظـر تحفـة الأحـوذي في شرح سـنن الترمـذي ٢: ٣٨٧، كتـاب الصـلاة، والاسـتذكار لابـن عبـد الـبر ٢: ١٤٩.
٧٤. الموقع الرسمي للشيخ القرضاوي، «حكم تارك الصلاة».

> وقال الإمام أحمد - في أشهر الروايات عنه -: هذا التارك للصلاة كافر مارق من الدين. وليس له عقوبة إلا القتل فيجب أن يطلب منه التوبة إلى الله والرجوع إلى الإسلام بأداء الصلاة فإن أجاب فبها وإلا ضربت عنقه.[٧٥]

فإذا كان هذا حال المسلم الذي يترك الصلاة فلا عجب أن تقتل الدولة الإسلامية الناس على أمور أخرى.

أتذكر شخصيا أن والدي كان لا يتساهل معي في الصلاة حيث هددني مرات كثيرة بالضرب حين كنت أتهاون في أدائها. وحين سألته مرة: «هل من المعقول أن يضرب طفل حتى يُرغم على الصلاة؟» أخبرني أن الرسول أمر بذلك. وبذلك قفل علي كل أبواب الاعتراض. فحين يتحدث الرسول لا يبقى مجال للاعتراض، لأن ذلك معناه الكفر والخروج من الإسلام. يقول الحديث الذي أشار إليه والدي «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع سنين، واضربوهم عليها لعشر سنين.»[٧٦] مع العلم أن الكثيرين في البلدان الإسلامية لا يصلون الصلوات الخمس كلها، ولا يتحمس بعضهم للصلاة إلا يوم الجمعة، في حين يصلي بعضهم في المناسبات أو حين يحل شهر رمضان. وقد نشر مركز بيو للأبحاث سنة ٢٠١٢ إحصائيات عن مدى الالتزام بأداء الصلوات في البلدان الإسلامية. ففي مصر مثلا، يصلي ٥٣ بالمئة فقط الصلوات الخمس يوميا، بينما يصنف الـ ٤٧ بالمئة الباقون في الخانة التي ينطبق عليها وصف «تارك الصلاة». وفي المغرب، لا يصلي ٣٣ بالمئة الصلوات الخمس يوميا، ولا يفعل ذلك ٣٧ بالمئة في تونس أيضًا.[٧٧]

تعكس هذه الأرقام حقيقة أن المسلمين لا يتمسكون بالإسلام كما جاء في الكتب. لكن لو كانوا في دولة إسلامية مطبقة للإسلام مثل السعودية،

---

٧٥. نفس المصدر.

٧٦. مسند الإمام أحمد ٢: ٣٨٧، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص.

77. Pew Research Center, "The World's Muslims: Unity and Diversity," Chapter 2.

فستخرج هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتجبر الناس على الذهاب للصلاة وغلق المحال التجارية. ومن بين الكلمات التي قالها الملك عبد العزيز الذي يعد المؤسس لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سنة ١٩٤٠: «فقد قررنا أن نعين هيئات في جميع بلدان المسلمين، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ومن أهم ذلك: إلزام الناس بالمحافظة على الصلوات الخمس في جماعة، وحض الناس على تعلم دينهم.»[٧٨] وتتألف الهيئة اليوم من ٨٠٠٠ فرد[٧٩] يجوبون الشوارع ليتأكدوا من ممارسة الناس لدينهم ويجبرونهم على أداء الصلوات جماعة وعدم التخلف عنها، إضافة إلى مراقبة ملابس النساء، ومراقبة من يرافقهن من الرجال، والبحث عن العلاقة بينهم في حالة وجود رجل وامرأة مُخْتَلِينَ أحدهما بالآخر.

قام تنظيم الدولة بعمل هيئة هو الآخر سماها الحِسبة، لديها سيارات خاصة بهم تجوب الشوارع والمحلات التجارية وتقوم بالمهام التي تقوم بها هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في السعودية، فتجبر الناس على غلق المحال التجارية والالتحاق بالصلاة. ومن لم يفعل ذلك، يتم غلق محله نهائيا ويتم طلبه للمساءلة الشرعية وقد تنزل به عقوبات أخرى. وقد أصدر التنظيم بيانات بهذا الشأن تقول بأنه على:

> «كل صاحب متجر قبل النداء بعشرة دقائق إغلاق متجره، وكذلك على أي رجل خارج الطرقات التوجه إلى المسجد، لأداء فريضة الله تعالى الواجب عليه، وعدم التأخر أو الجلوس للحديث في الطرقات، والمسلمون في مساجدهم.» وتتابع: «من وُجِد أثناء الصلاة فاتحا متجره، أو خارج المسجد في الطرقات، فإن متجره سوف يُغلق ويُطلب للمساءلة الشرعية.»[٨٠]

٧٨. صيد الفوائد، «هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».
٧٩. إم بي سي، «رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قبضة «الثامنة»».
٨٠. سي إن إن بالعربية، «نشطاء: داعش تفرض النقاب وتحظر التدخين والأغاني الماجنة...».

وفضلًا عن ذلك، يراقب رجال الحِسْبة التدخين ويحرقون السجائر بعد حجزها. لذلك توجد صور كثيرة لحرق السجائر وتدميرها، وتظهر فيديوهات إتلاف للأراكيل والسجائر وغيرها. ومن مهماتهم أيضًا أنهم يراقبون لباس النساء ويدخلون المحال التجارية ليطلبوا طمس الصور التي يظهر فيها شيء غيرِ لائق سواء أكانت صورًا لمنتوجات أم صورًا لإعلانات.

يرجع هذا التشدد في الصلاة إلى محمد نفسه نبي الإسلام. فقد كان يغضب حين لا يلتحق أصحابه بالصلاة. وقد أراد مرة أن يدع شخصا من أصحابه يقود الصلاة الجماعية ليذهب هو إلى بيوت أولئك الذين تخلفوا عن الصلاة ليحرق بيوتهم عليهم.[٨١] فإذا كان هذا حال النبي نفسه فلا نلوم الأتباع. فإذا كان محمد يريد أن يحرق أتباعه لمجرد أنهم لم يأتوا للصلاة خلفه، فكم بالأحرى لو فعلوا شيئا آخر. فالذين يقولون إن تنظيم الدولة لا علاقة له بالإسلام لا يعلمون أسرار التعاليم الإسلامية. فهم يعتقدون أن الإسلام هو ما يقوم به عامة المسلمين في البلدان الإسلامية. وكثير مما يقوم به عوام المسلمين تساهل في دينهم (لحسن حظنا)، كما تعكس ذلك الإحصائيات الخاصة بالذين لا يصلّون، على سبيل المثالِ. لكن لو تمسكوا بالإسلام كما هو في النصوص، وكما قام به النبي محمد، لرأينا تنظيم الدولة الإسلامية في كل بلد إسلامي.

٨١. يقول الحديث المروي عن أبي هريرة: «وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلَاةِ فَتُقَامَ. ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ. ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِي بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزَمٌ مِنْ حَطَبٍ، إِلَى قَوْمٍ لاَ يَشْهَدُونَ الصَّلاَةَ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ.» صحيح مسلم ٥: ١٢٤، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب «فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها».

-8-

بداية الإسلام وبداية داعش: تشابه حتى التطابق

بداية الإسلام نموذج للجماعات الإسلامية

بداية الإسلام هي النموذج الذي ينبغي أن يبحث فيه كل من يريد أن يفهم بدايات الجماعات الإسلامية المتطرفة. فهم ينظرون إلى بداية الإسلام كبداية لهم، وينظرون إلى النبي محمد كمُلهمٍ لهم، ويعدون خططه العسكرية وغزواته النموذج الأعلى للخطط الحربية، متى قام بالكَرِّ ومتى قام بالفَرِّ، متى أسر ومتى فادى، متى هادن أو رضي بشروط. ينبغي أن يسير كل شيء بحسب السنة التي سنها النبي محمد. وينبغي أن يعرف كل دارس أنهم مشبعون بالدين حد التخمة ولا يعرفون غيره كنموذج. فالكتب الدينية قد شحنتهم بتاريخ الإسلام وغزواته، وبأدق التفاصيل عما قام به النبي محمد. فانتصاره على القبائل المجاورة وانتشار الإسلام إلى أن وصل الأندلس يعدّ انتصارا ساحقا بالنسبة لهم. وما زالوا يقرؤون تلك الغزوات وينتشون بانتصاراتها، وما دام هذا الراعي الذي جاء من

مكـة قـد اسـتطاع أن يصـل إلى هـذا النجـاح، فـلا بـد أن خطتـه هي الأعظـم على الإطـلاق. فمـن هـذا المنطلـق ينطلقـون، ولا بـد أن نـرى المتوازيـات بـين مـا تقـوم بـه الجمـاعات الإسـلامية وبـين مـا قـام بـه محمـد. إنـه وضـع «الفوتبرنـت» أو «المخطـط الرئيـسي» الذي ينبـغي للقـادة الإسـلاميين كلهـم أن يتبعـوه. لـم يكـن محمـد مجـرد نـبي بالنسـبة لهـم، بـل كان قائـدا عسـكريا ناجحـا، وكان ملهمـا مـن الله ليتخـذ أحسـن الخطـط الموجـودة على الإطـلاق.

بـدأ الإسـلام بمحمـد، بشـخص واحـد ادعى أن الله ألهمـه وكلمـه، وبعـد هـذا جمـع أتبـاعا قليلـين حـوله مـن عائلتـه والمقربـين منـه، بمـن فيهـم زوجتـه ومنهـم صديقـه أبـو بكـر، ومنهـم ابـن عمـه علي. ثـم بـدأت الدعـوة تنتـشر بـين المقربـين دون أن يجهـر بهـا للبعيديـن. هكـذا يبـدأ دائمـا التنسـيق للجمـاعات الإسـلامية بشـخص واحـد، كمـا بـدأ تنظيـم الدولـة بـأبي مصعـب الزرقـاوي حـين التجـأ إلى أنصـار الإسـلام في كردسـتان. وحـين تأكـد لديـه أن أمريـكا سـتدخل العـراق، بـدأ يعـد العـدة ويجمـع النـاس حـوله، واعتمـد على علاقاتـه وأقربائـه في الأول تمامـا كمـا فعـل محمـد، وأحـاط دعوتـه بكامـل السريـة كمـا فعـل محمـد. وبعـد أن ضـاق بـه الأمـر، وجهـر بدعوتـه، وانتـشر خـبره بـين النـاس، تعـرض لاضطهـاد مـن أبنـاء قبيلتـه. فاضطـر محمـد إلى الهجـرة، وحـين هاجـر أولئـك الذيـن أتـوا معـه سـماهم مهاجريـن، وسـمّى الذيـن اسـتقبلوه ونـصروه أنصـارا.

لقـد فـرض محمـد الهجـرة على أتباعـه. فكانـت فريضـة على كل مسـلم، فعُـدَّ من لم يهاجـر عاصيـا إن لـم يكـن مرتـدا عن الديـن. ومـا زالـت الجماعات الإسـلامية تنتهـج النهـج نفسـه إلى اليـوم، فابـن لادن أسّـس مـا يسـمى بيـت الأنصـار، وهـو البيـت الذي كان يـشرف على اسـتقبال المهاجريـن العـرب الملتحقـين بالعمـل الجهـادي. فـكان هـذا المركـز النـواة الحقيقيـة لانطلاقـة القاعـدة بباكسـتان ومن ثـم أفغانسـتان. والسـبب وراء تسـميته بيـت الأنصـار هـو إدراك بـن لادن لدلالـة

هـذا الاسـم الدينيـة عنـد المسـلمين. فالمسـلمون المهاجـرون الأوائـل كانـوا فقراء معدمـين، لا شيء لهـم. فمـا كان مـن محمـد إلا أن طلـب مـن الأنصـار أن يـؤوا المهاجريـن، فأخـذ كل أنصـاري مهاجـرا إلى بيتـه يعـوله ويؤويـه. بـل وصـل الأمر في بعـض الأحيـان إلى أن أحـد الأنصـار أراد أن يطلـق إحـدى زوجاتـه ويعطيهـا للمهاجـر الذي اسـتقبله في بيتـه حـتى يهتـم بـه حـتى مـن الناحيـة العاطفيـة أو الجنسـية. جـاء في الحديـث عـن «عبـد الرحمـنِ بـنُ عـوفٍ: قـال «لمّـا قَدِمْنـا المدِينـةَ آخى رسـولُ الله بيـني وبـينَ سـعدِ بـنِ الرَّبيـع، فقـال سـعدُ بـنُ الرَّبيـع: إِني أكـثرُ الأنصـارِ مـالاً، فأقسِـمُ لـكَ نِصـفَ مـالي، وانظُـرْ أيَّ زوجـتيَّ هَوِيـتَ نَزَلـتُ لـكَ عنهـا. فـإذا حَلَّـتْ تَزَوَّجتَهـا.»[1] ولذلـك كان «بيـت الأنصـار» في باكسـتان بمنزلـة بيـوت الأنصـار المفتوحـة لاسـتقبال المهاجريـن والاهتمـام بحاجياتهـم ليتـم تدريبهـم وإرسـالهم لاحقـا لجبهـات القتـال.

يسـتخدم تنظيـم داعـش حـتى يومنـا هـذا مصطلـح «المهاجريـن» للأجانـب الذيـن يلتحقـون بصفوفـه مـن دول أوروبيـة أو أسـترالية أو أمريكيـة أو حـتى مـن دول عربيـة. وأمـا الأنصـار فهـم السـوريون والعراقيـون. فهـم أهـل البـلد، في حـين أن المهاجريـن بمنزلـة ضيـوف في بيـوت الأنصـار. وقـد عـبر القـرآن عـن المهاجريـن والأنصـار بشـكل واضـح في آيـات محـددة حيـث يقـول مثـلا في هـذه الآيـة: «إِنَّ الَّذِيـنَ آمَنُـواْ وَهَاجَـرُواْ وَجَاهَـدُواْ بِأَمْوَالِهِـمْ وَأَنفُسِـهِمْ فِي سَـبِيلِ اللهِ وَالَّذِيـنَ آوَواْ وَّنَـصَرُواْ أُوْلَئِـكَ بَعْضُهُـمْ أَوْلِيَـاء بَعْـضٍ».[2] فـلا غرابـة أن يُحفـز داعـش المهاجريـن على الهجـرة بالترغيـب عـن طريـق الإغـراءات الماديـة حيـث يعِدهـم بتوفـير السـكن وتوفـير الحاجيـات، إضافـة إلى المـصروف الشـهري. وهـذا هـو مـا قـام بـه محمـد حيـث لمـا قـدم المدينـة آخى بـين المهاجريـن والأنصـار وطلـب مـن الأنصـار التكفـل بحاجيـات المهاجريـن حيـث جـاء في الحديـث: «عـن أبي هريـرةَ: «قالـتِ الأنصـارُ: اقسِـمْ بينَنـا وبينهُـم النخـلَ، قـال:

---

١. صحيح البخاري ٢: ٧٢٢، كتاب البيوع.
٢. سورة الأنفال الآية ٧٢.

لا. قال: يَكفونَنا المَؤونةَ ويَشرَكونَنا في الثَمر. قالوا: سمِعْنا وأطعْنا.»[٣] فمحمد طلب من الأنصار أن يعطوا المؤونة للمهاجرين ويشركوهم في ثمار النخيل.

كانت هذه مقدمة لجمع جيش وتكوينه وربط علاقات متينة بين المهاجرين والأنصار بحيث يشتركون في كل شيء. وتعتمد الجماعات الإسلامية الجهادية هذه القاعدة لتقوية الروابط بين أتباعها، حيث لا يكتفون بالمؤاخاة بينهم، بل يتم تزويج القيادات والأتباع بزوجات المقربين منهم حتى يضمنوا الولاء والاعتماد المتبادل ولاسيما في المراحل اللاحقة التي يدور فيها قتال ومواجهات عسكرية. ولذلك فإنها تحتاج إلى هذا النوع من العلاقات لتحصن نفسها ضد الاختراق وضد الغدر والخيانة. وصارت هذه الرابطة علامة الإيمان الحقيقي في القرآن: «وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ».[٤]

لماذا يلتحق الشباب المسلم بداعش؟

من أهم الأسئلة التي ينبغي أن نطرحَها في هذا السياق: لماذا يهاجر الشباب المسلم تاركا أوروبا وأمريكا ودولا أخرى ويلتحق بداعش؟ قد يكون الترغيب فعّالًا مع بعضهم، لكنه من المستحيل أن يقنع الآلاف من الشباب الذين بإمكانهم أن يعيشوا على مستوى أفضل في بلدانهم التي ولدوا وتربوا فيها مثل فرنسا أو أمريكا أو بلجيكا أو أستراليا. ربما فشل هؤلاء في دراساتهم، وفشلوا في تكوين حياة مهنية مستقرة، وفشلوا في تكوين علاقات عاطفية مستقرة، وحقدوا على المجتمع الذي كبروا وسطه، وربما ارتكبوا حماقات في السابق فأرادوا التكفير عنها. تجعل هذه الأسباب كلها مجتمعة أو منفردة خيار الذهاب إلى أرض «التمرد» يبدو جذابا لهم، لما فيه

٣. صحيح البخاري ٣: ١٣٧٨، كتاب مناقب الأنصار، باب «إخاء النبي بين المهاجرين والأنصار».
٤. سورة الأنفال، الآية ٧٤.

من المغامرة أولا، ولما فيه من الإعفاءات من الواجبات الاجتماعية، حيث يمكن للمهاجر أن يذهب إلى الرقة فيحصل على بيت وراتب وزوجة، إضافةً إلى فتاة أو أكثر من الفتيات الإيزيديات عن طريق شرائها بمبلغ من المال. لكن تبقى هذه الحالات خاصة. فلا بد أن هناك أسبابًا أعظم تجعل الشباب يخوض المغامرة، خصوصا أنها مغامرة محفوفة بالمخاطر، وأعظم خطر فيها هو فقدان الإنسان لنفسه.

هنا يدخل عامل الترغيب والترهيب الإسلامي. ففي الإسلام لا يقوم المسلم بأي شيء إلا ترغيبا أو ترهيبا، أو بتعبير القرآن «وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا»[٥] أي الخوف من عذاب الله، والطمع في جنته ونعيمه. والخوف أساسي في العقيدة الإسلامية. فالشباب المسلم أدرك من خلال النصوص الإسلامية التي يقرؤها وتتلى على مسامعه طيلة السنوات الماضية أنه إذا قامت الخلافة في المستقبل، وكانت هناك دولة إسلامية تقيم شرع الله، عندئذٍ تكون الهجرة إليها واجبة على كل مسلم. إذ لا يجوز البقاء في دار الكفر وقت قيام الدولة الإسلامية الحقيقية التي ينتظرها الجميع.

هذا التعليم موجود ومنتشر في جل المساجد الإسلامية، لأنه مبدأ موجود في النصوص التي قالها محمد حيث قال مثلًا: «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشرِكِينَ، قالوا يا رسولَ الله: وَلِمَ؟ قال لا تَرَاءَى نَارَاهُمَا».[٦] فمحمد يتبرأ من المسلم الذي يبقى مقيما بين المشركين إذا كانت هناك دولة إسلامية، لا يجوز أن يبقى بحيث يرى نار الكافرِ أو الكافرُ يرى نارَه، أي ينبغي الابتعاد عن الكفار والهجرة الكاملة بعيدًا عنهم. لذلك نجد القرآن يشجع على هذا التفكير أيضا: «وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ».[٧] فبهذا التخويف خوّف محمد أتباعه.

٥. الأعراف ٥٦.
٦. سنن الترمذي، كتاب السير، بابُ ما جاءَ في كَرَاهِيَةِ المقَامِ بَيْنَ أَظْهُرِ المشْرِكين.
٧. الأنفال ٧٢.

إذ حثّ المهاجرين على قطع علاقتهم بمن لم يهاجروا وكأنهم غير مسلمين. بل هناك بعض الآيات التي تحذر من العذاب الأخروي للذين لم يهاجروا حين أتيحت لهم الفرصة: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا».[8] فالهجرة واجبة إذن والبقاء بين المشركين مسألة مخيفة. فالشباب الذين يهاجرون يعتقدون أن بقاءهم في الدول الغربية في ضوء قيام داعش مسألة خطيرة، بل قد تكون معصية من أكبر المعاصي التي يرتكبها المسلم، وهي «الشرك» حيث يقول محمد: «مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ».[9]

في فتوى على موقع الشيخ السعودي محمد صالح المنجد، يقول فيها السائل:

> نصحني كثير من أهل العلم بعدم السكن في بلاد الكفار (أمريكا). أنا عربي أمريكي عشت طوال عمري في أمريكا وأعمل الآن في إحدى الدول الإسلامية. الأمور أصبحت صعبة بالنسبة لي لكي أستمر هنا - (قلة الدخل والسكن) -، وأفكر بالعودة لأمريكا، وسبب رئيسي آخر للعودة هو العناية الصحية المجانية لزوجتي المريضة .أرجو أن تعطيني جواباً مفصلاً بالدليل من القرآن والسنة، هل أعاني وأبقى في هذا البلد أم أرجع لأمريكا؟» انتهى السؤال.[10]

لماذا بعث هذا السائل سؤاله أصلا إن لم يكن هناك حديث بين الناس حول هذا الموضوع؟ لا بد أنه دخل في نقاش وجدال حوله، فاحتاج إلى عالم مسلم ليحسم له هذه المسألة من وجهة نظر دينية سليمة. فبعث رسالته إلى الشيخ، فأجابه الشيخ قائلًا:

٨. النساء ٩٧.
٩. رواه أبو داود في سننه، في كتاب الجهاد، تحت باب «في الإقامة بأرض الشرك».
١٠. موقع الشيخ محمد صالح المنجد، فتوى «هل يرجع للإقامة في بلاد الكفر؟».

من يسَّر الله عز وجل له الخروج من تلك الديار إلى بلاد الإسلام: فلا ينبغي له أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير. ونحن ننصحك بما نصحك به الآخرون بعدم السكن في بلاد الكفر، لما في ذلك من الخطر على النفس والذرية. واعلم أن من ترك شيئا لله عوَّضه الله خيراً منه، وأن مع العسر يسراً، وأنه من يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب، واعلم أن الحفاظ على رأس المال خير من المخاطرة في الربح، ورأس مال المسلم هو دينه، فلا يفرِّط فيه لأجل دنيا زائلة.[١١]

لم تنشر هذه الفتوى للإجابة على السائل وحده، بل لتكون مرجعا للمسلمين كلهم الذين يراودهم السؤال نفسه. ولولا أهمية هذا السؤال ورواجه بين المسلمين لما عُدَّ نموذجا يستحق النشر ليكون مرجعا لهم. حرام أن يبقى المسلم في بلاد الكفر إلا إذا كان مضطرا.. حرام أن يبقى في بلاد الكفر وهناك بلاد إسلامية تقيم شرع الله. هذا هو منطق الإسلام وشيوخه، تماما مثلما كان الحال أيام محمد حرام أن يبقى المسلمون بين ظهراني المشركين وهم باستطاعتهم الهجرة للحاق بدولة الرسول، لأن الدولة الإسلامية تحتاج إليهم في الجيش وفي مختلف المهن والحرف. تحتاج الدولة الناشئة إلى أبنائها الذين يتوجب عليهم اللحاق بها. هذا منطق لا يدركه المحللون السياسيون وغيرهم. فهم يبحثون عن الأسباب المحلية التي تدفع الشباب إلى الالتحاق بداعش، ولكنهم لا يبحثون عن الأسباب الدينية. تخيل لو أنك شخص مسلم مخلص لدينك وتريد أن تعيش حياة ترضي الله، فتسمع الخطيب أو تقرأ مثل هذه الفتوى المذكورة سالفا، ألن تشعر بالخجل أنك تعصى أوامر الله وتقعد بين أظهر الكفار والمشركين؟ هل سَتُطِيعَ والدك ووالدتك أم سَتُطِيعَ أوامر الله؟ أيهما أهم؟ إن استبعاد نفسية المسلم ورغبته في الالتزام بدينه من المعادلة لأكبر خطر يرتكبه المحللون لظاهرة داعش وأمثالها

١١. موقع الشيخ محمد صالح المنجد، فتوى «هل يرجع للإقامة في بلاد الكفر؟».

مـن الجمـاعات الإسـلامية. إنهـم يسـيئون الظـن فيهـم كثـيرا ويعتقـدون أنهـم ليسـوا بالمخلصـين لدينهـم ولتعاليمـه، في حـين أن كثيريـن منهـم يعتقـدون أن مـا يقومـون بـه هـو الطريـق الصحيـح وهـو الحـق المطلـق، وأن المـوت في سـبيل الحـق المطلـق هـو أمنيـة كل إنسـان منسـجم مـع ذاتـه.

وجوب الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام

في نهايـة مـارس ٢٠١٥، نـشر تنظيـم الدولـة الإسـلامية مطويـة موجهـة لأتباعـه ولغيرهـم مـن المسـلمين عنوانهـا «الـولاء للإسـلام لا للوطـن». والهـدف الواضـح مـن هـذه المطويـة هـو تشـجيع المسـلمين على تقديـم ولائهـم للإسـلام على ولائهم للأوطـان، وكانـت الهجـرة مـن ديـار الكفـر إلى دار الإسـلام أحـد أهـم الركائـز الـتي اسـتند إليهـا الكاتـب ليشـجع الشـباب على الالتحـاق بالدولـة الإسـلامية. ومـن ضمـن مـا جـاء في هـذه المطويـة:

المسلم مأمور بالهجرة من البلد التي لا يتمكّن فيها من إقامة دينه، وإنْ كان ذلك البلد موطنه الذي نشأ وترعرع فيه وأحبّه. وقد امتثلَ خيرُ البشر (ص) وخيرُ القرون (صحابتُه رضوان الله عليهم) لأمر الله عندما هجروا ديارهم التي أحبُّوها (مكة)، وأموالهم التي اقترفوها، وأهليهم وأقاربهم؛ إلى ديارٍ جديدة غريبةٍ عليهم (المدينة)، حيث لا أهلَ لهم فيها ولا مال! لِمَ؟ لأنّها دارُ إسلامٍ ودولةٌ إسلامية. واليوم بعدما منّ الله على المسلمينَ بإعلان الخلافة الإسلامية في العراق وفي الشام وغيرهما من بلاد الله، وأصبحتْ ديارُ الخلافة دارَ هجرةٍ وجهاد؛ وجبَ على جميع المسلمين المستوطنين في ديار الكفر (كالبلدان العربية والبلدان التي تسمّي نفسها إسلامية اليوم) الهجرةَ للدولة الإسلامية ومفارقة أوطانهم، ولن ينفعهم التذرّع بالاستضعاف الذي قال الله تعالى عن مفتريه: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً».[١٢] وهذا الوعيد الشديد في من آثرَ حُبّ الوطن وتقاعسَ عن واجب الهجرة، فكيف بمن هجر دار الإسلام إلى ديار الكفر! فكما فعل بعضُ المحسوبين على المسلمين، والذين غادروا مناطق الدولة الإسلامية ولجؤوا إلى دول ومناطق تحت سيطرة الروافض والعلمانيين والصليبيين. فماذا سيقولون لله عزّ وجلّ يوم القيامة؟![١٣]

الملاحظة الأولى هنا هي أن هذه المطوية باللغة العربية. ويبدو منها أن التنظيم يعُدّ حتى الدول العربية الإسلامية دولا كافرة على المسلم أن يهاجر منها للدولة الإسلامية (المناطق التي تحت سيطرة داعش). فكم بالأحرى لو كانت دولا غربية. الملاحظة الثانية هي أن المقارنة واضحة بين هجرة محمد وأصحابه وهجرة الشباب اليوم للالتحاق بداعش والمشاركة في صفوفها.

١٢. سورة النساء، الآية ٩٧.
١٣. مكتبة الهمة، التابعة للدولة الإسلامية، «الولاء للإسلام لا للوطن».

إنها نشوة العودة إلى العصر الأول الإسلامي الذي طالما درسه الطفل المسلم وتغنّى بحروبه وانتصاراته. فستعيد له تلك الهجرة مشاعره وهو يستحضر كيف كان يدرس هجرة الرسول وهجرة الصحابة هروبا بدينهم واستعدادا للمواجهة الكبرى مع المشركين.

لا بد أن تكون تلك المشاعر حاضرة في ذهن من يتخذ القرار للانضمام إلى داعش. ولا يمكن للمسلم المقتنع بصحة الإسلام وبصدق قضية الدولة الإسلامية أن يقاوم مشاعر الالتحاق بالمجاهدين. فالموت لن يخيفه، لأن الصحابة لم يخفهم الموت. ولن يخيفه القبض عليهم أو سجنهم، لأن التاريخ الإسلامي يحكي لهم قصة هروب محمد ليلا مع صديقه المقرب أبي بكر، وقصة خداعه للعرب حيث وضع ابن عمه، علي بن أبي طالب، مكانه في الفراش وخرج بأعجوبة إلهية، حيث قرأ القرآن على الرجال الذين كانوا يترصدونه خارج بيته لينقضوا عليه، فأعمى الله بصرهم. وحين بزغ النهار اكتشفوا الخديعة فلحقوا به، فاختبأ في غار ثور. فتتبع هؤلاء المقاتلون آثارهما لغاية وصولهم إلى الغار. لكن الله تدخل مرة أخرى وأرسل عنكبوتا (بحسب بعض الروايات الإسلامية) فخاطت بيتا على باب الغار.[١٤] وأرسل حمامة (بحسب روايات أخرى) لتبيض في عش أمام الغار،[١٥] فاستنتج المقاتلون أن محمدا لا يمكن أن يكون داخل الغار، وبذلك رجعوا خائبين.

رغم أن هذه القصة مسروقة حرفيا من قصة مسيحية سابقة لها «قصة فيليكس النولي والعنكبوت»،[١٦] إلا أنها صارت في المخيلة الإسلامية جزءا من التراث الإسلامي الذي بنى شعورنا ولاشعورنا. فقد قرأناها في السيرة النبوية

---

١٤. جاءت أحاديث كثيرة بهذا الخصوص، منها ما رواه أحمد في مسنده، وقد أورد الطبري والقرطبي القصة نفسها في تفسير سورة الأنفال الآية ٣٠.

١٥. هذه الرواية جاءت في تفسير القرطبي لسورة التوبة الآية ٤٠ .

١٦. القديس فيليكس النولي «Felix of Nola»، ولد في إيطاليا في القرن الثالث الميلادي.

وتحمسنا لها، ودمعت عيوننا حين سمعناها في خطب الجمعة وحين رددها لنا أساتذة المدرسة. بل صارت جزءا من تكويننا النفسي. وبالتالي، فإني متأكد من أن الشباب الذي يهاجر للالتحاق بداعش سمحوا لهذه القصص بأن تكون محورا أساسيا في قراراتهم. وقد يرى أحدهم كذبه على أهله مثل الخديعة التي قام بها محمد، ويرى تمكنه من مخادعة سلطات المطارات وإخفائه لأغراضه الحقيقية من السفر والكذب بشأنها أشياء مبررة وجزءا من تلك الخديعة. بل ربما قرأ بعضهم الآيات القرآنية نفسها التي يعتقدون أن محمدا قرأها على كفار قريش ليتمكن من الإفلات من وسطهم دون أن يروه. قرأ عليهم جزءا من سورة يس: «وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ».[١٧] فالله في نظر المسلمين إله يمكر بالأعداء لينجي المؤمنين به، حتى لو لجأ إلى الغش والخداع والمكر، حيث يقول القرآن عن القصة نفسها مطمئنا محمدا: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ».[١٨]

ليس غريبا إذن أن تقوم فتاتان بريطانيتان من أصول صومالية بالخديعة المحمدية نفسها لوالديهما اللذين كانا يعتقدان أنهما في غرفتهما نائمتان ليفاجآ أنهما غادرتا في جنح الظلام مستقلتين الطائرة إلى إسطنبول، ومن ثم الحافلة إلى الحدود السورية، ثم إلى الرقة عاصمة الدولة الإسلامية.[١٩] تركت «التوأمان الإرهابيان» سلمى و زهراء وهما في سن السادسة عشر مقاعد الدراسة رغم أنهما ذكيتان جدا. تركتا مدينة مانشستر البريطانية المتقدمة ليلتحقا بداعش في مدينة الرقة. والفرق كبير جدا بين المدينتين. فما الذي سيقنع فتاتين بهذا القرار الذي ينهي مستقبلهما وينهي علاقتهما بوالديهما إلى الأبد، وينهي إمكانية عودتهما إلى بريطانيا دون عواقب وخيمة، ويعرضهما لخطر الموت في أية

١٧. سورة يس آية ٩.
١٨. الأنفال الآية ٣٠.
١٩. ديلي ميل، «'I love the name Terror Twin...I sound scary' ...»، وذكرها موقع العربية نت تحت عنوان: «بريطانيتان في الـ١٦ من العمر تقاتلان مع «داعش».

لحظة بقذيفة أو رصاصة أو أي شيء؟ ستقف كل التفسيرات عاجزة أمام هذا السؤال. يمكن للمحللين أن يقولوا إن الفتاتين تعرضتا لغسيل مخ. لكن هل حصل غسيل المخ فجأة، وللفتاتين معا في الوقت نفسه، لفتاتين ذكيتين كانتا تنويان الالتحاق بكلية الطب لاحقا؟ إن الدافع الديني وقوته لدى الفتاتين هو التفسير الوحيد لهذه المخاطرة. فلا يمكن لأي شخص أن يبيع الدنيا وما فيها إن لم يكن لديه مقابل. والمقابل في هذه الحالة هو الوعود الدينية التي يعطيها الإسلام لمن يهاجر في سبيله تاركا الدنيا وراءه.

يتحدث القرآن عن هذا الأمر بكل وضوح حيث يقول: «الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ».[٢٠] هذه الوعود القرآنية أكبر مشجع لهجرة الشباب المسلم من الديار العربية والغربية على حد سواء للالتحاق بالمجاهدين، وعلى نحو خاص مجاهدي الدولة الإسلامية. بل نجد مباشرة بعد هاتين الآيتين آية أخرى تفسر بوضوح لماذا ينبغي أن يترك الشاب أو الشابة أباه وأمه ويلتحق بداعش: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».[٢١] يقول الطبري المفسر الكبير للقرآن ابن القرن التاسع والعاشر الميلادي عن هذه الآية:

> يقول تعالى ذِكرُه للمؤمنين به وبرسوله: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم بِطانَة وأصدقاء تُفشُون إليهم أسراركم وتُطلعونهم على عورة الإسلام وأهله، وتُؤثِرون المكث بين أظهرهم على الهجرة إلى دار الإسلام.[٢٢]

٢٠. سورة التوبة آيات ٢٠ و ٢٢.
٢١. سورة التوبة الآية ٢٣ .
٢٢. تفسير الطبري ١٠: ٦٩، لسورة التوبة الآية ٢٣.

إنها آيات واضحة تحث المسلمين على ترك ديار الكفر وترك الوالدين والأصدقاء وأقرب المقربين للهجرة إلى ديار الإسلام، وبالتحديد إلى الدولة الإسلامية، سواء أكانت تلك الدولة دولة الرسول أم دولة الخلفاء من بعده. والهجرة مستمرة منذ يوم محمد إلى اليوم، لأنه قد قال مؤكدا هذه الحقيقة: «لا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ ما قُوتِلَ الكُفَّارُ».[٢٣] إذن ما دام هناك قتال ضد الكفار فإن الهجرة مستمرة. وبطبيعة الحال، لا يخفى على الجميع أن الدولة الإسلامية تعدُّ قتالها موجها إلى الكفار، وبالتالي فالهجرة ما زالت مستمرة إلى اليوم لا محالة.

تناقش مجلة دابق التي يصدرها تنظيم الدولة ليستهدف الأجانب بالأخص موضوع الهجرة باستمرار وتحث عليه باستخدام الآيات القرآنية والأحاديث المحمدية. وتَصَدَّرَ غلاف العدد الثالث من المجلة الذي نُشر في أغسطس ٢٠١٤ عنوان كبير «دعوة للهجرة». يقول كاتب المقال في الصفحة ٢٦:

> كل حِرَفي مسلم أخَّر جهاده في الماضي تحت عذر دراسته للشريعة أو للطب أو الهندسة.. إلخ، مدعيا أنه سيساعد الإسلام لاحقا بخبرته، عليه أن يجعل أولويته الأولى الآن هي أن يتوب ويستجيب لنداء الهجرة خصوصا بعد إقامة الخلافة. هذه الخلافة في حاجة الآن أكثر من أي وقت مضى إلى خبراء، ومهنيين، ومتخصصين، الذين بإمكانهم المساعدة في تقوية بنياتها التحتية لتلبية حاجيات إخوتهم من المسلمين. وإلا فإن عذره سيكون أكبر حجة عليه يوم الدين. أما بالنسبة للطلبة الذين يستخدمون نفس العذر ليستمروا في التخلي عن أكبر واجبات هذه الفترة، فإنه عليهم أن يعرفوا أن هجرتهم من دار الكفر إلى دار الإسلام هي أكثر وجوبا وأكثر استعجالا من قضاء عدد مجهول من السنين في الدراسة مع ما في ذلك من مخاطر التعرض للشك والرغبات التي ستدمر دينهم وبالتالي تنهي أي إمكانية لانخراطهم في الجهاد مستقبلا.[٢٤]

---

٢٣. صحيح ابن حبان ٥: ١٣١، والحديث رواه النسائي، ورواه أحمد بلفظ «ما قوتل العدو».

٢٤. مجلة دابق، العدد الثالث، صفحة ٢٦. الأصل باللغة الإنجليزية، الترجمة العربية قام بها الكاتب.

وبطبيعة الحال، تضمّن العدد أيضا إغراءات مالية حيث جاء في الصفحة ٣٣ من العدد نفسه تحت عنوان: «نصائح للذين يستعدون للهجرة». تقول إحدى تلك النصائح: «لا تهتم بالمال والسكن لك ولعائلتك، فهناك الكثير من المنازل والموارد لتغطية حاجياتك وحاجيات أسرتك.»[٢٥]

أما في العدد الثامن من مجلة دابق،[٢٦] فقد خصصت أم سمية المهاجرة ٦ صفحات لمقال في المجلة تحت عنوان: «التوأم النصفي للمهاجرين». والمقال عبارة عن قصص وعبر تشجع المسلمات خصوصا الشابات على الهجرة وكيفية التغلب على المصاعب، سواء أكانت متعلقة بمصاعب الطريق أو الأهل والأقارب، أم بمصاعب العبور من دولة إلى أخرى. تبدأ أم سمية المهاجرة مقالها بتأكيد أهمية الهجرة في الإسلام فتقول: «الهجرة من مكة إلى المدينة شكلت أيضا حدثا هاما ونقطة تحول في المهمة النبوية، واحتوت دروسا عديدة، بل بالأحرى هي أهم حدث في تاريخ الإسلام، ولهذا صارت هي الأساس للروزنامة الإسلامية.»[٢٧] وتشرح أم سمية المهاجرة، انطلاقا من تجربتها كمهاجرة كما يتضح من اسمها، أسباب الهجرة وأهدافها فتقول:

> الهجرة في سبيل الله لها أهداف عدة، منها الهروب من الضيقات، خوفا من الرضوخ لها، وأن يتأثر دينه بها. وأيضا لأن التعود على رؤية الكفر والشرك دون تغييره قد يؤدي إلى موت القلب، لدرجة أن المرء يصير غير قادر على التعرف على الإسلام وأهله. ومن أهداف الهجرة الالتحاق بصفوف المسلمين ومساندتهم وتقوية قواتهم وإعلان الجهاد على أعداء الله وأعدائهم.[٢٨]

---

٢٥. مجلة دابق، العدد الثالث، الصفحة ٣٣.
٢٦. صدر في في مارس ـ أبريل ٢٠١٥ .
٢٧. مجلة دابق، العدد الثامن، صفحة ٣٢. الأصل باللغة الإنجليزية، الترجمة قام بها الكاتب.
٢٨. نفس المصدر.

تعتمد أم سمية على ابن قدامة[٢٩] في تعريف الهجرة وفي شرح وجوبها، حيث تقول: «الهجرة هي الخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام.»[٣٠] ثم تقول إن الهجرة واجبة شرعا مستدلة بالآية القرآنية التي ذكرتها سابقا، وهي في الآية ٩٧ من سورة النساء،[٣١] لم تترك أم سمية شيئا عن الهجرة وإلا وذكرت الدليل عليه من القرآن والسنة، حيث استدلت مثلا بتفسير ابن كثير الفقيه والمفسر الكبير سوري المولد والنشأة الذي عاش في القرن الرابع عشر وهو يشرح الآية القرآنية السابقة شرحا واضحا فيقول: «نزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين، وهو قادر على الهجرة وليس متمكناً من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع.»[٣٢] في الصفحة ٢٨ من العدد نفسه (الثامن) من مجلة دابق تظهر صورة شاب في أحد المطارات الدولية يحمل حقيبته، مع نص يقول: «اترك أرض الشرك». وفي الصفحة ٢٩ شاب يصل أرض الخلافة مع حقيبته مع نص يقول: «وتعال إلى أرض الإسلام». والصفحتان زاخرتان بالأحاديث التي تذم البقاء في أرض الشرك وتحرض على الهجرة منها إلى دار الإسلام.

أهمية المهاجرين في التنظيمات الإسلامية

ليس لقب المهاجرة الذي تستخدمه أم سمية لقبا عبثيا، بل لقب يحمله الكثير من مقاتلي داعش من الجنسيات الأجنبية عن العراق وسوريا، لأنه مدعاة للافتخار. فهو لقب يود أن يقرنه المسلم أو المسلمة باسمه، مثله في ذلك مثل لقب الحاج الذي يفتخر العديد من المسلمين بحمله. هكذا يفتخر المسلمون بهجرة محمد التي صارت نقطة صفر يبدأ منها التأريخ

٢٩. عالم مسلم ولد في فلسطين عاش في القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلادي، أحد أبرز علماء المذهب الحنبلي، صاحب كتاب المغني.
٣٠. مجلة دابق العدد الثامن، صفحة ٣٢.
٣١. مجلة دابق، العدد الثامن، صفحة ٣٢-٣٣. الأصل باللغة الإنجليزية، الترجمة قام بها الكاتب.
٣٢. تفسير ابن كثير ٢: ٣٤٧، للنساء ٩٧، وقد اقتبست منها أم سمية المهاجرة في مجلة دابق، العدد الثامن، الصفحة ٣٣.

الإسلامي، وبعدها تبدأ فعلا الدولة الإسلامية في خوض أولى معاركها. والمهاجرون كتلة أساسية في الدولة الإسلامية الأولى، وهم كتلة أساسية في تنظيم الدولة اليوم. ففي أول غزوة خاضها النبي محمد ضد قومه، كان عدد المهاجرين المقاتلين معه يقارب الثلث. كان المجموع ثلاثمائة وأربعة عشر مقاتلا ثلاثة وثمانين منهم من المهاجرين.[٣٣] واليوم يشكل المقاتلون الأجانب قوة كبيرة داخل تنظيم الدولة. وقد قدّر رئيس الوزراء العراقي حيدر عبادي عدد المقاتلين الأجانب داخل التنظيم بستين في المائة من مجموع المقاتلين الذين وصل عددهم إلى ستين ألف مقاتل رغم تضارب التقديرات بخصوص هذا الرقم.[٣٤]

يبلغ عدد المقاتلين الأجانب في الجماعات الجهادية في العالم، بحسب تقرير مجلس الأمن الدولي في الأمم المتحدة، خمسة وعشرين ألفا، وربما يصل إلى ثلاثين ألفا.[٣٥] ويعني هذا أن عدد المهاجرين اليوم في تنظيم الدولة يساوي أو يفوق بقليل عدد الأنصار (المحليين). وقد وصل عدد المهاجرين من الدول الغربية لوحدها إلى ثلاثة آلاف وأربعمائة مقاتل من الذكور، بينما وصل عدد المهاجرات من فرنسا وحدها قاصداتٍ سوريا إلى ثلاثة آلاف وستمائة وسبعين حالة ما بين ٢٠١٤ و٢٠١٥، أي في عام واحد فقط.[٣٦] و ليس غريبا أن يكون العدد الكبير من المقاتلين الأجانب من الدول الغربية من فرنسا وألمانيا وبريطانيا وبلجيكا وهولندا، لأنها دول تضم جالية إسلامية كبيرة خصوصا من شمال إفريقيا (المغرب والجزائر بالتحديد)،[٣٧] كما أن البلدان العربية قد صدرت الكثير من المجاهدين «المهاجرين» إلى تنظيم الدولة، حيث تحتل تونس رأس القائمة بثلاثة آلاف مقاتل، وتليها

٣٣. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ١٦٤، عدد من شهد بدرًا من المهاجرين والأنصار.
٣٤. القدس العربي، «بين مؤتمر لندن وباريس: «تنظيم الدولة» يسجّل إرتفاعًا في عدد المقاتلين».
٣٥. نفس المصدر.
٣٦. نفس المصدر.
37. ICSR, "Foreign fighter total in Syria/Iraq now exceeds 20,000...."

السعودية بألفين وخمسمائة مقاتل، ثم الأردن بعدد يقترب من ألفين ومائة مقاتل، ويليها المغرب (بلدي) بألف وخمسمائة مقاتل.[٣٨] وتدل هذه الأرقام على أهمية عامل الهجرة في نفوس هؤلاء وفي فعالية الخطاب الديني الذي ظل يحرض على فتح أبواب الجهاد لأبناء المسلمين للدفاع عن إخوتهم في مناطق الصراع في العالم. وكان هذا الخطاب يتجدد في كل مناسبة .. حين تكون هناك معارك بين إسرائيل وفلسطين، وحين كانت القوات الأمريكية في العراق، وخلال حرب البوسنة، وخلال حرب الشيشان أيضًا، ناهيك عن الحرب الأفغانية الروسية. لقد ترسب هذا الخطاب في الأذهان وأعطى أُكُله حين قام تنظيم الدولة.

أتذكّر في جامعة الحسن الثاني في الدار البيضاء حيث كنت أدرس، كان طلبة العدل والإحسان[٣٩] ينظمون معارض وأسابيع توعية لتحفيز الطلبة على التضامن مع المسلمين. وكانوا يعرضون صور أطفال مقتولين في فلسطين، وصور الدماء والأشلاء في البوسنة، وصور جنود إسرائيليين أو جنود صرب يعتدون على المسلمين. كنت أرى شبابًا كثيرين مشحونين بالغضب يصيحون بالشعارات بأعلى أصواتهم منددين بسكوت الحكومات العربية، طالبين أن يتحد المسلمون للجهاد ضد أعدائهم. بل كانوا يطالبون بالنفير للجهاد، مذكرين بانتصارات غزوات الرسول، مرددين آيات القرآن الجهادية التي تعد بالنصر والتمكين، حتى إنهم كانوا يرددون الكثير من الأناشيد الجهادية، نفس الأناشيد التي أسمعها اليوم على أشرطة القاعدة وتنظيم الدولة، على مرأى ومسمع من إدارة الجامعة ومن العناصر الأمنية.

ترى كم جامعة سيطر عليها هذا الخطاب في المغرب عندئذٍ عندما كان فصيل العدل والإحسان في التسعينات هو الفصيل المسيطر على الساحة

---

38. The Washington Post, “Map: How the flow of foreign fighters to Iraq and Syria....”

٣٩. جماعة إسلامية مغربية، اشتهرت بزعيمها الراحل عبد السلام ياسين الذي نادى بتغيير نظام الحكم في المغرب، وكان وما زال فاعلا أساسيا في المغرب وفي تحريك الشارع المغربي.

الطلابية؟ وكم مسجدًا وجامعة في العالم العربي والإسلامي كانت وما زالت تسمح بهذا الخطاب الحماسي؟ ها قد حان الوقت ليجني العالم الإسلامي ما زرعه في نفوس طلابه. فطلاب الأمس هم مقاتلو اليوم. فلم تذهب تلك الخطب الحماسية أدراج الرياح. إذ أنتجت جيلا لا هم له إلا القتال والحرب، ولا يعرف أن ينتج شيئا إلا الأشلاء والدماء. لا داعي أن نستغرب خروج مقاتلين بالآلاف من تونس والمغرب والسعودية. فالذي عاش وسط الجامعات وسمع الطلاب، وسمع خطب الجمعة، فلن يتعجب أبدا. بل لولا الإجراءات الأمنية المشددة لكنا رأينا الأعداد أضعافا مضاعفة. وأحد المؤشرات على ذلك أنه حين أجرى موقع الجزيرة نت استطلاعا للرأي بطرحه للسؤال التالي: هل تعتبر تقدم تنظيم الدولة الإسلامية في العراق وسوريا لصالح المنطقة؟ كان عدد المجيبين بنعم يتخطى الثمانين بالمئة من مجموع ستة وخمسين ألف مشارك.[٤٠]

لو لم تكن هناك جاهزية في النفوس لما وجدت حملات الدعاية لتنظيم الدولة قابلية لدى الشباب. فلو لم يكن الشباب الذي يلتحق بها من أوروبا قد سمع مرارا وتكرارا الخطاب الديني التحريضي وآمن واقتنع بأن الأمة الإسلامية تتعرض لمؤامرة كبرى، وأنه حان الوقت لاستعادة أمجاد الماضي بدءا بالهجرة، لما التحق بتنظيم الدولة. ففرنسا وألمانيا وبريطانيا وبلجيكا تعج بالمساجد التي تبث خطاب الكراهية تحت مسمى الحرية الدينية، تلك الحرية التي يستغلها الكثير من المسلمين في الغرب ويؤمنون بها فقط حين تكون في صالحهم، لكنهم ينكرونها على بقية الأديان في البلدان ذات الأغلبية المسلمة. هذه الحرية الدينية تم استغلالها في البلدان الغربية لترويج الخطاب الإسلامي التحريضي الذي يكفّر البلدان نفسها التي أعطته حق العبادة

٤٠. الجزيرة نت، «هل تعتبر تقدم تنظيم الدولة الإسلامية في العراق وسوريا لصالح المنطقة؟».

وحق إقامة المساجد وحق التعبير عن معتقداته. لكن هل ينبغي للحرية أن تسمح بالخطاب الذي يدمرها من أساسها؟

دور المهاجرين في داعش

كان أبو مصعب الزرقاوي مهاجرا أردنيا ذهب إلى العراق، وبدأ ما سمي حينها بجماعة التوحيد والجهاد، ثم بايع بن لادن، وأسس فرعا للقاعدة سُمي قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين. فكانت هذه النواة حجر الأساس الذي بُني عليه تنظيم الدولة لاحقا، لأن جل مقاتليه هم بقايا الخلايا التي أسسها أبو مصعب الزرقاوي. وكان بن لادن مهاجرا، وكذلك الظواهري. وكان عبد الله عزام، أبو الجهاد الأفغاني، مهاجرا فلسطينيا أسّس فكرة هجرة المجاهدين العرب إلى أفغانستان. كما أن بعض قيادات تنظيم الدولة هم من المهاجرين، من بين أهم قادة التنظيم الميدانيين من المهاجرين أبو عمر الشيشاني، واسمه الحقيقي «تارخان باترهيفيلي». وهو في الأصل مقاتل شيشاني كما يقول لقبه، ويشغل منصبا يعادل منصب رئيس الأركان في تنظيم الدولة. وقد ظهر في فيديو كسر الحدود حين قام بعمل رمزي بهدم الحدود بين سوريا والعراق رافضا الاعتراف بالحدود التي رسمها الغرب في الأراضي الإسلامية حاسبًا أن الدول الإسلامية في الأصل هي دولة واحدة، وهي أرض الخلافة، وأن الحدود هي عمل استعماري تقرر بسبب معاهدة سايس بيكو، وأن المسلم مطالب بأن يرفض الخضوع للقوانين الغربية الكافرة الداعية للتقسيم لكي تضعف الأمة الإسلامية (نظرية المؤامرة مرة أخرى). من اللافت للنظر هنا أن أول كتيبة أسسها أبو عمر الشيشاني قبل الانضمام إلى تنظيم الدولة كان اسمها «كتيبة المهاجرين»، كونها تضم المهاجرين فقط خصوصا ذوي الأصول الشيشانية. ثم أسس ما يسمى بجيش المهاجرين

والأنصار وهو الإسم نفسه الذي يحمله جيش آخر في الشيشان يحارب ضد روسيا.[٤١]

من أبرز العناصر الجهادية من المهاجرين داخل التنظيم، جون الجهادي، أو ذباح التنظيم كما سمّته وسائل الإعلام. واسم جون الجهادي الحقيقي الذي ظهر في فيديوهات داعش محمد جاسم إموازي. وهو من مواليد ١٩٨٨ ومن أصول كويتية، انتقل مع والديه للعيش في لندن حين كان في السادسة من العمر. ودرس في جامعة ويستمنستر وحصل على شهادة في المعلوميات وفي إدراة الأعمال. والتحق بالجماعات المقاتلة في سوريا سنة ٢٠١٢، وبعدها التحق بصفوف التنظيم ليظهر في فيديوهات الذبح الصادمة.[٤٢] فكان أول ظهور له في أغسطس ٢٠١٤، عندما ظهر مقنعا وهو يهدد بسكين في يده ويلقي خطابا معدا مسبقا يهدد فيه أمريكا ورئيسها أوباما. وبعدها ظهر جيمس فولي مذبوحا وقد قُطع رأسه موضوعًا فوق جثته. ومن المفترض أن الجهادي جون هو من ذبحه ووضع الرأس فوق الجثة. وفي سبتمبر ٢٠١٤، تكرر السيناريو نفسه مع ستيفن سوتلوف، ثم تكرر في الشهر نفسه في فيديو آخر لذبح المواطن البريطاني ديفيد هينز، ثم ألان هيننغ في شهر أكتوبر، وفي نوفمبر ٢٠١٤، في فيديو آخر يظهر فيه بيتر كاسيغ مذبوحا. وقبل مشهد رأس بيتر المقطوع، تم عرض مشاهد لذبح ١٨ جنديا سوريا في منطقة تعرف بدابق في سوريا. يُعد الجهادي جون أحد المهاجرين الذين استخدمهم التنظيم كأداة فعالة للبروباغندا ولإيصال رسائله إلى الغرب باللغة الإنجليزية، لذلك كان من أولويات محاربة داعش أن يتم رصده وإنهاؤه بأي ثمن كان وهذا ما حصل لاحقا في غارة أمريكية من خلال طائرة بدون طيار.[٤٣]

٤١. بي بي سي عربي، «نبذة عن «عمر الشيشاني» قائد المقاتلين الشيشانيين في سوريا»، وصفحة بي بي سي الإنجليزية أيضًا: "Syria crisis: Omar Shishani, Chechen jihadist leader"

42. The Guardian,"Who is Mohammed Emwazi? From shy, football-loving boy to Isis killer."

٤٣. وكالة رويترز، «تنظيم الدولة الإسلامية يؤكد مقتل الجهادي جون».

ليس الجهادي جون المهاجر الوحيد الذي استغله التنظيم، بل إن قوة التنظيم الضاربة هي المهاجرون. فالمقاتلون الشيشان يعَدّون بالمئات، ولديهم خبرة طويلة في الحرب ضد الروس، يعرفون التكتيكات العسكرية. وهم مدربون على استخدام أنواع مختلفة من الأسلحة، لذلك يقدمون الدعم اللوجستي والدعم العسكري والتدريب لمختلف الكتائب وللمقاتلين الملتحقين حديثا بصفوف الجهاد. وإضافة إلى الخبرة، يعتمد التنظيم في تنفيذ العمليات الانتحارية على الأجانب «المهاجرين». فهم رأس الحربة في فتح الأماكن المُؤَمَّنة والمستعصية. فقبل كل هجوم يتم تنفيذ سلسلة هجمات انتحارية تفتح تلك الحصون. ولذلك جاء ما يلي في مقال في موقع العربية نت:

> يعد الجهاديون الأجانب أيضا الأصلح لبعض المهمات الخاصة كالعمليات الانتحارية، ويرجع ذلك إلى كون التنظيم يجد سهولة أكبر في إقناعهم بالإقدام على مثل هذه العمليات لحماسهم العالي من جهة، وللقابلية العقدية التي تسهل أدلجتهم وإقناعهم أكثر من الجهاديين المحليين من سوريا والعراق، من جهة أخرى.[٤٤]

هناك عوامل كثيرة وراء سبب استخدام التنظيم للمهاجرين في العمليات الانتحارية، أهمها أن المهاجرين قد انفصلوا عن عائلاتهم ومحيطهم الاجتماعي وأغلبهم من الشباب. فمن السهل على من انفصل كليا عن روابطه الاجتماعية أن يقوم بعملية انتحارية، في حين أن الأنصار من المحليين غالبا لديهم عائلات وعلاقات اجتماعية كثيرة وروابط ومسؤوليات متشعبة تجعل من الصعب عليهم اتخاذ قرار كهذا في ظل وجود من يقوم به بكل سهولة من الأجانب، رغم أن لكل قاعدة استثناء. لدى التنظيم كتيبة خاصة تسمى كتيبة الاستشهاديين أغلب عناصرها من المقاتلين الأجانب. تقول صحيفة الديلي ميل البريطانية إن التنظيم

٤٤. العربية نت، «سر داعش وراء تفضيل المقاتلين الأجانب!».

يعتمد على الأجانب في العمليات الانتحارية لأن أغلبهم ليس لهم خبرة في القتال، وبالتالي ليست لهم قيمة عسكرية في المواجهات إلا إذا استُخدِموا في العمليات الانتحارية. وقد صار التنظيم في بداية ٢٠١٥ يعاني من نقص في عدد الاستشهاديين بعد هروب العديد من المرشحين للاستشهاد، لاكتشافهم بعض الحقائق المرة منها أن قيمتهم في التنظيم ليست كقيمة البقية ممن هم من قادة التنظيم من الأنصار المحليين.[٤٥] كان محمد يعتمد على المهاجرين أيضا في عملياته القتالية. فرغم أن المهاجرين شكلوا أقل من الثلث في غزوة بدر مثلا، إلاّ أن نصيب القتلى منهم يكاد يصل إلى النصف ٦ من أصل ١٤ قتيلًا، بحسب الروايات الإسلامية.[٤٦] واليوم يشكل المهاجرون القوة الأمامية للعمليات الانتحارية لتنظيم الدولة.

دور الأنصار داخل داعش

ماذا عن الأنصار في المقابل؟ الأنصار هم المستقبل، هم الحاضنة. كانت يثرب حاضنة محمد، بينما تُعَد المناطق السنية في العراق وسوريا يثرب «داعش». فكما احتضن الناس في يثرب محمدا وشكلوا حلفا معه ضد قريش، كذلك احتضنت المناطق السنية داعش وشكلت معها حلفا ضد العلويين في سوريا والشيعة في العراق. إنها الخطة نفسها والتطبيق نفسه، مع اختلاف الأزمنة والأدوات. إنهم يتبعون السيرة حتى في مخططاتهم الحربية. لقد خلق محمد منطقة أصبح يدير فيها الأمور بنفسه فصارت هي الملاذ الآمن له، قاعدة ينطلق منها في شن الغزوات ثم يعود إليها، إنها منطقة يدير منها التوحش. وكتاب إدارة التوحش واحد من أهم الكتب التي اعتمد عليها التنظيم في بناء خططه. وقد ألّفه سنة ٢٠٠٤ شخص

45. Daily Mail, "Is ISIS running out of suicide bombers? Terror group suffers shortage of martyrs after dozens of fighters desert or defect to rival militias."

٤٦. زاد المعاد في هدي خير العباد، ٣: ١٦٩، فصل في غزوة بدر الكبرى.

يحمل اسما حركيا يدعى أبا بكر ناجي، يُعْتَقَد أنه المصري محمد خليل الحكايمة، أحد قيادات القاعدة، والذي قتل سنة ٢٠٠٨ في غارة أمريكية.[٤٧]

يقول مؤلف الكتاب:

> إن إدارة التوحش قامت في تاريخنا الإسلامي مرات متعددة، وأول مثال لها كان بداية أمر الدولة الإسلامية في المدينة... لم تكن المدينة قبل هجرة الرسول (ص) تعاني من التوحش بل كانت تدار من قبل قبائل كالأوس والخزرج بنظام شبيه بنظام إدارة التوحش، ثم عندما هاجر الرسول (ص) للمدينة وأعطت العناصر الرئيسية فيها الولاء له أديرت المدينة في هذه الفترة الأولى بشبيه هذا النظام من قبل المسلمين، بل بالنظام المثالي لإدارة التوحش.[٤٨]

بل قال الكاتب، بصفته مجاهدا وقائدا في تنظيم القاعدة، بكل وضوح: «نقتفي أثر وخطى الرسول (ص) وصحابته (ض) في تحركاتنا العسكرية، بل ولا نقبل أن تكون سياساتنا في أي تحرك جهادي إلا كما كانت السياسة الشرعية».[٤٩]

صار هذا الكتاب مثل المرشد الذي اتبعه تنظيم الدولة في مراحله. فهو ينصح بخلق منطقة توحش تتم إدارتها من الجماعة الإسلامية، ثم يتم إنهاك العدو من خلال هذه المنطقة بضربه في مناطق مختلفة لخلق مزيد من مناطق التوحش، وقد قامت أمريكا دون أن تدري بتقديم خدمة جليلة للتنظيم حينما ساعدت في خلق منطقة توحش في العراق، وساعدت الدول المتحالفة ضد سوريا في خلق منطقة توحش في سوريا، نفس الشيء ينطبق على ليبيا، فصار التنظيم يدير مناطق توحش واسعة في كل من سوريا والعراق وليبيا، وصارت الرقة عاصمته، إضافة إلى عواصم ثانوية في مناطق

٤٧. معهد العربية للدراسات، «إدارة التوحش..والملاذات الآمنة للإرهاب من نظام الأسد إلى إمارة داعش!».
٤٨. إدارة التوحش، صفحة ١٢.
٤٩. نفس المصدر، صفحة ٢٨.

سنية في العراق مثل الموصل وغيرها. تتضمن الخطة أيضا الجانب الإعلامي، حيث يقول الكاتب: «هذه الخطة الإعلامية عندما تواكب مرحلة إدارة التوحش بصفة خاصة هدفها هو أن يطير جموع الشعوب إلى المناطق التي نديرها خاصة الشباب.»[50] رغم أن الكاتب كان من قيادات القاعدة ولم يُكْتَبْ له أن يرى ميلاد الدولة الإسلامية، إلا أن تنظيم الدولة قد استفاد من بحثه وقام بتطبيقه على أرض الواقع.

لم يكن الكتاب من وحي خيال كاتبه، بل اعتمد هو الآخر على السيرة النبوية، ولاسيما ما قام به محمد حين خلق منطقة توحش بعد هجرته. فتحالفه مع قبيلتي الأوس والخزرج لم يكن نابعا من فراغ، بل هو تحالف إستراتيجي نابع من تبادل المصالح ونابع أيضا من القرابة الدموية. فعائلة محمد من جهة أم جده كانت من يثرب،[51] وبالتالي صار الأمر يبدو وكأنه استنجد بقبيلة أخواله ضد قبيلة أعمامه. وقد سبق هجرة محمد اتفاقان بينه وبين قبيلتي الأوس والخزرج. وكان من بنود هذين الاتفاقين «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم... الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.»[52]

يقوم تنظيم الدولة بالشيء نفسه. فالمصاهرة ووجود علاقات الدم تجعل محاربة العشائر في العراق وسوريا للتنظيم أمرا شبه مستحيل، لأنها ستكون كأم تحارب أبناءها، خاصة أن كل عشيرة تتحد خلف أبنائها من المقاتلين، ولذلك يجد التنظيم الكثير من الحماية والكثير من الدعم وسط العشائر السنية، ولاسيما تلك التي تربط أفراده معها علاقات مصاهرة أو

---

٥٠. إدارة التوحش، صفحة ٢١.

٥١. بنو النجار هم أخوال محمد، وقد نزل أول ما نزل محمد في يثرب نزل عند أخواله بني النجار، بل وصار نقيبا عليهم أي ممثلا لهم، انظر السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٣٥٣ تحت عنوان: «نقابته عليه الصلاة والسلام لبني النجار»، وفيها قال لهم: «أنتم أخوالي، وأنا بما فيكم، وأنا نقيبكم». انظر أيضا السيرة الحلبية ٢: ٢٤٥، كذلك جاء في صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب «الصلاة من الإيمان» «عَنِ البَرَاءِ أَنَّ النبيَّ (ص) كانَ أَوَّلَ ما قَدِمَ المَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدادِهِ، أو قالَ أَخْوالِهِ مِنَ الأَنْصارِ».

٥٢. السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٢٦٨، أمر العقبة الثانية .

قرابة. يستغل التنظيم بيعات العشائر المتتالية للخليفة البغدادي، وينشر صور شيوخ تلك العشائر وهم يقدمون البيعة في اجتماعات مع عناصر التنظيم. ومن بين هؤلاء مثلاً شيوخ عشائر الفلوجة الذين بايعوا في شهر يونيو ٢٠١٥ البغدادي.[٥٣] وفي أواخر مارس ٢٠١٥، نشر التنظيم فيديو يظهر بيعة عشائر نينوى لخليفة التنظيم البغدادي. وقد أظهر التنظيم حوالي ٣٠ فردا من شيوخ العشائر في الموصل وهم يبايعون البغدادي في قاعة ضخمة،[٥٤] كنوع من الدعاية ونوع من التفاخر بإنجازات الخلافة. نُشِرت هذه الفيديوهات كلها لرفع معنويات الأتباع وللتأثير في معنويات الأعداء. ولكنها في الوقت نفسه تظهر أن التنظيم يستفيد من علاقاته العشائرية لصالح مكاسبه على أرض الواقع.

لولا الأنصار لما كان الإسلام. فلولا قبيلتا الأوس والخزرج، لما استطاع محمد أن يغزو نملة. ولولا العشائر لما استطاع تنظيم الدولة أن يبقى ويستمر في العراق وفي سوريا. لقد عرف محمد قيمة الأنصار الذين آووه. ولذلك قال: «آيةُ الإيمانِ حُبُّ الأنْصارِ، وآيةُ النِّفاقِ بُغْضُ الأنْصار».[٥٥] عرف محمد قيمتهم منذ أن عرض عليهم القبول به كنبي في بيعة العقبة الأولى، حيث قابل اثني عشر شخصا منهم، ثم بعد سنة أبرم معهم صفقة سياسية في بيعة العقبة الثانية، حتى إن عمه الذي لم يؤمن به ذهب ليتأكد بنفسه من سلامة الصفقة التي عقدها محمد مع الأوس والخزرج، حيث قال لهم عن ابن أخيه:

---

٥٣. الجزيرة نت، «شيوخ عشائر الفلوجة يبايعون البغدادي ويهاجمون الحكومة».
٥٤. موقع فيتو، «بالفيديو.. رموز العشائر العراقية تبايع «البغدادي» بشكل علني».
٥٥. صحيح البخاري ١: ١٤، كتاب الإيمان، باب «عَلامَةُ الإيمان حُبُّ الأَنْصار».

> إنـه قـد أبى إلا الانحيـاز إليكـم، واللحـوق بكـم. فـإن كنتـم تـرون أنكـم وافـون له بمـا دعوتمـوه إليـه، ومانعـوه ممـن خالفـه، فأنتـم ومـا تحملتـم مـن ذلـك؛ وإن كنتـم تـرون أنكـم مسـلموه وخاذلـوه بعـد الخـروج بـه إليكـم، فمـن الآن فدعـوه، فإنـه في عـز ومنعـة مـن قومـه وبـلده.[٥٦]

احتـاج الأوس والخـزرج إلى قائـد عليهـم يقـف على مسـافة متسـاوية بينهـم. وقـد كانـت النبـوة رمـزا للسـلطة وقتهـا، لذلـك أعطـوه العهـد على المـضي خلفـه وأن ينـصروه في حروبـه، حيـث قالـوا: «بايِعْنـا يـا رسـول الله، فنحـن والله أبنـاء الحـروب، وأهـل الحلْقَـةِ [السـلاح]، ورثناهـا كابـرا عـن كابـر.»[٥٧] ولكـن في الوقـت نفسـه كانـوا يشـترطون ألا يتخـلى عنهـم حـين ينتـصر وحـين تنتـشر دعوتـه، حيـث قالـوا له بصريـح العبـارة: «يـا رسـول الله، إن بيننـا وبـين الرجـال حبـالا، وإنـا قاطعوهـا - يعـني اليهـود - فهـل عسـيت إن نحـن فعلنـا ذلـك ثـم أظهـرك الله أن ترجـع إلى قومـك وتدعنـا.»[٥٨] حينهـا فقـط أجابهـم: «أنـا منكـم وأنتـم مـني، أحـارب مـن حاربتـم، وأسـالم مـن سـالمتم».[٥٩] لقـد كانـت مصالحهـم متبادلـة، وهي المصالـح نفسـها الموجـودة اليـوم بـين العشـائر السـنية وتنظيـم الدولـة. وقـد انتبهـت الولايـات المتحـدة لأهميـة العشـائر، فأنشـأت نظـام الصحـوات سـنة ٢٠٠٦، خصوصـا في محافظـة الأنبـار. وبعدهـا انتـشرت فكـرة الصحـوات إلى ولايـات أخـرى. فكانـت وسـيلة فعالـة في تحجيـم دور القاعـدة، لكنهـا فشـلت في الأخـير بسـبب خـروج القـوات الأمريكيـة وتـولي الحكومـة العراقيـة زمـام الأمـور، فأعطـت الأولويـة للشـيعة وأهملـت المناطـق السـنية، مـا سـاعد على تغـير موازيـن القـوى على أرض الواقـع. فارتـدت العشـائر لتسـاند

٥٦. السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٢٦٦، أمر العقبة الثانية.
٥٧. نفس المصدر صفحة ٢٦٧.
٥٨. نفس المصدر.
٥٩. نفس المصدر ٢٦٧-٢٦٨.

الجهاديـين، وبالتـالي صـارت الأم الحاضنـة لميـلاد الدولـة الإسـلامية الحديثـة تمامـا كمـا كان الأوس والخـزرج الأم الحاضنـة لميـلاد دولـة محمـد بـن عبـد الله.

-9-

صعاليك وغزوات: صعاليك الرسول وصعاليك داعش

دوافع غزوات محمد

احتاج محمّد في بداية الإسلام إلى الرجال والمال لكي يتمكن من العيش ولكي يَعُول المهاجرين الذين انتقلوا معه للعيش في يثرب. فكانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار حلا مؤقتا لمحمد ومهاجريه. فلن يستطيع الأنصار تحمل عبء إعالة أسر المهاجرين لمدة طويلة، فكان على محمد إيجاد وسائل بديلة لبسط سيطرته ونفوذه ولتشجيع المقاتلين على الانضمام لصفوفه كي يبدأ مشروع بسط السلطة على المنطقة كلها، وبالتالي أخذ الثأر من قبليته والاستيلاء عليها عنوة. كانت بعض القبائل العربية تعيش على النهب والغزو والغارات. وبطبيعة الحال كان لدى محمد سببان رئيسيان للإغارة على قبيلته: أولا، أراد الانتقام من رفضهم له واضطهادهم له ولأتباعه في مكة، وثانيًا، أراد أن يعول أصحابه. وكانت أمامه فريسة سهلة للقيام بذلك. فهو يعرف أفراد قبيلته معرفة جيدة ويعرف تضاريس

المنطقـة، ولديـه علاقـات قبليـة تسـمح له بتتبـع أخبارهـم وتقـفي آثارهـم. فلـم تبـقَ إلاّ مَهَمَّـة جمـع الرجـال وإقناعهـم بـالإغارة على الأهـداف المحـددة سـابقا. فبعـد سـنة مـن مقامـه في المدينـة خـرج يبحـث عـن فريسـة.[١] خـرج مـع المهاجريـن في عصابـات بحثـا عـن قوافـل قريـش التجاريـة، لأنهـا كانـت أسـهل هـدف. لـم يكـن يسـتطيع غـزو القبيلـة في عقـر دارهـا نظـرا لكـثرة مقاتليهـا وقلـة مقاتليـه، أمـا القوافـل التجاريـة فـهي قليلـة الحراسـة. فـإذا كان لديـه مـا يكـفي مـن الرجـال والسـلاح، سـتكون الإغارة عليهـا أسـهل وأسرع.

خـرج محمـد يريـد الإضرار بقريـش في هجـوم يشـبه هجـوم قطـاع الطـرق سـماه غـزوة. كان يريـد مـا يـؤدي قبيلتـه «قريشًـا» في أول غـزوة. أراد أن يعزلهـا عـن حلفائهـا فهاجـم بـني ضمـرة وهي قبيلـة مجـاورة، فطلبـت منـه هـذه القبيلـة الصلـح والصلـح معنـاه الخضـوع لشروطـه. فعَقَـدَ الصلـح ثـم عاد إلى المدينـة دون حـرب، وسـمّى هـذه الغـزوة غـزوة الأبـواء.[٢] ويبـدو أن الأنصـار لـم يريـدوا المشـاركة في هـذه الغـزوات، لأن محمـدا والمهاجريـن هـم الذيـن كانـوا في حاجـة إلى المـوارد. ولذلـك كان محمـد يبعـث سرايـا تضـم المهاجريـن فقـط.[٣] بعثهـم هـذه المـرة لمهاجمـة تجمُّـع لرجـال مـن قريـش، لكنهـم فوجئـوا بأعـداد تفوقهـم، فرجعـوا خائبـين للمـرة الثانيـة. وسـميت هـذه السريـة سريـة عبيـدة بـن الحـارث.[٤] ثـم بعـد ذلـك بعـث محمـد عمـه حمـزة على رأس ثلاثـين مقاتـلا كلهـم مـن المهاجريـن، لكنهـم وجـدوا أحـد عظمـاء قريـش في تجمُّـع يضـم ثلاثمائـة

---

١. السـيرة النبويـة لابـن هشـام ٣: ٢٩، تحـت عنـوان: «تاريـخ الهجـرة»، يقـول ابـن إسـحاق: «ثـم خـرج غازيـا في صفـر على رأس اثـني عـشر شـهرا مـن مقدمـه المدينـة.»

٢. نفـس المصـدر ٣: ٣٠، «قـال ابـن إسـحاق: حـتى بلـغ وَدّان، وهي غـزوة الأبـواء، يريـد قريشـا وبـني ضمـرة.. قـال ابـن هشـام: وهي أول غـزوة غزاهـا.»

٣. نفـس المصـدر ٣: ٣١، تحـت عنـوان «سريـة عبيـدة بـن الحـارث» «قـال ابـن إسـحاق: وبعـث رسـول الله (ص)، في مُقامـه ذاك بالمدينـة عبيـدة بـن الحـارث بـن المطلـب بـن عبـد منـاف بـن قـصي في سـتين أو ثمانـين راكبـا مـن المهاجريـن، ليـس فيهـم مـن الأنصـار أحـد»

٤. نفس المصدر، قال ابن إسحاق: «فلقي بها جمعا عظيما من قريش، فلم يكن بينهم قتال».

مقاتل، فرجعوا دون قتال للمرة الثالثة. وسميت هذه السرية بسرية سيف البحر (وهو اسم مكان).[٥]

قام محمد بالخروج مرة أخرى على رأس عصابة من مهاجريه، وهي المرة الثانية التي يخرج فيها بنفسه دون أن ينيب عنه أحدا على رأس الغزاة. وفي كل مرة يخرج كان يترك شخصا خلفه على المدينة، ما يدل على أنه كان يشغل منصب الحاكم في المدينة، خرج هذه المرة ورجع أيضا بلا نتيجة وسميت هذه الغزوة «غزوة بواط». تمت هذه الغزوات والسرايا في ظرف لا يتعدى شهرين، بحسب السيرة النبوية.[٦] ثم بعد حوالي شهر خرج محمد ومعه ابن عمه علي بن أبي طالب في غزوة تعد خامس محاولة سطو لكنها فشلت هي الأخرى، وسُميت غزوة العشيرة. وهذه الأسماء كلها لأماكن. ومن المضحك المبكي في هذه الغزوة أن الغزاة خصوصا عليًّا وعمار بن ياسر، أصابهما الملل من الانتظار. فرأيا أناسا في الجوار يعملون في النخيل، فأرادا أن ينظرا ويتعلما هذا النوع من العمل، ما يدل على أنهما لا خبرة لهما في الفلاحة والعمل. فأصحاب محمد ولا سيما من المهاجرين كانوا قليلي الخبرة في العمل اليدوي، ولذلك يعَدّ السطو والإغارة أكثر عمل يتقنونه. بقي الاثنان ينظران ساعة حتى غلبهما النعاس فناما.[٧]

بعد هذه المحاولة الخامسة، قام محمد ببعث سرية أخرى سادسة فشلت هي أيضا وسميت سرية سعد. ثم أرسل سريّة سابعة، وهي سرية عبد الله بن جحش، وقد وقع فيها قتل وسلب. تألفت السرية من عبد الله على رأس ثمانية من المهاجرين. وكان الغرض منها أن تكون بعثة استطلاعية

٥. نفس المصدر ٣: ٣٥، قال ابن إسحاق: «فلقي أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاث مئة راكب من أهل مكة. فحجز بينهم مجديُّ بن عمرو الجهني. وكان موادعا للفريقين جميعا، فانصرف بعض القوم عن بعض، ولم يكن بينهم قتال.»

٦. نفس المصدر ٣: ٣٨، قال ابن إسحاق: حتى بلغ بواط، من ناحية رضوى، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا، فلبث بها بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى.

٧. نفس المصدر ٣: ٤٠، تحت عنوان «غزوة العشيرة».

تتجسس على قريش وتنقل لمحمد أخبارهم.[٨] وأثناء قيامهم بهذه المهمة مرت بهم قافلة عائدة لقريش يقودها شخص اسمه عمرو الحضرمي. اعتاد العرب أن يقدسوا أشهرا معينة من السنة (أربعة أشهر) يسمونها الأشهر الحرم، يحرم فيها القتال أو الحرب، وكانت القبائل تحترم هذه الأشهر، وتعد القتال فيها جرما كبيرا وخرقا للأعراف والتقاليد. فكم بالأحرى لو كان الأمر اعتداء على قافلة مسالمة. لكن رغبة أصحاب محمد المهاجرين في الانتقام كانت شديدة، وحاجتهم إلى المال ماسّة، فتشاوروا فيما بينهم. فخدعوا القوم وتظاهروا أول الأمر أنهم مسالمون، ثم بعد ذلك قرروا الهجوم رغم إدراكهم أنهم يقومون بالاعتداء على أناس مسالمين، وأنهم يقومون في الوقت نفسه بخرق الأشهر الحرم. كان في القافلة أربعة أشخاص، رموا قائد القافلة بسهم فأردوه قتيلا، وأسروا اثنين وأفلت منهم واحد، ثم ساقوا الجمال بما تحمله من سلعة، ومعهم الأسيران، ودخلوا المدينة. وقبل أن يلتقوا محمدا، قسموا الغنائم بينهم وخصصوا لمحمد الخُمس من تلك الغنيمة. ولم يكن للأنصار دخل بالموضوع لا من بعيد ولا من قريب. ويبدو أن محمدا صعق لما علم بالأمر، فلم يكن يتخيل أن مهمة استطلاعية ستؤول إلى خرق لأعراف القبائل، فاستنكر عليهم فعلتهم، ليس لأنها كانت اعتداء على قريش، بل لأنهم لم يحترموا الأشهر الحرم. فقال لهم «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام؟»[٩] ولَامَهم بقية الشعب على فعلتهم لأنها ستجلب عليهم متاعب لا حصر لها من القبائل الأخرى. فقالت قريش حين سمعت بالأمر: «قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال.»[١٠]

---

٨. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤٣ تحت عنوان «سرية عبد الله بن جحش»، بعث محمد كتابا مع عبد الله وطلب منه ألا يفتحه حتى يسير مسيرة يومين وحين فتح عبد الله الكتاب قرأ «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة، بين مكة والطائف، فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم.»

٩. نفس المصدر ٣: ٤٥.

١٠. نفس المصدر.

كثر الحديث عن الحادثة، وصار هناك قيل وقال، فلم يعد محمد يسيطر على الأمور، فكان لزاما أن يجد حلا. وفي هذه المرة سيقحم الوحي ليحل هذه المشكلة العويصة، فأتى بآية قرآنية تبرر ما حصل وتجعله حلالا. تقول الآية القرآنية: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ».[11] ويشرح معنى هذه الآية كاتب سيرة محمد، ابن إسحاق فيقول:

> أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهله، أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم.[12]

أي أن الله نفسه وافق على قتل الشخص الذي كان يقود القافلة، وعلى أسر الاثنين، ونهب ما في القافلة، حتى لو وقع في الشهر الحرام. فالقتل والأسر والنهب في نظر الله أيسر من كفر قريش بالله. خصوصا أنها منعت المسلمين من الإيمان به، وأخرجتهم من المسجد الحرام (أي الكعبة ومحيطها). فهذه الفتنة (فتنة المسلمين عن دينهم) عند الله أعظم من القتل الذي قام به المسلمون.

بعد هذا التبرير قام محمد بأخذ الأسيرين ونصيبه من الغنيمة. ثم طالب بمبادلة الأسرى بمسلمين ما زالوا عالقين في مكة، وكان من شروط المبادلة ألا يطلق محمد أي أسير حتى يأتي صاحباه ويصلا المدينة حيث قال لهم: «فإن تقتلوهما، نقتل صاحبيكم».[13] ويبدو أن محمدا لم يف بوعده حيث إن كاتب السيرة يقول إن واحدا من الأسيرين أسلم، فأبقاه محمد عنده،

١١. سورة البقرة، الآية ٢١٧.
١٢. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤٥ سرية عبد الله بن جحش، تحت عنوان «القرآن يقر ما فعله ابن جحش».
١٣. نفس المصدر ٣: ٤٦.

وأعاد لهم الثاني.[١٤] كان تصرف عبد الله بن جحش حين قسم الغنيمة تصرفا معروفا بين قطاع الطرق، حيث يأخذ زعيم العصابة الخمس بينما يتقاسم بقية المقاتلين ما تبقى (أربعة أخماس) بينهم. وبعد هذه الحادثة بمدة، أتى محمد بآية قرآنية تجعل هذا العرف بين قطاع الطرق وحيا ربانيا وتشريعا إلهيا وحكما إسلاميا ما زال ساري المفعول بين المجاهدين إلى اليوم. «وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ.»[١٥] ظل محمد بعد هذا الاعتداء مترقبا لأخبار قريش لكي يحصل على فرصة للانتقام منهم بإحداث مزيد من الأذى بهم، والاستيلاء على المال والموارد لأصحابه الذين لا يشتغلون أية حرفة تذكر سوى كونهم مسلمين، يقعدون بضعة أسابيع ثم يغيرون على القوافل والتجار ولاسيما أبناء قبيلتهم.

دوافع وأحداث غزوة بدر

لم يمض على الحادثة أكثر من شهر ونصف الشهر حتى سمعوا بأخبار قافلة تجارية كبيرة لقريش. تقول أقدم سيرة لمحمد:

> ثم إن رسول الله (ص) سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلا من الشام في عير لقريش عظيمة، فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم، وفيها ثلاثون رجلا من قريش أو أربعون.[١٦]

إنها فرصة عظيمة لمحمد وأصحابه. فإذا استطاعوا الحصول على هذه الغنيمة، فستغنيهم عن الحاجة إلى الأنصار. وستكون هذه القافلة بمنزلة عملية سطو كبرى تخدم غرضين: أن تنتقم لمحمد من قبيلته بحيث تكبدهم خسائر فادحة في تجارتهم فتضعفهم، وأن توفر مالا وفيرا لأصحابه تعفيه

١٤. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤٦.
١٥. سورة الأنفال الآية ٤١.
١٦. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤٨، غزوة بدر الكبرى.

من ضغوط الاهتمام باحتياجاتهم. لذلك، ما إنْ سمع محمد بأخبارها حتى استنفر أصحابه قائلا: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله يُنْفِلُكُموها.»[١٧] وبطبيعة الحال، ينبغي أن يكون الله جزءا من المعادلة. فقد برر الله له الغزوة الماضية، ولعله هذه المرة أيضًا يعطيهم هذه القافلة وييسر لهم الاستيلاء عليها.

لم يكن محمد ينظر إلى غزواته على أنها عمليات سطو، بل كان ينظر إليها على أساس أنها عمل إلهي مقدس.. «جهاد» في سبيل الله. لكن يبدو أن بعض أصحاب محمد لم يتحمسوا للأمر في بدايته، بل كرهوه. وهنا لم يكن محمد مسرورا بذلك، فنزلت آيات قرآنية تلوم أتباعه على ذلك التصرف. يقول القرآن في هذا الصدد: «كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ».[١٨] أحسَّ أتباع محمد بأنهم كانوا يساقون إلى الموت. فلن تكون كل مرة كسابقاتها. فمن المؤكد أن قريشا تعلمت درسا قاسيا من السرية السابقة، ولن تترك قافلتها دون حراسة. إذ ستدافع عن شرفها وعن تجارتها ضد محمد وأصحابه. كان كل هذا في اعتبار أتباعه، لذلك كرهوا القتال. كانوا يريدون الغنائم السهلة. كانوا يريدون الغنيمة من دون شوكة القتال.

وصلت أخبار خروج محمد وأصحابه للتعرض للقافلة إلى صاحب القافلة، وهو سفيان بن حرب، فغيّر طريقه مستعينا بخبير طرق ومسالك، وبعث في الوقت نفسه رسولا إلى قومه يدعوهم للخروج دفاعا عن تجارتهم ضد محمد وأتباعه. وصل الخبر إلى محمد وعصابته، كانوا يفضلون الحصول على الغنيمة بلا مواجهة حربية، ولذلك وصفهم القرآن بهذا الوصف في سورة أتى بها محمد خصيصا لوصف الكثير مما جرى قبل غزوة بدر وأثناءها.

١٧. نفس المصدر.
١٨. سورة الأنفال آيات ٥ و ٦.

تقـول الآيـة: «وَإِذْ يَعِدُكُـمُ اللهُ إِحْـدَى الطَّائِفَتَـيْنِ أَنَّهَـا لَكُـمْ وَتَـوَدُّونَ أَنَّ غَـيْرَ ذَاتِ الشَّـوْكَةِ تَكُـونُ لَكُـمْ وَيُرِيـدُ اللهُ أَن يُحِـقَّ الْحَـقَّ بِكَلِمَاتِـهِ وَيَقْطَـعَ دَابِـرَ الْكَافِرِيـنَ.»[١٩] قـال الطـبري وهـو مـن أهـم كبـار مفسري القـرآن في القـرون الأولى للإسـلام[٢٠] في هـذه الآيـة: «تـودّون أن تكـون لكم العير التـي لـيس فـيها قتال لكـم دون جماعـة قريـش الذيـن جـاءوا لـمنع عيرهـم الذيـن فـي لقائهـم القتال والـحرب.»[٢١] لقـد أغراهـم محمـد بالمـال وبسـهولة الاسـتيلاء على القافلـة خصوصا أن عددهـم كمقاتلـين يفـوق الثلاثمئـة بينمـا كان عـدد المرافقـين للقافلـة بـين ٣٠ إلى ٤٠ شـخصًا. ويعـني هـذا أن عـدد مقاتـلي محمـد يفـوق عـشرة أضعـاف عـدد المرافقـين للقافلـة. كانـت القافلـة طريـدة سـهلة لهـم.

يقـول لنـا الطـبري مـرة أخـرى إن محمـدًا «نـدب أصحابـه، وحدثهـم بـما معهـم مـن الأمـوال وبقلـة عددهـم. فخرجـوا لا يريـدون إلاَّ أبـا سفـيان، والركب معه لا يرونهـا إلاَّ غنيـمة لهـم، لا يظنـون أن يكـون كبـير قتـال إذا رأوهم.»[٢٢]

كـره أصحـاب محمـد المواجهـة لأسـباب كثـيرة، أولهـا أن الأمـر يتعلـق بقتـال، وثانيهـا أن بعضهـم سـيضطر إلى محاربـة أفـراد مـن عائلتـه، وثالثهـا أنهـم ليـس لهـذا خرجـوا أول الأمـر. أفلتـت القافلـة، حيـث اسـتطاعت الالتفـاف مـن طريـق آخـر والوصـول سـالمة إلى القبيلـة. لكـن جيـش القبيلـة كان قـد خـرج للقـاء محمـد الذي صـار بـين خياريـن: أن يعـود خـاوي الوفـاض كمـا حصـل في الكثـير مـن المـرات الماضيـة فيصـير أضحوكـة أمـام النـاس، فتـدعي قريـش أن محمـدا خـاف مـن جيشـها وجَـبُنَ، أو أن يواجـه الجيـش القريـشي رغـم أن هـدف الغـزوة قـد أفلـت منـه على كل حـال. كان القـرار صعبًـا، وممـا زاده صعوبـة أنهـا المـرة الأولى الـتي خـرج فيهـا معـه الأنصـار. خرجـوا وهـم يشـكلون

١٩. سورة الأنفال، الآية ٧.
٢٠. القرن الثالث والرابع الهجري، والتاسع والعاشر الميلادي.
٢١. تفسير الطبري ٩: ١٢٦، لسورة الأنفال الآية ٧.
٢٢. نفس المصدر.

أكثر من الثلثين. أراد محمد أن يتأكد من أن الأنصار معه في قراره. وكانت الرغبة في الانتقام وإذلال قبيلته تأكله والحاجة إلى المال تؤرقه. فحاول قدر الإمكان أن يقنعهم، ووضعهم في نهاية الأمر أمام الأمر الواقع. فتحولت مغامرة حربية للاستيلاء على الأموال إلى رغبة في المواجهة والقتال.

يقول الطبري مفسر القرآن: «خاف [محمد] أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلاَّ ممن دهمه بالمدينة من عدّوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ من بلادهم.»[٢٣] لذلك لم يواجههم بالسؤال مباشرة، كان الأمر محرجا، أخذ يلف ويدور ويدعي أنه يطلب المشورة في قراره، فقال: «أشيروا علي أيها الناس.»[٢٤] فَطِنَ الأنصار إلى القضية، عرفوا أنه يقصدهم، وأنه متردد لأنه لا يعرف إن كانوا معه في ما تمادى فيه أم أنهم معه فقط في الدفاع عن نفسه. لكن يبدو أنهم كانوا معه ليس في هجومه على القوافل فحسب بل في الهجوم على قبيلته ومواجهتها حربيا. فقال أحدهم اسمه «سعد بن معاذ» متحدثا نيابة عن جميع الأنصار:

> لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجَلْ». قال: فقد آمنّا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحقّ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحقّ إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن يلقانا عدوّنا غدا، إنا لصُبُر عند الحرب، صُدُق عند اللقاء.[٢٥]

فرح محمد بجواب سعد، واستبشر خيرًا.

---

٢٣. نفس المصدر.

٢٤. نفس المصدر.

٢٥. تفسير الطبري ٩: ١٢٦، لسورة الأنفال الآية ٧.

لقد ضمن له سعد بن معاذ مساندة رجال الأوس والخزرج المحاربين الأقوياء. فأسماؤهم تدل على ذلك. فالأوس كلمة عربية تعني الذئاب، بينما تعني الخزرج الأسَد. استعان محمد بمئتين وواحد وثلاثين من الذئاب والأسود، ذئاب الحرب وأسودها، إنها الحرب إذن! صاح محمد في أتباعه: «سِيرُوا على بَرَكَةِ اللهِ وأبْشِرُوا، فإنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَنِي إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللهِ لَكأنِي أنْظُرُ الآنَ إلى مَصَارِعِ القَوْمِ غَدا.»[٢٦] لقد استطاع محمد أن يقنع المهاجرين والأنصار بالقتال، كانت هذه أول حرب حقيقية في تاريخ الإسلام. فلم تكن تلك الغارات والمناوشات السابقة لها تُذكر مقابل هذه المعركة التي سميت لاحقا غزوة بدر الكبرى.[٢٧] لم يكن القتال محببا لأصحاب محمد في بادئ الأمر، لذلك جاء القرآن مؤكدا لهذه الحقيقة: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ».[٢٨] لقد كان القتال مكروها عندهم كما هو عند باقي البشر، لكن الله (عن طريق محمد أو العكس) فرضه عليهم فرضا رغم كرههم له، لأن الله يعلم ما فيه الخير لهم وهم بطبيعة الحال لا يعلمون.

اقتربت المواجهة بين الفريقين، محمد ومهاجروه وأنصاره من جهة، وجيش من قبيلته الأم من جهة أخرى: آباء سيواجهون أولادهم، وإخوة سيواجهون إخوانهم، وأقارب سيحاربون أقرباءهم، وكله أمر من الله حتى لو كان كرْها لأصحاب محمد. كان جيش محمد يتقدم لملاقاة جيش قريش يحمل رايتين سوداوين، إحداهما يحملها علي ابن عمه وتسمى العُقاب،[٢٩] وهذه الراية هي التي نراها اليوم عند تنظيم الدولة وعند القاعدة وعند بوكو حرام والكثير

---

٢٦. تفسير الطبري ٩: ١٢٦، لسورة الأنفال الآية ٧.
٢٧. سميت غزوة بدر نسبة للمكان الذي حصلت فيه.
٢٨. سورة البقرة آية ٢١٦
٢٩. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٥٤، باب «ذكر رؤيا عاتكة بنت عبدالمطلب»، تحت عنوان «رايتا الرسول».

من الجماعات الإسلامية. ليست الراية السوداء راية من اختراع القاعدة كما يعتقد بعضهم، بل هي راية محمد. والجماعات الإسلامية إنما تنفذ سنة محمد في الحرب، راية سوداء تتبعها الدماء والأشلاء. بل لهذه الراية حتى في شكلها[٣٠] وكتابتها التي تحملها أيضا أصل في الإسلام. فهي ثلاثة أسطر من أسفل إلى أعلى «محمد، رسول، الله».[٣١] وأثناء الاستعدادات، ألقى أصحاب محمد القبض على شابين كانا يستسقيان الماء لبعض أفراد جيش قريش، فسألهما عن عدد الجيش. ولمّا كانا لا يعرفان العدد بالضبط سألهما عن كمية الذبائح من الإبل التي يذبحونها يوميا، فأخبراه أنهم يذبحون بين تسع أو عشر ذبائح. فقدّر محمد بناء على ذلك عددهم بين تسعمائة أو ألف شخص خرجوا للدفاع عن قافلتهم. وحين سمع أسماء أهم الأفراد الذين خرجوا للقتال، قال لأصحابه «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.»[٣٢]

تقول الروايات الإسلامية إن قريشا لم تشأ العودة بعد نجاة القافلة، بل أصر أحد زعمائها واسمه أبو الحكم على أن يستمروا في المسير حتى يصلوا بدرا فيقيمون فيه ثلاثة أيام. قال: «فننحر الجُزُر،[٣٣] ونُطعم الطعام، ونُسقي الخمر، وتعزف علينا القِيَانُ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها، فامضوا.»[٣٤] لقد أرادوا أن يظهروا شهامتهم ويفتخروا بها. ولعلهم لم يتوقعوا أن تحصل المواجهة بعد أن نجت القافلة. لقد كان همهم الاحتفال والتفاخر. ومن المؤسف أن حب المباهاة وحب التفاخر عادة عربية إلى اليوم، وقد يكون في التفاخر مبالغة لا تعكس الحقيقة. يذكّرني الأمر بسنة ٢٠٠٣ حين غزت القوات الأمريكية العراق،

---

٣٠. جاء في سنن الترمذي أنها كانت عبارة عن قطعة قماش «كانَتْ سَوْدَاءَ مُربَّعَةً مِنْ نَمِرَةٍ»، سنن الترمذي ٥: ٢٦٦، باب «ما جاء في الرايات».

٣١. جاء عن خاتم النبي محمد الذي كان يمضي به ويمضي به الخلفاء من بعده «وَكَانَ نَقْشُ الْخَاتَمِ ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ. مُحَمَّدٌ سَطْرٌ، وَرَسُولُ سَطْرٌ، وَاللهِ سَطْرٌ.» صحيح البخاري ٥: ٢٢٠٥، وأيضا ٣: ١١٣١، كتاب اللباس، باب «هَلْ يُجْعَلُ نَقْشُ الْخَاتَمِ ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ».

٣٢. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٦٠، تحت عنوان: «ظفر المسلمين برجلين من قريش يقفانهم على أخبارهم».

٣٣. الجزر هي الإبل، جاء في لسان العرب: والجَزُورُ: الناقة المَجْزُورَةُ، والجمع جزائر وجُزُرٌ.

٣٤. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٦١. تحت عنوان: «أبو سفيان يرسل إلى قريش يطلب منهم الرجوع».

كانت بطولات وزير الإعلام العراقي أيام صدام حسين محمد سعيد الصحاف، مادة هزلية للقنوات والصحف، كان يدلي بالتصريحات لوسائل الإعلام «خصوصا الجزيرة» متحدثا عن انتصارات وهمية وهزيمة نكراء ألحقتها القوات العراقية بالقوات الأمريكية بينما كانت بغداد على وشك السقوط خلفه.

اقتربت المواجهة. أشار أحد أصحاب محمد عليه أن ينزل بجانب الماء ويُغَوِّر باقي المياه المجاورة بحيث لا يترك إلا بئرا واحدة، وأن يبنوا حوضا يشربون منها حين تشتد الحرب بينما يعطش العدو.[٣٥] ومن الواضح أن الجو كان حارا جدا في هذا الوقت من السنة، لعله الصيف. والعطش قاتل في شبه الجزيرة العربية في هذا الوقت بالتحديد. كانت خطة ذكية. فما أن بدأت المعركة حتى أتت الخطة أُكْلها.كان حوالي ثلاثمائة مقاتل جاهز للانتقام، مقابل حوالي ألف شخص كانوا في احتفال وخمر ورقص .. ثلاثمائة شخص ناموا[٣٦] واستعدوا للمعركة ولديهم الماء، بينما العدو لم ينتبه إلى خطتهم، ولم ينتبه إلى أنهم أفسدوا باقي الآبار. فالعربي يقدس الماء، لذلك لم يدر بخلدهم أن أخلاق العدو ستصل إلى هذه الدرجة من الانحطاط بحيث يقتلهم عطشا قبل أن يجهز عليهم بسيفه. هناك أخلاق حتى في الحرب، لكن يبدو أن الأخلاق كانت آخر همٍّ لدى محمّد. فقد خرق مواثيق العرب التي كانت تسري على كل القبائل، وهي احترام الأشهر الحرم، فكيف سيحترم باقي الأعراف؟

رأى أحد القرشيين جيش محمد وتفحصهم عن قرب ثم رجع إلى قومه بتقرير مفزع:

---

٣٥. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٦٣. تحت عنوان «الحُباب يشير على الرسول (ص) بمكان النزول».

٣٦. يصف القرآن نوم جيش المسلمين على أنه بركة إلهية من السماء «إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ» سورة الأنفال الآية ١١.

قـد رأيـت، يـا معـشر قريـش، البلايـا تحمـل المنايـا، نواضـح يـثرب تحمـل المـوت الناقـع، قـوم ليـس معهـم منعـة ولا ملجـأ إلا سـيوفهم، والله مـا أرى أن يقتـل رجـل منهـم، حـتى يقتـل رجـلا منكـم، فـإذا أصابـوا منكـم أعدادهـم فمـا خـير العيـش بعـد ذلـك فَـرَوْا رأيكـم.[٣٧]

لقـد كان جليـا أنـه كان لدى أصحـاب محمـد ثـأر .. حقـد دفـين .. كراهيـة. اشـتهوا شـهوة أن ينتقمـوا بقـوة مـن قريـش. كانـوا أشـخاصًا يتطايـر الـشرر مـن عيونهـم، تمامـا مثلمـا نـرى اليـوم في مقاتـلي تنظيـم الدولـة. فهـم أشـخاص تخلـوا عـن إنسـانيتهم، وامتـلأوا رغبـة في القتـل والانتقـام. قـام بعـض الوجهـاء يخطبـون في جيـش قريـش، أحدهـم أشـار إلى نقطـة مهمـة. قـال إنـه «حـتى لـو قاتلنـا محمـدا وغلبنـاه، فـإن أحدنـا لـن يسـتطيع أن ينظـر في وجـه الآخـر بعـد ذلـك، لأنـه مـن المؤكـد قـد يقتـل أحدنـا ابـن عـم آخـر أو ابـن خـال أحدنـا أو ابـن عشـيرته.»[٣٨] لقـد كان يتحـدث عـن مشـاعر إنسـانية، كيـف يسـتطيع المـرء أن ينظـر في وجـه امـرئ آخـر إن قتـل له ابـن خـاله أو ابـن عمـه، حـتى لـو كان هـذا ابـن العـم أوالخـال مـن أتبـاع محمـد. فالعـرب كانـوا يقـدرون رابطـة القرابـة، لكـن محمـدا قطـع أواصر القرابـة ووضـع محلهـا أواصر الديـن.

بـدأ القتـال والـنزال، وتقارعـت السـيوف. تقـول الروايـات الإسـلامية إن قتـلى القرشـيين كانـوا سـبعين، والأسرى منهـم أيضـا كانـوا سـبعين[٣٩]، بينمـا قُتـل مـن أصحـاب محمـد أربعـة عـشر شـخصا، سـتة مـن المهاجريـن وثمانيـة مـن الأنصـار.[٤٠] قـام محمـد بطلـب فديـة مقابـل كل أسـير أربعـة آلاف درهـم.[٤١] وهي مبالـغ طائلـة في ذلـك الزمـن، حيـث كان كل مـن حصـل على خمسـين درهمـا

٣٧. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٦٤. تحت عنوان «محاولة قريش الرجوع عن القتال»
٣٨. نفس المصدر ٣: ٦٥.
٣٩. نفس المصدر ٣: ١٧٤، عدد من قتل من المشركين يوم بدر.
٤٠. نفس المصدر ٣: ١٦٤-١٦٦، من استشهد من المسلمين يوم بدر.
٤١. نفس المصدر ٣: ١٠٠.

في السنة فقد تخطى عتبة الفقر ولم يعد يستحق المساعدة. كان خمسون درهما سنويا الحد الأدنى للأجور.[٤٢] حصل محمد مقابل كل أسير على ما يكفي ثمانين شخصا لمدة سنة. وفي المجموع ما يكفي أكثر من خمسة آلاف شخص لمدة سنة. لقد اغتنى محمد وأصحابه من هذه الغزوة، لم يعودوا بعدها في حاجة إلى عطف الأنصار.

كيف تعامل محمد مع الأسرى؟

لم يطلب محمد فدية للأسرى كلهم. إذ قتل بعضهم بينما كان في طريق العودة للمدينة. قتل شخصا اسمه النضر بن الحارث وأوكل مهمة القيام بعملية القتل بالسيف لعلي ابن عمه.[٤٣] ثم بعد مسافة أخرى من السير، أمر بقتل أسير آخر اسمه عقبة بن أبي مُعَيط. توسل عقبة لمحمد محاولا استدرار الرحمة من قلبه، وهو الذي قال عنه القرآن: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين».[٤٤] يقول ابن إسحاق أقدم كاتب للسيرة النبوية: «فقال عقبة حين أمر رسول الله (ص) بقتله: فمن للصبية يا محمد؟ قال: النار.»[٤٥] كان من المتوقع أن يرق قلب محمد لرجل يتوسل إليه طالبا منه أن يشفق على حال أولاده من الصبية الذين سيبقون بعده أيتامًا. وكأنه يقول له: إن لم يكن من أجلي فمن أجل أطفالي. من سيكون لهم ومن سيتكفل بهم؟ فقال له محمد بدم بارد: «النار». النار هي التي ستتكفل بهم، سيحرقون معك في جهنم لأنهم كفار مثلك، ثم أمر بقطع رأسه.

---

٤٢. قال محمد «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ ولَه ما يُغْنِيهِ جَاءَ يَوْمَ القِيامةِ ومَسْأَلُتهُ في وجْهِهِ خُمُوشٌ أو خُدُوشٌ أَو كُدُوحٌ» قِيلَ يا رَسُولَ الله وما يُغْنِيهِ؟ قال «خَمْسُونَ دِرْهَماً أو قِيمَتُهَا مِنَ الذهَبِ». سنن الترمذي ٣: ٢٧٠، كتاب الزكاة، باب «من تحل له الزكاة».

٤٣. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٩٣، «قال ابن إسحاق: حتى إذا كان رسول الله (ص) بالصفراء قتل النضر بن الحارث، قتله علي بن أبي طالب، كما أخبرني بعض أهل العلم من أهل مكة.»

٤٤. سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

٤٥. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٩٣.

لماذا قتل محمد بعض الأسرى وقبل الفدية في آخرين؟ قتل محمد النضر بن الحارث لأنه كان غريما له، كان منافسا له حين كان في مكة، كان رجلا خبيرا في قصص وأساطير الأولين، يعرف القصص الفارسية والأساطير اليونانية. فحين كان يجلس محمد ويحدث، كان يأتي النضر ويخبرهم بأن هذه القصص ما هي إلا أساطير نقلها محمد من القدماء. بل كان يحكي لهم قصصا وأساطير أفضل منها، ثم يقول لهم بتهكم:

> أنا والله يا معشر قريش، أحسن حديثا منه، فهلم إلي، فأنا أُحَدِّثُكُمْ أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثا مني؟[٤٦]

بل إن القرآن نفسه يرد على النضر بن الحارث ويذكر أقواله «إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ».[٤٧] لقد انتقم منه محمد ليشفي غليله، لقد كان لديه ثأر شخصي لدى النضر. كان محمد مستعدًا لأن يحتمل كل شيء إلا أن يتهكم شخص على أقواله، ويطعن في نبوته، ويجعل قصصه محل استهزاء وسخرية. أما عقبة بن أبي معيط، فكان هو الآخر من أشد معارضي محمد. فقد كان يأتي ليسأله الأسئلة العويصة ليعجزه وليظهر للناس أنه نبي كذاب.[٤٨] وذات مرة تفل في وجه محمد،[٤٩] وفي مرة أخرى ألقى على كتفيه أثناء صلاته بقايا المشيمة (تسمى سَلَا) التي تخرجها الناقة عندما تلد، فأخذ القوم يضحكون ويستهزئون.[٥٠] يبدو أن الرغبة في الانتقام هي الدافع الأساسي في قتل هذين الشخصين وعدم مبادلتهما مع قريش مقابل فدية كما فعل مع باقي الأسرى.

٤٦. السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٥٢.
٤٧. سورة القلم الآية ١٥ .
٤٨. السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٤٣٠، أتى مثلا ليسأله عن قصة ذي القرنين بتوصية من بعض اليهود كما يقول ابن إسحاق.
٤٩. السيرة النبوية لابن هشام ٢: ١٤٧.
٥٠. صحيح مسلم ١٢: ١١٩، كتاب الجهاد والسير، باب «ما لقي النبّي من أذى المشركين والمنافقين».

استشار محمد أصحابه في باقي الأسرى قبل أن يقرر ما الذي يعمل فيهم، سألهم:

> ما تَقُولُونَ في هَؤُلاءِ الأسْرَى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك، استبقهم واسْتَأْنِ[٥١] بهم، لعلّ الله أن يتوب عليهم وقال عمر: يا رسول الله كذّبوك وأخرجوك، قدّمهم فاضرب أعناقهم وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، انظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه، ثم أضرمه عليهم نارا.[٥٢]

أجوبة تدل على مدى قساوة قلوب بعض أتباع محمد. سكت محمد، ثم بعد ذلك أخذ برأي أبي بكر وطلب الفدية مقابل رؤوسهم. ثم حين أخذ المال ادعى أن الله أنزل عليه آية توافق ما قاله عمر، تقول الآية: «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».[٥٣] يعني أن الله كان غاضبا من محمد وأبي بكر أنهما اتخذا قرار الفدية. فكان عليهما في الأول أن يشبعا الأرض قتلا ويروياها من دماء الكفار. فما كان على المسلمين أن يبقوا الأسرى، كان عليهم أن يقتلوا كل الأسرى الكفار. وبعد هذه الآية القرآنية، بكى محمد وأبو بكر ندما على عدم قتلهما لكل الأسرى.[٥٤] يبدو أن محمدا كان محتارا بين المال والقتل انتقاما. وعندما أخذ المال، ندم على ذلك وتمنى لو أنه قتلهم وانتهى منهم. ولذلك لام نفسه في القرآن على هذا التصرف. فالقرآن هو ضمير محمد، وقد أنبه ضميره أنه أراد الدنيا «المال»، إذ كان عليه أن يفضل الجانب الإيماني بـ «قتل الكفار» على الجانب المالي.

---

٥١. اسْتَأْنَيْتُ بفلان أي لم أُعْجِله. ويقال: اسْتأْنِ في أَمرك أَي لا تَعْجَل؛ (لسان العرب).
٥٢. تفسير الطبري ١٠: ٣٢، لسورة الأنفال آية ٦٧.
٥٣. سورة الأنفال، الآية ٦٧.
٥٤. تفسير الطبري ١٠: ٣٢، لسورة الأنفال ٦٧.

داعش والأسرى بين الذبح والفدية

هنا تبرز قاعدة مهمة ما زالت تقوم بها الجماعات الإسلامية بما فيها تنظيم الدولة. فهي تفضّل قتل الأسرى على المفاداة. وقد تضطر إلى الفداء في الحالات الضرورية القصوى، مثل الاحتياج المُلح إلى المال أو مصلحة معينة مهمة للغاية. فقد بادل تنظيم الدولة تسعة وأربعين شخصا من الرهائن الأتراك الذين أسرهم حين دخل، في شهر يونيو ٢٠١٤، مدينة الموصل.[٥٥] وما كانت هذه العملية لتتم لولا أن الحكومة التركية قدمت وعودا وتنازلات ومساعدات لتنظيم الدولة. فموقع تركيا الإستراتيجي وتسهيل دخول المقاتلين الأجانب وتسهيل تهريب النفط والسلع للأراضي التي يسيطر عليها تنظيم الدولة كانت هي الأساس الذي قرر بناء عليه أن يطلق سراح الرهائن. إنها المصلحة العليا للدولة الإسلامية. أما باقي الرهائن، ولاسيما الأمريكان، فليس لهم إلا الذبح، ويتم استغلالهم بطريقة بشعة في البروبوغاندا الإعلامية، ثم يتم ذبحهم بدم بارد، مثلما ذبح محمد بدم بارد أولئك الذين طالما استهزؤوا به. فتنظيم الدولة، مثل كل الجماعات الإسلامية يعدّ أمريكا العدو الأول، ويرغب في ذبح أي أمريكي يسقط بين أيديهم ويتباهى أمام العالم كله بذبحه.

تابعت مثل الملايين من المشاهدين ما قالته شيرلي سوتلوف والدة الصحفي ستيفن سوتلوف الذي ذهب لتغطية الحرب في سوريا فإذا به يسقط ضحية في أيدي التنظيم. قالت متوسلة للبغدادي كي يفرج عن ابنها «أسألك أن تستخدم سلطتك لإنقاذ حياته وأن تتبع المثال الذي وضعه الرسول محمد؟»[٥٦] أشْفقتُ على هذه المرأة المسكينة التي دفعها شعورها اليائس كأم إلى كتابة هذه الرسالة. ولكنها لا تعرف المسكينة، كغالبية الشعوب الغربية، أن البغدادي إن أراد أن يقتدي بالنبي سيذبح أبناءها كلهم بدم بارد كما ذبح

---

٥٥. العربية نت، تحت عنوان «الإفراج عن كل الرهائن الأتراك الأسرى لدى داعش».
٥٦. بي بي سي تحت عنوان «والدة الرهينة الأمريكي تناشد تنظيم «الدولة» الافراج عنه».

النضر وعقبة، وسيقول لكم ما قاله عن أولاد عقبة، لكم: «النار». هذا هو المثال الواضح الحي الذي وضعه له النبي محمد. وتكمن المشكلة في أن الناس في الغرب يتعاملون بنوع من السذاجة مع عقول عُجِنَت بالسيرة النبوية ولا تقيم أي اعتبار للمشاعر الإنسانية لمن تَعُدّهم كفارا. فهؤلاء يتبعون الشريعة الإسلامية ويتبعون ما قاله النبي أو فعله أو أمر به. ولا تهمهم معاهدة جنيف في معاملة الأسرى، ولا يهمهم صراخ أم ولا أخت. بل يهمهم أن يمشوا في خطى محمد فحسب.

لقد قاد محمد حرب غزوة بدر وجعل فيها الآباء يحاربون أبناءهم، والأولاد يحاربون آباءهم، والأخ يحارب أخاه، بل أدخل آية قرآنية توصي بذلك: «لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ.»[٥٧] «نزلت» هذه الآية خصيصا بمناسبة هذه الحرب. فأبو عبيدة الجراح، وهو من أصحاب محمد الكبار، قتل أباه في غزوة بدر. وهمّ أبو بكر الصديق بقتل ابنه عبد الرحمن. وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير. وقتل عمر بن الخطاب قريبا له. وقتل حمزة عم محمد وعلي ابن عمه أيضا أقرباء لهما.[٥٨] فإذا كان محمد قد قاد أصحابه لقتل أقرب المقربين من عائلاتهم، فلا أعتقد أن البغدادي سيشفق على أمريكية كافرة في نظره حتى لا يذبح ابنها ويطلقه دون أن يسفك دمه. هذه هي الحقيقة المرة التي لا يريد الناس في الغرب إدراكها، أن سلطة محمد على أصحابه كانت أقوى من قوة علاقة الدم مع أقربائهم، وأن سلطة سيرته على عقول أتباعه، إن أرادوا أن يقلدوها حرفيًّا، أعلى وأقوى من المشاعر الإنسانية التي يعتمدون عليها في استدرار عطفهم.

بعد أن نشر التنظيم فيديو ذبح الصحفي ستيفن سوتلوف يوم ٢ سبتمبر ٢٠١٤، قام ناطق باسم أسرة سوتلوف يدعى باراك بيرفي، بتلاوة رسالة على

٥٧. سورة المجادلة الآية ٢٢.
٥٨. تفسير ابن كثير ٨: ٨٦، للمجادلة ٢٢.

وسائل الإعلام نيابة عن الأسرة متحديا زعيم تنظيم الدولة في مناظرة حول ما إذا كان القرآن يوصي بالعنف أم لا. ومن جملة ما قاله موجها كلامه لزعيم التنظيم، البغدادي: «قُلتَ إن رمضان شهر رحمة، فأين رحمتك؟»[٥٩] لا يعرف المسكين هو الآخر عن الإسلام إلا ما يقوله المدافعون المجمِّلون لصورته. ولا يعلم أن غزوة بدر التي ذبح فيها الابن أباه، والأخ أخاه، والقريب قريبه جرت في شهر رمضان شهر الرحمة والغفران. وما زال المسلمون حتى اليوم يحتفلون بغزوة بدر، التي كانت «مجرد غارة على قافلة مسالمة» على أساس أنها نصر رباني يوم السابع عشر من رمضان كل سنة. وبمناسبة هذه الغزوة «نزلت» آيات عنف كثيرة في القرآن منها هذه الآية: «إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ.»[٦٠] إنها آية صريحة يوضح فيها القرآن أن الله بعث الملائكة لتساند الغزاة في بدر حتى يضربوا الأعناق ويقطعوها بالسيوف ويقطعوا الأطراف من الجسد. وما لا يعرفه باراك بيرفي أن شهر رمضان أيضا هو الذي حصل فيه أكبر هجوم قام به محمد على قبيلته حين عاد إلى مكة بجيش جرار قوامه حوالي عشرة آلاف مقاتل.

عاد محمد إلى قبيلته التي تربى فيها، بين قومه وأهله. ومع ذلك، أعطى أوامره قبل أن يدخلها قائلا لأصحابه:

> يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، هَلْ تَرَوْنَ أَوْبَاشَ قُرَيْشٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: انْظُرُوا. إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ غَداً أَنْ تَحْصِدُوهُمْ حَصْداً، وَأَخْفَى بِيَدِهِ. وَوَضَعَ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ... فَمَا أَشْرَفَ يَوْمَئِذٍ لَهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ أَنَامُوهُ.[٦١]

٥٩. موقع سي إن إن بالعربية، تحت عنوان «ناطق باسم أسرة سوتلوف يتحدى البغدادي...».
٦٠. سورة الأنفال الآية ١٢.
٦١. صحيح مسلم ١٢: ١٠١، كتاب الجهاد والسير، باب «فتح مكة».

هل يعتقد السيد بيرفي أن الذي لم يشفق على قبيلته، بل أمر أتباعه بأن يحصدوهم حصدا، سيشفق على يهودي أمريكي مثل ستيفن سوتلوف؟ إنه في نظر البغدادي وأتباعه مجرد يهودي كافر يستحق القتل. استشهد السيد برفي في رسالته أيضا بآية قرآنية ليقول للبغدادي إن القرآن كتاب سِلْم، وتلاها باللغة العربية، تقول الآية: «وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ».[٦٢] لكنه لا يعرف سبب «نزول» هذه الآية ولا ظروفها. فلو كانت الآية تنهى عن الاعتداء، لماذا اعتدى محمد على قافلة قريش إذن؟ ألا يشبه ذلك ما يفعله القراصنة اليوم؟ هل قاتلته القافلة ؟ ألم تهرب القافلة منه؟

ما لا يعرفه السيد بيرفي أن الآية التي استشهد بها تنطوي على مشكلتين: الأولى أنها لا تصلح في حالة ستيفن سوتلوف، لأنه أمريكي إسرائيلي، فهو من دولتين عدوتين للدولة الإسلامية. فهو عدو بالانتماء والجنسية، وهو من أعداء الإسلام. إذن يدخل في الإطار الذي سمته الآية في بدايتها «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم». فبما أنه من الدولة المقاتلة، تجوز مقاتلته وقتله. والمشكلة الأخرى هي أن كلمة «لا تعتدوا» لا تفيد عدم قتل الأسرى أمثال الصحفي سوتلوف أو غيرهم، بل المقصود بها أن «لا تقتلوا النساء ولا الصبيان ولا الشيخ الكبير».[٦٣] يظهر واضحا أن اقتباس السيد بيرفي في غير محله، وأمثال بيرفي كثيرون. فرغم رؤيتهم لبشاعة ما يقوم به تنظيم الدولة، لا يدركون بعد الرابط بين تلك البشاعة والإسلام. فهم يقتبسون من هنا وهناك دون أن ينظروا إلى سيرة محمد كلها ليروا إن كان ما يقوم به البغدادي يتماشى كليا مع ما قام به محمد أم أنه منسلخ عنه تماما. لقد أساء صديق سوتلوف إلى ذكرى صديقه، لأنه عوض أن ينصفه

---

٦٢. سورة البقرة الآية ١٩٠.

٦٣. تفسير الطبري للبقرة الآية ١٩٠ ، ٢: ١١١.

ويبحث عن الأسباب الحقيقية التي دفعت تنظيم الدولة إلى الذبح، قام بمهمة الدفاع عن الإسلام دون أن يدري.

يحمل البغدادي زعيم تنظيم الدولة درجة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية، ويعرف أن شهر رمضان رحمة «للمسلمين» لا لغيرهم، ويعرف سياق الآيات القرآنية، ويعرف السنة والحديث. ومن المؤكد أن مجلسه من مستشاريه يعرفون ذلك أيضا، كما يعرف كثيرون من رجال الدين الذين التحقوا به الإسلام جيدا. ولذلك لا يمكن أن يسمحوا له بكسر القرآن أو الحديث. فما فعله يتماشى مع السيرة النبوية ومع وصايا محمد ومع آيات القرآن، ولذلك تجد الكثير من العمليات الإرهابية تتم في رمضان شهر الجهاد في سبيل الله. فعملية سوسة التي تبناها التنظيم في تونس والتي ضربت السياح الأجانب وكانت حصيلتها ٣٩ قتيلا و٤٠ جريحا حصلت في رمضان،[٦٤] وتم إعلان الخلافة في رمضان، كما أن تفجير مسجد الإمام الصادق في الكويت الذي خلف أكثر من ٢٥ قتيلا والذي تبناه التنظيم أيضا حصل في رمضان،[٦٥] إضافة إلى طرد المسيحيين من الموصل الذي تم في رمضان أيضا، والقائمة طويلة. فرمضان هو شهر الجهاد الإسلامي لا الرحمة التي يتصورها السيد بيرفي.

إن مشهد ذبح أي شخص مهما كانت جنسيته ولونه ودينه شيء فظيع. فمشاهد الذبح بصفة عامة مصورة في مقطع فيديو تؤرّق كثيرين فلا يذوقون النوم بعدها. بل إن القلب يتمزق من منظر كهذا، لكننا في العالم الإسلامي قرأناه في الكتب مرارا وتكرارا، بل احتفلنا به ومجدناه على أنه عمل نبيل وشجاع، ووعَظَنا الشيوخ به في المساجد، وكَبَّرُوا لأن الذبح والقطع سنة نبوية. ففي غزوة بدر التي تحدثنا عنها وقعت حادثة معروفة عند المسلمين. كان هناك شخص عدو لمحمد اسمه أبو الحكم، لكن محمدا كان يكرهه ويكره اسمه فسماه أبا جهل. جُرِحَ أبو الحكم

٦٤. العربية نت، «تونس.. «داعش» يتبني عملية سوسة الإرهابية».
٦٥. قناة الحرة، «داعش يتبنى تفجير مسجد الصادق بالكويت».

هـذا وسـقط أثنـاء المعركـة، فـأتى أحـد أصحـاب محمـد، واسـمه عبـد الله بـن مسـعود، فوجـده مـا زال حيـا، ووضـع رجلـه فـوق صـدره افتخـارا، كان عبـد الله بـن مسـعود غـير ذي قيمـة في قريـش، كان مجـرد راعي غنـم ولـم يكـن مـن سـادة القـوم، بينمـا كان أبـو الحكـم سـيدا كبـيرا في قبيلتـه، بـل لعمـق حكمتـه سُـمي أبـا الحكـم. عندمـا رأى أبـو الحكـم رِجـل راعي غنـم على صـدره بينمـا هـو ينـازع المـوت، عَـدَّ عملـه خسـة، فقـال له: «لقـد ارتقيـت مرتـقى صعبـا يـا رويـعي الغنـم.»[٦٦] حينهـا تنـاول ابـن مسـعود سـيفه وقطـع رأسـه، والرجـل ينظـر. يحـكي ابـن مسـعود مفتخـرا بحسـب كاتـب سـيرة محمـد: «احـتززت رأسـه ثـم جئـت بـه رسـول الله، فقلـت: يـا رسـول الله، هـذا رأس عـدو الله أبي جهـل.»[٦٧]

إن الذبـح سُـنة محمديـة، سنّها محمـد وجـاء بهـا القـرآن وتبعهـا أقـرب المقربـين مـن محمـد مثـل عبـد الله بـن مسـعود، ويعْلـم أعضـاء الجمـاعات الإسـلامية هـذا الأمـر. فأبـو محمـد المقـدسي الأردني، وهـو أحـد أهـم منظـري الجمـاعات الجهاديـة في العالـم، دافـع عـن الذبـح حـين قـام بـه الزرقـاوي في حـق الأمريكيـين خصوصـا نيـك بـيرغ. قـال المقـدسي في إحـدى خطبـه:

> إن حـزّ الـرؤوس هـو مـن هـذا الديـن، والذبـح والقتـل لأعـداء الله هـو مـن هـذا الديـن كمـا جـاء في سـيرة سـيد المجاهديـن وكمـا قـرّره عليـه الصـلاة والسـلام في جهـاده ودعوتـه لقومـه.[٦٨]

بـل إن محمـدا نفسـه قـد قـال لقومـه قريـش حـين كان مـا زال بينهـم وهـو يشـير بيديـه إلى عنقـه مهـددا بالذبـح: «أتسـمعون يـا معـشر قريـش، أمـا والذي نفـسي بيـده، لقـد جئتكـم بالذبـح.»[٦٩] قـال هـذا الـكلام قبـل أن يكـون له جيـش وقبـل أن ينتقـل إلى المدينـة، مـا يعـني أنـه كان ينتظـر الفرصـة المواتيـة لينفـذ

---

٦٦. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٨٠، تحت عنوان «رأس عدو الله بين يدي رسول الله».
٦٧. نفس المصدر.
٦٨. سي إن إن بالعربية، «منظّرو داعش يردون على المقدسي: سبق أن دافعت عن قطع الزرقاوي للرؤوس...».
٦٩. السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٤١.

تهديداتــه. كان مقتنعـا بالذبـح منــذ البدايــة، وينســف هــذا التصريــح كل ادعاء يقــول بــأن حــروب الإســلام هي دفاعيــة. لقــد كان محمــد يهــدد بالذبــح قبــل أيــة حــروب تُذكــر.

يقــول القــرآن في هــذا الصــدد «فَــإِذَا لَقِيتُــمُ الَّذِيــنَ كَفَــرُوا فَــضَرْبَ الرِّقَــابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُــمْ فَشُــدُّوا الْوَثَــاقَ».[٧٠] إن ذبــح الرقــاب وضربهــا جــزء مــن القــرآن وجــزء مــن الســنة وجــزء مــن السـيرة. فقــد وضــع محمــد لبناتــه الأولى في الدولــة الإســلامية. وتنظيــم الدولــة هــو امتــداد لتلــك التصرفــات. فــإن كان النــاس يستبشــعونه اليــوم، فعليهــم أن يعرفــوا أيــن مصــدره، ومــن أي مــكان اســتقاه المجاهــدون. فلــو لــم يكــن محمــد قــد ذبــح لمــا كان باســتطاعتهم أن يــبرروا هــذا الأمــر وأن يجــدوا له ســندا في النصــوص بهــذه الســهولة. يقــول القرطــبي المفــسر الكبــير الذي ولد في قرطبــة الأندلــس في القــرن الثالــث عــشر معلقــا على هــذه الآيــة مــن ســورة محمــد إن القــرآن اســتخدم عمــدا عبــارة:

> «فَــضَرْبَ الرِّقَــابِ» ولــم يقــل فاقتلوهــم؛ لأن في العبــارة بــضرب الرقــاب مــن الغِلظــة والشــدة مــا ليــس في لفــظ القتــل؛ لمــا فيــه مــن تصويــر القتــل بأشــنع صــوره؛ وهــو حــز العنــق وإطــارة العضــو الذي هــو رأس البــدن وعُلــوّه وأوْجَــهُ أعضائــه.[٧١]

يريــد القــرآن القتــل بأبشــع صُــوَرِه ليبــث الرعــب في أعدائــه، وهــذا مــا يريــده تنظيــم الدولــة. والهــدف الرئيــسي مــن تلــك الفيديوهــات هــو إرهــاب النــاس وتخويفهــم ورســم صــورة القــوة لمقاتــلي الدولــة حــتى ينهــار أعداؤهــم قبــل المواجهــة، فيســهل التغلــب عليهــم وهزيمتهــم. وقــد نجــح التنظيــم في أســلوبه بحيــث صــار الجيــش العــراقي يهــرب منــه في كل مدينــة، ولذلــك سَــهُل عليــه احتــلال الموصــل ثــاني أكــبر المــدن العراقيــة بطريقــة أذهلــت العالــم أجمــع.

---

٧٠. سورة محمد، الآية ٤.

٧١. تفسير القرطبي ١٦: ٢٣٠، لسورة محمد الآية ٤.

والسبب هو الرعب الذي بثه التنظيم عبر الهالة الإعلامية التي خلقها في نفوس الناس.

أسلوب الإرهاب هذا الذي تبناه التنظيم أسلوب قرآني بامتياز. يقول القرآن: «وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ».[٧٢] فالقرآن يوصي المسلمين بتجهيز العُدة وإظهار القوة لإرهاب الأعداء، ومن المؤكد أن فيديوهات الذبح تخدم ذلك الغرض. لقد اشتهر محمد بأمر أتباعه بأن يضربوا الأعناق، حيث قال عن نفسه: «إنَّما بُعِثْتُ لِضَرْبِ الأعْناقِ وَشَدّ الوثاق.»[٧٣] وكانت العبارة المشهورة عند أتباعه كلما رأوا شخصا في نظرهم يستحق القتل يسألون الإذن من قائدهم: أنضرب عنقه يا رسول الله؟[٧٤] إن مشاهد الذبح وضرب الأعناق جزء من ثقافتنا الإسلامية، حيث تم تدريسنا إياها على أنها شيء عادي حين تقع في حق الكفارلأنهم أعداء الله. مارسها رسول الله وصحابته ضد الكفار وضد أعدائهم، ولا مانع أن يمارسها المسلمون ضد أعدائهم من الكفار. فإذا قام بها تنظيم الدولة اليوم، فإنما يستند إلى أساس متين من التراث الإسلامي، ولن يستطيع أحد أن يغلبه باستخدام الأرضية نفسها. لذلك إذا أردنا أن نواجه تنظيم الدولة، علينا أن نواجه الأرضية التي يستند إليها أيضا.

محمد والصعاليك

هنالك جماعة أخرى من الأشخاص تحالف معهم محمد، كانوا يسمون الصعاليك. والصعاليك هم بمنزلة قطاع طرق. هم أشخاص ارتكبوا جرائم

٧٢. سورة الأنفال، الآية ٦٠.

٧٣. تفسير الطبري ٩: ١٣٣، لسورة الأنفال آية ١٢.

٧٤. جاء في تحفة الأحوذي في شرح سنن الترمذي «ولهذا كان (ص) يأمر بضرب العنق من أراد قتله حتى صار ذلك هو المعروف في أصحابه فإذا رأوا رجلاً يستحق القتل قال قائلهم: يا رسول الله دعني أضرب عنقه» تحفة الأحوذي ٤: ٥٤٦، كتاب الديات، باب «ما جاء فيمن رضخ رأسه بصخرة».

وتبرأت منهم قبائلهم فصاروا يعيشون خارج القبائل في تجمعات خاصة بهم. كانت قبائلهم تتبرأ منهم لأنها لا تريد أن تكون مسؤولة عن تصرفاتهم تجاه قبائل أخرى. فقد يُغِيرون على أية قبيلة أو قد يخطفون ويقتلون، فلا تريد القبيلة أن تكون ملزمة بنتائج تصرفاتهم بحيث يصير عليها أن تدفع التعويضات والديات أو ربما تواجه الحرب. يصفهم جواد علي المؤرخ العراقي الذي توفي سنة ١٩٨٧، والذي درس تاريخ العرب وألف واحدة من أكبر الموسوعات عن تاريخ العرب قبل الإسلام سمّاها المفصل قائلًا:

> الصعاليك قوم خرجوا على طاعة بيوتهم وعشائرهم وقبائلهم لأسباب عديدة ... معتمدين على أنفسهم في الدفاع عن حياتهم، وعلى قوتهم في تحصيل ما يعتاشون به، بالإغارة على الطرق والمسالك وبمهاجمة أحياء العرب المبعثرة، أفرادا أو طوائف... ولهذا كانوا يتكتلون أحيانا، بانضمام بعضهم إلى بعض، مكونين جماعات جمعت بينها وحدة الهدف.[٧٥]

كان محمد مغناطيس الصعاليك، لأن دعوته كانت بمثابة تمرد على القبيلة وأعرافها. والصعاليك بطبعهم متمردون.

كان من أوائل من انضموا إلى دعوة محمد من الصعاليك أبو ذر الغفاري. قال عنه شمس الدين الذهبي العالم الكبير التركماني الأصل سوري المولد، والذي عاش في القرن الثالث عشر والرابع عشر، وألّف أكثر من مائتي كتاب:

> كَانَ أَبُو ذَرٍّ رَجُلًا يُصِيبُ[٧٦]، وَكَانَ شُجَاعًا، يَنْفَرِدُ وَحْدَهُ يَقْطَعُ الطَّرِيقَ، وَيُغِيرُ عَلَى الصِّرَمِ [الجماعة المنعزلة] فِي عَمَايَةِ [ظلام] الصُّبْحِ عَلَى ظَهْرِ فَرَسِهِ أَوْ قَدَمَيْهِ، كَأَنَّهُ السَّبُعُ، فَيَطْرُقُ الْحَيَّ، وَيَأْخُذُ مَا أَخَذَ، ثُمَّ إِنَّ اللهَ قَذَفَ فِي قَلْبِهِ الْإِسْلَامَ.[٧٧]

---

٧٥. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٠: ١٢٨.
٧٦. يصيب: أي يصيب الطريق ويقطعها
٧٧. سير أعلام النبلاء ٣: ٣٨٣-٣٨٤.

وقـد كان رابـع شـخص يؤمـن بمحمـد ويصـير مسـلما.[٧٨] انتـمى أبـو ذر إلى قبيلـة يقـال لهـا غِفَـارْ، وأغلـب رجالهـا صعاليـك وقطـاع طـرق، فكانـت قبيلـة معروفـة بالسـطو على الحجـاج والقوافـل.[٧٩] أسـلم أبـو ذر وذهـب يقنـع قبيلتـه لأن محمـدًا طلـب منـه أن يذهـب ويفعـل ذلـك ويلتحـق بـه بعـد حـين عندمـا يصلـه خـبر انتصـار المسـلمين.[٨٠] ذهـب أبـو ذر وأخـبر أخـاه وأمـه وقبيلتـه، فاعتنقـوا الإسـلام. وكذلـك فعـل نصـف القبيلـة، وأمـا النصـف الآخـر فقـد اعتنـق الإسـلام بعـد انتقـال محمـد إلى المدينـة.[٨١] كان محمـد يحـب قبيلـة غفـار لأنهـم محاربـون أشـداء، ماهـرون في الغـارات والنهـب، تدربـوا على ذلـك. فـكان محمـد يخصهـم بـدعاء خـاص «غِفَـارُ غَفَـرَ اللهُ لهـا.»[٨٢] بـل إن قريشـا لمـا رأوا أن القبائـل المتمـردة مثـل غفـار قـد أسـلمت قالـوا كلمـة سـجلها القـرآن: «وَقَـالَ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا لِلَّذِيـنَ آمَنُـوا لَـوْ كَانَ خَـيْرًا مَّـا سَـبَقُونَا إِلَيْـهِ».[٨٣] وهـذا مـا قـاله بعـض مفـسري القـرآن عـن هـذه الآيـة: قالـوا إنـه لمـا أسـلمت هـذه القبيلـة المتوحشـة غفـار «بلـغ ذلـك قريشـاً فقالـوا: غفـارٌ الحلفـاء لـو كان هـذا خـيراً مـا سـبقونا إليـه.»[٨٤] كانـوا يعرفونهـم جيـدا، ويعرفـون أنهـم مجـرد صعاليـك، ولو كان في الإسـلام خـير لمـا اعتنقـه الصعاليـك. هـذه هي النوعيـة الـتي كانـت تلتحـق بمحمـد في بدايـة دعوتـه، ثـم في وقـت لاحـق حـين انتقـل للمدينـة أيضـا.

كان هنالـك شـخص آخـر مـن الصعاليـك اسـمه أبـو بصـير اعتنـق أيضا الإسـلام والتحـق بمحمـد في المدينـة. لكـن محمـدا بعـد أن عقـد صلـح الحديبيـة، سـلمه لمبعـوثي قريـش. غـير أنـه تمكـن مـن الإفـلات منهـم بعدمـا قتـل واحـدا منهـم، وذهـب بعيـدا عـن المدينـة وكـوّن عصابـة مـن الهاربـين مـن قريـش مـن

٧٨. سير أعلام النبلاء ٣: ٣٨٣-٣٨٤.
٧٩. نفس المصدر ٣٨٤، قال أبو ذر عن قبيلته «وَكَانَ فِيهِمْ مَنْ يَسْرِقُ الْحَاجَّ».
٨٠. صحيح البخاري ٣: ١٢٩٤، كتاب المناقب، باب «قصة إسلام أبي ذر».
٨١. سير أعلام النبلاء ٣: ٣٨٢.
٨٢. صحيح البخاري ٣: ١٢٩٣، كتاب المناقب، باب «ذِكر أسلمَ وغِفارَ ومُزينةَ وجُهَينةَ وأشجعَ».
٨٣. سورة الأحقاف، الآية ١١.
٨٤. تفسير القرطبي ١٦: ١٩٠، لسورة الأحقاف الآية ١١.

المسلمين. ولعلها كانت حيلة من محمد حتى لا يضطر إلى الوفاء بوعده الذي قطعه على نفسه في صلح الحديبية[٨٥] بإرجاع أي شخص التحق بجماعته من القرشيين حتى لو كان مسلما. فصار أي شخص يهرب من المسلمين يلتحق بأبي بصير عوضا عن الالتحاق بمحمد..

> فاجتمع إليه منهم قريب من سبعين رجلاً، وكانوا قد ضيقوا على قريش، لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، لا تمر بهم عير إلا اقتطعوها، حتى كتبت قريش إلى رسول الله (ص) تسأل بأرحامها إلا آواهم فلا حاجة لهم فآواهم رسول الله (ص)، فقدموا عليه المدينة.[٨٦]

لقد تمكن محمد من خداع قريش رغم العهد الذي كان بينهم، بحيث ترك أبا بصير يكوّن جماعة من المسلمين بعيدا عن المدينة، حتى لا يضطر إلى إعادتهم لقريش، وفي الوقت نفسه سمح لهم بالقيام بما يقوم به قطاع الطرق حتى اضطرت قريش إلى طلب النجدة من محمد نفسه بأن يضمهم إليه والتنازل عن شرطها بأن يعيدهم إليهم. وهكذا لم يقتص محمد من أي شخص منهم على أعمال العنف التي ارتكبوها، بل رحب بهم في المدينة وكأنهم أبطال جاؤوا إلى وطنهم.

داعش والصعاليك

هكذا يتصرف تنظيم الدولة اليوم، يضم إليه المتمردين كلهم .. «صعاليك العالم» أينما كانوا، خصوصا الذين تمردوا على أوروبا وأمريكا. رأى هؤلاء الساخطون في الإسلام ملاذا ومكانًا مناسبًا يمكنهم من خلاله تنفيذ

---

٨٥. من شروط العهد الذي أبرمه محمد مع قومه «اصطلحا على وضع الحرب عن الناس، عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه. السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٥٠-٥١.

٨٦. السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٥٨، وكذلك في صحيح البخاري ٢: ٩٧٤، كتاب الشروط، باب «الشروطِ في الجهادِ، والمصالحةِ معَ أهلِ الحربِ، وكتابةِ الشروط».

انتقامهم دون شعور بالذنب، إذ ستكون أعمالهم الانتقامية تلك أعمالا مجيدة في ظل الإسلام .. أعمالا بطولية، مثلما صارت أعمال الصعاليك في الإسلام أعمالا بطولية. فرغم أن أبا بصير كان قاتلًا، إلا أنه لم يكن كذلك في نظر محمد، بل هو مسلم يقوم بواجبه بنصرة الدين ونصرة إخوته من المسلمين. ويصح الشيء نفسه بالنسبة للسبعين الآخرين الذين التحقوا بمحمد. كثيرون من المنشقين عن جبهة النصرة التابعة للقاعدة والجماعات والفصائل الإسلامية الأخرى داخل سوريا أيضا التحقوا بتنظيم الدولة، حتى لو كانوا قد ارتكبوا جرائم وهربوا. فانضمامهم ذلك يسقط عنهم أية جرائم سابقة لهم، مثلما أسقط محمد عن الملتحقين به الجرائم كلها التي ارتكبوها من قبل، فالإسلام يجبّ ما قبله.[٨٧]

خير مثال على ذلك في الوقت الحاضر أحمد الرويسي التونسي الضالع في مقتل شخصيات سياسية في تونس. فقد كانت له سوابق عدلية في تونس في العديد من الجنح والجنايات منها حيازة المخدرات، وتكوين عصابة، وارتكاب أعمال عنف. وقد حكم عليه بـ ١٤ سنة سجنا سنة ٢٠٠٦. ولم يخرج من السجن إلا سنة ٢٠١١ حين حدثت ثورة تونس، حيث هرب من السجن كواحد من آلاف المساجين، وصار من جماعة أنصار الشريعة في تونس لاحقًا، ثم هرب إلى ليبيا ليلتحق بتنظيم الدولة في سرت الليبية وصار من أكثر أعضائها نشاطا وخطورة. وغيّر اسمه إلى أبي زكريا التونسي، إلى أن قُتِل في مارس ٢٠١٥،[٨٨] وأمثال الرويسي كثيرون. فالبغدادي نفسه كان مسجونا في العراق تحت إشراف القوات الأمريكية في مخيم بوكا، وأُطْلِق سراحه سنة ٢٠٠٩ حيث قال لسجانيه الأمريكيين: «موعدنا في نيويورك.»[٨٩] ويصح ذلك على ما بين عشرين إلى ثلاثين معتقلا سابقا من

٨٧. جاء في مسند أحمد ٥: ٢٣١، «إن الإسلام يجب ما كان قبله ، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها».
٨٨. جريدة الصباح التونسية، «من "ايليوس" العرّاف إلى "أبو زكرياء" الإرهابي...».
٨٩. العربية نت، «زعيم داعش للأميركيين: موعدنا في نيويورك».

معتقلي غوانتانامو التحقوا بتنظيم الدولة أو بإحدى الجماعات الإسلامية المقاتلة في سوريا،[٩٠] إلى جانب دوغلاس ماك آثر الأمريكي الذي التحق بتنظيم الدولة في سوريا وصار أول أمريكي يُقْتل في سبيل التنظيم، حيث أصيب في قتال بين الجيش الحر وأعضاء التنظيم يوم ٢٤ أغسطس ٢٠١٤، إذ سبق له أن تورط في مشكلات مع القانون، حيث تمت إدانته بسلوك غير منضبط سنة ٢٠٠٠ وبالسَرقة في ٢٠٠١،[٩١] وبحيازة المخدرات في سيارته سنة ٢٠٠٣، إلى جانب مشكلات كثيرة تتعلق بالسياقة دون رخصة، والكذب على رجال الأمن.[٩٢] يوحي هذا كله بالتمرد.. صعلوك من النوع الصغير، اعتنق الإسلام ثم التحق بالتنظيم ليموت من أجله. بل إن التحول إلى الإسلام داخل السجون في الغرب هو أحد أكثر العناصر خطورة، حيث يتحول السجناء للحصول على الامتيازات والحماية من العصابات الإسلامية القوية داخل السجون. فالمسلمون يتمتعون بأفضل طعام في السجون البريطانية مثلا، ويحصلون على وقت أكثر في الساحة، كما أنهم معفيون من أية أشغال يوم الجمعة لتمكينهم من أداء الصلاة.[٩٣] وهم يتضامنون فيما بينهم بشكل يحمي كل المساجين المسلمين. لذلك يعتنق المساجين الإسلام بكثرة لكي ينضموا إلى هذه العصابة المنظمة القوية، تماما مثلما كان ينضم إلى محمد الصعاليك فيحميهم ويحمونه من بطش قريش. بل كان يعفيهم من أية تجاوزات أو أية جرائم اقترفوها.

واحد من تلك النماذج ألتون نولن الذي ذبح زميلة سابقة له في العمل في ولاية أوكلاهوما الأمريكية، وطعن زميلة سابقة أخرى بسكين، تجده قبل ذلك كان سجينا بتهمة حيازة مخدرات والاعتداء على ضابط شرطة

90. Fox News, “Sources: Former Guantanamo detainees suspected of joining ISIS, other groups in Syria.”
91. TThe Washington Post, “How Douglas McAuthur McCain became the first American to die fighting for the Islamic State.”
92. CNN, “Douglas McAuthur McCain: From American kid to jihadi in Syria.”
93. Daily Mail, “Prisoners convert to Islam to win perks and get protection from powerful Muslim gangs.”

بالضرب والهروب من السجن سنة ٢٠١١، وتم الحكم عليه بست سنوات سجنا قضى منها سنتين تحول أثناءها إلى الإسلام، ثم خرج سنة ٢٠١٣.[٩٤] يقول عنه باتريك دونليفي مؤلف كتاب التربة الخصبة للجهاد - صلة الإرهاب بالسجن: «تُعَدّ حالته حالة ملائمة؛ لشخصية غير مستقرة، ميالة إلى العنف، فتم تعريفه بالإسلام في السجن.»[٩٥] إنها فعلا حالة مناسبة. وتنطبق هذه على حالة الكثير من المساجين وأصحاب الجرائم الذين يجدون في الإسلام ضالتهم، ليس لإصلاحهم ليصيروا أناسا أفضل، بل لتبرير جرائمهم وعنفهم فيصير عنفا مقدسا، ويتحول إلى جهاد في سبيل الله، مثلما فعل محمد. فقد حوّل عنف الصعاليك إلى جهاد مقدس، وجعل طاقتهم المدمرة تصب في صالح قضيته، وهي القضية الإسلامية.

أغلب قيادات الصف الأول في تنظيم الدولة هم عراقيون[٩٦]؛ مثلما كان أقرب المقربين إلى محمد من قريش، وخلفاؤه من بعده كانوا من قريش، إذ تُعطى الثقة في الأول لأقرب المقربين. هكذا فعل الخليفة البغدادي، أعطى ثقته الكبيرة لقادة عراقيين كان للكثيرين منهم دور عسكري في جيش صدام حسين. كانوا صعاليك صدام، فأعلنوا توبتهم وغيروا اتجاه صعلكتهم من خدمة حزب البعث إلى خدمة الإسلام، في سبيل الله، ومن بينهم أبو مسلم التركماني نائب الخليفة، وأبو عبد الرحمن البيلاوي المسؤول العسكري العام للتنظيم.[٩٧]

لقد كان صعاليك العرب يبررون أفعالهم بأنها رسالة من الله وبأن المال الذي يحصلون عليه بالسطو إنما هو رزقهم أرسله الله إليهم وعاقب الأغنياء بسلبهم إياه بواسطتهم. فهم أدوات لتحقيق الإرادة الإلهية. يقول الدكتور

94. The Washington Post, "What we know about Alton Nolen...."
95. Fox News, "Oklahoma beheading suspect likely radicalized behind bars, say experts."
٩٦. العربية نت، «أهم ٢٠ شخصية في داعش.. عراقيون ما عدا سوريًا واحدًا».
٩٧. نفس المصدر.

جـواد علي بهـذا الخصـوص: «ولذلـك كان صعاليـك العـرب ولصوصهـم وأربـاب الغـارة يـرون أن مـا يحوونـه مـن النعـم بالغـارة وينالونـه بالسرقـة والسَّـلَّة،[٩٨] إنمـا ذلـك مـال مُنعـت منـه الحقـوق، ودفـع عنـه بالبخـل والعقـوق، فأرسـلهم الله إليـه وسـببه لهـم برزقهـم إيـاه.»[٩٩] أليـس هـذا مـا اعتقـده محمـد؟ ألـم يعتقـد أن الله أرسـله وجعـل رزقـه تحـت ظـل رمحـه؟[١٠٠] إن محمـدًا ابـن بيئتـه، والإسـلام ابـن هـذه البيئـة أيضـا. تـشرَّب مـن عاداتهـا بـل وحوّلهـا إلى ديـن مقـدس مـا زلنـا ندفـع ضريبتـه إلى اليـوم.

يريـد تنظيـم الدولـة أن يحـي تلـك العـادات عـن طريـق الديـن، عادات العـرب في الإغارة على القبائـل المجـاورة وسـلبهم ونهبهـم للحصـول على المـال. فهـم يغـيرون على المسـيحيين ويطردونهـم مـن بيوتهـم ويتخذونهـا غنيمـة ويعـدّون ذلـك عطـاء مـن الله لهـم، ويغـيرون على النظـام العـراقي «الكافـر في نظرهـم» ويأخـذون السـلاح ويعـدّون السـيارات والأسـلحة غنائـم يسرهـا الله لهـم، وخطفهـا مـن يـد أعدائهـم وأعطاهـا لهـم بمعونتـه الربانيـة. ويسـتولون على آبـار النفـط ويبيعـون نفطهـا، ويعـدّون ذلـك عطيـة مـن الله لهـم. ويأخـذون الفديـة في بعـض الأسرى ويعـدّون ذلـك أيضـا منـا مـن الله عليهـم. يبيعـون الآثـار الغاليـة ويعـدّون ذلـك مـن الغنائـم الـتي اسـتولوا عليهـا مـن الأعـداء. فقـد قـدرت صحيفـة نيويـورك تايمـز عائـدات التنظيـم خـلال ٢٠١٤ كالتـالي: ٦٠٠ مليـون دولار مـن الابـتزاز والضرائـب والجبايـة، و٥٠٠ مليـون دولار مـن سرقـة البنـوك والاسـتيلاء عليهـا خصوصـا في العـراق، و١٠٠ مليـون دولار مـن أمـوال النفـط الذي يبيعونـه تهريبـا، و٢٠ مليـون دولار مـن الفديـة.[١٠١] رزق تنظيـم الدولة تحـت ظـل رمحـه وأسـلحته، إنهـا الصعلكـة المعـاصرة بامتيـاز. فـلا اعـتراف

٩٨. السل: هو انتزاع الشيء (لسان العرب) وهنا هي كناية عن النهب بالسيف.
٩٩. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٠: ١٢٩، للدكتور جواد علي.
١٠٠. يقـول الحديـث الصحيـح «عـنِ ابـنِ عمـرَ عـن النـبيِّ قـال: «جُعِـل رِزقِي تحـت ظِـلِّ رمـحي، وجُعِـلَ الذِّلـةُ والصَّغـارُ على مَـن خالـفَ أمـري»، صحيـح البخـاري ٣: ١٠٦٧، كتـاب الجهـاد والسـير، بـاب «مـا قيـلَ في الرِّمـاح».
101. The New York Times, “ISIS Finances Are Strong.”

بحـدود ولا بـدول، مثلمـا لـم يعـترف محمـد بالقبائـل ولا بأعرافهـا، فإمّـا أن يخضـع له أهلهـا أو يحوّلهـم إلى أهـداف مشروعـة. ويتبـع تنظيـم الدولـة اليـوم الخطـة نفسـها معتمـدا على القـرآن والحديـث والسـيرة. فإمـا الخضـوع له وقبـول شروطـه أو انتظـار هجوماتـه وغاراتـه وسـطو صعاليكـه المتوحشـين.

-10-

داعش تُحيي التراث الإسلامي: سبي وقتل وطرد وتدمير

داعش ومذبحة سبايكر

نشر تنظيم الدولة صور الشباب العراقي وهم يساقون في سيارات إلى الموت مقيدين، بحيث تم صفعهم وركلهم وإهانتهم وتكديسهم في حافلات شحن كالبهائم، ثم حُفرت خنادق لهم، ورُصّوا في صفوف، ثم أُطلقت النار عليهم من ملثمين ينتمون إلى تنظيم الدولة. كانت صورا مريعة عرضها الإعلام بصدمة بالغة هزت العالم أجمع، حوالي ١٧٠٠ طالب تمت تصفيتهم بدم بارد.[١] تمت المجزرة يوم ١٢ يونيو ٢٠١٤ بعد سقوط تكريت في يد التنظيم. كان هؤلاء طلبة القوات الجوية في قاعدة سبايكر بتكريت. تم إقناعهم بعد سقوط تكريت بأن الوضع آمن وسرّحهم قادتُهم في عطلة بحسب ما صرح به الناجون. مما يوحي بأن هنالك قيادات كان لها يد في الأمر ومتورطة في التآمر عليهم. إذ خرج المئات من الطلبة من

١. سي إن إن بالعربية، «"داعش"، "أزلام صدام" أم "طرف ثالث".. من يقف وراء قتل ١٧٠٠ جندي...».

دون أسلحة يمشون في الشوارع بعد أن فتحت لهم أبواب القاعدة. كانوا يبحثون عن وسائل نقل تأخذهم إلى عوائلهم، كانوا يرتدون ملابس مدنية، لكن تم الغدر بهم وتم أخذهم إلى قصور صدام السابقة، فجرى إعدام بعضهم هناك، وجرى إعدام آخرين في موقع آخر في الخلاء، حيث تم حفر خنادق لهم وتمديدهم فيها وبعدها تم إطلاق النار عليهم دون رحمة.[٢]

أكدت صور الأقمار الصناعية الأمر، حيث أظهرت مقابر جماعية تمت فيها تصفية العديد من هؤلاء الشباب. ويوجد موقعان على الأقل حول تكريت تمت فيهما تلك التصفيات. كان أغلب هؤلاء الشباب من الشيعة.[٣] جاءت الأرقام متضاربة، حيث كان الرقم الشائع في وسائل الإعلام ١٧٠٠ قتيل. ويقول بعضهم إن العدد أكثر من ذلك، لكن الإحصائيات العراقية تؤكد أن الرقم هو ١٥٦٦ شخصا.[٤] تفاخر التنظيم بإعداماته الجماعية تلك ووضعها في صور وفيديوهات على مواقعه وحسابات أعضائه على تويتر ناسبا إياها كلها إليه، رغم أن التنفيذ قد يكون شارك فيه أعضاء من التنظيم، إضافة إلى أعضاء من حزب البعث السابق.[٥] لعل هذه المجزرة واحدة من أفظع المجازر في تاريخ العراق الحديث، جريمة حرب بكل المقاييس، لكن هل استمدها تنظيم الدولة من بنات خياله؟ أم يوجد لها مقابل في التراث الإسلامي؟ هل يستطيع التنظيم تبريرها من النصوص الدينية ومن سيرة محمد بن عبد الله؟

عندما شاهدت الصور، قفزت على الفور وبلا أدنى مجهود إلى ذهني صورة تخيلتها وأنا أقرأ السيرة النبوية في مكتبة والدي لأول مرة عندما كنت شابا في مقتبل العمر، صورة يهود بني قريظة، قبيلة يهودية كانت قريبة

---

٢. جريدة الشرق الأوسط، «"مجزرة سبايكر".. الحكومة حاولت إخفاء تفاصيلها...».

3. RT, "'ISIS commits mass murder, advertises it': Iraq executions detailed."

٤. السومرية نيوز، «حقوق الإنسان: العدد الكلي لمفقودي مجزرتي سبايكر وبادوش بلغ ١٩٩٧».

٥. جريدة الشرق الأوسط، «"مجزرة سبايكر".. الحكومة حاولت إخفاء تفاصيلها...».

من يثرب، المدينة التي انتقل إليها محمد فصارت عاصمة غزواته ومقر قيادته العليا، إذ كانت تشبه اليوم مدينة الرقة بالنسبة لتنظيم الدولة. تحتاج قصة بني قريظة إلى مقدمات تُظهر أهم التطورات التي حصلت في حياة محمد، والتي انتهت بإبادة هذه القبيلة اليهودية والتخلص من قبائل أخرى مجاورة.

محمد يتخلص من القبائل اليهودية

بعد غزوة بدر اغتر محمد، واغتر أتباعه واستمر في غزواته، لكن لم تكن ذات فائدة. كانت حوالي أربع غزوات فاشلة.[٦] بدأ يهدد جيران المدينة من اليهود حيث قال لقبيلة بني قينقاع اليهودية: «يا معشر اليهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم.»[٧] بدأ محمد يتحين الفرص لقتل اليهود أو لإجلائهم إن لم يؤمنوا به. لأن ذلك معناه أنهم يكذبون نبوته ويعدّونه نبيا كاذبا حتى لو لم يصرحوا بذلك علانية، يكفي أنهم لا يعترفون به. كانت نية محمد في التخلص من اليهود نية مبيّتة منذ العهد الذي عقده مع الأوس والخزرج حين زاروه في مكة وسُمّي بيعة العقبة الثانية، حيث كان قد وافقهم على كسر عهودهم مع يهود المدينة وجيرانها، حيث قالوا له: «إن بيننا وبين الرجال حبالا، وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود»[٨] فقال لهم محمد يومها: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.»[٩] وحين هاجر للمدينة صار يتحين الفرص المواتية لتنفيذ وعده. لم يكن أمام اليهود إلا خياران، إما المواجهة أو الاستسلام واعتناق الإسلام. فصار

٦. غزوة بني سليم، غزوة السويق، غزوة ذي أمر، غزوة الفرع من بحران.
٧. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٢٢٤، تحت عنوان: «أمر بني قينقاع، ما قاله لهم الرسول وردهم عليه».
٨. السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٢٦٦، تحت عنوان: «أمر العقبة الثانية، عهد الرسول عليه الصلاة والسلام على الأنصار».
٩. نفس المصدر.

يجِدُ للبطش بكل قبيلة عذرا معينا. بل إن كتّاب السيرة يسردون أسبابا للغزو لا تبدو معقولة. فمثلا قبيلة بني قينقاع اليهودية حليفة الخزرج، والتي ابتدأ محمد بتهديدها. يقول كاتب السيرة إن أهلها تحرشوا بامرأة عربية لم ترد أن تكشف وجهها. فلما رفضت ربطوا ثيابها في ظهرها فلما قامت انكشفت سوءتها. فلما رآى رجل من المسلمين ذلك، قام فقتل اليهودي الذي قام بهذه الفعلة، فقام اليهود وقتلوا المسلم لأنه قتل ابن قبيلتهم. فبلغ ذلك محمدا فأعلن الحرب على بني قينقاع،[١٠] وحاصرهم خمسة عشر يوما.[١١] ثم حين استسلموا، أراد قتلهم لولا تدخل شخصية نافذة من الخزرج اسمه عبد الله بن أبي بن سلول[١٢] (يعدّ عدوا لدودا لمحمد في المدينة ويسمى رأس المنافقين لأنه كان يظهر الإسلام ويبطن العداء لمحمد[١٣]). تدخّل عند محمد وألزمه بحكم مكانته عند قومه أن يعفو عنهم، وقد كان عدد الرجال المحاربين فيهم حوالي سبعمائة شخص.[١٤] ولكن رغم ذلك أجلاهم محمد من المدينة. تبدو هذه القصة غير معقولة لأن وجود امرأة مسلمة غير كاشفة عن وجهها في زمن لم يكن الحجاب قد فرض بعد شيء مستبعد. وأهم من هذا، هل جزاء مشاجرة بين مسلم ويهودي يقتل فيها المسلم واليهودي أن يتم غزو قبيلة بأكملها وقتل كل أهلها لولا تدخل رجل قوي؟ ألا يقول القرآن: «وَلاَ تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى؟»[١٥] لعل هذا التبرير اخترع لاحقا لكي يظهر استحقاق اليهود للطرد.

بعد أن تخلص محمد من يهود بني قينقاع، كان زعماء قريش قد استعدوا للانتقام من محمد لما حصل لهم في غزوة بدر. فقامت معركة أحد السنة الثالثة من هجرة محمد وأصحابه للمدينة، كانت نتيجة المعركة هذه المرة

١٠. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٢٢٥.
١١. نفس المصدر ٣: ٢٢٦.
١٢. نفس المصدر ٣: ٢٢٥، ٢٢٦.
١٣. السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٣٨٤، تحت عنوان : «من اجتمع إلى يهود من منافقي الأنصار بالمدينة».
١٤. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٢٢٥، تحت عنوان: «أمر بني قينقاع، تدخل ابن أبي في شأنهم».
١٥. سورة الأنعام، الآية ١٦٤.

لصالح قريش، فقد استطاعت أن تلحق الهزيمة بمحمد وترد له صاع بدر. بل كاد محمد نفسه يُقتل فيها لولا حماية أصحابه له، ومع ذلك شُجت رأسه وكُسرت رباعيته[١٦] في المعركة،[١٧] وقُتل فيها أيضا عم محمد حمزة وتم التنكيل بجثته[١٨]. كانت هزيمة قاسية لمحمد وأتباعه.

بعد هذه الهزيمة النكراء صار محمد يبحث عن عدو أضعف لعله من خلال الانتصار عليه يسترجع معنوياته ومعنويات أصحابه بعد أن فقد منهم حوالي خمسة وستين رجلا في هذه المعركة لوحدها.[١٩] وبطبيعة الحال، لم يكن هناك هدف أفضل من القبائل اليهودية التي كانت ملتزمة الحياد في هذا الصراع بين محمد وقومه قريش. وفي السنة الرابعة من الهجرة، وبعد أشهر قليلة من معركة أحد، ذهب محمد مع أصحاب له إلى يهود بني النضير يطلب منهم المساعدة في جمع المال لدفع دية رجلين قتلهما واحد من أصحابه. لنتذكر أن محمدا لم يكن يحتاج إلى المساعدة خصوصا وأن أموال بدر كانت طائلة ولم يمر عليها حتى سنتان كاملتان، فقالوا له «نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه.»[٢٠] وذهبوا ليستشيروا أصحابهم في جمع المال. وفي هذه الأثناء، كان محمد ينتظر إلى جانب جدار بيت من بيوت القرية. وفجأة، ذهب وترك المكان ورجع إلى المدينة حتى دون علم أصحابه المرافقين له. بعد ذلك عرفوا منه حين لحقوا به المدينة أن الملاك جبرائيل قد أخبره بمؤامرة يدبرها له اليهود في الخفاء بأن يلقوا عليه حجرا من فوق الجدار فيقتلونه غيلة. فأعلن عليهم الحرب وطلب تجهيز الخيول وغزو القبيلة لمجرد أنه تخيل أنهم يتشاورون لقتله لا لجمع المال له![٢١]

---

١٦. سن بين الثنية والناب.
١٧. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٢٦٤، تحت عنوان: «غزوة أحد، ما أصاب الرسول يوم أحد».
١٨. نفس المصدر ٣: ٢٥٣.
١٩. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٣١٧، تحت عنوان: «عدد من استشهد من أحد».
٢٠. نفس المصدر ٣: ٣٨٧.
٢١. نفس المصدر ٣: ٣٨٨.

حاصرهم ست ليال، وحين رفضوا الاستسلام أحرق نخيلهم المحيط بالقرية، ولم تسلم حتى حقولهم. فقد أمر محمد بقطع النخيل الموجود فيها وإحراقه، وقد اعترض عليه اليهود عادّين ذلك خروجا حتى على أعراف القبائل في الحرب، حيث قالوا له: «يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟»[٢٢] لكنه لكي يبرئ نفسه أنزل آية قرآنية بأن الله قد أعطاه رخصة لعمل ذلك حيث قال له من فوق السماء السابعة: «مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ.»[٢٣] فخاف بنو النضير بعدما رأوا ذلك، فطلبوا الاستسلام مقابل أن يسمح لهم بالرحيل وأن يحملوا معهم ما استطاعوا حمله على الإبل فسمح لهم بذلك، وأخذ أراضيهم وبيوتهم ونخيلهم وكل ما كانوا يملكونه مما لم يستطيعوا حمله معهم.[٢٤] فعدَّ محمد ذلك انتقاما من الله أنزله بهم عن طريقه، فهو المنفذ لانتقام الله، وحسبه انتصارا ربانيا على اليهود الكفرة.

ألا يشبه هذا فعله تنظيم الدولة بالمسيحيين الذين هُجِّرُوا من بيوتهم وذهبوا مشيا على الأقدام تاركين ممتلكاتهم كلها؟ ألا يشبه ذلك ما فعله المقاتلون ببيوت المسيحيين حين كتبوا عليها حرف النون وصارت بين يوم وليلة من ممتلكات الدولة الإسلامية دون أن يتعبوا فيها؟ هكذا حصل لبني النضير، حيث ذهب كل شقاء عمرهم أدراج الرياح، وجاء القرآن مباركا لهذا الطرد العنصري فقال:

> هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ.[٢٥]

---

٢٢. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٣٨٨.
٢٣. سورة الحشر الآية ٥.
٢٤. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٣٨٩، تحت عنوان أمر إجلاء بني النضير في سنة أربع.
٢٥. سورة الحشر الآية ٢.

فالله نفسه أرعب يهود بني النضير ليستسلموا لمحمد ويخرجوا من ديارهم. وأثناء خروجهم، ولأنهم يهود ملتزمون، قاموا بنزع آيات التوراة التي وضعوها على قوائم أبوابهم تنفيذا للوصية التوراتية.[٢٦] نزع يهود بنو النضير قوائم بيوتهم لكي يأخذوا معهم آيات التوراة ولا يتركوا محمدا وأصحابه ينجسوها، فلم يفهم محمد هذا التصرف، بل تعجب منه واعتقد أن اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم، ورأى أنها علامة أخرى من علامات النصر الإلهي، حيث يقول القرآن معلقا على هذا التصرف: «وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ».[٢٧]

طرد محمد يهود بني النضير وأجلاهم من قريتهم إلى الأبد دون رجعة. إنها أوامر إلهه، هو الذي قدر هذا الجلاء عليهم، ولذلك عليهم أن يحمدوا الله لأنه لم يعذبهم ولم يقتلهم على يد محمد، بل اكتفى بإجلائهم. يقول القرآن: «وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ».[٢٨] وقد سمعت العبارة نفسها من أحد المتصلين المسلمين الذين يساندون تنظيم الدولة، وتفاجأت أنه يقيم في السويد ويصرح باسمه على الهواء مباشرة. كان اسمه أحمد، وهو واحد من الأسماء التي تطلق على محمد نبي الإسلام. كان موضوع الحلقة «هل كان محمد رحمة للعالمين؟» وحين سألته هل ما قام به التنظيم تجاه المسيحيين في الموصل رحمة؟ قال لي: «نعم، أليس من الرحمة أنهم تركوهم أحياء وقاموا بطردهم فقط؟»[٢٩] وأنا كمسلم سابق أتفهم هذه الطريقة في التفكير، لأنها مبنية على التفكير القرآني، فالآية القرآنية السابقة مثلا تظهر الله ومحمد رحيمين على أساس

٢٦. سفر التثنية ٦ الآيات ٤ إلى ٩، تسمى الميزوزا، وهي كلمة عبرية تعني عضادة الباب، وما زال اليهود يحافظون على هذه العادة إلى اليوم بحيث تجدها حتى في بعض الفنادق في إسرائيل وأمام بيوت اليهود المحافظين.
٢٧. سورة الحشر الآية ٢.
٢٨. سورة الحشر الآية ٣.
٢٩. سؤال جريء، «هل كان محمد رحمة للعالمين»، الحلقة ٣٧٠.

أنهما لم يشتركا في قتل يهود بني النضير، بل اكتفيا فقط بإجلائهم من بيوتهم. ويا لها من رحمة!!

استمر محمد في غزواته (والغزو في اللغة العربية يعني الخروج في طلب العدو، غَزَا الشيءَ غَزْواً: أَرادَه وطَلَبَه[٣٠]). ويرد هذا على الذين يقولون إن حروب محمد دفاعية. فأغلب حروبه كانت هجومية، كان إذ يخرج غازيا، أحيانا يفاجئ أعداءه مثلما سنرى في غزوات معينة. ومن هذه الغزوات غزوة ذات الرقاع والتي خرج فيها محمد وأصحابه ليهاجم قبائل بني ثعلبة وبني محارب ليعزل قريشا. غير أنه وجد أن أهلها أقوياء فخاف ورجع.[٣١] وهنا كانت أول مرة يصلي فيها محمد صلاة غريبة سمّاها صلاة الخوف. لم يكن بين هذه الغزوة وغزوة بني النضير التي قبلها إلا ما يزيد عن شهر بقليل. ثم قام بغزوة أخرى بعد شهرين يريد أن يحارب أبا سفيان صاحب تجارة قريش، ولذلك سميت غزوة بدر الآخرة.[٣٢] ولم يكن فيها أي قتال، لأن أبا سفيان رجع، ثم غزوة أخرى سميت غزوة دومة الجندل (الجندل تعني الحجارة).[٣٣] وقد قام بها محمد وأصحابه بعد راحة ستة أشهر من الغزو، ولم يحصل في هذه الغزوة أيضا أي قتال.[٣٤]

كثرت غزوات محمد للقبائل اليهودية والقبائل المجاورة. فقام يهود بنو النضير المطرودين، مدفوعين برغبتهم في الانتقام وحماية لباقي إخوتهم من القبائل الأخرى، بتشجيع القبائل العربية على محاربة محمد وأصحابه لأنهم صاروا يشكلون خطرا وجوديا على كل جيرانهم، ولاسيما أنهم لا يتوقفون أبدا عن الغزو والطرد والتنكيل وتهديد القبائل اليهودية وغيرها من القبائل

٣٠. لسان العرب حرف الغين، تحت باب: غزا.
٣١. جاء في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع «خَرجَ النبُّي إلى ذات الرِّفاع من نخلٍ فلَقَي جمعاً من غَطفانَ فلم يكن قِتالٌ، وأخاف الناسُ بعضُهُم بعضا، فصلّى النبي ركعتيِ الخوف».
٣٢. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤١٠، «غزوة بدر الآخرة في شعبان سنة أربع».
٣٣. لسان العرب، حرف الجيم، باب جندل.
٣٤. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤١٥، «غزوة دومة الجندل في شهر ربيع الأول سنة خمس».

العربية الأخرى. فخرجت قريش بقيادة أبي سفيان الذي كان محمد يريد ملاقاته، وساندتهم قبائل أخرى فأتوا المدينة لمحاصرة محمد. وهذه هي المرة الوحيدة التي يمكن أن تعدّ فيها هذه الحرب هنا حربًا دفاعية (من طرف محمد) وحربًا هجومية من طرف أعدائه. لكنها كانت على أية حال رد فعل من أعدائه على الغزوات كلها التي قام بها محمد تجاههم. إذ يشبه الأمر ما يقوم به تنظيم الدولة اليوم حين يهاجم أهدافا في سوريا وفي العراق وفي تركيا، ومع ذلك حين يرد عليه أعداؤه يعدّ ذلك هجوما عليه.

حدث هذا الهجوم من قريش وحلفائها بعد أقل من شهرين من آخر غزوة قام بها محمد. كان هجوما على المدينة فتمت محاصرتها.[٣٥] ارتأى محمد أن يحفروا خندقا شمال المدينة حتى يعطلوا أي هجوم محتمل عليها، ولذلك سميت هذه الغزوة بغزوة الخندق نسبة إلى الخندق الذي حفره محمد وأصحابه للدفاع عن المدينة. وتسمى أيضا غزوة الأحزاب في إشارة إلى الأحزاب التي اجتمعت لمحاربة محمد. وهناك سورة كاملة في القرآن تحت هذا العنوان «سورة الأحزاب». كانت فكرة الخندق هذه فكرة فارسية أشار بها سلمان الفارسي على محمد كتكتيك حربي لحمايتهم من سهام الأعداء وخيلهم.[٣٦]

بعث محمد بعض أصحابه إلى يهود بني قريظة ليرى إن كانوا سيساعدونه في هذا الحصار ولاسيما أن أحوال المسلمين كانت تسوء يوما بعد يوم. فخافوا أشد الخوف وظهر منافقون كثيرون بينهم.[٣٧] عدَّ محمد أن له عهدا معهم رغم أن كتب السيرة لا تذكر أي عهد قبل هذا التاريخ عقده اليهود مع محمد. لذلك أنكر بنو قريظة أن يكون لهم مع محمد أي عهد أو اتفاق

---

٣٥. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤١٦-٤١٨ .

٣٦. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤٢٧، «قال ابن هشام: يقال: إن سلمان الفارسي أشار به على رسول الله».

٣٧. جاء في السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤٢٥، «وعظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق من بعض المنافقين»

مسبق ورفضوا المساعدة. وكان على رأس وفد محمد إلى يهود بني قريظة سعد بن معاذ، أحد أهم أصحاب محمد، لأنه سيد الأوس الذين آزروا محمدا وآووه منذ هجرته إليهم في المدينة. فلما أنكر يهود بني قريظة وجود أي عهد مع محمد، شتمهم سعد بن معاذ ورجع خائبا إلى محمد يحمل له هذا النبأ السيئ.[٣٨] ويبدو أن سعد بن معاذ هذا قد أصيب أثناء عودته من المفاوضات بسهم من المحاصرين وقد كان هذا السهم سببا في موته لاحقا كما سيأتي.[٣٩]

لم يكتف محمد بحفر الخندق ومساومة اليهود، بل حاول عقد الصلح مع المحاصرين. وحين فشل، بعث لهم من يفرق أمرهم بينهم. وأوصى واحدًا من المخادعين قائلا: «خذِّلْ عنا إن استطعت، فإن الحرب خُدعة.»[٤٠] يجوز للمسلم حتى اليوم أن يكذب إن عدَّ نفسه في حرب. فالأحاديث عن محمد تؤكد أنه يجوز للمسلم أن يكذب في حالات معينة من بينها الحرب، وأن الحرب خدعة.[٤١] وفعلا، نجحت محاولات «نعيم» الذي بعثه محمد ليفرق شمل الحلفاء، فبث بينهم التفرقة وصار بينهم جدال وخصام ثم بعد طول مدة الحصار الذي دام شهرا كاملا ساءت الأحوال الجوية أيضا، فعدَّها المسلمون تدخلا مباشرا من الله للدفاع عنهم. وبفضل كيد محمد وسوء الأحوال الجوية والخندق المحفور، رجع الحلفاء عن حصارهم وتم فك الحصار عن المدينة دون أن ينال الحلفاء مبتغاهم، لكن بقيت حرقة واحدة في حلق محمد عليه أن يطفيها بعد انتهاء الحصار، إنها حرقة الانتقام من بني قريظة على رفضهم مساندته.

---

٣٨. جاء في السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤٢٤، أن يهود بني قريظة قالوا «لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد. فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه».

٣٩. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤٣١ .

٤٠. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤٣٣ تحت باب «خداع نعيم المشركين».

٤١. جاء في صحيح البخاري عن ابن شهاب «وَلَمْ أَسْمَعْ يُرَخَّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: الْحَرْبُ، وَالإِصْلاَحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا.» صحيح البخاري، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكذب، وبيان المباح منه. وفي صحيح البخاري باب خاص اسمه «الحرب خدعة» جاء فيه عن أبي هريرة «قال النبيُّ: «الحربُ خدعة». صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحرب خدعة.

محمد يذبح بني قريظة

بعد انتهاء الحصار وضع المسلمون السلاح وأحسوا بأن عبئا ثقيلا قد أزيح عنهم، لكن محمدا لن يرتاح إلا بعد إزالة اليهود الموجودين جنوب المدينة، يهود بني قريظة. لقد كان في جوابهم لسعد بن معاذ حجة كافية لكي يَعُدّهم قد نقضوا العِهد، رغم أن الدارس لموقفهم سيجدهم قد وقفوا على الحياد بحيث لم يدخلوا ضمن المحاصرين ولم يدافعوا عن محمد، لكن محمدا لا يعرف الحياد. فإما أن تكون معه أو أنك ضده.

أعلن محمد الحرب على بني قريظة وادعى أن الملاك جبريل قد أتاه بهذا الأمر من السماء: «إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة»[٤٢] فقام المؤذن وأذن في الناس بالحرب، «فأمر رسول الله مؤذنا، فأذن في الناس: من كان سامعا مطيعا، فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة»[٤٣] لقد أعلن الله الحرب على بني قريظة. أخذ محمد جيشا وذهب لمحاصرتهم وناداهم حين وصل: «يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟»[٤٤] حاصرهم محمد خمسا وعشرين ليلة حتى أنهكهم، وبعدما أُنْهِكُوا استسلموا له على أن يحكم عليهم بما شاء. كانوا يأملون أن يحصل لهم ما حصل لبني النضير أو بني قينقاع بأن يجليهم عن ديارهم. لكنه قد تعلم الدرس، فإن بني النضير حين أجلوا صاروا يحرضون القبائل عليه. وأما في ما يتعلق ببني قينقاع، فما كان ليعفو عنهم لولا تدخل عبد الله بن أبي بن سلول أحد وجهاء المدينة.

كان يهود بني قريظة حلفاء للأوس قبل قدوم محمد، كانت بينهما علاقة قديمة، فأملوا في أن تشفع لهم تلك العلاقة القديمة. كان محمد ذكيا بأن سأل الأوس حين طالبوا بأن يكونوا هم الحكم في أمر بني قريظة، حيث

---

٤٢. السيرة النبوية لابن هشام الجزء ٣: ٤٣٦، تحت باب «أمر الله لرسوله على لسان جبريل بحرب بني قريظة».

٤٣. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤٣٦.

٤٤. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤٣٧، باب «غزوة بني قريظة في سنة خمس» تحت عنوان «علي يبلغ الرسول ما سمعه من بني قريظة».

قال لهم: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم قالوا: بلى؛ قال رسول الله (ص): فذاك إلى سعد بن معاذ؟»[٤٥] كان سعد بن معاذ على فراش الموت وهو الذي شتم بني قريظة وشتموه حين بعثه محمد إليهم، وأصيب حين عودته بسهم بسببهم، لذلك كان يتمنى ألا يموت حتى يشفي غليله منهم، حيث كان يقول اللّهُمَّ: «لا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة.»[٤٦] هذا الشخص هو الذي أسند إليه محمد الحكم في ما يجب أن يفعل بيهود بني قريظة. وفعلا حكم فيهم حكما قاسيا، حيث قال: «فإني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء.»[٤٧] يا له من حكم! يقتل الرجال البالغين جميعًا، ويؤخذ الأطفال والنساء كسبايا وعبيد، ويتقاسمهم المسلمون بينهم، ويتم بيعهم أو شراؤهم كما تباع السلع.

هل رضي محمد بهذا الحكم؟ لم يرض فحسب، بل قال إن الله نفسه راض بهذا الحكم، فحكم سعد بن معاذ قد وافق ما حكم الله عليهم به من فوق سبع سموات، يقول كاتب السيرة المحمدية: «قال رسول الله لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة.»[٤٨] بعد هذا الحكم الجائر، سجنهم محمد في بيت امرأة من أقربائه من بني النجار. يروي كاتب السيرة هذا المشهد الذي لو صورته لنا الكاميرات آنذاك، لما اختلف عما يقوم به تنظيم الدولة اليوم، بل ربما أشد وطأة. يقول:

---

٤٥. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤٤٣، باب «غزوة بني قريظة في سنة خمس» تحت عنوان «تحكيم سعد في أمر بني قريظة».

٤٦. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤٣١ تحت عنوان «استشهاد سعد بن معاذ».

٤٧. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤٤٣ تحت عنوان «تحكيم سعد في أمر بني قريظة».

٤٨. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤٤٣، تحت عنوان «رضاه عليه الصلاة والسلام بحكم سعد» وجاء في صحيح مسلم ««لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ». وَقَالَ مَرَّةً: «لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ الْمَلِكِ». (صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد..).

ثـم اسـتنزلوا، فحبسـهم رسـول الله (ص) بالمدينـة في دار بنـت الحـارث، امـرأة مـن بـني النجـار، ثـم خـرج رسـول الله (ص) إلى سـوق المدينـة، الـتي هي سـوقها اليـوم، فخنـدق بهـا خنـادق، ثـم بعـث إليهـم، فـضرب أعناقهـم في تلـك الخنـادق، يخـرج بهـم إليـه أرسـالا، وفيهـم عـدو الله حـيي بـن أخطـب، وكعـب بـن أسـد، رأس القـوم، وهـم سـتمائة أو سـبعمائة، والمكـثِّر لهـم يقـول: كانـوا بـين الثمانمائـة والتسـعمائة.[٤٩]

في يـوم واحـد جُـرَّ مـا بـين سـتمائة إلى تسـعمائة شـاب ورجـل واحـدا تلـو الآخر لتقطـع أعناقهـم أمـام محمـد وتـرمى جثتهـم في الخنـادق الـتي حفرهـا، بلا شـفقة ولا رحمـة، لمجـرد أنهـم قالـوا لا لمحمـد حـين كان محـاصَرا، لمجـرد أن صاحبـه المجـروح سـعد بـن معـاذ اغتـاظ وحكـم عليهـم بالمـوت.

داعش تقلد محمدا في الذبح

أليـس هـذا مـا عملـه تنظيـم الدولـة في شـباب العـراق في الخنـادق الـتي حفرهـا وقتـل فيهـا المئـات مـن الشـباب مـن قاعـدة سـبايكر؟ ألـم يسـتوحِ تنظيـم الدولـة هـذا المنظـر مـن السـيرة؟ أتذكـر أنـه بمجـرد أن شـاهدت الصـور وقـرأت الأخبـار، لـم أبـذل مجهـودا كبـيرا لتتبـادر إلى ذهـني تلـك الصـورة الـتي تخيلتهـا وأنـا أقـرأ مقتـل يهـود بـني قريظـة في السـيرة النبويـة. تخيلـت الشـباب يصرخـون وهـم يأتـون مقيديـن ومحمـد جالـس ينظـر إليهـم وأصحابهـم يقطعـون رؤوسـهم الواحـد تلـو الآخـر مـن الصبـاح إلى المسـاء حـتى تعبـوا مـن القتـل. لأنـه لـو اسـتغرق قتـل كل واحـد دقيقـة واحـدة فقـط، لاحتـاج قتـل سـتمائة منهـم إلى عـشر سـاعات لإنهائـه.

لـم يكـن يعـرف بـاقي المسـاجين مـن بـني قريظـة مـا يُفعـل بـكل مـن أُخـذ منهـم، فتسـاءلوا في مـا بينهـم مـاذا يفعـل بنـا محمـد يا تـرى؟ فقـال أحدهـم: «ألا

٤٩. السيرة النبوية لابن هشام، الجزء ٣: ٤٤٤، ٤٤٥، تحت عنوان «حبس بني قريظة ومقتلهم».

تـرون أنـه مـن ذُهـب بـه منكـم لا يرجـع؟ هـو والله القتـل!»[٥٠] كانـت الوسـيلة الوحيـدة للتفريـق بـين الرجـال البالغـين الذيـن يجـب أن يقتلـوا والأطفـال غـير البالغـين الذيـن يجـب أن يُؤخَـذوا عبيـدا هـو الشـعر. فمـن نبـت الشـعر في لحيتـه وفي عانتـه وفي إبطيـه بالـغ. ومـن لـم ينبـت له شـعر في هـذه الأماكـن لا يعـدّ بالغـا. لذلـك يـروي أحـد اليهـود الناجـين مـن الأطفـال: «قـال عُرِضْنَـا على النـبيَّ يَـوْمَ قُرَيْظَـةَ فـكانَ مـن أنْبَـتَ قُتِـلَ وَمَـنْ لَـمْ يُنْبِـتْ خُـلِّي سـبيلَهُ، فكُنْـتُ مِمَّـنَ لـم يُنْبِـتْ فَخَـلى سَـبِيلِي.»[٥١] وفي روايـة قـال: «كُنـتُ أوَّلَ مَـنْ حَكَـمَ فيهـمْ سـعدٌ، فـجيء بي وأنـا أَرَى أنـه سَـيَقْتُلُني، فكَشَـفُوا عـنْ عانـتي ، فَوَجـدُوني لـمْ أُنْبِـتْ، فجعلُـوني في السَّـبيِّ.»[٥٢] كان محمـد يـشرف بنفسـه على عمليـة القتـل وعمليـة التفريـق بـين الأطفـال والرجـال. وأشرف أيضـا على عمليـة تقسـيم الغنائـم وتقسـيم النسـاء والأطفـال. بـل بـاع بعـض السـبايا ليشـتري الخيـل والسـلاح للغـزوات المقبلـة.[٥٣] وأخـذ لنفسـه أجمـل نسـاء القبيلـة، وهي «رَيْحانَـة».[٥٤] أخذهـا كسـبية بحيـث صـارت في ملكـه يحـق له أن يجامعهـا وأن يبيعهـا وقتمـا شـاء.

محمد وأصحابه يتقاسمون النساء

بـدأت القبائـل اليهوديـة الأخـرى تخـاف على نفسـها مـن هجـوم محمـد. صـارت تتحصـن أكـثر وتحـاول تجهـيز أنفسـها للدفـاع في حالـة وقـع الهجـوم فجـأة. فقـد عرفـوا أن محمـدا يتصيـد الأسـباب والتبريـرات لـكل هجـوم. إذ هجـم على قبائـل بـني النضـير وبـني قريظـة وبـني قَنينُقـاع دون سـبب مقنـع. لكـن حـتى الاسـتعداد في عُـرف محمـد جريمـة يحـق له أن يهاجـم القبائـل عليهـا. فقـد بلغـه

٥٠. السيرة النبوية لابن هشام، الجزء ٣: ٤٤٤، ٤٤٥.
٥١. سـنن الترمـذي ٥: ١٩٥، كتـاب السـير، بـابُ «مـا جـاءَ في الـنُّزولِ على الحُكـم». الحديـث مـروي عـن عطيـة القـرظي (مـن بـني قريظـة).
٥٢. صحيح ابن حبان ٥: ١٠٠، باب «الخروج وكيفية الجهاد، ذِكْرُ السببِ الذي به فَرَّقَ بين السَّبِي والمُقاتِلةِ».
٥٣. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤٥٠، تحت عنوان «تقسيم فيء بني قريظة».
٥٤. يقـول كاتـب السـيرة «وكان رسـول الله (ص) قـد اصطـفى لنفسـه مـن نسـائهم ريحانـة بنـت عمـرو بـن خناقـة، إحـدى نسـاء بـني عمـرو بـن قريظـة، فكانـت عنـد رسـول الله (ص) حـتى تـوفي عنهـا وهي في ملكـه. السـيرة النبويـة لابـن هشـام ٣: ٤٥٠.

أن بني المُصْطَلِق يجهزون أنفسهم، فأعلن الحرب عليهم بعد أقل من سنة من هجومه على بني قُريظة، لقيهم محمد وحاربهم وهزمهم وطبق عليهم نفس ما عمله في من قبلهم، حيث قتل رجالهم وأخذ أطفالهم ونساءهم سبايا[٥٥] وكالعادة، تكون ابنة سيد القبيلة وأجملهن من نصيبه. فهو القائد، ويستحق أجمل فتاة أن تكون من سهمه. فأخذ جويرية بنت الحارث له واختارها من بين السبايا وقسم بقية السبي بين أصحابه.[٥٦] وبسبب هذا الزواج أعتق محمد بعض أهل جُوَيرية لأنهم في نظره صاروا أصهاره.

في هذه الغزوة، حصل الصحابة على سبايا وأرادوا الاحتفاظ بهن وبيعهن لكن رغبتهم الجنسية كانت جامحة. وهنا طرحت عليهم إشكالية، ليست الإشكالية عن مدى أخلاقية ما يقومون به، بل طرحت عندهم إشكالية أخرى: هل يحق لهم ممارسة الجنس والعزل حتى لا تحمل النساء لكي يمكنهم بيعهن لاحقا بسعر أغلى، حيث إن التي ليس لها طفل أغلى من التي لها طفل. نقرأ النص في حديث من أحاديث البخاري يرويه أحد صحابة محمد الذين رافقوه في هذه الغزوة. يقول:

> خرَجنا مع رسولِ اللهِ (ص) في غزوةِ بني المصْطَلِقِ، فأصَبنا سَبْياً مِن سَبيِ العرب، فاشتَهَينا النساءَ واشتدَّتْ علينا العُزْبة وأحببنا العَزلَ، فأردنا أن نَعزِلَ ، وقلنا نعزلُ ورسولُ اللهِ (ص) بينَ أظهُرِنا قبل أن نسألَه؟ فسألناهُ عن ذلكَ فقال: ما عليكم أن لا تَفعلوا، ما من نَسَمَةٍ كائنةٍ إلى يوم القيامةِ إلاّ وهي كائنة.[٥٧]

---

٥٥. السيرة النبوية لابن هشام ٤: ١٣، ١٤، باب غزوة بني المصطلق في شعبان سنة ست ، تحت عنوان «سبب غزو الرسول لهم» يقول كاتب السيرة «فهزم الله بني المصطلق، وقتل من قتل منهم، ونفَّل رسول الله (ص) أبناءهم ونساءهم وأموالهم، فأفاءهم عليه»

٥٦. السيرة النبوية لابن هشام ٤: ١٩، تحت عنوان «حديث جويرية بنت الحارث رضي الله عنها» يقول كاتب السيرة «وكان رسول الله (ص) قد أصاب منهم سبيا كثيرا، فشا قسمه في المسلمين؛ وكان فيمن أصيب يومئذ من السبايا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، زوج رسول الله (ص)».

٥٧. صحيح البخاري ٤: ١٥١٦، كتاب المغازي، باب «غزوةِ بني المُصْطَلِقِ من خُزاعةَ وهي غزوةُ المُرَيسيع».

لقد كانت المشكلة عندهم هي: هل العزل هنا في هذه الحالة حلال أم حرام. وبطبيعة الحال، أمرهم محمد ألا يعزلوا لأن الأرواح هي بتقدير من الله في نظره، وأن العملية الجنسية ودخول المني أو عزله لن تغير من تقدير الله أي شيء، فالأصوب هو ألا يعزلوا ويتركوا الأمر لله ليقرر أي الأطفال سيخلقهم وأي الأطفال لن يخلقهم! لا يعترف محمد بفعالية وسائل تحديد النسل!

بعد حوالي أربعة أشهر، وبعدما عقد محمد هدنة مع قومه، قام بغزوة مفاجئة ليهود خيبر هذه المرة. ذات صباح كانوا في طريقهم إلى أعمالهم ككل يوم فإذا بهم يُغزَون من حيث لا يدرون. يحكي كاتب السيرة عن أنس بن مالك خادم محمد فيقول:

> واستقبَلَنا عمال خيبر غادين، قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم[٥٨]، فلما رأوا رسول الله والجيش، قالوا: محمد والخميس[٥٩] معه! فأدبروا هراباً، فقال رسول الله: الله أكبر، خَرِبَت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فَسَاء صباح المُنذَرِين.[٦٠]

ومن هنا صارت «الله أكبر» شعار الهجوم على الكفار وقتلهم. كان وقع المفاجأة كبيرا على أهل خيبر، انتصر محمد عليهم وعمل نفس ما سبق أن عمله في بني قريظة تقريبا، حيث يحكي أنس بن مالك أحد خدام محمد الذي كان مرافقا له في هذه الغزوة، قال: «ظَهرَ عليهم رسولُ اللهِ، فقَتَلَ المُقاتِلَةَ وَسَبى الذَّراريَّ.»[٦١] لكنه قام بالعفو المشروط عن بعضهم مقابل أخذ ممتلكاتهم وأموالهم وكل ما لهم.[٦٢]

٥٨. أدوات الفلاحة.

٥٩. الخميس تعني الجيش هنا.

٦٠. السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٦٩، تحت عنوان «فرار أهل خيبر لما رأوا الرسول»، والحديث رواه البخاري ومسلم أيضا.

٦١. صحيح البخاري ١: ٣٢١-٣٢٢، كتاب الخوف، باب «التبكير وَالغَلَسِ بالصبح، وَالصلاةِ عندَ الإغارةِ والحربِ».

٦٢. السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٧٩، يقول كاتب السيرة «وحاصر رسول الله (ص)، أهل خيبر في حصنيهم الوطيح والسلالم، حتى إذا أيقنوا بالهلكة، سألوه أن يسيرهم وأن يحقن لهم دماءهم، ففعل.»

بطبيعة الحال، كانت اللقطة الأخيرة في المشهد، كباقي الغزوات، أن اختار محمد لنفسه أجمل فتاة، حيث يقول كاتب السيرة: «وأصاب رسول الله منهم سبايا، منهن صَفِية بنت حُيَيْ بن أَخْطَب، وكانت عند كِنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيْقْ، وبنتي عم لها؛ فاصطفى صفية لنفسه.»[٦٣] كانت صفية متزوجة حديثا، قتل محمد زوجها، وأخاها ووالدها. ومع ذلك اختارها لنفسه، ودخل بها وهي في أسوأ أيام حياتها دون أن ينتظر حتى تجف دموعها على أهلها. يقول أنس خادم محمد مرة أخرى:

> قَدِمَ النبيّ خَيبَرَ، فلما فَتَح اللهُ عليهِ الحِصنَ ذُكِرَ لهُ جَمالُ صَفية بنتِ حُيِيّ بن أخطبَ ـ وقد قُتِلَ زَوجُها وكانت عَروساً ـ فاصطَفاها رسولُ اللهِ لِنفسهِ فخرَجَ بها، حتّى بلَغْنا سَدّ الرّوْحاءِ حَلّتْ فبَنى بها.[٦٤]

وتحكي صفية نفسها فيما نقلت لنا كتب الحديث أنها كانت تكره محمدا جدا لأنه قتل عائلتها، قالت: «وكانَ رسولُ اللهِ مِنْ أبْغَضِ الناسِ إليّ قتل زوجي وأبي وأخي.»[٦٥] رغم أن الحديث يقول إن محمدا ظل يعتذر لها حتى ذهب ما في نفسها، لكن هل يذهب الحزن على مقتل الأب والأخ والزوج، ولاسيما أن القاتل هو من أخذها جارية وسلعة وانتهك جسدها؟ أي إحساس لشخص قتل أعز الناس عند امرأة ثم يطلب منها أن تمارس الجنس معه؟ لو قام بهذا زعيم تنظيم الدولة لَعدَّتهُ وكالات الأنباء من أشد الأعمال وحشية، إنه الاغتصاب بأنواعه النفسية والبدنية كلها. هذا كله موجود في السيرة، وهو يدرَّس لنا على أساس أنه جزء من عمل رجل نعدّه القدوة في كل شيء، بل نحسبه رسولا من الله ومعلما للبشرية جمعاء.

---

٦٣. السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٧٠.
٦٤. صحيح البخاري ٢: ٧٧٨، كتاب البيوع، باب «هل يُسافرُ بالجاريةِ قبلَ أن يَسْتبرِئَها؟».
٦٥. صحيح ابن حبان.

داعش تقلد محمدًا في السبايا

لا أستغرب حين أسمع عن مقاتلي تنظيم الدولة الإسلامية يبيعون النساء الإيزيديات ويتاجرون بهن على الملأ، لأني أعلم أن محمدا وأصحابه عدّوا ذلك شرعا من الله. بل إن القرآن يَجعله حلالا طيبا، حيث يقول: «فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ.»[٦٦] يحدد الإسلام أربع زوجات للمسلم، لكنه لا يحدد له عدد «ما ملكت يمينُه». فملك اليمين مسموح به دون حد أو سقف معين، ولذلك كان محمد والصحابة يختارون في الحروب من النساء ما يشاؤون شرط أن يقسموا بينهم قسمة عادلة فيأخذ كل واحد نصيبه. بل إنه يمكن للمرء أن يبيع ويشتري ويبادل فيهن كما شاء، مثل ذلك ما وقع لليهودية صفية التي أخذها محمد لنفسه في غزوة خيبر. فلم تكن في أول الأمر من نصيب محمد، حيث كانت من نصيب أحد أصحابه، لكنه بادله وأعطاه غيرها وأخذها لنفسه. يحكي خادم محمد أنس بن مالك عن غزوة خيبر فيقول:

> ..فجُمعَ السَّبيُ «فجاءَ دِحيةُ فقال: يانبيَّ اللهِ أعطِني جارِيةً منَ السبيِ. قال: اذهبْ فخُذْ جاريةً. فأخذَ صَفيةَ بنتَ حُيَيٍّ فجاءَ رجُلٌ إلى النبيِّ (ص) فقال: يا نبيَّ اللهِ أعطيتَ دِحيةَ صفيةَ بنتَ حُيَيٍّ سَيدَةَ قُرَيظةَ والنَّضير، لا تصلحُ إلاّ لكَ. قال: ادعوهُ بها. فجاءَ بها. فلما نظرَ إليها النبيُّ (ص) قال: خُذْ جارِيةً منَ السبيِ غيرَها. قال: فأَعتقَها النبيُّ (ص) وتزوَّجَها.»[٦٧]

هذا أمر عادي روتيني عند النبي، ولذلك ينبغي أن يكون عاديا عند أعضاء تنظيم الدولة. فهم يقتدون بمحمد والصحابة ويحاولون إعادة تلك الأمجاد التي عاشها أجدادهم.

---

٦٦. سورة النساء، الآية ٣.

٦٧. صحيح البخاري ١: ١٤٥-١٤٦، كتاب الصلاة، باب «ما يُذكرُ في الفخِذِ».

كان محمد والصحابة يأخذون نساء الكفار ويسْبُونهن ويستمتعون بهن. ولذلك، حين أتيحت الفرصة لأعضاء التنظيم، طبقوا نفس ما قرؤوه في الكتب على نساء الإيزيديين. نقل راديو سوا الأمريكي على لسان إحدى الناجيات الإيزيديات وهي تروي مأساتهن وكيف تم أسرهن، قالت:

> بعد أن أخذوا مجموعتنا إلى قضاء سنجار وضعونا في قاعة كبيرة كانت تضم ٦٠ من الفتيات والنساء والشباب. فَصَلُوا عنا الشباب ونقلوا النساء والأطفال إلى الموصل في حين أجبروا الفتيات على البقاء مع عناصر داعش الذين كانوا ينزلون العقاب الشديد بكل فتاة ترفض الانصياع للأوامر.[٦٨]

أليس هذا ما فعله محمد والصحابة بالقبائل التي غزوها؟ ألم يفصلوا الشباب عن الفتيات والأطفال؟ ألم يقتلوا الشباب ويبقوا الفتيات لهم ليتقاسموهن؟ لقد أكدت هذه الطفلة الناجية أن التنظيم قد أسر «نحو ثلاثة آلاف من النساء والفتيات والأطفال.»[٦٩] وتحدثت منظمة العفو الدولية عن احتجاز التنظيم لمئات الفتيات وربما لآلاف منهن، منهن صغيرات حتى في عمر اثنتي عشرة سنة، كيف أنه تم فصلهن عن والديهن، وتم بيعهن أو إهداؤهن أو إرغامهن على الزواج من مقاتلي التنظيم أو من مؤيديه. وصنفت المنظمة هذا العمل على أنه جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية.[٧٠]

ألم يقم محمد بفصل صفية بنت حيي عن أهلها والدخول بها؟ ألم يقم أصحابه بفصل مئات الفتيات بالعمر نفسه عن آبائهن وتم سبيهن واتخاذهن كآلة للتفريغ الجنسي؟ ألم يقبل محمد فتاة كهدية واسمها «ماريا القبطية»؟[٧١] ألم يمارس معها الجنس وحملت وأنجبت ابنا اسمه

٦٨. راديو سوا، «ماريا الأيزيدية تحكي قصتها: هذا ما فعله داعش بنا».
٦٩. نفس المصدر.
٧٠. في تقريرها تحت عنوان «الهروب من الجحيم: التعذيب والعبودية الجنسية في أسر الدولة الإسلامية في العراق» باللغة الإنجليزية ديسمبر ٢٠١٤ الصفحة ٤، ١٥.
٧١. السيرة النبوية لابن هشام ١: ٤٢.

إبراهيم؟ إذا كان محمد هو النموذج الأمثل الذي يجب على المسلم اتباعه وتقليده في كل تصرفاته، فإننا أمام إشكالية هائلة. فكيف يمكننا انتقاد تصرفات المسلمين الملتزمين باتباع نموذج محمد دون انتقاد محمد نفسه؟ لو كان محمد مجرد نموذج له سياق تاريخي معين انتهى بانتهاء سياقه التاريخي، لما كانت هناك إشكالية، لكن محمدا، في عرف المسلمين، نموذج يتجاوز التاريخ والجغرافيا، وهو صالح لأن يكون النموذج الأمثل حتى في القرن الحادي والعشرين. فتصرفاته تُعَدّ بمقياس قرننا هذا جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية، ولكنها في نظر أتباعه وفي نظر تنظيم الدولة شعائر وعبادات عليهم أن يحاربوا في سبيل إعادة إحيائها من جديد.

كان محمد يغري أتباعه ويحمسهم للغزوات من خلال النساء. فقد كان يقول لهم عن نساء الروم: «اغْزُوا تَغْنَمُوا بَنَاتِ الأَصْفَرِ» يعني: نساء الروم.»[٧٢] فلهم نساء في الدنيا ونساء في الآخرة. فإن مات الإنسان فإن له نساء في الجنة ينتظرنه «ويُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وسَبعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ».[٧٣] وإن بقي في الدنيا فإن له نساء سيأخذهن كسبايا حرب. بل إن بعض أصحاب محمد تحرجوا في إحدى الغزوات من ممارسة الجنس مع بعض السبايا لأنهم يعرفون أزواجهن فشعروا بالخجل مما سيقومون بفعله.[٧٤] لكن محمدا استخدم النص (القرآني) ليبيح للمسلمين هذا الأمر، موصيا إياهم ألا يتحرجوا منه مهما بدا لهم غير أخلاقي، حيث قال لهم: «وَالْمُحْصَنَاتُ

٧٢. تفسير الطبري ١٠: ١٠٥، لسورة التوبة الآية ٤٩.

٧٣. الحديث ورد بروايات كثيرة منها ما رواه الترمذي «للشَّهِيدِ عندَ الله سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لُه فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ ويرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، ويُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ على رأسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، اليَاقُوتَةُ منها خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وما فيها، ويُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وسَبعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ (العِينِ)، وَيُشَفَّعُ في سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ» كتاب فضائل الجهاد، باب في ثواب الشهيد.

٧٤. جاء الحديث في كتب كثيرة منها صحيح مسلم حيث يقول: «حدّثنا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ مَيْسَرَةَ الْقَوَارِيرِيُّ : حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ : حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ صَالِحٍ، أَبِي الْخَلِيلِ عَنْ أَبِي عَلْقَمَةَ الْهَاشِمِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ، يَوْمَ حُنَيْنٍ، بَعَثَ جَيْشاً إِلَى أَوْطَاسٍ. فَلَقُوا عَدُوّاً. فَقَاتَلُوهُمْ، فَظَهَرُوا عَلَيْهِمْ، وَأَصَابُوا لَهُمْ سَبَايَا، فَكَأَنَّ نَاساً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ تَحَرَّجُوا مِنْ غِشْيَانِهِنَّ مِنْ أَجْلِ أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذلِكَ: {وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ} (النساء ٤ الآية ٢٤). أَيْ فَهُنَّ لَكُمْ حَلاَلٌ إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ. صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب جواز وطء المسبية بعد الاستبراء وإن كان لها زوج انفسخ نكاحها بالسبي.

مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ».[٧٥] إنه كتاب الله فلا حرج فيه. فإن كان القرآن قد رفع الحرج عن المسلمين الأوائل، فمن المؤكد أنه سيرفع الحرج عن مسلمي هذا العصر إن كان فعلا صالحا لكل زمان ومكان.

لذلك لم يتحرج تنظيم الدولة من نشره لقصص السبي وتبريره لها من القرآن والحديث والسيرة. بل، على نقيض ذلك، عدَّ هجران العالم الإسلامي لهذه السنة عارا عليهم التخلص منه. لذلك تفاخر تنظيم الدولة بإحيائه لهذه السنة المهجورة من خلال سبي النساء الإيزيديات وبيعهن في أسواق النخاسة. فكتب عنها أعضاؤه في أحد أعداد مجلة «دابق»[٧٦]، حيث اختار الكاتب لمقالته هذا العنوان: «إحياء الرق قبل قيام الساعة». وتحته يقول «تعامل تنظيم الدولة مع هذه المجموعة [يقصد النساء الإيزيديات] كما أشار معظم الفقهاء إلى الكيفية التي يجب التعامل بها مع المشركين.»[٧٧] وقال أيضا:

> بعد القبض عليهن، تم توزيع النساء الإيزيديات والأطفال بحسب ما نصت عليه الشريعة بين مقاتلي الدولة الإسلامية الذين شاركوا في عمليات سنجار، وذلك بعدما يتم خصم الخمس وتحويله لسلطة الدولة الإسلامية لكي يتم تقسيمه كخُمُس.[٧٨]

يمضي كاتب المقال ليقول: «العائلات الإيزيدية المسبية يتم بيعها الآن كما تم بيع المشركين من طرف الصحابة.»[٧٩] ثم يكمل في الأخير ليقول:

٧٥. سورة النساء الآية ٢٤.
٧٦. دابق، العدد الرابع.
٧٧. مجلة دابق، العدد الرابع الصفحة ١٤-١٥، باللغة الإنجليزية، الترجمة تمت من طرف الكاتب.
٧٨. نفس المصدر.
٧٩. نفس المصدر، الصفحة ١٥.

> ليتذكر المرء أن سبي عائلات الكفار واتخاذ نسائهم كملك يمين هو جانب مؤكد من جوانب الشريعة، فإذا أنكره شخص أو استهزأ به سيكون منكرا ومستهزءا بآيات القرآن، وبأحاديث النبي (ص)، وبالتالي يكون مرتدا عن الإسلام.[٨٠]

كيف سيرد الذين يقولون إن تنظيم الدولة لا يمت إلى الإسلام بصلة؟ من الذي يمت للإسلام بصلة؟ أليس الذي يحيي سنة رسول الإسلام ويتبعها؟ لقد ألغت البلدان الإسلامية الرق، لا اقتناعا بتجريمه، بل بضغط من المجتمع الدولي. فالرق جزء من الشريعة الإسلامية، ولذلك كانت الدول الإسلامية من أواخر الدول التي أمضت على معاهدات تجريم الرق والإتجار في البشر، حيث جرمته قطر سنة ١٩٥٢ بينما اليمن والسعودية جرّمتاه في ١٩٦٢. وأما موريتانيا فكانت من أواخر الدول التي جرمت الرق سنة ١٩٨٠، لكنه على أرض الواقع ما زال ساري المفعول إلى الآن في بعض المناطق في موريتانيا. وتم تسجيل حالات بيع وشراء أشخاص في بعض الحالات في اليمن.[٨١] ولا توجد حتى الآن فتوى رسمية صادرة عن المؤسسات الدينية تحرم الرق شرعا لأن ذلك مستحيل. فالشرع، على نقيض ذلك، يبيح الرق ويقننه. بل إن محمدا عدَّ كل عبد هرب من سيده كافرا مهدور الدم ليس له أي ضمان على حياته.[٨٢] بل قال بأن الله لا يقبل صلاة العبد الذي يهرب من سيده.[٨٣]

قال الشيخ السعودي صالح الفوزان، عضو في اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في السعودية، إن الرق تشريع قرآني حيث قال:

---

٨٠. مجلة دابق، العدد الرابع، الصفحة ١٧.
٨١. سي إن إن بالعربية، «جوار وعبيد بالألفية الثالثة.. الرق يطل في دول عربية».
٨٢. جاء في الحديث «أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ مَنْ مَوَالِيهِ فَقَدْ كَفَرَ: حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيهِمْ». وجاء أيضا ««أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ». صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تسمية العبد الآبق كافرا.
٨٣. صحيح مسلم ٢: ٤٩، كتاب الإيمان، باب «تسمية العبد الآبق كافرًا».

هذا الحكم مرتبط بالقرآن ولا يمكن إلغاؤه طالما استمر «الجهاد في سبيل الله» لأنه تابع له، مضيفا قائلًا: «ذلك حكم الله، لا محاباة ولا مجاملة لأحد ولو كان الرق باطلا لكان الإسلام قد صرح بذلك كما فعل في الربا والزنا، فالإسلام شجاع ولا يجامل الناس.[٨٤]

لقد امتلك محمد عبيدا،[٨٥] وامتلك الصحابة العبيد. بل وضع محمد قوانين لبيع وشراء العبيد،[٨٦] وبيع وشراء النساء على نحو خاص، فلا يستطيع أحد أن يتهم تنظيم الدولة بعدم تطبيقه للإسلام في هذه الحالة. بل الذين يخالفون الإسلام لا يخالفونه إلا مضطرين تحت الضغوط الدولية، لكنهم لا يستطيعون على الملأ أن يقولوا إن ملك اليمين حرام شرعا أو إن الرق حرام شرعا. إنه رضوخ من الدول الإسلامية لا أقل ولا أكثر. فإن كان رضوخا، فتنظيم الدولة لا يريد الرضوخ. فطالما أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق،[٨٧] فإنه أجدر أن يتم تطبيق شرع الله ويتم بيع السبايا من المشركين وتبادلهم وإهداؤهم. هذا هو الإسلام كما قرأناه في الكتب الأولى، في القرآن وتفاسيره وفي كتب الحديث، وفي كتب السيرة.

يروي جابر أحد أصحاب محمد أن بيع النساء والمتاجرة فيهن كان شيئا عاديا أمام أعين محمد، ولم يكن ينهاهم عن ذلك قط، حيث قال: «كنا نبيع سرارينا أمهات أولادنا والنبيّ (ص) فينا حي لا يرى بذلك بأساً.»[٨٨] وقد قال الشافعي، مؤسس المذهب الذي عرف باسمه، وهو الفقيه الشامي الذي ولد في القرن الثامن الميلادي، في كتابه الأم:

---

٨٤. سي إن إن بالعربية، «أنباء «سبي» داعش لنساء أيزيديات تُغضب عضو شورى سعودي...».

٨٥. ذكر ابن القيم حوالي ثمانية وعشرين مولى لمحمد منهم الذين حررهم ومنهم الذين لم يحررهم، هذا من الرجال عدا النساء، انظر زاد المعاد لابن القيم ١: ١١١.

٨٦. مثل قوله «لا يُفَرَّقُ بيَن والدةٍ وَوَلَدِهَا» «السنن الكبرى للبيهقي ١٣: ٤٥٨، جماع أبواب السير، باب «التفريق بين المرأة وولدها».

٨٧. الحديث في مسند أحمد ١: ٢١٢، يقول «لا طاعة لمخلوق في معصية الله عز وجل».

٨٨. مسند الإمام أحمد ٤: ٢٦٦.

> سَبَى رسُولُ الله نساءَ بني قريظة وذراريهم فباعهم من المشركين، فاشترى أبو الشحم اليهوديُّ أهل بيت عجوزاً وولدها مِنَ النبي (ص)، وبعث رسولُ الله بما بقي من السبايا أثلاثاً؛ ثلثاً إلى تهامةَ، وثلثاً إلى نجد، وثلثا إلى طريق الشام، فبيعوا بالخيل والسِّلاَحِ والإبلِ والمالِ.[٨٩]

إذن تاجر محمد بالسبايا، باعهن، وامتلكهن، وبادل بهن، وأغرى بهن المقاتلين. وكان يختار أجملهن. وهكذا يفعل تنظيم الدولة اليوم. فهو يحيي الماضي الذي يشتاق إليه الشباب المسلم، الماضي الذي طالما حدثونا عنه وصوروه لنا جميلا نقيا وأنه أفضل ما يمكن أن نعيشه. خلقوا فينا نوستالجيا للوهم نحاول أن نعيده أو نعيد أجزاء منه، حتى صرنا نعتقد أن سبب تخلفنا وانهزامنا هو ابتعادنا عن ذلك النموذج الرباني الذي أرساه محمد بن عبد الله في القرن السابع الميلادي، وأن تنظيم الدولة هو تلك النافذة التي يريد الشباب المتدين أن يعود من خلالها إلى ما كتبه الفقهاء، وما حدثنا به رجال الدين طوال هذه السنين وما روجته لنا الفضائيات الإسلامية، وما شرحته لنا الكتب وما علمتنا إياه المدارس، وما وعظنا به الوعاظ على المنابر، تلك النخوة والعزة .. العزة بأن تغزو الكفار وتأخذ نساءهم وأطفالهم وتبيعهم .. النخوة بأنك قتلت الرجال منهم وأذللت نساءهم وأطفالهم.

لقد علمونا أن عزة الإسلام بأنه يُنصر من الله، وأن الذل للباقين من الكفار. ولذلك قام تنظيم الدولة بطبع مطويات توزع على أتباعه ونشرها على الإنترنت، تحت عنوان «سؤال وجواب في السبي والرقاب» وهي تتضمن ٣٢ سؤالا عن السبي والرقاب يجيب عليها التنظيم من خلال الشرع الإسلامي. وأول سؤال فيه هو: «ماهو السبي؟» والجواب كالتالي

---

٨٩. كتاب الأم ٧: ٥٩٩.

«السبي ما أخذه المسلمون من نساء أهل الحرب.» والسؤال الثاني هو «ما هو مبيح السبي؟» والجواب عليه هو: «مبيح السبي الكفر، فتباح لنا الكوافر بتقسيم الإمام لهن، بعد وضع اليد عليهن، وإحضارهن إلى دار الإسلام.» والسؤال الثالث هو: «هل يجوز سبي جميع الكافرات؟» والجواب عليه هو: «لا خلاف بين العلماء في جواز سبي الكافرات كفرا أصليا، كالكتابيات والوثنيات.» أما السؤال الرابع فهو الذي يتحدث عن العملية الجنسية فهو: «هل يجوز وطء السبية؟» والجواب هو: «يجوز وطء السبية، قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ..»[٩٠] وما ملكت أيمانهم من السبايا».[٩١] تعتمد هذه الأسئلة والأجوبة كلها وأخرى غيرها على الدين الإسلامي وأقوال الفقهاء والعلماء المعتبرين في التاريخ الإسلامي. فعلى كل من يقول إن تنظيم الدولة يعارض الإسلام بتصرفاته أن يستدل على كلامه بالنصوص وبالعلماء لا بمجرد الكلام المرسَل. فحجة تنظيم الدولة أقوى دينيا، وأقوى من ناحية الاستدلال بحياة محمد وصحابته. وعلى من يخالفونهم أو يحاولون سلخهم من الإسلام لتبرئة الدين أن يقولوا لنا أين أخطأ التنظيم؟ هل فعل تنظيم الدولة أي فعل يتنافى أو يتعارض مع ما فعله نبي الإسلام محمد؟

محمد غازيا حتى آخر لحظة

لم يتوقف محمد عن الغزو حتى مماته. فقد توالت الغزوات بعد غزوة خيبر على اليهود. بعث بعضهم له مستسلمين خوفا، مثل أهل فدك، حيث استسلموا له على أن يعطوه نصف أرضهم.[٩٢] وصارت هذه الأرض ملكا لمحمد وحده لأن كل ما جاء بالاستسلام دون حرب يكون ملكا لمحمد

٩٠. سورة المؤمنون الآيات ٥ و ٦.
٩١. مكتبة الهمة، مطوية «سؤال وجواب في السبي والرقاب».
٩٢. قال ابن إسحاق: فلما فرغ رسول الله من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك، حين بلغهم ما أوقع الله تعالى بأهل خيبر، فبعثوا إلى رسول الله يصالحونه على النصف من فدك. السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٩٩.

وحده.[٩٣] أليس هذا ما يفعله أعضاء العصابات حين يقبضون أموالا من الأشخاص مقابل ألا يتعرضوا لهم؟

في السنة الموالية، بعث محمد جيشا من ثلاثة آلاف مقاتل لمقاتلة الروم فرجعوا منهزمين وهي الغزوة التي أطلق عليها اسم غزوة مُؤتة. وفي السنة نفسها، قاد جيشا كبيرا من حوالي عشرة آلاف مقاتل،[٩٤] وغزا قومه في مكة. وبهذا الخصوص، يحكي رواة الأحاديث عن محمد أنه أمر أصحابه بأن يقتلوا كل من اعترضهم من قريش، حيث قال لهم:

> يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، هَلْ تَرَوْنَ أَوْبَاشَ قُرَيْشٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: انْظُرُوا. إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ غَداً أَنْ تَحْصِدُوهُمْ حَصْداً، وَأَخْفَى بِيَدِهِ. وَوَضَعَ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ. وَقَالَ: «مَوْعِدُكُمُ الصَّفَا» قَالَ: فَمَا أَشْرَفَ يَوْمَئِذٍ لَهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ أَنَامُوهُ.[٩٥]

وفي السنة نفسها، غزا بعض القبائل العربية في جيش كبير أيضا، وسميت غزوة حُنين، ثم غزا غزوة أخرى في السنة نفسها تسمى غزوة الطائف، وبعدها غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة. وحتى حين كان محمد على فراشه في السنة الحادية عشرة للهجرة، كان قد جهز جيشا لأسامة بن زيد بن حارثة (ابن ابنه بالتبني) لغزو الروم.[٩٦]

لم يتوقف محمد عن الغزو منذ أن بدأ أول غزوة بعد خروجه من مكة وذهابه إلى المدينة حتى مماته. لم يكن يبحث عن السلم قط. فالقرآن لا يدعو إلى السلم إلا في حالة الهزيمة، حيث يقول: «فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى

---

٩٣. كل ما جاء من دون حرب يكون خالصا لمحمد، والغريب أنهم يسمون هذا صلحا في حين أنه استسلام خوفا من السيف وقبول شروط جائرة، مثل أن يعطوا نصف أرضهم له مقابل ألا يهاجمهم.

٩٤. انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤: ١٥٣ تحت عنوان «تلمس قريش أخباره عليه السلام».

٩٥. صحيح مسلم ١٢: ١٠٥، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة. هناك بعض الأحاديث التي تذكر أن محمدا قد عفى عن قومه وقال لهم «اذهبوا فأنتم الطلقاء» لكن هذه الأحاديث مرفوضة من طرف علماء الإسلام وتعدّ ضعيفة لدى الألباني مثلا.

٩٦. السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٣٨٥، تحت عنوان «بعث أسامة بن زيد إلى أرض فلسطين».

السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ».[٩٧] السلم مجرد تكتيك عسكري مؤقت لا هدف نهائي. يلخص لنا كاتب السيرة مجموع غزوات محمد في السنوات العشر التي قضاها في المدينة فيقول لنا: «وكان جميع ما غزا رسول الله (ص) بنفسه سبعا وعشرين غزوة.»[٩٨] وأما في ما يتعلق بالبعثات العسكرية التي أرسلها فقد عدّها لنا كاتب السيرة بأنها ثمانٍ وثلاثون،[٩٩] لكن بعض علماء المسلمين عدوا أكثر من ذلك فجعلوها ستّاً وخمسين سرية.[١٠٠] يعني حوالي ثلاثًا وثمانين عملية عسكرية في حوالي عشر سنين، بمعدل عملية عسكرية كل ثلاثة وأربعين يوما.

هل يمكن لرجل يقوم بحرب كل ثلاثة وأربعين يوما أن ينال جائزة نوبل للسلام؟ هل يمكن أن نعده رجل سلام؟ كان محمد رجل حرب بامتياز، كان يسعى للحرب ويجد في طلبها. تحكي كتب السيرة أنه بعث رسائل تهديد للملوك المجاورين له، يدعوهم إلى الإسلام (أي الاستسلام له) أو إعلان الحرب.[١٠١] فلم يكن لهم أي خيار ثالث غير الخضوع لدينه الجديد وقبوله رسولا، أو شن حروبه عليهم ليستحل أموالهم ونساءهم وأولادهم ويقطع عليهم تجارتهم ويغير على مصالحهم أينما كانت. من جملة ما تضمنته هذه الرسائل ، كما تقول الأحاديث، عبارة «أَسْلِمْ تَسْلَمْ»، وهي عبارة تعني السلم مقابل الدخول في الإسلام، وإلا فالحرب. أليس هذا ما تعمله الجماعات الإسلامية اليوم؟ ألم تقم القاعدة بتهديد الغرب مرات كثيرة لتلبية مطالبها، وإلا فعليه بقبول الحرب على مصالحه؟ نفس هذا المنطق هو ما يسير عليه تنظيم الدولة. إذ من المؤكد أن أعضاءه يتوقعون

٩٧. سورة محمد الآية ٣٥.
٩٨. السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٣٩٤ .
٩٩. نفس المصدر ٤: ٣٩٥.
١٠٠. يقول النووي: قد اختلف أهل المغازي في عدد غزواته (ص) وسراياه، فذكر ابن سعد وغيره عددهن مفصلات على ترتيبهن فبلغت سبعاً وعشرين غزاة وستاً وخمسين سرية. شرح النووي على صحيح مسلم ١٢: ١٥٣.
١٠١. يقول كاتب السيرة «وقد كان رسول الله (ص) بعث إلى الملوك رسلا من أصحابه وكتب معهم إليهم يدعوهم إلى الإسلام» السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٣٨٦.

(طبعـا بعـد ترسـيخ دعائـم الدولـة الإسـلامية) أن يبـدأ الخليفـة في بعث الرسـائل إلى الدول المجـاورة يدعوهـا للإسـلام، فـإن أبـت الدخـول فيـه، سـيعلن الحـرب عليهـا وعلى مصالحهـا أينمـا كانـت. وهكـذا فـإن تنظيـم الدولـة يسـير على خطـى محمـد، نـبي الإسـلام.

-11-

داعش والجهاد: الغزو فريضة إسلامية

سيف محمد أبلغ من قرآنه

مات محمد وجيشه جاهز لغزو الروم بقيادة أسامة بن زيد. مات محمد دون أن يحقق حلمه بإخضاع دول بكاملها لإرادته. ففعل هذا أصحابه من بعده، فصارت الدولة الإسلامية إمبراطورية عظيمة تمتد أطرافها من حدود الصين إلى فرنسا. وقد تم هذا كله في أقل من قرن من الزمان. فهل حصل هذا التوسع بسبب حب الناس للإسلام أم بسيوف المسلمين؟ ومن الذي علّم المسلمين وحرضهم على الغزو؟ ألم يكن محمد القدوة لهم؟ لماذا قاد أصحابه بعد موته حروبا وغزوات أخرى؟ لقد استمر الإسلام في التوسع بفضل القوة العسكرية، لا بفضل الإقناع العقلي أو الجدال الفلسفي والمنطقي. لم يبدأ ازدهار الكتابة والتأليف في العصر الإسلامي إلا في عهد الدولة العباسية عندما كانت الإمبراطورية الإسلامية متسعة الأطراف أي بعد حوالي قرن ونصف من موت محمد. وبالتالي، لا

يمكن القول بأن الإقناع قد تم عن طريق الكتب والقرآن. لقد كانت الوسيلة الأساسية للإقناع هي السيف، قاعدة «أَسْلِمْ تَسْلَمْ»، وإن «لم تُسلِم لن تَسْلَم» من سيف الدولة الإسلامية.

كيف تستطيع أن تقنع شعوبا دفعة واحدة بدين معين؟ رغم ذلك، تجد الكتب الإسلامية تتحدث عن فتح البلدان دفعة واحدة، فتح مصر، فتح المغرب، فتح الأندلس. وسبب تسميتها فتوحات هو أنها في نظرهم دول كانت مغلقة في وجه الإسلام ففتحها الله عليهم كما فتح مكة لمحمد لأنها كانت مغلقة على الإسلام.[١] ولذلك سمي عام دخول محمد إلى مكة منتصرا «عام الفتح». هناك آيات معينة في القرآن تتحدث عن الفتح، بل توجد سورة بكاملها تسمى سورة الفتح،[٢] كما أن «سورة النصر»[٣] في القرآن تتحدث عن الفتح، إذ تقول: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا».[٤] فالفتح مقترن بالنصر العسكري، وبعده تدخل الأفواج إلى الإسلام، فالنصر على الأعداء يكون بإخضاعهم أفواجا لدين الله «الإسلام».

يعتقد مفسرو القرآن أن هذه السورة «سورة النصر» بالتحديد تتحدث عن دخول محمد لمكة منتصرا على قومه «فاتحا بلده.»[٥] فإخضاع الناس بالقوة للإسلام شيء واضح في سيرة محمد وأحاديثه وفي آيات قرآنه. وقد فهمه صحابة محمد المقربين، إذ علق أبو هريرة وهو أحد أشهر من نقل الحديث عن محمد على آية قرآنية تقول: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ».[٦] فقال مفسرا للآية: «خير النَّاس للناس،

١. جاء في لسان العرب باب الفاء: «والفَتْحُ: افتتاح دار الحرب، وجمعه فُتُوحٌ. والفَتْحُ: النصر».
٢. السورة رقم ٤٨ في المصحف الحالي.
٣. السورة رقم ١١٠ في المصحف الحالي.
٤. سورة النصر الآيات ١ و ٢.
٥. يقول الطبري في تفسيره لسورة النصر: «إذا جاءك نصر الله يا محمد على قومك من قريش، والفتح: فتح مكة ورأَيْتَ النَّاسَ من صنوف العرب وقبائلها أهل اليمن منهم، وقبائل نزار يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجا»، تفسير الطبري ٣٠: ٣٤٣.
٦. سورة آل عمران الآية ١١٠.

تأتونَ بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يَدخُلوا في الإسلام.»[٧] لقد فهم المسلمون الأوائل هذه الآية القرآنية أنها تجعلهم خير أمة لأنهم يجبرون الناس على الخضوع لدينهم ويأتون بهم في السلاسل للدخول في الإسلام بقوة السيف. واليوم يطبق تنظيم الدولة المبدأ نفسه. فإن كان قد خيّر مسيحي الموصل بين الجزية والإسلام أو الخروج،[٨] فإنه لم يعط للإيزيديين إلا خيار الإسلام أو الموت.[٩] ولذلك ظهر شريط فيديو فيه عشرات الإيزيديين يسلمون على أيدي أعضاء التنظيم ويعلنون توبتهم من الكفر الإيزيدي إلى الإسلام.[١٠] وبطبيعة الحال، حدث هذا كله بالإكراه، تماما كما فعل محمد والصحابة من قبل.

قال ابن تيمية الفقيه المشهور (القرن الثالث عشر-الرابع عشر)، والذي يعدّ عند السلفيين «شيخ الإسلام» وواحدا من أهم الأعلام عندهم: «قوام الدين كتاب يهدي وسيف ينصر.»[١١] إن سيف محمد لا قرآنه هو من فرض الإسلام على القبائل العربية ومن ثم إلى جيرانهم حتى صار إمبراطورية. لم يكن عدد أتباع محمد في الفترة المكية التي بلغت ثلاث عشرة سنة إلا عشرات من الأتباع. وفي الفترة المدنية التي لم تمتد سوى عشر سنين، وصل عدد الأتباع إلى عشرات الآلاف. والدليل على ذلك هو أن يوم دخول محمد إلى مكة، كان لديه عشرة آلاف مقاتل،[١٢] عدا أتباعه من النساء والأطفال والشيوخ. لماذا لم يقنعهم محمد بالقرآن طيلة ثلاثة عشر سنة

---

٧. صحيح البخاري ٤: ١٦٦٠، كتاب التفسير، سورة آل عمران، باب {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} (آل عمران: ١١٠).

٨. الجزية تشريع قرآني كما في سورة التوبة الآية ٢٩ «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ».

٩. التوبة ٥ تم تطبيقها مع الإيزيديين «فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ».

١٠. فرانس ٢٤، «فيديو: تنظيم «الدولة الإسلامية» أجبر الإيزيديين المحتجزين لديه على اعتناق الإسلام»، ومواقع أخرى. والفيديو موجود على اليوتيوب.

١١. مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠: ١٣.

١٢. قال ابن إسحاق في السيرة «ثم مضى حتى نزل مر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين»، السيرة النبوية لابن هشام ٤: ١٥٣.

حين كان يتلوه عليهم؟ لقد كانوا يستهزئون بمحمد حين لم يكن له أي جيش، حيث يقول القرآن موجها الخطاب لمحمد: «وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولا».[١٣] بل إنهم اتخذوا القرآن أيضا هزءًا حتى إن محمدا كان يوصي أتباعه ألا يجلسوا مع قومهم حين يكون القرآن محور حديثهم واستهزائهم، حيث قال: «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ».[١٤] فما الذي حصل إذن؟ ما الذي غيّرهم؟ هل اقتنعوا فجأة في آخر سنواته بعدما صار عنده جيش من آلاف المقاتلين؟ نجد الجواب عند الشاعر السوري أبي تمام الذي ولد في القرن الثامن الميلادي، حيث قال في أبيات له:

السيف أصدق أنباءً من الكتب — في حده الحد بين الجد واللعب

لقد كان سيف محمد أصدق وأفصح وأبلغ من قرآنه، به حسم المعركة لصالحه.

الجهاد مصدر للرزق في الإسلام

لم يكن محمد يخفي أن سيف المعركة هو أساس دعوته، بل قد افتخر بأن رزقه لا يأتيه إلا من خلال الحروب التي يخوضها. فهو يقتات منها ويعيش عليها، ولذلك قال بكل وضوح: «جُعِل رزقي تحت ظِلِّ رمحي، وجُعِلَ الذِّلةُ والصَّغارُ على مَن خالفَ أمري.»[١٥] فالسيف لا يأتي بالناس إلى الإسلام فحسب، بل يأتي بالرزق إلى الدولة الإسلامية وأمرائها. وهذا هو ما ينتهجه أعضاء تنظيم الدولة. فالحرب لا تجعلهم فقط ينتصرون على أعدائهم بحيث يقضون على بعضهم ويخضعون آخرين بالقوة لهم. بل إن تلك الحروب والهجمات هي مصدر رزقهم وعيشهم أيضًا. ولذلك علق

---

١٣. سورة الفرقان الآية ٤١.
١٤. سورة النساء الآية ١٤٠.
١٥. صحيح البخاري ٣: ١٠٦٧، كتاب الجهاد والسير، باب «ما قيلَ في الرِّماح».

أحدهم في مجلة دابق التابعة لتنظيم الدولة عن الحديث السابق واستدل به قائلًا: «هذا الحديث يدل على أن الله لم يبعث رسوله لكي يسعى لطلب الدنيا، ولا لجمع الدنيا وثرواتها، ولا للكفاح للحصول على أسبابها، بل بالأحرى بعثه لينادي بتوحيده بالسيف.»[١٦] فلم يبعث الله محمدًا ليشتغل ويكد ويجد، بل جعل رزقه من سيفه الذي يحارب به الكفار.

يجد الدارس لسيرة محمد وأصحابه أنهم لم يمتهنوا أي شيء حين بدأ الإسلام. فمحمد لم يعد تاجرا بعدما ادعى النبوة، ولم تكن له أية مهنة يعيش منها. فكانت مهنته الحرب والغارات التي يأخذ منها المال الذي يصرفه على زوجاته وبيوته.[١٧] وكذلك هو الأمر بالنسبة لأصحابه، فلم تعد لهم أية مهنة بعد اعتناقهم للإسلام. فلم تكن لأبي بكر صديقه الوفي وصهره وأول الخلفاء من بعده أية مهنة في الإسلام سوى أنه كان مسلما. وينطبق هذا الأمر على عمر بن الخطاب أحد أعمدة الإسلام وأقرب المقربين من محمد وصهره أيضا، وثاني الخلفاء من بعده. لم تكن له أية مهنة هو الآخر في الإسلام سوى أنه مسلم ومحارب مع محمد. وقس على هذا بقية أصحاب محمد، فكان هؤلاء كلهم يعيشون من الغزوات والغنائم والجزية التي فرضوها على غيرهم. لم يعيشوا من عرق جبينهم، بل من الاستيلاء على أرزاق غيرهم مستخدمين الدين والله غطاء. فلماذا نستغرب اليوم أن يقوم تنظيم الدولة بنسخ تلك التجربة في الوقت المعاصر؟ إنها النموذج الرباني الذي تم تقديمه لنا منذ الصغر على أساس أنه أفضل عصر مرت به الأمة الإسلامية وأفضل ما قدمته للبشرية.

---

١٦. مجلة دابق العدد الرابع، مقال «جعل رزقي تحت ظل رمحي».

١٧. مثلا بعدما طرد محمد بني النضير أخذ أموالهم وصار يصرف منها نفقة السنة على أهله جاء في صحيح البخاري: «كانت أموالُ بني النَّضيرِ ممّا أفاءَ اللهُ على رسولِهِ (ص) ممّا لم يُوجِفِ المسلمون عليهِ بخَيلٍ ولا رِكاب، فكانت لرسول الله (ص) خاصةً، وكان يُنفِقُ على أهلهِ نَفَقةَ سَنَتِهِ، ثمَّ يجعلُ ما بقيَ في السلاحِ والكُراعِ عُدَّةً في سبيلِ الله.» صحيح البخاري ٣: ١٠٦٤، كتاب الجهاد والسير، باب «المِجَنِّ ومَن يَتَّرِسُ بتُرْسِ صاحبهِ». وقد جاءت آية في القرآن تعالج هذا الأمر: «وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (سورة الحشر الآية ٦).

من هنا بدأت قناعة المسلمين بالجهاد. فهو الطريق الأمثل لنشر الإسلام وبسط سيطرته على العالم، والطريق الأقصر للحصول على الأموال والنساء. ولو لم يكن الجهاد هو الطريق الأمثل والأقصر لما فرضه محمد على أتباعه رغم علمه بكراهيتهم له. إذ يقول: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ».[18] ولذلك ظل محمد يحبب فكرة الجهاد لأتباعه بالطرق المتنوعة كلها، حيث جعل الاستشهاد في القتال أرقى درجات الإيمان، ووعد الشهيد بشهوات ومزايا كثيرة. بل ردّد هو نفسه أمامهم أنه يحب أن يموت في المعركة ويقوم من جديد ليموت شهيدا مرة أخرى، حيث قال مقسما بالله: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ وَدِدْتُ أَنِّى لأُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ..»[19]. إذا كان محمد نفسه يتمنى الموت وهو يحمل سيفه يقاتل في سبيل نشر الإسلام، فكم بالأحرى أتباعه! حين يقرأ المسلم المخلص في إيمانه هذه النصوص، لا بد أنها ترغّبه بقوة في أن يتبع نبيه وقدوته في خطواته كلها إذا أراد فعلا أن يكون مسلما حقيقيا مطبّقا لسنّة الرسول.

قال أسامة بن لادن معلقا على هذا الحديث في شريط لمؤسسة السحاب الذراع الإعلامي للقاعدة وقتها:

> خاتم الأنبياء والمرسلين (ص) يتمنى هذه المنزلة، فَعُوا واعقِلُوا ما هي هذه المنزلة التي يتمناها خير البرية [يقصد محمدا]، يتمنى أن يكون شهيدا.. فهذه الحياة الطويلة العريضة يختصرها الذي يُوحَى إليه من رب السموات والأرض سبحانه وتعالى، هذا النبي الكريم الذي يُوحَى إليه يختصر هذه الحياة بهذه الكلمات، يتمنى هذه المنزلة، فالسعيد من إتخذه الله شهيدا.[20]

١٨. سورة البقرة الآية ٢١٦.

١٩. جاء الحديث بصيغ كثيرة هذه الرواية عن أبي هريرة في صحيح البخاري ٦: ٢٦٤١، كتاب التمني، باب «مَا جَاءَ فِى التَّمَنِّى وَمَنْ تَمَنَّى الشَّهَادَةَ».

٢٠. المقطع منتشر على المواقع الجهادية على الأنترنت، انتجته مؤسسة السحاب، والتعليقات عليه على اليوتوب كلها تدعو بالجنة لأسامة بن لادن وتعُدّه بطلا وقف في وجه الطغيان الأمريكي، بل

لأحاديث محمد السلطة العليا في وجدان الشخص المسلم، ولذلك كلما تم تذكيره بهذه الأقوال وترديدها عليه ازداد اقتناعًا بها واستسلم لها. وما يستخدمه الجهاديون هو مجرد إعادة تذكير وتركيز أكثر على هذه الأقوال[٢١]. وأما الأساس، فقد تم وضعه في عقولنا من التربية الدينية التي نتعرض لها في مستويات مختلفة في حياتنا، ولا شك أن حب الموت واحتقار الحياة واحد من تلك المبادئ التي تلقيناها منذ الصغر.

الإسلام وثقافة الموت

ضَمِنَ محمد الجنة لمن جاهد وحمل السيف في سبيل الله. والمقصود هنا بطبيعة الحال هو في سبيل الإسلام. فقال لأصحابه مشجعا إياهم على الجهاد:

> تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ جِهَاداً فِي سَبِيلِي، وَإِيمَاناً بِي، وَتَصْدِيقاً بِرُسُلِي. فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ. أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ. نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ.[٢٢]

ضَمِن محمد لهم الجنة أو الغنائم. فإن عاشوا في الدنيا، لهم الغنائم من مال ونساء، وإن ماتوا لهم أيضا غنائم مادية من نوع آخر. ويعني هذا أنه وعدهم بتلبية شهواتهم الجنسية والمادية كلها. بل صوّر لهم الجنة التي تليق بفكر عربي يعيش في مكان صحراوي لا ماء فيه والحر يكاد يقتله من شدته. لذلك وعد محمد أتباعه بجنة من هذا النوع «مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا».[٢٣] لا يرون فيها حر الشمس ولا برودة الصحراء القاتلة ليلا، كما وعدهم «بجنات تجري من تحتها

ويسميه البعض أسد الإسلام.

٢١. يقول القرآن بهذا الخصوص «وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ» (سورة الذاريات الآية ٥٥).

٢٢. صحيح مسلم ١٣: ١٨، كتاب الإمارة، باب «فضل الجهاد والخروج في سبيل الله».

٢٣. سورة الإنسان الآية ١٣.

الأنهـار»، وهـو لفـظ يتكـرر في القـرآن مـرات كثـيرة.[٢٤] ووعدهـم بالظـل «وظِـلٍّ مَمْـدُودٍ»[٢٥] جنـة فيهـا ظـل الفواكـه مثـل الحدائـق الـتي وصفتهـا حكايـات ألـف ليلـة وليلـة «وَدَانِيَـةً عَلَيْهِـمْ ظِلالُهَـا وَذُلِّلَـتْ قُطُوفُهَـا تَذْلِيـلا».[٢٦] يـروق هـذا كلـه عقليـة مـن يعيـش في شـبه الجزيـرة العربيـة الـتي تعـاني مـن قسـاوة الطبيعـة. وهـذا كلـه للمؤمنـين العاديـين. وأمـا بالنسـبة للشـهيد، فلـه فـوق هـذا كلـه مـا لا عـين رأت ولا أذن سـمعت ولـم يخطـر على بـال بـشر.[٢٧]

لقـد أخـبر محمـد أتباعـه عـن الجنـة أنهـا تحـت ظـلال سـيوف المجاهديـن، حيـث يجدونهـا حـال موتهـم وهـم يحاربـون. قـال «إِنَّ أَبْـوَابَ الْجَنَّـةِ تَحْـتَ ظِـلاَلِ السُّـيُوفِ.»[٢٨] وقـال إن الشـهيد يغفـر له كل ذنـب.[٢٩] بـل وعـد بخصـال معينـة يتمـيز بهـا الشـهيد المسـلم الذي يمـوت في سـبيل الإسـلام عـن أي مسـلم آخـر، حيـث قـال:

> للشَّـهِيدِ عنـدَ الله سِـتُّ خِصَـالٍ : يُغْفَـرُ لَهُ في أَوَّلِ دُفْعَـةٍ [مـن دمـه] ويـرَى مَقْعَـدَهُ مِـنَ الْجَنَّـةِ، ويُجَـارُ مِـنْ عَـذَابِ القَـبْرِ، وَيَأْمَـنُ مِـنَ الفَـزَعِ الأَكْـبَرِ، وَيُوضَـعُ على رأْسِـهِ تَـاجُ الوَقَـارِ، اليَاقُوتَـةُ منهـا خَـيْرٌ مِـنَ الدُّنْيَـا ومـا فيهـا، ويُـزَوَّجُ اثْنَتَـيْنِ وسْـبعِينَ زَوْجَـةً مِـنَ الْحُـورِ [الْعِـينِ]، وَيُشَـفَّعُ في سَـبْعِينَ مِـنْ أَقَارِبِـهِ.[٣٠]

سـمعت هـذه الأحاديـث مـرارا وتكـرارا في الخطـب، وفي الأحاديـث العاديـة وفي المناسـبات الدينيـة، وفي النقاشـات بـين والدي وأصدقائـه مـن الذيـن لهـم تخصص

---

٢٤. مثلا: سورة البقرة الآية ٢٥، سورة آل عمران الآية ١٥، سورة النساء الآية ١٣.
٢٥. سورة الواقعة الآية ٣٠.
٢٦. سورة الإنسان الآية ١٤.
٢٧. حديـث لمحمـد جـاء في صحيـح البخـاري ٣: ١١٨٥، كتـاب بـدء الخلـق، بـاب «مـا جـاء في صفـةِ الجنَّـةِ وأنهـا مخلوقـة»، لكنـه في الحقيقـة مأخـوذ مـن العهـد الجديـد خصوصـا مـن رسـالة بولس الأولى إلى أهـل كورنثـوس أصحـاح ٢ آيـة ٩ «مَـا لَـمْ تَـرَ عَـيْنٌ، وَلَـمْ تَسْـمَعْ أُذُنٌ، وَلَـمْ يَخْطُـرْ عَلَى بَـالِ إِنْسَـانٍ: مَـا أَعَـدَّهُ اللهُ لِلَّذِيـنَ يُحِبُّونَـهُ».
٢٨. صحيح مسلم ١٣: ٣٨، كتاب الإمارة، باب «ثبوت الجنة للشهيد».
٢٩. «يغفـر للشـهيد كل ذنـب إلا الديـن» صحيـح مسـلم ١٣: ٢٧، كتـاب الإمـارة، بـاب «مـن قتـل في سـبيل الله كفـرت خطايـاه، إلا الدَّيـن».
٣٠. مسند أحمد ٥: ١١٧، وسنن الترمذي ٥: ٢٤٦.

في الدين. إنها أحاديث عادية يعرفها مسلمون بسطاء كثيرون، ويعرفها عن ظهر قلب المتخصصون. فإذا زرعت هذه الأحاديث في عقولنا منذ الصغر وصدقنا أنها هي الحق الإلهي الذي يأخذ الإنسان للجنة، فلا عجب حينها أن يلتحق الكثير من الشباب المسلم الذي يريد أن يأخذ دينه على محمل من الجد بالجماعات الجهادية، لأنها في نظره هي الوحيدة القادرة على أن توفر له البيئة الخاصة بالجهاد والتي تنطبق عليها صفات هذه النصوص. إنها حوافز أساسية تجعل الإنسان المتدين المؤمن بأن هناك حياة أخروية بهذه الأوصاف يتخلى عن كل شيء في سبيل الحصول عليها.

علّمنا الإسلام أن نحب الموت ونفضله على الحياة. علمنا محمد كيف نموت في سبيل الله، ولم يعلمنا كيف نعيش في سبيل الله. لذلك تجد في الكثير من التصريحات لزعماء الجماعات الجهادية عبارة تتكرر كثيرا: «نحن قوم نحب الموت كما تحبون الحياة.» وتلخص هذه العبارة المأساة التي نعيشها في العالم الإسلامي. إننا نمجد الموت في كل شيء، إذ نعُدّه بطولة، وبالمقابل نحتقر الحياة بكل ما فيها من مزايا. لذلك لم يتعلم شبابنا كيف يحيون، لم يتعلموا كيف يحبون الحياة، بل تعلموا أن الحياة الحقيقية هي ما بعد الموت. وأما الحياة التي قبل الموت (الحياة الدنيا) فهي تافهة لا تستحق أن تعاش.

لم ينشأ هذا التصور من عدم ولم تأت هذه المقولة من فراغ بل قيلت في بداية التاريخ الإسلامي على لسان واحد من أعظم قيادات الإسلام الأولى، خالد بن الوليد الذي لقبه محمد «سيف الله». إذ كتب إلى ملك الفرس يقول: «أما بعد فأسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة.»[٣١] ردد هذه العبارة أحد المنضمين حديثا إلى الدولة الإسلامية، حيث ظهر على فيديو في اليوتيوب يقول فيه: «نحن قوم نحب الموت في سبيل الله كما

٣١. ذكرها الطبري في تاريخه، وذكرها ابن خلدون في تاريخه، وذكرها ابن كثير أيضًا في البداية والنهاية ٦: ٣٤٨.

تحبون الحياة، والله إننا قوم نحب شرب الدماء.»[٣٢] كان هذا الرجل الذي ظهر في الفيديو يهدد أصحاب الطائفة العلوية في سوريا بالذبح. وسمّته وسائل الإعلام «الذباح الفلسطيني» لأنه فلسطيني الجنسية من قرية قرب الناصرة. واسمه الحقيقي هو ربيع شحادة عمره (٢٦ عاما) عام ٢٠١٤، كان يدرس الهندسة الميكانيكية في كلية الناصرة العليا، وتزوج حديثا قبل التحاقه بالجيش الحر في سوريا ثم بعدها بتنظيم الدولة. وبحسب جريدة اليوم السابع، فإنه لم يكن معروفا بالتشدد في وسطه، لكنه بعد التحاقه بصفوف التنظيم تبنى اسما حركيا هو «أبو مصعب الصفوري»، نسبة إلى قرية قرب الناصرة اسمها صفورى المهجرة.[٣٣]

ليس هذا الذباح هو الوحيد الذي أعلن أنه ينتمي إلى قوم «أمة الإسلام» التي تحب الموت كما يحب أعداؤها الحياة، بل إن إسماعيل هنية الزعيم الحمساوي ورئيس الحكومة المقالة في غزة، قال في إحدى خطبه: «نحن قوم نعشق الموت كما يعشق أعداؤنا الحياة.»[٣٤] وفي فتوى موجهة لموقع إسلام ويب التابع لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية، يسأل أحدهم: «من قائل عبارة (إني أتيتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة)؟» فيجيبه الموقع الرسمي أن القائل هو خالد بن الوليد، ويذكر المراجع، ثم يختم الفتوى بقوله: «فرضي الله عن خالد ورزق الله الأمة أمثاله في وقت صارت فيه ذليلة مستباحة.»[٣٥]

ترى لماذا تتكرر هذه المقولة على لسان الكثيرين لولا أنها من مأثورات التاريخ الإسلامي وعلى لسان أحد عظمائه خالد بن الوليد؟ يحكي خالد بن الوليد كيف سماه رسول الإسلام سيف الله حين خاطبه قائلًا: «أنت

---

٣٢. نظرا لأن الفيديو تم وضعه وحذفه مرات كثيرة، سأحيل القارئ إلى موقع جريدة اليوم السابع، تحت عنوان: «بالفيديو.. أحد عناصر «داعش» يعترف: نحن قوم نحب شرب الدماء».
٣٣. نفس المصدر السابق.
٣٤. جريدة الشرق الأوسط، «إسماعيل هنية: نحن قوم نعشق الموت كما يعشق أعداؤنا الحياة».
٣٥. إسلام ويب، فتوى «قائل عبارة: جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».

سيف من سيوف الله سله الله على المشركين! ودعا لي بالنصر فسُميت سيف الله بذلك فأنا من أشد المسلمين على المشركين.»[٣٦] وخالد بن الوليد هو العسكري المحنك الذي استعان به محمد في آخر غزواته، وهو الذي استعان به أبو بكر في غزواته التي سمّاها حروب الردة، وهو الذي غزا العراق والشام وأخضعها لحكم الإسلام في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر. فلا غرابة أن يستشهد المقاتلون في العراق وسوريا اليوم بخالد بن الوليد، لأنه في نظرهم هو القدوة الذي يجب أن يحتذي به المسلمون في قتالهم ضد الكفر، وفي معركتهم ضد أعداء الإسلام. وما زال يحمل ضريح خالد بن الوليد في مسجد اسمه اليوم في حمص في سوريا المدمرة، والتي تقع أجزاء كبيرة منها تحت سيطرة تنظيم الدولة.

ليس تنظيم الدولة هو الوحيد الذي يتبنى مقاتلوه سياسة حب الموت وتفضيله على الحياة، بل إن كل التنظيمات الإسلامية تتبنى هذا المنهج، بما في ذلك تنظيم الإخوان الذي يعدّ أقل راديكالية مقارنة بتنظيم الدولة، لكن رمزه هو سيفان يعلوهما قرآن وتحتهما كلمة «أعِدّوا»، وهي كلمة مأخوذة من آية قرآنية تقول: «وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ»،[٣٧] وشعاره هو «الله غايتنا، والرسول قدوتنا، والقرآن دستورنا، والجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا.» هل هناك عبارات أوضح من هذه تدل على علاقة الإسلام بثقافة الموت؟

الغرب وثقافة الحياة

في صيف ٢٠١٤ قمت بزيارة لمدينة نيويورك برفقة عائلتي الصغيرة. وقررت أن أزور المكان الذي كان فيه برجا التجارة العالمي اللذان تم نسفهما في

٣٦. تاريخ الطبري، ثم دخلت سنة ثلاث عشرة.
٣٧. سورة الأنفال الآية ٦٠.

سبتمبر ٢٠٠١ قبل حوالي ثلاث عشر سنة. ورغم ذلك ما زالت ذكراه لم تغادر مخيلتي، تذكرت كيف تابعت الأخبار من المغرب برفقة صديقي الأمريكي حين كنت في بيته، تذكرت تلك الأحداث. وها أنذا اليوم أقف في المكان نفسه الذي تم تدميره. كان المنظر وقتها رهيبا في التلفزيون، وبعده في الصور وفي الجرائد وعلى مواقع الإنترنت .. صور الدماء والركام والموت في كل مكان. لم أكن أتخيل أن أمريكا ستقوم من تلك الضربة. كانت ضربة قاسية على مشاعر الناس دون الحديث عن اقتصادهم وعن رمز من رموز حضارتهم وتقدمهم.

رأيت كيف بُني شلالان مكان البرجين، شلالان عظيمان يمتص صوت المياه فيهما ضجيج المدينة. كان منظر المياه يبعث الأمل ويشعرك بسريان الحياة من جديد في هذا المكان. وكان السياح يلتقطون الصور وبعضهم يدخل المتحف الذي يوجد في المكان ويوثق لأحداث الحادي عشر من سبتمبر. إلى جانب المكان هناك حديقة يأكل فيها الناس ويجلسون ويمشون، وفي المكان أيضا شجرة يمكن تسميتها «شجرة الحياة»، لأنها تحدَّت الدمار والركام وعاشت، فرآها عمال الإنقاذ حيث قاموا بإخراجها من وسط الدمار لغاية انتهاء الأعمال ليرعوها في مكان خاص، ثم أرجعوها بعد تسع سنوات من الحادث إلى مكانها. وهذه الشجرة محاطة بسياج بسيط، وهي تحكي قصة الحياة وعودتها من جديد إلى مكان كان بالأمس القريب عنوانًا للموت. وقد كُتبت على الجدران البرونزية المحيطة بالشلالات أسماء الضحايا (٢٩٧٧ اسمًا) لتخلدهم، أسماء الضحايا كتبت بعشوائية دون ترتيب أو منطق وكأنها تجسد ما حصل على أساس أنه إرهاب عبثي لا منطق له، حصد أرواح الآلاف من الأحبة وترك الآلاف ممن يعرفونهم مدمرين لفقدانهم.

وقفت مع أطفالي وزوجتي نتأمل المنظر، نتأمل الرسالة التي يوصلها هذا التصميم للعالم كله. فالرسالة الواضحة هي أن الغرب يتحدى الموت، أن أمريكا وشعبها تعلموا كيف يخرجون الحياة من الموت، وكيف يتغلبون على بشاعة الموت، وكيف يتحدَّونه بالتصميم على المضي قدما في الحياة، أسماء الضحايا «خُلدت» والشجرة صارت رمزا للتحدي، والمكان الذي كان يريد الإرهابيون أن يجعلوا منه مقبرة ورمزا لإذلال أمريكا وإرهابِها. صارت المياه فيه رمزا للجمال والحياة، ما أعظمها من رسالة! وكأنها رسالة تقلب ما قاله خالد بن الوليد، وكأنهم يقولون للإرهابيين: «نحن قوم نحب الحياة أكثر مما تحبون أنتم الموت!» ومن المؤكد أن الحياة ستغلب الموت.

الإسلام وتسفيه الحياة الدنيا

لماذا يحب الغرب الحياة بينما علّمنا آباؤنا وديننا حب الموت؟ لماذا علمونا احتقار الحياة وتمجيد الموت؟ كان والدي يذكرنا دائما بالموت، ويستغل موت أحدهم ليذكرنا بتفاهة الحياة وأنها لا تساوي شيئا. لقد كان يردد هذا الحديث الذي قاله محمد «لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ.»[٣٨] والفكرة من الحديث أن الدنيا عند الله محتقرة، ولذلك يدع الكافر يتنعم بخيراتها. ولو كانت للدنيا قيمة عند الله، لكان قد منع الكافر من التنعم بخيراتها، أي أن تنعم الكفار بنعم الدنيا هو أكبر دليل على تفاهتها عند الله. ويؤكد القرآن هذه الفكرة، بحيث إنه لما أُعْجِبَ محمد والمسلمون بالخيرات التي يتنعم بها غيرهم، جاء القرآن ليذكرهم بألا يغتروا بذلك، فوجّه الخطاب لمحمد قائلا: «فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ».[٣٩] فالقرآن ينهى محمدا والمسلمين عن الإعجاب

٣٨. سنن الترمذي ٧: ٢٢، كتاب الزهد، بابُ «ما جَاءَ في هَوَانِ الدُّنْيَا عَلى الله عز وجل».
٣٩. سورة التوبة الآية ٥٥.

بنعم الكفار، لأن الله أعطاها لهم حتى يعذبهم بها في الدنيا ولكي يبقيهم في الكفر ويستحقوا بذلك عذاب الآخرة أيضا.

أتذكر حين كنت أسأل والدي عن الفرنسيين على نحو خاص، حيث كنا نرى كثيرين من السياح الأجانب في أسواق بلدتنا يلتقطون الصور ويركبون الحافلات الفارهة وتبدو مظاهرهم جميلة وثيابهم أنيقة وكاميراتهم مبهرة، لماذا أعطى الله الكفار نعما كثيرة أكثر منا نحن المسلمين، ولماذا لا يعطينا الله ذلك طالما أننا أحسن منهم؟ فيجيبني والدي بكل بساطة: لأن الله أعطاهم الدنيا هنا ليعذبهم في الآخرة هناك، وأما نحن المسلمين فلنا الآخرة ولذلك حُرِمْنَا من الدنيا. إنه تفكير مبني على آيات القرآن والأحاديث، والتي تجعل مكاننا هناك بعد الموت، بينما العالم كله يحاول أن يعيش هنا ويبتكر ويخترع لكي يعيش الناس هنا حياة أطول بأقل آلام ممكنة، لكننا نحن نبحث عن الوسائل لتبرير تخلفنا وتبرير تقهقرنا عن ركب باقي دول العالم المتقدم، والدين، بطبيعة الحال، أحسن وسيلة تبريرية لذلك.

توجد أحاديث كثيرة في هذا الإطار تنهى المسلمين عن التشاغل بالحياة الدنيا وتحضهم عوضا عن ذلك على الانهماك في الجهاد، حيث قال محمد لأتباعه: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ، سَلَّطَ الله عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ.»[٤٠] والمعنى هو أن المسلمين إذا اشتغلوا بالتجارة، أو تربية المواشي، أو الزراعة، فسيلقون الذل في حياتهم، ولن يُنزع ذلك الذل حتى يعودوا إلى الدين مرة أخرى. ويتمثل الدين في الجهاد في هذه الحالة. استشهد بهذا الحديث تنظيم الدولة في مجلة دابق واستخدمه للتحريض على الجهاد، وقال الكاتب استنتاجا من هذا الحديث: «أحسن ما يقوم به المؤمن هو أن يقضي وقته في طاعة الله، وفي الجهاد في سبيل الله، وفي الدعوة إلى طاعته.»[٤١] ولهذا تجد كثيرين من الذين

٤٠. سنن أبي داود ٩: ٣٤٨.
٤١. مجلة دابق، العدد الرابع، مقال: «جعل رزقي تحت ظل رمحي».

يؤمنون بالجهاد وبهذا الفكر في البلدان الغربية يعيشون عالة على هذه البلدان وبالأخص من المعونات الاجتماعية، بينما كل عملهم هو الدعوة إلى الإسلام. فهم يعدّون أموال الغرب حلالا لهم لأنهم كفار، ويعدّون عدم عملهم أسوة برسول الله في سبيل التفرغ للدعوة والجهاد. ويمثّل رضا صيام الألماني مصري الأصل الذي التحق بالتنظيم وصار مسؤولا في ديوان التعليم خير مثال لذلك. فقد عاش في ألمانيا وحمل جنسيتها أكثر من ١٥ سنة، وكان يحصل خلال هذه المدة على حوالي ثلاثة آلاف يورو شهريا من المعونات الاجتماعية بينما يقضي وقته في الترويج للإسلام والدعوة إلى حمل راية الجهاد في عقر ألمانيا الكافرة.[٤٢] أليس هذا قمة الاستغلال؟ لكن من أين جاء وما السبب فيه؟ ألا يلعب الفكر الديني دورا في ترسيخه؟

ذكَرَ القرآن الجهاد في سبيل الله والقتال في سبيل الله أكثر من ثلاثين مرة، منها قوله: «وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ».[٤٣] ولكنه لم يحرض على الحياة في سبيل الله ولا في آية واحدة. وأما احتقار الحياة الدنيا فحدّثْ ولا حرج، حيث يقول على سبيل المثال لا الحصر: «وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».[٤٤] ثم يمضي القرآن في تحقيره للحياة وتمجيد ما بعد الموت فيقول: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ».[٤٥] كما يُمثل القرآن الحياة بنبات يعجب الكفار ثم يصير مصفرا وتذهب نضرته، ثم يصل إلى الخلاصة ليقول: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ».[٤٦] وهناك آيات كثيرة تحتقر الحياة أشد احتقار وتفضل الموت عليها.[٤٧] وتحض هذه الآيات الشباب على عدم التمسك

---

٤٢. البوابة نيوز، «حقيقة «ذو القرنين المصري» الرجل الثاني في «داعش»».
٤٣. سورة آل عمران الآية ١٥٧.
٤٤. سورة العنكبوت، الآية ٦٤.
٤٥. سورة الأنعام، الآية ٣٢ .
٤٦. سورة الحديد، الآية ٢٠ .
٤٧. للاطلاع على مزيد من الآيات التي تحتقر الحياة، ارجع إلى سورة يونس الآية ٢٤ و سورة الكهف الآية ٤٥.

بالحيـاة، وتحثهـم على التضحيـة بهـا عـن طريـق المـوت في سـبيل الله (الجهـاد)، لأن ذلـك سـيضمن لهـم حيـاة أفضـل، لكـن بعـد المـوت طبعـا.

هنـاك آيـات كثيرة محرضـة على هـذه المبادلـة التجاريـة، بـل إن القـرآن يسـميها بيعـا وشراء أي «صفقـة». فالمـرء يبيـع حياتـه الدنيـا مقابـل ثمـن، ويضـحي بحياتـه الدنيـا مقابـل حياتـه الآخـرة. وبطبيعـة الحـال، فـإن هـذه الصفقـة مربحـة في نظـر القـرآن، لأن الحيـاة الدنيـا قيمتهـا تافهـة مقابـل الحيـاة الأخـرى أو الحيـاة الثانيـة. ومـن الآيات الواضحـة المحرضـة على هـذه المبادلـة التجاريـة هـذه الآيـة القرآنيـة الـتي تقـول:

> إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.[٤٨]

فـالله اشـترى مـن المؤمنـين أنفسـهم، أي عليهـم أن يضحـوا بهـا مـن أجلـه. وبالمقابـل قطـع على نفسـه وعـدا «في التـوراة والإنجيـل والقـرآن» عهـدا مثلثـا[٤٩] أن يعطيهـم الجنـة، وبالتـالي عليهـم أن يفرحـوا بهـذا البيـع لأنهـم هـم الرابحـون في الحقيقـة. وأنـا هنـا أسـأل: إذا كان الله اشـترى مـن المؤمنـين أنفسـهم، فلمـاذا أعطاهـم هـذه الأنفـس أصـلا؟

يكمـل القـرآن في نفـس الموضـوع بآيـات أخـرى فيقـول: «فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا».[٥٠] كان بعـض المسـلمين الأوائـل يسـتثقلون الجهـاد ويرفضونـه لأنهـم يفضلـون حياتهـم الدنيـا على هـذه الوعـود الـتي سـتأتي

---

٤٨. سورة التوبة الآيات ١١١.
٤٩. لـم أجـد أي عهـد مـن هـذا النـوع في التـوراة والإنجيـل كمـا يـدعي القـرآن. العهـد والقسـم بالثلاثـة مقـدس في الإسـلام.
٥٠. سورة النساء، الآية ٧٤.

بعد الموت، ولا يوجد أي دليل عليها. فلامهم القرآن على ذلك وقال «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ».[٥١] إنه يحرضهم على عدم الرضوخ لمغريات الحياة الدنيا ويذكّرهم بأنها متاع قليل، لكن المتاع الكثير والمتاع الدائم هو متاع الآخرة. هذه الآيات هي بداية فهم عقلية المجاهدين، لأنها تضع الأسس الدينية التي يفكر بها المؤمن المنخرط في العمليات الجهادية.

قد يبدو خيارا غير منطقي أن يقوم طبيب مسلم أسترالي مثل «طارق كامله»[٥٢] بالسفر إلى سوريا والتضحية بمنصبه وبمعيشته في بلد غربي متقدم كأستراليا مقابل احتمال تعرضه للموت في سوريا ومقابل حصار وحياة صعبة وسط تنظيم الدولة. وهو فعلا خيار غير منطقي بالنسبة لأي شخص من خارج هذه المنظومة، لكنه بالنسبة لشخص مؤمن متدين خيار منطقي جدا، بل صفقة مربحة للغاية بتعبير القرآن. لذلك حين قامت أستراليا مثلا بوضع مذكرة بحث ضده وشطبه من نقابة الأطباء، نشر تغريداته يقول الآتي: «لا أبالي إذا ألغيتم تسجيلي، لا أبالي إذا ألغيتم جواز سفري، كنت أعرف إلى أي مكان أنا آت، أنا أنوي البقاء هنا.»[٥٣] هذا منطق ربما لا يفهمه الإنسان الغربي، لكنه منطق معقول عند الذين تربوا في عائلات مسلمة وتعرضوا بدرجة أو أخرى لتأثير تعاليم الإسلام، ولاسيما تعليمه عن مقايضة الحياة الدنيا بالحياة الآخرة. إذ يجعل الإسلام البحث عن الموت وأماكن القتال في سبيل الله من أفضل خيارات الحياة، حيث يقول محمد:

٥١. سورة التوبة، الآية ٣٨.

52. Born for a Palestinian Muslim father and a German Catholic mother who converted to Islam, The Sunday Morning Herald, "Australian Islamic State doctor Tareq Kamleh's sudden change after mystery trip in 2013."

٥٣. الغارديان، «طبيب داعش طارق كامله: لا أهتم لفقدان الجنسية الأسترالية».

> مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ، رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ. يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ. كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَزْعَةً [يعني صوت الحرب] طَارَ عَلَيْهِ يَبْتَغِي الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ مَظَانَّهُ [يعني أماكنه].[٥٤]

فالذين يبحثون عن أماكن الموت، مثل المجاهدين الملتحقين بالتنظيم من كل أنحاء العالم، قد اتخذوا أفضل قرار بحسب هذا الحديث. تخيل نفسك مسلمًا مؤمنًا بأن محمدا قال هذا الكلام. فما ستكون الخيارات الموضوعة أمامك؟ إما أن تطيع لتكون مسلما ملتزما، أو تتجاهل هذا الكلام لتكون مسلما عاصيا، وربما تُعَدّ مارقا من الدين.

دور الإغراءات الأخروية في التحريض على الجهاد

تربينا في الإسلام على منطق العصا والجزرة، أو بتعبير فقهاء الإسلام «الترغيب والترهيب». والترغيب في الإسلام هو في نعيم الجنة، والترهيب هو من عذاب النار، وهو المنطق نفسه الذي طبقه محمد على الجهاد. فالترغيب في الموت في سبيل الله يتم عبر تهوين الموت أمام مغريات جنسية وشهوات أبدية، في حين يتم الترهيب عبر التحذير من التأخر عن تلبية نداء الجهاد، لأن ذلك يعني العصيان والتعرض لغضب الله وسخطه. نجد مثلا آية تحذيرية من التخلف عن الجهاد تخاطب الذين يتخلفون عن الانضمام لصفوف المجاهدين (والأمر هنا موجه إلى محمد): «قُل [يامحمد] لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».[٥٥] ومن باب الترغيب أيضا، نجد آيات وأحاديث كثيرة تتحدث عن محاسن حور الجنة، حور العين اللواتي يشبهن ما يريده الرجل العربي، فهن

٥٤. صحيح مسلم ١٣: ٣١، كتاب الإمارة، باب «فضل الجهاد والرباط».
٥٥. سورة الفتح الآية ١٦.

«حُـورٌ عِـينٌ كَأَمْثَـالِ اللُّؤْلُـؤِ الْمَكْنُـونِ»،[٥٦] نسـاء جميـلات ذوات عيـون بيضـاء شـديدة البيـاض وسـوداء شـديدة السـواد «حُـورٌ مَّقْصُـورَاتٌ فِي الْخِيَـامِ... لَـمْ يَطْمِثْهُـنَّ إِنسٌ قَبْلَهُـمْ وَلَا جَـانٌّ»،[٥٧] عـذراوات لـم يقربهـن أي إنـس أو جـنٍّ مـن قبـل. بـل يمـضي القـرآن في وصفهـن فيقـول: «إِنَّـا أَنشَـأْنَاهُنَّ إِنشَـاء فَجَعَلْنَاهُـنَّ أَبْـكَارًا عُرُبًـا أَتْرَابًـا».[٥٨] ومعـنى العُـرب الأتـراب «مُتَعَشِّـقاتٍ مُتَحَبِّـباتٍ، أتْرَابـا على مِيـلادٍ وَاحِـدٍ».[٥٩] بـل إنَ مفـسري القـرآنِ عَـدّوا وصـف القـرآن لنهودهـن معيـارًا للجمـال، حيـث يقـول: «إِنَّ لِلْمُتَّقِـينَ مَفَـازًا حَدَائِـقَ وَأَعْنَابًـا وَكَوَاعِـبَ أَتْرَابًـا كَأْسًـا دِهَاقًـا»[٦٠] هـذا وصـف لحديقـة يشـتهيها العـربي ممتلئـة بالأعنـاب، وفيهـا جاريـات بـارزات النهـود،[٦١] وفيهـا كأس مـن الخمـر لا تنتـهي.[٦٢]

هـذه هي شـهوة الرجـل العـربي في القـرن السـابع الميـلادي خلّدهـا القـرآن على أسـاس أنهـا نعيـم أخـروي ينتظـر المسـلم المطبـق لتعاليـم دينـه. ومكافـأة حـور العـين هي لـكل مسـلم يتـقي الله، وليسـت للشـهيد فحسـب كمـا يشـاع. لكـن العـدد هـو الفـرق. فقـد يحصـل المسـلم العـادي على اثنتـين فقـط، حيـث يقـول محمـد: «لـكلِّ امـرىءٍ زوجتـانِ مـنَ الحـورِ العـين، يُـرى مُـخُّ سُـوقِهِنَّ مـن وراءِ العظـم واللحـم.»[٦٣] والملاحظـة هنـا هـو أن معيـار الجمـال عنـد الرجـل العـربي هـو شـدة البيـاض، فهـؤلاء النسـوة مـن كـثرة بياضهـن يُـرى مـخ سـيقانهن مـن خلـف العظـم واللحـم. وأمـا الشـهيد فيحصـل على العـدد المشـهور اثنتـين وسـبعين مـن حـور العـين،[٦٤] واحـدة مـن هـؤلاء النسـوة أعظـم مـن كل مـا في هـذه الحيـاة الدنيـا، حيـث قـال محمـد : «لـو أنَّ امـرأةً مـن أهـلِ الجنـةِ اطَّلَعَـت

٥٦. سورة الواقعة الآيات ٢٢، ٢٣.
٥٧. سورة الرحمان الآيات ٧٢، ٧٤.
٥٨. سورة الواقعة الآيات ٣٥-٣٧.
٥٩. تفسير الطبري ٢٧: ١٠٣.
٦٠. سورة النبأ الآيات ٣١-٣٤.
٦١. الكواعب: التي قد نهدت وكَعَّب ثديها، تفسير الطبري ٣٠: ٢٣.
٦٢. كأسا دهاقا معناها ملأى، والدهق هو الضغط بشدة وعنف، انظر تفسير الطبري ٣٠: ٢٣.
٦٣. صحيح البخاري ٣: ١١٨٨.
٦٤. في الحديث الذي رواه أحمد «للشهيد عند الله ست خصال ....ويزوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين» مسند أحمد ٥: ١١٧.

إلى أهـل الأرض لأضـاءَت مـا بينهمـا ولَمَلأَتْـهُ رِيحـاً، ولَنَصِيفُهـا [يعـني خمارهـا] على رأسِـها خـيرٌ مـنَ الدنيـا ومـا فيهـا.»[٦٥]

لا يعطـي المفكـرون أهميـة لفكـرة حـور العـين في تحفـيز المجاهديـن حـق اهتمامهـا، وإلا كيـف يفـسرون إقبـال الشـباب على الجهـاد أكـثر مـن أيـة فئـة عمريـة أخـرى؟ فقـد خصصـت الكتـب الإسـلامية أبوابـا خاصـة لوصـف حـور العـين. فصحيـح البخـاري مثـلا، وهـو أحـد أشـهر الكتـب الإسـلامية بعـد القـرآن، يخصـص بابـا اسـمه «بـاب حـور العـين وصفتهـن». وفي سـنن الترمـذي بـاب اسـمه «بـابُ في صِفَـةِ نِسَـاءِ أَهْـلِ الْجَنَّـةِ»، وكتـاب سـنن الدارمي يخصـص بابـا اسـمه «بـاب في صفـة الحـور العين»...ومـا كانـت هـذه الكتـب الدينيـة كلهـا لتخصـص أبوابـا لهـذا الموضـوع لـولا أهميتـه ووفـرة الأحاديـث الـتي عالجتـه. فهـذه الأحاديـث تشـكل ثقافتنـا الجهاديـة في العالـم الإسـلامي، والجنـس عامـل مؤكـد مـن عوامـل الذهـاب للجهـاد.

يتحـدث القـرآن عـن متـع الآخـرة على أسـاس أنهـا متـع لا، تنقطـع مسـتمرة للأبـد، والجنـس أحـد هـذه المتـع وأوضحهـا وأشـدها جاذبيـة. يقـول القـرآن: «إِنَّ أَصْحَـابَ الْجَنَّـةِ الْيَـوْمَ فِي شُـغُلٍ فَاكِهُـونَ هُـمْ وَأَزْوَاجُهُـمْ فِي ظِـلالٍ عَلَى الأَرَائِـكِ مُتَّكِـؤُونَ».[٦٦] قـال المفـسر المسـلم الكبـير «الطـبري» الذي عاش في القـرن التاسـع والعـاشر الميـلادي عـن هـذه الآيـة: «وذلك الشـغل الذي هم فـيه نعمـة، وافتضـاض أبـكار، ولهـو ولذّة، وشـغل عمـا يَـلْقـى أهـل النـار.»[٦٧] بل إن المسـلم سـيعطيه الله القـوة والقـدرة على الجمـاع المسـتمر، قـوة مائـة رجـل في الجمـاع، حيـث قـال محمـد لأتباعـه: «يُعْطَـى المُؤمِـنُ في الْجَنَّـةِ قُـوَّةَ كَـذَا وكَـذَا مِـنَ الْجِمَـاعِ، قِيـلَ يَـا رَسُـولَ الله أَوَ يُطِيـقُ ذَلِـكَ؟ قَـالَ: يُعْطَـى قُـوَّةَ مِائَـةٍ».[٦٨]

---

٦٥. صحيح البخاري ٣: ١٠٢٩، ١٠٣٠.
٦٦. سورة يس الآيات ٥٥-٥٦.
٦٧. تفسير الطبري ٣٢: ١٤.
٦٨. سنن الترمذي ٧: ٢٤٩.

ولكثرة ما في الآخرة من هذه الشهوات، فإنه ولا واحد من الذين دخلوا الجنة يحب العودة لهذه الحياة سوى الشهيد الذي يحب العودة لا للحياة بل ليموت مرة أخرى ميتة الشهيد ليذوق النعيم الأخروي مضاعفا، يقول محمد: «ما من عبدٍ يموتُ لهُ عندَ الله خيرٌ، يَسُرُّهُ أن يرجعَ إلى الدنيا وأنَّ لهُ الدُّنيا وما فيها، إلا الشهيدُ لما يَرى من فضلِ الشهادة، فإنهُ يسرُّهُ أن يرجعَ إلى الدُّنيا فيُقتل مرَّةً أُخرى.»[٦٩] إنها المتع التي تجعل القتل في سبيل الله متعة يشتهي المرء تكرارها إلى الأبد.

لا شك أن هذا الكم الهائل من الأقوال المحرضة على الجهاد عن طريق الإغراءات الجنسية شكل وعي الشباب المسلم ولاوعيه. فقد سمعناها في خطب الجمعة، وفي المدارس، وفي المقررات، وهي موجودة اليوم على المواقع الرسمية للحكومات الإسلامية، بل هي من الأدبيات الرئيسية في فقه المجاهدين. إذ لا يوجد موقع جهادي إلا ويتحدث عن الشهوات التي سيحصل عليها الشهيد بمجرد موته، فهو مثلا لن يحس بالموت أبدا، لأنه كلسعة بسيطة حيث قال محمد لأتباعه: «ما يجد الشهيد من مس القتل، إلا كما يجد أحدكم مس القرصة.»[٧٠] وبالمقابل، تبدأ بمجرد موته الرحلة اللانهائية للمتع والملذات. فالخمر التي يحلم بها المسلم ولا يستطيع الاقتراب منها هنا في هذه الحياة ستكون أنهارا هناك في حياة ما بعد الموت، حيث جاء في القرآن: «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ».[٧١] كما أن الجنس سيكون من دون انقطاع.

٦٩. صحيح البخاري ٣: ١٠٢٩.
٧٠. مسند أحمد ٢: ٥٧٥.
٧١. سورة محمد الآية ١٥.

يجد الشاب المسلم الذي لم يتسنَّ له أن يذوق طعم الجنس نفسه في هذيان روحي حين يقوم الخطيب بوصف الحور العين، ويهتز جسمه ويبدأ الخيال في رسم الحوريات ينتظرن دورهن في انتظاره، فيبدأ في فض بكارة تلو أخرى في لذة لا تنقطع، بينما هو في هذه الدنيا غير متزوج لأنه تحت إكراهات الحياة ولا يجد كل ما يشتهيه متاحا. فهو يرزح تحت ضغط اجتماعي واقتصادي وضغط ديني رهيب. وحتى إن كان يستمتع بهذه الملذات في الدنيا، فتأنيب الضمير يصاحبه، يعلم أنه يخالف تعاليم دينه وسيلج النار إن استمر في ذلك. فلا يجد إلا الشهادة والجهاد كوسيلة مثلى للحصول على تلك الملذات أمام الملأ دون خوف وضغوط، بل بمباركة من الإله نفسه الذي يحصل أمام عينيه افتضاض الأبكار بينما تتأوه حور العين من اللذة. كل هذه الشهوات تُعَدُّ تحفيزا بالغ الأهمية في أية دراسة جهادية، فالجنس كان وما زال دافعا حقيقيا وراء الجهاد ومسهلا ومحفزا له.

الجهاد والجنس في الدنيا والآخرة

استخدم محمد الجنس للتحريض على القتال دنيا وآخرة. ففي الدنيا استخدم السبايا واستخدم ما يصطلح عليه «زواج المتعة». وللآخرة، استخدم فكرة حور العين. فقد أمر محمد أصحابه في الغزوات بالتمتع بالنساء لمدة قصيرة بدفع شيء مادي مقابل خدمات جنسية في شيء يشبه الدعارة المقننة في الدول الأوروبية. وقد فعل هذا حتى قبل سنتين من موته في ما يسمى عام الفتح، حيث يقول صحيح مسلم «أَنَّ نَبِيَّ اللهِ، عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ، أَمَرَ أَصْحَابَهُ بِالتَّمَتُّعِ مِنَ النِّسَاءِ.»[٧٢] بل إن بعض الأحاديث تقول إن هذا النوع المؤقت من الزواج كان قد استمر إلى عهد خلافة عمر بن الخطاب، وإن هذا الأخير هو الذي نهى عنه حيث يروي أحد أصحاب محمد: «كُنَّا نَسْتَمْتِعُ، بِالْقُبْضَةِ مِنَ التَّمْرِ وَالدَّقِيقِ، الأَيَّامَ، عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ، وَأَبِي بَكْرٍ، حَتَّى

٧٢. صحيح مسلم ٩: ١٥٨.

نَهَى عَنْهُ عُمَرُ.»[٧٣] قام محمد بهذا التشريع حتى يبقي همة رجاله عالية في القتال. ومن المتعارف عليه أن الجنود في أي حرب يحتاجون إلى نوع من التفريغ الجنسي، ولذلك اشتكى أصحاب محمد من الضغوط النفسية التي يعانونها حين يكونون مبتعدين عن زوجاتهم أو حين يكونون في ميادين القتال لمدة طويلة. ولهذا نقرأ في الحديث عن أحد أصحاب محمد أنه قال: «كُنَّا نَغْزُو مَعَ رَسُولِ اللهِ، لَيْسَ لَنَا نِسَاءٌ. فَقُلْنَا: أَلاَ نَسْتَخْصِي؟ فَنَهَانَا عَنْ ذَلِكَ، ثُمَّ رَخَّصَ لَنَا أَنْ نَنْكِحَ الْمَرْأَةَ بِالثَّوْبِ إِلَى أَجَلٍ.»[٧٤]

هذه العادة يتبعها الجهاديون إلى اليوم فهم في حاجة إلى نساء وزواج مؤقت غالبا لأنهم يعرفون أنهم سيواجهون القتل في أجل قريب، لذلك يستعجلون الأمر، وأحيانا يتم تزويج أرملة شهيد إلى شهيد آخر، وهكذا تنتقل كالبضاعة من أحدهم إلى غيره.[٧٥] بل هناك منح تعطى للمتزوجين، وهناك أيضا منح للتشجيع على الولادة حتى تتقوى الدولة الإسلامية. وتتم هذه الوسائل كلها باعتماد شرعي على السيرة النبوية وعلى الأحاديث والآيات القرآنية وتفاسيرها. فالدولة الإسلامية لها لجنة شرعية تبتّ في صحة الأمور التي يمارسها قادتها وأمراؤها من الناحية الشرعية، حيث تحاول أن تجد لها سوابق وتجد لها أمثلة يمكن الاعتماد عليها في القياس والاستنباط. ولا بد أنها وجدت في النصوص الدينية أدلة كثيرة تؤيد استخدام الجنس كوسيلة تحفيزية. صحيح أن السُّنة ألغوا زواج المتعة بينما الشيعة مستمرون في ممارسته، لكن الجنس والتشجيع عليه حاضر مهما اختلفت المسميات ومهما تم صبغها بصبغة دينية. فالمسميات مختلفة والغاية واحدة.

---

٧٣. الحديث رواه جابر بن عبد الله، صحيح مسلم ٩: ١٥٥.
٧٤. الحديث عن عبد الله بن مسعود، صحيح مسلم ٩: ١٥٤.
٧٥. الزواج في الدولة الإسلامية لأغراض كثيرة، منها تلبية الحاجة الجنسية للمجاهدين، وتكثير سواد الدولة الإسلامية بولادة جيل جديد، وكذلك يستخدم كمصيدة للفتيات الأجنبيات، ولذلك تقدم الدولة الإسلامية منحا للزيجات وعند الولادة.
See The World Post, «How ISIS Is Using Marriage as a Trap.»

توضح المواقع الجهايدة والفيديوهات التي ينتجها التنظيم بما لا يدع مجالا للشك أن النص الديني هو المكون الأساسي لفكر الجهاديين، ففيديوهاتهم تظهر لنا المجاهدين مبتسمين وهم جثث هامدة. وهي دعاية إعلامية الغرض منها هو إيصال فكرة أن الشهيد قد رأى شهواته في الجنة عند الاستشهاد حين كان يعاني سكرات الموت في اللحظات الأخيرة. وتنتهج الطريقة نفسها منظمة حماس في تشييع جثامين قتلاها ممن تعُدّهم من الشهداء. وما على المرء إلا أن يكتب ابتسامة الشهداء على الإنترنت ليرى حجم الكارثة على أبناء أمتي، إنهم فعلا يعتقدون أن المبتسمين قد رأوا النعيم ولا يعدّون تلك الابتسامة نوعا من التشنجات التي تحدث للجسم لحظة موته لا علاقة لها بشهوات الجنة لا من قريب ولا من بعيد. والدليل على ذلك هو أنها تحْدث في الثقافات والأديان كلها، بل تحْدُث لقتلى جبهة النصرة كما تحدُث لقتلى تنظيم الدولة رغم أنهما ضدان يتقاتلان. ففكر الجنة طاغٍ على الجهاديين والجهاديات في تنظيم الدولة. فكلما نشروا صورة لأحد قتلاهم، قالوا عنه الشهيد فلان الفلاني «تقبله الله». والمعنى أنه ليكن فعلا شهيدا مقبولا عند الله.

كشف موقع فرانس ٢٤ عن حسابات لأعضاء التنظيم على تويتر تغري الجهاديين بالجنس الأخروي، حيث كتب أحد الجهاديين محرضا أصدقاءه على العمليات الانتحارية: اسمحوا لي أن أغزوا عقولكم على عجل ببعض وصفهن لحُسن جمالهن [يقصد حور العين].. حتى تغضوا أبصاركم عن زينة الدُنيا وتجعلوها شاخصةً للمعالي تخطبون بها حورية حسناء...» وكتب أيضا: «لعلي أكون سبباً في إقبال أحدكم على عملٍ إنغماسي [يقصد عملية انتحارية]..»، ثم ختم في الأخير قائلًا: «ولك أن تتخيل هذا المشهد

أخي الحبيب ..يدخل الرجل على الحورية فتُجلسهُ على فخدها وتُسقيه العسل بكأس الفِضة وتمسح فمه بفمها....[٧٦]

من أين أخذوا هذا التصور ومن السبب فيه؟ من أين تأتي الأناشيد الجهادية التي ينشدها مجاهدو التنظيم قبل الإقدام على العمليات الانتحارية وقبل تنفيذ «الغزوات»؟ يمكن لنشيد مثل هذا أن يهز الكيان لدى المجاهد الذي يؤمن به وبكل كلمة جاءت فيه: «يا خاطب الحور الحسان وطالبا لوصالهن بجنة الحيوان، أسرع وحث السير جهدك انما مسراك هذا ساعة زمان، هي جنة طابت وطاب نعيمها فنعيمها باق وليس بفان.»[٧٧] هنالك أناشيد كثيرة من هذا النوع موجودة على الإنترنت، حيث ينشد فيها المجاهدون أناشيد اشتياقهم إلى حور العين، بل يعترفون بأنهم لا يستطيعون صبرا على لقائهن ويبكون تأثرا لذلك. وهنالك مئات الفيديوهات لشيوخ يصفون حور العين، وتتحدث مئات الفتاوى أيضا عن نساء الجنة. والغريب أنه حين تدفع هذه العقيدة آلاف الشباب إلى صفوف القتال في تنظيم الدولة، تجد الدول الإسلامية تستغرب التحاق الشباب بصفوف المجاهدين ورغبتهم في الموت في سبيل الله للحصول على ما تردد على مسامعهم منذ الصغر واشتاقوا إليه في أحلامهم. ألا يعد هذا نوعا من التناقض والشيزوفرينيا؟ يحرضون الشباب على الموت جهادا في سبيل الله، ثم يستنكرون تجاوبهم مع ثقافة التحريض على الموت؟ لا يمكن القضاء على هذا الفكر الإرهابي إن لم تُجَفَّفْ منابِعُه الفكرية تماما مثل تجفيف منابعه المادية. فالإرهاب يولد مع كل تحريض على الموت في سبيل الله لضمان النعيم الأبدي، ويولد مع كل تحريض على بيع الحياة الدنيا مقابل شراء

---

٧٦. فرانس ٢٤، «الإغراء «الجنسي» لتشجيع الجهاديين على تنفيذ العمليات الانتحارية».

٧٧. قصيدة مشهورة من نونية ابن قيم الجوزية، العالم المسلم الدمشقي الذي عاش في القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادي.

النعيـم الأخـروي والجنـس المقـدس الذي يـرعاه الله بنفســه في جنـات المخيلـة العربيـة.

-12-

الخلافة: الحلم الذي تحوَّل إلى كابوس

نوستالجيا الماضي والخلافة

إن مجد الأمة الإسلامية متجسد في ماضيها. لقد زرعوا فينا الماضي ولم يحفزونا على الحياة للمستقبل. كبرتُ أتغنى ببطولات محمد والصحابة وأتحدث عن أمجاد الإمبراطورية الإسلامية وأتغنى بخطبة طارق بن زياد وهو على الجبل الذي يسمّى باسمه إلى اليوم مطلا على بلاد الأندلس يخطب في جنوده محمسا إياهم على القتال والشهادة في سبيل إعلاء راية الإسلام في بلاد الكفار:

> أيها الناس، أين المفر والبحر من ورائكم والعدو أمامكم؟ فليس لكم والله إلاّ الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيعُ من الأيتام في مآدب اللئام، وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم، ولا أقوات لكم إلاّ ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم.. وأعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فيما حظكم فيه أوفر من حظي، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان.[1]

كانت غاية طارق بن زياد هي إظهار دين الإسلام و«فتح» الأندلس للمسلمين، حيث يقول في خطبته الشهيرة إن الخليفة الوليد بن عبد الملك قد أرسلهم لهذه المهمة المقدسة «ليكون حظه معكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، ويكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم.»[2]

درَّسوني هذه الخطبة في مقرر التاريخ في السنوات الابتدائية، وجعلوني أحفظها عن ظهر قلب. وما زلت أتذكرها وكأنها درس ألقي علي بالأمس القريب. وما زلت أتذكر أيضا مقولة عقبة بن نافع وهو يقحم فرسه في المحيط الأطلسي بعد أن دخل المغرب قائلًا: «اللّٰهُمَّ اشْهد أنّي قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل مَن كفر بك، حتى لا يُعْبَد أحد مِن دونك.»[3] لقد حكم المسلمون واحدة من أعظم الإمبراطوريات في العالم. نقرأ عن هذه الأمجاد التاريخية في المجلات والمقررات، ونراها في الأفلام والمسلسلات، ونسمعها في الدروس الدينية والخطب فتحرك مشاعرنا وتعود بنا قرونا إلى الوراء ونتساءل بعد

١. وفيات الأعيان لابن خلكان ٣: ١٦١.
٢. نفس المصدر السابق.
٣. رياض النفوس لأبي بكر المالكي ١: ٣٩.

ذلك: لماذا يعيش المسلمون اليوم انحطاطا على مختلِف المستويات؟ لماذا دولنا ممزقة ومشتتة؟ فيأتي الجواب أنه ينبغي العودة إلى الإسلام لتعود الأمجاد.

العودة إلى الإسلام تعني العودة إلى الخلافة. والجماعات الإسلامية كلها تدعو إلى عودة الخلافة - القاعدة، حماس، بوكو حرام، تنظيم الدولة، تنظيم الشباب، حزب التحرير. وحتى جماعة الإخوان المسلمين تدعو إلى عودة الخلافة.[٤] بل إن الدول الإسلامية التي لديها ملوك أو رؤساء تعلّم عبر مناهجها ومواقعها على الإنترنت ومن خلال علماء الدين فيها أن الخلافة أمر شرعي وأنها ستعود في يوم من الأيام. الخلافة هي الحلم المنشود للمسلمين جميعًا في بقاع الأرض كلها. والسؤال الذي يطرحه أي عاقل هو: كيف يؤمن هؤلاء بالخلافة ويجلسون على عروشهم؟ لماذا لا يتنازلون عنها إذن طالما أنهم يعلّمون أبناء أوطانهم أن حكمهم ليس شرعيا وأن الخلافة هي نمط الحكم الذي سنّه الخلفاء منذ بداية الدولة الإسلامية؟ فالشيخ المصري يوسف القرضاوي الإخواني المقيم في قطر مثلا لم ينكر على تنظيم الدولة فكرة الخلافة، بل أنكر على البغدادي أحقية الخلافة فقط لأنه لا تتوفر فيه شروط الخلافة.[٥] يعني أنه لو كان هناك تنظيم آخر مثل تنظيم الإخوان المسلمين قد أخذ المبادرة وأعلن الخلافة، لسانده الشيخ القرضاوي.

يقول موقع وزارة الشؤون الإسلامية القطرية في فتواه الشرعية المنشورة على الإنترنت: «إعادة إقامة الخلافة واجب شرعي على المسلمين.»[٦] بل إن الفتوى تتحدث عن إعادة الخلافة الإسلامية كأولوية قصوى على المسلمين إقامتها في مواجهة دول الكفر وأقصد «الدول الغربية بالأخص»، حيث تقول الفتوى:

---

٤. تنظيم الإخوان ظهر سنة ١٩٢٨ أربع سنوات بعد سقوط الخلافة العثمانية.
٥. دويتشيه فيله بالعربية، «القرضاوي: خلافة «داعش» لا تستوفي الشروط المطلوبة»، حيث قال: إن خلافة تنظيم «الدول الإسلامية لا معنى لها ولا تستوفي الشروط المطلوبة».
٦. إسلام ويب، «إعادة إقامة الخلافة واجب شرعي على المسلمين».

فإن أول ما تحتاج إليه الدعوة الإسلامية في هذا العصر أن تقيم «دار الإسلام» أو «دولةً للإسلام» تتبنى رسالة الإسلام عقيدة ونظاماً، وحياة وحضارة. وتُقيم حياتها كلها: المادية والأدبية، على أساسٍ من هذه الرسالة الشاملة، وتفتح بابها لكل مؤمن يريد الهجرة من ديار الكفر والظلم والابتداع.[٧]

أما اتحاد علماء المسلمين، وهو اتحاد عالمي يترأسه الشيخ القرضاوي ومقر الاتحاد هو دولة قطر، فإنه بمجرد أن أعلن تنظيم الدولة الخلافة، أصدر بيانا يوضح فيه موقفه من هذه الخلافة. وجاء في البيان: «إننا كلنا نحلم بالخلافة الإسلامية على منهاج النبوة، ونتمنى من أعماق قلوبنا أن تقوم اليوم قبل الغد.» ويكمل البيان قائلًا:

إن الخلافة الإسلامية وعودتها مرة أخرى أمر جلل، تتوق إليه أنفسنا جميعاً.. تفكر فيه كل عقولنا، وتهفو له كل أفئدتنا، ولكن له ضوابطه الشرعية ، وله من الإعداد الكبير والعميق على كل المستويات.[٨]

الخلاف بين اتحاد علماء الإسلام وتنظيم الدولة منصبٌّ على الشكليات وليس على الجوهر. وهو يتلخص في هذا السؤال: هل إعلان التنظيم للخلافة فيه الشروط المستوفية أم لم يستوف الشروط اللازمة؟ أما الخلافة فهي شيء مفروغ منه ولا بد من قيامه. والسبب في ذلك، مرة أخرى، هو أن النصوص الدينية حافلة بتأكيد مسألة عودة الخلافة على منهاج النبوة. ولا يستطيع أحد إنكار ذلك، وإلا سيواجه النصوص الواضحة الصريحة، بل سيواجه أيضا إرثا ثقيلا من بداية الإسلام إلى اليوم كله يؤكد ضرورة

٧. إسلام ويب، «إعادة إقامة الخلافة واجب شرعي على المسلمين».
٨. الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، «الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين يؤكد أن إعلان الخلافة ...».

قيام الخلافة على أصولها لكي تكون الدولة الإسلامية تحت راية واحدة تواجه الكفر الذي هو أيضا في نظر الإسلام ملة واحدة.[٩]

جذور الخلافة والخلاف

حين توفي محمد، لم يترك وصية يوضح فيها نظام الحكم، ولم يترك آية في القرآن تفصل في الأمر. ولذلك اجتمع أصحابه فيما بينهم ليعيّنوا من سيخلف محمدًا ويكون «الخليفة» في اجتماع مشهور في الكتب الإسلامية يسمى «اجتماع السقيفة». كان هناك في هذا الاجتماع خلاف بين الأنصار الذين نصروا محمدا حين هاجر إليهم والمهاجرين الذين هاجروا معه عمن له الأحقية في الخلافة. وطرحت عدة اقتراحات منها أن يكون من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير، وتكون الخلافة اقتساما بينهم. لكن الاقتراح هذا لم يلق قبولًا من أصحاب محمد المقربين خصوصا عمر بن الخطاب الذي يُعَدّ أحد أهم مهندسي اجتماع السقيفة. فقدم عمر بن الخطاب أبا بكر صهر محمد وصديقه القديم ليكون الخليفة من بعده. فتمت البيعة له على أساس أنه الخليفة الذي سيخلف النبي في الأمة الإسلامية، وقد حدث هذا كله وعلي بن أبي طالب وأسرة محمد منشغلة بمراسيم دفن محمد وترتيبات العزاء، كان استغلالا ذكيا من طرف أصحاب محمد لظروف الموت. وتمت البيعة وانتهى الأمر، وبذلك صارت الخلافة أمرا واقعا.

تُعَدّ هذه القضية بالذات الشرارة الأولى التي أججت الصراع بين «الشيعة»، أي فرقة علي وأهل بيت محمد «آل البيت» من جهة وصحابة محمد من جهة أخرى، وصار يسمّى هذا الصراع فيما بعد تاريخيا الصراع السني الشيعي الذي ما زلنا نعيش فصوله إلى اليوم. فالحرب بين إيران الشيعية والسعودية السنية ومن يخوضها بالوكالة عنهم في المنطقة تعود أساسًا إلى

٩. عبارة تتردد كثيرا على لسان فقهاء الإسلام وفي الكتب الإسلامية، مثلا في تفسير ابن كثير ٨: ٤٨٠، يوردها على لسان الشافعي.

ذلك اليوم الذي تعود أحداثه إلى ما قبل ألف وأربعمائة سنة. وإنه لشيء غريب أن يستأسرنا الماضي إلى هذا الحد.

عندما مات محمد وتولى أبو بكر الخلافة، قامت بعض القبائل العربية التي أسلمت تحت السيف بوقف دفع الزكاة إلى بيت المال الذي كان في المدينة اعتقادا منها أن ذلك الإجبار وذلك العبء المالي قد زال بزوال من وضعه. لكن أبا بكر وأصحابه عدّوا ذلك ردة وخروجا عن الإسلام، فأعلن أبو بكر أن أولى حروبه ستكون حروب الردة، حيث يقول الحديث الصحيح:

> لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ (ص): «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله. فَمَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلاَّ بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى الله؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللهِ لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالاً كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ. فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ رَأَيْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ.فَعَرَفتُ أَنَّهُ الْحَقُّ.[١٠]

لقد قرر أبو بكر إعلان حروب على القبائل التي عصت وتمردت على دفع المال، رغم أنهم ما زالوا مسلمين لأنهم يؤدون الشعائر الأخرى من صلاة وغيرها. لكن رفضهم للزكاة وحده جعلهم يُعدّون في حكم المرتدين الذين يجب قتالهم حتى يخضعوا للإسلام ويؤدوا الزكاة من جديد. وفعلا قام أبو بكر بحروب الردة بقيادة خالد بن الوليد، «سيف الله المسلول» كما سماه محمد، وكأن الله استل سيفه على العرب بقيادة الخليفة الجديد. وفي هذا رد على الذين يقولون إن تنظيم الدولة لا يمت للإسلام بصلة لأن معظم

١٠. صحيح مسلم ١: ١٧٤-١٨٠، كتاب الإيمان، باب «الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله».

ضحاياه هم من المسلمين. أقول لهم إن معظم ضحايا أبي بكر كانوا من المسلمين أيضًا، حتى إن أحد الذين قتلوا في هذه الحروب احتج قبل قتله قائلًا لخالد بن الوليد: «أَتَقْتُلُنِي وَأَنَا مُسْلِمٌ أُصَلِّي الْقِبْلَةَ ، فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ: لَوْ كُنْتَ مُسْلِمًا لَمَا مَنَعْتَ الزَّكَاةَ وَلا أَمَرْتَ قَوْمَكَ بِمَنْعِهَا، وَاللهِ لَمَا قِلْتَ بِمَا فِي مَنَامِكَ حَتَّى أَقْتُلَكَ.»[11]

بعدما مات أبو بكر ترك الخلافة لعمر بن الخطاب لكن هذه المرة عن طريق وصية مباشرة دون اقتراع.[12] كان عمر مهاجرًا من قريش، وصهر محمد أيضا، وواحدًا من أقرب أصحابه، واستمرت خلافته عشرسنين إلى أن قُتل. وبعد مقتله تسَلَّمها عثمان بن عفان أحد أصهار النبي ومن أصحابه المقربين أيضا. وكان مهاجرًا هو الآخر. وقد سبق لعمر في آخر لحظات حياته أن نصح بأن يختاروا الخليفة من بين ستة أشخاص سمّاهم بنفسه.[13] لم يتسلم الخلافة أي شخص من بيت محمد أو من الأنصار إلى أن قُتل عثمان بن عفان، فتسلمها علي بن أبي طالب، أحد أصهار محمد وابن عمه وتلميذه النجيب. وهكذا أخذها هاشمي من عائلة محمد أخيرا.

كان علي يعتقد أن أهل البيت أحق بالخلافة من غيرهم، لكنه خضع للأمر الواقع حين تسلمها أبو بكر وعمر وعثمان. وحين أخذ الخلافة وقعت بينه وبين معاوية والي الشام آنذاك خلافات في الحكم أيضا، وصار بسبب ذلك معاوية مستقلا كأمير في الشام، بينما نقل علي عاصمة الخلافة من المدينة إلى الكوفة في العراق. ولم يدم حكم علي سوى خمس سنين كانت كلها انقسامات وحروبًا منها حربه الشهيرة مع زوجة محمد عائشة، والتي تسمى حرب الجمل، وحروبه مع شيعته الذين سموا خوارج بسبب خروجهم عليه، وحربه مع معاوية على الحكم، ثم مات مقتولا على يد

---

١١. الردة للواقدي صفحة ١٠٧.
١٢. البداية والنهاية لابن كثير ٧: ١٨.
١٣. تاريخ الطبري ٢: ٥٨٠.

مسلمين أيضا،[١٤] مثلما مات عثمان بن عفان هو الآخر مقتولا على يد مسلمين.[١٥] بل الأمر تَعَقَّد أكثر من ذلك، فحين قُتل عثمان لم يسمح المسلمون بدفنه ثلاثة أيام، وحين كانت جنازته في الطريق قاموا برجمه بالحجارة، ولم يذهب في جنازته إلا خمسة أشخاص.[١٦] وبعد مقتل علي تولى ابنه الحسن الخلافة بضعة أشهر في وجود معاوية على الشام. لكن قوة معاوية أجبرته على الاستسلام وترك الخلافة لمعاوية.[١٧]

كان الصراع على الحكم هو سبب هذه المشاحنات، وكانت العصبية القبلية وعصبية الدم المحرك الأساسي. ومن المعروف أن معاوية خلفه ابنه يزيد، ثم صارت الخلافة أموية تابعة لبني أمية لا لبني هاشم سبط النبي. واستمرت هكذا طوال تسعين سنة تمت فيها أكثر توسعات الإمبراطورية الإسلامية بما فيها غزو المغرب الأقصى وغزو الأندلس. ثم جاءت الخلافة العباسية (نسبة إلى أسرة النبي وعمه العباس)، فكان قيامها عبارة عن ثورة ضد الخلافة الأموية التي عدَّت في نظرهم خلافة مزيفة لأنها انتزعت الحكم انتزاعا، حيث كان ينبغي أن يعود الحكم إلى أسرة النبي. واستمرت الخلافة العباسية حوالي خمسة قرون فيها أُسِّست بغداد وصارت عاصمة إسلامية، وفيها ازدهر عصر الترجمة وعصر التدوين، واشتهر فيها أيضا بعض الخلفاء مثل هارون الرشيد بالشعر والغناء والمجون، وكان أول خلفائها أبو العباس الذي لقب بالسفاح لكثرة ما قتل، حيث قام بقتل أمويين كثيرين في دمشق، بل إنه قام بنبش بعض قبورهم أيضا،[١٨] ونهب ثرواتهم ونكَّل بهم. وقد توفي السفاح ودفن في الأنبار (العراق حاليا) حيث يوجد اليوم معقل الجماعات المتشددة العراقية، حيث انطلقت القاعدة

١٤. قتله عبد الرحمن بن ملجم، انظر البداية والنهاية لابن كثير ٦: ٢١٨.
١٥. البداية والنهاية لابن كثير ٧: ١٨٥.
١٦. تاريخ الطبري ٢: ٦٨٧.
١٧. البداية والنهاية لابن كثير ٨: ٢١.
١٨. البداية والنهاية لابن كثير ١٠: ٤٥.

ويوجد فيها الآن مقاتلو تنظيم الدولة، وكأن شبح السفاح ما زال يرف في الأنبار معلنا عن المزيد من القتل والذبح. تلت الخلافة العباسية خلافات أخرى موازية، لكن أكبرها وأعظمها هي الخلافة العثمانية التي استمرت حوالي أربعة قرون من بداية القرن السادس عشر إلى نهاية الربع الأول من القرن العشرين. ومنذ سقوط الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤ والمسلمون يحاولون إعادتها. هذه هي باختصار قصة الخلافة .. هذه هي الخلافة التي يحلم العالم الإسلامي بعودتها.

النصوص تدعو إلى إحياء الخلافة

من النصوص المؤسِّسة لفكرة الخلافة نصوص تتحدث عن أفضلية القرن الإسلامي الأول. فهو في عرف المسلمين الأفضل رغم الحروب والصراعات والدماء التي سفكت فيه. لماذا؟ لأن حديث محمد يعلو على كل منطق. فهو الذي قال: «خيرُ أمَّتي قَرني، ثمَّ الذين يَلونهم، ثمَّ الذين يَلونهم.»[١٩] وبالتالي ينبغي أن يكون قوله صحيحا، حتى لو كان القرن الأول فيه قُتل أكثر من خمسة عشر ألف قتيل فقط بين عائشة زوجة النبي وعلي ابن عمه وخليفته وصهره.[٢٠] ومن النصوص المؤسِّسة التي يرددها المشايخ والدعاة على المنابر وفي الفضائيات ومواقع الإنترنت وفي المقررات الدراسية وتعدّ من المسلمات عند المسلمين قول محمد:

١٩. صحيح البخاري ٣: ١٣٣٥، كتاب فضائل أصحاب النبي، باب «فضائل أصحاب النبي».
٢٠. جاء في تاريخ الطبري ٣: ٥٨، «عشرة آلاف قتيل من أهل البصرة ومن أهل الكوفة خمسة آلاف».

تكون النبوّة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوّة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوّة.[٢١]

من الواضح أن هذا الحديث وُضع خلال حكم العباسيين لأنه يتحدث عن مراحل الخلافة حتى العصر العباسي «خلافة على منهاج النبوة»، وواضح أن من وضعه أراد أن يصبغ على حكم العباسيين صبغة الحكم الشرعي الموافق لأقوال الرسول. ومن المعروف أن الكتابةِ والتأليف ازدهرا خلال الحكم العباسي، إذ تم تأليف السيرة النبوية إبان الحكم العباسي، إضافة إلى كتب الحديث وكتب الفقه. وبالتالي تم تأليف الكثير من الأحاديث ونسبتها إلى محمد خصوصا تلك التي تتعلق بالحكم أو بمدح أشخاص معينين لهم علاقة بالحكم.

هذا الحديث الذي أتيت على ذكره يُعد الآن من العقائد الثابتة عند أهل السنة، ولا يمكن أن يقتنعوا بخطئه رغم المعطيات الواضحة التي تشير إلى وضعه لأسباب سياسية، لأن محمدا نفسه لا يتنبأ عن المستقبل ولا يعرف الغيب بشهادة القرآن: «قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ».[٢٢] هذا الحديث هو عمدة ما يستند إليه المنادون بالخلافة. فهم يقولون إن هذا الزمن هو زمن حكم «المُلك الجَبْرِي»، الملك المفروض على الناس بالإجبار أي بالقوة، وينبغي أن يزول لكي يحل محله الحكم بخلافة على منهاج النبي. وقد نادى بهذا الحديث الشيخ السعودي الشهير محمد العريفي وشرحه في خطبة نارية له في العاصمة المصرية القاهرة إبان حكم

٢١. مسند أحمد ٥: ٣٤٢.
٢٢. سورة الأنعام، الآية ٥٠.

الإخوان المسلمين مناشدا المسلمين للتضامن والجهاد ضد بشار الأسد. وبعدما عرض هذا الحديث قال بالحرف:

> نحن ننتظر الخلافة الإسلامية.. وأقْسِمُ بالله الخلافة الإسلامية قادمة وكأني أنظر إليها بعيني الآن، وما يحدث اليوم في البلاد الإسلامية الآن من اتحاد لعلماء الأمة وأحداث يؤكد أن الخلافة الإسلامية قادمة.[٢٣]

كانت هذه الخطبة قبل إعلان الخلافة على يد تنظيم الدولة.

لقد كان الشيخ العريفي فرحا بحكم الإخوان لمصر، وكان يرى سقوط سوريا وحكم الإخوان المسلمين أو الجماعات الإسلامية لها، وبالتالي رأى إمكانية حصول ذلك في كل البلدان المجاورة. ويجدر بالذكر أن الشيخ ينادي بقيام الخلافة ويعترف بأن المرحلة التي نعيشها هي ملك جبري، أي ملك مفروض على الناس بالقوة، بما فيها مُلك حكام السعودية، أي أن هؤلاء الملوك والرؤساء كلهم حكام غير شرعيين سيزولون بمجرد قيام الخلافة. وحين تقوم الخلافة، لا بد أن يكون هناك خليفة واحد، وينبغي قتل كل الذين ينازعونه السلطة. فالخلافة الإسلامية لا تحتمل إلا خليفة واحد، إما عليًّا أو معاوية. وقد جاء في حديث على لسان محمد: «إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ، فَاقْتُلُوا الآخَرَ مِنْهُمَا.»[٢٤] فلماذا حين أُعلِنت الخلافة وأُعلِن الخليفة الواحد لم يلتحق به هذا الشيخ؟ ألأن هذه الخلافة لم تكن خلافة إخوانية، كما كان يأمل؟

٢٣. موقع س إن إن بالعربية، «العريفي يدعو المصريين لنصرة سوريا: الخلافة قادمة أراها بعيني».
٢٤. صحيح مسلم ١٢: ١٩١، كتاب الإمارة، باب «إذا بويع لخليفتين».

داعش وإعلان الخلافة

أعلن تنظيم الدولة الخلافة في ٢٩ يونيو ٢٠١٤، وأعلن عن اسم الخليفة الجديد أبي بكر البغدادي.[٢٥] واسمه الأصلي إبراهيم عواد إبراهيم. تم ذلك حين قام الناطق الرسمي للتنظيم أبو محمد العدناني (سوري الأصل) بتلاوة بيان صوتي تحت عنوان «هذا وعد الله». ويوضح العنوان أن الخلافة وعد من الله في عرفهم. ويعلم الدارس لفكر الجماعات الإسلامية أن هذه إشارة إلى الآية القرآنية التي تقول: «وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ».[٢٦] وفعلا افتتح العدناني بيانه بهذه الآية نفسها لكي يؤكد للمسلمين أن الخلافة وعد رباني للمسلمين، وأن الله سيوليهم خلافة الأرض كلها لأنهم أحق بها من الكفار، لكي ينشروا دينه ويُخْضِعُوا العباد له. فللخلافة غاية، وليست مجرد حكم. يقول العدناني:

> تلك حقيقة الاستخلاف، الذي مِن أجله خلقنا الله، ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم، وإنما هي تسخير ذلك كله، واستخدامه: في حمل الكافّة على ما يقتضيه الشرع؛ في مصالحهم الأخروية والدنيوية، والتي لا تتحقق إلا بتنفيذ أمر الله، وإقامة دينه، والتحاكم لشرعه.[٢٧]

يمضي العدناني في بيانه ويتطرق إلى حال الأمة الإسلامية قديما وحديثا، وهي المقارنة التي أشرت إليها سابقا والتي تعشش في وجدان كل شاب مسلم.

---

٢٥. أعلن التنظيم الخلافة في شريط سمعي على لسان أبو محمد العدناني الناطق الرسمي باسم الحكومة، واسم الشريط «هذا وعد الله»، وقد نشرت الخبر الكثير من وسائل الإعلام العربية والعالمية أذكر من بينها هنا، على سبيل المثال لا الحصر، العربية نت، ««داعش» يعلن دولة الخلافة الإسلامية ويبايع البغدادي».

٢٦. سورة النور الآية ٥٥.

٢٧. شريط «هذا وعد الله».

إنها المقارنة بين الأمس واليوم، بين أمجاد الماضي وخيبات الحاضر، فتحصل الحسرة. ويعتقد المسلم أن السبب في ذلك هو الابتعاد عن الدين لا سوء التعليم، وسوء الإدارة، والديكتاتورية، وتكريس قيم التخلف والانحطاط. ويمكن اختصار أسباب التخلف والانحطاط عندنا في العالم الإسلام، حسب رأيه، في سبب ديني واحد، ألا وهو «ابتعادنا عن الإسلام». وبعد المقارنة، يمضي العدناني ليقول:

> يا أمة محمد (ص)؛ لا زلتِ خير أمة، وما زالت لك العزة، ولَتعودنّ لك السيادة، وإن إله هذه الأمة بالأمس: هو إلهها اليوم، وإن الذي نصرها بالأمس: ينصرها اليوم، وآن الأوان؛ آن لأجيال غرقت في بحار الذل، وارتضعت لبان الهوان، وتسلّط عليها أراذل الناس بعدما طال رقادها في ظلام الغفلة، آن لها أن تنتفض، آن لأمة محمد (ص) أن تهبّ من رقادها؛ فتنزع عنها ثوب العار، وتنفض غبار الذل والشنار[٢٨]؛ فقد ولى زمان اللطم والعويل، وبزغ بإذن الله فجر العز من جديد، وأشرقت شمس الجهاد، وسطعت تباشير الخير، ولاح في الأفق الظفر، وبدت علامات النصر، وها هي راية الدولة الإسلامية، راية التوحيد: عالية خفاقة مرفرفة، تضرب بظلالها من حلب إلى ديالى..[٢٩]

تُظهر هذه الكلمات بجلاء أن أزمة الشباب المسلم أزمة خلَقَها الدين وخلَقَها التمسك بالماضي الديني وعدم الاعتذار عنه، واعتبار الغزو نجاحا، واعتبار استيطان بلدان الناس واستغلالها نصرا، اعتبار الخلافة التي بنت رقعتها على جماجم الناس، وعلى مآسي النساء، واستعباد الصبيان شيئا مقدسا ينبغي أن يعود، بل اعتبارها أفضل شكل من أشكال الحكم الذي ينبغي أن يسود على الأرض. وسيجد هذا الحنين إلى الماضي صدى له في قلب كل شاب مسلم مخلص لدينه. ولذلك لم يكن العدناني في خطابه إلا صورة نموذجية لشاب

٢٨. جاء في لسان العرب: الشَّنار: العيب والعارُ.
٢٩. شريط «هذا وعد الله».

مسلم تشرب تعاليم دينه ويعرف كيف يوظف المصطلحات ليخاطب وجدان غيره من الشباب المسلم الذي لا يستطيع أن يسائل الدين أو يعارضه، ولا يجد غير التسليم والاستسلام لنصوصه المقدسة.

يمضي العدناني في خطابه بلغة عربية فصيحة وبصوت جهوري مثل أي خطيب جمعة يحاكي ما يتجاوب معه الشباب المسلم في كل مكان، فيتحدث عن حلم الخلافة:

> ما ذاقت الأمة طعم العزة منذ أن ضُيّع، حلم يعيش في أعماق كل مسلم مؤمن، أمل يرفرف له قلب كل مجاهد موحّد؛ ألا وهو الخلافة، ألا وهو الخلافة، واجب العصر المضيّع.[30]

لا يعتمد العدناني على حسه كشاب مسلم فقط، وعلى أحلامه التي يشاطره إياها ملايين المسلمين عبر العالم بل يعتمد أيضا على النصوص التي لها سلطة دينية. إذ يسشتهد في الشريط الذي مدته أربع وثلاثون دقيقة بخمسة وعشرين آية قرآنية وأربعة أحاديث، إضافة إلى التفاسير الإسلامية المعتبرة. فلا يتحدث العدناني من جعبة فارغة، بل من رصيد ديني ضخم واستخدام جيد للنصوص والأدلة الشرعية، ما يدل على أن البيان تمت صياغته بحنكة ومهارة دينية عالية لا يضاهيها إلا الفقهاء والخطباء المفوهون في العالم الإسلامي.

من بين النصوص التي استخدمها العدناني في بيان التنظيم الآية القرآنية التي تقول: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً».[31] قال العدناني عنها مقتبسا من القرطبي، وهو من كبار مفسري القرآن في الأندلس في القرن الثالث عشر: «هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة؛

٣٠. شريط «هذا وعد الله».
٣١. سورة البقرة الآية ٣٠.

يُسمَع له ويُطاع؛ لتجتمع به الكلمة، وتُنفّذ به أحكام الخليفة، ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة، ولا بين الأئمة.»[٣٢] يوضح هذا أن علماء الإسلام أجمعوا على وجوب الخلافة، ولذلك كان تجرؤ تنظيم الدولة على إعلان الخلافة سابقة في إحراج علماء الدين الذين نادوا بها طوال هذه السنين لكنهم لم يكونوا قادرين على تنفيذها. فقد أخرج تنظيم الدولة النظرية إلى أرض الواقع ووضع الجميع أمام الأمر الواقع. بل أعلن أن عدم القيام بإعلان الخلافة في ظل توفر شروطها يعدّ إثما يُعاقَبُ عليه المسلم:

> بناء عليه؛ اجتمع مجلس شورى الدولة الإسلامية، وتباحث هذا الأمر، بعد أن باتت الدولة الإسلامية بفضل الله تمتلك كل مقوّمات الخلافة، والتي يأثم المسلمون بعدم قيامهم بها، وأنه لا يوجد مانع أو عذر شرعي لدى الدولة الإسلامية؛ يرفع عنها الإثم في حال تأخرها أو عدم قيامها بالخلافة؛ فقررت الدولة الإسلامية، ممثّلة بأهل الحل والعقد فيها؛ مِن الأعيان والقادة والأمراء ومجلس الشورى: إعلان قيام الخلافة الإسلامية.[٣٣]

إعلان الخلافة يعني وجود دولة إسلامية واحدة وخليفة واحد، وإلغاء بقية الدول والممالك الإسلامية، حيث تصير في حكم المنازعين على الحكم الذين يجب قتالهم لأنهم لا شرعية لهم.

لقد فعلوا ما فعله الصحابة، حيث اجتمع مجلس شورى المجاهدين، مثلما اجتمع أصحاب محمد في سقيفة بني ساعدة، وقرروا اختيار خليفة ومبايعته، مثلما بايع أصحاب محمد أبا بكر خليفة للمسلمين بعد موت محمد. ولذلك يقول العدناني في بيانه: «بإعلان الخلافة؛ صار واجبًا على جميع المسلمين مبايعة ونصرة الخليفة إبراهيم حفظه الله، وتبطل شرعيّة جميع الإمارات والجماعات والولايات والتنظيمات، التي يتمدد إليها سلطانه

٣٢. الاقتباس جاء في شريط «هذا وعد الله»، وأصله في تفسير القرطبي ١: ٢٧٩.
٣٣. شريط «هذا وعد الله».

ويصلها جنده.»[٣٤] لم يكن إعلان تنظيم الدولة الخلافة إلا تحصيل حاصل. فالشيوخ يقولون إنهم يحلمون بها، ويرونها قريبة، وقد تخدر الشباب بهذه العقيدة عقودا من الزمن. فإذا أعلنها أي تنظيم وفق الشروط الشرعية المتعارف عليها، فسيلتحق به الشباب المسلم من البلدان الإسلامية كلها نتيجةً لما تعلموه وتلقنوه. لقد تحول حلم قيام الخلافة الإسلامية إلى كابوس بالنسبة لتلك الدول الإسلامية التي سمحت بهذه التعاليم عن الخلافة وغضت الطرف عنها، بل نشرت على مواقعها وفي كتبها أن الخلافة عقيدة إسلامية وأنها قادمة لا محالة. فوجدت شبابها يترك البلاد للالتحاق بالخلافة. وحين حصل ذلك لم تستطع تلك الدول تفنيد الأمر شرعيا، بل لجأت إلى الطعن فقط في أحقية تنظيم الدولة بالخلافة.

لا يحمل الخليفة اسم أبي بكر البغدادي اعتباطا، إنما عن قصد. فالخليفة الإسلامي الأول بعد محمد اسمه أبو بكر أيضا. وما دامت الخلافة ستعود لأول مرة بعد عقود من الزمن، فإنها لا بد أن تشبه الحالة التي كانت عليها خلافة أبي بكر الأولى. لقد ارتدت القبائل أيام أبي بكر بعد موت محمد. وبالمقابل، يعدّ تنظيم الدولة باقي الدول الإسلامية في حالة ردة عن الإسلام، لأنها تعيش مرحلة ارتداد عن الإسلام الحقيقي، ولهذا يلزمها أبو بكر آخر يعلن حروب الردة ليعيدها إلى الإسلام. لقد قُسِّم العالم الإسلامي في الشرق الأوسط بناء على معاهدة سايكس بيكو التي تمت منذ حوالي قرن مضى، ورُسمت حدود العراق وسوريا ولبنان والأردن بناء على تلك الاتفاقيات. وبطبيعة الحال، يعدّ تنظيم الدولة ذلك نوعا من الشرك، نوعا من الخضوع للكفار الغربيين وتقسيم بلاد الإسلام بناء على تعليماتهم. وقد حان الوقت لإعادة الخلافة الإسلامية دولة واحدة. وستحرر الخلافة

٣٤. نفس المصدر.

العالم الإسلامي من أصنام الغرب الكافر، من العلمانية والديموقراطية وكل القيم الدخيلة.

هذا ما ذكره بالضبط بيان إعلان الخلافة، فقد جاء فيه:

> فوالله لئن تكفروا بالديمقراطية والعَلمانية والقومية، وغيرها مِن زبالات الغرَب وأفكاره، وتعودوا لدينكم وعقيدتكم؛ فو الله وتالله: لَتملكنّ الأرض، ولَيخضعنّ لكم الشرق والغرب، هذا وعد الله لكم، هذا وعد الله لكم.[٣٥]

ونُشر شريط دعائي آخر قبل إعلان الخلافة بأيام قليلة تحت عنوان «كسر الحدود» (المقصود بها الحدود بين سوريا والعراق) كان الغرض منه الدعاية الإعلامية. ويتضمن «كسر الحدود» أبعادًا رمزية تدل على رغبة الخلافة الإسلامية في إزالة الحدود التي رسمها الغرب الكافر. ويبدأ شريط الفيديو الذي يبلغ طوله اثنتي عشرة دقيقة بأنشودة تقول في أحد أبياتها:[٣٦]

أمتي فاستبشري، قد تَعَدَّيْنَا الحدودْ   لم تعد في أرضنا، رسم أحفاد القرودْ

ونرى في الشريط أيضا أبا عمر الشيشاني وأبا محمد العدناني يتقدمان باقي المقاتلين في سجدة شكر على الأرض التي تم كسر الحدود فيها. والرسالة الواضحة منها هي أن ذلك النصر هو من الله، وهذه أيضا سُنة أخذها المسلمون عن محمد. إذ «كانَ النبيُّ إذَا أتاهُ أَمْرَ يَسُرُّهُ أو بُشِّرَ بِهِ، خَرَّ ساجداً شُكْرَاً للهِ عَزَّ وَجَلَّ.»[٣٧] في هذا الشريط تناوب أعضاء التنظيم على الكلام واحدًا تلو الآخر. ولما جاء دور العدناني، كان ضمن كلامه «الصلاة والسلام على من بُعِثَ بالسيف رحمة للعالمين»، في إشارة واضحة إلى محمد نبي الإسلام، ثم يمضي فيقول:

---

٣٥. شريط «هذا وعد الله».

٣٦. فيديو «كسر الحدود».

٣٧. السنن الكبرى للبيهقي ٣: ٣٣٤، باب «سجود الشكر».

ومـن وَعْـدِ الله تبـارك وتعـالى مـا جـاء على لسـان نبيـه (ص) الصـادق المصـدوق، ثـم تكـون خلافـة على منهـاج النبـوة.. فمـا بعـد إزالـة هذه الحـدود، حـدود الذل، وكـسر هـذا الصنـم، صنـم الوطنيـة، إلا خلافـة على منهـاج النبـوة، إن شـاء الله تبـارك وتعـالى، تحقيقـا لا تعليقـا، وعـد الله.. ولَتُمْسَـحَنَّ الحـدود مـن الخارطـة، ولَتُزالَـنَّ مـن القلـوب.[٣٨]

هـذا هـو غـرض قيـام الخلافـة. إنـه توحيـد الأمـة الإسـلامية تحت رايـة واحـدة وإعـلان الجهـاد لإخضـاع العالـم كلـه تحـت رايـة الإسـلام، تمامـا كمـا فعـل محمـد والصحابـة مـن بعـده، وأولهـم خليفتـه أبـو بكـر الأول. وهاهـو أبـو بكـر الثـاني يعيـد إلى الأمـة الأمجـاد الـتي ضيعتهـا ويعيـد إحيـاء الخلافـة مـن جديـد.

أبوبكر البغدادي وشروط الخليفة

فهـل تتوفـر الـشروط في الخليفـة الجديـد؟ مـن الـشروط أن يكـون الخليفـة قرشـيا حـتى يخضـع المسـلمون لقيادتـه. ولذلـك قـال العدنـاني موضحـا في بيـان إعـلان الخلافـة: «وإن الخليفـة إبراهيـم، حفظـه الله، تتوفـر فيـه جميـع شروط الخلافـة الـتي ذكرهـا أهـل العلـم، وقـد بُويـع في العـراق مِـن قبـل أهـل الحـل والعقـد في الدولـة الإسـلامية.»[٣٩] إنـه يعـرف جيـدا الـشروط الشرعيـة للخليفـة، لذلـك لـم يكـن اختيـار إبراهيـم عـواد اعتباطـا. فهنـاك اعتبـارات كثيرة أهمها أنـه يعـدّ نفسـه مـن سـلالة النـبي. فهـو قـرشي إذن، والقـرشي هـو الذي يسـتحق الخلافـة لقـول محمـد: «الخلافـة في قريـش»،[٤٠] أو قـوله: «لَا يَـزَالُ هَـذَا الْأَمْـرُ [أي الخلافـة] فِي قُرَيْـشٍ، مَـا بَـقِيَ مِـنَ النَّـاسِ اثْنَـانِ.»[٤١] أو قـوله: «إنَّ هـذا الأمـرَ [يعـني الخلافـة] في قريـشٍ ، لا يُعاديهـم أحـدٌ إلا كبَّـهُ الله على وجهِـه، مـا أقامـوا الدِّيـن.»[٤٢] وهـو الحديـث نفسـه الذي اسـتخدمه العدنـاني في بيانـه.

---

٣٨. فيديو «كسر الحدود».
٣٩. شريط «هذا وعد الله».
٤٠. مسند أحمد ٥: ٢٠٢.
٤١. صحيح مسلم ١٢: ١٥٧، كتاب الإمارة، باب «الناس تبع لقريش والخلافة في قريش».
٤٢. صحيح البخاري ٣: ١٢٨٩، كتاب المناقب، باب «مناقب قريش».

الشرط الآخر هو أن تتم له البيعة. ولا يشترط في البيعة أن تكون عامة، بل يمكن لمجموعة من الناس أن يبايعوا الإمام فيسمّوا أهل الحل والعقد. ففي مبايعة أبي بكر «الصديق» أو خليفة للمسلمين، لم يجتمع المسلمون كلهم هناك. بل كانت هناك مجموعة صغيرة لا تمثل إلا فئة قليلة من المسلمين. وفي تعيين الخليفة الثالث عثمان بن عفان أيضا، لم يكن هناك إلا ستة أشخاص،[٤٣] وبالتالي من الصعب أن يحكم أي فقيه مسلم على هذه الخلافة بالبطلان لأنها لا تستوفي الشروط. فالشروط أصلا فضفاضة غير دقيقة. وما دام الخليفة قرشيًّا واختارته مجموعة من المسلمين، فهو خليفة. فعلى سبيل المثال، اعترض الشيخ القرضاوي بحجة أنه يجب على الأمة الإسلامية كلها أن تتفق على الخليفة، حيث قال إن الخلافة هي الإنابة وإنها «لا تثبت شرعا وعقلا وعرفا إلا بأن تقوم الأمة جميعها بمنحها للخليفة.»[٤٤] والعجيب هنا هو أن هذا الشرط لم يتوفر في أي واحد من خلفاء الدولة الإسلامية. متى اتفقت الأمة جميعها على خليفة واحد في كل تاريخها أصلًا؟ ألم تكن شرذمة من الأشخاص تقرر لبقية الأمة؟ هل اتفق الشيعة والسُّنة على خليفة واحد؟ هل كان عليٌّ موافقا على خلافة أبي بكر وحرمانه منها؟ هل وافق كل المسلمين على اختيار عمر وعثمان؟

نأتي إلى هذا الخليفة الجديد. فهو متفقّه في الدين، وحاصل على الدكتوراه في الشريعة الإسلامية،[٤٥] وعمل إمامًا لأحد المساجد في مدينة سامراء شمال بغداد العراق.[٤٦] تتوفر من الناحية الشرعية الشروط اللازمة كلها في أبي بكر البغدادي. وحتى لو فرض سلطته فرْضًا، فإن بعض فقهاء الإسلام قالوا إن ذلك يؤهله ليبقى خليفة ولا تجوز منازعته في سلطانه. ولذلك اقتبس العدناني أيضا في خطابه من كلام الإمام أحمد (مؤسس المذهب

٤٣. تاريخ الطبري ٢: ٥٨٠.
٤٤. القدس العربي، «القرضاوي يعتبر إعلان الخلافة في العراق باطلا شرعًا».
٤٥. يورو برس بالعربية، «معلومات تُكشف لأول مرة عن زعيم تنظيم «داعش» الارهابي ابو بكر...».
٤٦. بي بي سي عربي، «من هو أبو بكر البغدادي زعيم تنظيم «الدولة الإسلامية»؟».

الحنبلي، القرن الثامن والتاسع الميلادي) ما يوضح الحكم للمتدينين من المسلمين الذي يبحثون عن رأي الشرع في الخليفة، حيث قال نقلا عن الإمام أحمد: «وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِمْ بِالسَّيْفِ حَتَّى صَارَ خَلِيفَةً وَسُمِّيَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ يُؤْمِنُ بِاَللَّهِ إنْ يَبِيتَ وَلَا يَرَاهُ إمَامًا بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا.»[٤٧] وقد حصل هذا فعلا في التاريخ الإسلامي. إذ كان عبد الملك بن مروان (حكم من ٦٨٥ إلى ٧٠٥م) في دمشق، فنازعه عبد الله بن الزبير في الخلافة في مكة. فذهب إليه وحاصره وقتله وأجبر الناس على الخضوع له. ومع ذلك سُمّي خليفة للمسلمين.[٤٨] إذن لا ينبغي أن نستغرب تولّي البغدادي الخلافة بناء على الشورى من مجلسه من المقربين إليه، لأنه يعلم علم اليقين أن حتى الاستيلاء على السلطة مقبول في الشريعة الإسلامية.

الخلافة بين الماضي والحاضر

يختار المجاهدون وأعضاء التنظيم أسماء حركية فيها دلالة إسلامية على بعض الشخصيات المحببة إلى قلوبهم أو للتشابه والالتقاء معها في بعض النقط. فقد اتخذ أبو مصعب الزرقاوي اسم «مصعب» لأنه صحابي معروف بأنه تخلى عن نعيم الدنيا في سبيل الإسلام، ومات شهيدا في معركة أحد حين كان يدافع عن محمد.[٤٩] وأما الخليفة البغدادي، فاختار اسم أبي بكر لكي يحيي فكرة الخلافة من جديد. فالخلافة الأولى أشبه بخلافة اليوم، ولذلك كانت أول خطبة يلقيها الخليفة البغدادي شبه مقتبسة حرفيا من الخطبة الأولى التي ألقاها أبو بكر بعد توليه الخلافة بعد موت محمد، حيث جاء في السيرة النبوية:

---

٤٧. منار السبيل ٢: ٣٩٩.
٤٨. منار السبيل ٢: ٣٩٩.
٤٩. تفسير الطبري ٤: ٩٣.

فتكلم أبو بكر، فحمد الله، وأثنى عليه بالذي هو أهله ثم قال: أما بعد: أيها الناس، فإني قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم.[٥٠]

أُلقيت هذه الكلمات بعد بيعة الخليفة الأول، وكررها الرئيس محمد مرسي في أول خطاب له حين تولى رئاسة مصر،[٥١] ثم كررها أبو بكر البغدادي حين بُثت أول خطبة جمعة له من جامع الموصل الكبير في السادس من رمضان. امتدت هذه الخطبة (مع الصلاة) حوالي واحدة وعشرين دقيقة. ومن جملة ما قال فيها:

ولقد ابتُلِيتُ بهذا الأمر العظيم، لقد ابتُلِيتُ بهذه الأمانة؛ أمانة ثقيلة، فَوُلِّيتُ عليكم، ولستُ بخيركم، ولا أفضل منكم؛ فإن رأيتموني على حق: فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل: فانصحوني وسدّدوني، وأطيعوني ما أطعتُ الله فيكم، فإن عصيته: فلا طاعة لي عليكم.[٥٢]

أليست هذه الكلمات متشابهة حد التطابق؟ ألا يدل ذلك على أن أعضاء التنظيم يحاولون تطبيق ما جاء في السيرة بالحرف؟

إنهم يعرفون الإسلام أكثر مما يعرفه المشايخ، لا يتلونه لمجرد البركات فقط، بل يحاولون تطبيقه على أرض الواقع. لقد حصل المشايخ على مناصب دينية وصاروا يجاملون السلطات الحاكمة، ولذلك يقرؤون النصوص المتعلقة بالجهاد والقتال ويشرحونها. لكن حين يصلون إلى تطبيقها فإنهم

٥٠. السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٤٥٠.
٥١. جريدة اليوم السابع، «بالفيديو.. الرئيس مرسى فى أول خطاب بعد وصوله لكرسى الحكم: لولا دماء شهداء الثورة ما كانت الحرية.. وسأكون على مسافة واحدة من الجميع.. وأعينونى متى أطعت الله فيكم..».
٥٢. مؤسسة الفرقان للإنتاج الإعلامي، «خطبة الجمعة في الجامع الكبير بالموصل».

يتوقفـون. فحـين كان والدي يقـرأ آيـات القتـال ليـل نهـار، كنـت أسـأله لمـاذا لا يطبقهـا ويكتـفي بقراءتهـا فقـط، فـكان يجيبـني بـأن ظروفـه لا تسـمح، مـا يعـني أنـه إذا سـمحت الظـروف فسـيحاول تطبيقهـا. وينطبـق الأمـر نفسـه على المشـايخ. «فظروفهـم» لا تسـمح لهـم بالقيـام بالجهـاد بأنفسـهم. فهـم يحرضـون ويفتـون ويشرحـون ويشـحنون، ثـم حـين يـأتي التنفيـذ، تجـد الشـباب المسـكين المتحمـس هـو المدفـوع أمـام وجـه المدفـع. وأمـا المشـايخ فإنهـم يتأخـرون. إذ يدفعـون أبنـاء الأمـة إلى «الاستشـهاد» ولا يدفعـون أبناءهـم إلى ذلـك. لذلـك أخـذت الدولـة الإسـلامية على عاتقهـا مسـألة تطبيـق النصـوص على أرض الواقـع. والشـباب تعـب مـن السـماع والتلـقي والتأنيـب ومشـاهدة أوضـاع الأمـة وهي تتـداعى مـن النـواحي المختلفـة دون أن يحـرك شـخص سـاكنا. لذلـك عندمـا رأوا أن تنظيـم الدولـة يضـم مجموعـة مـن المسـلمين مـن الشـباب المتحمـس للجهـاد والذي يريـد أن يعيـد أمجـاد المـاضي عـن طريـق السـيف مـرة أخـرى، تقدمـوا بـالآلاف وتطوعـوا للانضمـام إلى صفوفهـم، لأنهـم وجـدوا في تلـك الفكـرة صـدى مغروسـا فيهـم يـتردد منـذ سـنين عـبر وسـائل تعليميـة مختلفـة تركـت تلـك البصمـات في وعيهـم ولاوعيهـم وجعلتهـم مسـتعدين لاسـتقبال كل مـا يعيـد أمجـاد تلـك الخلافـة المزعومـة.

لقـد قـام تنظيـم الخليفـة بتذبيـح أبنـاء الطائفـة الشـيعية مطلقـا عليهـم تسـميات التشـنيع المتنوعـة، وأغلـب مـا تطلـق عليهـم الفيديوهـات الـتي تصـور طـرق إعدامهـم «المرتديـن» و «الجيـش الصفـوي» و «الروافـض»، ويطلقـون على الشـيعة العلويـين في سـوريا «النصيريـين»، وكلهـا أسـماء مسـتمدة مـن فـرق إسـلامية قديمـة الغـرض منهـا السـب والشـتيمة وإخراجهـم مـن ملـة الإسـلام القويـم، لمـاذا؟ لأن حـروب أبي بكـر الأولى أيضـا كانـت ضـد المرتديـن مـن أبنـاء الإسـلام الذيـن توقفـوا فقـط عـن دفـع الـزكاة، ومـع ذلـك سـموا بالمرتدين. ولذلـك حينمـا تجـد تصريحـات لسياسـيين وإعلاميـين وكتّـاب تحـاول نـفي الإسـلام عـن تنظيـم الدولـة بحجـة أنـه قتـل مـن المسـلمين أكـثر مـن غيرهـم،

فـإن الحجـة نفسـها لـو اسـتخدمت ضـد أبي بكـر الخليفـة الأول، لنفـت الإسـلام عنـه أيضـا. فهـو قـد قتـل مـن المسـلمين أكـثر مما قتـل مـن غيرهـم. وقتـل علي بـن أبي طالـب مـن أتباعـه مـن الخـوارج حـوالي أربعـة آلاف شـخص في معركـة النهـروان.[٥٣] ومـات بـين علي وعائشـة الآلاف في معركـة الجمـل.[٥٤] وفي معركـة صفـين بـين معاويـة وعلي، مـات حـوالي سـبعين ألفـا مـن المسـلمين.[٥٥] فـإذا كان هـذا قـد حصـلَ في خـير القـرون، فكيـف باليـوم؟

كيـف ننكـر على الدولـة الإسـلامية إسـلامها بحكـم قتالهـا للفـرق الإسـلامية الأخـرى؟ لـو طبقنـا المبـدأ نفسـه، لـكان أبـو بكـر وعائشـة وعلي ومعاويـة وعبـد الله بـن الزبـير كلهـم غـير مسـلمين. لمـاذا؟ لأنهـم حاربـوا مسـلمين آخريـن وقتلوهـم. وإضافـة إلى ذلـك، يوضـح القـرآن أن الاقتتـال بـين المسـلمين وارد، وأنـه يجـوز للمسـلمين قتـال طائفـة منهـم حـتى ترضـخ لحكـم الله: «وَإِن طَائِفَتَـانِ مِـنَ الْمُؤْمِنِـينَ اقْتَتَلُـوا فَأَصْلِحُـوا بَيْنَهُمَـا فَـإِن بَغَـتْ إِحْدَاهُمَـا عَلَى الأُخْـرَى فَقَاتِلُـوا الَّـتِي تَبْـغِي حَـتَّى تَـفِيءَ إِلَى أَمْـرِ اللهِ».[٥٦] وعـلاوة على ذلـك، أوضحـت سـابقا أن الشـيعة يعـدّون كفـارا عنـد السـنة، ولا يعـدّون مسـلمين، بـل إن البـدء بالشـيعة يعـدّ أولويـة عنـد تنظيـم الدولـة، لأن العـدو القريـب عندهـم أولى بالمحاربـة مـن العـدو البعيـد. وهـذا أحـد أهـم الاختلافـات بينـه وبـين القاعـدة. صحيـح أنـه بـين الفينـة والأخـرى قـد تقـوم بعـض الذئـاب المنفـردة بعمليـات فرديـة في الغـرب، لكـن هـذا على العمـوم ليـس توجهـا عامـا ينتهجـه تنظيـم الدولـة الإسـلامية. فتنظيـم الدولـة يريـد تطهـير أرضـه أولا مـن المرتديـن الشـيعة قبـل أن ينطلـق إلى بـاقي الأراضي الـتي عليـه اسـترجاعها لأجـل الخلافـة.

---

٥٣. البداية والنهاية لابن كثير ٦: ٢١٨.

٥٤. البداية والنهاية لابن كثير ٧: ٢٤٧.

٥٥. جاء في مصنف بن أبي شيبة ٨: ٧٢٥، «بلغ القتلى يوم صفين سبعين ألفًا، فما قدروا على عدهم إلا بالقصب، وضعوا على كل إنسان قصبة، ثم عدوا القصب».

٥٦. سورة الحجرات، الآية ٩.

الشيعة مكفَّرون من طرف كبار أئمة الإسلام وعلمائه. فقد قال ابن تيمية شيخ الإسلام (القرن الثالث عشر والرابع عشر) عن الشيعة كلاما خطيرا، قال: «وأول بدعة حدثت في الإسلام بدعة الخوارج والشيعة، حدثتا في أثناء خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فعاقب الطائفتين. أما الخوارج فقاتلوه فقتلهم، وأما الشيعة فحرق غَالِيَّتَهُم بالنار.»[٥٧] فهذا علي يحرق مسلمين «شيعة» بالنار، ويقتل آخرين بالآلاف. وهو لا يعدّ مجرد إنسان مسلم عادي، بل هو واحد من أهم رموز الإسلام إلى اليوم. وأما الشيعة العلويون فيقول عنهم ابن تيمية: «هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى؛ بل وأكفر من كثير من المشركين وضررهم على أمة محمد (ص) أعظم من ضرر الكفار المحاربين.»[٥٨] فهل يستغرب المرء إن وجد تنظيم الدولة يركز على الشيعة ويقاتلهم أينما وجدوا؟ بل لا أستغرب أن يعاملهم أقسى معاملة كما فعل مع مجندي قاعدة سبايكر الذين قتلهم بالمئات ودفنهم في مقابر جماعية.[٥٩] ويكفّر الموقع الديني الرسمي للمملكة العربية السعودية الشيعة ويَعُدّهم مرتدين عن الإسلام فيقول عنهم: «فهم مشركون مرتدون عن الإسلام والعياذ بالله.»[٦٠] فلا غرابة إذن أن يجد تنظيم الدولة تعاطفا عند أهل السنة في المناطق التي يشكلون فيها الغالبية، لأنهم تشبعوا بالأقوال الدينية التي تكفر الشيعة وتجعلهم أسوأ حتى من اليهود والنصارى. لا مجال للتعايش بين الطائفتين طالما أن الماضي ما زال يتحكم في ضمائرنا ومشاعرنا.

٥٧. فتاوى ابن تيمية ٣: ٢٧٩.
٥٨. نفس المصدر ٣٥: ١٤٣.
٥٩. روسيا اليوم، «بالصور.. داعش تعلن تصفية ١٧٠٠ من طلبة كلية القوة الجوية في تكريت».
٦٠. مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، ««حكم أكل ذبائح من يدعون الحسن والحسين وعليا عند الشدائد».

هوس الخلافة عند الأنظمة والشعوب الإسلامية

مع أن الدول الإسلامية لا تخضع لحلم الخلافة، إلاّ إنه جزء من إستراتيجيتها ومكوّن من مكوّناتها. فالمغرب يحكمه الملك محمد السادس الذي من المفترض أنه من سلالة النبي محمد، وأن أسرته التي استولت على الحكم من السعديين والدلائيين في القرن السابع عشر الميلادي ما زالت مستمرة في الحكم إلى اليوم. والملك في المغرب هو أمير المؤمنين، وهو لقب ديني يشبه لقب الخليفة، بل إن أول من سمّي به هو الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، حيث لقبوه بأمير المؤمنين حتى لا تطول التسمية، لأن أبا بكر كان خليفة رسول الله، فاستثقلوا أن يقولوا «خليفة خليفة رسول الله»، فأحدثوا لقبا جديدا وهو لقب «أمير المؤمنين». فكان عمر أول من سمي به في تاريخ الإسلام.[٦١] ويحمل هذا اللقب ملك المغرب اليوم، فهو قرشي من سلالة محمد. وكأنّ الأمر يشبه وجود خلافة مصغرة على إقليم واحد من أقاليم المسلمين. فالدين يستخدم لتدجين الشعوب. وما زالت شعوبنا لا تختار قادتها بناء على الحنكة أو بناء على أسس ديموقراطية، بل ما زلنا ننظر إلى علاقة الدم ورابطة القرابة. فدم «الملك» أشرف من باقي الدماء، ولذلك يحق له أن يحكم الدماء الأقل شرفا منه. وينطبق الأمر نفسه على الأسرة الهاشمية في الأردن، فالحسين بن علي الهاشمي مؤسس الدولة الهاشمية قرشي الأصل، من سلالة النبي هو الآخر. كان شريف مكة، وهو الذي قاد الثورة العربية ضد العثمانيين، ولأن الخليفة ينبغي أن يكون عربيا قرشيا كما يوصي بذلك الإسلام، فقد أعلن نفسه خليفة مباشرة بعد سقوط الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤، ما ألّب ابن سعود عليه فطرده من الحجاز.[٦٢] وابنا هذا الخليفة هما عبد الله الذي صار ملك الأردن وفيصل الذي صار ملك العراق. ولولا نسبهما وسلالتهما لما تمكّنا من أن يملكا على هاتين

٦١. الطبقات الكبرى لابن سعد ٣: ٢٨١.

٦٢. موقع الدكتور أحمد الريسوني، «فتوى تاريخية للعلامة الشيخ محمد رشيد رضا: الخلافة والخليفة ومدى أهلية شريف مكة».

الدولتين. وقد تم إنهاء حكمهم في العراق سنة ١٩٥٨، وما زال حكمهم مستمرا في الأردن. يرجع هذا كله إلى التعاليم الإسلامية عن الخلافة، حيث يُشْترط في الخليفة أن يكون قرشيا شريفا، وكأن باقي الأجناس لا حق لها في حكم المسلمين لأنها ليست على نفس القدر من الشرف.

إنها عنصرية تحت قناع ديني. وفي الإطار نفسه، نجد المملكة العربية السعودية عبارة عن زواج بين الملكية والدين، حيث تصاهر، منذ تأسيسها في القرن الثامن عشر إلى اليوم، رجال الدين مع العائلة المالكة ليعطوها السلطان الديني. فقد تحالف الملك الأول للدولة السعودية الأولى محمد بن سعود مع رجل الدين محمد بن عبد الوهاب لإقامة دولة شبيهة بتنظيم الدولة اليوم، بشرط أن يتولى محمد بن سعود الأمور السياسية ويتولى الشيخ بن عبد الوهاب الأمور الدينية.[٦٣] لذلك تزوج عبد العزيز ابن محمد بن سعود ابنة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهكذا امتزج الدين بالسياسة. وقد استغل الملك فهد أيضا الألقاب الدينية في تكريس حكمه، فعلى سبيل المثال، في العام ١٩٨٦ غيّر لقبه من صاحب الجلالة إلى خادم الحرمين،[٦٤] حتى يكتسب قدسية دينية تكون مسوغا ومثبتا لدعائم حكمه. لذلك لن تتحرر البلدان الإسلامية وتنعم بجو ديموقراطي إلا بعد أن تتحرر من هذه الأفكار التي تفترض أن جنسا أشرف من آخر وأحق بالحكم من غيره (وهي بعيدة عن الديموقراطية)، وأن الحاكم الذي تخلع عليه صفات دينية أكثر أحقية بالسلطة والملك من غيره. إن الذين يؤمنون بمثل هذه الأفكار ما زالوا يقبعون في القرون الوسطى. لذلك على الشباب المسلم أن يتحرر من قيود الماضي الذي يكبله منذ ألف وأربعمائة سنة مضت إلى اليوم لكي يستطيع اللحاق بركب الحضارة.

---

٦٣. مركز الجزيرة للدراسات، «السلفية السعودية في ميدان السلطة».
٦٤. موقع وزارة الخارجية السعودية، تحت عنوان: الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود.

يتخذ تنظيم الدولة شعار «باقية وتتمدد» لكي يذكّر نفسه ويذكّر العالم بأن دولة الخلافة لم تنته، بل إنها باقية. ولا بد أن تبقى لكي يكون الدين صحيحا. وهي ليست باقية فحسب، بل إنها تتمدد أيضًا كما تمددت في عصر الخلفاء الأوائل. إنه نوع من الطمأنة النفسية التي يمارسها أعضاء التنظيم ويصرخون بها، بل ويجعلون أعداءهم يقولون غصبا عنهم، «باقية وتتمدد».[٦٥] إنه حلم الخلافة الذي صار هوسا لدى الكثير من الشباب المسلم من بينهم أعضاء تنظيم الدولة. إن حلم عودة هذه الخلافة من جديد أرهق الشباب المسلم واستنزف قواهم وإبداعاتهم وطاقاتهم في محاولة إيجاد صيغة له والنضال من أجله. فشباب الإخوان المسلمين يناضلون من أجل عودة الخلافة الإسلامية على منهاج النبوة، شأنهم في ذلك شأن شباب جماعة العدل والإحسان في المغرب، بالإضافة إلى شباب الكثير من الفصائل الإسلامية الأخرى .. كلهم أضاعوا الشباب في الوهم. فحلم عودة الخلافة لن يتحقق لأسباب كثيرة أهمها أنه وهم. والوهم مختلف عن الواقع. فالوهم يبقى وهما حتى لو امتلك كل كياننا.

صارت الخلافة هوسا دينيا في أوساط الشباب المسلم، لكنها الآن تحولت إلى كابوس، كابوس يقتل الأبرياء ويحارب من أجل إمبراطورية وهمية لا وجود لها إلا في أوهام المعتقدين بها. فالواقع يفرض علاقات جديدة بين الدول، ويفرض اختلافا جوهريا في الأهداف وفي التحالفات، هل من المعقول أن تُحكم كل تلك الدول الإسلامية من طرف رجل واحد تحت كيان واحد؟ لقد حاولت الدول العربية في التاريخ الحديث إقامة تحالفات كثيرة حتى فيما بينها ولم تنجح، حاول جمال عبد الناصر بناء وحدة بين مصر وسوريا. وجرت وحدة قصيرة الأمد بين العراق والأردن. وكانت هناك محاولات اتحاد المغرب العربي بين دوله الخمس، ولكن هذه المحاولات كلها فشلت

٦٥. يظهر هذا جليا في أحد المقاطع لأعضاء التنظيم وهم يجبرون مقاتلي جبهة النصرة على صفع بعضهم البعض وترديد شعار التنظيم «باقية»، موقع العربية نت، «بالفيديو.. عندما يقع عناصر النصرة في قبضة داعش!».

وأُجهضت. فكم بالأحرى فكرة خلافة واحدة وخليفة واحد. فما دامت المذاهب الدينية متفرقة، والأعراق مختلفة، فمن المستحيل أن تقوم هذه الخلافة. لكن عوض أن تحرض المؤسسات الدينية الشباب على العمل والاجتهاد والاندماج في العالم الجديد وقبول ثقافة الاختلاف، فإنها بالمقابل تحرضهم على العودة إلى الماضي والانفصال عن المستقبل، وهي بالتالي تساهم في ميلاد جيل مشوه من الشباب، جيل لديه توتر بين الماضي والحاضر، جيلٍ ضائع لا يعرف أسباب تخلفه ولا أسباب تقدم الآخرين، جيلٍ يعتقد أن ابتعاده عن الدين هو العامل الأساسي في تقدم غيره وتخلفه هو. بل يعتقد أن العالم كله يكيد له لكي يبقيه بعيدا عن هذا الدين، وبالتالي يقوم بكل ما أوتي من طاقة بالتمسك بالدين والغلو فيه واعتباره المكوّن الوحيد لهويته ورفض كل مكونات الهوية الأخرى. لن يتقدم الشباب المسلم إلى المستقبل ما لم يدفن الماضي الذي ما زال يعوق تقدمه.

-13-

داعش والرسول: ذبح الكفار وحرقهم حلال

هل الذبح ليس له علاقة بالإسلام؟

يقول كثيرون إن الإسلام دين سلام، وإن الذبح الذي نراه على وسائل الإعلام ويتفنن مقاتلوا الدولة في تصويره وترويجه لا يمت للإسلام بصلة. فالرسول محمد قد جاء رحمة للعالمين.[1] فكيف يكون الذبح من سُنته ومن شريعته؟ إنهم مجرد شرذمة اختطفوا الدين الصحيح من الغالبية العظمى من المسلمين وشوهوه أيما تشويه. هكذا تقول الروايات المدافعة عن الإسلام. لكن القارئ للسيرة والمتأمل في الأحاديث والقرآن سيجد كمًّا هائلا من الآيات العنيفة والنصوص والأفعال التي تدل على وجود عنف مقدس. بل يؤمن المسلمون أنه عابر للعصور، صالح للتطبيق حتى اليوم.

١. بناء على الآية القرآنية التي تقول «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ»، سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

صحيح أن هناك آيات فيها سلم، ولكن هناك أيضا آيات فيها عنف. وقد أتت آيات السلم في سياق كان محمد فيه ضعيفا ولم يكن له جيش. كانت في بداية دعوته. وأما آيات العنف، فأتت حين كان متمكنا وكان لديه جيش وأتت في آخر دعوته. لذلك يقول المؤمنون بالنسخ (وهم الأكثرية على مر التاريخ الإسلامي) إن آيات الجهاد الأخيرة تنسخ آيات السلم المتقدمة. وحتى إن لم نسلّم بنظرية النسخ، رغم أنها هي الغالبة في مواقف شيوخ الإسلام وعلمائهم، فإننا أمام معضلة: كيف نفسر عنف محمد وقتله للآخرين؟ هل كان ذلك العنف كله دفاعا عن النفس؟ هل الهجوم على القبائل الأخرى مجرد دفاع عن النفس؟ وهل اعتراض القوافل ونهبها دفاع عن النفس؟ وهل كان ما فعله الصحابة والخلفاء بعد محمد دفاعا عن النفس؟ وهل كان الذهاب بجيش من عشرات الآلاف من المقاتلين من الشرق الأوسط إلى إفريقيا والهجوم بعد ذلك على أوروبا وقطع البحر كله دفاعا عن النفس؟ لا يقبل المنطق السليم تفسيرات تبسيطية تدافع عن إيمانها دفاعا أعمى يتغاضى عن الحقائق والأسئلة الصعبة.

لقد كان محمد مقاتلا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، كان محترفا. لقد كان يأكل من القتال ويقتات منه. كان القتل عنده عادة، فهو مثلا امتلك تسع سيوف وكان يطلق عليها أسماء[٢] مثلما يفعل رؤساء العصابات اليوم الذين يطلقون أسماء على أنواع أسلحتهم. وواحد من تلك السيوف مشهور اسمه ذو الفقار، ويعني الاسم «ذا الأسنان»، أي أنه مسنن يحز الأعناق، إذ فيه فقرات مثل فقرات الظهر. وقد أهدى محمد هذا السيف إلى علي، وتحدثت عنه الكتب وصورته لنا الأفلام بحيث ما زلت أتذكره في فيلم الرسالة، مسننا ذا لسانين كالحية، بحيث لا يظهر علي في الصورة ولكن يظهر السيف وهو يحز رقاب المشركين أعداء المسلمين. وكان لدى محمد سيف آخر سمّاه

٢. زاد المعاد في هدي خير العباد ١: ١٢٦.

العَضْب،[٣] يعني «القاطع»، وسيف آخر اسمه البتار،[٤] أي الذي يبتر أعضاء الناس. كما كانت له سبع أدرع، وست قسي، وخمسة رماح.[٥] لقد كان رجل حرب بامتياز. وأما التهديد بالذبح، فقد بدأ محمد باستخدامه وهو في مكة، حين كان لا يزال يعيش المرحلة السلمية مع أهله. كانوا يقاومونه لكن بالكلام فقط، ولم يلجأوا إلى أي عنف ضده، فكان مرة يطوف حول الكعبة وهم يستهزئون به، فتوقف عن الطواف وتوجه إليهم ثم قال عبارة تقشعر لها الأبدان: «أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح.»[٦] لقد حذرهم أنه سيذبحهم ذبحا من الأعناق، وهو ما فعله لاحقا.

الذبح سنة نبوية منذ أن بدأ محمد دعوته في مكة، لكنه لم يبدأ التنفيذ حتى صارت لديه القدرة على ذلك. يُستخدم هذا الحديث من شيوخ كثيرين في العالم الإسلامي وفي الغرب. إذ قال الدكتور هاني السباعي الشيخ الذي طلب اللجوء في لندن مدافعا عن ذبح القاعدة لنيك بيرغ:

> هل هؤلاء [القاعدة] ينطلقون من منطلقات شرعية موجودة في الشرع ولا غير موجود[ة]؟ هم يقولون موجود، والدليل على ذلك يقولون، مسألة الذبح هذه، في حديث عن الرسول (ص) .. وهو عندما قال لقريش جئتكم بالذبح وأشار هكذا [وضع يده على العنق وكأنه يذبح]، والرسول ذبح..[٧]

وبدوره استخدم الشيخ المغربي محمد الفزازي هذا الحديث أيضا في دفاعه عن الذبح والقتل فقال إن الرسول «قال لهم يا معشر قريش والله لقد

٣. زاد المعاد في هدي خير العباد ١: ١٢٦.
٤. نفس المصدر.
٥. نفس المصدر.
٦. السيرة النبوية ٢: ٤١.
٧. يوتيوب، «دفاع هانى السباعى عن المجاهدين فى العراق...»

صحيح أن هناك آيات فيها سلم، ولكن هناك أيضا آيات فيها عنف. وقد أتت آيات السلم في سياق كان محمد فيه ضعيفا ولم يكن له جيش. كانت في بداية دعوته. وأما آيات العنف، فأتت حين كان متمكنا وكان لديه جيش وأتت في آخر دعوته. لذلك يقول المؤمنون بالنسخ (وهم الأكثرية على مر التاريخ الإسلامي) إن آيات الجهاد الأخيرة تنسخ آيات السلم المتقدمة. وحتى إن لم نسلّم بنظرية النسخ، رغم أنها هي الغالبة في مواقف شيوخ الإسلام وعلمائهم، فإننا أمام معضلة: كيف نفسر عنف محمد وقتله للآخرين؟ هل كان ذلك العنف كله دفاعا عن النفس؟ هل الهجوم على القبائل الأخرى مجرد دفاع عن النفس؟ وهل اعتراض القوافل ونهبها دفاع عن النفس؟ وهل كان ما فعله الصحابة والخلفاء بعد محمد دفاعا عن النفس؟ وهل كان الذهاب بجيش من عشرات الآلاف من المقاتلين من الشرق الأوسط إلى إفريقيا والهجوم بعد ذلك على أوروبا وقطع البحر كله دفاعا عن النفس؟ لا يقبل المنطق السليم تفسيرات تبسيطية تدافع عن إيمانها دفاعا أعمى يتغاضى عن الحقائق والأسئلة الصعبة.

لقد كان محمد مقاتلا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، كان محترفا. لقد كان يأكل من القتال ويقتات منه. كان القتل عنده عادة، فهو مثلا امتلك تسع سيوف وكان يطلق عليها أسماء[٢] مثلما يفعل رؤساء العصابات اليوم الذين يطلقون أسماء على أنواع أسلحتهم. وواحد من تلك السيوف مشهور اسمه ذو الفقار، ويعني الاسم «ذا الأسنان»، أي أنه مسنن يحز الأعناق، إذ فيه فقرات مثل فقرات الظهر. وقد أهدى محمد هذا السيف إلى علي، وتحدثت عنه الكتب وصورته لنا الأفلام بحيث ما زلت أتذكره في فيلم الرسالة، مسننا ذا لسانين كالحية، بحيث لا يظهر علي في الصورة ولكن يظهر السيف وهو يحز رقاب المشركين أعداء المسلمين. وكان لدى محمد سيف آخر سمّاه

---

٢. زاد المعاد في هدي خير العباد ١: ١٢٦.

العَضْب،[٣] يعني «القاطع»، وسيف آخر اسمه البتار،[٤] أي الذي يبتر أعضاء الناس. كما كانت له سبع أدرع، وست قسي، وخمسة رماح.[٥] لقد كان رجل حرب بامتياز. وأما التهديد بالذبح، فقد بدأ محمد باستخدامه وهو في مكة، حين كان لا يزال يعيش المرحلة السلمية مع أهله. كانوا يقاومونه لكن بالكلام فقط، ولم يلجأوا إلى أي عنف ضده، فكان مرة يطوف حول الكعبة وهم يستهزئون به، فتوقف عن الطواف وتوجه إليهم ثم قال عبارة تقشعر لها الأبدان: «أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح.»[٦] لقد حذرهم أنه سيذبحهم ذبحا من الأعناق، وهو ما فعله لاحقا.

الذبح سنة نبوية منذ أن بدأ محمد دعوته في مكة، لكنه لم يبدأ التنفيذ حتى صارت لديه القدرة على ذلك. يُستخدم هذا الحديث من شيوخ كثيرين في العالم الإسلامي وفي الغرب. إذ قال الدكتور هاني السباعي الشيخ الذي طلب اللجوء في لندن مدافعا عن ذبح القاعدة لنيك بيرغ:

> هل هؤلاء [القاعدة] ينطلقون من منطلقات شرعية موجودة في الشرع ولا غير موجود[ة]؟ هم يقولون موجود، والدليل على ذلك يقولون، مسألة الذبح هذه، في حديث عن الرسول (ص) .. وهو عندما قال لقريش جئتكم بالذبح وأشار هكذا [وضع يده على العنق وكأنه يذبح]، والرسول ذبح..[٧]

وبدوره استخدم الشيخ المغربي محمد الفزازي هذا الحديث أيضا في دفاعه عن الذبح والقتل فقال إن الرسول «قال لهم يا معشر قريش والله لقد

---

٣. زاد المعاد في هدي خير العباد ١: ١٢٦.
٤. نفس المصدر.
٥. نفس المصدر.
٦. السيرة النبوية ٢: ٤١.
٧. يوتيوب، «دفاع هانى السباعى عن المجاهدين فى العراق...»

جئتكـم بالذبـح.»[٨] واستشـهد الشـيخ الكويـتي نبيـل العـوضي في سلسـلته عـن السـيرة النبويـة بالحديـث نفسـه مفـسرا إيـاه بـأن محمـدا كان يتوعـد قومـه بالذبـح حـين يقاتلهـم.[٩] وفي فتـوى منشـورة على موقـع وزارة الأوقـاف والشـؤون الإسـلامية القطريـة، جـاء التأكيـد أن هـذا الحديـث صحيـح وأنـه موجـه مـن محمـد إلى صناديـد قريـش.[١٠] حديـث الذبـح إذن ذائـع الصيـت، مسـتخدم مـن طـرف الشـيوخ والحكومـات الإسـلامية.

إن الذبـح وحـز الرقـاب آيـة قرآنيـة قبـل أن يكـون حديثـا مـن أحاديـث محمـد. فالقـرآن يـوصي المسـلمين حـين يواجهـون أعداءهـم بكيفيـة قتلهـم فيقـول: «فَـإِذَا لَقِيتُـمُ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا فَـضَرْبَ الرِّقَـابِ حَـتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُـمْ فَشُـدُّوا الْوَثَـاقَ».[١١] ويفـسر هـذه الآيـة أحـد كبـار مفـسري القـرآن المعتبريـن في العالـم الإسـلامي «القرطـبي»، وهـو مـن القـرن الثالـث عـشر، فيقـول:

> قـال: «فَـضَرْبَ الرِّقَـابِ» ولـم يقـل فاقتلوهـم؛ لأن في العبـارة بـضرب الرقـاب مـن الغِلظـة والشـدة مـا ليـس في لفـظ القتـل؛ لمـا فيـه مـن تصويـر القتـل بأشـنع صـوره؛ وهـو حـز العنـق وإطـارة العضـو الذي هـو رأس البـدن وعُلـوّه وأوْجَـهُ أعضائـه.[١٢]

فبحسـب القرطـبي، يتعمـد القـرآن اسـتخدام لفـظ ضرب الأعنـاق للتعبـير عـن القسـوة والغلظـة في ممارسـة القتـل. وفي السـياق نفسـه، نجـد آيـة قرآنيـة أخـرى شـبيهة، لكـنْ يوجـه الله كلامـه هـذه المـرة إلى الملائكـة ليسـاعدوا المسـلمين في حروبهـم ضـد الكفـار فيقـول: «إِذْ يُـوحِي رَبُّـكَ إِلَى الْمَلائِكَـةِ أَنِّي مَعَكُـمْ فَثَبِّتُـواْ الَّذِيـنَ آمَنُـواْ سَـأُلْقِي فِي قُلُـوبِ الَّذِيـنَ كَفَـرُواْ الرُّعْـبَ فَاضْرِبُـواْ

٨. يوتيوب، «هذه فلسطين فما هو الحل»، الشيخ محمد الفزازي.
٩. يوتيوب، «سلسلة السيرة النبوية»، الحلقة السابعة، الشيخ نبيل العوضي.
١٠. إسلام ويب، «درجة حديث: لقد جئتكم بالذبح».
١١. سورة محمد الآية ٤.
١٢. تفسير القرطبي ١٦: ٢٣٠.

فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ».[١٣] التركيز هنا على ضرب الأعناق وحزها، وكذلك على حز الأطراف بالسيوف. وقد أكد هذا المعنى مفسر آخر من كبار مفسري القرآن، وهو «الطبري» ابن القرن التاسع والعاشر الميلادي، حيث قال: «إن الله أمر بضرب رؤوس المشركين وأعناقهم وأيديهم وأرجلهم.»[١٤] والغريب أن بعض الناس يستشهدون على سلمية القرآن بقولهم إن القرآن لم تذكر فيه كلمة سيف قط، ولهذا لا بد أن يكون كتاب سلام.[١٥] وسؤالي هنا: كيف يتم قطع الأعناق؟ أبالشوكة والملعقة أم بالسيف؟ إن آيات القتال وآيات قطع الأعناق هي آيات قتل صريحة. وإذا ثبت الأمر بفعل القتل، فلا يهم ذكر الوسيلة، وكأن شخصا يريد أن يقول إن زعيم مافيا بريء من القتل إن لم يستخدم كلمة مسدس حين أعطى الأوامر لأتباعه بتنفيذ العملية.

الإسلام وقطع الرؤوس

كتب أحد أعضاء التنظيم، ويحمل اسما حركيا «أبو عائشة الغريب»،[١٦] مقالًا عنوانه «الرّدّ المبين على منكري ذبح الكفار والمرتدين» يشرح فيه الأدلة الشرعية التي تجيز للتنظيم أن يذبح أعداءه من الكفار والمرتدين. استند في المقال إلى الأدلة من القرآن والسُّنة وسيرة محمد وسير أصحابه. وعدّ ذلك دليلا قويا يرد كل أدلة المعترضين الذين يرون أن عمل تنظيم الدولة ليس من الإسلام في شيء. ومن بين الأدلة التي عرضها الآيات القر آنية سابقة الذكر في هذا الباب، إضافة إلى الحديث الذي أوردته عن تهديد محمد لقريش بالذبح. ومن الأدلة التي ساقها أيضا ذبح محمد لبني قريظة واحدا تلو الآخر ودفنهم في خنادق حفرها لهم، حيث استشار المساكين

---

١٣. سورة الأنفال، الآية ١٢.

١٤. تفسير الطبري ٩: ١٣٣.

١٥. يستخدم هذه الحجة دعاة الإسلام خاصة في الغرب، مثل الداعية أحمد ديدات، والداعية يوسف إستس.

١٦. يبدو أنه كان سوريًا من حمص، ويبدو من خلال حسابات أعضاء التنظيم على تويتر أنه لقي حتفه بعد ذلك في عملية انتحارية منتصف ٢٠١٥.

قبل ذبحهم أحد أصحاب محمد محاولين أن يعرفوا ماذا سيكون مصيرهم فقالوا: «يا أبا لبابة! أترى أن ننزل على حكم محمد قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، إنه الذبح.»[١٧] لقد عرف أن محمدا سيذبحهم وأنه لا خيار لهم إلا الاستسلام. ومن الحوادث الأخرى التي يستشهد بها كاتب المقال «أبو عائشة» قصة بعث محمد أصحابه ليقتلوا كعبًا بن الأشرف، اليهودي، أنهم حين نفذوا العملية عادوا إلى محمد «ورموا برأس الطاغية بين يديه، فحمد الله على قتله.»[١٨] ويستشهد أيضا بقصة قطع رأس أحد قيادات قريش على يد أحد أصحاب محمد المقربين «عبد الله بن مسعود»، حيث احتز رأس أبي الحكم ويحكي القصة بنفسه كما نقلها كاتب السيرة فيقول: «ثم احتززت رأسه ثم جئت به رسول الله (ص)، فقلت: يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبي جهل.. ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله (ص) فحمد الله.»[١٩]

كذلك ذكر صاحب المقال قصة مشهورة في العالم الإسلامي عن شخص يقال له خالد بن عبد الله القسري قائد أموي (القرن الثامن الميلادي)، سكن دمشق، وكان أميرا في مكة لفترة معينة، وعُين أميرًا في العراق أيضا. عندما كان في العراق، وفي واسط بالتحديد، خطب في الناس يوم الجمعة في عيد الأضحى، العيد الذي يضحي فيه المسلمون بذبائحهم كذكرى لما فعله إبراهيم. كان في ذلك اليوم هناك إنسان اسمه «الجعد بن درهم» مربوطًا إلى سارية المسجد بسبب آرائه الشاذة في الدين. فخطب الخطيب خالد بن عبد الله القسري وقال:

---

١٧. جست بِست إت، مقال «الرّدّ المبين على منكري ذبح الكفار والمرتدين»، وانظر السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤٤٠.
١٨. الرحيق المختوم ١: ٢٢٠.
١٩. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٨٠.

«ارْجِعُوا أَيُّهَا النَاسُ فَضَحُّوا، تَقَبَّلَ الله مِنْكُمْ، فَإِنِّي مُضَحٍّ بالجَعْدِ بنِ دِرْهَمٍ، فَإِنَّهُ زَعَمَ أَنَّ الله لَمْ يَتَّخِذْ ابراهيمَ خليلاً، ولَمْ يُكَلِّمْ موسى تكليمًا، سُبْحَانَهُ وتَعَالَى عَمَّا يقولُ الجَعْدُ بنُ دِرْهَمٍ، قالَ: ثُمَّ نَزَلَ فَذَبَحَهُ.»[20]

هذا قائد كبير وأمير من أمراء الدولة الإسلامية يضحي بإنسان مسلم يوم عيد الأضحى بذبحه كما تذبح النعاج، على مرأى ومسمع من الأئمة والمشايخ ورجال الدين في الدولة الأموية دون أن يعترض أحد. ولذلك علق ابن تيمية، وهو أحد كبار علماء أهل السنة من القرن الثالث عشر والرابع عشر، عن الجعد بن درهم المذبوح فقال: «قتله خالد بن عبد الله القسري برضا علماء الإسلام.»[21] لا شك أن تنظيم الدولة لم يقدم على الذبح أمام الكاميرات إلا بعد أن اطلعت اللجنة الشرعية على كل الأدلة الدينية والسوابق التي حدثت في التاريخ الإسلامي وأقوال الفقهاء والعلماء فيها، وعلى نحو خاص على ما فعله الرسول وما قاله وقلده فيه أصحابه المقربون. ومما لا شك فيه أن هذه الأدلة المعروضة لا تدع مجالا للشك في أن الذبح سُنة نبوية قام بها محمد ونفذها على أرض الواقع وتبعه فيها آخرون وباركها علماء الإسلام.

من أبشع رموز داعش هو ذبَّاحها، كانت الفيديوهات تظهره يقف ملثما إلى جانب ضحاياه المقيدين الذين لا حول لهم ولا قوة، أثناء محاولات التصوير المتكررة، لا يعرفون أية مرة ستتم فيها عملية الذبح الفعلية. لذلك لم يقاوموا من كثرة التكرار. فبدا كل مشهد وكأنه مجرد تمثيل. لكن منظر الرأس المقطوعة على جثة الضحية يدعو كل نفس سليمة إلى الإشمئزاز، وفي نفس الوقت يعيد إلى الذاكرة ما تم تسطيره في الكتب. فرأس جيمس

٢٠. السنن الكبرى للبيهقي ١٥: ٢٨٥.
٢١. منهاج السنة النبوية لابن تيمية، ٣: ١٦٥.

فـولي[٢٢] لا يختلـف عـن رأس أبي الحكـم الذي رمـاه ابـن مسـعود أمـام محمـد. ولا يختلـف رأس سـتيفن سـوتلوف[٢٣] المقطـوع عـن رأس كعـب بـن الأشرف الذي رُمي أمـام محمـد وهـو يبـارك لأصحابـه ويقـول لهـم «أفلحـت الوجـوه».[٢٤]

قُطعـت رؤوس كثـيرة .. رأس البريطـاني ديفيـد هيـنز،[٢٥] ورأس مواطنـه ألان هانينـغ،[٢٦] ورأس الأمريكـي بيـتر كاسـيغ،[٢٧] ورؤوس ثمانيـة عـشر جنديـا مـن الجنـود السـوريين الذيـن تـم ذبحهـم،[٢٨] وغيرهـا. كلهـا رؤوس قطعـت مـن طـرف تنظيـم الدولـة على يـد محمـد امـوازي «الجهـادي جـون» وغـيره مـن جنـود الدولـة الإسـلامية. لكـن الأسـاس الذي بنيـت عليـه هـذه الممارسـة وأخـذت شرعيتهـا منـه هـو حيـاة محمـد بـن عبـد الله رسـول الإسـلام وتعاليمـه. فهـو الذي أعطاهـا تلـك القـوة وتلـك التبريـرات. فلـولا محمـد بـن عبـد الله لمـا كانـت دولـة البغـدادي لتقـوم، ولمـا كان محمـد امـوازي على تلـك الدرجـة مـن الوحشـية. فـإذا كانـت الوحشـية مقدسـة، وقطـع الـرؤوس مقدسًـا، ومارسـه واحـد مـن أعظـم الأسـماء في تاريخنـا وأقـدس شـخصية نـودّ نحـن المسـلمين المـوت مـن أجلهـا. فمـن نحـن حـتى نتكـبر على ممارسـتها إذن؟ هـل المسـلمون أشرف مـن نبيهـم حـتى يمتنعـوا عـن القتـل بدعـوى أنـه وحـشي؟ أم هـم أشرف مـن الصحابـة والمقربـين مـن محمـد حـتى يرفضـوا قطـع الـرؤوس بسـبب فظاعتـه؟ إن تقديـس التاريـخ الإسـلامي، وتقديـس شـخصية محمـد، ومحاولـة الابتعـاد بهـا عـن ضـوء النقـد هي الـتي ستسـاهم في إطالـة أمـد محاربـة الإرهـاب. فـلا يمكـن أن نحـارب الإرهـاب

٢٢. ظهـر في مقطـع يوتيـوب، تحـت عنـوان «رسـالة لأمريـكا»، لتنظيـم الدولـة وفيـه يظهـر متحدثـا ثـم بعـد ذلـك يظهـر مذبوحـا.
٢٣. ظهـر في فيديـو لتنظيـم الدولـة يحمـل عنـوان «رسـالة ثانيـة لأمريـكا»، وفيـه يـدلي برسـالة، ثـم يظهـر مقطـوع الـرأس.
٢٤. الطبقات الكبرى لابن سعد ٢:٣٣.
٢٥. ظهـر في فيديـو «رسـالة ثانيـة لأمريـكا» كضحيـة محتملـة، ثـم ظهـر مذبوحـا في فيديـو آخـر للتنظيـم تحـت عنـوان «رسـالة لحلفـاء أمريـكا».
٢٦. ظهر مقطوع الرأس في فيديو لتنظيم الدولة تحت عنوان «رسالة أخرى إلى أمريكا وحلفائها».
٢٧. ظهر مقطوع الرأس في فيديو لتنظيم الدولة تحت عنوان «ولو كره الكافرون».
٢٨. نفس المقطع السابق ظهر في أوله ذبح الجنود السوريين بطريقة استعراضية.

مـن دون محاربـة جـذوره الفكريـة خصوصـا إذا كانـت هـذه الجـذور مقدسـة ومغروسـة في كياننـا منـذ الصغـر بسـبب كونهـا جـزءا لا يتجـزأ مـن الديـن.

داعش تطبق الحدود

في ٢٩ يوليـو ٢٠١٥، أعلـن المرصـد السـوري لحقـوق الإنسـان أن تنظيـم الدولـة أعـدم أكـثر مـن ثلاثـة آلاف شـخص خـلال ثلاثـة عـشر شـهرا مـن خلافتـه.[٢٩] قَتْلٌ في الطرقـات .. إعـدامٌ جمـاعي .. رجـمٌ بالحجـارة .. رميٌ مـن شـواهق البنايـات .. حـرقٌ .. صلـبٌ .. قطـعُ أيـادٍ .. قطـعُ أرجـل .. كلهـا أعمـال ينفذهـا التنظيـم ويوثـق لهـا بالصـوت والصـورة. ويتملكـني الغثيـان وأنـا أتصفحهـا وأحـاول أن أدرس علاقتهـا بالأحـكام الشرعيـة الإسـلامية. فأنـا أحـاول أن أفهـم كل فعـل مـن تلـك الأفعـال مـن منظـور ديـني، مـن خـلال عيـون مسـلم سـابق، لذلـك أطـرح دائمـا هـذا السـؤال: هـل لهـذا الفعـل أي سـند شرعي في القـرآن أو في السُّـنة وفي أقـوال العلمـاء والشـيوخ؟ أو بمعـنى آخـر: هـل هنـاك سـوابق لهـذا الفعـل مسـجلة في التاريـخ الإسـلامي ومـبررة شرعا بنصـوص مقدسـة؟ مـن المؤسـف أني وجـدت أن أحـكام تنظيـم الدولـة لا تخـرج عـن الـشرع الإسـلامي. بـل إنهـم قبـل تنفيذهـا في غالـب الأحيـان يقـرؤون بيانـا على المـلأ يوضحـون فيـه التهمـة والحكـم الـشرعي الخـاص بهـا. ويتضمـن البيـان دائمـا الآيـات القرآنيـة والأحاديـث المحمديـة المؤيـدة للحكـم. فـلا يقـوم تنظيـم الدولـة بتنفيـذ الأحـكام دون أن يحصـن نفسـه بالأدلـة الشرعيـة حـتى لا يصـير محـط انتقـاد ونفـور مـن أتباعـه وأعضائـه، وإلا فإنهـم سـيطالبونه بالدليـل الـشرعي، وسـتحصل انقسـامات وتحزبـات، بـل سـينقلب عليـه أتباعـه لأنهـم سـيعدّونه تنظيمـا خارجـا عـن الديـن يبتـدع الحـدود مـن خيـاله دون اسـتناد على النصوص الشرعيـة، وهي تهمـة تـوازي تهمـة الـردة.

٢٩. المرصد السوري لحقوق الإنسان، «قطع رؤوس وإعدام نحو ١٧٠ طفلًا ومواطنة...».

شاهدت ساعات طويلة لمجموعة من الفيديوهات التي أصدرتها الأذرع الإعلامية للتنظيم مثل: «كسر الحدود»، «صليل الصوارم»، «لهيب الحرب»، «شفاء الصدور»، «ولو كره الكافرون»، ..إلخ من إصدارات الدولة، وتتخللها كلها آيات قرآنية، وتُقرأ فيها الأناشيد، ويسجد فيها المجاهدون، ويصلون ويقرؤون القرآن، بل يَقتلون أمام الرشاشات وعدسات الكاميرا. فهل يقومون بهذا كله دون إيمان منهم بأنهم يؤدون واجبا دينيا مقدسا؟ ما الذي يجعلهم يعتقدون أنهم سيدخلون الجنة وأنهم بقطع الأيدي وقطع الرؤوس يقومون بما يرضي الله؟ فلولا النصوص الدينية لما كانت لديهم هذه القناعة.

حد قطع يد السارق

رأيت صورا كثيرة لسارقين تقطع أيديهم، وتتم معالجتهم بعد ذلك في المستشفى. بل إنهم يوضحون أن القطع يتم من طرف أخصائيين لا من طرف أناس هواة. بل يحضنون الشخص الذي قطعت يده مواساة له لأنه مسلم يخضع لحكم الله. فمن أين أخذوا هذا الحكم؟ بطبيعة الحال، يؤصّل القرآن نفسه لهذا الحكم: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».[٣٠] وقد نفّذ محمد هذا الحكم، حيث تروي زوجته عائشة أنه قطع يد امرأة.[٣١] ويروي حديث آخر أنه قطع رجل شخص من المفصل.[٣٢] بل إن محمدا قطع يد سارق وعلقها في عنقه حتى يكون عبرة للآخرين.[٣٣] وقد قطع الخلفاء أيضا يد السارق.[٣٤] و ما زالت المملكة العربية السعودية تنفذ هذا الحكم في

٣٠. سورة المائدة، الآية ٣٨.
٣١. صحيح البخاري ٦: ٢٤٩٣ «عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ - (ص) - قَطَعَ يَدَ امْرَأَةٍ.»
٣٢. مصنف بن أبي شيبة ٦: ٥٢٨، «حدّثنا أبو بكر قال حدثنا وكيع عن ميسرة بن معبد اللخمي قال: سمعت عدي بن عدي يحدث عن رجاء بن حيوة أن النبي قطع رجلاً من المفصل.»
٣٣. جاء الحديث في أكثر من كتاب من كتب الحديث، رواه أحمد، والترمذي وأبو داود، والبيهقي، سأورد رواية أبي داود هنا «عن عَبْدِ الرَّحْمنِ بنِ مُحَيْرِيزٍ، قالَ: «سَأَلْنَا فُضَالَةَ بنَ عُبَيْدٍ عنْ تَعْلِيقِ الْيَدِ فِي الْعُنُقِ لِلسَّارِقِ أَمِنَ السُّنَّةِ هُوَ؟ قَالَ أُتِيَ رَسُولُ بِسَارِقٍ فَقُطِعَتْ يَدُهُ ثُمَّ أَمِرَ بِهَا فَعُلِّقَتْ فِي عُنُقِهِ». سنن أبي داود ١٢: ٩٠، والملاحظ أن اسم الباب في سنن أبي داود «باب في السارق تعلق يده في عنقه».
٣٤. جاء في تفسير القرطبي ٦: ١٧٥، لسورة المائدة ٣٨: «فكان أوّل سارق قطعه رسول الله (ص) في الإسلام

الساحات العامة إلى اليوم.[٣٥] وبالمناسبة ما زالت تقوم بقطع الرؤوس أيضا في الساحات العامة.[٣٦] والغريب هو أن الدول العظمى تستنكر قطع تنظيم الدولة للرؤوس أمام الملأ، وتقيم علاقات دبلوماسية مع السعودية دون أن تستطيع إجبارها على إيقاف هذه العادة البربرية التي تمارسها أيضا أمام الملأ مثل تنظيم الدولة، وأحيانا لتهم مشابهة للتهم التي يحاكم عليها التنظيم ضحاياه، مثل تهمة الردة عن الإسلام.[٣٧]

داعش والسعودية ليسا استثناء في هذا السياق، القانون السوداني مثلا يعاقب على جريمة السرقة بقطع اليد أيضا.[٣٨] ويقول القانون الجنائي الموريتاني في المادة ٣٥١:[٣٩]

> يعاقب السارق .. بقطع يده اليمنى من الكوع، ثم بقطع رجله اليسرى من المفصل إن سرق ثانية، ثم بقطع يده اليسرى من الكوع إن سرق ثالثة، ثم بقطع رجله اليمنى من المفصل إن سرق رابعة، ثم بالضرب والحبس إن سرق خامسة.

لا أدري كيف سيسرق شخص للمرة الخامسة وهو مقطوع اليدين والرجلين!! وتبنّت جامعة الدول العربية قطع يد السارق أيضا في قانون جزائي موحد اتفق عليه وزراء العدل في الدول العربية.[٤٠] ومن المهم التنبيه إلى أن الحد الأدنى للسرقة التي يجب قطع اليد عليها لم يتم الاتفاق عليه إسلاميا.

من الرجال الخِيَار بن عَديّ بن نوفل بن عبد مناف، ومن النساء مُرَّة بنت سفيان بن عبد الأسد من بني مخزوم، وقطع أبو بكر يد اليمنيّ الذي سرق العِقْد؛ وقطع عمر يد ابن سَمُرة أخي عبد الرحمن بن سمرة ولا خلاف فيه.»

٣٥. جريدة الرياض، «وزارة الداخلية .. تنفيذ حكم حد السرقة بأحد الجناة في الرياض».
٣٦. صحيفة سبق الإلكترونية، «تنفيذ حكم القتل تعزيراً في مهرب مخدرات سوري بالرياض».
٣٧. صحيفة الحياة، ««حكم ابتدائي»بتنفيذ حد الردة بحق مواطن تطاول على «الذات الإلهية»».
٣٨. المادة ١٧١ من القانون الجنائي السوداني لسنة ١٩٩١ تقول: «من يرتكب جريمة السرقة الحدية، يعاقب بقطع اليد اليمنى من مفصل الكتف».
٣٩. موقع وزارة العدل الموريتانية، القانون الجنائي الموريتاني، المادة ٣٥١.
٤٠. جامعة الدول العربية، القانون الجزائي العربي الموحد، المادة ١٥٣.

فبعضهم يقيّمه بالمقابل لربع دينار من عهد النبي[٤١] بالذهب، حيث يقولون إنه مقدار غرام وربع من الذهب.[٤٢] ولكن الأحاديث الإسلامية تذكر أن القيمة التي تقطع من أجلها اليد قد تكون تافهة كالبيضة والحبل، حيث قال محمد: «لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ، يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ.»[٤٣]

لم يشرع تنظيم الدولة هذه العقوبة من عنده، ولم يكن هو الوحيد الذي طبقها. بل هي أحكام من القرآن والسُّنة طبقتها الدول الإسلامية بدرجات متفاوتة. فقد استغنت دول إسلامية كثيرة عن القطع بتعويضه بالسجن، لا لأن الإسلام يوصي بذلك، بل تحت الضغوط الدولية. واستمر بعضها في العمل بأجزاء من القوانين الأجنبية، كما هو حال المغرب مع القانون الفرنسي. وهذه الدول هي في عرف الإسلاميين دول كافرة، لأنها حكمت بقانون آخر غير القانون الإلهي. فالقرآن يقول: «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ».[٤٤] وهناك دول كموريتانيا والسودان لا تهتم بالضغوط الدولية، لأنها أصلا دول شبه معزولة. ولا تقيم دولة مثل السعودية وزنًا للضغوطات الدولية ولا لأصوات المنظمات الحقوقية بسبب تحكّمها في النفط وأسعاره. ولذلك فضلت الالتزام بالإسلام وبأحكامه. كانت عقوبة قطع يد السارق عادة عربية بدأت قبل الإسلام،[٤٥] لكن الكارثة أن الإسلام جعل هذه العادة الرديئة دينا وفرضه على الناس تحت ستار المقدس. ونحن نرى إلى اليوم كوارثه على البشرية. وما تنظيم الدولة إلا أحد تلك المظاهر الكارثية.

٤١. صحيح مسلم ١١: ١٥١، عَنْ عَائِشَةَ عَن رَسُولِ اللهِ قَالَ: «لَا تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ إِلَّا فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِداً».
٤٢. إسلام ويب، فتوى بعنوان «نصاب القطع في السرقة وقيمته بالريال القطري».
٤٣. صحيح البخاري ٦: ٢٤٩٠.
٤٤. سورة المائدة، الآية ٤٤.
٤٥. تفسير القرطبي ٦: ١٧٥، لسورة المائدة، قال «وقد قُطِع السارق في الجاهلية، وأوّل من حكم بقطعه في الجاهلية الوليد بن المُغيرة، فأمر الله بقطعه في الإسلام».

حد الحرابة

ينشر تنظيم الدولة أسبوعيا صور القتل والحدود التي يطبقها على المرتدين وعلى من يسب الدين. بل يطبق حد الحرابة (وهو قطع اليد والرجل من خلاف) على المحكومين أيضًا، إضافة إلى القتل والصلب على بعضهم. وهذه العقوبة الأخيرة مأخوذة من القرآن أيضا: «إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ».[٤٦] يقيم التنظيم حد الحرابة هذا في حق الذين تثبت في حقهم جريمة «قطع الطريق» أو جريمة الإفساد في الأرض، «وهي جريمة فضفاضة»، لكنها على أية حال متعلقة بكل من يعترض الطريق سواء بسلاح أم بغير سلاح. وليس تنظيم الدولة الوحيد من يعمل بهذا الحكم، بل هناك حكومات إسلامية أخرى تطبقه. فالسعودية مثلا تنفذ بين الحين والآخر حد الحرابة. مثلا في ٢٧ مارس ٢٠١٣، تم تنفيذ حكم القتل والصلب في حق يمني بتهمة القتل وقطع الطريق.[٤٧] وفي ٤ أغسطس ٢٠٠٩، تم الحكم على رئيس عصابة بالقتل والصلب ثلاثة أيام جزاء له على ما فعله من سطو على محلات الذهب، وتم الحكم على ستة من أفراد العصابة بحد الحرابة الذي هو قطع اليد والرجل من خلاف.[٤٨] وفي ٢٠ نوفمبر ٢٠١٤، تم تنفيذ حد الحرابة في حق سعوديّين اغتصبا فتاة.[٤٩]

لا يقتصر الأمر على السعودية وتنظيم الدولة، بل إن القانون الموريتاني يشرح حد الحرابة هو الآخر، فيقول إن من يمارس قطع الطريق يعاقب إما «بالقتل، أو الصلب، أو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو النفي من بلده وحبسه في بلد آخر، ويعاقب بنفس العقوبة من كان معاونا للمحارب

٤٦. سورة المائدة، الآية ٣٣.
٤٧. جريدة الرياض، «تنفيذ حكم القتل والصلب في رجل يمني قتل باكستانيًا...».
٤٨. صحيفة عكاظ السعودية، «القتل والصلب ٣ أيام لرئيس عصابة الذهب .. والحرابة والسجن لـ ٢٢».
٤٩. جريدة الرياض، «الداخلية تنفذ حكم حد الحرابة على مواطنين».

كالكمين أو الطليعة.»[٥٠] وتجد في بلد إسلامي آخر يحكم بالشريعة كالسودان الأحكام نفسها بصيغة أخرى، حيث يقول القانون الجنائي السوداني:

> من يرتكب جريمة الحرابة يعاقب: أ ـ بالإعدام أو بالإعدام ثم الصلب إذا ترتب على فعله القتل أو الإغتصاب. ب ـ بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى اذا ترتب على فعله الأذى الجسيم أو سلب مال يبلغ نصاب السرقة الحَدِّيَة [يقصد التي تستوجب الحد].[٥١]

وقد تبنى وزراء العدل العرب في القانون الجزائي الموحد للجامعة العربية حد الحرابة بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى.[٥٢]

يعتقد المرء أن عقوبة الصلب قد صارت جزءا من التاريخ القديم، لكنها ما زالت في الحقيقة جزءا من واقعنا الأليم في القرن الحادي والعشرين، في زمن الأيباد والأيفون والأجهزة اللاسلكية والإنترنت، ما زالت هناك دول تحكم بالصلب على مواطنيها. وبغض النظر عن الجرائم التي ارتكبها هؤلاء، فإن العقوبة تبقى شنيعة وبشعة إنسانيا وعلى المجتمع الدولي أن يرفضها ويندد بالقائمين بها. فهذه العقوبة الوحشية ليست مستمدة من القرآن وحده، بل في الحقيقة جاء القرآن فقط موافقا على ما فعله محمد في حق مجموعة من الأشخاص قتلوا راعيه وسرقوا إبله، فبعث من يمسك بهم ويأتي بهم إليه «فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ، فَأُلْقُوا بِالْحَرَّةِ يَسْتَسْقُونَ فَلاَ يُسْقَوْنَ.»[٥٣] لم أر حتى الآن أي فيديو أو صورة لداعش حمت فيها المسامير وسملت أعين الناس مثلما فعل محمد الذي لم يسمل أعينهم فقط بل قطع أيديهم وأرجلهم ثم تركهم يموتون من العطش إمعانا في تعذيبهم. بل إن بعض الروايات الإسلامية تقول إنهم كانوا يصرخون طلبا

٥٠. وزارة العدل الموريتانية، القانون الجنائي، المادة ٣٥٤.
٥١. المادة ١٦٨ من القانون الجنائي السوداني لسنة ١٩٩١.
٥٢. جامعة الدول العربية، «القانون الجزائي العربي الموحد»، لسنة ١٩٩٦، المادة ١٥٧.
٥٣. صحيح البخاري ٦: ٢٤٩٦.

للماء، ويجيبهم محمد متلذذا بعذابهم «النار».[٥٤] فهل يطبق تنظيم الدولة الإسلام حين يقوم بصلب الناس؟ من المؤكد أنه يتبع خطوات ما فعله محمد وما أمر به وسجله القرآن في آيات صارت مقدسة إلى اليوم، وهي في اعتقاد المسلمين صالحة لكل زمان ومكان.

حد الجَلد

يقوم تنظيم الدولة بجلد الناس علنا أيضا عقابا لهم على جرائم معينة، مثل عقوبة الزنى للإنسان غير المتزوج والذي يقال عنه بلغة الشريعة الإسلامية «الزاني غير المحصَن». ويقوم أيضا بجلد شارب الخمر علنا، والجلد عقوبة محددة في القرآن، حيث يقول في سورة النور: «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ».[٥٥] بل إن الآية تأمر بأن يتم ذلك على الملأ وألا تشفق قلوب المنفذين على المتهمين، لأنه ينبغي أن تنفذ حدود الله بغض النظر عن المشاعر البشرية. يقول القرآن: «وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ».[٥٦] وهناك تهمة أخرى عقوبة أصحابها في القرآن هي الجلد، ألا وهي تهمة رمي المحصنات، والتي تعني بكل بساطة اتهام امرأة مسلمة بالزنى دون أن يكون للشخص الذي روج للتهمة أي دليل، والمقصود بالدليل هنا دليل «الأربع شهود». وفي هذه الحالة يصير المتهم هو الجاني ويطبق عليه حد القذف. يقول القرآن بهذا الخصوص: «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».[٥٧] ومن المعلوم أن هذه الآيات عند مفسري القرآن جاءت خصيصا لتعاقب أولئك الذين رموا عائشة زوجة محمد بتهمة الزنى في حادثة

٥٤. تفسير القرطبي ٦: ١٥٨، لسورة المائدة الآية ٣٣.
٥٥. سورة النور الآية ٢.
٥٦. سورة النور الآية ٢.
٥٧. سورة النور الآية ٤.

مشـهورة تسـمّى حادثـة «الإفـك». تحـكي عائشـة «لَمَّـا تَـلاَ رَسُـولُ الله (ص) القِصَّـةَ الَّـتِي نَـزَلَ بِهـا عُـذْرِي على النـاسِ، نَـزَلَ رَسُـولُ الله (ص) فَأَمَـرَ برجلـينِ وامـرأةٍ مِمَّـنْ كانَ بَـاءَ بالفاحشـةِ في عائشـةَ فَجُـلِدُوا الحَـدَّ».[٥٨] يعـني أن محمـدا جلـد رجلـين وامـرأة بسـبب اتهامهـم لعائشـة بالـزنى، ومـن بـين الذيـن جلدهـم شـاعره المشـهور حسـان بـن ثابـت. وهنـاك تهمـة أخـرى يتـم فيهـا الجـلد رغـم أن ذلـك غـير منصـوص عليـه في القـرآن تصريحـا، لكنـه موجـود في السُّـنة، حيـث جـلد محمـدا شـاربي الخمـر أثنـاء حكمـه في المدينـة. وكذلـك فعـل الخلفـاء مـن بعـده. يقـول الحديـث: «جَـلَدَ النَّـبِيُّ أَرْبَعِـينَ، وَجَـلَدَ أَبُـو بَكْـرٍ أَرْبَعِـينَ، وَعُمَـرُ ثَمَانِـينَ.»[٥٩] يبـدو أن عمـر اجتهـد وضاعـف العقوبـة حـتى يقـضي على عادة شرب الخمـر.

لـم ينقـل لنـا كتـاب الحديـث العقوبـة فقـط، بـل نقلـوا لنـا أيضًـا حـتى الأدوات الـتي اسـتخدمت في جـلد النـاس وضربهـم، حيـث ورد عـن أنـس خـادم محمـد أنـه قـال: «جـلد النـبي في الخمـر بالجريـد والنعـال.»[٦٠] وتنفـذ المملكـة العربيـة السـعودية الجـلد بـالآلاف كل سـنة، حـتى إن جريـدة الريـاض السـعودية تحدثـت عـن وصـول هـذه العقوبـة إلى أعلى مسـتوياتها، حيـث حكمـت المحكمـة مثـلا على أحـد الجنـاة بأربعـين ألـف جـلدة[٦١] (طبعـا مفرقـة على أسـابيع). وقـد يأخـذ وقـت تنفيذهـا سـنوات. وآخـر أحـكام الجـلد الـتي سـلطت الضـوء على هـذه العقوبـة المشـينة الـتي تمارسـها السـعودية بحـق البـشر هي قضيـة جـلد المـدون رائـف بـدوي، بعـد أن حكمـت عليـه المحكمـة بألـف جـلدة، عـدا السـجن عـشر سـنوات، والغرامـة، والمنـع مـن السـفر بعـد خروجـه مـن السـجن.[٦٢] جـاء هـذا كلـه لأنـه تجـرأ وكتـب في موقـع على الإنترنـت مدافعـا عـن الليبراليـة ومنتقـدا للإسـلام. وقـد نفـذت أولى دفعـات هـذه الألـف جـلدة يـوم الجمعـة ٩ ينايـر ٢٠١٥ أمـام مسـجد الجفـالي

---

٥٨. الحديـث جـاء في سـنن أبي داود ورواه الترمـذي والبيهـقي، الروايـة الـتي أوردتهـا هنـا جـاءت في السـنن الكـبرى للبيهـقي ١٢: ٤٩٩.

٥٩. صحيح مسلم ١١: ١٨١، كتاب الحدود، باب «حد الخمر».

٦٠. مسند الإمام أحمد ٣: ٩٥٥.

٦١. جريدة الرياض، ««عقوبة الجلد» وصلت إلى أرقام فلكية».

٦٢. موقع فرانس ٢٤، «السعودية: المحكمة العليا تؤكد حكم السجن والجلد بحق المدون رائف بدوي».

في جدة مباشرة بعد انتهاء صلاة الجمعة.[٦٣] وقد تم الأمر وسط حضور أمني مشدد وتم منع التصوير. لكن رغم ذلك، استطاع بعض الأشخاص تصوير مشهد رائف بدوي بجسم نحيف وهو يُجْلَدُ أمام حشد من الناس خمسين جلدة من طرف رجال الهيئة (الشرطة الدينية السعودية)، فكان مشهدًا يعيد إلى الأذهان ممارسات القرون الوسطى.

تدخلت دول عديدة منددة بهذه العقوبة حتى إن البرلمان الأوروبي طالب السعودية بإيقاف عقوبة الجلد مطلقا، لدرجة أن رئيس البرلمان الأوروبي مارتن شولتس قال كلمات قوية في حق المملكة العربية السعودية. قال إنه:

> لا يمكنه أن يرى فرقا بين عمليات قطع الرؤوس التي يقوم بها أعضاء تنظيم الدولة الإسلامية قبل أن ينشرها على مواقع التواصل الاجتماعي وبين عقوبة جلد أو إعدام التي تفرضها دولة مثل السعودية ويتم تنفيذها علنا في ساحة.[٦٤]

وانتقدت صحيفة الإندبندنت البريطانية أيضا النظام السعودي بشدة بخصوص هذه القضية، حيث شبهت تعامل بريطانيا مع السعودية وسكوتها على جرائمها بتعامل مستقبلي مع تنظيم الدولة والسكوت على جرائمه، حيث قالت:

> سيكون أمرا شديد القبح أن تعترف بريطانيا يوما بنظام خلافة الدولة الإسلامية، ونبيعها السلاح ونحاول الحصول على استثماراتها، ثم نتقدم بأكثر اللوم أدبا عندما تقطع الرؤوس... هذا ليس أقبح من التعامل الرسمي مع السعودية وهي مجرد نظام ديني وحشي آخر لا تقبل الانشقاق عليها، ولديها حُكْمُ إِعْدام جَاهِز للرِّدَّة، وشديدة التصميم على نشر التشدد الوهابي خارج حدودها، مثلها في ذلك مثل تنظيم «الدولة الإسلامية.»[٦٥]

٦٣. جريدة الحياة، «جدة: وسط حضور أمني... جلد مؤسس» موقع إلكتروني»».
٦٤. دويتشه فيله بالعربية، «البرلمان الأوروبي يدعو السعودية لإلغاء عقوبة الجلد».
65. Independent, “UK ministers have started to defend Saudi Arabia’s flogging of Raif....”

والأدلـة كثـيرة على تفـشي هـذه العقوبـة في المجتمعـات الإسـلامية وإيمـان الأفـراد بهـا رغـم عـدم تطبيقهـا في الكثـير مـن الدول الإسـلامية. لكـن بمجـرد أن تحصـل قلاقـل سياسـية، يتـم تطبيقهـا لا محالـة، تمامـا كمـا يحصـل في ليبيـا حاليـا وحصـل في أفغانسـتان أيـام طالبـان، وكمـا يحصـل الآن في المناطـق الـتي يسـيطر عليهـا تنظيـم الدولـة.

الجلد موجـود في قوانـين دول إسـلامية أخـرى، فـفي القانـون الجنـائي السـوداني، يمكـن جـلد الأطفـال كعقوبـة إصلاحيـة لهـم بـشرط ألا يتجـاوز الجـلد عشريـن جـلدة.[٦٦] وفي عقوبـة الخمـر، تقـول مـادة أخـرى مـن مـواد القانـون نفسـه: «مـن يـشرب خمـراً أو يحوزهـا أو يصنعهـا ، يعاقـب بالجـلد أربعـين جـلدة إذا كان مسـلماً.»[٦٧] وأمـا بالنسـبة لعقوبـة الـزنى عنـد العـزاب، فـإن المـادة ١٤٦ مـن القانـون نفسـه تقـول: «يعاقـب بالجـلد مائـة جـلدة إذا كان غـير محصـن.»[٦٨] وهنـاك عقوبـة القـذف ضـد العفيفـات في القانـون السـوداني أيضـا، وهي تقـول: «يعاقـب مـن يرتكـب جريمـة القـذف بالجـلد ثمانـين جـلدة.»[٦٩] وأمـا القانـون الجنـائي الموريتـاني، فيقـول عـن الـزاني البكـر أنـه «يعاقـب مائـة جـلدة أمـام المـلأ والحبـس مـع التغريـب سـنة.»[٧٠] ويعاقـب القانـون الموريتـاني نفسـه شـارب الخمـر ثمانـين جـلدة،[٧١] في حـين أن حـدّ قـذف المسـلمات العفيفـات هـو الجـلد ثمانـين جـلدة أيضـا.[٧٢] بـل إن جامعـة الدول العربيـة تبنـت قانونـا جزائيـا موحـدا يحـث على الجـلد كعقوبـة في حـالات معينـة.[٧٣] فهـذه مجـرد أمثلـة بسـيطة.

٦٦. المـادة ٤٧ الفصـل الرابـع للقانـون الجنـائي السـوداني لـ ١٩٩١ تقـول: «الجـلد على سـبيل التأديـب لمـن بلـغ سـن العـاشرة بمـا لا يجـاوز عشريـن جـلدة».
٦٧. المادة ٧٨ الفصل الثاني من القانون الجنائي السوداني لسنة ١٩٩١.
٦٨. المادة ١٤٦ من القانون الجنائي السوداني لسنة ١٩٩١.
٦٩. المادة ١٥٧ من القانون الجنائي السوداني لسنة ١٩٩١.
٧٠. موقع وزارة العدل الموريتانية، القانون الجنائي، المادة ٣٠٧.
٧١. نفس المصدر، المادة ٣٤١.
٧٢. نفس المصدر.
٧٣. جامعـة الدول العربيـة، القانـون الجـزائي العـربي الموحـد، المـادة ١٤٩ «حـد شـارب الخمـر أربعـون جـلدة»، المـادة ١٤٤ «حـد القـذف ثمانـون جـلدة»، المـادة ١٤١ «حـد الـزاني غـير المحصـن ١٠٠ جـلدة»، بينمـا تـشرح المـادة ١٦٧ كيفيـة الجـلد بالنسـبة للرجـل والمـرأة.

وأما فتاوى الفقهاء والشيوخ فحدّثْ ولا حرج. ستعطيك مجرد نقرة بحث على محرك جوجل مئات المواقع والفتاوى التي تتحدث عن الموضوع، بل ستفصّله وتؤصل له بناء على أحكام الشريعة الإسلامية. وبالتالي فإن أية محاولة لتجريم تنظيم الدولة بعيدا عن الإسلام محاولة فاشلة، لأن كل الدول التي تطبق هذه الحدود في حق البشر استمدتها من المنابع نفسها وبالأدلة نفسها والمراجعَ التي يستخدمها تنظيم الدولة. ولهذ لا بد من النظر إلى جذور هذه الحدود، ومن أين جاءت، وما سبب تبني الحكومات الإسلامية لها بما في ذلك تنظيم الدولة الإسلامية بدلًا من محاولة اختصار الطريق بنفي صفة الإسلام عن تنظيم الدولة وإبقاء تلك الصفة على الدول الإسلامية التي تمارس إلى حد ما الكثير مما يمارسه تنظيم الدولة.

حد الرجم

الرجم أيضا أحد أهم الحدود والممارسات التي أحياها تنظيم الدولة. نشر تنظيم الدولة في منظر تقشعر له الأبدان ويصاب المرء فيه بالغثيان فيديو يظهر عناصر التنظيم ومعهم امرأة ومعها والدها الذي رفض مسامحتها حين كانت تستجديه المسامحة قبل أن تُرجم بالحجارة. كان أعضاء التنظيم يطلبون من الفتاة التوبة والاستغفار قبل أن تنتقل إلى الدار الآخرة. وقيدوا الفتاة وكبلوها ونفذوا الرجم فيها في ريف حماة الشرقي في سوريا، وهي أول حالة تسجل هناك.[٧٤] وفي بداية شهر يناير ٢٠١٥، نشر التنظيم صورا لرجاله يقرؤون بيانا ووسطهم امرأة منقبة بالكامل ثم تظهر صورة جثة مغطاة بعد تنفيذ حد الرجم في ما يطلقون عليه ولاية نينوى.[٧٥] كما تم تنفيذ حد الرجم في سيدات أخريات في مدينة الرقة، وفي دير الزور، وفي مدينة الطبقة في سوق شعبي بعد صلاة العشاء .. ثم مرة أخرى في مدينة الرقة،

٧٤. العربية نت، «بالفيديو.. «داعش» يرجم امرأة بريف حماة بتهمة الزنا».
٧٥. القدس العربي، «تنظيم الدولة الإسلامية يواصل نشر الرعب على الانترنت...».

لكـن هـذه المـرة أحـضروا سـيارة ممتلئـة بالأحجـار لـكي يسـهل رجـم السـيدة دون الحاجـة إلى البحـث عـن الحجـارة. وتـم التنفيـذ في الملعـب البـلدي لمدينـة الرقـة بحسـب مـا أفـاده المرصـد السـوري لحقـوق الإنسـان.[٧٦] وفي ظـرف خمسـة أشـهر فقـط إلى نهايـة ٢٠١٤، تـم توثيـق ١٢ حالـة رجـم نفذهـا التنظيـم.[٧٧] وطبقـت حركـة الشـباب المجاهديـن في الصومـال أيضـا هـذا الحـد، في سـبتمبر سـنة ٢٠١٤، في حـق سـيدة.[٧٨] وفي ١٤ ديسـمبر ٢٠١٤، نفـذ حـزب الإسـلام (جماعـة إسـلامية في الصومـال) حـد الرجـم في حـق محمـد أبـوكار إبراهيـم، ٤٨ سـنة، حفـروا له حفـرة حـتى صـدره ورجمـوه فيهـا حـتى المـوت على مـرأى مـن أهـل قريتـه «أفكـوي» الـتي تبعـد ٢٠ ميـلا مـن العاصمـة موقاديشـو.[٧٩] ويطبّـق الرجـم في مناطـق كثيرة يحكـم فيهـا الإسـلاميون. إذ نفـذت طالبـان أيضـا حـد الرجـم في حق شـخصين سـنة ٢٠١١ وصـورت المشـهد في فيديـو تناولتـه المواقـع والصحـف آنـذاك.[٨٠]

حـد الرجـم عقوبـة إسـلامية معروفـة. صحيـح أنهـا غـير موجـودة الآن في القرآن لكـن المسـلمين يؤمنـون بأنهـا كانـت في القـرآن وتـم نسـخها، حيـث قـال عمـر بـن الخطـاب ثـاني الخلفـاء وصهـر النـبي في خطبـة له:

> إِنَّ اللهَ بَعَـثَ مُحَمَّـدًا - ص - بِالْحَقِّ وَأَنْـزَلَ عَلَيْـهِ الْكِتَـابَ فَـكَانَ مِمَّـا أَنْـزَلَ اللهُ آيَـةُ الرَّجْـمِ ، فَقَرَأْنَاهَـا وَعَقَلْنَاهَـا وَوَعَيْنَاهَـا، رَجَـمَ رَسُـولُ اللهِ - ص - وَرَجَمْنَـا بَعْـدَهُ، فَأَخْـشَى إِنْ طَـالَ بِالنَّـاسِ زَمَـانٌ أَنْ يَقُـولَ قَائِـلٌ وَاللهِ مَـا نَجِـدُ آيَـةَ الرَّجْـمِ فِى كِتَـابِ اللهِ، فَيَضِلُّـوا بِـتَرْكِ فَرِيضَـةٍ أَنْزَلَهَـا اللهُ.[٨١]

٧٦. المرصد السوري لحقوق الإنسان، «تنظيم «الدولة الإسلامية» «يرجم» سيدة بتهمة الزنا».

٧٧. سي إن إن بالعربية، «المرصد: توثيق ١٢ عملية «رجم حتى الموت» بتهمة الزنا خلال ٥ أشهر».

٧٨. جريدة الرياض، «رجم صومالية حتى الموت لزواجها من ٤ رجال سرا».

79. Daily Mail, "Pictured: Islamic militants stone man to death for adultery in Somalia as villagers are forced to watch."

80. The Telegraph, "Shocking footage emerges of Taliban stoning couple to death."

٨١. صحيح البخاري ٦: ٢٥٠٤، كتاب المحاربين، باب «رَجْمِ الْحُبْلَى مِنَ الزِّنَا إِذَا أَحْصَنَتْ».

وقد جاء شخص إلى محمد واعترف بالزنى، فسأله محمد أبك جنون؟ قال لا، فقال لهم محمد «اذهبوا به فارجموه.»[٨٢] ورجم محمد أيضا يهوديين حين أتى إليه بعض اليهود يسألونه حكمه في الزنى،[٨٣] كما رجم يوم جمعة رجلا من قبيلة يقال لها «أَسْلَمْ» اسمه ماعز بن مالك،[٨٤] وقال في خطبته بعد تلك الحادثة: «أَوَ كُلَّمَا انْطَلَقْنَا غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللهِ تَخَلَّفَ رَجُلٌ فِي عِيَالِنَا، لَهُ نَبِيبٌ كَنَبِيبِ التَّيْسِ، عَلَيَّ أَنْ لاَ أُوتَى بِرَجُلٍ فَعَلَ ذَلِكَ إِلاَّ نَكَّلْتُ بِهِ.»[٨٥] وفي حديث معروف عن قتل محمد لامرأة يقال لها المرأة الغامدية، نرى شيئا مماثلا لما يحصل اليوم على يد تنظيم الدولة. فقد جاءت المرأة معترفة بذنبها إلى محمد طالبة منه أن يطهرها من ذنوبها، ثم أخبرته أنها حامل فأمرها بأن تعود حتى تضع مولودها، حيث جاء:

> «فَلَمَّا وَلَدَتْه أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خِرْقَةٍ. قَالَتْ: هَذَا قَدْ وَلَدت. قَالَ: اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ.» فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ وفي يَدِهِ كِسْرَةُ خُبْزٍ فَقَالَتْ هَذَا ، يَا نَبِيَّ اللهِ قَدْ فَطَمْتُهُ، وأَكَلَ الطَّعَامَ. فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا، وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا، فَيُقْبِلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ، فَرَمَى رَأْسَهَا. فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ، فَسَبَّهَا.[٨٦]

لكن محمدا نهى خالدًا بن الوليد عن سبها لأنها في نظره قد تابت وتطهرت من ذنوبها باستسلامها للرجم الذي نُفذ في حقها.

الأمثلة كثيرة على إقدام محمد على تنفيذ حد الرجم في أناس معينين، حيث أمر شخصا يقال له أُنَيس بأن يذهب ويرجم امرأة ارتكبت الزنى: «وأمّا

٨٢. صحيح البخاري ٦: ٢٦٢١، كتاب الأحكام، باب «مَنْ حَكَمَ فِي الْمَسْجِدِ حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حَدٍّ أَمَرَ أَنْ يُخْرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ فَيُقَامَ».

٨٣. عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ رَجَمَ فِي الزِّنَى يَهُودِيَّيْنِ، رَجُلًا وَامْرَأَةً زَنَيَا، فَأَتَتِ الْيَهُودُ إِلَى رَسُولِ اللهِ بِهِمَا. صحيح مسلم ١١: ١٧٢، كتاب الحدود، باب «رجم اليهود، أهل الذمة، في الزنى».

٨٤. صحيح البخاري ٢: ٢٥٠٢، كتاب المحاربين، باب «هَلْ يَقُولُ الإِمَامُ لِلْمُقِرِّ لَعَلَّكَ لَمَسْتَ أَوْ غَمَزْتَ».

٨٥. صحيح مسلم ١١: ١٦١، كتاب الحدود، باب «من اعترف على نفسه بالزنى».

٨٦. صحيح مسلم ١١: ١٦١، كتاب الحدود، باب «من اعترف على نفسه با لزنى».

أنـتَ يـا أُنَيـسُ .. فاغْـدُ على امـرأةِ هـذا فارجُمهـا. فغَـدا عليهـا أُنَيـسٌ فرَجَمَهـا.»[٨٧] وقـام علي بـن أبي طالـب، الخليفـة الرابـع وصهـر النـبي وأحـد المؤمنـين الأوائـل الذيـن تبعـوا محمـدا في دعوتـه، برجـم امـرأة يـوم الجمعـة أيضًـا، وقـال: «قَـدْ رَجَمْتُهَـا بِسُـنَّةِ رَسُـولِ اللهِ.»[٨٨] وتقـول سـنة الرسـول الـتي تبعهـا علي: «الْبِكْـرُ يُجْلَد وَيُنْـفَى، وَالثَّيِّـبُ يُجْـلَدُ وَيُرْجَـم.»[٨٩] ويقـول عمـر بـن الخطـاب الخليفـة الثـاني: «فَرَجَـمَ رَسُـولُ اللهِ وَرَجَمْنَـا بَعْـدَهُ.»[٩٠] ويعـني هـذا أن الخلفـاء تبعـوا سـنة الرسـول ورجمـوا كمـا رجـم هـو. فالرجـم عليـه إجمـاع مـن صحابـة محمـد، حيـث يقـول ابـن قدامـة أحـد كبـار علمـاء المذهـب الحنبـلي في القـرن الثـاني عـشر، وهـو مـن قريـة قـرب نابلـس (فسـلطين حاليًـا): «قـد ثبـت الرجـم عـن رسـول الله (ص)بقـوله وفعلـه في أخبـار تشـبه المتواتـر وأجمـع عليـه أصحـاب رسـول الله.»[٩١] يؤكـد ابـن قدامـة هـذا أن الرجـم أجمـع عليـه أيضـا علمـاء الأمـة الإسـلامية، حيـث يقـول في وجـوب الرجـم على الـزاني المُحصَـن رجـلًا كان أو امـرأة: «هـذا قـول عامـة أهـل العلـم مـن الصحابـة والتابعـين ومـن بعدهـم مـن علمـاء الأمصـار في جميـع الأعصـار ولا نعلـم فيـه مخالفـاً إلا الخـوارج.»[٩٢]

حكـم الرجـم متفـق عليـه بـين السـنة والشـيعة. فنحـن نجـد في قانـون إيـران الشـيعية حكـم الرجـم وبشـكلٍ خـاصٍّ المـادة ٨٣. وقـد بلغـت حـالات الرجـم في إيـران خـلال ثلاثـين سـنة مـن ١٩٧٩ إلى ٢٠٠٩ حـوالي ثلاثـين حالـة رجـم حـتى المـوت بتهمـة الـزنى لأنـاس معروفـين بالاسـم[٩٣] دون ذكـر الحـالات الـتي لا يعـرف أصحابهـا. وينـص قانـون جمهوريـة السـودان السـنية أيضـا على حـد

٨٧. صحيح البخاري ٢: ٩٥٩، كتاب الصلح، باب «إذا اصطَلَحوا على صُلح جَورٍ فالصُّلْحُ مَرْدود».
٨٨. صحيح البخاري ٦: ٢٤٩٨، كتاب المحاربين، باب «رجم المحصن».
٨٩. صحيح مسلم ١١: ١٥٩، كتاب الحدود، باب «حد الزنى».
٩٠. صحيح مسلم ١١: ١٥٩، كتاب الحدود، باب «رجم الثيب في الزنى».
٩١. المغني لابن قدامة ١٢: ٣٠٧.
٩٢. المغني لابن قدامة ١٢: ٣٠٧.
93. Kusha HR, Ammar NH (2014) Stoning Women in the Islamic Republic of Iran: Is It Holy Law or Gender Violence. Arts Social Sci J 063 :5. doi: 6200.1000063-2151/10.4172

الرجم،[٩٤] شأنها في ذلك شأن موريتانيا السنية التي ينص قانونها الجنائي لسنة ١٩٨٣ المعمول به إلى الآن على الرجم، حيث يقول في المادة ٣٠٧:

> كل مكلف ذكرا كان أو أنثى ثبت بالشهود الأربعة، أو بالإقرار، أو بالحمل، أنه ارتكب جريمة الزنى عن طواعية، يعاقب بالجلد مائة جلدة أمام الملأ، والحبس مع التغريب سنة إذا كان بكرا، وبالرجم أمام الملأ إذا كان مُحْصَنًا.[٩٥]

ولو تصفحنا موقع إسلام ويب التابع لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية، رغم أنها لا تطبق حد الرجم على أرض الواقع، لوجدنا أنها تؤمن به على الأقل نظريا وتروج له. ففي فتوى مثلا مؤرخة بتاريخ ٢٤ سبتمبر ٢٠١٤، نقرأ:

> فإن الرجم ليس مصدره الأحاديث فقط بل إن الله عز وجل قد أمر بالرجم، وأنزل فيه آية قرآنية كانت تتلى على عهد رسول الله (ص) لفترة من الزمن، ثم نُسِخَ لَفْظُهَا وبَقِيَ حُكْمُهَا، ووجوب العمل بها ماض إلى يوم القيامة.[٩٦]

تؤمن قطر، مثلها مثل السعودية، بأنه ينبغي الاستمرار بالعمل بحد الرجم الذي بدأ منذ عهد محمد إلى يوم القيامة. والسؤال الذي ينبغي أن يُطرح على قطر: لماذا لا تمتلكون الجرأة على تطبيقه على أرض الواقع؟

كذلك نجد على موقع دار الإفتاء الأردنية، وهو موقع حكومي، الفتوى رقم ٧٥٢ تقول: «الزاني المحصن حده الرجم، والزاني غير المحصن حده الجلد.»[٩٧] ونجد في الموقع الرسمي السعودي للرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء

---

٩٤. المادة ١٤٦ من القانون الجنائي السوداني لـ ١٩٩١.
٩٥. موقع وزارة العدل الموريتانية، القانون الجنائي، المادة ٣٠٧.
٩٦. إسلام ويب، فتوى «أقوال أهل العلم في ثبوت حد الرجم للزاني المحصن».
٩٧. دائرة الإفتاء العام، «هل يشمل حد الرجم الزاني الأرمل والمطلق؟»، الفتوى ٧٥٢.

فتوى ترد على شخص يسأل إن كان الرجم ثابتًا في الإسلام. تقول الفتوى: «ثبت في شريعة الإسلام رجم من زنى وهو محصن من الرجال والنساء قولا وفعلا.»[٩٨] وفوق هذا كله، نجد أن جامعة الدول العربية تبنت عقوبة الرجم في قانون جزائي عربي موحد تم اعتماده سنة ١٩٩٦ بإجماع وزراء العدل في الدول العربية في مادة تقول: «يعاقب رجما حتى الموت المحصن الزاني.»[٩٩]... فالأدلة كثيرة في هذا الباب، وكلها تدل على أن الرجم ليس عملا ينفرد به تنظيم الدولة أو أنه مخالف لما يقره الإسلام، بل إن ما يقوم به تنظيم الدولة من حدود جزء لا يتجزأ من الإسلام. وهناك من يقر به ويعمل به مثل تنظيم الدولة، وهناك من يقر به ولا يعمل به لأن الظروف ليست مناسبة، مثل قطر والسعودية والأردن وباقي بلدان الجامعة العربية. إذ تنتظر هذه البلدان الظروف المناسبة لتنفذه.. تنظيم الدولة أكثر اتساقا مع نفسه، حيث يقول الشيء وينفذه. ولا غرابة أن يلتحق به الشباب الذي يرى دُوَلَهُ تُقِر بأحكام الشريعة وبالحدود وفي الوقت نفسه لا تطبقها، فيظهر له أنها دول كافرة ودول منافقة، لأنها لا تنكر ما جاء به الإسلام ولكنها في نفس الوقت لا تنفذه على أرض الواقع.

حد قتل المثليين بأبشع الطرق

هنالك حد آخر لا يقل بشاعة عن حد الرجم، وهو الحد الذي ينفذه التنظيم في حق المثليين. فقد تم توثيق حالات رمي المثليين من شواهق البنايات ليموتوا بفعل السقوط، بحيث يتم تقييد الشخص من اليدين والرجلين ووضع عصابة على عينيه ورميه من أعلى بناية موجودة في المدينة، وهي عقوبة شنيعة غير إنسانية بمعنى الكلمة، لكنها تنفذ في القرن الحادي والعشرين على أيدي أعضاء التنظيم، بل يفتخرون بها ويصورونها

٩٨. مجلة البحوث الإسلامية، فتوى ١٨٨٣، المجموعة الأولى، ج ٢٢، ص ٢٧-٣٠.
٩٩. جامعة الدول العربية، القانون الجزائي الموحد لسنة ١٩٩٦، المادة ١٤١.

وينشرونها على المواقع وعلى حساباتهم على تويتر. ففي يوم ٢٤ أغسطس، عقد مجلس الأمن جلسة تاريخية حول وضع المثليين في المناطق التي يسيطر عليها تنظيم الدولة، ورويت شهادات فظيعة حول الأعمال التي يرتكبها التنظيم في حقهم. قالت جيسيكا شتيرن (مديرة اللجنة الدولية لحقوق المثليين والمثليات جنسيا) «إن تنظيم «الدولة الإسلامية» تبنّى إعدام ما لا يقل عن ٣٠ شخصا بتهمة قيامهم بـ «عمل قوم لوط».»[١٠٠] وقال صبحي النحاس المنحدر من إدلب من سوريا وأحد الشهود الذين شاركوا في هذه الجلسة «إن التنظيم المتطرف يعمد إلى رمي المثليين من أعلى المباني الشاهقة أو يضعهم في ساحات عامة حيث يُرجمون بالحجارة من قبل جموع غفيرة من الناس.»[١٠١] وقد وثّق التنظيم طريقة الإعدام الوحشية هذه مرات كثيرة.

في ديسمبر ٢٠١٤، نشر التنظيم في «ولاية الفرات» صورا لتنفيذ عملية الإلقاء من بناية تتكون من ثلاثة طوابق لشاب متهم بالمثلية الجنسية، أو كما يسميها التنظيم «فعل قوم لوط». وجاء في البيان:

> أسوة بخليفة المسلمين أبوبكر الصديق (ض)، حكمت المحكمة الإسلامية في ولاية الفرات [تضم مناطق في سوريا والعراق خاضعة لسيطرة داعش] على رجل فعل فعلة قوم لوط بالرمي من أعلى مكان في المدينة ثم يتبع بالحجارة حتى الموت.[١٠٢]

وفي يوليو ٢٠١٥، نشر التنظيم تقريرا مصورا عن إلقاء شاب من بناية وكتب على التقرير «إقامة الحد على من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط _ ولاية نينوى». وفي ٢٢ يونيو ٢٠١٥، تم رمي رجل كهل من بناية في ولاية الخير بتهمة أنه ارتكب «عمل قوم لوط». ونُفّذ الحكم نفسه في «ولاية الجزيرة» في حق

---

١٠٠. موقع فرانس ٢٤، «جلسة «تاريخية» لمجلس الأمن حول فظائع تنظيم «الدولة الإسلامية» بحق المثليين».
١٠١. موقع دويتشه فيله بالعربي، «جلسة «تاريخية» لمجلس الأمن حول اضطهاد «داعش» للمثليين جنسيًا».
١٠٢. سي إن إن بالعربية، «بالصور: داعش تقتل رجلا بتهمة المثلية الجنسية عبر «الإلقاء من شاهق» ثم الرجم».

شاب اتهم بالتهمة نفسها بتاريخ ٢ مايو ٢٠١٥. والحالات كثيرة ومتعددة، يتم تنفيذ الحكم فيها أحيانا بقطع الرأس بالسيف مثلما حصل في ولاية نينوى بتاريخ ١٤ فبراير ٢٠١٥، وأحيانا بالرجم حتى الموت مثلما حصل في حق شابين في مدينة حمص السورية بتاريخ ٢٣ أبريل ٢٠١٥، وأحيانا أخرى بالإلقاء من بناية شاهقة مع إتباعها بالرجم ليتم التأكد من موت الشخص. في يوليو ٢٠١٤، تم تنفيذ أول حكم بالإلقاء من شاهق في مدينة تدمر الأثرية في حق شابين بالتهمة نفسها، «عمل قوم لوط».[١٠٣] فمن أين أتى تنظيم الدولة بهذه الأحكام؟ ولماذا تختلف من مكان إلى آخر ومن شخص إلى آخر؟

الملاحظة الأولى هي أنها جميعا حدود قتل، ويكمن الاختلاف في الطريقة فقط. لكن الموت لمن هو مثلي جنسيا شيء مجْمع عليه بين أغلب المذاهب الفقهية الإسلامية رغم عدم وجود حد مثل هذا تصريحا في القرآن. فالقرآن يتحدث فقط عن معاقبة الله لقوم لوط لأنهم عملوا الفاحشة.[١٠٤] والعقاب هو الحجارة التي نزلت عليهم من السماء أو «المطر» الإلهي، وهذا هو العقاب الذي استوحى منه المسلمون الرجم بحقهم، إذ يكون إما لوحده أو يَتبع الإلقاء من مكان شاهق. وإذا عدنا إلى الأحاديث، نجد أن محمدا قد قال «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به.»[١٠٥] وهو الحديث الذي كتبه التنظيم على تقريره المصور في حالة قتل الشابين في ولاية حمص. والغالب أن الشابين كانا معا، فتم إلقاء القبض عليهما، وتم الاستشهاد بالحديث في حقهما كأساس لتنفيذ الحكم. وفي رواية من كتب الحديث نجد أن محمدا قال: «ارْجُمُوا الأَعْلَى وَالأَسْفَلَ. ارْجُمُوهُمَا جَمِيعاً.»[١٠٦] ويرتكز على هذا الحديث من يعتمد الرجم كوسيلة

١٠٣. المرصد السوري لحقوق الإنسان، «تنظيم «الدولة الإسلامية» ينفذ أول عملية «رمي من شاهق» في تدمر».
١٠٤. سورة النمل الآيات ٥٤-٥٨، سورة الأعراف الآيات ٨٠-٨٤، سورة الشعراء الآيات ١٦٠-١٧٣.
١٠٥. مسند أحمد ١: ٤٩٤،سنن الترمذي ٤: ٦٢٧.
١٠٦. سنن ابن ماجة ٢: ٨٥٦، كتاب الحدود، باب «من عمِل عمَل قوم لوط».

دون الوسائل الأخرى. أما الذين نفذوا الحكم بالرمي من أعلى بناية في المدينة فقد اتبعوا أقوال بعض الرموز الإسلامية المهمة مثل ابن عباس، وهو ابن عم النبي محمد وأحد أهم علماء الإسلام في العصر الأول، حيث «سُئِلَ ابنُ عَبَّاسٍ: ما حَدُّ اللُّوطِيِّ قالَ: يُنْظَرُ أَعْلَى بناءٍ في القريةِ فَيُرْمَى بِهِ مُنَكَّساً، ثم يُتْبَعُ الحجارةَ.»[١٠٧]

قال ابن تيمية عن الشخص المثلي:

> لم تختلف الصحابة في قتله؛ ولكن تنوعوا فيه. فروي عن الصديق (ض) أنه أمر بتحريقه، وعن غيره قتله، وعن بعضهم: أنه يلقى عليه جدار حتى يموت تحت الهدم. وقيل: يحبسان في أنتن موضع حتى يموتا. وعن بعضهم: أنه يرفع على أعلى جدار في القرية ويرمى منه، ويتبع بالحجارة، كما فعل الله بقوم لوط. وعلى هذا أكثر السلف. قالوا لأن الله رجم قوم لوط، وشرع رجم الزاني تشبيهاً برجم قوم لوط.[١٠٨]

فالصحابة لم يختلفوا في قتل المثلي، بل اختلفوا في الطريقة فقط. إذ كان ابن عباس يرى الإلقاء من مكان شاهق ثم يرجم بعد ذلك اقتداء بالله في رجم قوم لوط، وتنفيذا لأوامر النبي بالقتل، في حين أن عبد الله بن الزبير كان يرى أن يحبسا في أنتن الأماكن حتى يموتا اختناقا بتلك الرائحة النتنة. وأما علي وأبو بكر فكانا يريان القتل حرقا.[١٠٩]

وصل سؤال من شخص إلى الشيخ السعودي محمد صالح المنجد، صاحب موقع الإسلام سؤال وجواب، يقول: «ما هي عقوبة اللواط، وهل هناك فرق بين الفاعل والمفعول به؟» فأصدر فتوى تجيب على السؤال وقال:

---

١٠٧. السنن الكبرى للبيهقي ١٢: ٤٦٠، كتاب الحدود، باب «ماجاء في حد اللوطي».
١٠٨. مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨: ٣٣٥.
١٠٩. الفقه على المذاهب الأربعة ٥: ١٢٣.

وحكم قتل اللوطي حدا كما أجمع عليه أصحاب رسول الله ودلت عليه سنة رسول الله الصريحة التي لا معارض لها ، بل عليها عمل أصحابه وخلفائه الراشدين... وأطبق أصحاب رسول الله على قتله لم يختلف منهم فيه رجلان ، وإنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله.[١١٠]

وقال أيضا:

وقد ثبت عن خالد بن الوليد أنه وجد في بعض نواحي العرب رجلا يُنكح كما تُنكح المرأة ، فكتب إلى أبي بكر الصديق (ض)، فاستشار أبو بكر الصديق الصحابة (ض)، فكان علي بن أبي طالب أشدهم قولا فيه، فقال: ما فعل هذا إلا أمة من الأمم واحدة وقد علمتم ما فعل الله بها. أرى أن يحرق بالنار، فكتب أبو بكر إلى خالد فحرقه.[١١١]

وقال الحافظ المنذري الشيخ المصري من القرن الثالث عشر: «حرق اللوطية بالنار أبو بكر، وعلي وعبد الله بن الزبير، (ض) وهشام بن عبد الملك، وذلك بعد قتلهما بالسيف أو الرجم بالحجارة.»[١١٢] والمذهب الحنفي هو الوحيد الذي لا ينادي بقتل المثلي،[١١٣] و يشكل هذا الاستثناء لا القاعدة.

ليس تنظيم الدولة الوحيد الذي يصر على قتل المثليين. فهناك بعض الدول الإسلامية التي تبنت هذه القوانين في قانونها الجنائي. ففي القانون الجنائي الموريتاني نجد في المادة ٣٠٨: «كل مسلم مكلف ثبت بالشهود أو الإقرار أنه

١١٠. الإسلام سؤال وجواب، «عقوبة اللواط»، فتوى ٣٨٦٢٢.
١١١. نفس المصدر السابق، وانظر أيضا المغني لابن قدامة ١٢: ٤١٥.
١١٢. الفقه على المذاهب الأربعة ٥: ١٢٣.
١١٣. الحنفية ـ قالوا: لا حد في اللواط، ولكن يجب التعزير حسب ما يراه الإمام. الفقه على المذاهب الأربعة ٥: ١٢٢.

ارتكب جريمة اللواط، يعاقب بالرجم أمام الملأ.»[١١٤] وفي القانون الجنائي السوداني، نجد المادة ١٤٨ تجرم فعل «اللواط».[١١٥] إذ تقول:

> يعد مرتكباً جريمة اللواط كل رجل أدخل حشفته أو ما يعادلها فى دبر امرأة أو رجل آخر أو مكن رجلا آخر من إدخال حشفته أو ما يعادلها فى دبره. من يرتكب جريمة اللواط يعاقب بالجلد مائة جلدة كما تجوز معاقبته بالسجن مدة لا تجاوز خمس سنوات. إذا أدين الجاني للمرة الثانية، يعاقب بالجلد مائة جلدة وبالسجن مدة لا تجاوز خمس سنوات. إذا أدين الجاني للمرة الثالثة يعاقب بالإعدام أو بالسجن المؤبد.[١١٦]

عقوبة الإعدام ضد «المثليين» قاعدة إسلامية إذن، والدول الإسلامية التي لا تطبقها لا تفعل ذلك لأن الإسلام نهى عن قتل المثليين، بل لأنها ضمن منظومات دولية حتمت عليها التخلي عن بعض القوانين البربرية حتى لا تتعرض لمشكلات حقوقية ودبلوماسية بل واقتصادية. ولذلك نجد أن عقوبة «مثلي الجنس» في المغرب مثلا تتراوح من ستة أشهر إلى ثلاث سنوات،[١١٧] وهي أشد من عقوبة الزنى في المغرب لأن العقوبة القصوى للزنى في القانون الجنائي المغربي هي سنة واحدة فقط.[١١٨] والسبب في هذه العقوبات واختلافها عن أحكام الإسلام هو وجود الاستعمار الفرنسي سابقا وصعوبة صياغة قانون يعتمد على الإسلام كليا في ظل علاقات المغرب الخارجية والتي تملي عليه تحسين صورته في مجال حقوق الإنسان. فالدول الإسلامية التي تتبنّى أحكاما مخالفة للإسلام لا تطبق هذه القوانين الوضعية رغبة منها، بل بسبب ما تمليه عليها الظروف الدولية. فإذا أتيحت الفرصة

---

١١٤. موقع وزارة العدل الموريتانية، القانون الجنائي، المادة ٣٠٨.
١١٥. إلى اليوم لا يسمي المسلمون أبناءهم لوط، لأن لوط ارتبط في الثقافة الجمعية للمسلمين بالمثلية الجنسية.
١١٦. المادة ٤٨ من القانون الجنائي السوداني لسنة ١٩٩١.
١١٧. وزارة العدل والحريات، القانون الجنائي المغربي، الفصل ٤٨٩.
١١٨. نفس المصدر، الفصل ٤٩٠.

لهـذه الدول، فـإن مـن المؤكـد أنهـا سـتحاول العـودة إلى الخلـف، وإلى عـصر محمـد على وجـه التحديـد. فقتـل المثليـين مـن طـرف تنظيـم الدولـة ممارسـة بـدأت منـذ عـصر محمـد وهي مسـتمرة إلى اليـوم. لـم يبتـدع تنظيـم الدولة شـيئًا مـن عنـده، بـل اكتـفى بإحيـاء سُـنة النـبي وخلفائـه وأصحابـه ومـن تبعهـم مـن علمـاء الإسـلام إلى اليـوم. ولذلـك قبـل أن نديـن تنظيـم الدولـة علينـا أن نديـن المنابـع الـتي يسـتقي منهـا أفـكاره.

عقوبة الحرق بالنار

مـن أشـد الفيديوهـات إيلامـا في تاريـخ إصـدارات تنظيـم الدولـة إلى اليـوم الفيديـو الذي يظهـر مشـهد حـرق الطيـار الأردني معـاذ الكساسـبة، الفيديـو أصدرتـه إحـدى الأذرع الإعلاميـة لتنظيـم الدولـة «مؤسسـة الفرقـان» ويحمـل اسـم «شـفاء الصـدور»، وهـو اسـم مقتبـس مـن آيـة قرآنيـة تقـول: «قَاتِلُوهُـمْ يُعَذِّبْهُـمُ اللهُ بِأَيْدِيكُـمْ وَيُخْزِهِـمْ وَيَنصُرْكُـمْ عَلَيْهِـمْ وَيَشْـفِ صُـدُورَ قَـوْمٍ مُّؤْمِنِـينَ».[١١٩] ويوضـح السـياق الرسـالة الـتي يـود التنظيـم إيصالهـا. فالقتـال وتعذيـب الأعـداء شـفاء لصـدور قلـوب المؤمنـين، لأنهـم يقتصـون مـن أعدائهـم وينزلـون بهـم أشـد العـذاب والعقـاب. قـال مفـسر القـرآن الكبـير الإمـام الطـبري: «ويـبرىء داء صـدور قـوم مؤمنـين بـالله ورسـوله بقتـل هـؤلاء المشركـين بأيديكـم وإذلالكـم وقهركـم.»[١٢٠] ومـن الواضـح أن التنظيـم يريـد أن يرهـب أعـداءه ويشـفي صـدور أتباعـه مـن الحقـد الموجـود في قلوبهـم والغيـظ الذي يأكلهـم في صدورهـم بسـبب ضربـات التحالـف عليهـم. لقـد كان معـاذ الكساسـبة صيـدا ثمينـا لهـم وأحسـن نمـوذج لإيصـال رسـالتهم.

١١٩. سورة التوبة الآية ١٤.
١٢٠. تفسير الطبري ١٠: ٦٤.

في الرابع والعشرين من ديسمبر ٢٠١٤، تم إسقاط طائرة الشاب الأردني ذي الستة وعشرين ربيعا.[١٢١] حاول الطيار النجاة بنفسه بعدما تعرضت طائرته لعطل فني أو ضربة من المضادات الأرضية،[١٢٢] لكنه وقع في الفرات، في منطقة تحت سيطرة تنظيم الدولة. وفي الصور التي نشرها التنظيم على مواقع النت وحسابات تويتر للموالين له، ظهرت مثلا صورة جنود التنظيم وهم يسجدون لله سجدة شكر بعد القبض على الطيار بينما تقول الصورة: «سجود جنود الدولة شكرا لله بعد اعتقال الطيار الأردني المرتد». وكلمة «المرتد» هنا مهمة جدا لأنها تحمل حمولة عقدية تتضمن العقاب الذي سيواجهه الطيار لاحقا. وتقول صورة أخرى: «الصور الأولية للطيار الأردني المرتد الذي تم القبض عليه بعد إسقاط طائرته». كما تم نشر بطاقته وصور المعدات التي كانت معه. تم نشر فيديو الحرق في الثالث من فبراير ٢٠١٥، لكن من المرجح أن تاريخ تنفيذ هذا الإعدام الوحشي تم قبل ذلك بحوالي شهر تقريبا بحسب تقديرات بعض المحللين. كان طول الفيديو حوالي ثلاث وعشرين دقيقة تتضمن تمهيدا يوضح عدوان دول التحالف على تنظيم الدولة وبالأخص الأردن، ثم تأتي اعترافات الطيار معاذ وتفاصيل العملية التي كان يقوم بها، وفي آخر الفيديو تفاصيل عن أسماء ورتب طيارين أردنيين آخرين إضافة إلى عناوينهم وإعلان عن جائزة مائة دينار ذهبي لمن يقتل طيارا من هؤلاء الطيارين.

يبدو أن عملية الحرق صورت بمهارة عالية، بحيث تم تصوير معاذ وهو يأتي إلى المكان الذي سيتم فيه التنفيذ، ويتأمل الجنود والخراب الذي تعرض له المكان وكأنهم يُذَكِّرُونَه بما فعل طيران التحالف الذي كان معاذ يشارك مقاتلا فيه، ثم يأتي نوع من الفلاشباك تظهر فيه صور الدمار وصور الأطفال الذين قتلوا وضحايا القصف الذين احترقوا بفعل القنابل ليظهروا

١٢١. العربية نت، «داعش يأسر طياراً أردنياً بعد إسقاط طائرته».

١٢٢. الجيش الأمريكي استبعد سقوط الطائرة على أيدي مقاتلي التنظيم، بينما تنظيم الدولة أعلن في الصور التي نشرها أنه تم إسقاط الطائرة بواسطة صاروخ حراري، راجع موقع دويتشه، «داعش أسر طيارا أردنيا لكنه لم يسقط طائرته».

أن العقاب هو من جنس العمل الذي قام به الطيار. ثم يظهر معاذ داخل قفص فيه علامة إكس يفرق رجليه بينها وثيابه تبدو مبتلة بمواد قابلة للاحتراق، بينما هو يحني رأسه «علامة الندم» على ما فعله، ثم فلاش باك آخر يوضح آثار القصف الذي حصل بسبب طيران دول التحالف ضد تنظيم الدولة. ويبدو أن عملية التصوير قد تطلبت إعادات كثيرة، لذلك لم يكن معاذ يعلم بحسب ما يظهر من الفيديو أنه سيموت حرقا، لأنه لم يبد أية مقاومة تذكر، لعله قد أُخْبِرَ أنه مجرد تصوير تهديدي للأردن لتسهيل المفاوضات. وبسبب تكرار التصوير مرات كثيرة، فإن من المؤكد أن المرة التي تم فيها الحرق كانت مفاجئة لمعاذ، وإلا لكان قد أبدى صراخا ومقاومة وهو في القفص قبل وصول النار إليه. ويشعل النار أحد أمير القواطع التي تعرضت للقصف حتى ينتقم بنفسه لنفسه، فتشتعل النار ببطء في خط مرسوم وممتلئ بالمواد القابلة للاشتعال، تتجه النار نحو القفص ثم تبدأ في الاشتعال في ثياب الشاب المسكين بينما هو يرقص في القفص من حر اللهيب محاولا تجنب النار وهو يصرخ، لكن المواد المشتعلة التي كانت مدفونة أيضا في العلامة المرسومة في الأرض والمواد المرشوشة على ثيابه لم تعطه أية فرصة للنجاة. دار في كل الاتجاهات وهو يحترق ليظهر بعد ذلك جثة متفحمة متمسكة بالقفص الحديدي ثم يسقط أرضا، تأتي بعد ذلك جرافة لتحطم القفص وترمي الأنقاض على جثته وتظهر من بين الأنقاض يده المتفحمة.

كان منظرًا لا يتحمله أي إنسان له ذرة من المشاعر. وفي آخر عملية الاحتراق يظهر قول لابن تيمية: «فأما إذا كان في التمثيل الشائع [يقصد التمثيل بالجثث مثل الحرق] دعاء لهم [يقصد الكفار] إلى الإيمان، أو زجر لهم عن العدوان، فإنه هنا من إقامة الحدود، والجهاد المشروع.»[١٢٣] أصدر تنظيم

١٢٣. مؤسسة الفرقان، فيديو «شفاء الصدور»، الدقيقة ١٨:٥٧. وهذه المقولة موجودة في مجموعة من الكتب الإسلامية كمثال على ذلك: كتاب الفروع ٦: ٢١٨.

الدولة بيانا بعد ذلك يوضح فيه الأدلة الشرعية على قيامه بالحرق، وقد تم تجهيز الفتوى قبل نشر الإصدار مما يدل على أن التنظيم كان يعي أنه سيواجه الكثير من الاعتراضات حتى من أتباعه، فجهز الرد الشرعي والأدلة والنصوص التي تدعم ما قاموا به. وحملت الفتوى المنشورة رقم ٦٠، صادرة بتاريخ ١٩ يناير ٢٠١٥، عنوانها «ما حكم تحريق الكافر بالنار حتى يموت؟» والجواب على هذا السؤال كالتالي:

> ذهب الأحناف [يعني أتباع المذهب الحنفي] والشافعية [أتباع المذهب الشافعي] إلى جواز التحريق مطلقا... يدل على جواز التحريق فعل الصحابة، وقد سمل النبي أعين العرنيين بالحديد المحمي... وحرق خالد بن الوليد ناسا من أهل الردة.. وذهب بعض أهل العلم إلى أن التحريق بالنار محرم في الأصل غير أنه يجوز عند المماثلة كما فعل النبي بالعرنيين حيث سمل أعينهم بالنار.[١٢٤]

إذن فتوى تنظيم الدولة فتوى دينية صحيحة من الناحية الشرعية ومن الصعب الرد عليها بنصوص دينية.

من أين استمد التنظيم حكم التحريق بالنار؟ هل له سوابق في التاريخ الإسلامي؟ هل هناك أي تحريق قام به محمد أو الصحابة يستطيع تنظيم الدولة أن يجعله أساسا يبرر به عمله؟ أول شيء نلجأ إليه هو القرآن. فالقرآن يقول: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ».[١٢٥] فالآية تعطي للمسلم الحق أن يعاقب بالأداة نفسها التي عوقب بها. وقد ارتكز تنظيم الدولة على هذه الآية ليبرر حرقه للطيار الأردني. فالعقاب بالحرق هو رد بالمثل على الحرق بالقنابل الذي يتعرض له التنظيم على أيدي قوات التحالف.

---

١٢٤. هيئة البحوث والإفتاء، «ما حكم تحريق الكافر بالنار حتى يموت؟». الفتوى رقم ٦٠.
١٢٥. سورة النحل الآية ١٢٦.

هــذه هي حجــة التنظيــم، وهي حجــة قويــة دينيــا بحيــث لا يمكــن لشــيوخ الإســلام أن يردوهــا مــا دام يحــق للمســلم أن يــرد العقوبــة بالمثــل.

في هــذا الســياق نفســه، قــام تنظيــم الدولــة بحــرق أربعــة أشــخاص عراقيــين شــيعة أحيــاء بعــد أن كبلهــم على أرجوحــة بالسلاســل كمــا توضــع الحيوانــات المذبوحــة للشــوي. وأصــدر فيديــو يحمــل عنوانــا مقتبســا مــن الآيــة الــتي ذكرناهــا ســابقا «فعاقبــوا بمثــل مــا عوقبتــم بــه».[١٢٦] جــاء الفيديــو كــرد على حــرق عناصرمــن «الحشــد الشــعبي الشــيعي» لمســلم ســني في فيديــو نــشر على الإنترنــت في الأســبوع الأخــير مــن أغســطس ٢٠١٥. ومبــدأ الــرد بالمثــل مبــدأ قــرآني حيــث يؤكــده القــرآن في ســورة أخــرى فيقــول: «فَمَــنِ اعْتَــدَى عَلَيْكُــمْ فَاعْتَــدُواْ عَلَيْــهِ بِمِثْــلِ مَــا اعْتَــدَى عَلَيْكُــمْ».[١٢٧] وفــوق كل هــذا، نجــد أن القــرآن يصــور الله يعاقــب النــاس بالنــار ويتــلذذ بذلــك العقــاب، بحيــث كلمــا احترقــت جلــود النــاس كلمــا غيرهــا لهــم واســتبدلها بجلــود ســليمة ليســتمر عذابهــم إلى مــا لا نهايــة، يقــول القــرآن: «إِنَّ الَّذِيــنَ كَفَــرُواْ بِآيَاتِنَــا سَــوْفَ نُصْلِيهِــمْ نَــارًا كُلَّمَــا نَضِجَــتْ جُلُودُهُــمْ بَدَّلْنَاهُــمْ جُلُــودًا غَيْرَهَــا لِيَذُوقُــواْ الْعَــذَابَ».[١٢٨] وقــد قــام محمــد بتهديــد أتباعــه مــن المســلمين الذيــن يتخلفــون عــن الصــلاة جماعــة معــه بالحــرق حيــث قــال: «والذي نفــسي بيــدِهِ، لقــد هَمَمْــتُ أن آمُــرَ بحطــبٍ فيُحطب، ثــمَّ آمــرُ بالصــلاةِ فيُــؤذَّن لهــا، ثــمَّ آمــرُ رجــلاً فيَــؤُمَّ النــاسَ، ثــمَّ أُخالِــفُ إلى رجــالٍ فأُحــرِّقُ عليهــم بيوتَهــم.»[١٢٩] فــإذا كان محمــد يريــد أن يحــرق أصحابــه في بيوتهــم لمجــرد أنهــم تخلفــوا عــن الصــلاة جماعــة معــه، فكــم بالأحــرى مــا ســيفعله بأعدائــه الذيــن يلقــون عليــه القنابــل؟ لا أعتقــد أنــه كان ســيعاملهم أفضــل مــن أصحابــه.

١٢٦. العربية نت، «تنظيم الدولة "يشوي" عناصر من الحشد...».
١٢٧. سورة البقرة الآية ١٩٤.
١٢٨. سورة النساء الآية ٥٦.
١٢٩. صحيح البخاري ١: ٢٣١، كتاب الأذان، باب «وجُوبِ صلاةِ الجماعة».

أرسل محمد في طلب العرنيين الذين سرقوا إبله وقتلوا الراعي، وأصدر أوامره بقتلهم بأبشع الطرق دون محاكمة وقبل أن يأتي أي قرآن. فبعد أن قطع أطرافهم، أمر بالحديد أن يحمى في النار ثم فقأ أعينهم.[١٣٠] فماذا لو فعل التنظيم هذه الفعلة بمعاذ؟ هذا العمل وحده يدل على أن محمدا استخدم النار في تعذيب من يسيء إليه أو إلى ممتلكاته. وعلي بن أبي طالب تلميذ محمد، وأول المؤمنين به من الصبيان، وابن عمه وصهره وأحد أقرب المقربين إليه، وهو الخليفة الرابع، أي أنه من الآباء المؤسسين في الإسلام، الذين يعرفون الإسلام جيدا. قام بحرق قوم بنفسه، حيث جاء في صحيح البخاري: «أُتِيَ عَلِيٌّ بِزَنَادِقَةٍ فَأَحْرَقَهُمْ.»[١٣١] والملاحظة هنا هي أن تنظيم الدولة عدَّ معاذًا مرتدا. والزنادقة هم قوم ارتدوا عن الإسلام. ويضع البخاري هذه الرواية في باب حكم المرتد والمرتدة. مما يعني أن عليا أجاز قتل المرتد بالنار، كما أنه قتل المثليين بالنار كما رأينا من قبل. فهل سيعفو عمن يعدّ في نظر تنظيم الدولة مرتدا محاربا، مثل معاذ الكساسبة؟

أما الخليفة الأول أبو بكر، فقد حرق شخصا يقال له الفجاءة، لأنه ارتد وقتل بعض المسلمين: «بعث وراءه جيشا فرده فلما أمكنه بعث به الى البقيع فجمعت يداه الى قفاه وألقي في النار فحرقه وهو مقموط.»[١٣٢] هذه الحالة مشابهة لما فعله التنظيم بمعاذ الكساسبة. فالفجاءة كان مسلما وارتد، وشارك في قتل مسلمين. وبالنسبة لتنظيم الدولة، وُلد معاذ الكساسبة مسلما ثم ارتد لأنه تبع نظام دولته وحارب إلى جانبهم عوض المحاربة إلى جانب الخليفة. ولم يكن مرتدا فحسب، بل كان مرتدًّا محاربًا قاتل مع الأعداء وكان مساهما في قتل مسلمين في الدولة الإسلامية. إذن في نظرهم يحق لهم قتله كما قتل أبو بكر الخليفة الأول الفجاءة. فأبو بكر البغدادي

١٣٠. صحيح البخاري ٣: ١٠٩٩، كتاب الجهاد والسير، باب «إذا حَرَّقَ المشركُ المسلمَ هل يحرَّقُ؟».
١٣١. صحيح البخاري ٦: ٢٥٣٧، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين، باب «حُكْمِ الْمُرْتَدِّ وَالْمُرْتَدَّةِ واستتابتهم».
١٣٢. البداية والنهاية لابن كثير ٦: ٣١٩.

ببساطة يقوم باستنساخ ما فعله أبو بكر الأول. بل إن أربعة من الخلفاء استخدموا الحرق بالنار ضد المثليين، فهل سيتورعون عن قتل عدوهم بنفس الطريقة؟ قال الحافظ بن حجر العسقلاني، الشيخ المصري المعروف وهو من القرن الرابع عشر ـ الخامس عشر: «حرق اللوطيةَ بالنار أربعةٌ من الخلفاء: أبو بكر الصديق وعليّ بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير، وهشام بن عبد الملك.»[١٣٣] إذن لدى تنظيم الدولة أساس متين من الأدلة يستند إليه. فما قام به التنظيم ليس شذوذا في العالم الإسلامي. إذ مارسه محمد وكبار صحابته والخلفاء من بعده، ولا يستطيع أحد أن يلوم تنظيم الدولة دون أن ينتقد الأسس الإسلامية التي ارتكزعليها.

بعد تنفيذ الحرق في الطيار الأردني ونشر الفيديو، عمت موجة استنكار في العالم العربي. وكنت أتابع ردود الفعل وأراقب بالأخص ردود فعل الشيوخ، لأنني أعلم أنهم يحاولون تجنب المأزق الديني الذي وضعهم تنظيم الدولة فيه. فقمت بعملية بحث بسيطة على الإنترنت عن الفتاوى المؤيدة لاستخدام الحرق بالنار ضد الأعداء. فوجدت أن موقع قطر الرسمي التابع لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية «إسلام ويب» تضمّن فتوى تحرض على القتل حرقا بالنار وتجيزها صراحة، بحيث جاءت كسؤال من أحد الأشخاص يقول: «كيف نوفق بين نهي النبي (ص) عن التحريق بالنار وبين إحراق أبي بكر الصديق (ض) إياس بن عبد ياليل [وهو الشخص نفسه الذي يسمى الفجاءة] بالنار في حرب الردة؟»، فجاء الجواب كالتالي:

---

١٣٣. الترغيب والترهيب ٣: ١٩٨.

> دل على جواز التحريق فعل الصحابة وقد سمل النبي (ص) أعين العرنيين بالحديد المحمى، وقد حرق أبو بكر البُغَاة بالنار بحضرة الصحابة، وحرق خالد بن الوليد بالنار ناسا من أهل الردة، وأكثر علماء المدينة يجيزون تحريق الحصون والمراكب على أهلها.. فلا شك أن ما أقدم عليه إياس بن عبد ياليل يستحق به ما فُعِلَ به من الإحراق. فجزى الله خليفة رسول الله - ص - على غيرته للإسلام.[١٣٤]

وتم حذف الفتوى يوم ٣ فبراير ٢٠١٥ بعدما بدأت التغريدات على تويتر تشير إليها. وبعد ذلك قام الأردن بمنع كتب ابن تيمية من الدخول وحجزها، لأن تنظيم الدولة اقتبس منها في الفيديو المذكور ووضعها في خاتمة فيديو الحرق كدليل على جواز التمثيل بالجثث.[١٣٥] وللإشارة فقط، هناك أحاديث صحيحة تنهى عن الحرق بالنار[١٣٦] وتخص به الله وحده. ولكن علماء الإسلام عدّوا ذلك النهي ليس نهي تحريمٍ بل نهي تواضعٍ، أي أن النبي نهى عن استخدام النار تواضعا منه، لأنه يريد أن يترك تلك المهمة لله وحده،[١٣٧] وإلا كيف سيوفقون بين ذلك النهي وبين ممارسة محمد للحرق، وممارسة كبار صحابته وخلفائه للحرق من بعده؟

الابتكار في العقوبات بين داعش ومحمد

لم يتوقف التنظيم عن نشر فظاعاته وتفنّنه في فنون القتل بهدف التخويف والإرهاب كحرب نفسية يشنها على أعدائه لكي يوقف الجواسيس، وليحْدث انهيارًا نفسيًّا للجنود الذين يقاومونه في المناطق التي يود الدخول إليها. ومن بين الفيديوهات التي نشرها التنظيم فيديو يزخر بمشاهد قتل

---

١٣٤. إسلام ويب، «تحريق أبي بكر الصديق لإياس بن عبد ياليل»، فتوى ٧١٤٨٠.
١٣٥. الجزيرة نت، «الأردن يتحفظ على مؤلفات ابن تيمية».
١٣٦. جاء في حديث في صحيح البخاري ٣: ١٠٩٨، كتاب الجهاد والسير، باب «لا يعذب بعذاب الله»: «بعثنا رسولُ الله في بعثٍ فقال: إن وجَدْتم فلاناً وفلاناً فأحرقوهما بالنار. ثمَّ قال رسولُ الله حينَ أردْنا الخروجَ: إني أمَرتُكم أن تُحرقوا فلاناً وفلاناً، وإنَّ النارَ لا يُعذِّبُ بها إلا اللهُ، فإن وجَدْتموهما فاقتُلوهما».
١٣٧. فتح الباري في شرح صحيح البخاري ٦: ٢٥٩، جاء فيه: «ليس هذا النهي على التحريم بل على سبيل التواضع».

مروعة ضد من عدَّهم جواسيس. وهو من إنتاج ولاية نينوى، تحت اسم «وإن عدتم عدنا» بتاريخ ٢٣ يونيو ٢٠١٥. وعنوان الفيديو مستمد هو الآخر من آية قرآنية تقول: «وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا.»[١٣٨] وتتحدث الآية في الأصل عن تهديد الله لليهود، بحيث يذكرهم أنه سلط عليهم «عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ».[١٣٩] فإن عادوا، سيعود الله ويسلطهم عليهم مرة أخرى. ومفاد الرسالة أن تنظيم الدولة سيعود ويعاقب الجواسيس إن حاولوا فعل ذلك مرة أخرى.

كان طول الفيديو سبع دقائق ونصف الدقيقة، وهو يعرض طرقًا وحشية في الإعدام، حيث وضع التنظيم ثلاثة أشخاص في سيارة وتم إطلاق قذيفة «أر بي جي» على السيارة ليموتوا فيها بقوة التفجير والاحتراق. وتم تصوير خمسة أشخاص آخرين في قفص حديدي داخل مسبح ممتلئ ماء ثم تم إغراق القفص لتلتقط الكاميرا معاناتهم وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة تحت الماء. وفي مشهد آخر في نفس الفيديو تم ربط سبعة أشخاص من أعناقهم بحبل ديناميت وأيديهم مقيدة، ثم تم إشعال النار في الحبل ليمزق أجسادهم وتتطاير رؤوسهم وأشلاؤهم من شدة انفجار الديناميت.[١٤٠] ما الذي يدعو التنظيم إلى هذه القساوة في التنفيذ والاقتصاص ممن يصفهم بالجواسيس؟

إنها صورة الإله الذي رسمه الإسلام لأتباعه، هذا الإله يقول لملائكته يوم القيامة عن أي إنسان لم يؤمن به: «خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ، إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ».[١٤١] إنه إله يتلذذ بتعذيب ضحاياه «يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ [يعني الله] ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».[١٤٢] ولا تختلف

١٣٨. سورة الإسراء، الآية ٨.
١٣٩. سورة الإسراء، الآية ٥.
١٤٠. العربية نت، «بالفيديو.. ٣ إعدامات بطرق «جديدة» نفذها داعش».
١٤١. سورة الحاقة، الآيات ٣٠-٣٣.
١٤٢. سورة العنكبوت، الآية ٥٥.

هـذه الصـورة عمـا فعلـه محمـد بأعدائـه، فقـد فقـأ الأعـين،[١٤٣] وأمـر بتعذيـب ضحايـاه حـتى يقـروا أيـن وضعـوا أموالهـم.[١٤٤] وبالتـالي، فـإن الفـرق هـو أن تنظيـم الدولـة لديـه الأر بي جي الـتي لـم تكـن لمحمـد، ولديـه الديناميـت الذي لـم يكـن محمـد يمتلكـه، لكـن لا فـرق في المبدأ بـين استـخدام محمـد للنـار والمسـامير، واسـتخدام السـيوف والطـرق المتاحـة في عـصره، وبـين اسـتخدام التنظيـم للطـرق والأدوات المتاحـة في عـصره. فقـد اسـتخدم محمـد مـا يشـبه الـ «أر بي جي» اليـوم وهـو المنجنيـق ضـد أهـل الطائـف،[١٤٥] حيـث جاء في السـيرة النبويـة أن محمـدا هـو «أول مـن رمى في الإسـلام بالمنجنيـق، رمى أهـل الطائف.»[١٤٦]

اسـتنتج علمـاء الإسـلام بنـاء على هـذه الواقعـة أنـه طالمـا أجـاز محمـد تدمـير الأعـداء بالمنجنيـق فـإن اسـتخدام التغريـق بالمـاء أيضـا جائـز عنـد بعضهـم، حيـث جـاء في الـكافي مثـلا : «وروي عـن علي أن النـبي، نصـب منجنيقـا على أهـل الطائـف. والتغريـق بالمـاء في معنـاه.»[١٤٧] بـل إن هنـاك صـورًا أبشـع ممـا عملـه تنظيـم الدولـة نقلتهـا لنـا الكتـب الإسـلامية. ولـو كانـت هنـاك كامـيرا لاقشـعرت الأبـدان مـن رؤيـة تلـك المشـاهد، فخـالد بـن الوليـد الذي سـمّاه محمـد سـيف الله،[١٤٨] والذي كان القائـد العسـكري المحنـك في أواخـر حيـاة محمد وفي خلافـة أبي بكـر وفي جـزء مهـم مـن خلافـة عمـر، قـام بأشـياء أبشـع ممـا قـام بـه تنظيـم الدولـة. فقـد قتـل شـخصا مسـلما اسـمه مالـك بـن نويـرة لمجـرد أنـه امتنـع عـن دفـع الـزكاة لأبي بكـر. ولـم يكتـف بقتلـه، بـل أخـذ زوجتـه[١٤٩] الـتي كانـت معروفـة بجمالهـا. بـل إن مـؤرخي الإسـلام قالـوا إن خـالدا أخـذ رأس

١٤٣. مثلما فعل بالعرنيين حين حمى الحديد وأدخله في أعينهم، صحيح البخاري ٣: ١٠٩٩.

١٤٤. مثـل كنانـة بـن الربيـع الذي تحـكي السـيرة النبويـة لابـن هشـام ٤: ٧٩، أن محمـدا قـال للزبـير «عذبـه حـتى تسـتأصل مـا عنـده، فـكان الزبـير يقـدح بزنـدٍ في صـدره، حـتى أشرف على نفسـه، ثـم دفعه رسـول اللـه (ص) إلى محمـد بـن مسـلمة، فـضرب عنقـه بأخيـه محمـود بـن مسـلمة.»

١٤٥. «عن ثَوْرِ بنِ يَزيدَ أَنَّ النبيَّ نَصَبَ المَنْجَنِيقَ علَى أَهْلِ الطَّائِفِ» سنن الترمذي ٨: ٣٨.

١٤٦. السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٢٥٥.

١٤٧. الكافي لابن قدامة ٤: ٢٦٨.

١٤٨. مسند أحمد ٦: ٤٠٦.

١٤٩. جـاء في البدايـة والنهايـة لابـن كثـير ٦: ٣٢٢، «واصطـفى خـالد امـرأة مالـك بـن نويـرة وهي أم تميـم ابنـة المنهـال وكانـت جميلـة».

مالك بن نويرة وطبخه وأكل منه.[١٥٠] بل تحكي روايات إسلامية أخرى أنه جمع أناسا أحياء في حظائر المواشي وأحرقهم.[١٥١] ومع ذلك لم يعزله الخليفة أبو بكر رغم الأصوات التي نادت بعزله، فقال كلمة شهيرة بين المسلمين إلى اليوم «لا أشِيمُ[١٥٢] سيفا سله الله على الكفار.»[١٥٣]

لم يخرج تنظيم الدولة عن المذاهب الإسلامية، ولا عما فعله رموز الإسلام. فهو ليس بدعة جديدة، ولا مجرد تنظيم يدعي الإسلام، بل يعتمد في أحكامه على نصوص وعلى أدلة شرعية وأحداث إسلامية سابقة له، وهذه الأدلة تجعله يغلب الشيوخ والأشخاص الذين يحاولون نزع صفة الإسلام عنه لا لشيء إلا لتبرئة الإسلام من التهمة دون تمحيص أو بحث في حقيقة علاقة تنظيم الدولة بالإسلام. فالحقيقة المرة التي علينا أن نواجهها هي أن تنظيم الدولة يطبق الإسلام بحذافيره ويسير على خطى من أتوا بالإسلام ونشروه في البقاع كلها ..على خطى الجيل المسلم الأول .. جيل محمد وأصحابه. صحيح أن تنظيم الدولة لا يمثل المسلمين كلهم في العالم لكنه أكثرهم تقيُّدًا بالحدود المنصوص عليها في القرآن والسنة.

---

١٥٠. جاء في البداية والنهاية لابن كثير ٦: ٣٢٢، أن خالد بن الوليد قال: «يا ضرار اضرب عنقه فضربت عنقه وأمر برأسه فجعل مع حجرين وطبخ على الثلاثة قدرا فأكل منها خالد تلك الليلة ليرهب بذلك الأعراب من المرتدة»

١٥١. سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣: ٢٣١.

١٥٢. لا أَشِيمُ سَيْفاً سَلَّه اللّٰه على المشركين أي لا أُغْمِدُه. لسان العرب لابن منظور.

١٥٣. البداية والنهاية ٦: ٣٢٢.

-14-

چوسوي شارلي...چوسوي محمد

شارلي إيبدو واللائحة

أول ما سمعت بخبر الاعتداء على جريدة شارلي إيبدو، حاولت الاتصال بزينب الغزوي، وهي صديقة مغربية تعمل في الجريدة نفسها. كنت شبه متأكد أنها لو كانت هناك ستكون ضمن الضحايا، لأنها معروفة بآرائها الجريئة كملحدة من خلفية إسلامية. فقد نادت بالإفطار العلني في رمضان في المغرب ونادت بالحرية الدينية، ما تسبب لها في مشكلات مع السلطات في المغرب حتى قبل التحاقها بالعمل في شارلي إيبدو. ولحسن حظها أنها كانت في إجازة في المغرب أثناء المذبحة. وهناك تلقت خبر موت زملائها في العمل وبعضهم من أصدقائها المقربين. يا لها من صدمة حين تعرف أن شخصا كنت تشتغل معه بالأمس صار اليوم في عداد القتلى لا لشيء إلا لأنه استخدم قلمه في نقد عقيدة معينة! إنه شيء لا يصدقه عقل أن هذا ما زال يحدث في القرن الحادي والعشرين.

خلّف الهجوم الذي وقع يوم ٧ يناير ٢٠١٥ اثني عشر قتيلا، وأحد عشر جريحا،[١] ونفذه الأخوان كواشي وهما فرنسيان مسلمان من أصول جزائرية - شريف عمره ٣٢ وسعيد عمره ٣٤ عاما.[٢] صرخ المهاجمان: «الله أكبر» أثناء إطلاق الرصاص، وهتف أحدهم «لقد انتقمنا للرسول.»[٣] ومن ضمن الضحايا رئيس تحرير شارلي إيبدو «ستيفان شاربوني» الملقب اختصارا بـ «شارب» والذي كان على لائحة المطلوبين من القاعدة المنشورة في مجلة أنسباير في العدد العاشر الصادر في ربيع ٢٠١٣،[٤] لم يكن «شاربوني» أو «شارب» الوحيد الذي ضمته اللائحة، بل كان هناك معه عشرة آخرون. وكانت على رأس اللائحة عبارة تقول:

> مطلوبون أمواتًا أو أحياء بسبب جرائمهم ضد الإسلام». وفي الصفحة المقابلة كانت صورة مسدس تخترق رصاصته رأس القس تيري جونز الذي أحرق القرآن، وتحته عبارة تقول «نعم نستطيع، رصاصة في اليوم تبعد الكافر، دافع عن الرسول (ص).[٥]

هؤلاء العشرة هم:

* الصومالية أيان حرسي علي التي شاركت في كتابة فيلم قصير بعنوان «الخضوع» لمخرجه الهولندي فان غوخ، وهو عبارة عن نقد مباشر لما يعلمه الإسلام عن المرأة وكيف يعاملها، وفيه آيات من القرآن مكتوبة على جسد امرأة عارية تعرضت للعنف. وقد تمّ عرض الفيلم في أغسطس ٢٠٠٤،[٦] وتم اغتيال فان غوخ مخرج الفيلم في ٢ نوفمبر ٢٠٠٤ على يد مواطن مغربي اسمه محمد البويري يحمل الجنسية الهولندية.[٧]

---

١. فرانس ٢٤، «وقائع الهجوم الدامي على مجلة «شارلي إيبدو» في قلب باريس».
٢. سي إن إن بالعربية، «من هما «الأخوان كواشي» المشتبهان بتنفيذ الهجوم على مجلة «شارلي إيبدو»...»
٣. دويتشه فيله بالعربية، «مهاجمو صحيفة شارلي إيبدو هتفوا «انتقمنا للرسول»».
٤. مجلة إنسباير، العدد العاشر، الصفحات ١٤-١٥.
٥. نفس المصدر.
٦. بحسب ما جاء عنه في موقع قاعدة بيانات الأفلام على الأنترنت http://www.imdb.com
7. The New York Times, “Dutch Filmmaker, an Islam Critic, Is Killed.”

* وكان هنالك اسم آخر على قائمة القاعدة وهو كارستن جوست، رئيس تحرير يولاندس بوستن، الجريدة الدنماركية التي نشرت رسوما كاريكاتورية عن محمد في ٢٠٠٥، والتي بسببها قامت مظاهرات في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي في ٢٠٠٦ وتم خلالها حرق السفارات الغربية والتعدي على مبانيها.[٨]

* وتضمّ القائمة أيضا اسم صحفي آخر من نفس الجريدة، وهو فليمين روز الذي كان صاحب فكرة نشر الرسوم الكاريكاتورية لمحمد.

* إضافة إلى الرسام الكاريكاتوري الذي رسم أشهر رسم كاريكاتوري لمحمد «شخص يحمل قنبلة على رأسه»، الدانماركي كورت فيسترجارد.[٩] وقد تعرض لعدة محاولات اغتيال أحدها داخل بيته. وبطبيعة الحال، كان منفذو هذه المحاولات من شباب المسلمين.[١٠]

* تضم القائمة أيضا رسام الكاريكاتور السويدي لارش فيلكس الذي تعرض لمحاولات اغتيال هو الآخر،[١١] كما تعرض أيضا للضرب والاعتداء من طرف مسلمين.[١٢]

* وظهرت رسامة أخرى على القائمة، وهي الأمريكية مولي نوريس التي رسمت محمدا على أدوات منزلية وشجعت على تخصيص يوم ٢٠ مايو لرسم محمد احتجاجا على ما يتعرض له الرسامون من قمع.[١٣] وتعرضت هي الأخرى لتهديدات ما زالت على إثرها مختفية من ٢٠١٠ إلى اليوم.[١٤]

---

٨. العربية نت، «قصة حشد شعبي غير مسبوق في مواجهة الرسوم الدنماركية».
٩. اليوم السابع، «رسام الكاريكاتير المسيء للرسول يحصل على جائزة حرية الصحافة».
١٠. بي بي سي عربي، «رسام الكاريكاتير الدنماركي الذي رسم النبي محمد يقول إنه كان يخشى «الذبح»».
١١. سي إن إن بالعربية، «الدنمارك .. مقتل شخص في هجوم على تجمع يضم «لارس فيلكس» وأنصاره...».
١٢. بي بي سي عربي، «الرسام السويدي الذي اغضب المسلمين يتعرض لهجوم».
13. CNN, "After four years, American cartoonist Molly Norris still in hiding after drawing Prophet Mohammed."
14. Ibid.

* ومن بين الأسماء الأخرى الموجودة على القائمة القس تيري جونس الذي أحرق القرآن في فلوريدا.[١٥]

* والمصري موريس صادق لصلته بفيلم ينتقد محمدا ويحمل اسم براءة المسلمين.[١٦]

* إضافة إلى السياسي الهولندي خيرت فيلدرز المعروف بانتقاده للإسلام ومخرج فيلم فتنة الذي ينتقد فيه الإسلام.[١٧] وقد كتب خيرت كتابا يحمل عنوان «موسوم للقتل» نشره سنة ٢٠١٢,[١٨] وقد تعرض أيضا للتهديد بالقتل، وهو يعيش تحت الحراسة حتى زمن كتابة هذه السطور.[١٩]

* وبطبيعة الحال، لا تخلو القائمة من الكاتب سلمان رشدي الذي صدرت في حقه فتوى بالقتل منذ ١٩٨٩ تعرض على إثرها لمحاولات اغتيال متكررة، وما زال يعيش تحت الحماية إلى اليوم.[٢٠]

فما هو القاسم المشترك بين هؤلاء؟ لماذا هم مطلوبون أحياء أو أمواتًا؟ لماذا يحاول مسلمون من خلفيات كثيرة قتلهم؟ إذا كانت القاعدة والجماعات الإسلامية مجرد استثناء في العالم الإسلامي، فلماذا تقوم المظاهرات في العالم الإسلامي أجمع احتجاجا على رسم كاريكاتوري لمحمد؟ لماذا يحرق المسلمون السفارات ويطالبون بإعدام الفعلة؟

---

١٥. روسيا اليوم، «القس تيري جونز يحرق نسخة من المصحف مجددا ويبث المشهد على الانترنت».
١٦. سي إن إن بالعربية، «مصر: استنكار واسع للفيلم «المسيء» وتوقيته يثير الشكوك».
١٧. سي إن إن بالعربية، «منتج فيلم «فتنة» يهاجم الإسلام والنبي ويتلاعب بعلم السعودية».
18. The Washington Times, “BOOK REVIEW: ‘Marked for Death’.”
19. New York Magazine, “These 10 People Were Also Named Al Qaeda’s Most Wanted.”
٢٠. قناة الحرة، «كتاب جديد عن حياة سلمان رشدي متخفيا بعد إهدار دمه».

النصوص الإسلامية تحرض على قتل ناقد الرسول

إن القاسم المشترك بين كل هؤلاء هو أنهم أهانوا النبي محمدًا، أنهم شتموه أو سبوه بطريقة أو بأخرى. وإهانة محمد في الإسلام ذنب يستحق القصاص.. يستحق القتل. فلا غرابة أن ينفذ الأخوان كواشي القتل في حق صحفيي جريدة شارلي إيبدو، لأن الدافع ليس هو مجلة القاعدة «إنسباير»، ولا تحريضات الشيخ المسلم اليمني أنور العولقي، بل النصوص الإسلامية التي تُعَلِّمُنَا منذ الصغر أن شاتم الرسول يقتل لا محالة، وأن الرسول قتل من شتمه، وأن الصحابة فعلوا الأمر نفسه. فالقاعدة الإسلامية المعروفة سهلة وبسيطة: من يشتم الرسول يُقتَل. لذلك نجد أن قاتل فان غوخ المغربي، الذي يحمل الجنسية الهولندية شَكْلاً لكنه يحمل الهوية الإسلامية مضموناً، قال في المحكمة موجها كلامه إلى أم فان غوخ:

> أنا أتحمل المسؤولة الكاملة عن أفعالي. لقد تصرفت باسم ديني.. لو أطلق سراحي يوما ما فإنني سأفعل الشيء ذاته بالضبط.. لقد تصرفت انطلاقا من إيماني، وليس لأنني أكره ابنك.[٢١]

وعن مسألة الاعتذار لأمه قال: «لا أستطيع أن أشعر معك لأنني أعتقد أنك كافرة.»[٢٢] هل هذه كلمات لا علاقة لها بالدين ولا بالعقيدة؟ إلى متى اللف والدوران في الإشارة إلى منابع هذه الأفعال؟ تقول لائحة القاعدة بكل صراحة إن هؤلاء مطلوبون «لإساءتهم للإسلام». وتطلب المجلة من المسلمين الغيورين «الدفاع عن نبيهم محمد».[٢٣] فالدفاع عن محمد واسمه وشرفه من أقدس المقدسات عند المسلم. وإذا قُتِل أي مسلم في سبيل قتلِ من أساء إلى محمد، فإنه حتما سيدخل الجنة، لأنه سيكون شهيدا في سبيل

٢١. العربية نت، «قاتل المخرج الهولندي: لو عاد الزمان لقتلته مجددا ولا أعتذر لأمه «الكافرة»».
٢٢. نفس المصدر.
٢٣. مجلة إنسباير، العدد العاشر، الصفحات ١٤-١٥.

الله، وفي سبيل الإسلام. فمن أجل هذا كان يصرخ قاتل صحفيي مجلة شارلي إيبدو: «لقد انتقمنا للنبي!» نعم لقد انتقموا للنبي. فالصحفيون أهانوا النبي وهؤلاء ردوا الإهانة بالجزاء الذي يخصصه الإسلام لمن يهين النبي، وهو القتل.

أين توجد هذه التعاليم التي تحض على قتل من يسيء إلى النبي محمد؟ إذا قمنا بعملية فلاش باك، إلى الماضي، وبالتحديد إلى عصر محمد، نجد شخصًا شتم محمدًا وانتقده.[٢٤] كان يهوديا اسمه كعب بن الأشرف، فاستشاط محمد غضبا فقال: «مَن لكعبِ بنِ الأشرف، فإنه قد آذى اللهَ ورسولَه؟ قال محمدُ بنُ مَسلمةَ [أحد أصحاب محمد]: أتحب أن أقتلَهُ يا رسولَ الله؟ قال: نعم... فلم يَزَل يكلِّمهُ حتى استَمكنَ منه فقتله.»[٢٥] نفّذ الأخوان كواشي نفس ما قام به محمد بن مسلمة حين تَسَلَّمَ أوامر القتل من النبي محمد نفسه. ولو قال محمد اليوم: «من لصحفيي شارلي إيبدو؟ فإنهم قد آذوا الله ورسوله» لأجابه سعيد كواشي: «أتحب أن نقتلهم يا رسول الله؟» وهكذا تتم القصة.

تُعَدّ قصة قتل كعب بن الأشرف سابقة يعتمد عليها الفقهاء ليحددوا الحكم الذي ينبغي أن ينزل بمن «يؤذي الرسول». ومعنى الأذى هنا هو الأذى المعنوي، مثل انتقاده أو رسمه بغرض السخرية منه. استخدم كعب بن الأشرف شِعْرَهُ لانتقاد النبي، في حين أن صحافيي شارلي استخدموا أقلامهم. لكنهم كلهم دفعوا ضريبة حرية التعبير من دمائهم بسبب التعاليم المحمدية. وينقل لنا ابن حجر العسقلاني، الفقيه المصري من القرن الرابع عشر والخامس عشر، أقوال الفقهاء في هذا الحديث فيقول «في قوله: «من لكعب بن الأشرف؟» جواز قتل من سب رسول الله.»[٢٦] لقد استنتج الفقهاء أنه يجوز لهم قتل من سب النبي لأن محمدا قد فعل ذلك.

---

٢٤. «فجعل يشبب بنساء المسلمين ويهجو النبي (ص) وأصحابه»، البداية والنهاية ٤: ٦.
٢٥. صحيح البخاري ٣: ١١٠٣، كتاب الجهاد والسير، باب «الكذب في الحرب».
٢٦. فتح الباري في شرح صحيح البخاري ٥: ٤٤٢.

الأمـور واضحـة الوضـوح كلـه، ولا تشـكل معضلـة إلاّ عنـد الذيـن يريـدون أن يسـتبعدوا الإسـلام بأيـة وسـيلة كانـت، حـتى لـو كانـت على حسـاب الانسـلاخ مـن عـصر النـبي نفسـه. وحينئـذ لـن يكـون الإسـلام إسـلامًا. الأمـر الواضـح هـو أن أي انتقـاد للنـبي أو لـشيء متعلـق بـه يُعـد سـبا في حقـه يسـتوجب العقـاب وهـو القتـل.

يـروي لنـا التاريـخ الإسـلامي أن عبـد الله بـن أُبَي بـن سـلول أحـد الذيـن يطلـق عليهـم المسـلمون لقـب «رأس المنافقـين» (مـا يعـني أنـه كان مسـلما في الظاهر فقط في نظرهـم) قـال مـرة لمحمـد الذي أتـاه يركـب حمـارًا: قـال له «إِلَيْـكَ عَـنِّي. فَـوَاللهِ لَقَـدْ آذَانِي نَـتْنُ حِمَـارِكَ.»[٢٧] فلـم يتقبـل أصحـاب محمـد هـذا النقـد البسـيط رغـم أنـه عـن حمار محمـد لا عـن محمد نفسـه، فانتفـض أحـد أصحابـه ورد عليـه: «وَاللهِ! لَحِمَـارُ رَسُـولِ اللهِ أَطْيَـبُ رِيحاً مِنْـك.»[٢٨] فغضـب لـكل واحـد قومـه وصـارت هنـاك معركـة بـين الإثنـين بسـبب حمـار النـبي، «فَـكَانَ بَيْنَهُـمْ ضَرْبٌ بِالجَرِيـدِ وَبِالأَيْـدِي وَبِالنِّعَـالِ،»[٢٩] فاضطـر الله نفسـه إلى أن يُـنَزِّلَ فيهـم آيـة مـن القـرآن تتحـدث عـن هـذه المعركـة تقـول: «وَإِن طَائِفَتَـانِ مِـنَ الْمُؤْمِنِـينَ اقْتَتَلُـوا فَأَصْلِحُـوا بَيْنَهُمَـا فَـإِن بَغَـتْ إِحْدَاهُمَـا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُـوا الَّـتِي تَبْغِي حَـتَّى تَـفِيءَ إِلَى أَمْـرِ اللهِ».[٣٠] إذا كان المسـلمون الأوائـل لـم يحتملـوا النقـد الموجـه إلى حمـار النـبي نفسـه ومحمـد بينهـم، فكـم بالأحـرى اليـوم خصوصـا إذا كان النقـد موجهـا لمحمـد نفسـه لا لحمـاره. فـلا نسـتغرب أن المسـلمين وحدهـم دون بـاقي الأديـان يحاولـون الانتقـام لانتقـاد نبيهـم بالقتـل والتدمـير. فمجلـة شـارلي إيبـدو انتقـدت أديانـا أخـرى وشـخصيات دينيـة مسـيحية ويهوديـة ولـم يعتـد عليهـم أحـد، لكـن بعـض المسـلمين ظلـوا يهـددون وينتقمـون مـن شـارلي إيبـدو حـتى اسـتطاع أحدهـم تنفيـذ واحـدة مـن أبشـع الجرائـم الممارسـة ضـد حريـة التعبـير في العـصر الحديـث.

٢٧. صحيح البخاري ٢: ٩٥٨، كتاب الصلح، باب «ما جاء في الإصلاحِ بيْن الناسِ».
٢٨. نفس المصدر.
٢٩. نفس المصدر.
٣٠. سورة الحجرات، الآية ٩.

الدول الإسلامية بين الدين والنفاق السياسي

إن حكم قتل من سب النبي أو استهزأ به أو انتقص منه حكم متفق عليه عند علماء الإسلام. فمثلا، يقول الشيخ بن باز مفتي السعودية السابق في موقع الرئاسة العامة السعودية للبحوث والإفتاء، وهو موقع سعودي حكومي رسمي:

> نقل غير واحد من أهل العلم إجماع العلماء على كفر من سب الرسول الكريم أو تنقصه، وعلى وجوب قتله... أجمع عوام أهل العلم على أن حد من سب النبي (ص) القتل... ولا شك أن السب يتنوع أنواعًا كثيرة، ولا ريب أن الاستهزاء به (ص) وتنقصه وتمثيله بحيوان حقير من أقبح السب وأعظم التنقص، فيكون فاعل ذلك كافرًا حلال الدم والمال.[٣١]

ومن الغريب أن تعلّم السعودية أن شاتم الرسول ومنتقصه حلال الدم والمال، ثم تدين الاعتداءات على صحفيي شارلي إيبدو![٣٢]

ترى لو كان صحفيو شارلي إيبدو في السعودية، فهل كان حالهم سيكون أفضل؟ لا أدري في أية خانة أصنف تصريح المملكة حين صرح أحد مسؤوليها الرسميين قائلا «إن المملكة إذ تدين وتستنكر بشدة هذا العمل الإرهابي الجبان الذي يرفضه الدين الإسلامي الحنيف.»[٣٣] فهل الدين الإسلامي فعلا يرفض قتل الذين يستهزئون بمحمد؟ إنه النفاق السياسي مجسدًا على أرض الواقع. فموقعها الرسمي يبيح دماءهم ومسؤولوها يعزون باريس في قتلاها. هذه هي الشيزوفرينيا التي يعيشها العالم الإسلامي، حيث تعلّم الدول أبناءها كره الغرب الكافر بطرق شتى ووسائل متعددة، بدءًا من المسجد والمدرسة إلى الصحف والمواقع، وتعقد في الوقت نفسه تحالفات

٣١. مجلة البحوث الإسلامية، «من استهزأ بالرسول العظيم (ص)»، المجلد السادس، جزء ٥، صفحة ٢٥٤.
٣٢. العربية نت، «السعودية تدين الهجوم الإرهابي على مجلة شارلي إيبدو».
٣٣. نفس المصدر.

مع الدول الغربية وتدعي صداقتها. ومن المؤسف أن هذه الخدعة تنطلي على الدول الغربية منذ سنين ولم تستفق بعد لتستوعب أن ما يحصل هو ازدواجية قاتلة.

حان الوقت لإلزام الدول الإسلامية بتحمل مسؤولياتها، إما أن تعلن العداء علانية وصراحة، أو تتوقف عن انتهاج سياستين متناقضتين واحدة للداخل وأخرى للخارج، واحدة لاستهلاك المواطنين وواحدة لذر الرماد في عيون المراقبين. يقول موقع قطر الرسمي هو الآخر في مقال يحمل عنوان «الحكم الشرعي في من سب الرسول»: «شاتم النبي (ص) يقتل سواءٌ كان مسلمًا أو كافرًا».[٣٤] وبطبيعة الحال، دانت قطر الهجوم على شارلي بشدة،[٣٥] والمساكين يصدقون هذا النفاق.

إن مشاركة الدول الإسلامية في التنديد بمجزرة شارلي إيبدو ضرورة سياسية وليست قناعة دينية. بل إن المغرب مثلاً انسحب ممثله من المسيرة[٣٦] التي نظمت يوم الأحد ١١ يناير ٢٠١٥. والسبب، بطبيعة الحال، بالنسبة لممثل المغرب هو رفع صور مسيئة للنبي وللإسلام أثناء المظاهرة! إنه موقف مضحك، وكأن المغرب يقول: نحن ندين من يقمع حرية التعبير بالرصاص، لكن لسنا مع حرية التعبير! فهل سيدين ملك المغرب قتل من سبوا النبي محمدًا، ولاسيما أنه جده الأكبر (كما يقول)، والذي لولاه لما كان يجلس على عرش المغرب اليوم؟ لقد وجد المغرب مخرجا بحيث يلقي اللوم على الذين رفعوا الرسوم أثناء المظاهرة، وبالتالي لا يمشي في مسيرة تكريما لضحايا من شتموا الجد الأكبر للملك العلوي الشريف.

كتب الشيخ السعودي محمد صالح المنجد على موقعه فتوى تحمل عنوان «حكم من سب النبي (ص)»، وهي تقول:

٣٤. إسلام ويب، «الحكم الشرعي فيمن سب الرسول (ص)».
٣٥. دويتشه فيله بالعربية، «إدانة عربية "شديدة" للهجوم على شارلي إيبدو».
٣٦. هسبريس ، ««رسوم مسيئة» تخرج مزوار من «مسيرة شارلي»».

> أجمع العلماء على أن من سب النبي (ص) من المسلمين فهو كافر مرتد يجب قتله .. فعُلِم من هذا أن النبي (ص) كان له أن يقتل من سبه ومن أغلظ له، وهو بعمومه يشمل المسلم والكافر.[٣٧]

وقد حُذفت هذه الفتوى بعد أن أشرت إليها في تويتر وتداولها الناس. ولحسن الحظ، احتفظتُ بنسخة منها احتياطا.

انتقاد محمد خط أحمر يستوجب القتل

إن حالات التهديد والخطر الدائم الذي يُحْدِقُ بكل من ينتقد الإسلام أو ينتقد محمدا أو يسخر منه خير شاهد على أن العالم الإسلامي كله لا يتقبل النقد في حق نبيه، ولا يمكن أن يكون هذا مصادفة. فالتعاليم الإسلامية تحوي عقيدة تحتم على المسلمين قتل من ينتقد نبيهم. فالقرآن يقول مثلا: «وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ».[٣٨] لقد جعل الطعن في الدين ناقضا للعهود ومستوجبا للقتال. وبهذا الخصوص، يقول القرطبي أحد كبار مفسري القرآن (في القرن الثالث عشر): «استدلّ بعض العلماء بهذه الآية على وجوب قتل كلّ من طعن في الدّين؛ إذ هو كافر»[٣٩] إذن الطعن في الدين الإسلامي يستوجب القتل. إن المنفذين، من أمثال المعتدين على الرسامين أو الأخوان كواشي، هم ضحايا هذه التعاليم. وهم بطبيعة الحال يتحملون مسؤولية أعمالهم، لكن هناك تعاليم تتحمل أيضا المسؤولية، بل ربما مسؤولية أعظم من المنفذين.

تخيل طفلا صغيرا يتعلم منذ الصغر أن شاتم الرسول يُقتل .. يتعلم ذلك في البيت، وفي المدرسة، وفي المسجد. فما هو رد فعله حين يرى رسما كاريكاتوريا

---

٣٧. الإسلام سؤال وجواب، «حكم من سب النبي (ص)»، فتوى رقم ٢٢٨٠٩.
٣٨. سورة التوبة، الآية ١٢.
٣٩. تفسير القرطبي ٨: ٨٦.

لمحمد وهو يحمل قنبلة على رأسه؟ سيكون أول رد فعل عنده استدعاء ما خزنه في لاشعوره وفي ذاكرته كل هذه السنين. وبالتالي، فإن التعاليم هي المسؤول الأول عن الحالة التي نعيشها، وإلا كيف نفسر خروج الملايين في مظاهرات غاضبة يكسرون ويحرقون ويحطمون فقط بسبب رسوم كاريكاتورية؟

قال شريف كواشي، الأخ الأصغر، (٣٢ سنة) في اتصاله مع الإذاعة الفرنسية «بي إف إم» أثناء محاصرته من طرف رجال الأمن بعد ثلاثة أيام من المطاردة: «لقد أرسلني ـ أنا شريف كواشي ـ تنظيم القاعدة في اليمن. ذهبت إلى هناك وأنور العولقي هو الذي قدم لي التمويل.»[٤٠] وفي تسجيل نشرته مؤسسة الملاحم بعد أيام من المجزرة، قال فيه حارث الضاري،[٤١] أحد قيادات القاعدة في اليمن:

> ظن أعداء رسول الله، الذين كفروا به، وكذبوه وآذوه، الأنجاس من أبناء فرنسا، ظنوا أن الله لن ينتصر لرسوله، وحسبوا أنهم في مأمن من حكم الله عليهم، وتربصوا ثم تربصوا، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وأمكن منهم، وعذبهم بأيدي المؤمنين. «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ».[٤٢] لقد أساء بعض أبناء فرنسا الأدب مع أنبياء الله، فثار إليهم نفر من جند الله المؤمنين، فعلموهم الأدب وحدود حرية التعبير، جاءكم جند يحبون الله ورسله، لا يهابون الموت، ويعشقون الشهادة في سبيل الله.[٤٣]

٤٠. فرانس ٢٤، «فيديو: أحد منفذي هجوم «شارلي إيبدو» يقول إنه تلقى تمويلا من القاعدة في اليمن».
٤١. هو أحد أعضاء حزب التجمع اليمني للإصلاح بزعامة عبد المجيد الزنداني، ثم صار أحد قيادي القاعدة، قُتل بعد ذلك في غارة بطيارة أمريكية دون طيار يوم ٣١ يناير ٢٠١٥، انظر العربية نت «مقتل قيادي القاعدة حارث النظاري مهندس اعتداءات باريس».
٤٢. سورة التوبة، آية ٥٢.
٤٣. چست بست إت، ««أفلحت الوجوه»: كلمة حول الغزوة المباركة في باريس».

بعد ذلك تبنى التنظيم صراحة العملية في فيديو نشرته مؤسسة الملاحم (إحدى الأذرع الإعلامية لتنظيم القاعدة) بعنوان «ثأرا لرسول الله... رسالة بشأن غزوة باريس المباركة». ويظهر من العنوان أن العملية عدَّت ثأرا لمحمد، وأنها سميت غزوة تماما كما كان محمد وأصحابه يسمون الهجوم البربري على القبائل المجاورة بالغزوات المباركة. ويستهل الفيديو بآية قرآنية تقول: «إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ.»[٤٤] ثم بعدها تأتي كلمة صوتية للزعيم السابق لتنظيم القاعدة أسامة بن لادن يقول فيها: «فإن كانت حرية أقوالكم لا ضابط لها، فلتتسع صدوركم لحرية أفعالنا.»[٤٥] ثم تأتي كلمة أحد قيادات القاعدة في اليمن، الشيخ نصر بن علي الأنسي:

> أما عن غزوة باريس المباركة فإننا في تنظيم قاعدة الجهاد في جزيرة العرب، نتبنى هذه العملية، ثأرا لنبينا (ص) ونوضح للأمة أن الذي اختار الهدف ورسم الخطة ومول العملية وانتدب قائدها هم قيادة التنظيم استجابة لأمر الله ونصرة لرسول الله (ص)، ثم تنفيذا لأمر أميرنا العام الشيخ المفضال «أيمن بن محمد الظواهري» حفظه الله، وتنفيذا لوصية الشيخ «أسامة بن لادن» رحمه الله، وكان التنسيق مع قائد العملية عبر الشيخ «أنور العولقي» رحمه الله، الذي ضاق به الغرب ذرعا في حياته وبعد استشهاده... وقد قام بتنفيذ هذه الغزوة المباركة بطلان من أبطال الإسلام، هما الأخوان شريف وسعيد كواشي رحمهما الله تعالى.[٤٦]

رغم أن تنظيم الدولة لم يكن وراء مجزرة شارلي إيبدو، ورغم أنه انشق عن تنظيم القاعدة وعلى خلاف مع جبهة النصرة (التابعة للقاعدة)، بل يقاتلها في الميدان، فإنه بارك عمليات باريس ونشر فيديو مصورا من الرقة سمّاه «اللقاءات حول عمليات فرنسا المباركة». الفيديو عبارة عن لقاءات مع

---

٤٤. سورة الحجر، آيات ٩٥، ٩٦.

٤٥. مؤسسة الملاحم، فيديو «رسالة بشأن غزوة باريس المباركة».

٤٦. نفس المصدر.

فرنسيين من الملتحقين بتنظيم الدولة يدلون برأيهم في ما حصل ويعلقون عليه. قال أحدهم وهو يحمل سلاحا في يده:

> كان من المفروض أن يحصل هذا [يقصد قتل صحفيي شارلي إيبدو] منذ زمن طويل، لأن الطواغيت في فرنسا وأوروبا يريدون تدمير الإسلام الصحيح.. وعمليات كهذه ستتواصل في كل أوروبا... في فرنسا وبلجيكا وألمانيا وسويسرا وكل أوروبا وأمريكا بإذن الله تعالى.. أقول للإخوة الذين لم يستطيعوا الهجرة إلى الخلافة الإسلامية، أقول حاولوا أن تقوموا بكل ما تستطيعون..اقتلوهم..اذبحوهم..أحرقوا سياراتهم ومنازلهم.

ثم يأتي فرنسي آخر من الملتحقين بالتنظيم ليقول: «إن لم تستطيعوا الهجرة فاعملوا للإسلام من مكانكم، لقد وصلتنا أخبار جيدة أن الإخوة دافعوا عن الإسلام، وأرسلوا كل من سَخِر من الرسول إلى النار، واصلوا إرسالهم إلى النار.» ثم يظهر فرنسي آخر يبدو أنه من أصول شمال إفريقية يحمل السلاح في يده ويقدم نصيحة لإخوانه في فرنسا على نحو التحديد:

> إذا رأيتم شرطيا فاقتلوه، اقتلوهم جميعا، اقتلوا كل الكفار الذين ترونهم في الشوارع، حتى ترعبوهم... [ثم يرفع رشاشه ويقول:] هذا هو الطريق الحقيقي للكرامة، طريق الفخر، العزة في الجهاد في سبيل الله.[٤٧]

بثّ تنظيم الدولة هذا الفيديو لسببين: أولا، كدعاية له لكي يشجع الذئاب المنفردة على القيام بمزيد من العمليات المماثلة، وثانيا، حتى يوضح موقفه من عمليات كهذه حتى لو كانت من تنفيذ فصائل أخرى. ويبدو أن القاعدة وتنظيم الدولة يتفقان على الكثير من الأشياء رغم اختلافهما. ومن أهم ما يتفقان عليه وجوب قتل من ينتقد محمدا أو الإسلام. كما أن تنظيم الدولة

٤٧. إعلام ولاية الرقة، «الإصدار المرئي: لقاءات حول عمليات فرنسا المباركة»، فيديو.

ينفذ كل شهر عمليات قتل ضد متهمين اتهموا بالردة أو بشتم الرسول. وغالبا ما تتم هذه الإعدامات في ساحات عامة بحيث يحضرها العامة من المسلمين للفرجة، وتتم عبر إطلاق النار على الرأس أو بضرب الرقبة بالسيف.

إجماع على قتل «شاتم الرسول»

لقد سن محمد سنة القتل ضد كل من ينتقده أو عدَّ في نظره شاتما له. إذ جاء في حديث رواه ابن عم محمد، علي بن أبي طالب: «يَهُودِيَّةً كَانَتْ تَشْتِمُ النَّبِيَّ (ص) وَتَقَعُ فِيهِ، فَخَنَقَهَا رَجُلٌ حَتَّى مَاتَتْ فَأَبْطَلَ رَسُولُ الله (ص) دَمَهَا.»[48] يعني أن محمدا عدَّ دمها بلا قيمة، فلا عقوبة تنزل بمن قتلها. لقد كان محمد يشجع قتل الذين يسبونه أو ينتقدونه، ويعفو عن القاتل بكل سهولة، بل يمتدحه. يروي ابن عباس، وهو ابن عم آخر لمحمد، حكاية شخص أعمى قتل زوجته بسبب أنها شتمت الرسول فيقول:

> إِنَّ أَعْمَى كَانَتْ لَهُ أُمُّ وَلَدٍ تَشْتِمُ النَّبِيَّ (ص) وَتَقَعُ فِيهِ، فَيَنْهَاهَا فَلا تَنْتَهِي وَيَزْجُرُهَا فَلاَ تَنْزَجِرُ قَالَ فَلَمَّا كَانَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ جَعَلَتْ تَقَعُ فِي النَّبِيِّ (ص)، وَتَشْتِمُهُ، فَأَخَذَ المِغْوَلَ فَوَضَعَهُ فِي بَطْنِهَا وَاتَّكَأَ عَلَيْهَا فَقَتَلَهَا فَوَقَعَ بَيْنَ رِجْلَيْهَا طِفْلٌ فَلَطَخَتْ مَا هُنَاكَ بِالدَّمِ... فَلَمَّا أَصْبَحَ ذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ (ص) فَجَمَعَ النَّاسَ فَقَالَ: أَنْشُدُ الله رَجُلاً فَعَلَ مَا فَعَلَ لِي عَلَيْهِ حَقٌّ إِلاَّ قَامَ، قَالَ: فَقَامَ الأَعْمَى يَتَخَطَّى النَّاسَ وَهُوَ يَتَزَلْزَلُ حَتَّى قَعَدَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ (ص)، فَقَالَ يَا رَسُولَ الله أَنَا صَاحِبُهَا كَانَتْ تَشْتِمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ فَأَنْهَاهَا فَلاَ تَنْتَهِي، وَأَزْجُرُهَا فَلاَ تَنْزَجِرُ وَلِي مِنْهَا ابْنَانِ مِثْلَ اللُّؤْلُؤَتَيْنِ، وَكَانَتْ بِي رَفِيقَةً، فَلَمَّا كَانَ الْبَارِحَةَ جَعَلَتْ تَشْتِمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ، فَأَخَذْتُ المِغْوَلَ[49] فَوَضَعْتُهُ فِي بَطْنِهَا وَاتَّكَأْتُ عَلَيْهَا حَتَّى قَتَلْتُهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ (ص): أَلاَ اشْهَدُوا أَنَّ دَمَهَا هَدَرٌ.[50]

---

٤٨. سنن أبي داود ١٢: ١٨، كتاب الحدود، باب «الحكم في من سب النبي».
٤٩. المِغْوَل: سوط في جوفه سيف.
٥٠. نفس المصدر صفحة ١٥.

هل اهتم محمد بموضوع الطفلين اللذين يتّمهما والدهما الأعمى بقتل أمهما؟ هل وبخ محمد الأعمى على قتله لزوجته ولا سيما أنها كانت تعتني به كونه أعمى يحتاج إلى مساعدتها في أمور كثيرة؟ إذ قد اعترف قائلًا: «كانت بي رفيقة.» كان كل ما يهم محمد أن الرجل قد قتل من كانت تشتمه، وبالتالي لم يكن لدمها أية قيمة. وأما أولادها فلهم الله. فلا يهم أن يعيشوا حياتهم أيتامًا. فالمهم أن شاتمة النبي قد قتلت.

ما الذي يجري في خلد مسلم حين يقرأ هذه القصة؟ رجل قتل زوجته، حبيبته التي تنام معه في الفراش نفسه وتتقاسم معه أغلى شيء عندها، لمجرد نقاش حول شخص ادعى النبوة اعترضت عليه، وانتقدته، وعيرته، فقام وذبحها لأجل ذلك. ومع ذلك تعُدّه الكتب الإسلامية بطلا يجب تخليده في الكتب، لا مجرما يجب توبيخه على ما فعل. هل تشجع هذه القصص المسلمين على السلام وعلى تقبل النقد؟ هل تشجع المسلمين على رد النقد بالنقد أم بالسيف؟ هذه القصص موجودة في كتب يتعلم منها أبناء المسلمين في العالم الإسلامي كله، ويستمدون منها قيمهم الروحية والأخلاقية. فإذا انتهى بهم الأمر إلى القتل، فمن المحتم أن تتحمل هذه القصص وهذه الكتب العبء الأكبر في ذلك.

كَتَبَ علماء الإسلام مؤلفات خاصة تعالج أحكام من ينتقد الرسول، ومن بينها كتاب اسمه «السيف المسلول على من سب الرسول» كتبه عالم مسلم مصري اسمه تقي الدين السبكي في القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادي. وألف الشيخ المعروف ابن تيمية كتابا سمّاه «الصارم المسلول على شاتم الرسول» في الحقبة نفسها. وتَصْدُرُ اليوم هذه الكتب بطبعات مختلفة وتباع في العالم العربي والإسلامي كله، بل تباع في البدان الغربية أيضا. وهي كتب تحرض بكل وضوح على قتل كل من شتم محمدا أو سبه، مع العلم أن تعريف السب في هذه الكتب هو كل انتقاص يوجه إلى شخص محمد.

وبالتالي، فإن من كذّب نبوة محمد علانية مثلا يستحق القتل بحسبها. لا تباع هذه الكتب في المعارض فحسب، بل تدرس محتوياتها في الجامعات وفي المدارس، ولا سيما المدارس الدينية وتعدّ مرجعا يعول عليه. بل إن تحقيق إحدى الطبعات كان موضوع رسالتي ماجستير في السعودية.[٥١] وعادة ما تتضمن أغلفة هذه الكتب رسم سيف .. السيف المحمدي المسلط على رقاب كل من ينتقد محمدا أو الدين الإسلامي.

لخص ابن تيمية صاحب كتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول موضوع كتابه في أربع مسائل:

> المسألة الأولى: في أن السابّ يقتل سواء كان مسلما أو كافرا، المسألة الثانية: في أنه يتعين قتله وإن كان ذميا، فلا يجوز المن عليه ولا مفاداته،المسألة الثالثة: أنه يقتل ولا يستتاب سواء كان مسلما أو كافرا. المسألة الرابعة: في بيان السب المذكور والفرق بينه وبين الكفر.[٥٢]

يلخص هذا الكتاب أقوال محمد وأفعاله بخصوص من «شتمه» أو «انتقص منه»، ويتضمن أقوال الصحابة وأفعالهم تجاههم أيضا، وأقوال العلماء وأحكامهم. ويظهر من العنوان ملخص الكتاب، أن شاتم الرسول يستحق القتل بالسيف. وكتب في مقدمة الكتاب أحد كبار علماء الإسلام في السعودية، الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد، وهو رئيس مجمع الفقه الإسلامي الدولي، وعضو في هيئة كبار العلماء في السعودية ما يلي:

---

٥١. طبعة ١٩٩٧ من «الصارم المسلول على شاتم الرسول» عن دار النشر رمادي، الدمام، المملكة العربية السعودية.

٥٢. الصارم المسلول على شاتم الرسول ١: ١٦٦.

> وقد أجمع المسلمون على أن من سب الرسول فهو كافر قطعا، ساع في الأرض بالفساد، ويجب الإنتصار له بقتل الساب، وليس لأحد من الأمة العفو عن ذلك، وهذا من تطهير الأرض، وتمام ظهور الإسلام.[٥٣]

هذا رأي عالم معاصر من كبار علماء الإسلام.

يورد ابن تيمية في كتابه هذا مقولة للخطابي، أحد كبار علماء المسلمين من القرن العاشر الميلادي، يقول فيها: «لا أعلم أحدا من المسلمين اختلف في وجوب قتله [يقصد قتل الساب].»[٥٤] وقد ذكر المؤلف أيضا قولا لأحد أهم علماء الإسلام قديما والذي أُسِّس مذهب كامل باسمه، وهو الإمام أحمد بن حنبل (وعليه سمي المذهب الحنبلي) فقيه بغداد في القرن الثامن والتاسع الميلادي. قال: «كل من شتم النبي أو تنقصه ـ مسلما كان أو كافرا ـ فعليه القتل، وأرى أن يُقتل ولا يستتاب.»[٥٥]

أما مالك، وهو مؤسس المذهب المالكي (القرن الثامن الميلادي)، فقد قال: «من سب رسول الله أو شتمه أو عابه أو تنقصه قُتل، مسلما كان أو كافرا، ولا يستتاب.»[٥٦] بل إن من عدَّ ثياب النبي متسخة بقصد الإهانة يعدّ سابا للنبي عند علماء الإسلام. فقد قال مالك: «من قال إن رداء النبي وسخ، وأراد به عيبه قُتل.»[٥٧] بل هناك من قُتل بسبب أنه قال بأن النبي كان «أسود البشرة».[٥٨] وهناك من قتل لأنه شبهه برجل كان قبيح الوجه فقال: «تريدون أن تعرفوا صفته؟ هي صفة هذا المار في خَلقِه ولحيته.»[٥٩] بل إن يهوديا مر بمؤذن يقول «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله»، فقال

٥٣. نفس المصدر ١: ٨.
٥٤. نفس المصدر ٢: ١٥.
٥٥. نفس المصدر ٢: ١٦.
٥٦. نفس المصدر ٣: ٩٧٩.
٥٧. نفس المصدر.
٥٨. نفس المصدر ٣: ٩٨٠.
٥٩. نفس المصدر.

اليهودي «كَذِبتَ» يقصد المؤذن. فتم قتله لأجل تعليقه ذاك بناء على أوامر الإمام أحمد بن حنبل.[٦٠]

قال مسيحي ذات مرة إن الله فضل المسيح على محمد فأمر به أبو مصعب الهلالي، وهو فقيه مسلم كبير وابن أخت الإمام مالك، عاش في القرن الثامن والتاسع الميلادي، أمر بضرب المسيحي وقتله وأمر مَنْ جره من رجله ورماه في مزبلة فأكلته الكلاب.[٦١] ومع وجود هذه الشواهد كلها، تجد من يقول إن تنظيم الدولة والقاعدة والأخوان كواشي لا علاقة لهم بالإسلام. فهل الإمام أحمد، والإمام مالك، والقاضي عياض، وابن تيمية... لا علاقة لهم بالإسلام؟ فمن له علاقة بالإسلام إذا كان مؤسسو مذاهبه ليسوا بمسلمين؟

لقد تربينا منذ الصغر على عدم قبول نقد الإسلام أو النبي محمد أو القرآن، واعتبار من تجرأ على ذلك وكأنه ارتكب جريمة كبرى. لذلك لم نتقدم في حرية التعبير في البلدان الإسلامية. وإلى اليوم ما زالت حرية التعبير في أولى مراحلها. وما زال الكُتَّاب يتم تكفيرهم ويتم تهديدهم بالقتل، ويتم إخراس كثيرين إلى الأبد من شدة الإرهاب والتخويف الممارس ضدهم. والمصيبة أن هذا التهديد يطال البلدان الغربية. وبالتالي، يخاف الكثيرون من التحدث علانية عن الإسلام وانتقاده. والرسوم الكاريكاتورية خير دليل، وأزمة البابا بنديكتس التي ثار فيها العالم الإسلامي ضد البابا هي الأخرى دليل على ذلك.

٦٠. الصارم المسلول على شاتم الرسول ٣: ٩٩٦.
٦١. نفس المصدر ٣: ٩٩٧.

منع انتقاد محمد تحت ستار قوانين ازدراء الأديان

توجد في بلدان إسلامية كثيرة قوانين تمنع انتقاد الدين الإسلامي ولكنها تموّهها بوضعها تحت بند «ازدراء الأديان»، وتمنع انتقاد محمد تحت بند منع «سب الأنبياء» مع العلم أنني لم أر العالم الإسلامي يقوم بمظاهرة ضد من ينتقد المسيح مثلا. فإن كانوا فعلا يثورون لأجل كل الأنبياء، فلماذا نجد روايات ضد المسيح مترجمة إلى اللغة العربية (مثل رواية شيفرة دافنشي) وتباع في الكثير من البدان الإسلامية بكل حرية، لكن لا تسمح الدول الإسلامية بأي كتاب ينتقد محمدا؟ أصدرت الإمارات مرسوما قانونيا يمنع انتقاد الإسلام والنبي محمد تحت بند ازدراء الأديان، وينص على السجن بمدة لا تقل عن سبع سنوات لمن «تطاول على الذات الإلهية أو الطعن فيها أو المساس بها أو الإساءة إليها أو التطاول على أحد الأنبياء أو الرسل.»[٦٢] ونحن نعرف بطبيعة الحال أن المقصود بالأساس هو محمد، وأن ذكر الأنبياء هنا هو فقط للتمويه لا غير.

في نفس هذا السياق وضع المغرب أيضا مسودة لقانون جنائي يقضي بعقوبة تمتد ما بين سنة إلى خمس سنوات لكل من «قام عمدا بالسب أو القذف أو الاستهزاء أو الإساءة إلى الله أو الأنبياء والرسل.»[٦٣] وفي ٢٠١٢، أقر مجلس الأمة الكويتي عقوبة الإعدام في حق كل من يسيء إلى الله أو للرسول أو زوجاته. ووافق على القانون أربعون نائبا مقابل رفض سبعة نواب (ستة منهم شيعة وواحد ليبرالي)،[٦٤] غير أن أمير الكويت رفض تلك التعديلات القانونية،[٦٥] لا لعدم الإيمان بهذه العقوبة، بل لأنه يعلم أنها يمكن أن تشعل البلاد بسبب الصراع بين السُّنة والشيعة. فالشيعة لا يقدسون عائشة ولا صحابة محمد، بل يشتمون زوجة محمد عائشة، ولذلك فإن القانون قد يكون

٦٢. الجزيرة نت، «الإمارات تجرم ازدراء الأديان».
٦٣. المادة ٢١٩ من مسودة القانون الجنائي الذي اقترحه وزير العدل والحريات بتاريخ ٣١ مارس ٢٠١٥.
٦٤. الجزيرة نت، «الإعدام بالكويت للمسيء للذات الإلهية والنبي».
٦٥. روسيا اليوم، «أمير الكويت يرفض عقوبة الإعدام بحق من يشتم الذات الالهية والرسول».

سببا في قتل الشيعة في البلاد والتخلص منهم. ولذلك رفضه خوفا على استقرار الكويت. مع العلم أنه سبق أن دِينَ في الشهر نفسه مدون شيعي بعشر سنوات سجنا بتهمة «الإساءة للرسول محمد وزوجاته والسخرية من الإسلام في صفحته على الإنترنت».[٦٦] ومنذ سنوات تسعى السعودية ومنظمة التعاون الإسلامي إلى تمرير قانون دولي في الأمم المتحدة يمنع «ازدراء الأديان» أقصد «الدين الإسلامي»، لكن تحت ستار بقية الأديان.[٦٧] وحتى بعد حادثة شارلي إيبدو، حاولت السعودية جاهدة استغلال الحدث لإعادة إحياء فكرة هذا المشروع، حيث طالب سفير السعودية لدى الأمم المتحدة بـ «حظر استخدام أية وسيلة لبث المعلومات بطريقة مسيئة أو تشهيرية ضد الأديان أو الرموز الدينية.»[٦٨]

إن الدول الغربية والإنترنت والفضائيات هي المتنفس الوحيد للشباب الذي يعيش في البلدان الإسلامية. وتدرك السعودية وغيرها من البلدان هذا الأمر جيدا، ولذلك تريد استغلال أية فرصة لفرض قانون ازدراء الأديان على الغرب حتى يصير قانونا عالميا، وبالتالي يتم القضاء على كل إمكانية لانتقاد الإسلام. إنها مجرد الرغبة في حماية الإسلام وحماية شخص محمد من أي نقد، ولاسيما أن بعض الحكومات الإسلامية تستمد شرعية حكمها من الإسلام، فأي تهديد للإسلام هو تهديد لشرعية حكمها.

إرهاب لكل من ينتقد نبي الإسلام

في سنة ٢٠١٤، قررت أن أطلب من أحد أصدقائي أن يشتري لي المقررات الدراسية في المغرب وبشكل خاص مقررات التربية الإسلامية حتى أطلع على الموضوعات التي تدرس للتلاميذ في المدارس وعلى نحو خاص تلك المتعلقة بالعقيدة.

٦٦. روسيا اليوم، «أمير الكويت يرفض عقوبة الإعدام بحق من يشتم الذات الالهية والرسول».
٦٧. قناة الحرة، «مساع إسلامية لسن قانون عالمي لتجريم ازدراء الأديان».
٦٨. اليوم السابع، «السعودية تطالب بتجريم التشهير بالأديان السماوية والأنبياء والكتب المقدسة».

أخـذت أتصفـح أول مقـرر للتربيـة الإسـلامية للصـف الأول ابتـدائي، فوجـدت أنـه يلخـص كل درس في مقولـة أسـفل الدرس حـتى يتعلمهـا التلميـذ ويحفظهـا عـن ظهـر قلـب أو تصـير له شـعارا يكتبـه. وجـدت أحـد الدروس يُلَخـص في الجملـة التاليـة «أحـب مـن يحـب الرسـول وأعادي مـن يعاديـه.»[٦٩] عندمـا يتعلـم طفـل في السادسـة مـن عمـره أن يصـير عـدوا لـكل مـن ينتقـد محمـدا، فنحـن أمـام ماكينـة لتصنيـع الإرهابيـين الذيـن مـن المحتـم أنـه سـينتهي الأمـر بكثيريـن منهـم إلى عـدم تقبـل النقـد وعـدم تقبـل الآخـر، واحتمـال كبـير أنهـم سـيحاولون ارتـكاب العنـف ضـد كل مـن انتقـد محمـدا أو الديـن الإسـلامي[٧٠].

هـذا الأمـر أعيشـه بنفسـي على أرض الواقـع. فأنـا شـخصيا معـرض للتصفيـة في أيـة لحظـة، مطـارد مـن طـرف الإسـلاميين، ولا أسـتطيع دخـول أيـة دولـة عربيـة أو إسـلامية، وتصلـني مئـات التهديـدات بالقتـل والتصفيـة. وأحـاول أن أبـقي هويـتي بعيـدة عـن الأضـواء وأن أغـير أماكـن سـكني مـرارا، أحـاول أن لا أعطـي معلومـات كثـيرة عـن تنقـلاتي، لا لـشيء إلا لأني تجـرأت ورفضـت ثقافـة القطيـع وقـررت أن أنتقـد الإسـلام علانيـة. قـررت أن أخرج مـن الصمت وأتحـدث عـن أكـثر التابوهـات في عالمنـا الإسـلامي. ويتعاطـف شـباب كثـيرون مـعي، لأن عندهـم الأسـئلة نفسـها، والشـكوك نفسـها، لكـن كثيريـن غيرهـم أيضـا يتمنـون أن يقطعـوني إربـا إربـا، أو يحرقـوني كمـا حـرق الطيـار الأردني، أو على الأقـل يقتلـوني كمـا قتلـوا صحافـيي شـارلي إيبـدو. فلمـاذا هـذا الغيـظ؟ لمـاذا هـذا الغـل؟ إنـه نتيجـة التعاليـم الـتي نتلقاهـا في الأسرة، وفي المدرسـة، وفي المسـجد وداخـل المجتمـع نفسـه. ومـن المؤسـف أننـا لـم نتعلـم قـط ثقافـة تقبـل النقـد بـروح حضاريـة. فمـا زالـت عقليـة الصحـراء والقبيلـة تتحكـم فينـا. وقـد حـوّل الديـن الإسـلامي العـادات القبليـة العربيـة القديمـة إلى شيء

٦٩. المفيد في التربية الاسلامية صفحة ٢٦.

٧٠. قبـل الانتهـاء مـن هـذا الكتـاب وبالضبـط يـوم ٦ فبرايـر أصـدر الملـك محمـد السـادس أوامـره بمراجعـة مناهـج التربيـة الدينيـة لتصـير متسـامحة، انظـر هسـبريس «الملـك يأمـر بمراجعـة مناهـج ومقـررات تدريـس التربيـة الدينيـة».

مقدس، ولذلك صار من الصعب على العالم الإسلامي أن يتخلص منها ويدخل رحاب القرن الحادي والعشرين. ما زالت شعوبنا تحمل معها تبعات القرن السابع الميلادي.

أشار الباحث المغربي الأستاذ أحمد عصيد إلى مشكلة المناهج المدرسية والمتناقضات الموجودة فيها. فعلى سبيل المثال، فإن رسائل النبي محمد إلى الملوك التي يدعوهم فيها إلى الإسلام، والتي تتضمنها هذه المناهج، إنما هي في الحقيقة رسائل تهديد، مثل رسالة بعث بها محمد إلى هرقل. تقول الكتب الإسلامية إن محمدا بعثها ليطلب منه الإسلام حتى يسلم من حروبه وإلا فإنه سيتحمل العاقبة. تقول الرسالة:

> بسم الله الرحمن الرحيم، مِنْ مُحمدٍ عبدِ اللهِ ورَسولِهِ إلى هِرَقْلَ عظِيمِ الرُّوم. سَلامٌ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى. أمّا بعدُ فإنِّي أَدْعُوكَ بدِعايةِ الإِسْلام، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتين. فإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ عليكَ إثمَ الأرِيسِيِّين.[٧١]

هذه الرسالة عبارة عن دعوة إلى الإسلام ينبغي أن يوجهها القادة الإسلاميون إلى العالم أجمع. فإن أبوا فإنهم يعطونهم الخيار الثاني، «خيار الجزية» إن كانوا من أهل الكتاب (اليهود والنصارى)، وإن أبوا، حينها يمكن للدولة الإسلامية غزوها. يتم تلقين هذا الفكر للأطفال الصغار في المدارس. قال الأستاذ عصيد معلقا على هذا الموضوع:

٧١. صحيح البخاري ٣: ١٠٧٤، كتاب الجهاد والسير، باب «دعاء النبي الناس إلى الإسلام والنبوة».

> التلاميذ في المقررات الدراسية الموجودة حاليا يدرسون أمورا تتعارض كليا مع ما نتحدث عنه من قيم حقوق الإنسان، عندما تدرس لتلميذ الجذع المشترك في المقرر رسالة النبي محمد والتي هي رسالة تهديدية: «أَسْلِمْ تَسْلَمْ»، ثم تأتي فيما بعد وتتحدث عن حوار الأديان وعن الحريات وعن كذا، هذا الشيء متناقض، الرسالة التي تدرس في المقرر لتلامذتنا وهم في سن السادسة عشر هي في الحقيقة رسالة إرهابية لأنها ترتبط بسياق كان فيه الدين ينشر بالسيف وبالعنف، اليوم المعتقد اختيار شخصي حر للأفراد، لا يمكن أن تدرس التلميذ رسالة تقول إما أن تسلم وإما أنك ستموت، وتدرس على أنها من القيم العليا للإسلام.[٧٢]

أشارت تعليقات الأستاذ أحمد عصيد إلى كون رسائل النبي تتنافى مع روح العصر، حيث لا يمكن أن يبعث ملك أية دولة إسلامية رسالة إلى رئيس دولة أخرى يدعوه فيها إلى الإسلام أو دفع الضرائب «الجزية» أو إعلان الحرب على تلك الدولة، فلماذا ندرس تلك الرسائل للتلاميذ على أساس أنها النموذج الأمثل للدعوة إلى الإسلام؟ جلبت تصريحات الأستاذ عصيد عليه الويلات من كل جانب. فثارت ثائرة الكثير من المغاربة ضده ولاسيما رجال الدين،[٧٣] وعدّوها إساءة للنبي نفسه، لأنه إذا كانت رسائل النبي إرهابية بمقاييس عصرنا اليوم، فإن النبي إذن إرهابي. لذلك قام شيخ سلفي مغربي بتكفير الأستاذ أحمد عصيد والدعوة إلى قتله، حيث قال:

> بأن عصيد، تحدى الأمة والمشاعر والتاريخ والحضارة، ومزق أفئدة وكوى قلوبا. مضيفا، بأن أئمة السنة والجماعة، أجمعوا بكل فرقهم، على أن من أتى بمثل ما أتى به عصيد، فهو كافر كفرا يخرج به من الملّة، وحكمه القتل.[٧٤]

٧٢. هسبريس، «رسائل النبي (ص) بين الملوك المبعوثة إليهم وعصيد».
٧٣. فرانس ٢٤، «تصريحات باحث أمازيغي حول النبي محمد تؤلب ضده السلفيين...».
٧٤. منارة، «أبو النعيم يكفّر عصيد ويهدر دمه...».

وفعلا، وفي سنة ٢٠١٥ تم اعتقال خلية تابعة لتنظيم الدولة موجودة في المغرب كانت تخطط لقتل شخصيات عامة وعلى رأس القائمة طبعا الأستاذ أحمد عصيد،[٧٥] لأنه يُعد كافرا شتم النبي وعدَّه إرهابيا وبالتالي يستحق القتل مثل صحفيي شارلي إيبدو. إذا كان هذا يحدث في المغرب، وهو من أكثر البلدان الإسلامية انفتاحا، فكم بالأحرى في البلدان الإسلامية المنغلقة؟

إن عقيدة وجوب قتل سابّ الرسول هي التي تدفع تنظيم الدولة الإسلامية إلى قتل شاتم الرسول في الساحات العامة، وهي التي دفعت القاعدة إلى تنفيذ مذبحة بحق شارلي إيبدو، وهي التي دفعت البلدان الإسلامية إلى الاحتجاجات العنيفة في ٢٠٠٦ ضد الرسوم الكاريكاتورية الدنماركية، وضد تصريحات البابا بنيدكتوس السادس عشر في السنة نفسها، وهي أيضا التي أججت الاحتجاجات ضد فيلم «براءة المسلمين» في ٢٠١٢، وهي التي تهدد حياة سلمان رشدي وأحمد عصيد والآلاف غيرهم في أنحاء العالم كله. ومن بين الهجومات المتعلقة بقتل شاتم الرسول هجوم تكساس الذي حصل يوم ٣ مايو ٢٠١٥، والذي كان ضد معرض ومسابقة للرسوم الكاريكاتورية لمحمد، والذي نظمته الناشطة باميلا غيلر وروبرت سبنسر، بحضور السياسي الهولندي خيرت فيلدرز. وكان المنفذان مسلمين، وهما ألتون سمبسون (٣١سنة) ونادر صوفي (٣٤ سنة).[٧٦] وقد تبنّى تنظيم الدولة العملية قائلًا في إذاعة البيان التابعة له:

> جنديان من جند الخلافة ينفذان هجوما على معرض للرسوم في مدينة غرلاند بتكساس الأمريكية وهذا المعرض كان يقيم مسابقة للرسوم المسيئة للنبي محمد .. فقام الإخوة بإطلاق النار على المعرض، ما أدى لإصابة أحد عناصر الشرطة المكلفين بحماية المعرض.[٧٧]

٧٥. سي إن إن بالعربية، «المغربي أحمد عصيد: لن أغيّر من نهجي العلماني بسبب تهديدِ «داعش» لي بالقتل».
٧٦. روسيا اليوم، «تكساس.. «داعش» يتبنى الهجوم على معرض كاركاتوري للنبي محمد(ص)».
٧٧. سي إن إن بالعربية، ««داعش» يتبنى مسؤولية الهجوم على معرض رسوم الكارتون للنبي بتكساس».

قبل هذا الحادث حصل حادث مماثل في ١٤ فبراير ٢٠١٥ في العاصمة الدانماركية كوبنهاغن، حيث قام شاب مسلم يدعى عمر عبد الحميد الحسين (٢٢عاما)[٧٨] من أصول فلسطينية[٧٩] بإطلاق الرصاص على نشاط ثقافي كان تحت عنوان «الفن، الازدراء وحرية التعبير». وكان من ضمن المشاركين الرسام السويدي «لارش فيلكس» الذي كان الهدف الرئيسي من هذا الهجوم، ولاسيما أنه كان محل تحريض من أبي عمر البغدادي زعيم تنظيم القاعدة آنذاك في العراق، حيث قال:

> إننا من اليوم وصاعدا نحرض على تصفية مُهْدَرِ الدم رسام الكاريكاتير لارش فيلكس الذي تجرأ على مقام نبينا عليه الصلاة والسلام. ونعلن في شهر الجود شهر رمضان عن جائزة قدرها ١٠٠ ألف دولار لمن يقتل هذا المجرم الكافر.. وترتفع الجائزة إلى ١٥٠ ألف دولار إذا ذبحه ذبح النعاج.[٨٠]

وقد قُتل في الهجوم على هذا المعرض وعلى الكنيس اليهودي شخصان، وجرح خمسة رجال شرطة في الحادثين.[٨١] وفي سنة ٢٠١٠ في إيرلندا بالذات، تم اعتقال سبعة أشخاص مسلمين كانوا يخططون لقتل الرسام السويدي نفسه. وأما في أمريكا وفي سنة ٢٠٠٩، فقد تم إيقاف الأمريكية «كولين لاروز» التي تحولت إلى الإسلام وصارت تدعى «فاطمة جين» أو «جهاد جين»، وتم اتهامها بالتخطيط وتجنيد إرهابيين لقتل الرسام السويدي لارش فيلكس، وتم الحكم عليها لاحقا بعشر سنوات سجنا.[٨٢]

نبعت هذه الهجومات كلها، المتعلقة بقتل من أساؤوا للنبي محمد، من قناعات دينية معتمدة على النصوص وعلى التاريخ الإسلامي، ولا يمكن أن

---

٧٨. فرانس ٢٤، «الدانمارك: من هو منفذ اعتداء كوبنهاغن؟».

79. BBC News, “Denmark attacks: Large crowds mourn shooting victims.”

٨٠. أون إسلام، «القاعدة: ١٠٠ ألف دولار لمن يقتل رساما أساء للرسول».

81. BBC News, “Denmark attacks: Large crowds mourn shooting victims.”

٨٢. فرانس ٢٤، «السجن عشر سنوات للأمريكية «جهاد جاين» في قضية رسوم مسيئة للنبي محمد».

تكون بالصدفة أو مجرد نزعات إرهابية. فالعقيدة هي التي تدفع هؤلاء إلى المخاطرة بحياتهم وتعريض أنفسهم للموت في سبيل الدفاع عن محمد، لأن من مات دفاعا عن الرسول قد ضمن له الجنة.[٨٣] ولا تنبع محبة هؤلاء لشخص محمد وإخلاصهم لهذه المحبة والطاعة العمياء من أي مكان آخر سوى الدين. فالعقائد تلعب داخل الإنسان أخطر دور وقد تحوله إلى قاتل وإرهابي لا يشعر بالآخرين لأنه يضع العقيدة فوق كل إحساس. وقد قال محمد بهذا الخصوص: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتى أكونَ أَحَبَّ إليهِ مِنْ والِدِهِ وَوَلَدِهِ والنَّاس أَجْمَعين.»[٨٤] لذلك لم تخرج المظاهرات في العالم الإسلامي مساندة لضحايا شارلي إيبدو، بل خرج الآلاف في مظاهرات احتجاجا على تجرؤ شارلي إيبدو في عددها بعد المجزرة على نشر صورة أخرى كاريكاتورية لمحمد.[٨٥] خرج الناس يقولون: «چوسوي محمد» بدلًا من «چوسوي شارلي». الدفاع عن محمد أولى من التعاطف مع أية ضحية قتل باسم محمد. فاسم محمد أقدس من دماء البشر عند المسلمين ولاسيما إذا كان هؤلاء القتلى كفارا قد تجرؤوا على رسم النبي.

٨٣. مثلما فعل محمد في معركة أحد، حين قال لأصحابه: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلُه الْجَنَّةُ»، صحيح مسلم ١٢: ١١٦، باب «الجهاد والسير: باب «غزوة أحد»».
٨٤. صحيح البخاري ١: ١٤، كتاب الإيمان، باب «حب الرسول (ص) من الإيمان».
٨٥. روسيا اليوم، «مسيرات ضد «شارل إيبدو» في دول عربية وإسلامية».

-15-

موعدنا دابق: داعش والأيام الأخيرة

نبوءات إسلامية تحكم وجدان المسلمين

منذ الصغر تتم تربيتنا على أن الإسلام غالب منصور، وأن معركتنا مستمرة مع الكفر إلى قيام الساعة، وأنه ستحصل في آخر الأيام معركة كبرى بين فسطاط الإيمان وفسطاط الكفر، بين المسلمين والكفار. وبطبيعة الحال، ستكون النصرة للمسلمين. توجد أحاديث ونصوص كثيرة تؤصل لهذه العقيدة. ونرى الشيوخ جالسين على المنابر وهم يتحدثون عن المستقبل، وعن كوننا نعيش الأيام الأخيرة، وأن ما نراه هو ما تنبأ عنه الإسلام بالحرف. فعلى سبيل المثال، تنبأ الإسلام أنه في آخر الزمان ستكون هناك بنايات شاهقة الارتفاع. فحين سُئِل محمد عن علامات الساعة، ذكر من بين العلامات «تَـرَى الْحُفَـاةَ الْعُـرَاةَ، الْعَالَـةَ، رِعاءَ الشَّـاءِ، يَتَطَاوَلُـونَ فِي الْبُنْيَـانِ.»[1] ورغم أن التطاول في البنيان موجود قبل

1. صحيح مسلم ١: ١٤١، كتاب الإيمان، باب «بيان الإيمان والإسلام والإحسان».

الإسلام، كما في أمثلة منارة الإسكندرية والملاعب اليونانية والهياكل الرومانية والصوامع المسيحية والكنائس والأسوار والحصون وغيرها، إلاّ أن المسلمين يرون في كثرة البنايات العالية اليوم دليلًا على تحقيق هذه النبوءة.

تتحكم نبوءات آخر الزمان في وجدان كل مسلم، ومعظم تلك النبوءات عبارة عن مواجهة بين المسلمين والكفار عامة، وعلى وجه التحديد بينهم وبين المسيحيين واليهود. فالمسيح سيعود في آخر الزمن ليكسر الصليب «رمز العقيدة المسيحية» ويقتل الخنزير «رمز الحرية المسيحية».[٢] وستحصل مواجهة بين اليهود والمسلمين حتى يتضامن الحجر والشجر مع المسلمين ضد اليهود فيقول الحجر للمسلم ها هو يهودي ورائي تعال فاقتله.[٣] وستحصل معركة عظيمة تسمى «الملحمة الكبرى» تتم فيها المواجهة بين المسلمين والكفار، ويتم فتح القسطنطينية «رمز المسيحية آنذاك.»[٤] ... تعمل هذه النبوءات عمل السحر في المسلم، الذي يصير ينظر إلى العالم من منظار الأخرويات ويرى أن كل ما يعيشه إنما تمهيد لمواجهة كبرى بين المسلمين في الشرق والكفار في الغرب ولاسيما ممثلي العالم المسيحي ومعهم اليهود بطبيعة الحال.

إبان عاصفة الصحراء التي كانت فيها قوات التحالف ضد صدام حسين كنت أدرس في المرحلة الثانوية في المغرب. كان الشباب متحمسين لصدام حسين، لأنه يقف ضد أمريكا (رغم أنه غزا الكويت وهو بلد مسلم). فكانت الصلوات تقام والشباب يدعون بالنصر لصدام حسين. كانت وجهة نظر الشباب أن دول الخليج دول فاسدة، وأن صدام حسين هو «المخلص» الموعود الذي سيعيد للإسلام مجده. بدأ التدين فجأة يطغى على الكل وكأنها

---

٢. يقول الحديث الصحيح: «لا تَقومُ الساعةُ حتى يَنزِلَ فيكُمُ ابنُ مريمَ حَكَماً مُقْسِطاً، فيَكسِرَ الصليبَ ، ويَقتُلَ الخِنزيرَ، ويَضعَ الجِزيةَ ، ويَفيضَ المالُ حتى لا يَقبلَهُ أحدٌ» صحيح البخاري ٢: ٨٧٦، كتاب المظالم، باب «كسر الصليب وقتل الخنزير».

٣. يقول الحديث: «لا تقومُ الساعةُ حتى تُقاتِلوا اليهودَ، حتى يَقولَ الحجرُ وراءَهُ اليهوديُّ: يا مسلم، هذا يهوديٌّ ورائي فاقتُلْه» صحيح البخاري ٣: ١٠٧٠، كتاب الجهاد والسير، باب «قتال اليهود».

٤. يقول الحديث: «المَلْحَمَةُ الْكُبْرَى وَفَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَخُرُوجُ الدَّجَّالِ فِي سَبْعَةِ أَشْهُرٍ» سنن أبي داود ١١: ٤٠٢، كتاب الملاحم، باب «تواتر الملاحم».

نهاية الزمان. وبدأت أحاديث تظهر من هنا وهناك لم أكن أسمع بها من قبل، ومنها حديث «العجب كل العجب ما بين جمادى و رجب»،[٥] ولاسيما أن عاصفة الصحراء انطلقت مع بداية شهر رجب من الشهور العربية. وقد لعب صدام حسين على هذا الوتر الديني الحساس لدى المسلمين، فجعل الحرب وكأنها حرب بين «المسلمين» و«الكفار»، بين الخير والشر. وأضاف قبل العاصفة عبارة «الله أكبر» على العلم العراقي[٦]. رفع شعار الإسلام لكي يكتسب دعم الشارع العربي والإسلامي. فظهرت نبوءات على شكل أحاديث تؤيد صدام وتجعله الرجل الآتي من الشرق الذي سيهزم الكفار الإفرنجة.

يقول أحد هذه الأحاديث: «يجتمع بنو الأصفر والفرنجة ومصر في البيداء على رجل اسمه صادم، ولا يرجع منهم أحد. قيل: متى يا رسول الله؟ قال: بين جمادى ورجب وترون فيه العجب.» هذا الحديث نشرته جرائد وصحف إسلامية وأخرى علمانية.[٧] كانت الشعوب العربية تؤيد صدام حسين بينما حكوماتهم مع قوات التحالف، وهذا دليل أن شعوبنا مدفوعة بالدافع الديني أكثر من المصالح السياسية أو الاقتصادية. لقد كانت النبوءات وفكرة انتصار المسلمين على الكفار هي المحرك الأساسي الذي كان يجيش عواطف الشعوب الإسلامية. وحين حصل الهجوم على الجيش العراقي، توقفت المدارس والجامعات في المغرب لأن الحسن الثاني كان يخاف أن تخرج المظاهرات المؤيدة لصدام حسين وتخرج الأمور عن السيطرة. فخرج الجيش المغربي لحراسة الشوارع ومنع التجمعات. وحين كان صدام حسين يقصف إسرائيل، كانت زغاريد النساء تتعالى في الأزقة وفي الأحياء الشعبية في مدينة الدار البيضاء، والكثير من المواليد الجدد تمت تسميتهم صدام افتخارا بوقوفه ضد الغرب الكافر. يبيّن هذا كله أن شعوبنا تصدق وتؤمن بالأخرويات إلى درجة الهوس.

---

٥. المستدرك على الصحيحين ٤: ٥٦٣.
٦. إلى الآن لا يستطيع العراقيون إزالة الله أكبر من العلم، لأن ذلك سيكون مسا بالمقدس.
٧. مجلة الراصد، «قراءة في النبوءات (المسيح الدجال)»، العدد الثامن، صفحة ٧٤.

دابق والملحمة الكبرى

ليس تنظيم الدولة الإسلامية استثناء. فكل مقاتليه مسلمون تربوا على هذه الأحاديث وهذه النبوءات، ويعلمون علم اليقين أنها أحد المفاتيح الأساسية لعواطف الناس. فشعوبنا متدينة، ويطغى تديُّنها هذا على المنطق وعلى أية أصوات أخرى. فإذا قال الرسول إن هناك مواجهة ستحصل بين المسلمين والكفار، فمن المؤكد أنها ستحصل. ولن يناقش أحد صحة هذه النبوءات، وإلا عُدَّ كافرا من طرف المسلمين بمن فيهم الأزهر والمؤسسات الكبرى. وقد قال أبو مصعب الزرقاوي، الذي يعدّ الأب المؤسس لتنظيم الدولة في العراق، ذات مرة: «ها هي الشرارة قد انقدحت في العراق، وسيتعاظم أُوَارُها [أي لهبها] بإذن الله، حتى تحرق جيوش الصليب في دابق.»[٨] وهذه العبارة موجودة في افتتاحيات مجلة دابق، وهي مجلة تنظيم الدولة. ومقالة الزرقاوي عن دابق عبارة عن نبوءة يؤمن بها الجهاديون ويروج لها تنظيم الدولة بكثرة، بل إنها تشكل جزءا من عقيدته عن الأمور الأخيرة التي ستحصل في نهاية الزمان، حيث ستعود الخلافة في آخر الزمان، وستكون المواجهة في دابق واحدة من أهم المعارك الأخيرة التي سيخوضها المسلمون ضد الكفار.

لم يكن اختيار دابق اعتباطا كاسم للمجلة الرسمية للتنظيم. فهو وليد النبوءات نفسها التي كبرنا عليها. فأرض الشام لها قسط كبير من النبوءات، ولدمشق مكانة متميزة في النبوءات. وتشكل دابق هي الأخرى محور النبوءات. كانت دمشق عاصمة الخلافة الأموية، بحيث تحول مركز الخلافة من المدينة حيث كان الرسول إليها. ويفسرهذا سبب وجود أحاديث كثيرة تتحدث عن دمشق والأيام الأخيرة، كما أن أكبر التوسعات حصلت في عهد الدولة الأموية، إضافة إلى أن محاولات فتح القسطنطينية حصلت في تلك الفترة. ولذلك من الواضح أن هذه النبوءات قد ولدت في هذه الأجواء. فالمسيح

٨. مجلة دابق، العدد الثاني، صفحة ٢.

سينزل في دمشق بحسب الأحاديث،[٩] ومن هناك سيخرج المسيح الدجال، «رمز الكفر حتى إن ما بين عينيه مكتوب عليه كلمة كافر»،[١٠] سيخرج من بين الشام والعراق،[١١] فيقتله المسيح الحقيقي في باب لد في فلسطين.[١٢]

دابق قرية في شمال سوريا قريبة من مدينة حلب تتحدث عنها الأحاديث على أساس أنها ستكون مكانا للمواجهة بين المسلمين والمسيحيين الكفار. يقول أحد هذه الأحاديث: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالأَعْمَاقِ، أَوْ بِدَابِقَ. فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ. مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ.. فيقاتلونهم... فيفتتحون القسطنطينية.»[١٣] والأعماق ودابق كلاهما قرب حلب في شمال سوريا.[١٤] ويقول بعضهم إن «الأعماق» موجودة على الجانب التركي قريبة من أنطاكية.[١٥] وقد اتخذ تنظيم الدولة «دابق» اسما للمجلة، في حين اتخذ التنظيم «الأعماق» اسما لوكالة أنباء.

في فيديو ذبح الأمريكي بيتر كاسيغ كرر الجهادي جون، «الرجل الملثم»، كلمات أبي مصعب الزرقاوي عن الشرارة التي انقدحت في العراق والتي ستحرق جيوش الصليب في دابق، ثم قال: «ها نحن ندفن أول صليبي أميركي في دابق وننتظر بلهفة مجيء بقية جيوشكم لتذبح أو تدفن هنا.»[١٦] ويتردد في الفيديو صدى كلمات الزرقاوي. ويظهر عضو من تنظيم الدولة يمشي حاملا راية العُقاب «راية الرسول» في سهول دابق. كان الجهادي جون

٩. يقول الحديث: «إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ. فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ. بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ. وَاضِعاً كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ.» صحيح مسلم ١٨: ٥٤، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب «ذكر الدجال وصفته وما معه».

١٠. صحيح مسلم ١٨: ٤٩، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب «ذكر الدجال وصفته وما معه».

١١. يقول الحديث «إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ» صحيح مسلم ١٨: ٥٣، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب «ذكر الدجال وصفته وما معه».

١٢. يقول الحديث عن المسيح «فَيَطْلُبُهُ [يعني المسيح الدجال] حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُد. فَيَقْتُلُهُ.» صحيح مسلم ١٨: ٥٥.

١٣. صحيح مسلم ١٨: ١٨-١٩، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب «في فتح قسطنطينية، وخروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم».

١٤. شرح النووي على صحيح مسلم ١٨: ١٨.

١٥. سي إن إن بالعربية، «دابق» مجلة داعش.. اسم قرية سورية وردت في صحيح مسلم تشهد حرب «آخر الزمان»...».

١٦. الفرقان للإنتاج الإعلامي، فيديو «ولو كره الكافرون».

يقف في دابق، والرأس المقطوعة أمامه أيضا في المكان نفسه. وفي فيديو قتل المسيحيين الأقباط المصريين، قال الجهادي جون:

> أيها الناس، لقد رأيتمونا على تلال الشام وسهل دابق نحز رؤوسا لطالما حملت وهم الصليب وقد تشربت الحقد على الإسلام والمسلمين... واليوم نحن في جنوب روما، في أرض الإسلام ليبيا، نرسل رسالة أخرى، أيها الصليبيون، إن الأمان لكم أماني، لا سيما وأنكم تقاتلوننا كافة، فسنقاتلكم كافة، حتى تضع الحرب أوزارها، فينزل عيسى عليه السلام، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية.[١٧]

وفي نهاية الفيديو بعد عملية الذبح يقول: «سنفتح روما بإذن الله، وعد نبينا (ص).»[١٨] إن عودة المسيح، والمواجهة ضد أمة الصليب، وسهل دابق كلمات وعقائد لم يأخذها تنظيم الدولة من فراغ. فهي جزء لا يتجزأ من العقائد الإسلامية، كبرت عليها أجيال وتربت فيها، ودرّستها المدارس الإسلامية والجامعات، وكتب فيها أبناء المسلمين كتبا ومجلدات. فإذا سعى التنظيم لتنفيذها على أرض الواقع اليوم، أيصير تنظيما لا يمثل الإسلام؟

دابق وحلم غزو الغرب

كان سهل دابق الأقرب إلى «القسطنطينية»، معقل المسيحية. أرادت الدولة الأموية غزو القسطنطينية وإخضاعها للإسلام. فالعداء للمسيحية ورموزها واضح جدا منذ بداية الإسلام. فمحمد طرد المسيحيين واليهود من جزيرته، وتم غزو العراق والشام لاحقا، ثم مصر وشمال إفريقيا، بل الأندلس أيضًا وإخضاعها للإسلام بعد ذلك. فلم لا القسطنطينية ؟ كانت القسطنطينية حصنا حصينا على المسلمين. كان معاوية بن أبي سفيان أول من

١٧. مركز الحياة للإعلام، فيديو «رسالة موقعة بالدماء إلى أمة الصليب».
١٨. نفس المصدر.

جعل الجيوش ترابط في سهل دابق.[١٩] وقد حاول أن يغزو القسطنطينية هو وابنه يزيد، لكنهما فشلا فشلا ذريعا.[٢٠] وهناك بجانب أسوار القسطنطينية قُتل أحد كبار صحابة محمد «أبو أيوب الأنصاري» ودفن هناك.[٢١]

بعد ذلك حاول خليفة أموي آخر اسمه سليمان بن عبد الملك بن مروان أن يغزو القسطنيطينية، وحلف ألا يعود حتى يفتحها،[٢٢] وعسكر في دابق مدة طويلة، ولكنه عوض أن يفتح القسطنطينية مات هناك ودفن في دابق.[٢٣] ولذلك يبدو أن أحاديث فتح القسطنطينية أُلِّفت خلال هذه الحقبة، لأن الخلفاء أرادوا فتحها، وحلف بعضهم ألا يعود حتى يفعلوا ذلك. وبالتالي لكي يتم شحن الجنود وتحميسهم، لا بد أن يصنع الفقهاء ورجال الدين نصوصا تبشرهم بفتح القسطنطينية، وليس هناك أفضل من الأحاديث المنسوبة إلى النبي للقيام بذلك، كما جرت العادة. لكن القسطنطينية بقيت مستعصية على المسلمين سبعة قرون أخرى إلى أن تم غزوها وحصارها ثم استسلامها على يد الإمبراطورية العثمانية بقيادة السلطان محمد الثاني سنة ١٤٥٣م. لكن ما زال المسلمون يؤمنون إلى اليوم بأن محمدا فعلا تنبأ عن ملاقاة الجيوش الكافرة في دابق، حتى وإن لم تعد لها أية أهمية عسكرية كما كانت في عهد الخلافة الأموية، وحتى لو لم يعد يتم اللقاء بين الجيوش في ساحات وسهول كما في القرن السابع والثامن الميلادي. من الغريب أنه حتى في عصر الأقمار الصناعية والطائرات، لازال المسلمون يحلمون بمقارعة السيوف في دابق كما حصل في عصر الخلافة الإسلامية، لماذا ينتظرون ذلك؟ لأن النصوص تتحكم في تفكير المؤمنين بهذه العقائد ومنهم تنظيم الدولة.

---

١٩. جاء في تاريخ دمشق أن «إقامة البعوث من أرض دمشق، في زمن عمر وعثمان حتى نقلهم إلى معسكر دابق معاوية بن أبي سفيان لقربه من الثغور.» تاريخ دمشق لابن عساكر ٢: ٢٣٠.

٢٠. البداية والنهاية لابن كثير ٨: ٢٢٩.

٢١. نفس المصدر ٨: ٥٨-٥٩.

٢٢. جاء في تاريخ دمشق «وأقام سليمان بدابق فذكر يمينه أن لا ينتقل من دابق حتى يفتح القسطنطينية فأقام بها»، تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٤: ٧٤.

٢٣. معجم البلدان للحموي ٢: ٤١٦.

كانت الأحاديث التي تتحدث عن الأخرويات وما زالت سببا في إشعال حماس المسلمين للخوض في معارك بينهم وبين من يعدّونهم كفارا. فعلى سبيل المثال، كانت الأحاديث التي تتحدث عن فتح القسطنطينية سببا في تحفيز حتى الخلفاء، حيث جاء في الحديث أن عبد الله بن بشر روى عن محمد أنه قال: «لَتُفْتَحَنَّ القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش، قال: فدعاني مسلمة بن عبدالملك فسألني؟ فحدَّثته، فغزا القسطنطينية»[٢٤] نفس هذه الأحاديث تتحدث عن فتح روما بعد فتح القسطنطينية حيث يقول أحدها أن محمدا سئل: «أي المدينتين تفتح أوّلاً، أقسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله (ص): مدينة هرقل تفتح أوّلاً يعني قسطنطينية.»[٢٥] لذلك يصر مقاتلوا تنظيم الدولة على تهديد روما، بأنهم قادمون لها عاجلا أم آجلا. فلا بد أن تكون كلمات النبي حقيقية. ولذلك يسعون إلى تحقيق هذه النبوءات حتى لا يصير النبي كاذبا.

إن هذه النبوءات المزعومة نبوءات ذاتية التحقيق، مثل الذي يغير الهدف حتى يجعل السهم يصيبه. يخلقون النص، ويسعون إلى تحقيقه ثم يتخذونه دليلا على صحة النبوءة، أو كمن يتنبأ عن موت شخص ثم يبعث من يقتله ثم يقول إن ذلك كان دليلا على أنه نبي. يقوم تنظيم الدولة بالشيء نفسه، حيث إن أعضاءه يؤمنون إيمانا قاطعا بصحة النبوءات، ولذلك يسعون إلى تحقيقها على أرض الواقع. ومن بين هذه النبوءات أيضا أن جيش المسلمين في آخر الزمن سيواجه ثمانين راية، ثمانين عدوا منضوين في معسكر واحد.

يقول محمد مخاطبا المسلمين إنه في الأيام الأخيرة ستكون هدنة «بينكم وبينَ بَني الأصفرِ [الروم] فيَغدِرون، فيأتونَكم تحت ثمانينَ غايةً، تحت كلِّ غايةٍ اثنا عشر ألفاً.»[٢٦] ولذلك فإن تنظيم الدولة يرى في التحالف الذي

٢٤. مسند أحمد ٥: ٤٤١.
٢٥. نفس المصدر ٢: ٣٦٩.
٢٦. صحيح البخاري ٣: ١١٥٩، كتاب الجزية والموادعة، باب «ما يحذر من الغدر».

يقصفه مجرد تحقيق لهذه النبوءة. وقد رأيت أعضاء التنظيم في المنتديات الجهادية وهم يحسبون كم دولة في هذا التحالف ويتمنون وصولها إلى ثمانين حتى تتم النبوءة ويبدأ القتال الحقيقي على أرض دابق. وقد وصل عدد الدول التي تساعد بشكل أو بآخر في هذا التحالف إلى ما يقارب الستين حتى الآن.[٢٧] وأعضاء التنظيم فرحون بهذا، لأنه يلزمهم فقط عشرون دولة أخرى لتتحقق النبوءة وتصير المواجهة حقيقة ويحتلوا روما ويضعوا رايتهم فوق الفاتيكان. ولذلك أصدر تنظيم الدولة العدد الرابع من مجلة دابق مصورا راية العقاب، راية التنظيم، فوق ساحة الفاتيكان.[٢٨] وفي المجلة مقال كامل تحت عنوان «تأملات في الحملة الصليبية النهائية»[٢٩] يحوي أغلب الأحاديث التي أوردتها في هذا الباب، وتتحدث كلها عن الأمور الأخيرة وكيف أنها تتحقق على أرض الواقع. يؤمن أعضاء التنظيم بأن المعركة مع الغرب المسيحي تسبق المعركة مع اليهود. لتصير بذلك المعركة مع اليهود هي النهاية التي يترقبها المسلمون.

نصوص النبوءات الإسلامية جزء من دعاية داعش

تشكل هذه الأمور الأخروية سببا عقديا آخر يدفع الشباب إلى الالتحاق بتنظيم الدولة والقتال في صفوفه. فلا يوجد الآن أي جيش يقاتل الكفار إلا جيش تنظيم الدولة في رأيهم. وبما أن الأحاديث تحدثهم عن حرب دائمة ضد الكفار، فلا بد أن حكومات الدول الإسلامية خائنة للإسلام لأنها لا تلتزم بالنصوص الدينية، ولا سيما تلك التي تنص على حرب شاملة ضد المسيحيين واليهود. بل إن ذهاب الكثير من المقاتلين المسلمين من الدول الأوروبية وأمريكا وأستراليا وكندا إلى الأراضي التي يسيطر عليها التنظيم يعود جزئيًّا إلى النبوءات الكثيرة التي تتحدث عن أرض الشام. فأرض الشام

٢٧. سي إن إن بالعربية، «على الخريطة أبرز الدول المشاركة بالتحالف الدولي ضد داعش».
٢٨. مجلة دابق، العدد الرابع، ويحمل عنوان «الحملة الصليبية الفاشلة».
٢٩. نفس المصدر الصفحات ٣٢-٤٤.

مباركة في الإسلام، حيث يقول الحديث: «طوبى للشام، قيل ولم ذلك يا رسول الله؟ قال: إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليه.»[٣٠] ونصح محمد المسلمين بأن يلتحقوا بالشام في الأيام الأخيرة حيث قال: «عَلَيْكُمْ بالشَّامِ فَإِنَّ مِنْ صَفْوَةِ الله مِنْ أَرْضِهِ الشَّامَ، ..فَإِنَّ اللهَ قَدْ تَكَفَّلَ لِي بالشَّامِ وأَهْلِهِ.»[٣١] بل إن خير الديار التي على المسلمين الالتحاق بها لمقاتلة الكفار هي ديار الشام، حيث قال محمد بهذا الخصوص: «يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ الْكُبْرَى فُسْطَاطُ الْمُسْلِمِينَ بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا الْغوطَةُ، فيها مَدِينَةٌ يُقَالُ لَهَا دِمَشْقُ، خَيْرُ مَنَازِلِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ.»[٣٢] لذلك تستخدم هذه الأحاديث في الدعاية لتنظيم الدولة وتنجح في إيصال الرسالة. إذ حين يبحث المسلم عن هذه الأحاديث ويجدها في الكتب، يجد نفسه أمام خيار صعب: إما أن يرفض دينه أو يقبل تطبيقه حرفيا بالالتحاق بصفوف من يجاهدون في أرض الشام كما قال محمد.

من الأمثلة على استحواذ هذه النصوص على عقول الشباب المسلم حتى في الغرب، شاب مسلم بريطاني من أصل يمني اسمه ناصر المثنى ظهر في أحد فيديوهات التنظيم يوصي إخوانه بالالتحاق بأرض الشام فقال:

> ولكي تعرفوا من هو على الحق، إخواني وأخواتي، عليكم النظر في حديث الرسول محمد (ص)، قال: «أرض الشام صفوة الأرض» الله عز وجل اصطفاها، جعلها خير أرضه، واختار أفضل الناس لكي يأتوا إلى هنا، إذن ترون أين يوجد المهاجرون، وهذا أكبر دليل على أنهم على الحق.[٣٣]

سيجد كل مسلم آمَنَ بهذه الأحاديث نفسه مضطرا إلى السفر إلى سوريا ليكون في خير منازل المسلمين، حتى إذا جاء يوم الملحمة يكون فرحا

٣٠. مسند أحمد ٦: ٢٣٦.
٣١. السنن الكبرى للبيهقي ١٣: ٥٧٩.
٣٢. المستدرك على الصحيحين ٤: ٥٣٢-٥٣٣، كتاب الفتن والملاحم، يوم الملحمة الكبرى فسطاط المسلمين بدمشق.
٣٣. مركز الحياة للإعلام، فيديو «لاحياة بدون جهاد».

باختياره الصحيح، لأنه سيكون في فسطاط المسلمين يقاتل الكفار تطبيقا لأوامر وتنبؤات النبي.

حتى القتل الذي يمارسه أعضاء التنظيم ضد من يمكن اعتبارهم مسلمين ظاهريا وكفارا داخليا هو مرتبط بالأيام الأخيرة. لقد أمر محمد المسلمين الحقيقيين بقتل المسلمين المزيفين، حتى لو كانوا يحفظون القرآن ويقرؤون الأحاديث، وأخبرهم أنهم سيكونون موجودين في آخر الزمان حيث قال:

> سَيَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ أَحْدَاثُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ. يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ. يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ. فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ. فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْراً، لِمَنْ قَتَلَهُمْ، عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.[٣٤]

فإذا كان قتل مسلمين هو الدليل على أن تنظيم الدولة لا يمت للإسلام بصلة، فإن محمدا هو من أمر بقتل هؤلاء المسلمين. وقد تم تطبيق هذا الحديث عبر التاريخ، وتم من خلاله تبرير قتل فرق إسلامية كاملة مثل فرقة الخوارج، حيث تم القضاء عليها بسبب نصوص مثل هذه.

الخلاصة هي أن كل مسلم لا يطبق هذه الأحاديث إمّا أنه لا يعلم بوجودها أو يتجاهلها ويختار من الإسلام ما يشاء. وأما مقاتلو التنظيم، فقد أخذوا هذه النصوص على محمل من الجد، واستغلوا قدسيتها في إقناع الشباب بالالتحاق بالتنظيم والموت في سبيله لأن الرسول قال ذلك، ووعد بذلك، ولا بد أن وعود الرسول صادقة وكل من عداه مجرد كاذب. هكذا ينظر أعضاء التنظيم إلى النصوص الإسلامية.

٣٤. صحيح مسلم ٧: ١٤١، كتاب الزكاة، باب «التحريض على قتل الخوارج».

أشبال الخلافة والجهاد

لا أريد أن أختم هذا الفصل دون الحديث عن أشبال الخلافة، لأنهم جزء لا يتجزأ من المستقبل .. جزء من الملحمة الكبرى التي يراها تنظيم الدولة. ولذلك يدربهم على القتال وعلى الشجاعة وعلى الرماية، بل حتى على الذبح والقتل بالرصاص. يدربهم في العقيدة ويدربهم في القتال. ولفهم عقلية التنظيم بهذا الخصوص، علينا فهم سياقها الإسلامي. فالإسلام علمنا منذ الصغر أن قوة الدولة الإسلامية في كثرة عددها. إذ قال محمد: «تَزَوَّجُوا الوَلُودَ الوَدُودَ، فإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ.»[٣٥] لذلك يشجع تنظيم الدولة أعضاءه على الزواج والإنجاب بكثرة. وليست هذه فكرة تنظيم الدولة لوحده، بل هي فكرة عامة عند كل التنظيمات الإسلامية مفادها: «أن أعدادنا كمسلمين هي قوة لنا في غزو الكفار، وأما الكفار الذين تتراجع نسبة الولادة عندهم فيضعفون.» وقد سبق أن افتخر القذافي في خطابه في تمبكتو، كما نقلته الجزيرة، بأن أوروبا ستكون مسلمة دون حرب أو سيف، بل بمجرد هجرة المسلمين وتوالدهم.[٣٦]

كنت أدرس في جامعة الحسن الثاني في الدار البيضاء، حيث دعا طلبة العدل والإحسان (فصيل إسلامي مغربي) أحد الشيوخ المغاربة، اسمه «أبا زيد المقرئ الإدريسي»، لكي يلقي محاضرة هناك. وأثناء المحاضرة حرّض الشابات على أن تلدن أكثر، لأن كثرة أعداد المسلمين هي التي ستحرر فلسطين. فتعالت تصفيقات الحاضرين تأكيدا لكلامه. ونجد في الحديث أن محمدا نهى أحد أصحابه عن الزواج من امرأة عاقر.[٣٧] فالأولاد في الإسلام قوة

٣٥. السنن الكبرى للبيهقي ١٠: ٢٤٣، جماع أبواب الترغيب في النكاح، باب «استحباب التزوج بالودود الولود».

36. MEMRI TV, “Libyan Leader Mu’ammar Al-Qadhafi: Europe and the U.S. Should Agree to Become Islamic or Declare War on the Muslims.”

٣٧. يقول الحديث: «جَاءَ رَجُلٌ إلَى النَّبِّي (ص) فقال: إِنِّي أَصَبْتُ امْرَأَةً ذَاتَ جَمالٍ وَحَسَبٍ وَأَنَّهَا لا تَلِدُ أَفأَتَزَوَّجُهَا ؟ قال: لاَ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَنَهَاهُ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ فقال: تَزَوَّجُوا الودود الْوَلُودَ فإِنِّي مُكَاثِرُ بِكُم الأُمَمَ» سنن أبي داود ٦: ٤٧.

في الحرب والجهاد، ولذلك نجد تنظيم الدولة يركز في حربه على تربية جيل جديد من أشبال الخلافة يحملون راية الجهاد في المستقبل. إذ لدى تنظيم القاعدة الفكرة نفسها. فقد جاء على لسان زوجة الظواهري نصيحة لأخواتها المسلمات تقول فيها: «أنصحكن بتربية أطفالكن على عقيدة الجهاد والشهادة، وأن تغرسن فيهم حب الدين والموت.»[٣٨] إنه شيء يشبه شباب هتلر الذين دُرِّبوا على محبته وطاعته. إنهم أطفال يتم تدريبهم بدروس في العقيدة وتدريبهم على الموت في سبيل الله منذ الصغر، ووعْدِهم بالجنة إن ماتوا والالتحاق بمن سبقوهم من أهلهم من الشهداء. إنه غسيل دماغ بامتياز.

يظهر أحد تلك الفيديوهات التي ينشرها التنظيم تدريب الأطفال على القتل في تدمُر في سوريا في يوليو ٢٠١٥، حيث تم إعدام ٢٥ جنديا سوريا، وكان المنفذون أطفالا.[٣٩] ومن أشهر صور أطفال داعش صورة ابن خالد شروف الأسترالي من أصول لبنانية، حيث صوّر هذا الأب ابنه الذي لم يبلغ السابعة من العمر وهو يحمل رأسا مقطوعة بيديه. لقد كان يفتخر بابنه المجاهد الصغير.[٤٠] إن اعتاد طفل حمل الرؤوس في هذه السن، فكيف سيكون حاله في المستقبل يا تُرى؟ أتذكّر بهذه المناسبة الأناشيد الحماسية التي كنت أتلقاها في المدرسة ونحن نهتف لفلسطين في الأعياد والمناسبات. وقد بقيت أبيات الشاعر المصري علي محمود طه راسخة في ذهني إلى اليوم لأني أجبرت على حفظها كجزء من الأناشيد المقررة. كانت تقول:

أخي جاوز الظالمون المدى   فحقّ الجهادُ وحقّ الفِدا
فجرِّدْ حسامَكَ من غمدِهِ   فليس لهُ بعدُ أن يُغمدا

٣٨. جريدة الدستور، «زوجة الظواهري: علموا أولادكم حب الموت».
٣٩. إعلام ولاية حمص، فيديو «الإصدار المرئي : ويشف صدور قوم مؤمنين».
٤٠. سي إن إن بالعربية، «بالفيديو.. أسترالي من داعش صوّر نجله يحمل رأس رجل».

لقد كنا ننادي بحمل السيف ضد اليهود لتحرير فلسطين ونحن في الصف الثاني والثالث الابتدائي. ولم نكن نعلم من الحياة إلا ما نتعلمه من كبارنا، كنا أشبال الخلافة دون أن نعلم، رغم أن المغرب أقل دول العالم الإسلامي تطرفا إن شئنا المقارنة.

يساهم الشيوخ أيضا في ترسيخ ثقافة تربية الأطفال على الجهاد. وقد خُصصت قنوات دينية لذلك مثل «كناري» و «طيور الجنة». قنوات لا هم لها إلا تكوين الأطفال تكوينا دينيا. ومن أهم الأناشيد التي يتم تعليمها فيها أناشيد الجهاد ولاسيما ضد أعدائنا التقليديين. الشيخ السعودي سلمان العودة[٤١] مثلا لديه دروس في التربية الإسلامية الصحيحة للأطفال جاهزة للتحميل من مواقع الإنترنت. يقول في أحدها مقدما النصيحة للأب المسلم في كيفية تربية أبنائه: «فتربيهم في المنزل على بغض الكفار وقتالهم، وتنشئتهم على أخبار الجهاد والمجاهدين، وما أعد الله تعالى في الجنة لهم، وتحفيظهم أناشيد الجهاد في سبيل الله.»[٤٢] ثم يمضي فيقول إنه على الأمة إعداد أمهات مسلمات صالحات، «إعداد أمهات صالحات، وتغذية أرواحهن على حب الإنجاب، وتربية الأولاد في طاعة الله عز وجل، وملء نفوسهم بمعاني الجهاد.»[٤٣] ويضرب بأطفال فلسطين مثلا، فيقول:

> ولعلنا أمام مثال واقعي حي، وهو ما نشاهده ونسمعه الآن فيما يسمى بأطفال الحجارة، إن الذين يقاتلون في فلسطين الآن أطفال بعضهم في سن السادسة والسابعة والثامنة، فقولوا لي: من الذي غرس في نفوس هؤلاء الأطفال بغض اليهود؟ من الذي غرس في نفوس هؤلاء الأطفال حب الجهاد في سبيل الله؟[٤٤]

٤١. شيخ معروف من أهم رموز شيوخ الصحوة، حاصل على دكتوراه في السنة، عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، المشرف العام على مواقع «الإسلام اليوم».
٤٢. إسلام ويب، «التربية الجهادية».
٤٣. نفس المصدر.
٤٤. نفس المصدر.

تُستخدم فلسطين كآلة لشحننا من المغرب إلى إندونيسيا، نكبر شيئا فشيئا فيكبر معنا البغض والعنف و ومعهما الرغبة في الجهاد. ومع ذلك يتساءل الناس: من أين ظهرت داعش؟ هل نبتت في أرض غريبة؟ هل هي بذرة سقطت من السماء؟ ألم نزرع بذورها كل هذه السنين؟

من مظاهر تشجيع الأطفال على الجهاد أن تراثنا الإسلامي حافل بالقصص التي تعلم ذلك، كمثال على ذلك نقرأ أن من قتل أبي الحكم (نسميه أبا جهل كما سماه محمدا نكاية به) في معركة بدر كانا غلامين حديثي السن، «فابتَدَراهُ بسيفيهما فضرَباهُ حتى قَتلاه.»[٤٥] وذهبا إلى محمد يبشرانه بالخبر فسألهما» أيُّكما قتله؟ قال كُلُّ واحدٍ منهما: أنا قتلته. فقال: هل مسحتما سيفَيكما؟ قالا: لا. فنظرَ في السيفَين فقال: كلاكما قتله»[٤٦] هذه القصة مصدر فخر في الإسلام .. غلامان صغيرا السن حملتهما الغيرة على اسم النبي فقتلا أحد أكبر أعدائه بسيفيهما غير مباليين بحياتيهما. هكذا ينبغي أن يكون أشبال الدولة الإسلامية، يبنغي أن يكونوا قساة على أعدائهم، ينبغي تربيتهم على الذبح «أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ».[٤٧] الدولة الإسلامية إذن لا تطبق إلاّ تعاليم الإسلام، حيث يعلّم الكبار الصغار الجهاد ويربونهم على حمل راية الإسلام، وعلى الاستعداد للملحمة الكبرى، الملحمة التي سيخوضونها في دابق ضد أعداء الله من الكفار والمشركين، حتى إذا ذهب هذا الجيل يأتي الجيل الذي يليه. وإذا ذهب تنظيم الدولة، ستظهر تنظيمات أخرى غيره إذا لم يُبتر هذا السرطان من جذوره.

٤٥. صحيح البخاري ٣: ١١٤٤، كتاب فرض الخمس، باب «من لم يُخمّسِ الأسلابَ ومَن قتلَ قتيلًا فلهُ سَلَبُه من غير أن يُخمسَ، وحكمُ الإمام فيه».
٤٦. نفس المصدر.
٤٧. سورة الفتح الآية ٢٩.

-16-

باريس قبل روما: هل العمليات الانتحارية حلال أم حرام؟

الإرهاب يضرب باريس

قبل أن أنـهي هـذا الكتـاب، ضرب الإرهـاب مـرة أخـرى مدينـة الأنـوار، حيـث قامـت داعـش بأكـبر عمليـة إرهابيـة في أوروبـا بعـد تفجـيرات مدريـد. وقضـت باريـس ليلـة الجمعـة ١٣ مـن نوفمـبر أسـوأ ليلـة لهـا في هـذا القـرن .. تفجـيرات وقتـل عشـوائي وجثـث في كل مـكان .. إنهـا الحـرب! إنهـا جريمـة حـرب ارتكبهـا التنظيـم ضـد أبريـاء كانـوا يحـضرون حفـلا موسـيقيا، ومتفرجـين يحـضرون مبـاراة كـرة القـدم، ورواد مطعـم. كانـت العمليـة مدبـرة بعنايـة فائقـة لتحقيـق أكـبر الخسـائر في الأرواح. وضرْب باريـس إنمـا هـو ضرب لأوروبـا كلهـا. إذ لا تختـار التنظيمـات الإرهابيـة الأهـداف عشـوائيا، بـل تختارهـا لتحقـق أهدافـا محـددة منهـا إيصـال رسـالة واضحـة لأعدائهـا: «أنهـا تضربهـم في قيمهـم وفي رموزهـم». فكمـا كانـت نيويـورك في عـرف القاعـدة تمثـل الغطرسـة الأمريكيـة والنجـاح الأمريكـي، كذلـك

تمثل باريس الحرية الأوروبية والفخر الفرنسي والأوروبي. يريدون أن يضربوا أوروبا في أعز شيء عندها .. «الحرية». فباريس أفضل رمز للحرية، وهم يريدون أن تصير أوروبا جحيما لسكانها، وأن يتملكهم الخوف في عقر دارهم، وأن يصيروا غير آمنين في ملاعبهم وفي مسارحهم ومطاعمهم. يريدون أن يعبروا عن كراهيتهم للغرب بأقسى ما يستطيعون. فلجأوا إلى «الإثخان في القتل»[1] بلغة القرآن. وكالعادة، عوض أن يتساءل السياسيون عن العلاقة بين هذه العمليات والعقيدة، قاموا يبرؤون الإسلام مرة أخرى، ويدافعون عنه ويحاولون الفصل بين هذه العمليات وبين العقيدة الإسلامية، رغم العلاقة الواضحة التي تربط الاثنين.[2]

تبنت الدولة الإسلامية العملية في اليوم الموالي للتفجيرات وأصدرت بيانا صوتا وكتابة، باللغة العربية والفرنسية. جاء البيان تحت عنوان «بيان عن غزوة باريس المباركة على فرنسا الصليبية». هذا العنوان لوحده كفيل بدغدغة مشاعر المسلم العادي. فتعبير «الغزوة» إحالة إلى غزوات الرسول، وإحياؤها في عصر الخلافة على يد تنظيم الدولة. و«فرنسا الصليبية» إحالة إلى المسيحية وربطها بفرنسا. فالحرب إذن هي بين المسلمين من جهة والكفار من جهة أخرى. فكما كان يغزو محمد القبائل المسيحية واليهودية المجاورة، كذلك غزا مجاهدو تنظيم الدولة فرنسا الصليبية. هذا هو تفكير المنفذين وتفكير شريحة كبيرة من المسلمين على اختلاف درجات إيمانهم بها.

١. سورة الأنفال الآية ٦٧: «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

٢. مثل ماقاله الرئيس أوباما في خطابه في أنطاليا تركيا يوم ١٦ نوفمبر ٢٠١٥ حيث قال بأن من يساوي بين هذه العمليات الإرهابية وبين الإسلام هو مخطئ، ونعت هذه النظرة بالتنميط الذي سيأتي بنتائج عكسية.

بيان داعش بخصوص الهجمات

يبدأ البيان بالبسلمة (بسم الله الرحمن الرحيم)، ثم بآيات قرآنية تناسب الحدث. ولم يجد أعضاء التنظيم أفضل من الآيات الموجودة في سورة الحشر[٣]، والتي تتحدث عن غزوة محمد لقبيلة يهودية تسمى بني النضير، القبيلة التي طردها محمد بعد حصار شديد تلاه استسلام. فقد تحصن بنو النضير في حصونهم خوفا من محمد، ولكن استمرار الحصار وحرقه للنخيل تسببا في استسلامهم في الأخير، فجاءت آيات القرآن تقول: «وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ».[٤] تتحدث هذه الآيات في نظر أعضاء التنظيم عن غزوة تشبه ما حصل لباريس. فغزوة بني النضير تشبه غزوة باريس.

كان بنو النضير يعيشون حياة هانئة، وكانت لديهم حصون تحميهم من الاعتداءات الخارجية، لكن المؤمنين من المسلمين في جيش محمد غزوهم. ظنوا أن حصونهم ستمنعهم، لكن الله جاءهم من حيث لم يتوقعوا على يد المقاتلين المسلمين وأرهبهم فصاروا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المسلمين التي تساعدهم في هذا التخريب. وقد شرحت هذه الآيات من قبل حين تحدثت عن غزوة بني النضير، لكن المثير للانتباه هنا أن أعضاء التنظيم يريدون أن تكون هذه الغزوة بداية لخراب فرنسا، سيبدأ الفرنسيون في تخريب بيوتهم، وسيساعدهم المجاهدون على تسريع وتيرة هذا الخراب. فهل يقصدون أن فرنسا تساعدهم بطريقة غير مباشرة حين أطلقت يد المتشددين والمساجد السلفية وحمتهم بقوانينها؟ هل يقصدون أنهم سيستخدمون قوانين فرنسا ضدها وهكذا يحطمون فرنسا بأيدي أبنائها وقوانينها؟ ماذا عن كونهم أتوهم من حيث لم يتوقعوا؟

---

٣. السورة رقم ٥٩ في المصحف كما هو اليوم.
٤. سورة الحشر، الآية ٢.

هل يقصدون أنهم تسللوا إلى فرنسا عبر الطرق نفسها التي يأتي منها المهاجرون بحيث لم تنفع معهم الحصون ومراقبة الحدود؟ هناك أسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابة، لكن من المؤكد أن التنظيم يرى في ما يقوم به مطابقة لما قام به محمد في غزواته في القرن السابع الميلادي.

وصف البيان باريس بأنها «عاصمة العهر والرذيلة وحاملة لواء الصليب في أوروبا». هذه الأوصاف هي التي تربينا عليها جيلا بعد جيل. فنحن الأفضل. نحن الأسمى وهم الأسوأ ومنبع الرذائل كلها. فالغرب الكافر هو الخمر والفساد والزنى والفسق، وتمثل عواصمه الكبرى رموز «العهر والرذيلة». لا يردد تنظيم الدولة هنا في هذه العبارة إلا ما يعرفه الكبير والصغير من المسلمين، وما تربينا عليه جميعا. فهو يخاطب وجدان المسلمين ويشفي غلهم. لم يعلن التنظيم عن أسماء المنفذين في البيان[٥]، لكن قال فيه: «انطلقت ثلة مؤمنة من جند الخلافة أعزها الله ونصرها.. فتية طلقوا الدنيا وأقدموا على عدوهم يبتغون القتل في سبيل الله نصرة لدينه ونبيه (ص) وأوليائه، وإرغاما لأنف أعدائه.» هذه العبارة هي الملخص الذي على العالم أن يتعلم منه. إنهم فعلا فتية طلقوا الدنيا، لن نستطيع تبرير ما قاموا به بناء على المكتسبات المادية، لأن المنفذين لا يرغبون في مكتسبات مادية. لقد أتوا لكي يفجروا أنفسهم ويأخذوا معهم أكبر قدر ممكن من الكفار. فليسوا هنا ليربحوا المال أو للمفاوضة، إنهم أتوا لأجل القتل، «إنهم يبتغون القتل في سبيل الله». ويعني أنهم جاؤوا لخدمة دينهم ولخدمة معتقداتهم. وهم يصرحون علنا أنهم يموتون لأجل عقيدتهم، بينما يقول السياسيون الغربيون لهم: «لا أنتم لا تموتون من أجل عقيدتكم، نحن أعلم بأهدافكم منكم.» تقتضي أبجديات أي منطق أن نأخذ

٥. لم يعلن أسماء المنفذين في البيان، لكن في إصدار لاحق تم الكشف عن هوية ٩ أشخاص منهم، جاء ذلك في فيديو يوم ٢٥ يناير ٢٠١٦ تحت عنوان «واقتلوهم حيث ثقفتموهم»

تصريحاتهم على محمل الجد. علينا أن نصدق أنهم يموتون لأجل دينهم، وإلا فعلى المعترضين أن يقولوا للعالم ما الذي يموت لأجله هؤلاء الانتحاريون؟

باريس قبل روما

بعد العملية، استخدم أعضاء تنظيم الدولة النشطون على مواقع التواصل الاجتماعي وأولئك الذين يساندونهم شعارًا يقول: «باريس قبل روما». والمقصود هو أن التنظيم يود أن يخضع باريس قبل روما. فروما موجودة في الخطة، فهي الغاية النهائية التي سيكون النصر عليها بمنزلة إعلان النصر النهائي على المسيحية في عقر دارها، لكنهم يريدون باريس قبل روما. فقبل الهدف النهائي توجد أهداف أخرى، وربما لن يتحقق الهدف النهائي إلا بتحقيق الأهداف الأخرى. «باريس قبل روما» عبارة وردت من قبل على لسان المتحدث الرسمي باسم التنظيم «أبي محمد العدناني» في تسجيل صوتي يقول فيه:

> أيها الصليبيون؛ لئن كنتم تراهنون على صلاح الدين، وتحلمون بالموصل، وتحلمون بسنجار أو الهول أو تكريت أو الحويجة أو تحلمون بالميادين أو جرابلس، أو الكرمة أو تل أبيض، أو القائم أو درنة، أو تحلمون باسترجاع غابة في أدغال نيجيريا، أو السيطرة على عشش في صحراء سيناء، فإننا نريد إن شاء الله باريس قبل روما، وقبل الأندلس بعد أن نسوّد عيشكم، وننسف بيتكم الأبيض، وساعة بق بن [Big Ben]، وبرج إيفيل إن شاء الله، كما نسفنا إيوان كسرى من قبل. نريد كابل وكراتشي والقوقاز وقم والرياض وطهران، نريد بغداد والقدس والقاهرة وصنعاء والدوحة وأبو ظبي وعمّان، وسيعود المسلمون للسيادة والريادة والقيادة في كل مكان. وهذا دابق وهذه الغوطة، وهذه القدس، وتلك روما، سندخلها لا كذب وعد الصادق المصدوق (ص).[٦]

٦. الدولة الإسلامية، مؤسسة الفرقان للإنتاج الإعلامي «فيقتلون ويقتلون».

لقد تحدث العدناني بكل وضوح أنهم يريدون نسف البيت الأبيض ونسف ساعة بيغ بن، ونسف برج إيفل، وستبقى هذه الرموز هدفا مغريا لمجاهدي التنظيم متى استطاعوا إليها سبيلا. إن حلم سيادة الإسلام وحكم المسلمين للعالم هو أحد المحركات الأساسية للتنظيم. وسعيهم إلى تحقيق نبوءة نبيهم محمد هو أحد الأهداف المنشودة. فهم يسعون إليه متأكدين من تحقيقه، متأكدين من أنهم سيأخذون روما، وسيسترجعون الأندلس. ولكن قبل ذلك، لا بد أن يدكّوا باريس وواشنطن ولندن. لذلك لم أستغرب الهجمات في باريس ولن أستغرب المزيد في عواصم العالم الغربي. لقد كان حتى بعض المغردين من المسلمين العاديين على تويتر فرحين بشعار «باريس قبل روما»، وراحوا يتداولونه بعد تنفيذ الهجمات على أساس أنه تهديد من العدناني قد صدق فيه. لقد توعد بضرب باريس وأوفى بوعده.

ردود أفعال المسلمين

من خلال متابعتي للتعليقات المتعلقة بالحادث ولاسيما باللغة العربية في مختلف المواقع وأيضا تعليقات الكثير من المسلمين الذين ناقشتهم على صفحتي على الفايسبوك، أو على تويتر، لم أفاجأ بكمية التبريرات التي يسوقها المعلقون المسلمون للتفجيرات: يبررها بعضهم على أساس أن فرنسا استعمرت بلدانًا إسلامية من قبل، فكانوا يقولون: «فلتذق بعض ما أذاقته لتلك البلدان.» كانت فرحة الانتقام بادية على النقاشات، بل إن بعض المسلمين منعوا غيرهم من التضامن مع فرنسا بالسماح بوضع صورة العلم الفرنسي. إذ استغربوا عليهم كيف يتضامنون مع دولة قتلت مسلمين في الجزائر وفي مالي وفي المغرب وغيرها من البلدان. وتحدَّث بعضهم أيضا عن منع النقاب في فرنسا كحجة ليثبت أن فرنسا دولة معادية للإسلام والمسلمين... رأوا أن فرنسا دولة تستحق ما جرى لها على يد أعضاء التنظيم. لكن المشكلة أنه حتى بعض المسلمين المستنيرين

حين استنكروا الاعتداءات لجأوا في الأخير إلى تبريرها. فقال بعضهم مثلًا: «نعم أنا ضد تلك التفجيرات، لكن فرنسا عليها الكف عن استفزاز المسلمين.» حتى نظريات المؤامرة راجت بخصوص هذه الاعتداءات، أين هي صور الضحايا؟ تساءل أحدهم على موقعي، في نظر هؤلاء هذا الحادث أيضا من تدبير المخابرات الفرنسية لاتخاذه حجة لضرب الإسلام.

تتبعت ردود الأفعال في العالم الإسلامي، فوجدت أن أغلب الأصوات الصادرة من العالم الإسلامي كانت تحاول تبرئة الإسلام أكثر من التعاطف مع الضحايا. أصدرت مؤسسة الأزهر في مصر مثلا بيانا مقتضبا واحدا يدين الاعتداءات الإرهابية في باريس، لكن بالمقابل في ثلاث مناسبات انتقد شيخ الأزهر الغرب وحذره من المساس بالمسلمين ومقدساتهم ووضع مثل ذلك المساس في مستوى الإرهاب نفسه الذي تعرضت له باريس. وبعد ثلاثة أيام من الاعتداءات خرج الأزهر «يطالب الحكومات الغربية بحماية المسلمين، ومنع الاعتداء على مساجدهم، واحترام قدسيتها»،[٧] وكأن الأوربيين هم الإرهابيون، والمسلمين هم الضحايا الذين على العالم حمايتهم في وقت كانت فرنسا ما زالت تحت صدمة العمليات وما زالت تبحث عن الجناة. وفي اليوم التالي، جدد الأزهر نداءه إلى المجتمعات الغربية:

> داعيًا الحكومات الغربية إلى اتخاذ كافة الإجراءات والتدابير اللازمة لحماية المسلمين في دولهم من أية اعتداءات يتعرضون لها، وإلى عدم الخلط بين أفعال قلة منحرفة من المسلمين وتعاليم الدين الإسلامي التي تدعو إلى السلام والتسامح والتعايش مع الآخر.[٨]

٧. بوابة الأزهر الإلكترونية، «الأزهر الشريف يدين حرق مساجد المسلمين في الغرب».
٨. بوابة الأزهر الإلكترونية، «الأزهر يدين مشاهد العنف المتصاعدة ضد المسلمين في الغرب .. ويؤكد: التحريض على المسلمين يخدم الإرهاب».

الهـدف هـو حمايـة مقدسـات المسـلمين مـن النقـد، حـتى لا يكـون الإسـلام محـط اتهـام. فاتهـام الإسـلام بأيـة علاقـة مـع العنـف هـو خلـط على الدول الغربيـة تجنبـه، كمـا يقـول البيـان. وأنـا أسـأل: كـم شـخصًا مـات نتيجـة هـذا الخلـط؟ كـم شـخصًا مـات نتيجـة الكراهيـة تجـاه المسـلمين في فرنسـا بعـد الأحـداث الإرهابيـة؟ أنـهى الإرهابيـون حيـاة ١٣٠ شـخصا مـن الأبريـاء وهـم يهتفـون «الله أكـبر» اقتـداء بمحمـد الذي كان أول مـن قـال الله أكـبر قبـل القتـل.[٩] ومـع ذلـك يخصـص الأزهـر أغلـب بياناتـه لتحذيـر الحكومـات الغربية ولتنبيههـا للكراهيـة تجـاه الإسـلام والمسـلمين. على الغـرب ألا يضـع الإسـلام في قفـص الاتهـام حـتى لـو فقـد العـشرات مـن أبنـاءه بسـبب العقائـد الإسـلامية. هكـذا يفكـر شـيوخ الأزهـر.

لمـاذا لـم يخصـص الأزهـر وقتـه وطاقتـه لمخاطبـة المسـلمين لتصحيـح عقائدهـم إن كان يعتقـد أنـه تـم تحريفهـا؟ لمـاذا لا يقـوم بمراجعـة شـاملة للفقـه الإسـلامي عـوض تخصيـص وقتـه لنقـد الغـرب؟ وبعـد الهجمـات الإرهابيـة بأسـبوع، ألـقى شـيخ الأزهـر كلمتـه على مجلـس «حكمـاء المسـلمين» الذي يترأسـه. فكانـت كلمته عبـارة عـن دفـاع مسـتميت عـن الإسـلام في مجملهـا تهـدف إلى تبريـر الإرهاب الإسـلامي وإيجـاد مـبررات له خـارج الديـن الإسـلامي. فمـرة يقـول: «إن بواعـث الإرهـاب ليسـت قـصرًا على الانحـراف بالأديـان نحـو فُهـومٍ مغشوشـةٍ مُدلّسـة، بـل كثـيرًا مـا خـرج الإرهـاب مـن عبـاءة مذاهـب اجتماعيـة واقتصاديـة بـل وسياسـية.»[١٠] يقـوم شـيخ الأزهـر بمغالطـة منطقيـة في تبريـره، مغالطـة «وأنـت كذلـك»، أنتـم كذلـك عندكـم في تاريخكـم إرهـاب، وبمـا أن الإرهـاب حصـل نتيجـة عوامـل أخـرى في التاريـخ، فالإسـلام بـريء إذن اليـوم.

---

٩. كان محمـد أول مـن قـال «الله أكـبر» قبـل القتـل، كان ذلـك خـلال غـزوة خيـبر، هاجـم القبيلـة صبحـا والنـاس ذاهبـون لأعمالهـم ثـم صـاح مـع أصحابـه «الله أكـبر، خربـت خيـبر». والحديـث موجـود في صحيـح مسـلم، كتـاب الجهـاد والسـير، بـاب غـزوة خيـبر، وصحيـح البخـاري، كتـاب الجهـاد والسـير، بـاب التكبـير عنـد الحـرب.

١٠. بوابة الأزهر الإلكترونية، «الإمام الأكبر: الإرهاب مرض فكري ونفسي لا دين ولا هوية له».

يمضي شيخ الأزهر في بيانه ليقول إن البلدان الإسلامية هي الأخرى عرضة للإرهاب الغربي، حيث قال بالحرف:

> وقد مررنا نحن المسلمين وما زلنا نمر بأضعاف أضعاف هذه الهجمات الإرهابية التي شنتها علينا جيوش وعصابات اتخذت من الأديان رداءً وستارًا. وسالت منا دماء لم تتوقف حتى هذه اللحظة التي أتحدث فيها إليكم.[١١]

ثم يعود وينبه إلى حرق المصاحف والمساجد بأنها إرهاب أيضا ليعمم القضية ويصير الكل إرهابيا ويخرج الإسلام بريئا من المسألة، حيث قال:

> على الذين أقدموا على ارتكاب جريمة حرق المصحف وحرق بيوت الله في الغرب أن يعلموا أن هذه الأفعالَ هي -الأخرى- إرهاب بكل المقاييس، بل هي وقود للفكر الإرهابي الذي نعاني منه، فلا تردوا على الإرهاب بإرهاب مماثِل، وليس من المنتظر أبدا ممن يزعمون التحضر والتقدم إهانة مقدسات الآخرين على مرأى ومسمع من الناس.[١٢]

يجعل شيخ الأزهر من يحرق مصحفا إرهابيا مثل الذي يقتل ١٣٠ شخصا في باريس. فالاثنان إرهابيان. فإهانة المقدسات عنده توازي الإرهاب.

أنا شخصيا أعدّ حرق المساجد جريمة وأعلم أن القوانين الغربية تعاقب عليها، مع العلم أن هذه الأحداث منعزلة وقليلة بحيث لا تُذكر، ولم يذهب ضحيتها أحد. وأنا ضد حرق المصاحف، لكنني لا أستطيع أن أقول إن حرق مصحف هو عمل إرهابي. يريد شيخ الأزهر أن يعمم تهمة الإرهاب على الناس أجمعين، بمنطق «إن عمّت هانت» حتى لا يظهر بوضوح

---

١١. نفس المصدر.
١٢. نفس المصدر.

أن الإرهاب الإسلامي له علاقة بالإسلام وبعقائده ونصوصه المقدسة. وغرض شيخ الأزهر من ذلك البيان هو تبرئة الإسلام. وقد بدا ذلك واضحا من فقرة مركزية في بيانه تلخص الأمر كله حين قال:

> والدرس الذي يجب أن يعيه الجميع، وبخاصة في هذه الظروف العصيبة التي يمر بها العالم، أن الإرهاب لا دِينَ له، ولا هوية له، ومن الظلم البين، بل من التحيز الفاضح، نسبة ما يَحدُث الآن من جرائم التفجير والتدمير التي استشرت هنا أو هناك، إلى الإسلام، لمجرد أن مرتكبيها يطلقون حناجرهم بصيحة «الله أكبر» وهم يقترفون فظائعهم التي تقشعر منها الأبدان.[١٣]

كنت سأوافق شيخ الأزهر لو كان أولئك الذين يصيحون «الله أكبر» غيروا التعاليم وزيفوها. لكن حين نجد أن أول من صاح «الله أكبر» قبل غزواته وقبل قتله للناس هو محمد رسول الإسلام، فحينها عليه أن يراجع أوراقه. فنموذج الإرهابيين هو محمد، وكل ما فعله أعضاء التنظيم مطابق لما فعله محمد في حياته، وأية إدانة للتنظيم هي إدانة لأفعال محمد الواضحة في سيرته التي كتبها المسلمون الأوائل ولم يكتبها غيرهم.

هل ينتشر الإسلام بعد كل عملية إرهابية؟

هنالك ظاهرة أخرى ترافق الاعتداءات الإرهابية، وهي أن وسائل الإعلام في العالم الإسلامي تقوم بالترويج لانتشار الإسلام بعد كل حادثة، وكأنها تقول للناس: لقد كانت مؤامرة لضرب الإسلام، لكن الحمد لله بعد هذه الواقعة قد انتشر الإسلام أكثر. قال لي أحد المعلقين على صفحتي على الفايسبوك مرة: «الحمد لله بعد كل عمل إرهابي يقبل الأمريكيون والأوروبيون على اقتناء نسخ أكثر من القرآن ويزداد عدد المعتنقين للإسلام.» لم أتمالك نفسي

١٣. بوابة الأزهر الإلكترونية، «الإمام الأكبر: الإرهاب مرض فكري ونفسي لا دين ولا هوية له».

من هذا التحليل الذي تساهم في انتشاره وسائل الإعلام الإسلامية بشكل متعمد، فقلت له: هل أفهم من كلامك أنه على الإرهابيين أن يكثروا من أعمالهم الإرهابية ليزداد انتشار الإسلام أكثر؟

مثلا، أوردت هسبريس، الجريدة الإلكترونية الأولى في المغرب، عنوانا يقول: «إقبال فرنسي كبير على المصاحف بعد استهداف «شَارلِي إيبدُو».»[١٤] وكتبت جريدة اليوم السابع المصرية، وهي واحدة من أكثر الجرائد المقروءة في العالم العربي: «ارتفاع مبيعات «القرآن» المترجم للفرنسية ٥ أضعاف بعد أحداث شارلي إبدو.»[١٥] وحصل الشيء نفسه بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. مثلا، أورد موقع إسلام ويب القطري مقالة عنوانها: «تزايد اعتناق الإسلام فى أمريكا بعد ١١ سبتمبر».[١٦] وكتبت صحيفة بوابة فيتو الإلكترونية المصرية، وهي واحدة من الجرائد الصاعدة، مقالا عنوانه «الإسلام بعد أحداث «١١ سبتمبر».. زيادة معتنقى الإسلام في أمريكا لـ ٤ أضعاف».[١٧] وتجد داخل المقال بعض الإحصائيات التي ليس لها مصدر عن زيادة عدد المعتنقين للإسلام بفعل الأحداث مثل هذه الإحصائية الغريبة التي ساقتها كاتبة المقال: «بعض الخبراء الأمريكيين يقدرون عدد الأمريكيين الذين يعتنقون الإسلام سنويا بـ ٢٥ ألف شخص.»[١٨] ليس همّ هؤلاء الكتاب الحد من العمليات الإرهابية، بل الدفاع عن الإسلام والإبقاء على هيبته، والترويج له على أنه سريع الانتشار حتى حين تحصل العمليات الإرهابية، بل يزداد انتشاره كلما حصل عمل إرهابي معين. يصدّق هذه الدعاية الإعلامية كثيرون من البسطاء حتى صارت عندهم من المسلّمات، ولن تنتهي إلا بالتصدي لها وفضحها وتعريتها، لأنها أقل

١٤. هسبريس، «إقبال فرنسي كبير على المصاحف بعد استهداف «شَارلِي إيبدُو»».
١٥. اليوم السابع، «ارتفاع مبيعات «القرآن» المترجم للفرنسية ٥ أضعاف بعد أحداث شارلي إبدو».
١٦. إسلام ويب، المقالات، «تزايد اعتناق الإسلام فى أمريكا بعد ١١ سبتمبر».
١٧. بوابة فيتو، «الإسلام بعد أحداث «١١ سبتمبر».. زيادة معتنقى الإسلام في أمريكا لـ ٤ أضعاف..».
١٨. نفس المصدر.

ما يمكن أن يقال عنها أنها تشجيع على ارتكاب المزيد من العمليات الإرهابية. فإن كان الإرهاب يزيد الإسلام انتشارا، فعلى المسلمين أن يشكروا إرهابيي ١١ سبتمبر ويشكروا داعش والقاعدة، لأنها تنشر الإسلام لهم بسرعة لن يستطيعوا تحقيقها عن طريق أساليب الدعوة التقليدية.

أسئلة عقائدية بخصوص العمليات الإنتحارية

هناك ثلاثة أسئلة متعلقة بالعمليات الإرهابية في باريس علينا الإجابة عليها حتى نفهم عقلية الانتحاريين والعمليات الانتحارية. وأنا شخصيا لا أرى أنها ستتوقف في القريب العاجل، لذلك علينا أن نعالج الجذور العقدية لها ومن أين أخذت. لأننا إذا أردنا القضاء عليها بصفة نهائية علينا القضاء على منابعها الفكرية أولا.

السؤال الأول: هل يجيز الإسلام العمليات الانتحارية؟

نعم! يجيز الإسلام أن يدخل المسلم المجاهد وسط العدو ويحدث أكبر خسارة في صفوفه حتى لو كان سيُقتل في سبيل ذلك، ولذلك سميت العمليات الانتحارية بهذا الاسم، لأن الشخص الذي يقوم بالعملية يعلم مسبقا أنه «كالمنتحر» لن ينجو بنفسه. وهناك أدلة كثيرة في الإسلام اعتمد عليها الفقهاء ومشايخ الإسلام لإباحة العمليات الانتحارية لكن بشروط. فمن الآيات التي تمدح المسلم المجاهد الذي يقاتل في سبيل «الله» فيَقتل الآخرين ويُقتل في سبيل ذلك الآية التي تقول: «إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ».[١٩] إنهم يَقتُلون ويُقتَلون. لقد مدحهم الله وجعل الجنة جزاء لهم على تضحيتهم تلك.

١٩. سورة التوبة، الآية ١١١.

لقد حدد علماء الإسلام شروط العمليات الإنتحارية منها: أن تكون لوجه الله، أي الغرض منها أن يكون نصرة الدين ونصرة المسلمين، وإلحاق أضرار جسيمة بأعدائهم. ولذلك قال أحد العلماء المعاصرين المحترمين في العالم الإسلامي، وهو الشيخ الألباني:

> وفي الحديث ما يدل على جواز ما يعرف اليوم بالعمليات الانتحارية التي يقوم بها بعض الشباب المسلم ضد أعداء الله، ولكن لذلك شروط، من أهمها أن يكون القائم بها قاصدا وجه الله، والانتصار لدين الله.[٢٠]

وليس هذا رأي الشيخ الألباني وحده حتى لا يقول قائل بأنه رأي شاذ، بل إن القرطبي، وهو من كبار المفسرين المعتمدين في العالم الإسلامي، يقول:

> لو حَمل رجل واحد على ألف رجل من المشركين وهو وحده، لم يكن بذلك بأس إذا كان يطمع في نجاة أو نكاية في العدوّ؛ فإن لم يكن كذلك فهو مكروه؛ لأنه عرّض نفسه للتّلف في غير منفعة للمسلمين... وإن كان قصده إرهاب العدوّ ولِيُعْلَم صلابة المسلمين في الدّين فلا يبعد جوازه. وإذا كان فيه نفع للمسلمين فتَلِفَتْ نفسُه لإعزاز دين الله وتوهين الكفر فهو المقام الشريف الذي مدح الله به المؤمنين.[٢١]

هذه القاعدة معروفة عند علماء الإسلام ولكنها مجهولة عند دارسي الإسلام في الغرب ومتتبعي الحركات الجهادية. وهذه القاعدة لها اسم في الجهاد تسمى «قاعدة الانغماس في العدو». وقد كتب عن هذه القاعدة الكثير من علماء المسلمين، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية الذي سمى أحد كتبه المتخصصة في هذا الموضوع «قاعدة الانغماس في العدو وهل يباح». وقد مضت على

---

٢٠. صحيح موارد الظمآن في زوائد ابن حبان صفحة ١١٩. و محمد ناصر الدين الألباني، من أشهر علماء الحديث المعاصرين، ولد في ألبانيا ودرس في سوريا، توفي سنة ١٩٩٩ في الأردن.

٢١. تفسير القرطبي ٢: ٣٦٥، لسورة البقرة الآية ١٩٥.

هذا الكتاب حوالي سبعة قرون حتى الآن، ما يعني أن هذه القاعدة ليست حديثة مع ظهور داعش والحركات الجهادية بل هي قديمة جدا ومعروفة عند علماء الإسلام. قال ابن تيمية في تعريفه لقاعدة الانغماس:

> الرجل أو الطائفة يقاتِل منهم أكثر من ضِعْفَيهم إذا كان في قتالهم منفعة للدين، وغلب على ظنهم أنهم يُقتَلون، كالرجل يحمل وحده على صف الكفار ويدخل فيهم، ويسمي العلماء ذلك «الانغماس في العدو»، فإنه يغيب فيهم كالشيء ينغمس فيه فيما يغمره.[٢٢]

وبحسب هذه القاعدة، يُعدُّ منفذو هجمات الحادي عشر من سبتمبر ممن قاموا بالانغماس في العدو الأمريكي وإلحاق الضرر به. والهدف هو نصرة الإسلام والمسلمين والتأثير في العدو بأكبر خسارة ممكنة. لقد كانوا يعلمون أنهم سيموتون في سبيل ذلك، لكن من المؤكد أنهم كانوا يتمسكون بآيات القرآن التي تعدهم بالجنة إن هم قتلوا أنفسهم في سبيل الله وفي سبيل قتل أعدائه من الكفار. وفي نفس السياق فجّر منفذو هجمات باريس أحزمتهم الناسفة. ليس بهدف الانتحار، بل بهدف الانتقام من العدو «فرنسا» لأنها هاجمت الدولة الإسلامية وشاركت في التحالف الذي يقصف معاقله في سوريا والعراق. يُعدُّ هؤلاء الذين نفذوا تلك العمليات «انغماسيين»، لأنهم التزموا بقاعدة الانغماس في العدو التي تحدث عنها شيوخ الإسلام، فجروا أنفسهم بعد أن أطلقوا النار على الناس عشوائيا. وكان هدفهم نصرة دولة الخلافة الإسلامية ونصرة الإسلام وإضعاف العدو، وبالتالي فعملياتهم جائزة شرعا ولا تخالف الشروط التي وضعها الفقهاء.

ليس هذا الأمر بجديد في الإسلام، لقد حدث منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة. كان أحد المجاهدين المسلمين ينغمس في العدو وحده ويحدث أضرارا

---

٢٢. قاعدة الانغماس في العدو لابن تيمية صفحة ٢٣.

كبيرة في صفوفهم، وهو يعلم أنه لن يخرج حيا من وسطهم. كان بعض أصحاب محمد يقومون بعمليات انتحارية وسط أعدائهم. وكان النبي محمد يبارك تلك العمليات ويفرح بها ويَعُدّها نصرا إلهيا. ولذلك قال ابن تيمية: «فقد كان الرجل وحده على عهد النبي يحمل على العدو بمرأى من النبي وينغمس فيهم، فيُقَاتِل حتى يُقتَل وهذا كان مشهورا بين المسلمين على عهد النبي وخلفائه.»[٢٣] وهكذا يقتدي منفذو العمليات الانتحارية في القرن الحادي والعشرين بمنفذي العمليات الانتحارية في القرن السابع الميلادي وما بعده. والاختلاف الوحيد بينهم هو الأدوات، حيث كان ينفذ مجاهدو الأمس عملياتهم الانتحارية بالسيوف وأدوات القتال التقليدية، في حين أن مجاهدي اليوم ينفذونها بالكلاشينكوف والأحزمة الناسفة.

ليس هذا الرأي رأيا وهابيا أو رأيا متشددا في الإسلام، بل هو رأي المذاهب الفقهية الأربعة عند أهل السنة (وهم يشكلون الغالبية العظمى من المسلمين اليوم). فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولهذا جوز الأئمة الأربعة أن ينغمس المسلم في صف الكفار، وإن غلب على ظنه أنهم يقتلونه؛ إذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين.»[٢٤] إن شرط المصلحة هنا شرط نسبي. فكل واحد يستطيع أن يرى مصلحة في نسف حزام ناسف وسط الكفار أعداء الإسلام. فداعش ترى أن تفجير الفرنسيين سيخيفهم وسيثنيهم عن القيام بمزيد من العمليات العسكرية ضد التنظيم في الرقة وفي البصرة وغيرها من المناطق التي يسيطرون عليها، وسيرفع معنويات المقاتلين والجهاديين في صفوفها، ويضعف فرنسا إقتصاديا وأمنيا، ويخلق مشكلات لا حصر لها للاتحاد الأوروبي والدول المشاركة في التحالف الدولي ضد داعش. أفليست هذه مصلحة كبرى للإسلام والمسلمين في نظر داعش؟ ورأت القاعدة في تفجير برجي نيويورك مصلحة كبرى للقاعدة

٢٣. قاعدة الانغماس في العدو لابن تيمية صفحة ٤٦.
٢٤. مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨: ٥٠١.

وللمسلمين، لأن الهجوم سيتسبب في إضعاف أمريكا، وفي زرع الرعب في قلوب الأمريكيين، وفي ضرب اقتصادهم. فشرط المصلحة متوفر إذن في هذه الهجمات كلها لأن المصلحة كلٌّ يراها بطريقته.

قامت السعودية باستنكار العمليات الانتحارية في باريس ورأت أنها لا تمت للإسلام بصلة، لكنك تجد في الوقت نفسه علماء سعوديين مكرمين عند الأسرة المالكة ولهم وزن عند الشعب ولهم أتباع ومريدون يتحدثون عن العمليات الانتحارية ويؤيدونها بلا مواربة. فالسعودية تمارس النفاق السياسي، تبيع خطابا سياسيا للغرب وتسمح بخطاب داخلي للاستهلاك الداخلي وسط شعبها ووسط عموم المسلمين. فالعمليات الانتحارية ضد أعداء الله وأعداء الإسلام جائزة في رأي كبار علماء وشيوخ السعودية. فعلى سبيل المثال، قال الشيخ سلمان بن منيع وهو عضو هيئة كبار العلماء في السعودية ومستشار ملكي:

> لا شك أن العمليات الانتحارية في سبيل الله ضد أعداء الله ورسوله وأعداء المسلمين قُربة كريمة يَتقرب بها المسلم إلى ربه، ولا شك أنها من أفضل أبواب الجهاد في سبيل الله، ومن استشهد في مثل هذه العمليات فهو شهيد إن شاء الله.[٢٥]

أما الشيخ سلمان العودة، وهو شيخ معروف ومشهور عند المسلمين، والمشرف العام على موقع إسلامي كبير اسمه «الإسلام اليوم»، وعضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، فقد قال:

٢٥. الموسوعة الشاملة، كتاب الفتاوى الندية في العمليات الاستشهادية، الصفحة ١٢.

> ومن يقوم بهذه العمليات وفق الشروط المعتبرة شرعاً فهو بإذن الله شهيد إذا صحت نيته، إنما الأعمال بالنيات، يدعى له ويترحم عليه... ويجوز الصرف على هذه العمليات من بيت المال، أومن الزكاة لأنها من سبيل الله.[٢٦]

وأما الشيخ حمود بن عقلاء الشعيبي،[٢٧] الذي كان من أكبر المؤثرين في الجهاديين السعوديين الذين شاركوا في هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وهو من الشيوخ الذين لهم وزن ولهم كلمة عند الجهاديين عموما، فقد قال في أحد فتاواه:

> العمليات الاستشهادية المذكورة عمل مشروع، وهو من الجهاد في سبيل الله إذا خلصت نية صاحبه وهو من أنجح الوسائل الجهادية ومن الوسائل الفعّالة ضد أعداء هذا الدين لما لها من النكاية وإيقاع الإصابات بهم من قتل أو جرح ولما فيها من بث الرعب والقلق والهلع فيهم، ولما فيها من تجرئة المسلمين عليهم وتقوية قلوبهم وكسر قلوب الأعداء والإثخان فيهم ولما فيها من التنكيل والإغاضة والتوهين لأعداء المسلمين وغير ذلك من المصالح الجهادية... ويدل على مشروعيتها أدلة من القرآن والسنة والإجماع.[٢٨]

في نفس السياق رخّص الشيخ يوسف القرضاوي، «شيخ الجزيرة»، أو «شيخ قطر»، ورئيس اتحاد علماء المسلمين، العمليات الانتحارية الفلسطينية وعدَّها جهادا في سبيل الله، حيث شدد على أنها:

---

٢٦. الإسلام اليوم، فتوى ردًا على الجدل حول العمليات الاستشهادية.
٢٧. توفي سنة ٢٠٠٢.
٢٨. إسلام ويب، «عالم سعودي : العمليات الفدائية جهاد في سبيل الله».

> فدائية بطولية استشهادية، وهي أبعد ما تكون عن الانتحار، ومن يقوم بها أبعد ما يكون عن نفسية المنتحر... المنتحر يقتل نفسه من أجل نفسه، أما الفدائي فيقدم نفسه ضحية من أجل دينه وأمته، ويقاتل أعداء الله بسلاح جديد وضعه القدر في يد المستضعفين ليقاوموا به جبروت الأقوياء المستكبرين.[٢٩]

ولذلك لا تسمى العمليات الانتحارية «انتحارية» في البلدان الإسلامية، بل يسمونها عمليات استشهادية، نظرا لأن المنفذ شهيد عند الله مات من أجل الإسلام ومن أجل رفعة الدين ونصرته ونصرة المسلمين، وبالتالي فإن جزاءه الجنة والحور الحسان. وأما الذين يحاولون الفصل بين الإسلام اليوم وبين العمليات الانتحارية عليهم أن يواجهوا فتاوى الشيوخ المبنية على نصوص القرآن ونماذج من السنة.

السؤال الثاني: ماذا لو كان بين القتلى أشخاص أبرياء؟

إن أول شيء علينا أن نجيب عليه بخصوص هذا السؤال هو تعريف كلمة «أبرياء». فالأبرياء في نظرنا ليسوا أبرياء في نظر الجهاديين، وبالتالي مصطلح أبرياء مصطلح نسبي.. أبرياء بالنسبة لمن؟ الكفر ملة واحدة والكفار أعداء في نظر العقيدة الإسلامية، وهم أعداء الله وأعداء المسلمين لمجرد كونهم كفارا.[٣٠] وأما إذا كانوا محاربين فإنهم ألد الأعداء وليسوا أعداء فحسب. فأمريكا في نظر القاعدة وداعش عدوة بكفرها أولا، وعدوة بحربها ثانيا، فهي عدوة مضاعفة. وينطبق الشيء نفسه على فرنسا. فهي عدوة لكونها معقل الكفر، وعدوة مضاعفة بسبب حربها على الدولة الإسلامية. ولذلك تعدّ محاربتها مشروعة عند مجاهدي التنظيم. فالفرنسيون

---

٢٩. الجزيرة نت، «القرضاوي: العمليات الاستشهادية من أعظم أنواع الجهاد».

٣٠. يقول القرآن: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ» سورة الممتحنة، الآية ١.

غير أبرياء في نظر التنظيم، لأنهم انتخبوا حكومتهم، وبالتالي هم موافقون على تصرفاتها وعلى حربها ضد التنظيم. والأموال التي تصرف على الحرب هي من ضرائبهم، فهم مشاركون في الحرب بطريقة أو بأخرى. والذين ينفذون الغارات في الطيران الفرنسي هم من أبنائهم، لذلك لا يعدّ قتل الفرنسيين عشوائيا في أي هجوم قتلا للأبرياء. علينا أن ننظر من منظور المجاهدين، لا من منظورنا نحن. فنحن نقول عن الذين كانوا في المسرح وفي الملعب أنهم أبرياء ولكن التنظيم لا يَعُدّهم أبرياء. وينطبق الشيء نفسه على قتلى هجمات ١١ سبتمبر. فهم ليسوا أبرياء في نظر القاعدة. هم مشاركون في حرب أمريكا ضد «الإسلام». فالشعب الأمريكي يساند إسرائيل، والشعب الأمريكي يدعم الجيش الأمريكي في حروبه، ويرسل أبناءه للمشاركة فيه. وبالتالي، لا يأسف المجاهدون لموت حتى المواطن البسيط الذي كان يشتغل في مكتبه يوم الحادي عشر من سبتمبر وقتل في تلك العمليات. فهو كافر من الكفار أولا، وهو عدو مشارك في العداوة ولو بطريقة غير مباشرة.

الأمر الثاني في المسألة، حتى لو كان هناك من هو بريء بين القتلى فرضا، وليكن مثلا شخصا مناهضا لسياسات أمريكا، او شخصا مناهضا لسياسات فرنسا، أو حتى مناصرا للجهاد في الخفاء، ويدعم الجهاديين في قرارة نفسه، وحدث أن قتل أثناء الهجوم وكان ضمن الضحايا، فإن موته في عرف الجهاديين لا يعدّ مشكلة، لأن المصلحة الكبرى تتغلب على مفسدة موته. فنصرة الدولة الإسلامية وتحقيق أكبر الخسائر في صفوف العدو أولى من الحفاظ على بضعة أشخاص من الأبرياء. هل هناك أية نصوص تؤيد هذه الأفكار؟ هذا مؤكدّ! فلا توجد فكرة لدى الجهاديين دون أن يكون لها سند شرعي. فقتل «الأبرياء» جائز إن كان سبيلا لقتل رؤوس الكفر ولنصرة الإسلام وإلحاق ضرر كبير بأعداء الإسلام. تتحدث نصوص إسلامية كيف كان المسلمون الأوائل يهجمون على القبائل «الكافرة» ليلا.

كانوا يقتلون النساء والصبيان وهم أبرياء لا يشاركون في الحرب. لكن لا يمكن الهجوم على القبائل إلا ليلًا. وبطبيعة الحال، تحدث في مثل هذه الهجمات الليلية خسائر كثيرة في صفوف «المدنيين». فجاء أصحاب محمد إليه يسألونه عن هذا الأمر إن كان حلالًا أم حرامًا. فأجاز محمد قتل الصبيان والنساء ما دامت تتحقق من خلاله مصلحة قتل باقي الكفار من الكبار وإلحاق الضرر المعنوي والمادي بهم وبقبائلهم.[٣١] بل هناك باب خاص في صحيح مسلم يحمل عنوان «باب جواز قتل النساء والصبيان في البيات من غير تعمد». والصبيان والنساء أبرياء في الحرب، لكن محمدًا أجاز قتلهم طالما أن الغرض هو قتل الكبار ولا سبيل إلى الوصول إلى الكبار إلا بقتل الجميع فيذهب الصغار ضحية. وقياسا على ذلك، يستطيع المجاهدون قتل «الأبرياء» إذا كان القصد هو قتل الكبار و«غير الأبرياء» من الكفار.

السؤال الثالث: ماذا لو كان بين القتلى مسلمون؟

كان هناك مسلمون بين الضحايا في باريس وفي هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وفي الهجمات الانتحارية التي تحدث في العراق والشام وغيرها من البلدان. فما وضعهم؟ هل يجوز قتل مسلمين؟ في الإسلام، يجوز قتل مسلمين إذا كان العدو محتميا بهم ولا سبيل إلى قتله إلا بقتل مسلمين معه. وتدخل هذه الرخصة تحت باب معروف عند الجهاديين يسمى «قاعدة التترس»، وتعني قاعدة الاحتماء. أي حين يحتمي العدو بالمسلمين أو بغيرهم ممن ليسوا هدفا للمجاهدين فإن المجاهدين يمكنهم حينها قتل الترس ومن يحتمي خلفه، ويكون المسلم الذي يموت قد ذهب عند ربه ويبعث يوم القيامة على نيته.

---

٣١. جاء في صحيح مسلم ١٢: ٤١، «سُئِلَ النَّبِيُّ عَنِ الذَّرَارِيِّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؟ يُبَيَّتُونَ فَيُصِيبُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ. فَقَالَ: «هُمْ مِنْهُمْ».»، وفي رواية أخرى «هم من آبائهم» كتاب الجهاد والسير، باب «جواز قتل النساء والصبيان في البيات من غير تعمد».

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «قد اتفق العلماء على أن جيش الكفار إذا تترس بمن عنده من أسرى المسلمين وخيف على المسلمين الضرر إذا لم يقاتلوا فإنهم يقاتلون وإن أفضى ذلك إلى قتل المسلمين الذين تترسوا بهم.»[٣٢] وينطبق هذا، بطبيعة الحال، على الحالة التي يضع فيها العدو مسلمين أمامه لحمايته أو في حالة اختلاط العدو بمسلمين. ويمضي ابن تيمية ليقول:[٣٣]

> وهؤلاء المسلمون إذا قُتلوا كانوا شهداء، ولا يترك الجهاد الواجب لأجل من يُقتل شهيداً. فإن المسلمين إذا قاتلوا الكفار فمن قُتل من المسلمين يكون شهيداً، ومن قُتل وهو في الباطن لا يستحق القتل لأجل مصلحة الإسلام كان شهيداً.

وليست هذه العقيدة من اختراع ابن تيمية. فالعديد من الفقهاء وعلماء الإسلام أكدوا هذا الأمر. لكن المشكلة تكمن في أن الجهاديين أكثر اطلاعا على فقه الجهاد من المسلمين العاديين، بحكم أنه يحاولون ممارسة الجهاد على أرض الواقع. فهم يبحثون في كل ما يختص بالجهاد ويعرفون أدق تفاصيله.

قال الشيخ القرطبي المفسر هو الآخر:

> قد يجوز قتل التُّرس، ولا يكون فيه اختلاف إن شاء الله، وذلك إذا كانت المصلحة ضرورية كليَّة قطعية. فمعنى كونها ضرورية: أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس. ومعنى أنها كلية: أنها قاطعة لكل الأمة، حتى يحصل من قتل الترس مصلحة كل المسلمين.[٣٤]

٣٢. مجموع الفتاوى ٢٨: ٥٤٦.
٣٣. نفس المصدر ٢٨: ٥٤٧.
٣٤. تفسير القرطبي ١٦: ٢٨٨، لسورة الفتح الآية ٢٥.

وهنـاك نصـوص قـاس عليهـا المسـلمون قاعدتهـم هـذه، منهـا أن محمـدا أجـاز قتـل الصبيـان والنسـاء في سـبيل قتـلِ البالغـين مـن الرجـال مـن الكفـار. ومنهـا أيضـا نـص آخـر قـال فيـه محمـد إن الله سيخسـف الأرض بأنـاس كثيريـن بسـبب جيـش سـيغزو الكعبـة في الأيـام الأخـيرة، فاعترضـت زوجـة محمـد عائشـة على الأمـر بسـبب أنـه وسـط مـن سيخسـف الله بهـم الأرض أنـاس أبريـاء، فقـال محمـد إن الله سيخسـف بهـم الأرض جميعـا ثـم يـوم القيامـة مـن كانـت نيتـه صافيـة سـيبعثه الله على نيتـه.[٣٥] فـإن كان الله لا يمـيز بـين الظالـم والـبريء ويخسـف الأرض بالنـاس جميعـا حـتى يفصـل بينهـم يـوم القيامـة، فـإن المجاهديـن يقـلدون الله في فعلـه ويخسـفون الأرض بالنـاس جميعـا ولاسـيما أنهم متأكـدون أن الكفـار أكـثر مـن المسـلمين، ويتركـون لله أمـر الحسـم في نواياهـم وفـرز المسـلم مـن الكافـر يـوم القيامـة.

الخلاصـة هي أن الاعـتراض على مسـألة قتـل الكفـار بحجـة وجـود مسـلمين وسـطهم ليـس اعتراضـا قويـا، لأن هنـاك في الإسـلام مـا يبيحـه، وهـو جـواز قتـل الـترس في سـبيل الوصـول إلى الكافـر، حـتى إن أحـد كبـار مفـسري الحديـث[٣٦] قـال:

> إنْ تَـتَرَّس الكفـارُ بالمسـلمين. فالحكـمُ فيهـم أن نرميهـم، وننـوي الكُفّـارِ، لأنـه إمَّـا أن نَكُـفَّ عـن القتـال فننهـزم؛ أو نقاتـلَ فنقتـل المسـلمين أيضًـا. فـلا منـاصَ إلا بإحـدى البَلّتَـين، فاخترنـا أَهْونَـهما، ونوينـا الكفـارَ لئـلا يلـزم قَتْـلُ المسـلمين قَصْـدًا.[٣٧]

٣٥. جـاء في البخـاري ٢: ٧٤٦، كتـاب البيـوع، بـاب «مـا ذكـر في الأسـواق»، حديـث عـن عائشـة قالـت بـأن محمـدا قـال: «يَغـزو جَيشٌ الكعبـةَ، فـإذا كانـوا بَبيـداءَ مـنَ الأرض يُخسَـفُ بأوَّلِهـم وآخرِهـم. قالـت: قلـتُ يـا رسـولَ اللهِ كيـفَ يُخسَـفُ بأوَّلِهـم وآخرِهـم وفيهـم أسـواقُهم ومَـن ليـس منهـم؟ قـال: يُخسَـف بأوَّلهـم وآخرِهـم، ثـمَّ يُبعَثـونَ على نِيّاتِهـم».

٣٦. يعقوب بن حسن العاصمي الكشميري الحنفي، مفسر، ومحدث، عاش في القرن السادس عشر الميلادي.

٣٧. فيض الباري للكشميري ٤: ٢٢٥.

وهكـذا يجـوز للمسـلمين قتـل مسـلمين آخريـن إذا كان ذلـك هـو الحـل لقتـل الكفـار وإلحـاق الـضرر بهـم ونـصرة الإسـلام والمسـلمين.

ينطبـق الأمـر نفسـه على الطائـرة الروسـية الـتي تبـنّى التنظيـم إسـقاطها، حـتى لـو كان فيهـا أبريـاء ومسـلمون. فالمكاسـب أكـثر مـن الخسـائر، ومكسـب هزيمة أعـداء الدولـة الإسـلامية أعظـم مـن مـوت بضعـة مسـلمين. وسـتظل الطائـرات الهـدف المفضـل للإرهابيـين ولاسـيما أن مجلـة القاعـدة «إينسـباير» تحدثـت عن كيفيـة صنـع القنابـل اليدويـة في المـنزل وتهريبهـا إلى الطائـرات لاسـتهدافها،[٣٨] تحـت مـا صـار يعـرف بالجهـاد المفتـوح OSJ، الجهـاد الذي يمكـن بموجبـه للذئـاب المنفـردة ولـكل شـخص مسـلم أن يقـوم بـه دون الحاجـة إلى الاتصـال بمركـز القيـادة. إنهـا عمليـة توفـير المعلومـات الجهاديـة لـكل المسـلمين في بقـاع الأرض وتحريضهـم على تنفيذهـا ضـد أعـداء الله وأعـداء الرسـول. ومـن المؤسـف أننـا نـرى أن الكثـير مـن العمليـات مـن هـذا النـوع قـادم لا محالـة إن لـم تتخـذ الدول الغربيـة خطـوات اسـتباقية.

منفذو هجمات باريس والهوية الدينية

إن أصـول منفـذي هجمـات باريـس، وعلى رأسـهم عبـد الحميـد أباعـود، مـن شـمال إفريقيـا خصوصـا مـن المغـرب والجزائـر. فحـتى لـو كانـوا قـد ولدوا في أوروبـا في بلجيـكا وفرنسـا، فـإن عقولهـم تربـت تربيـة إسـلامية، مثلمـا عشـت أنـا على منطـق «نحـن .. وهُـم»، «مسـلمون .. وكفـار»، فـإن كثيريـن مـن هـؤلاء نشـأوا تحـت التأثـير نفسـه، حيـث كانـت الأسرة تطلـب مـن ابنهـا ألا يقلـد الكفـار، وأن يبتعـد عنهـم، وأن يتشـبث بهويتـه الإسـلامية. فنحـن المسـلمون وهـم الكفـار، ونحـن أحسـن منهـم، وسنسـودهم في يـوم مـن الأيـام. سـاهمت هـذه الأسرة بشـكل كبـير في تكويـن الشـخصية الإرهابيـة. لـم تتأقلـم أسر

٣٨. مجلة إنسباير، العدد ١٣.

كثيرة مع الثقافة الأوروبية فانعزلت في محيطها، فصار أبناؤها يعيشون داخل مجتمعات ضيقة حتى لو كانت هذه المجتمعات داخل أوروبا. فهي لا تمت إلى أوروبا بصلة، بل هي منفصلة عن أوروبا ثقافيا وزمنيا. فيعيش الشباب نوعا من التوتر بسبب الهوية. ومن المؤسف أن الإسلام علَّمنا أن هويتنا هي الإسلام فحسب، وأنه لا قيمة للأوطان أو لباقي مكونات الهوية. فلا افتخار للمسلم إلا بإسلامه، وهو يحتقر باقي المكونات. فقد أمر محمد أتباعه بأن يسبوا من افتخر بحسب أو نسب أو أي مكون من مكونات الهوية غير الإسلام.[٣٩]

هؤلاء الإرهابيون من أمثال صلاح عبد السلام وإبراهيم عبد السلام وعبد الحميد أباعود من ضحايا التربية الإسلامية داخل الأسرة، ثم المسجد ثم المحيط. فهذه العوامل كلها التي تستمد مقوماتها من التعاليم الإسلامية تحث على كره الكافر، وعلى كره ما يأتي من الكفار، وعلى التعالي الإسلامي وعلى التغنّي بالماضي وتمنّي إقامة حكومة إسلامية تحكم بشريعة إسلامية كلها ساهمت في خلق هذه العينة من الشباب الذي يعدّ نفسه في صراع مع المجتمع الذي ولد فيه، وأكل من خيراته، واستقبل والديه وأسرته، وأخذ من أموال دافعي الضرائب فيه. يرى هذا المجتمع كافرًا، وأنه على باطل، مجتمع فاسد عليه أن يصححه ويجعله يخضع لشريعة الله. عليه أن يجاهد فيه لينصر الحق على الباطل. حتى طريقة قتل أباعود وهروب صلاح عبد السلام تدل على تعاطف المسلمين معهم خصوصا من المغاربة والجزائريين، فالسلطات الفرنسية لم تعلم بوجود عبد الحميد أباعود على أراضيها إلا بمساعدة من المخابرات المغربية،[٤٠] وهذا دليل على أن عيون المغرب داخل المساجد في فرنسا (لحماية نظامه لا لحماية فرنسا) تمكنت

٣٩. يقول الحديث إن من افتخر بشيء من جاهليته مثل نسبه أو حسبه أو أي شيء يمت للجاهلية بصلة علينا أن نقول له اعضض ذكر أبيك، «من تعزَّ بعزاء الجاهلية فاعضوه بهن أبيه ولا تكنوا»، سنن النسائي الكبرى ٥: ٢٧٢.

٤٠. سي إن إن بالعربية، «مخابرات المغرب أبلغت فرنسا بوجود عبدالحميد أباعود على أراضيها...».

من معرفة وجود عبد الحميد في منطقة سان دوني، ولم يبلغ عنه أحد من سكان المنطقة (وغالبيتهم من شمال إفريقيا) السلطات الأمنية الفرنسية رغم علم الكثيرين بوجوده، فالتضامن مع أخ في الدين أقوى من الانتماء لفرنسا والدفاع عنها. أما صلاح عبد السلام فقد ساعده مغاربة على الهرب من باريس إلى بروكسيل، وقدم له آخرون المساعدة ليختبئ من السلطات[٤١]، والسبب في ذلك هو الأخوة الدينية فهي التي تدعو إلى نصرة المسلمين ضد أعداء الدين.

قالت فرنسا إنها ستغلق مساجد المتشددين في فرنسا، وستطرد الأئمة المتشددين.[٤٢] وهذه خطوة إيجابية رغم أنها جاءت جد متأخرة، لكنها في الوقت نفسه غير كافية. فهنالك أسر كثيرة وتعاليم كثيرة تبث سموم الكراهية تجاه الغرب وسط الجاليات الإسلامية. والسبب في ذلك هو التعاليم الدينية التي تشربناها منذ الصغر. نحتاج إلى نشر قيم التسامح والتآخي والتعاون. ولكن من المؤسف أن الإسلام لا يتعامل بهذا المنطق. فهو كدين يصنف الناس إلى مؤمنين وكفار، إلى «نحن» و«هم»، ونحن سنغلبهم في يوم من الأيام. هكذا تعلمتُ وهكذا تعلم كثيرون من الشباب المسلم. يحتاج الإسلام إلى مراجعة شاملة وتغيير جذري. وعلى المسلمين أن يواجهوا تراثهم، فغلق بضعة مساجد أشْبَهُ بتناول شخص حبات مسكن وهو يعاني من السرطان الذي ينتشر في أنحاء جسمه كلها يوما بعد يوم.

عملية سان برناردينو في كاليفورنيا

يوم ٢ ديسمبر ٢٠١٥ قام سيد رضوان فاروق وزوجته تاشفين ملك بعملية إرهابية أودت بحياة ١٤ شخص وخلفت ٢٢ جريحا، الزوجان مسلمان ملتزمان. العملية لم تكن من تخطيط تنظيم الدولة لكن الزوجين بايعا التنظيم

---

٤١. مجلة هسبريس، «هكذا وصل صلاح عبد السلام إلى بلجيكا بعد «هجمات باريس»».
٤٢. الجزيرة نت، «فرنسا تهدد بإغلاق المساجد «المحرِضة على الكراهية»».

على الفايسبوك. وتُعَد هذه العملية من نوع العمليات التي شجع التنظيم أنصاره عبر العالم على القيام بها، هذان الذئبان من الذئاب المنفردة استطاعا القيام بعملية قتل جماعية ضد من يعتبرونهم كفارا من الأمريكان. والمناسبة حفلة من حفلات «أعياد الميلاد» المسيحية. للوقت دلالته، فعيد الميلاد المسيحي مظهر صليبي في نظر المسلمين، وخطباء المساجد كما الشيوخ يحذرون المسلمين من الانخراط في هذه الأعياد، وقد حاول من قبل الإرهابي عمر الفاروق عبد المطلب القيام بعملية إرهابية ضد طائرة أمريكية فوق ولاية ميشيغان ليلة عيد الميلاد المسيحية سنة ٢٠٠٩. قتل «الكفار» في أعيادهم واحدة من الاستراتيجيات المتبعة من قبل التنظيمات الإرهابية الإسلامية، لأن ذلك يعطيهم شعورا بالانتصار على الغرب الصليبي في حفلاتهم وتحويلها إلى أحزان، إنهم يريدون تحويل أفراح الغرب إلى خوف وحزن ودمار.

اسم الزوج العائلي «فاروق» وهذا اسم من أسماء ثاني خلفاء الإسلام «عمر بن الخطاب» والذي أجلى المسيحيين واليهود من جزيرة العرب، وهو الذي غزا القدس وفرض عهدته الشهيرة على المسيحيين ولذلك تسمى العهدة العمرية نسبة إليه. اسم الزوجة تاشفين وهو اسم عائلي للقائد المغربي المسلم «يوسف بن تاشفين» الذي أسس المدينة المغربية الشهيرة مراكش في القرن الحادي عشر، وكان يطلق عليه لقب أمير المسلمين، وهو الذي ضم الأندلس إلى المغرب وهزم الملك ألفونسو السادس في معركة الزلاقة بعد أن خيره بين الإسلام أو الجزية أو الحرب. من أسماء الإرهابيين يمكن القول أنهما تربيا في عائلات محافظة تحاول التشبث بالتاريخ الإسلامي وبتربية أبنائها على نفس ما كان عليه المسلمون الأوائل، من المستغرب أن الاسمين لهما علاقة كبيرة بالعداء تجاه المسيحيين.

دوافع العملية بين الدين واللباقة السياسية

إن الهدف من هذه العملية هو نفس الهدف من غزوة باريس، وهو إرهاب الأعداء وقتل أكبر عدد منهم. وجد المحققون ثلاث قنابل يدوية «قنابل أنبوبية» بحوزتهما أثناء تنفيذ الهجوم، و١٢ قنبلة في البيت، هذه القنابل هي من القنابل التي شرح تنظيم القاعدة كيفية صنعها في مجلته «إنسباير» ، والغرض كان هو تشجيع الذئاب المنفردة على تعلم الجهاد المفتوح Open Source Jihad. إن قنابل الطائرات، والقنابل الأنبوبية، والاغتيالات، هي استراتيجية من ضمن الوسائل التي استخدمتها القاعدة والآن يتعلمها الإرهابيون رغم أنهم يبايعون تنظيم داعش، القاعدة تعلم وداعش تحصد الثمار، والهدف في الأخير واحد رغم العداء بين القاعدة وداعش. سيواجه الغرب الكثير من هذه العمليات في الأيام القادمة: استهداف الطائرات بقنابل منزلية محلية الصنع، استهداف تجمعات بقنابل أنبوبية، واستهداف شخصيات لها تأثير كبير باغتيالات مخطط لها سابقا، والهدف بطبيعة الحال هو إرهاب الغرب واستنزافه.

الغريب أنه بعد الحادث بأيام كانت وسائل الإعلام الأمريكية لازالت تتساءل عن أهداف العملية، وكأن القتل والإرهاب ليس هدفا من أهداف الجماعات الإسلامية، ما يريده المحللون في الغرب هو معرفة الأهداف المادية، لكن لا يعلمون أن القتل في حد ذاته هدف عند الإرهابيين الإسلاميين، فإلحاق أكبر عدد من الخسائر في صفوف الأعداء وإرهابهم والرفع من معنويات المسلمين عبر العالم هدف في حد ذاته عندهم.

رد محمد المعروف للمسيحيين بالشر، استقبلوا أصحابه في الحبشة وأعطوهم الحرية الدينية والحماية اللازمة فرد لهم ذلك المعروف لاحقا بالأمر بطردهم من جزيرة العرب حتى لا يبقى إلا المسلمون. سيد فاروق ولد في أمريكا وحاز جنسيتها ودرس على نفقتها وأكل من خيرها وقام أصدقاؤه

بحفلة لمولودته فرد لهم الجميل بأن قتلهم، كل ما قاموا به لا يعتبره جميلا، هم كفار مهما فعلوا، وما قاموا به فضل من الله لأن الله سخرهم لخدمته هذا هو تفكير هؤلاء. حتى تاشفين ملك ينطبق عليها نفس الشيء: لقد أخذت فيزا لأمريكا وهي كارهة لأمريكا، لم تذهب لأمريكا حبا فيها بل ذهبت لكي تنتقم من أمريكا رأس الكفر. الكثيرون من المسلمين بسبب العقيدة الإسلامية يتربون على كراهية البلدان الغربية التي يعيشون فيها. مرة أخرى السبب هو الأسر التي تربوا فيها وتشربوا منها تلك التعاليم، وكذا المساجد، والمناهج الدراسية، والكتب الدينية والتي كلها نهلت من منبع واحد وهو النصوص الإسلامية.

هناك مسؤولية كبرى تتحملها الحكومات الغربية لأنها لحد الآن لم تعرف العدو ولم تحدده، ولم تتعرف على أفكاره وأهدافه، فأمريكا مثلا تحاول ألا تستهدف المسلمين بالمراقبة دون غيرهم حتى لا يعتبر ذلك نوعا من العنصرية، لكن لا يوجد حل أكثر فاعلية من البروفايلين Profiling، وهي خطة متبعة في كل المجالات، لا يمكن أن أراقب مسيحيين سوريين مثلا وأغلب العمليات الإرهابية تأتي من مسلمين، سيكون عبثا تجنب مراقبة فئة معينة رغم كل الأصابع التي تشير إليها، اللباقة السياسية ستدمر أمن الغرب، مسلم ملتزم مثل سيد فاروق، حافظ للقرآن، يقوم بشراء أسلحة ويقوم بالتدريب على الرماية ومع ذلك لا تتم مراقبته، هذا غباء لا حدود له، هذه المظاهر لوحدها كان ينبغي أن تثير حفيظة المتجر الذي باع له الأسلحة فيبلغ عنه، وتثير حفيظة صاحب المكان الذي يتدرب فيه سيد فاروق فيبلغ عنه هو الآخر، عدا السلطات التي كان من المفروض أن تكون على علم بتطرفه وبحيازته للأسلحة. التطرف والسلاح وصفة جاهزة للإرهاب، لكن الأمريكيين لازالوا يعيشون سذاجة بالغة تجاه الإسلام سيدفعون ثمنها غاليا إن لم يتداركوا الأمر في الأيام القادمة.

-١٧-

مفترق الطرق: تبريرات وحلول

إله من دون قلب

منذ أن عـرف والدي وأهـلي بـتركي للإسـلام وأنـا في صراع معهـم بطريقة أو بأخـرى. لـم تعـد الأمـور كمـا كانـت مـن قبـل. فقـد تـبرأ مـني بعـض أفـراد العائلـة، وصـار بعضهـم يحتقـرني ويتحاشـاني، وقطـع بعضهـم صلاتـه كلهـا بي، حيـث تمنّـوا لـو لـم أكـن في يـوم مـن الأيـام فـردا مـن العائلـة. وخـلال هـذه المـدة، جـرت مشـادات كلامية مـع أقربـائي ولاسـيما والدي ووالدتي. إذ وجـد والدي الإمـام في مسـجد القريـة نفسـه يواجـه النـاس وهـم يتخذونـني حجـة ضـده، إذ كانـوا يهينونـه عـن طريـقي، فـصرت مصـدرا للعـار بالنسـبة له، فكيـف يعلّمهـم عـن الديـن وابنـه تـرك هـذا الديـن والتحـق بالنصـارى والكفـار، وانتقـل مـن صـف الأمـة الإسـلامية إلى صـف الأعـداء؟ واجهـني مـرة والغضـب يتطايـر مـن عينيـه وهـو يسـألني: لمـاذا تركـت الإسـلام؟ لمـاذا فعلـت هـذا بنـا؟ ألا تـرى أنـك مرغـت رأسي في الـتراب؟ مـا الذي فعلتـه حـتى أسـتحق

منك ذلك؟ كنت أنا أيضا منفعلا، أبكي، أبكي للحالة التي أنا فيها. دفعتني قناعاتي إلى ترك الدين، لكني بتصرفي آذيت أهلي. فماذا يسعني أن أفعل؟ هل أخون قناعاتي رغبة في إرضاء أهلي أم أبقى مخلصا لقناعاتي وأتحسر على أهلي. لم أتحمل رؤية والدي في هذه الحالة المزرية، أشفقت عليه وعلى نفسي، وعلى أمي المسكينة التي لا تدري ما تفعل. كانت تبكي هي الأخرى لأني صرت مضغة للألسنة. يريد كل شخص أن يفتخر بابنه، لكن أنا لم أعد مصدر فخر للأسرة، صرت مصدرا للازدراء والسخرية. صار بعضهم يسخر من والدي الذي كان الناس يقبلون يديه حين يرونه في الطريق، وكان هذا بسببي. فحين واجهني أبي بسؤاله، لم أعرف ماذا أقول، سوى أني قلت له: ماذا يأمرك دينك أن تفعل معي؟ توقف عن الجواب وهو ينظر إلي خائفا، ثم قال لي ماذا تقصد؟ أعدت السؤال مرة أخرى: ما الذي يطلبه منك الإسلام تجاهي؟ قال لي: أنت تعرف الجواب، فلماذا تسأل؟ قلت له لأني أريد أن أسمعها من فمك. قال لي : نعم الإسلام يطلب مني أن أقتلك لأنك مرتد.[1] لكني لن أفعل ذلك، وأنت تعرف ذلك جيدا. قلت له: اقتلني أرجوك، وأرحني، اقتلني لأني سئمت الحياة وسئمت هذه الحالة. لا أريد أن أعيش. كان المشهد صعبا عليّ وعليه. أخذ يبكي وقال لي أنت تعلم أني لا أستطيع لأنك ابني، أتريدني أن أقتل ابني؟ قلت له: أرأيتَ؟ أنت لك قلب، لكن الإله الذي تعبده ليس له قلب.

أوردت هذه القصة لأنها تلخص المأساة التي نعيشها في العالم الإسلامي. هنالك مسلمون كثيرون طيبون، مثل والدي ووالدتي.. قلوبهم قلوب بشر، عاطفية، يحبون الناس ويحبون الخير، ولكنهم يتبعون عقيدة أحيانا تطلب منهم أن يدوسوا مشاعرهم في سبيل الله، في سبيل العقيدة. لهم قلوب،

---

١. قتل المرتد متفق عليه بين المذاهب الإسلامية الأربعة، والمذهب المالكي الذي يتبعه المغرب مذهب يحكم بالقتل على المرتد أيضا، وهناك حديث مشهور لمحمد قال فيه: من بدل دينه فاقتلوه. وحديث آخر يقول بأنه لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: .. (منها) المفارق لدينه التارك للجماعة.

ولكن إلههم يطلب منهم نزع هذه القلوب. لذلك حين يقول شخص إن المسلمين طيبون فكيف يكون الإسلام عنيفا؟ أقول له بكل بساطة إن المسلم الطيب غلَّب إنسانيته على دينه. ولحسن حظنا، فإن الأغلبية قامت بذلك وإلا لكنا أمام مأساة عالمية بكل مقياس ممكن. إذ يختار مسلمون كثيرون من دينهم بعض الطقوس أو بعض التعاليم ويجهلون (أو يتجاهلون أحيانا) باقي التعاليم الأخرى. كانت والدتي تأخذ من الإسلام الصلاة والصيام والحجاب وبعض الأمور البسيطة، وتتجاهل الباقي. فمثلا، حين ترى القتل، تقول لي: ليس هذا من الإسلام. فالإسلام لا يأمر بالقتل. لم تقم والدتي بدراسة العقيدة بالتفصيل لتصل إلى تلك النتيجة، بل فقط لأنها تكره القتل وتكره العنف. تعتقد أن هذا ما يجب أن يكون عليه الإسلام. وبمعنى آخر، فإنها تسقط إنسانيتها على الدين الذي تحبه، كل ما تحبه من خير تعتقد أنه يوجد في الإسلام. لا تبحث عنه، بل تفترض أنه موجود وهذا يكفيها. وبالمقابل، يعرف والدي أن القتال واجب، وأن قتل المرتد أيضا واجب، ولكنه يعترف أنه لا يستطيع القيام به. ويقول: «لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا».[٢] وبذلك يجد مَخْرَجا لنفسه يعفيه من القيام بأشياء ضد فطرته وضد مشاعره كأب وكإنسان. هناك ملايين المسلمين مثل والدي ومثل والدتي. ولذلك تجد المسلمين الطيبين في كل مكان في العالم. لكن هل تعني طيبتهم أن الإسلام لا يأمر بكره اليهود والنصارى وبقتالهم؟ لا أبدا. ولذلك أفرّق دائما بين الإسلام والمسلمين. فمن حق أي إنسان أن ينتقد العقيدة دون أن يُتهم بكرهِ أصحاب تلك العقيدة. فانتقاد فكرة ما، بل حتى كره تلك الفكرة، لا يعني كره أصحابها، لا أكره والدي المسلم ولا والدتي المسلمة، لكني أرفض تلك العقيدة التي يمكن أن تحول أبا حنونا في لحظة إلى وحش يقتل ابنه ليرضي إلهه.

٢. سورة البقرة الآية ٢٨٦.

المسلمون الطيبون والإسلام

لا يمثل المسلمون الذين لا يقومون بالجهاد دليلا أن الإسلام لا يعلم الجهاد، كما أن المسلم الذي لا يتزوج أربع نساء لا يعني أن الإسلام لا يعلم ذلك.[٣] لم يتزوج والدي بأي امراة أخرى عدا أمي، على نقيض أصدقائه من الشيوخ وإخوته، لكن هذا لا يعني عدم وجود هذا التعليم في الإسلام. بل يعني أن حب والدي لوالدتي وإخلاصه لها أعظم من عقيدته، أو أن ظروفه لم تسمح بذلك. كما أن عدم قطع يد السارق أو عدم رجم الزاني أو جلده في بلدان إسلامية لا يعني ذلك أن هذه العقائد غير موجودة في الإسلام. بل يعني هذا فقط أن المسلمين في تلك الدول لا يطبقونها لأسباب كثيرة منها الضغوط الدولية. وقد يرفضها بعض المسلمين لأنهم غلَّبُوا إنسانيتهم على دينهم. فهي موجودة في الدين، ولذلك لا يمكن أن نأخذ نسبة المسلمين الذين لا يقومون بأعمال إرهابية كحجة على عدم وجودها في الإسلام. فمثلا لو وجدنا نسبة كبيرة من المسلمين لا تصلي الصلوات الخمس، فهل سيعني ذلك أن الإسلام لا يعلم خمس صلوات؟ ليس الإسلام ما يفعله المسلمون أو ما لا يفعله المسلمون. الإسلام هو النصوص التي تأسس عليها، من قرآن وأحاديث وسيرة محمد، إضافة إلى تفسير تلك النصوص وتطبيقها في العصور الأولى لتأسيسه. وبعد ذلك نقيس تصرفات المسلمين اليوم بناء على تلك النصوص، ما له علاقة بالنصوص يمكن لوم الإسلام عليه، وما ليس له علاقة بتلك النصوص لا يمكن لوم الإسلام عليه.

هل داعش تمثل مليار ونصف مسلم؟

هناك حجة أخرى يطرحها بعض المدافعين عن الإسلام، حيث يقولون إن «داعش» لا تمثل الإسلام لأنه لا يمكن لمليار ونصف أن يمثلهم بضع عشرات الآلاف من الإرهابيين، هل من المعقول أن نلوم المسلمين جميعًا

٣. جاء في القرآن «فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ»، سورة النساء الآية ٣.

على تصرفات نسبة صغيرة منهم؟ وهذه في الحقيقة مغالطة منطقية، لأن السؤال نفسه خطأ من البداية. فليس السؤال هو: من يمثل المسلمين؟ بل: من يمثل الإسلام؟ فالمسلمون لم يتفقوا في يوم من الأيام على من يمثلهم. فالشيعة لن يمثلهم السُّنة، والسُّنة لن يمثلهم الشيعة. وستجد داخل الطوائف نفسها مذاهب منقسمة أيضا. فالسلفيون لن يقبلوا أن يمثلهم الصوفيون والعكس صحيح.. وهكذا. وبالتالي، فإن الحديث عن داعش والإسلام لا يعني أن داعش تمثل المسلمين. السؤال الذي ينبغي أن نطرحه: هل داعش تطبق الإسلام أم لا؟ فإذا وجدنا مثلا أعضاء داعش يصومون ويصلون الصلوات الخمس، ويطبقون الحدود من قطع يد السارق، وجلد، ورجم، وقتل المثلي، وقتل المرتد، وقتل شاتم الرسول، ... بينما أغلبية الدول الإسلامية تحافظ على بعض الطقوس مثل الصوم والصلاة ولا تطبق الحدود الأخرى ، هنا تكون داعش أكثر تطبيقا للإسلام من تلك الدول الإسلامية (مثل المغرب وتونس والجزائر ومصر والكويت والإمارات... إلخ). فداعش أكثر إخلاصا للنص من هؤلاء. فالإمارات مثلا لا تقطع يد السارق، في حين أن قطع يد السارق موجود في القرآن كما رأينا.[4] وفي هذه الحالة، أيهما أكثر تطبيقا للنص: الإمارات أم داعش؟ ومن الذي يطبق صيغة الحكم (الخلافة) كما طبقها الصحابة؟ من الذي يخيّر المسيحيين بين الجزية والإسلام أو القتال كما جاء في النصوص؟[5] من الذي يعيد إحياء ملك اليمين كما جاء في القرآن؟[6] إن كانت كل الدول الإسلامية تتجاهل ما في تلك النصوص القرآنية ولا تطبقها، فلا يعني هذا عدم وجودها في الإسلام، بل يعني فقط أن الدول الإسلامية محرجة من تطبيقها على أرض الواقع في المرحلة الحالية. فداعش أكثر إخلاصا منها في تطبيقها

---

٤. «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» سورة المائدة الآية ٣٨.

٥. سورة التوبة، الآية ٢٩.

٦. سورة النساء، الآية ٣.

للنصوص. لذلك علينا أن نكف عن التبريرات ونحاول أن نجد الحلول، لأن التبريرات تطيل عمر المأساة.

التشخيص الصحيح بداية الحلول

قبل العلاج يلزم التشخيص السليم، لأن التشخيص الخطأ يؤدي إلى علاج خطأ وربما إلى كوارث. وقبل الحل، ينبغي أن نعرف سبب الظاهرة. إذا لم تشخص كل ظاهرة تشخيصا دقيقا، فستنتج عن الحلول التي تطبق لمواجهتها كوارث. ومن المؤسف أنه لا يبدو أن الغرب مدرك حتى الآن لحجم خطورة العقيدة في صنع ما يحصل في الشرق الأوسط. فإذا كان الغرب قد وضع حدودا للدين، فإن الشرق ما زال ينظر إلى كل شيء من منظار الدين. ولا يمكن فصل ما يحصل في مصر وفي العراق وفي سوريا وفي اليمن وليبيا عن العقيدة. تحرك العقيدة شعورنا وبالتالي شعوبنا. ويمكن أن يربح حزب الانتخابات كاملة إذا استخدم عبارتي «قال الله» و«قال الرسول». ويمكن أن يحرض جماهير كلها على النزول إلى الشارع إذا أفهمهم ولو خطأ أن دينهم في خطر. جعلت الفضائيات والإنترنت خطب الشيوخ وفتاواهم في متناول كل شخص. وتشكل فضائيات دينية أخرى الأجيال الصاعدة وهي ما زالت في سنواتها الأولى، مثل قناة طيور الجنة[٧] التي تعلم الأطفال ليل نهار أناشيد دينية تحضهم على الكراهية وعلى الجهاد والفداء،[٨] حتى صرت تجد طفلا صغيرا يردد أناشيد الجهاديين دون أن يشعر. فالدين ليس مجرد عامل من بين عوامل كثيرة، بل هو أهم عامل تتبعه العوامل الأخرى. ولن يُغلب فكر تنظيم الدولة بالقوة وحدها، بل علينا أن نجد الحلول المناسبة بعد التشخيص الصحيح.

---

٧. قناة دينية للأطفال أُسست سنة ٢٠٠٨، يديرها خالد مقداد، أردني من أصل فلسطيني.

٨. الجزيرة، صحيفة سعودية، «طيور الجنة.. قنبلة موقوتة في كل بيت».

الإرهاب ونظرية الاختيار العقلاني

هناك نظريات كثيرة يحاول أصحابها من خلالها تفسير ظاهرة الإرهاب بصفة عامة والإرهاب الإسلامي بصفة خاصة. ومن أهمها نظرية الاختيار العقلاني. تقول هذه النظرية: «إن الناس مدفوعون بالمكافآت والتكاليف في تصرفاتهم وبالأرباح التي يحصلون عليها»[٩] بمعنى أن كل شخص يحسب تصرفاته ويقارن بين التكلفة والمكافأة، فإن رأى هناك صافي ربح في تصرفه ذاك قام به، وإلا فلن يكون له أي دافع للقيام به. ونحن لا نتحدث هنا عن الأرباح المادية فقط، بل المعنوية أيضا. ولكل واحد طريقته في حساب الأرباح. وأحيانا قد يختلط فيها المادي مع المعنوي أيضا. فإذا قاربنا تصرفات الإرهابيين بصفة عامة والإسلاميين منهم بصفة خاصة سنجد أن نظرية الاختيار العقلاني تفسر تصرفاتهم تفسيرا معقولا. فهم ليسوا مرضى أو حمقى أو مجانين أو مجرد أناس لا يفقهون شيئا، بل إنهم أناس قد جلسوا وحسبوا التكلفة وتوصلوا إلى قناعة مفادها أن ما سيخسرونه أقل بكثير مما سيربحونه، ولذلك عدّوا أن المخاطرة تستحق أن تخاض.

فمن يفجر نفسه ويعلم أنه سيبقى في النعيم خالدا وسيتخلص بالمقابل من عذاب هذا العالم، يكون تصرفه عقلانيا إذا أخذنا حسابه بعين الاعتبار. فالتكلفة هي أنه سيموت لكن الأرباح كثيرة: أُولاها أنه سيعيش خالدا في الجنة وما يرافق ذلك من نعيم. وثانيها أنه سيتخلص من ألم هذه الدنيا. وثالثها أنه سيُلحق بأعداء الإسلام خسائر في الأرواح وفي العتاد. ورابعها سيساهم في انتصار الدين الحق.. وسيبقى اسمه مخلدا كشهيد بين أصدقائه. تؤخذ كل هذه العوامل بعين الاعتبار. فالدين يلعب الدور الأساسي فيها. ولا يمكن أن يكون الربح المادي دافعا لشخص كي يقتل نفسه. ولا يمكن أن يكون الخلل النفسي وراء كل هؤلاء الانتحاريين الذين يرسلهم تنظيم

9. Iowa State University, "Understanding Contemporary Society."

الدولة لكي يفجروا جرافات في الجيش العراقي حتى يفتحوا منطقة ما. إنه خيار عقلاني مبني على حساب الربح والخسارة. وأما الحسابات التي تركز فقط على الأرباح المادية من أموال وأراضٍ وبيوت وزيجات التي يعطيها تنظيم الدولة للمقاتلين، فستبقى عاجزة عن تفسير ظاهرة الانتحاريين الذين يفجرون أنفسهم ويستعدون لذلك يومًا فيومًا وهم يصلون مع إخوانهم ويأكلون الكباب وينشدون الأناشيد الدينية. لذلك ينبغي أن يكون للحافز الديني الدور الأكبر في هذا القرار. وينطبق الشيء نفسه على الذين يتركون ديارهم وعائلاتهم وأقرب المقربين إليهم، سواء أكان ذلك في الغرب أم في الشرق ويلتحقون بتنظيم الدولة. لا يوجد ما يفسر قرارهم ذاك إلا الدافع الديني.

لا بد أن الجهاديين متدينون سواء أكان ذلك منذ مدة طويلة أم حصل تحول ديني في فترة من حياتهم لسبب أو لآخر. فمن أصل ١٥٥ جهاديًا درسهم مارك سايجمان، تَبيَّن أنهم كانوا جميعًا ملتزمين دينيا إلا واحدا قبل التحاقهم بالجهاد.[١٠] إذا أردنا أن نفهم تنظيم الدولة لا يمكن أن نفهمه بمعزل عن الدين. وبالتالي، ينبغي أن يبدأ الحل من التعامل مع النصوص الدينية ومع هذه الإيديولوجية التي ستؤدي إلى دمار الملايين من البشر. وبطبيعة الحال، فإني هنا لا أستثني الحل العسكري في القضاء على التنظيم على أرض الواقع، لكن تنظيم الدولة مجرد عارض من أعراض المرض، شأنه في ذلك شأن القاعدة، وبوكو حرام، وحركة الشباب في الصومال، وطالبان. فكلها أعراض للمرض نفسه. فالمواجهة العسكرية ضرورية، والاستخبارات سواء أكانت تكنولوجية أم بشرية وسائل ضرورية للقضاء على الإرهاب، لكننا نحتاج حلولا أكثر نجاعة للقضاء على المرض من جذوره، لا التخلص من أعراضه فقط، نحتاج علاجا لا مسكنات.

10. Understanding Terror Networks 93.

إلزام الدول الإسلامية باحترام حقوق الإنسان

أول الحلول هو أن يستخدم الغرب تفوقه العسكري والاقتصادي والسياسي في إجبار الدول الإسلامية بالطرق الدبلوماسية وبغيرها على احترام حقوق الإنسان كاملة. ويدخل في هذا حرية الاعتقاد وحرية التعبير. فصمت الغرب تجاه الاعتداءات المتكررة وخرق حقوق الإنسان جزء من المشكلة. إلى متى تتعامل الدول الغربية مع السعودية وتبيع صمتها مقابل الحفاظ على العلاقات الدبلوماسية أو بسبب المصالح الاقتصادية؟ إنه عار أن تلتزم الدول الغربية هذا السكوت المشين على دولة لا يسمح فيها للمرأة بالحصول حتى على رخصة قيادة سيارة، ولا يستطيع أي شخص أن يقول كلمة عن الأسرة الحاكمة، أو يعبر عن حقه في تغيير عقيدته أو في رفض العقيدة أو جزء منها. والسعودية مجرد مثل، لكن القائمة طويلة. وحالتا رائف بدوي ومحمد الشيخ ولد مخيطير في موريتانيا خير دليل. إذا شجعت الدول الرائدة حرية العقيدة وحرية التعبير، ودافعت عنها وأجبرت الأمم المتحدة هذه الدول على الالتزام بالمواثيق الدولية لحقوق الإنسان، نكون قد خطونا الخطوة الأولى والأهم تجاه الحل. وفضلًا عن ذلك، فإن أصوات الشباب وأصوات العلمانيين وأصوات اللادينيين والملحدين والعلماء من أبناء جلدتنا هي القادرة على خلق ميزان للقوى وامتحان أفكار الإسلاميين ووضعها أمام المناظرة والنقاش العقلاني عوض أن يكونوا في منأى عن ذلك بسبب الحكومات التي تقمع الأصوات كلها المخالفة للقطيع، ولذلك ينبغي أيضا محاربة قوانين ازدراء الأديان والمناداة بحذفها. فهي واحدة من أهم الأدوات المستخدمة في قمع حرية العقيدة وحرية التعبير. ويبدو أن سكوت الدول الغربية على ذلك دفع دولا مثل الإمارات والمغرب والكويت إلى اقتراح تبني هذه القوانين بعد أن كانت غائبة من ترسانتها القانونية. فالسكوت علامة الرضى في عالمنا العربي.

تغيير المناهج التعليمية في البلدان الإسلامية

ويكمن ثاني الحلول في تغيير المناهج التعليمية في جل البلدان الإسلامية، إن لم يكن في كلها. ينبغي أن تعتمد البرامج والمقررات التعليمية فيها على المنطق وعلى الحس النقدي لا على الحفظ والذاكرة. لكن السلطة الدينية لا تريد للتلاميذ حرية فكرية، لذلك لا تشجع الإبداع والتفكير الحر، بل تكرس الحفظ وسلطة النص. ينبغي أن يرهن الغرب مساعداته للبلدان الإسلامية بمؤشرات إيجابية سواء أكانت متعلقة بحقوق الإنسان أم بالتغيير الإيجابي في المنظومة التعليمية. وينبغي أيضا أن تخفف البرامج التعليمية من المواد الدينية ويتم ملؤها أكثر بالمواد العلمية التي تشجع على التجربة والابتكار، واعتماد النظريات الحديثة في الفيزياء والعلوم الطبيعية، وتشجيع الفلسفة والمنطق. فمن دون إصلاح المنظومة التعليمية، نكون كمن يدور في حلقة مفرغة. وسنواجه، بدلًا من تنظيم واحد، تنظيمات بالمئات في الأيام القادمة نابعة كلها من المنبع نفسه. وينبغي أيضا منع خطاب الكراهية من المقررات الدراسية، وتشجيع ثقافة الاختلاف واحترام الآخر. لن تكون هذه المقررات ناجحة إن لم تنفتح على الأدب العالمي وعلى ثقافات أخرى، وتشجيع التبادل الثقافي، والسفر، واحترام ثقافة الآخرين مهما كانت مختلفة دينيا أو عرقيا، وتعليم المساواة بين الناس حتى لو كانوا من أديان أخرى، أو بلا دين أو معتقد.

التصدي لسياسة الوجهين في البلدان الإسلامية

ثالثا، ينبغي إجبار الدول الإسلامية على الالتزام بما تمليه عليها علاقاتها، فلا يكفي أن تكون السعودية حليفا للدول الغربية رسميا في الظاهر فقط. بل عليها أن تكون حليفا في الداخل أيضا، بمعنى أنه لا ينفع النفاق السياسي، حيث تطلق الحرية لشيوخها ولنظامها التعليمي ولمواقعها الرسمية في نشر الوهابية وثقافة الكراهية تجاه الغرب «الكافر» وتنجو من

ذلك بعلاقاتها الدبلوماسية التي تظهر فيها العكس تماما. إذ لا يكفي أن تدين جريمة قتل صحافيي شارلي إيبدو، بل عليها أن تمنع كل ما يحرض على قتلهم. ينبغي القضاء على هذه الازدواجية بإلزام تلك الدول بأن تعكس هذه المواقف داخلها. فلا يمكن لقطر مثلا أن تكون من جهة حليفا لأمريكا ومن جهة أخرى تطلق العنان لقناة الجزيرة الممولة من أميرها لتشحن العالم العربي بالحقد والكراهية ضد أمريكا وضد الغرب عموما، وضد كل ما هو مسيحي أو يهودي. ومن غير المعقول أن تكون خطبة جمعة داخل مسجد في الرياض أو الدار البيضاء عبارة عن دعاء على أمريكا رأس الشيطان على مرأى ومسمع من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وفي الوقت نفسه يلتقط ملوكها الصور مع رئيس أمريكا في البيت الأبيض. ينبغي أن يوضع حد لهذه الشيزوفرينيا السياسية.

تشجيع الإصلاح الديني

الحل الأكبر والأهم هو الإصلاح الديني. فعلى الدول الإسلامية أن تتحلى بالجرأة لتتخلص من الكبرياء، فلا تقدس الماضي على حساب الحاضر. لقد اعترفت الكنيسة الأوروبية بعصورها المظلمة وتجاوزتها وعدَّتها من الماضي. وأما العالم الإسلامي فما زال يقدس الغزو والنهب والسرقة ويسميها فتوحات إسلامية. ولا أحد يريد الاعتراف بذلك. يريدون تقديس الماضي حتى لا يتجرأ أحد على نبشه. صحيح أن رئيسا مثل الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي دعا إلى إصلاح ديني في وجه التراث الإسلامي المتراكم،[١١] لكنه لم يفعل أي شيء على أرض الواقع لتسهيل هذا الإصلاح. فلم يشكل لجنة لتضع خطة معينة. بل اكتفى فقط بالترويج للفكرة وكأنها خطاب سياسي يلقى استحسانا في الغرب ولا يثمر شيئا في مصر نفسها. وهذه هي الازدواجية التي سبقتُ أن أشرتُ إليها. لقد منعت بعض البرامج الفضائية

١١. الجزيرة نت، «السيسي يدعو لثورة دينية ضد نصوص تم تقديسها لقرون».

التي تناقش النصوص الدينية حتى في عهد الرئيس السيسي، حيث تم إيقاف برنامج «مع إسلام» الذي كان يقدمه إسلام البحيري رغم أنه شخص مسلم. لكن لأنه تجرأ وناقش بعض الأحاديث الإسلامية وتحدى الأزهر، تم توقيف برنامجه وحكم عليه بالسجن.[١٢] ومن شأن ضغط الأزهر وارتفاع نسبة الأمية في مصر تأخير عملية الإصلاح، إضافة إلى انعدام الإرادة السياسية لدى الفاعلين. فإذا كان هذا حال مصر، فكم بالأحرى سيكون الأمر أصعب في السعودية وباقي البلدان الإسلامية.

على الدول الغربية أن تدفع الدول الإسلامية إلى التعجيل بعملية الإصلاح. فكل تأخير سيساهم في تعقيد الأمور أكثر. إذ تقتضي عملية الإصلاح التعلم من اللاهوتيين الغربيين الذين خطوا مجالات كثيرة في هذا الإطار. وينبغي أن تنفتح الجامعات في البلدان الإسلامية على نظريات جديدة في فهم النصوص الدينية، وتقبل أنها إنتاج بشري في آخر الأمر، وأن النص الديني خاضع للظروف التي ظهر فيها، فلا ينبغي أن نتشبث بحرفية النصوص التي تنظم الحياة في القرن السابع الميلادي على أساس أنها صالحة لتنظيم حياتنا اليوم. فمن شأن السماح بديمومة هذه النظرة الأحادية أن تجرف الآلاف من الشباب وتدمر مستقبلهم. ينبغي لمؤسسة الأزهر والجامعات السعودية أن تنفتح أكثر، كما ينبغي إدخال مواد نقد النص الديني حتى يكون للشهادات التي يعطونها معنى. فلن يتم الإصلاح إذا كانت الجامعات تعلم وجهة نظر واحدة. بل حتى مقارنة الأديان لا تدرَّس حسب أصولها، حيث تتم دائما المقارنة لأجل تفضيل الإسلام، لا لأجل المقارنة. يبدأ الإصلاح بتشجيع الأفكار وتشجيع البحث العلمي الرصين والتعلم من تجارب الآخرين ممن سبقونا. كما ينبغي أن تراقب الدول الإسلامية والغربية الخطب والدروس في المساجد، وأن ينصب التركيز على تعليم الناس

١٢. اليوم السابع، «القاهرة والناس: وقف برنامج إسلام بحيرى احترامًا للمصريين ومنعا للفتنة».

حب الحياة، وعمل الخير، وحب الناس أجمعين، عوض خطاب التميز والكراهية وتمجيد الحياة الأخروية على حساب الحياة الحالية. على الوعاظ والشيوخ أن يعلموا الناس الحياة في سبيل الله لا الموت في سبيله.

إصلاح الإعلام في البلدان الإسلامية

إصلاح الإعلام واحدة من أهم الخطوات التي ينبغي اتخاذها. ينبغي أن يكون الإعلام إعلاما مسؤولا، لا إعلاما يروج لنظريات المؤامرة، وشيطنة أمريكا والغرب واللعب على المشاعر عوض الحقائق. لا يخضع الإعلام في البلدان الإسلامية للصرامة المهنية نفسها الموجودة في البلدان الغربية، ولا يخضع للمحاسبة وتحري دقة الأخبار. فالإعلام في البلدان العربية يعتمد على السبق فقط حتى لو كان على حساب المعلومة. فأنت تجد تصريحات منسوبة إلى كلنتون أو لأوباما أو لآخرين دون توثيق للمراجع. فالمهم أن يدينوا أمريكا والغرب .. إعلام يدعي أن تنظيم الدولة صناعة أمريكية دون تقديم الأدلة، ليساهم في تأخر شعوبنا. بل تحولت حتى المواقع والقنوات الغربية التي عرفت بمهنيتها في الغرب حين أحدثت أقساما عربية لعلها تساهم في إغناء رصيد العرب والمسلمين في كثير من الأحيان إلى أبواق للإسلام مشابهة لقناة الجزيرة والعربية. فنحن نجد قناة مثل سكاي نيوز في موقعها العربي مساندة لموقف السعودية ومعادية للحوثيين حتى كادت تكون نسخة طبق الأصل لموقع «العربية نت» السعودي. فلا حيادية ولا هم يحزنون. ويهاجم موقع «البي بي سي» التنصير والمنصرين ويقتفي أثر أولئك الذين تركوا الإسلام وتحولوا إلى المسيحية،[١٣] وكأنه موقع إسلامي همه الدفاع عن الإسلام والمسلمين وتعقُّب من ينتقده. وهنالك قنوات أخرى مثل قناة الحرة الأمريكية والتي يشتغل فيها من يكره أمريكا ويلعنها

١٣. مثل تقرير البي بي سي الذي قام به عبد الرازق، مالا يقال: متنصرون .. الفيلم كاملا، بتاريخ ٢٧ مايو ٢٠١٠

مـن المسـلمين. والغريـب في الأمـر أن القنـاة أُسسـت خصيصـا لتحسـين صـورة أمريـكا في العالـم العـربي والإسـلامي ولخلـق تـوازن ضـد البروباغانـدا الـتي تقـوم بهـا قنـاة الجزيـرة ضـد أمريـكا، لكنهـا أنفقـت الكثـير مـن الأمـوال دون أن يتغـير شيء على أرض الواقـع. فمـا زالـت أمريـكا هي الشـيطان الأكـبر عنـد المسـلمين، وعلى وجـه التحديـد، في العالـم العـربي. على العالـم الغـربي أن يسـاعد العلمانيـين والمسـتنيرين على إنشـاء قنـوات فضائيـة مسـتقلة تتبـنى التفكـير النقـدي والتفكـير العلـمي والفكـر التنويـري. لقـد سـاعدت أمـوال الخليـج على انتشـار القنـوات الدينيـة الإسـلامية في العشريـة الأخـيرة، ولذلـك ينبـغي تشـجيع قنـوات بديلـة لمواجهـة هـذه القنـوات الـتي تنـشر خطـاب الكراهيـة وأدت بالشـباب إلى الانغـلاق والانـزواء والتقوقـع. وعلينـا في الوقـت نفسـه أن نسـاعد الشـباب المسـتنير في إيجـاد منابـر بديلـة وقنـوات فضائيـة خاصـة بهـم.

تجريم التكفير قانونيا

مـن أهـم الحلـول أيضـا أن يتـم تجريـم خطـاب التكفـير قانونيـا، ويتـم سـن آليـات لمحاسـبة الذيـن يكفـرون الآخريـن ويسـتبيحون دماءهـم. فالتحريـض على الكراهيـة ليـس حريـة تعبـير لأنـه يـؤدي إلى التمييـز والقتـل، وأن تتـم حماية الأقليـات في البـلدان الإسـلامية، والـتي تتعـرض للتكفـير والتمييـز والتحقـير. تتعـرض الأقليـات المتحولـة دينيـا مـن الإسـلام إلى أديـان أخـرى، والمسـيحيون، والملحـدون، والمثليـون، والعلمانيـون، والإيزيديـون، والدروز، وغيرهـم للاضطهاد والتمييـز في الـشرق الأوسـط وشـمال إفريقيـا، بـل تتـم محاكمـة الكثـير مـن المتحولـين أو تهديدهـم، كمـا تتـم محاكمـة كل مـن تعرض للإسـلام بتهمـة ازدراء الأديـان. على المجتمـع الدولي أن يتحمـل مسـؤولياته بـأن يرغـم الدول الإسـلامية على حمايـة تلـك الأقليـات. فـلا يعقـل أن يتـم تكفيرهـم ويتـم تجاهـل حقوقهـم أو التجـني عليهـا فقـط بحكـم أن هنـاك أغلبيـة مسـلمة. إن خطـاب التكفـير

أحد أهم آليات إنتاج الإرهاب، علينا القضاء عليه بترسانة قانونية تحمي المواطن كيفما كان دينه أو مذهبه.

عدم التساهل مع الإرهابيين بحكم إسلامهم

من الحلول الأخرى أيضا أن تتوقف الدول الإسلامية عن التواطؤ أو غض البصر عن الإرهابيين الذين يؤذون الغرب أكثر مما يؤذون هذه الدول. فمثلا، دولة مثل السعودية، عوض أن تبقي العقوبات الكبيرة على إرهابيي غوانتنامو، عمدت إلى إخضاعهم لبرنامج المناصحة لتعفو عنهم بعد ذلك ويتم إطلاق سراحهم بعد إكمال البرنامج. فهل يتم عمل مناصحة للقتلة والمجرمين في السعودية؟ أم أن هذه الفئة من المجاهدين فئة خاصة يتم التعاطف معها على أساس أنها أخطأت وتحتاج إلى المناصحة فقط؟ إنه تعاطف ملحوظ بحيث تتميز هذه الفئة دون غيرها بهذا الامتياز. فهنالك مدون مثل رائف بدوي يقضي عقوبة السجن عشر سنوات ويتم جلده، في حين يتم نصح إرهابي يتبنّى منطق القتل والإرهاب ويطلق سراحه بعد ذلك! ألا يدل هذا على أن السعودية لا تؤمن بأن هؤلاء إرهابيين؟ فالإرهابي لا يتم نصحه، بل تتم إدانته وتوقيفه ليتحمل مسؤولية إرهابه. وتكمن المشكلة في أن من بين الذين خاضوا برنامج المناصحة من عادوا للإرهاب وصاروا من قادة القاعدة، مثل سعيد الشهري الذي صار نائب قائد تنظيم القاعدة في الجزيرة العربية.[١٤] وتشير الإحصائيات إلى أن هناك حوالي ٥٩ شخصا ممن عادوا إلى الأعمال الإرهابية ممن انخرطوا في برنامج المناصحة السعودي. ورغم تخفيف السلطات السعودية من حدة هذا الرقم بادعاء نجاح البرنامج إذا ما قارنا عدد العائدين للإرهاب بمجموع من التحقوا بالبرنامج،[١٥] فإن هناك من شكك في نجاح البرنامج وتساءل عن فشله قبل

١٤. موقع الجزيرة نت، «سعيد الشهري». قتل سنة ٢٠١٣.
١٥. صحيفة عكاظ، «عودة ٥٩ شخصًا للأفكار الضالة بعد المناصحة لا يعني فشل البرنامج».

ذلك بسنوات حين كان عدد الإرهابيين العائدين للإرهاب أقل من ذلك بكثير.[١٦]

تركيا دولة أخرى سهلت الكثير لتنظيم الدولة، سهّلت مرور المقاتلين وسهلت وجود كثيرين من أعضائه على أراضيها ودخولهم وخروجهم بحرية، حتى إنها سهلت جمع التبرعات أيضا.[١٧] ولم يتغير موقف تركيا إلا حين حصلت تفجيرات تمسها. والذي يلعب بالنار لا بد أن تحرقه.[١٨] تغض دول إسلامية كثيرة النظر حين يتعلق الأمر بعداوة الإرهابيين للغرب الكافر، وكأنه نوع من غض الطرف بسبب أنهم في الأخير إخوة. ولا تتغير المواقف إلاّ حين يصيب الإرهاب البلد من الداخل. وقد تكرر هذا في تاريخ السعودية مع القاعدة. وفي تاريخ المغرب حين كان يغض الطرف في التسعينات عن ذهاب المجاهدين إلى أفغانستان. وينطبق الشيء نفسه على الدول الإسلامية الأخرى، مثل السودان مع بن لادن. هذه الأمثلة كلها توضح مدى التعاطف مع أبناء الأمة الإسلامية في عدائهم للكفار.

مراقبة أموال الجمعيات الإسلامية

من أهم الحلول الممكنة على الأمد القصير مراقبة أموال الخليج المستخدمة في الدعوة الإسلامية. فكثير من الأموال الخليجية التي ظاهرها الدعوة الدينية والمساعدات الإنسانية هي في باطنها تساعد في الإرهاب سواء أكان هذا بنشر أفكاره أم توسيع بؤره أم دعمه مباشرة. فالمساجد المفتوحة في البلدان الغربية والتي كانت السبب المباشر في ترسيخ عقائد التكفير والولاء والبراء ممولة من الخارج، وعلى وجه التحديد من البلدان النفطية الغنية. ويحصل تنظيم الدولة نفسه على الدعم أيضا من المتعاطفين

١٦. العربية نت، «هل فشلت المناصحة؟».
١٧. الجزيرة نت، «الحسابات التركية في الحرب على «داعش»».
١٨. دويتشه فيله بالعربية، «تركيا تشارك رسميا في الغارات الجوية للتحالف ضد داعش».

الأغنياء من دول الخليج. وقد كشفت المخابرات الأمريكية بعض المموليين من الخليج،[١٩] لكن من المؤكد أن هناك ممن استطاع أن يفلت من رقابة المخابرات إلى اليوم. فالتضييق ينبغي أن يأتي من الدول الإسلامية نفسها، إذ يجعلها تعاطفها هي أيضا تغض الطرف عن بعض الشخصيات التي لها علاقة بتمويل المجاهدين، بل إن دولا مثل قطر والسعودية قد قدمتا الدعم المالي المباشر للحركات الإسلامية في سوريا للإطاحة ببشار الأسد. فلماذا لا تصرف السعودية أموالها في مساعدة اللاجئين واستثمارها في مساعدة الناس عوض صرفها في مساعدة الجماعات الإسلامية وفي نشر فكرها الوهابي وإنشاء مراكز إسلامية في العالم كله؟ لماذا تسمح الدول الغربية بوجود شيوخ من السعودية في مساجدها مع العلم أن خطبهم ممتلئة بكراهية الآخر وتكفيره؟ على البلدان الغربية أن تتوخى الحذر من أموال النفط التي قد تستخدم في تدمير الحضارة الغربية والتي يكن لها الإسلام العداء الشديد.

التوقف عن الدفاع عن الإسلام

من الحلول السهلة أن يتوقف المسؤولون السياسيون في الدول الغربية عن تبرئة الإسلام. فهم بذلك لا يقدمون خدمة للمسلمين بمدح دينهم بل فقط يكرسون ثقافة عدم النقد، ويحبطون أية محاولة للإصلاح. فإن كان الإسلام جيدا وبريئا فلا حاجة للإصلاح إذن، لأن الغلط هو فقط في المطبقين. ومن شأن تصريحات القادة السياسيين في أمريكا وأوروبا أن تؤجل عملية الإصلاح وربما تنسفها. لماذا لا يتوقف دور السياسيين عند مواقفهم تجاه العمليات الإرهابية؟ لماذا يحاولون تبرئة ذمتهم من العداء للإسلام؟ هل يعتقدون بذلك أنهم قد غيروا من نظرة العالم الإسلامي إليهم؟ لا هم غيروا نظرة العالم الإسلامي إليهم على أنهم أعداء للإسلام ولا هم تركوا

١٩. قناة الحرة، «عقوبات أميركية على ثلاثة كويتيين بتهمة مساعدة متشددين».

الذين ينتقدون الإسلام يقومون بدورهم دون تشويش. كلما تم هجوم أو عمل وحشي سارعوا إلى تبرئة الإسلام. دعوا الإسلام يتحدث عن نفسه. فلم ينتخبكم مواطنوكم لتقوموا بدور الوعاظ أو بدور المصلحين الدينيين، لقد انتخبوكم لتقوموا بمسؤولياتكم السياسية ولتحموا المواطنين من أي خطر يحدق بهم. ودفاعكم عن الإسلام لا يخدم مواطنيكم حتى لو كانوا مسلمين، إنما يخدم العقيدة الإسلامية فقط. والمفروض هو أن تقف الدولة على مسافة حياد من الأديان كلها. لكن من المؤسف أن الرؤساء صاروا شيوخا يتحدثون عن محاسن الإسلام وجماله، عوض التركيز على الجرائم التي ترتكب باسم الإسلام وبتشجيع من نصوصه شئنا أم أبينا.

التدقيق والاختيار في مسألة المهاجرين

وأخيرا، على البلدان الغربية أن تختار وتدقق في من يهاجر إليها. فلا يمكن أن تسمح بسذاجة بالغة بالهجرة، بل حتى بالزيارة لمن يكرهون أوروبا وأمريكا، في حين أن كثيرين من المسيحيين والملحدين واللادينيين والمتحولين للمسيحية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، لا يحصلون على تأشيرة، وتُرفض ملفاتهم في القنصليات رغم أنهم أحوج ما يكون إلى الهجرة بسبب ما يتعرضون له من اضطهاد ومخاطر، بينما يحصل عليها دعاة الكراهية مثل الشيخ العريفي وغيره من الإسلاميين والمتشددين. فهم يذهبون إلى هذه البلدان ويلقون الخطب والمواعظ في المساجد ضد الكفار ويحرضون الشباب ضد المبادئ الغربية. وقد يحصل على الهجرة إسلاميون متشددون يعتقدون أن دول أوروبا وأمريكا دول صليبية عدوة عليها أن تدفع الثمن عاجلا أم آجلا.

إنه ليس تمييزا عنصريا أن أختار من يحبون أوروبا وأمريكا ليكونوا سكان أوروبا وأمريكا وزوارها. ليست عنصرية على الإطلاق أن أرفض التأشيرة لمن يهيجون العالم ضد أمريكا والغرب بصفة عامة. كان الشيخ

المغربي محمد الفزازي في مسجد هامبورغ في ألمانيا يعلم ضد الديموقراطية الغربية الكافرة،[٢٠] ويعلم الشباب كيف يكسرون التأشيرة وكيف يسرقون متاجر الكفار! إنه شيء يثير الضحك أن ألمانيا تعطي تأشيرة لشيخ مثل هذا ولا تطرده مباشرة من أراضيها. وأما الشيخ عبد الله نهاري الذي دعا على جنود أمريكا بأن يُقْتَلُوا في العراق وأن يكون العراق مسمارًا في نعش الجبروت الأمريكي،[٢١] فقد أعطته القنصلية الأمريكية في ٢٠١٢ تأشيرة ليذهب هناك شهر رمضان كله يعظ الناس في المركز الإسلامي ببوسطن ويجمع التبرعات للمركز، بماذا سيعظ هؤلاء المصلين؟ بحب أمريكا وطنهم؟ أم بحب الإسلام ومحاربة أعداء الله؟

على البلدان الغربية أن تأخذ الإجراءات نفسها تجاه طلبات اللجوء. فهنالك شيوخ يكرهون الغرب وفي الوقت نفسه ينعمون باللجوء في أراضيه، مثل الشيخ هاني السباعي المصري الذي يعيش في لندن ويساند الإرهابيين بطريقة مراوغة ويدافع عن خطابهم. فهو يستفيد من الغرب وفي نفس الوقت يلعن الغرب ليل نهار. فلماذا يحصل على حق اللجوء في الغرب إذن؟ لماذا لا يتم ترحيله إلى بلده مصر؟ هل نعطي أعداءنا الذين يريدون قتلنا حجرة داخل بيوتنا؟ هذه مجرد أمثلة بسيطة للمصيبة التي توضح أن القنصليات الغربية في الخارج لا تميز حبيبها من عدوها، وأنها تعتمد معايير ربما تحتاج إلى إعادة تقييم في إعطاء تأشيرات الزيارة ومنح تأشيرات الهجرة.

أما عن موجات هجرة اللاجئين الآتية لأوروبا وأمريكا من سوريا والعراق، فعلى هذه الدول أن تقوم بغربلة هؤلاء اللاجئين. فلا يمكن السماح للكل بدخول أوروبا تحت الغطاء الإنساني. فمن المحتم أنهم كلهم ليسوا لاجئين مسالمين. صحيح أن بعضهم هارب من الحرب وويلاتها، ولكن من المؤكد أن بعضهم الآخر يستغل الوضع، ويدخل لينفذ أهدافا ومخططات هدامة.

٢٠. الشيخ الفيزازي في سلسلة دروسه، الديموقراطية ذلك الصنم، بتاريخ ١٢ أغسطس ٢٠٠٠.
21. “Moroccan cleric Abdallah Al-Nhari in 2005: May Allah Turn Iraq into a Nail in the Coffin of American Tyranny.”

ولـن تفـوّت الجمـاعات الإرهابيـة فرصـة مثـل هـذه ليلتحـق أعضاؤهـا بهـذه البـلدان ويشـكلوا خلايـا نائمـة تسـتطيع أن تقـوم بأعمـال إرهابيـة في المسـتقبل. قـد يقـول قائـل إن نسـبتهم سـتكون قليلـة جـدا بالمقارنـة مـع عـدد اللاجئـين. لكـن الجـواب على هـذا الاعـتراض هـو أن مائـة إرهـابي كافٍ لزلزلـة أوروبـا كلهـا. لنتذكـر أن أحـداث ١١ سـبتمبر نفذهـا ١٩ إرهابيًـا فقـط، ولا ينبـغي أن ننـسى أن أحـداث باريـس الإرهابيـة كان وراءهـا تسـعة إرهابيـين مـن تنظيـم الدولـة فقـط. فـلا يمكـن أن نسـمح بتخريـب بـلد بأكملـه وإرهـاب أهلـه بحجـة اسـتقبال اللاجئـين لدوافـع إنسـانية.

الدوافـع الإنسـانية نبيلـة وموضـوع تقديـر، لكـن إذا كانـت سـتعرض البلد الذي يسـتقبل اللاجئـين لفقـدان الأمـن، فـلا بـد أن يعـاد فيهـا النظـر. فالأولويـة هي للأمـن لا للدوافـع الإنسـانية. ينبـغي أن تضمـن أوروبـا أمنهـا قبـل اسـتقبال اللاجئـين ولا سـيما أن هويـات الأفـراد في كثـير مـن الأحيـان مـزورة وغـير معروفـة. فهنالـك مـن زوروا جـوازات سـفرهم مـن جنسـيات أخـرى وادعـوا أنهـم سـوريون. حـتى مغاربـة فعلـوا ذلـك. وهنـاك فيديوهـات على يوتيـوب تشرح كيفيـة شراء جـوزات سـفر، وأيـن يمكـن أن يحصـل الشـخص على خصـم مـن المهربـين، وكيـف يحفـظ أسـماء المحافظـات، وكيـف يغـير بياناتـه، ويكـذب دون أن يتـم كشـفه مـن طـرف المسـتجوبين. يفتقـر اسـتقبال اللاجئـين مـن طـرف ألمانيـا إلى نظـام حقيـقي يمكنهـا مـن فرزهـم. فاسـتقبالهم بموجـب الإجـراءات الحاليـة مغامـرة كـبرى سـتعود على ألمانيـا بويـلات في المسـتقبل. وليـت الأمـر يتوقـف على ألمانيـا وحدهـا، بـل سـيجر معـه بلدانـا مجـاورة إلى مشـكلات لا حـد لهـا.

نصيحتي للقارئ المسلم

أمـا القـارئ المسـلم الذي يسـأل: ومـا الحـل؟ مـا الذي علي أن أقـوم بـه؟ أقـول له إن كل شـخص حـين يتعلـم شـيئا يصـير أمـام مسـؤولية. فعـلى كل مسـلم أن يجـد

حلا لنفسه، أن يبحث عن بدائل. فالعالم واسع ولا يحتوي على وجهة نظر واحدة للكون. فلا تسمحْ للمجتمع وقيوده وللدين الإسلامي بأن يسجنك في زاوية واحدة، فقد استطعت أنا شخصيا إيجاد حل لنفسي والخروج من شرنقة الإسلام، وجدت حلاً في التخلي عن الإسلام وتركه بعد أن عرفت أنه دين نزع إنسانيتي، دين قتل إحساسي وجعلني أقدس العقيدة على حساب الإنسان، دين جعلني أطيع طاعة عمياء دون حق في السؤال، دين نزع قلبي ووضع مكانه ذاكرة تردد النصوص، حرفية قاتلة ومدمرة، أعراف قبيلة تم تقديسها فصارت منهاجا للحياة يصعب كسره، وصارت سجنًا للأفكار وقيودًا على الحرية.

قررت أن أواجه والدي الشيخ، وأواجه مجتمعي المسلم، دفعت ثمنا غاليا لذلك. فلا أستطيع حتى الآن دخول بلدي الذي أحببته، ولا أستطيع وضع قدميّ في أي بلد عربي دون أن أتعرض للسجن أو ربما القتل، لا لشيء إلا لأني تجرأت على المقدس، تجرأت وقلت لا. قررت أن أصير مسيحيا لأني رأيت في رسالة المسيح، خصوصا موعظته الشهيرة على الجبل، مثالا يحتذى به في حب الآخرين، في التضحية من أجل الآخر، في محبة غير مشروطة. ورأى أهلي في ذلك كفرا وخروجا عن المألوف: فكيف أنضم إلى الكفار، إلى الأعداء، كيف أصير نصرانيا والنصارى ضد المسلمين، كيف أترك دين الإسلام وأعتنق دين الكفر؟ نعتوني بأوصاف متنوعة: عميل، خائن، باع دينه... طردت من بيوتهم، تشردت، عشت في الشارع، تعرضت للاضطهاد من المخابرات المغربية، واضطررت إلى ترك البلد. وأنا اليوم أعيش كالمتخفي، لا أعيش حياة عادية كباقي الناس، لماذا؟ لأني رفضت الإسلام وتكلمت ضده علانية. لست الوحيد الذي تعرض لذلك. فهنالك الآلاف غيري في المغرب، وفي الجزائر، وفي تونس، وفي مصر، بل حتى في السعودية حيث قبر محمد وحيث رموز الإسلام المقدسة. اختار بعضهم المسيحية، وبعضهم الإلحاد، وبعضهم اللادينية، ...وهكذا، صار كل واحد منهم حرًا في خياراته.

لكن المهم أنه تحرر من القيود وصار سيد نفسه، يختار لها ما يريد عن قناعة لا عن تقليد أو إجبار.

كلمة ختامية

أخيرا أتمنى من جميع القراء مسلمين وغير مسلمين أن يعلموا أن السبب الحقيقي وراء كتابة هذا الكتاب هو حبي لأهلي وأصدقائي والبلد الذي ولدت فيه وتربيت فوق ترابه. وأعرف أن أكثرهم أناس طيبون يستحقون ما هو أحسن مما يقدمه لهم الإسلام. ويحزنني أن أرى ما وصلنا إليه، يحزنني أن أرى الحالة التي نعيشها اليوم. فلم يقدم الإسلام لأهلي الطيبين إلى الآن إلا الدمار والتخلف. يعتقدون من كل قلوبهم أنهم إنما يخدمون الإله ويخدمون قضية عظيمة، وهم في الحقيقة لا يخدمون إلا ثقافة صدئة منذ ألف وأربعمائة سنة لن تتقدم بهم إلى الأمام، بل ستعود بهم إلى الخلف. وعوض أن ننافس الدول الكبرى في مختلف المجالات العلمية، صرنا أكبر الدول إنتاجا للإرهاب بكل أشكاله. هم أناس تعبوا في صناعة الطائرات، ونحن عرفنا فقط كيف نفجرها بمن فيها. هم أناس تعبوا في اختراع السيارات، ونحن لم ننافسهم في ذلك. بل تفنّنا فقط في تفخيخها. بنوا ناطحات السحاب ونحن عرفنا فقط كيف ننسفها إلى الأرض. هم أناس ذهبوا إلى القمر ونحن نحلم بالذهاب إلى الحُورِ الحسان. هم أناس أرسلوا روبوتات إلى المريخ ليكتشفوا ويسبروا أغوار المجهول، ونحن نبحث عن الكافر والمؤمن وندور في المجهول. أتمنى أن نستفيق جميعا قبل فوات الأوان. وأما السؤال الذي يحتاج منك إلى جواب بعد قراءة هذا الكتاب: هل داعش لها علاقة بالإسلام؟ فأنت وحدك تقرر الجواب.

قائمة المراجع العربية (كتب)

الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين. **صحيح موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان**. الطبعة الأولى؛ الرياض، السعودية: دار الصميعي، ٢٠٠٢ م، جزئين.

البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة. **صحيح البخاري**. الطبعة الأولى؛ بيروت، لبنان: دار ابن كثير، ١٩٩٣ م، ستة أجزاء.

أبو بكر المالكي، عبد الله بن محمد. **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان و افريقية و زهادهم و نساكهم و سير من أخبارهم وفضائلهم و أوصافهم**. الطبعة الثانية؛ بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٤ م، جزئين.

البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر بن داود؛ وضع حواشيه: عبد القادر محمد علي. **فتوح البلدان**. الطبعة الأولى؛ بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠ م، ٢ أجزاء.

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي. **السنن الكبرى**. الطبعة الأولى؛ بيروت، لبنان: دار الفكر، ١٩٩٦ م، ١٧ جزء.

الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي؛ تحقيق: أحمد شاكر وعبد الباقي فؤاد. **سنن الترمذي**. بيروت، لبنان: دار الفكر، ١٩٩٤ م، عشرة أجزاء.

ابن تيمية، أحمد بن شهاب الدين الحراني؛ تحقيق: محمد بن عبد الله بن عمر الحلواني و محمد كبير أحمد شودري. **الصارم المسلول على شاتم الرسول**. الطبعة الأولى؛ السعودية: دار رمادي للنشر، ١٩٩٧ م، ثلاثة أجزاء.

ابن تيمية، أحمد بن شهاب الدين الحراني. **قاعدة الانغماس في العدو وهل يباح**. الطبعة الأولى؛ الرياض، السعودية: مكتبة أضواء السلف، ٢٠٠٢ م، جزء واحد.

ابن تيمية، أحمد بن شهاب الدين الحراني. **مجموع فتاوى ابن تيمية**. بيروت، لبنان: دار الفكر، ١٩٩٣ م، ٦ أجزاء.

ابن تيمية، أحمد بن شهاب الدين الحراني؛ تحقيق: محمد رشاد سالم. **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**. الطبعة الأولى؛ السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٨٦ م، تسعة أجزاء.

الجزيري، عبد الرحمن بن محمد عوض. **الفقه على المذاهب الأربعة**. الطبعة الأولى؛ بيروت، لبنان: دار الفكر، ١٩٩٦ م، ٣ أجزاء.

جواد علي. **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**. الطبعة الأولى؛ المملكة العربية السعودية: مكتبة جرير، أوند دانش للطباعة والنشر، ٢٠٠٦ م، عشرة أجزاء.

ابن حبان، البستي محمد بن حبان بن أحمد. **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان**. بيروت، لبنان: دار الفكر، ١٩٩٦ م، ٦ أجزاء.

الحلبي، علي بن برهان الدين. **السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون**. بيروت، لبنان: دار المعرفة، ١٩٨٠ م، ثلاثة أجزاء.

الحموي، أبو عبد الله ياقوت شهاب الدين. **معجم البلدان**. بيروت، لبنان: دار صادر، ١٩٧٧ م، ٥ أجزاء.

ابن حنبل، أحمد بن محمد. **مسند الإمام أحمد**. بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٣ م، سبعة أجزاء.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد وليّ الدين الحضرمي الإشبيلي. **تاريخ ابن خلدون**. الطبعة الأولى؛ بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م، ٨ أجزاء.

ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر؛ تقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. الطبعة الأولى؛ بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٧ م، ثلاث مجلدات.

أبو داوود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني؛ تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. **سنن أبي داوود**. بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥، أربعة أجزاء.

الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز. **سير أعلام النبلاء**. بيروت، لبنان: دار الفكر، ١٩٩٧ م، ١٨ جزء.

روبين دانيال؛ ترجمة: سمير مالك. **التراث المسيحي في شمال إفريقيا: دراسة تاريخية من القرن الأول إلى القرون الوسطى**. الطبعة الأولى؛ بيروت، لبنان: دار منهل الحياة، ١٩٩٩م، جزء واحد.

ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري؛ تحقيق: إحسان عباس. **الطبقات الكبرى**. الطبعة الأولى؛ بيروت، لبنان: دار صادر، ١٩٦٨ م، ثمانية أجزاء.

الشافعي، محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ابن شافع الهاشمي. **الأم**. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢ م، تسعة أجزاء.

ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي. **المصنف في الأحاديث والآثار**. بيروت، لبنان: دار الفكر، ١٩٩٤م، ٩ أجزاء.

ابن ضُوَيَّان، إبراهيم بن محمد بن سالم. **منار السبيل في شرح الدليل**. بيروت، لبنان: المكتب الإسلامي، ١٩٨٩ م، جزئين.

الطبري، محمد بن جرير بن يزيد. **جامع البيان في تفسير القرآن**. بيروت، لبنان: دار المعرفة، ١٩٩٢ م، ٣٠ جزء.

ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن محمد؛ تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض. **الاستذكار**. الطبعة الأولى؛ بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠ م، تسعة أجزاء.

ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله. **تاريخ دمشق**. بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٣ م، ٧٠ جزء.

العسقلاني، ابن حَجَر أحمد بن عليّ بن محمد الكنانيّ؛ تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**. بيروت، لبنان: دار الفكر، ١٩٩٣ م، ١٥ جزء.

عمارة، محمد. **إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات**. الطبعة الأولى؛ القاهرة، مصر: دار السلام للطباعة والنشر، ٢٠١٠م، جزء واحد.

ابن قدامة، عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي. **الشرح الكبير**. بيروت، لبنان: دار الفكر، ستة أجزاء.

ابن قدامة، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي؛ تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، وعبد الفتاح محمد الحلو. **المغني على مختصر الخرقي**. الطبعة الثالثة؛ الرياض، السعودية: دار عالم الكتب، ١٩٩٧ م، ١٥ جزء.

القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي الأندلسي. **تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن**. الطبعة الثانية؛ بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥، عشرون جزءًا.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزّرْعي الدمشقي؛ تحقيق : يوسف أحمد البكري - شاكر توفيق العاروري. **أحكام أهل الذمة**. الطبعة الأولى؛ بيروت، لبنان: دار ابن حزم، ١٩٩٧ م، ثلاثة أجزاء.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزّرْعي الدمشقي؛ حققه: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط. **زاد المعاد في هدي خير العباد**. الطبعة الأولى؛ بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦ م، ستة أجزاء.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير. **تفسير القرآن العظيم**. بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥، ثمانية أجزاء.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير. **البداية والنهاية**. بيروت، لبنان: مكتبة المعارف، ١٩٨٨ م، ١٤ جزء.

الكشميري، يعقوب بن حسن العاصمي. **فيض الباري على صحيح البخاري**. الطبعة الأولى؛ بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥ م، ستة أجزاء.

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد الرَّبعي القزويني؛ تحقيق محمد فؤاء عبد الباقي. **سنن ابن ماجه**. بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٥ م، جزئين.

مالك، بن أنس بن مالك الأصبَحي الحِميَري. **موطأ مالك**. الطبعة الأولى؛ بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي، ١٩٨٨، أربعة أجزاء.

المباركفوري، صفي الرحمن. **الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام**. الطبعة ١٩؛ بيروت، لبنان: دار الوفاء، ٢٠٠٧ م، جزء واحد.

المباركفوري، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم؛ ضبط وتوثيق: صدقي محمد جميل العطار. **تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي**. بيروت، لبنان: دار الفكر، ١٩٩٥ م، ١١ جزء.

مجموعة من المؤلفين. **المفيد في التربية الإسلامية: السنة الأولى من التعليم الابتدائي**. الطبعة الأولى؛ المغرب: دار الثقافة، ٢٠١٤ م.

مسلم، مسلم بن الحَجَّاج بن مسلم القشَيري النيسابوري. **صحيح مسلم**. الطبعة الأولى؛ بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢ م، جزئين.

ابن مفلح، شمس الدين، محمد بن مفلح بن محمد المقدسي الصالحي؛ راجعه: عبد الستار أحمد فراج. **كتاب الفروع**. الطبعة الرابعة؛ بيروت، لبنان: دار عالم الكتب، ١٩٨٥ م، ستة أجزاء.

المقريزي، أحمد أبو محمد وأبو العباس بن علي بن عبد القادر بن محمد؛ وضع حواشيه: خليل المنصور. **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: المعروف بالخطط المقريزية**. الطبعة الأولى؛ بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨ م، ٤ أجزاء.

المناوي، محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين؛ ضبطه وصححه: أحمد عبد السلام. **فيض القدير شرح الجامع الصغير**. الطبعة الأولى؛ بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤ م، ستة أجزاء.

المنذري، أبو محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد القويّ بن عبد الله. **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦ م، أربعة أجزاء.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين. **لسان العرب**. الطبعة الثالثة؛ بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٣م، ١٦ جزء.

ناجي، أبو بكر. **إدارة التوحش**. أخطر مرحلة ستمر بها الأمة، نسخة على الأنترنت، ٢٠٠٤م.

النسائي، أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار. **سنن النسائي الصغرى وحاشية السندي**. الطبعة الثالثة؛ بيروت، لبنان: دار المعرفة، ١٩٩٤ م، ثمانية أجزاء.

النسائي، أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار؛ تحقيق : د.عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن. **سنن النسائي الكبرى**. الطبعة الأولى؛ بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٩١ م، ستة أجزاء.

النووي، يحي بن شرف. **شرح النووي على صحيح مسلم**. الطبعة الأولى؛ القاهرة، مصر: المكتبة التوفيقية، ١٩٩٥ م، ١٨ جزء.

النيسابوري، محمد بن عبد الله؛ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. **المستدرك على الصحيحين**. الطبعة الأولى؛ بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠ م، أربعة أجزاء.

ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحِميَري المعافري؛ تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد. **السيرة النبوية**. بيروت، لبنان: دار الجيل، ١٩٩٠م، أربعة أجزاء.

الواقدي، أبو عبدالله محمد بن عمر بن واقد؛ تحقيق: د. يحي الجبوري. **كتاب الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة «الشيباني»**. الطبعة الأولى؛ بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠ م.

Scott, John. «Rational Choice Theory.» In Understanding Contemporary Society: Theories of the Present. ed. Gary Browning, Abigail Halcli and Frank Webster. London: SAGE Publications Ltd., 2000.

Sageman, Marc. Understanding Terror Networks. University of Pennsylvania Press. 2011, Kindle Edition

قائمة المراجع العربية (مقالات ومواقع)

الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

—— «الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين يؤكد أن إعلان الخلافة الإسلامية من قبل تنظيم الدولة بالعراق يفتقد لأي معايير شرعية وواقعية»، ٣ يوليو ٢٠١٤.

الإسلام اليوم

http://www.islamtoday.net

—— فتوى ردًا على الجدل حول العمليات الاستشهادية، ٢١ أبريل ٢٠٠٢.
http://www.islamtoday.net/fatawa/quesshow6964-60-.htm

الإسلام سؤال وجواب

http://islamqa.info

—— «تهنئة النصارى في أعيادهم»، الفتوى رقم ١٠٦٦٦٨.

—— «حكم من سب النبي (ص)»، فتوى رقم ٢٢٨٠٩، الفتوى كانت موجودة حتى ١٣ يناير ٢٠١٥، ثم حذفت بعد ذلك.

—— «عقوبة اللواط»، الفتوى رقم ٣٨٦٢٢، ١٤ مارس ٢٠٠٦.

إسلام ويب، فتاوى، التابع لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية

http://fatwa.islamweb.net

—— «إعادة إقامة الخلافة واجب شرعي على المسلمين»، الفتوى رقم ١٤١١، ٢٧ أغسطس ١٩٩٩.

—— «أقوال أهل العلم في ثبوت حد الرجم للزاني المحصن»، الفتوى رقم ٢٦٨٧٤١، ٢٤ سبتمبر ٢٠١٤.

—— «تحريق أبي بكر الصديق لإياس بن عبد ياليل»، الفتوى رقم ٧١٤٨٠، ٧ فبراير ٢٠٠٦، كانت موجودة في موقع إسلام ويب، ولكنها حُذِفَت.

—— «التفصيل في حكم تارك الصلاة»، الفتوى رقم ١١٤٥، ٢١ يناير ٢٠٠١.

—— «الحكم الشرعي فيمن سب الرسول (ص)»، الفتوى رقم ٢٦٨٧٤١، ٢٥ يناير ٢٠٠٦.

—— «حكم تهنئة وزيارة النصارى في كنائسهم في أعيادهم»، الفتوى رقم ١٠٥١٦٤.

—— «درجة حديث: لقد جئتكم بالذبح»، الفتوى رقم ٢٢٠١٨٩، ١٨ سبتمبر ٢٠١٣.

—— «قائل عبارة: جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة»، الفتوى رقم ٩٧٦٢٣، ١٠ يوليو ٢٠٠٧.

—— «لا يجوز لغير المسلم دخول مكة»، الفتوى رقم ٣٢٢٥.

—— «معنى «المعلوم من الدين بالضرورة»»، الفتوى رقم ٧٨١٥١.

—— «نبوءة الرسول في قتال المسلمين لليهود»، الفتوى رقم ١٦٤٩٤.

—— «وجوب إزالة الأصنام»، الفتوى رقم ٧٤٥٨، ١٩ مارس ٢٠٠١.

—— «نصاب القطع في السرقة وقيمته بالريال القطري»، الفتوى رقم ٧١٧٠٤، ١٥ فبراير ٢٠٠٦.

إسلام ويب، مقالات، التابع لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية
http://articles.islamweb.net
ـــــ «التربية الجهادية»، الشيخ سلمان العودة.
ـــــ «تزايد اعتناق الإسلام في أمريكا بعد ١١ سبتمبر»، ٢٣ أكتوبر ٢٠٠١.
ـــــ «حكم السحر والساحر»، مقال، ١٩ مارس ٢٠٠٦.
ـــــ «عالم سعودي: العمليات الفدائية جهاد في سبيل الله»، ٣٠ أبريل ٢٠٠١.

أرشيف البيت الأبيض
http://georgewbush-whitehouse.archives.gov
ـــــ «وجه الأرهاب ليس هو الإيمان الحقيقي للإسلام، هذا ليس الإسلام، الإسلام هو السلام، هؤلاء الإرهابيون لا يمثلون السلام، إنهم يمثلون الشر والحرب»، تصريح الرئيس السابق جورج بوش موجود على، ١٧ سبتمبر ٢٠٠١.

الأقباط متحدون
http://www.copts-united.com
ـــــ «سحر كنيسة أطفيح»، بقلم ماري عبده، ١٢ أغسطس ٢٠١١.

إم بي سي
http://www.mbc.net
ـــــ «رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قبضة «الثامنة»»، برنامج الثامنة، ٦ ديسمبر ٢٠١٢.
ـــــ «وزير سعودي: داعش ينفذ خطة «عش الدبابير».. والخوارج ليسوا «نبتة صحابية»»، تصريح رسمي لوزير الأوقاف والدعوة والإرشاد الشيخ صالح آل الشيخ، ٩ فبراير ٢٠١٥.

أون إسلام
http://www.onislam.net
ـــــ «القاعدة: ١٠٠ ألف دولار لمن يقتل رساما أساء للرسول»، رضا صيام، ١٦ سبتمبر ٢٠٠٧.

بوابة الأزهر الإلكترونية
http://www.azhar.eg
ـــــ «الأزهر الشريف يدين حرق مساجد المسلمين في الغرب»، ١٦ نوفمبر ٢٠١٥.
ـــــ «الأزهر يدين مشاهد العنف المتصاعدة ضد المسلمين في الغرب .. ويؤكد: التحريض على المسلمين يخدم الإرهاب»، ١٦ نوفمبر ٢٠١٥.
ـــــ «الإمام الأكبر: الإرهاب مرض فكري ونفسي لا دين ولا هوية له»، ٢١ نوفمبر ٢٠١٥.

بوابة الفجر الإلكترونية
http://www.elfagr.org
ـــــ «رئيس أساقفة الموصل يستغرب موقف الأزهر الفاتر من داعش»، ٢٠ ديسمبر ٢٠١٤.
ـــــ «لماذا ينحني الرئيس الأمريكي أمام ملوك السعودية؟»، ٢٨ يناير ٢٠١٥.

بوابة فيتو
http://www.vetogate.com
ـــــ «الإسلام بعد أحداث «١١ سبتمبر».. زيادة معتنقي الإسلام في أمريكا لـ٤ أضعاف..»، ١١ سبتمبر ٢٠١٤.
ـــــ «بالفيديو.. رموز العشائر العراقية تبايع «البغدادي» بشكل علني»، ١ أبريل ٢٠١٥.

البوابة نيوز

http://www.albawabhnews.com

ـــــ «حقيقة «ذو القرنين المصري» الرجل الثاني في «داعش»»، رضا صيام، ١٤ ديسمبر ٢٠١٤.

بي بي سي عربي

http://www.bbc.co.uk/arabic

ـــــ «اعتذار ليبي عن اعتداء على مقابر جنود بريطانيين في بنغازي»، ٤ مارس ٢٠١٢.

ـــــ «تنظيم الدولة الإسلامية يخير مسيحيي الموصل بين اعتناق الإسلام أودفع الجزية وإما القتل»، ١٩ يوليو ٢٠١٤.

ـــــ «تنظيم الدولة «يحطم تماثيل أثرية» في العراق»، ٢٦ فبراير ٢٠١٥.

ـــــ «تنظيم «دولة العراق الاسلامية» يتوعد المسيحيين»، ٣ نوفمبر ٢٠١٠.

ـــــ «الرسام السويدي الذي اغضب المسلمين يتعرض لهجوم»، ١١ مايو ٢٠١٠.

ـــــ «رسام الكاريكاتير الدنماركي الذي رسم النبي محمد يقول إنه كان يخشى «الذبح»»، ٢٠ يناير ٢٠١١.

ـــــ «صور بالقمر الصناعي تظهر تدمير معبد بعل شمين في تدمر السورية»، ٢٨ أغسطس ٢٠١٥.

ـــــ «مسلح كوبنهاغن «من مواليد الدنمارك وله ماض عنيف»»، ١٦ فبراير ٢٠١٥.

ـــــ «من هو أبو بكر البغدادي زعيم تنظيم «الدولة الإسلامية»؟»، ٣٠ يونيو ٢٠١٤.

ـــــ «نبذة عن «عمر الشيشاني» قائد المقاتلين الشيشانيين في سوريا»، ١٣ نوفمبر ٢٠١٣.

ـــــ «والدة الرهينة الأمريكي تناشد تنظيم «الدولة» الافراج عنه»، ٢٨ أغسطس ٢٠١٤.

ـــــ «اليونسكو: تدمير معبد بعل شمين في تدمر في سوريا جريمة حرب»، ٢٤ أغسطس ٢٠١٥.

الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

ـــــ «الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين يؤكد أن إعلان الخلافة الإسلامية من قبل تنظيم الدولة بالعراق يفتقد لأي معايير شرعية وواقعية»، ٣ يوليو ٢٠١٤.

تصنيف شانجهاي

http://www.shanghairanking.com

ـــــ «النشرة الصحفية للترتيب الأكاديمي للجامعات العالمية».

التوحيد والجهاد

https://www.tawhed.net

ـــــ «شرح نواقض الإسلام».

جامعة الدول العربية

http://www.carjj.org/sites/default/files/united-arab-criminal-law-part2.pdf

ـــــ «القانون الجزائي العربي الموحد»، لسنة ١٩٩٦.

جامعة أم القرى

https://uqu.edu.sa

ـــــ «فضل اللغة العربية على اللغات كفضل القمر ليلة البدر على الكواكب»، محمد بن يوسف فجال.

جريدة آفاق الإلكترونية

http://aafaq.org

ـــــ «الداعية السعودي محمد العريفي: اليهود يزرعون شجر الغرقد حول بيوتهم ليحميهم من المسلمين»، ٢٩ سبتمبر ٢٠٠٨.

جريدة الدستور

ـــــ «زوجة الظواهري: علموا أولادكم حب الموت»، ١٦ فبراير ٢٠١٤.

جريدة الجارديان

http://www.theguardian.com

ـــــ «طبيب داعش طارق كامله: لا أهتم لفقدان الجنسية الأسترالية»، ٢١ يونيو ٢٠١٥.

جريدة الرياض

http://www.alriyadh.com

ـــــ «تنفيذ حكم القتل والصلب في رجل يمني قتل باكستانياً وفعل الفاحشة به»، ٢٨ مارس ٢٠١٣.

ـــــ «الداخلية تنفذ حكم حد الحرابة على مواطنين»، العدد ١٦٩٥١، ٢١ نوفمبر ٢٠١٤.

ـــــ «رجم صومالية حتى الموت لزواجها من ٤ رجال سرًا»، ٨ سبتمبر ٢٠١٤.

ـــــ «"عقوبة الجلد" وصلت إلى أرقام فلكية»، العدد ١٤٨٩٥، ٥ أبريل ٢٠٠٩.

ـــــ «القبض على يمني يشتبه أنه ساحر حاول التسلل إلى الحدود»، ١٥ مايو ٢٠١٤.

ـــــ «وزارة الداخلية .. تنفيذ حكم حد السرقة بأحد الجناة في الرياض»، ٢٣ ديسمبر ٢٠١١.

جريدة الصباح التونسية

ـــــ «من "ايليوس" العرّاف إلى "أبو زكرياء" الإرهابي: قتل أحمد الرويسي.. فهل دفنت معه "الصندوق الأسود" الإرهاب؟»، ١٧ مارس ٢٠١٥.

جريدة النهار

ـــــ «ما هو سرّ الاجتياح المفاجئ لبلدة عرسال؟ هيلاري كلينتون: نحن مَن أسّس "داعش"!»، سمير منصور، ٦ أغسطس ٢٠١٤.

جريدة اليوم الإلكترونية

http://www.alyaum.com

ـــــ «القتل عقوبة جرائم السحر والشعوذة أو السجن ١٥ عامًا»، ٦ يناير ٢٠١٣.

جريدة إيلاف الإلكترونية

http://elaph.com

ـــــ «أئمة تونس وشيوخها ينتفضون رفضًا للدستور الجديد»، ٢٦ يناير ٢٠١٤.

ـــــ «رئيس أساقفة الموصل يستغرب موقف الأزهر الفاتر من داعش»، ٢٠ ديسمبر ٢٠١٤.

الجزيرة، صحيفة سعودية

http://www.al-jazirah.com

ـــــ «طيور الجنة.. قنبلة موقوتة في كل بيت»، ٢٦ أبريل ٢٠٠٩.

الجزيرة نت

http://www.aljazeera.net

ـــــ «الأردن يتحفظ على مؤلفات ابن تيمية»، ٨ يونيو ٢٠١٥.

ـــــ «الإعدام بالكويت للمسيء للذات الإلهية والنبي»، ٣ مايو ٢٠١٢.

ـــــ «الإمارات تجرم ازدراء الأديان»، ٢٠ يوليو ٢٠١٥.

ـــــ «الحسابات التركية في الحرب على "داعش"»، ١٥ سبتمبر ٢٠١٤.

ـــــ «الدستور التونسي وأزمة الفصل السادس»، ٢٤ يناير ٢٠١٤.

ـــــ «سعيد الشهري»، ٢٣ أكتوبر ٢٠١٤.

ـــــ «السيسي يدعو لثورة دينية ضد نصوص تم تقديسها لقرون»، ٢ يناير ٢٠١٥.

ـــــ «شيوخ عشائر الفلوجة يبايعون البغدادي ويهاجمون الحكومة»، ٣ يونيو ٢٠١٥.

ـــــ «فرنسا تهدد بإغلاق المساجد "المحرضة على الكراهية"»، ١٦ نوفمبر ٢٠١٥.

ـــــ «القرضاوي: العمليات الاستشهادية من أعظم أنواع الجهاد»، ٢١ أبريل ٢٠٠١.

ـــــ «هل تعتبر تقدم تنظيم الدولة الإسلامية في العراق وسوريا لصالح المنطقة؟»، استطلاع، من ٢٢-٢٨ مايو ٢٠١٥.

چست بِست إت

http://justpaste.it/gmmr

——— «أفلحـت الوجـوه»: كلمـة حـول الغـزوة المباركـة في باريـس»، كلمـة صوتيـة، مـن إنتـاج مؤسسـة الملاحـم، ١٠ ينايـر ٢٠١٥.

——— «الرّدّ المبين على منكري ذبح الكفار والمرتدين»، تحت اسم أبو عائشة الغريب، ١٤ أغسطس ٢٠١٤.

الحوار المتمدن

http://www.ahewar.org

——— «مقـال يوصـل صاحبـه الى مقصلـة الاعدام..الكاتـب الموريتـاني محمـد الشـيخ ولد امخيطـير»، محمـد الشـيخ ولد امخيطـير، ٢٨ ديسـمبر ٢٠١٤.

دائرة الإفتاء العام، المملكة الأردنية الهاشمية

http://aliftaa.jo

——— «هل يشمل حد الرجم الزاني الأرمل والمطلق؟»، فتوى رقم ٧٥٢، ٢٤ مايو ٢٠١٠.

دويتشه فيله بالعربية

http://www.dw.com/ar

——— «إدانة عربية «شديدة» للهجوم على شارلي إيبدو»، ٧ يناير ٢٠١٥.

——— «البرلمان الأوروبي يدعو السعودية لإلغاء عقوبة الجلد»، ٢٣ يناير ٢٠١٥.

——— «تركيا تشارك رسميا في الغارات الجوية للتحالف ضد داعش»، ٢٤ يوليو ٢٠١٥.

——— «جلسة «تاريخية» لمجلس الأمن حول اضطهاد «داعش» للمثليين جنسيًا»، ٢٥ أغسطس ٢٠١٥.

——— «داعش أسر طيارا أردنيا لكنه لم يسقط طائرته»، ٢٤ ديسمبر ٢٠١٤.

——— «القرضاوي: خلافة «داعش» لا تستوفي الشروط المطلوبة»، ٢٦ أغسطس ٢٠١٤.

——— «مهاجمو صحيفة شارلي إيبدو هتفوا «انتقمنا للرسول»»، ٧ يناير ٢٠١٥.

راديو سوا

http://www.radiosawa.com

——— «ماريا الأيزيدية تحكي قصتها: هذا ما فعله داعش بنا»، ١٢ مارس ٢٠١٥.

روز اليوسف

——— «الذين اغتالوا فرج فودة بالفتاوى»، هدى المصري، ١٣ يونيو ٢٠١٥.

روسيا اليوم

https://arabic.rt.com

——— «أمير الكويت يرفض عقوبة الإعدام بحق من يشتم الذات الالهية والرسول»، ٦ يونيو ٢٠١٢.

——— «بالصور.. داعش تعلن تصفية ١٧٠٠ من طلبة كلية القوة الجوية في تكريت»، ١٦ يونيو ٢٠١٤.

——— «تكساس.. «داعش» يتبنى الهجوم على معرض كاركاتوري للنبي محمد(ص)»، ٥ مايو ٢٠١٥.

——— «شيخ البونمر لـRT: «داعش» قتلت نحو ٥٠٠ من أبناء العشيرة»، ٢ نوفمبر ٢٠١٤.

——— «القس تيري جونز يحرق نسخة من المصحف مجددا ويبث المشهد على الانترنت»، ٣٠ أبريل ٢٠١٢.

——— «مسيرات ضد «شارل إيبدو» في دول عربية وإسلامية»، ١٦ يناير ٢٠١٥.

السومرية نيوز

http://www.alsumaria.tv

——— «حقوق الإنسان: العدد الكلي لمفقودي مجزرتي سبايكر وبادوش بلغ ١٩٩٧»، ١ نوفمبر ٢٠١٤.

سي إن إن بالعربية

http://arabic.cnn.com/

——— «أنباء «سبي» داعش لنساء أيزيديات تُغضب عضو شورى سعودي.. وناشطون يردون بتسجيل للفوزان»، ١٢ أغسطس ٢٠١٤.

——— «بالصور: داعش تقتل رجلا بتهمة المثلية الجنسية عبر «الإلقاء من شاهق» ثم الرجم»، ١٠ ديسمبر ٢٠١٤.

——— «بالفيديو.. استرالي من داعش صوّر نجله يحمل رأس رجل»، ١٢ أغسطس ٢٠١٤.

——— «تصريح أوباما بـ «عدم إسلامية» تنظيم داعش يشعل الجدل على موقع تويتر»، ١١ سبتمبر ٢٠١٤.

——— ««دابق» مجلة داعش.. اسم قرية سورية وردت في صحيح مسلم تشهد حرب «آخر الزمان» التي يقاتل فيها داعش ٨٠ راية قبل «فتح» اسطنبول ونزول المسيح»، ١٤ أكتوبر ٢٠١٤.

——— ««داعش»، «أزلام صدام» أم «طرف ثالث».. من يقف وراء قتل ١٧٠٠ جندي في «مجزرة سبايكر» بالعراق؟»، ١٠ سبتمبر ٢٠١٤.

——— ««داعش» يتبنى مسؤولية الهجوم على معرض رسوم الكارتون للنبي بتكساس»، ٥ مايو ٢٠١٥.

——— «الدنمارك .. مقتل شخص في هجوم على تجمع يضم «لارس فيلكس» وأنصاره صاحب «الرسوم المسيئة» للرسول محمد»، ١٧ فبراير ٢٠١٥.

——— «العريفي يدعو المصريين لنصرة سوريا: الخلافة قادمة أراها بعيني»، ١٤ يونيو ٢٠١٣.

——— «على الخريطة أبرز الدول المشاركة بالتحالف الدولي ضد داعش»، ١٧ فبراير ٢٠١٥.

——— «مخابرات المغرب أبلغت فرنسا بوجود عبدالحميد أباعود على أراضيها بعد هجمات باريس»، ٢٠ نوفمبر ٢٠١٥.

——— «المرصد: توثيق ١٢ عملية «رجم حتى الموت» بتهمة الزنا خلال ٥ أشهر»، ٢٣ ديسمبر ٢٠١٤.

——— «مصر: استنكار واسع للفيلم «المسيء» وتوقيته يثير الشكوك»، ٩ يناير ٢٠١٥.

——— «المغربي أحمد عصيد: لن أغيّر من نهجي العلماني بسبب تهديدِ «داعش» لي بالقتل»، ٤ أبريل ٢٠١٥.

——— «مفتي السعودية: «داعش» والقاعدة من الخوارج يستحلان الدماء ولا نحسبهما على المسلمين»، ١٩ أغسطس ٢٠١٤.

——— «منتج فيلم «فتنة» يهاجم الإسلام والنبي ويتلاعب بعلم السعودية»، ٣١ ديسمبر ٢٠١٣.

——— «منظّرو داعش يردون على المقدسي: سبق أن دافعت عن قطع الزرقاوي للرؤوس وحزه للرقاب»، ١٨ أغسطس ٢٠١٤.

——— «من هما «الأخوان كواشي» المشتبهان بتنفيذ الهجوم على مجلة «شارلي إيبدو» في باريس؟»، ٩ يناير ٢٠١٥.

——— «من هو عمر عبدالحميد حسين منفذ هجوم كوبنهاغن؟»، ١٧ فبراير ٢٠١٥.

——— «المهلة تنتهي السبت ... «داعش» تخيّر مسيحيي الموصل بين الإسلام أو الجزية أو القتل»، ١٨ يوليو ٢٠١٤.

——— «ناطق باسم أسرة سوتلوف يتحدى البغدادي باللغة العربية: ويلك.. جاهز لمجادلتك بالقرآن.. أين رحمتك؟»، ٤ سبتمبر ٢٠١٤.
http://arabic.cnn.com/middleeast/04/09/2014/isis-beheading-videos

——— «نشطاء: داعش تفرض النقاب وتحظر التدخين والأغاني الماجنة بـ «ولاية الرقة»»، ١٠ يناير ٢٠١٥.

شبكة أبو نواف

http://abunawaf.com

——— «أوباما ينحني للملك عبدالله»، ٣ أبريل ٢٠٠٩.

شبكة المشكاة الإسلامية

http://www.meshkat.net

——— «تولي غير المسلم منصب الرئيس أو نائبه!».

——— «هل يعتبر الجمهوريون «جماعة محمود محمد طه» من الفرق المارقة؟ وهل يجوز الأكل معهم أو الزواج منهم؟»، فتوى للدكتور الشيخ عبد الحي يوسف، إجابة على هذا السؤال.

الشرق الأوسط

http://archive.aawsat.com

ـــــ «إسماعيل هنية: نحن قوم نعشق الموت كما يعشق أعداؤنا الحياة»، ٢٤ مارس ٢٠١٤.

ـــــ «تجـدد الجـدل حـول اختفـاء سـيدة قبطيـة أشـهرت إسـلامها قبـل ٤ أعـوام»، العـدد ١٠٨٦٦، ٢٨ أغسـطس ٢٠٠٨.

ـــــ «طالبـان تـصر على تدمـير تماثيـل بـوذا رغـم جهـود الوسـاطة ومخـاوف دوليـة مـن عمليـات انتقاميـة يـروح ضحيتهـا الـتراث المعمـاري الإسـلامي»، ٢٩ مـارس ٢٠٠١.

ـــــ ««مجـزرة سـبايكر».. الحكومـة حاولـت إخفـاء تفاصيلهـا.. وأهـالي الضحايـا جعلوهـا قضيـة رأي عام»، ٦ سـبتمبر ٢٠١٤.

http://aawsat.com/home/article/176296

صحيفة الحياة

http://alhayat.com

ـــــ ««حكم ابتدائي»بتنفيذ حد الردة بحق مواطن تطاول على «الذات الإلهية»»، ٢٣ فبراير ٢٠١٥.

ـــــ «جدة: وسط حضور أمني... جلد مؤسس« موقع إلكتروني»»، ١٠ يناير ٢٠١٥.

صحيفة سبق الإلكترونية

http://sabq.org

ـــــ «تنفيذ حُكم القتل تعزيرًا في سعوديَيْن أحدهما ساحر والآخر قَتَل ابنه»، ٥ أغسطس ٢٠١٤.

ـــــ «تنفيذ حكم القتل تعزيراً في مهرب مخدرات سوري بالرياض»، ٣٠ يوليو ٢٠١٥.

صحيفة عكاظ السعودية

http://www.okaz.com.sa/

ـــــ «عودة ٥٩ شخصًا للأفكار الضالة بعد المناصحة لا يعني فشل البرنامج»، ٥ سبتمبر ٢٠١٤.

ـــــ «القتل والصلب ٣ أيام لرئيس عصابة الذهب .. والحرابة والسجن لـ ٢٢»، العدد ٢٩٧١، ٥ أغسطس ٢٠٠٩.

صيد الفوائد

http://www.saaid.net

ـــــ «شرح نواقض الإسلام»، الشيخ عبد العزيز الراجحي.
http://www.saaid.net/Minute/m51.htm

ـــــ «هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، د. نورة خالد السعد.

طريق الإسلام، الشيخ محمد بن صالح العثيمين

http://ar.islamway.net/

ـــــ «تحذير الموحدين من أعياد عباد الصليب»، ٣٠ ديسمبر ٢٠١٤.

ـــــ «ماهو الولاء والبراء؟».

العربية نت

http://www.alarabiya.net

——— «أرملة مدرّس أميركي لقاتليه في ليبيا: أحبكم وأسامحكم»، ٢٠ ديسمبر ٢٠١٣.

——— «الإفراج عن كل الرهائن الأتراك الأسرى لدى داعش»، ٢٠ سبتمبر ٢٠١٤.

——— «أهم ٢٠ شخصية في داعش.. عراقيون ما عدا سوريًا واحدًا»، ١٨ سبتمبر ٢٠١٤.

——— «بالفيديو.. ٣ إعدامات بطرق «جديدة» نفذها داعش»، ٢٣ يونيو ٢٠١٥.

——— «بالفيديو.. داعش يعدم ٢٨ إثيوبياً مسيحياً في ليبيا»، ١٩ أبريل ٢٠١٥.

——— «بالفيديو.. «داعش» يرجم امرأة بريف حماة بتهمة الزنا»، ٢١ أكتوبر ٢٠١٤.

——— «بالفيديو.. داعش يفجر مرقد النبي يونس بالعراق»، ٢٤ يوليو ٢٠١٤.

——— «بالفيديو.. عندما يقع عناصر النصرة في قبضة داعش!»، ٩ ديسمبر ٢٠١٤.

——— «بريطانيتان في الـ١٦ من العمر تقاتلان مع «داعش»، ٨ أغسطس ٢٠١٤.

——— «تنظيم الدولة «يشوي» عناصر من الحشد رداً على «أبي عزرائيل»»، ٣١ أغسطس ٢٠١٥.

——— «تونس.. «داعش» يتبنى عملية سوسة الإرهابية»، ٢٥ يونيو ٢٠١٥.

——— ««داعش» تكسر الصلبان على كنائس الرقة وتحرق محتوياتها»، ٢٦ سبتمبر ٢٠١٣.

——— «داعش يأسر طياراً أردنياً بعد إسقاط طائرته»، ٢٤ ديسمبر ٢٠١٤.

——— ««داعش» يعلن دولة الخلافة الإسلامية ويبايع البغدادي»، ٢٩ يونيو ٢٠١٤.

——— «زعيم داعش للأميركيين: موعدنا في نيويورك»، ١٥ يونيو ٢٠١٤.

——— «سر داعش وراء تفضيل المقاتلين الأجانب!»، ١١ ديسمبر ٢٠١٤.

——— «السعودية.. «الهيئة» تداهم سحرة أساؤوا إلى المصحف تقربًا للشيطان»، ١٧ مايو ٢٠٠٩.

——— «السعودية تدين الهجوم الإرهابي على مجلة شارلي إيبدو»، ٧ يناير ٢٠١٥.

——— «فيديو وحشي.. داعش يسوق جنودا من النظام السوري كالغنم»، ٢٨ أغسطس ٢٠١٤.

——— «قاتل المخرج الهولندي: لو عاد الزمان لقتلته مجددًا ولا أعتذر لأمه «الكافرة»»، ١٢ يوليو ٢٠٠٥.

——— «القبض على ساحر في الرياض»، ٣٠ ديسمبر ٢٠١٤.

——— «قصة حشد شعبي غير مسبوق في مواجهة الرسوم الدنماركية»، ٨ مارس ٢٠٠٦.

——— «مقتل قيادي القاعدة حارث النظاري مهندس اعتداءات باريس»، ٥ فبراير ٢٠١٥.

——— «هل فشلت المناصحة؟»، ١٣ فبراير ٢٠٠٩.

——— «هولاند: منفذو هجمات باريس لا علاقة لهم بالإسلام»، ٩ يناير ٢٠١٥.

——— «والد أحد مقاتلي «داعش» يصف ابنه بالـ «شيطان»»، ٢٣ يونيو ٢٠١٤.

فرانس ٢٤

http://www.france24.com

——— «الإغراء «الجنسي» لتشجيع الجهاديين على تنفيذ العمليات الانتحارية»، ٢٢ أبريل ٢٠١٥.

——— «تصريحات باحث أمازيغي حول النبي محمد تؤلب ضده السلفيين وتفجر جدلا في المغرب»، ١ مايو ٢٠١٣.

——— «جلسة «تاريخية» لمجلس الأمن حول فظائع تنظيم «الدولة الإسلامية» بحق المثليين»، ٢٥ أغسطس ٢٠١٥.

——— «الحكم بالإعدام على الشاب الموريتاني محمد شيخ ولد محمد بتهمة الردة»، ٢٥ ديسمبر ٢٠١٤.

——— «الدانمارك: من هو منفذ اعتداء كوبنهاغن؟»، ١٥ فبراير ٢٠١٥.

——— «السجن عشر سنوات للأمريكية «جهاد جاين» في قضية رسوم مسيئة للنبي محمد»، ٧ يناير ٢٠١٤.

——— «السعودية: المحكمة العليا تؤكد حكم السجن والجلد بحق المدون رائف بدوي»، ٧ يونيو ٢٠١٥.

——— «فيديو: أحد منفذي هجوم «شارلي إيبدو» يقول إنه تلقى تمويلا من القاعدة في اليمن»، ١٠ يناير ٢٠١٥.

——— «فيديو: تنظيم «الدولة الإسلامية» أجبر الإيزيديين المحتجزين لديه على اعتناق الإسلام»، ٢٠ يناير ٢٠١٥.

——— «المسيحيون يغادرون الموصل قبيل انتهاء المهلة التي حددتها لهم «الدولة الإسلامية»»، ٢٠ يوليو ٢٠١٤.

——— «وقائع الهجوم الدامي على مجلة «شارلي إيبدو» في قلب باريس»، ٧ يناير ٢٠١٥.

القدس العربي
http://www.alquds.co.uk
——— «بين مؤتمر لندن وباريس: «تنظيم الدولة» يسجّل إرتفاعاً في عدد المقاتلين»، ريما شري، ٦ يونيو ٢٠١٥.
——— «تقرير أمريكي: المقاتلون الأجانب يشكلون غالبية قيادات تنظيم داعش»، ٢٩ يونيو ٢٠١٤.
——— «تنظيم الدولة الإسلامية يواصل نشر الرعب على الانترنت.. ويستنفر العالم الغربي»، ١٧ يناير ٢٠١٥.
——— «جوع وتشريد وإبادة جماعية - الإيزيديون يفرون من سيف داعش إلى جحيم جبل سنجار»، ١٦ أغسطس ٢٠١٤.
——— «القرضاوي يعتبر إعلان الخلافة في العراق باطلا شرعًا»، ٥ يوليو ٢٠١٤.

قناة الحرة
http://www.alhurra.com
——— «تونس.. «تجريم التكفير» يعيق إقرار الدستور الجديد»، ٢٣ يناير ٢٠١٤.
——— «داعش يتبنى تفجير مسجد الصادق بالكويت»، ٢٦ يونيو ٢٠١٥.
——— «عقوبات أميركية على ثلاثة كويتيين بتهمة مساعدة متشددين»، ٦ أغسطس ٢٠١٤.
——— «القضاء الموريتاني يحكم بالإعدام على شاب متهم بالردة»، ٢٥ ديسمبر ٢٠١٤.
——— «كتاب جديد عن حياة سلمان رشدي متخفيا بعد إهدار دمه»، ١٩ سبتمبر ٢٠١٢.
——— «مساع إسلامية لسن قانون عالمي لتجريم ازدراء الأديان»، ٢٠ سبتمبر ٢٠١٢.

مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، المملكة العربية السعودية.
http://www.alifta.net/
——— «حكم أكل ذبائح من يدعون الحسن والحسين وعليا عند الشدائد»، فتوى رقم ١٦٦١.
——— «حكم الرجم هل هو ثابت؟»، فتوى رقم ١٨٨٣.
——— «ما موقف الإسلام من إقامة التماثيل لشتى الأغراض؟».
——— «ما هي نواقض الإسلام؟»، فتوى رقم ١٦٤٨٧.
——— «من استهزأ بالرسول العظيم (ص)»، مجموعة فتاوى ومقالات متنوعة، لسماحة الشيخ ابن باز.
——— «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى»، العدد ٢٣، صفحة ٢٠١.

مجلة الراصد
http://alrased.net
——— «قراءة في النبوءات (المسيح الدجال)»، العدد الثامن، ١١ سبتمبر ٢٠٠٦.

مجلة إنسباير، التابعة لتنظيم القاعدة
——— العدد العاشر، ربيع ٢٠١٣.
——— العدد الثالث عشر، شتاء ٢٠١٤.

مجلة دعوة الحق، موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية
http://www.habous.gov.ma/
——— «مستقبل الإسلام في المغرب»، العدد ٤٧.
——— «موقف اليهود العدائي من الرسول الكريم (صلعم)»، العدد ١٥٣.

مجلة دابق
——— العدد الثاني، شوال ١٤٣٥، الموافق ليوليو ٢٠١٤.
——— العدد الثالث، شوال ١٤٣٥، الموافق لأغسطس ٢٠١٤.
——— العدد الرابع، ذو الحجة ١٤٣٥، الموافق لأكتوبر ٢٠١٤.
- مقال «جعل رزقي تحت ظل رمحي»، بقلم: ابن رجب الحنبلي، الصفحة ١٠.
——— العدد السابع، ربيع الآخر ١٤٣٦، الموافق ليناير وفبراير ٢٠١٥.
——— العدد الثامن، جمادى الآخرة ١٤٣٦، الموافق مارس ـ أبريل ٢٠١٥.

الموسوعة الشاملة
http://islamport.com
ـــــــ كتاب الفتاوى الندية في العمليات الاستشهادية، الصفحة ١٢، رأي الشيخ سليمان بن منيع.

الموقع الرسمي للشيخ القرضاوي
http://www.qaradawi.net
ـــــــ «حكم تارك الصلاة»، ١٥ نوفمبر ٢٠١٤.

موقع وزارة العدل للجمهورية الإسلامية الموريتانية
http://www.justice.gov.mr
ـــــــ «القانون الجنائي الموريتاني»، الصادر بتاريخ ٩ يوليو ١٩٨٣.

موقع الشيخ محمد صالح المنجد، الإسلام سؤال وجواب
http://islamqa.info
ـــــــ «هل يرجع للإقامة في بلاد الكفر؟»، فتوى ٢٧٢١١، ١٤ يونيو ٢٠١٥.

المرصد السوري لحقوق الإنسان
http://www.syriahr.com
ـــــــ «تنظيم «الدولة الإسلامية» «يرجم» سيدة بتهمة الزنا»، ٢٨ يوليو ٢٠١٥.
ـــــــ «تنظيم «الدولة الإسلامية» ينفذ أول عملية «رمي من شاهق» في تدمر»، ٢٤ يوليو ٢٠١٥.
ـــــــ «قطع رؤوس وإعدام نحو ١٧٠ طفلاً ومواطنة من بين أكثر من ٣ آلاف أعدمهم تنظيم «الدولة الإسلامية» خلال ١٣ شهراً من «خلافته»»، ٢٩ يوليو ٢٠١٥.

مركز الجزيرة للدراسات
http://studies.aljazeera.net/ar
ـــــــ «السلفية السعودية في ميدان السلطة»، ١١ أبريل ٢٠١٣.

معهد العربية للدراسات
http://studies.alarabiya.net
ـــــــ «إدارة التوحش..والملاذات الآمنة للإرهاب من نظام الأسد إلى إمارة داعش!»، ٢٦ مايو ٢٠١٤.
ـــــــ «المسيحيون في العراق: علامات الزوال الأخير»، سعد سلوم، ١٠ أغسطس ٢٠١٤.

مكتبة الهمة، التابعة للدولة الإسلامية
https://archive.org/
ـــــــ «سؤال وجواب في السبي والرقاب»، مطوية، محرم ١٤٣٦.
ـــــــ «الولاء للإسلام لا للوطن»، مطوية.

منارة
http://www.menara.ma
ـــــــ «أبو النعيم يكفّر عصيد ويهدر دمه ويحذر المدافعين عنه»، رضا صيام، ١٦ يوليو ٢٠١٤.

منتدى المؤشر نت
http://www.indexsignal.com
ـــــــ «أوباما ينحني أمام خادم الحرمين»، في مناقشة للأسهم التجارية، ٤ أبريل ٢٠٠٩.

منظمة المؤتمر الإسلامي
http://www.sesrtcic.org
——— «التعليم والتنمية العلمية في البلدان الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي ٢٠١٠».
——— «التقرير الاقتصادي السنوي حول البلدان الأعضاء بمنظمة التعاون الإسلامي ٢٠١٢».

مؤشر الشفافية الدولية
http://www.transparency.org
——— سنة ٢٠١٤

موقع الأستاذ أحمد الريسوني، شيخ مغربي، نائب رئيس اتحاد علماء المسلمين
http://www.raissouni.ma/
——— «فتوى تاريخية للعلامة الشيخ محمد رشيد رضا: الخلافة والخليفة ومدى أهلية شريف مكة»، ٢٢ سبتمبر ٢٠١٤.

موقع دستور الجمهورية التونسية
http://www.marsad.tn
——— ٢٦ يناير ٢٠١٤

الموقع الرسمي للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز
http://www.binbaz.org.sa/
——— «فتوى: وجوب إخراج الكفار من جزيرة العرب».
——— «معنى الولاء والبراء».
——— «نواقض الإسلام».

موقع فضيلة الشيخ الدكتور سفر الحوالي
http://www.alhawali.com/
——— محاضرة بعنوان «هذا الدين».

موقع وزارة العدل الموريتانية
http://www.justice.gov.mr
——— «القانون الجنائي الموريتاني»، الصادر بتاريخ ٩ يوليو ١٩٨٣.

مؤسسة الفرقان للإنتاج الإعلامي
——— «خطبة الجمعة في الجامع الكبير بالموصل»، الخطيب خليفة الدولة الإسلامية: أبو بكر البغدادي «إبراهيم عواد»، ٤ يوليو ٢٠١٤.

ميدل إيست أونلاين
http://middle-east-online.com
——— «الشبكة الجهنمية التي قتلت فرج فودة»، مجدي خليل، ٢٢ فبراير ٢٠١٤.

هسبريس

http://www.hespress.com

——— «إقبال فرنسي كبير على المصاحف بعد استهداف «شَارلِي إيبدُو»»، ٣٠ يناير ٢٠١٥.

——— «التدخل الفرنسي في دولة مالي بين عودة المستعمر وهوان المستنصر»، ذو الفقار بلعويدي، ٥ مارس ٢٠١٣.

——— «رسائل النبي (ص) بين الملوك المبعوثة إليهم وعصيد»، بقلم: إبراهيم بيدون، ٢ مايو ٢٠١٣.

——— ««رسوم مسيئة» تخرج مزوار من «مسيرة شَارلِي»»، ١١ يناير ٢٠١٥.

——— «الملك يأمر بمراجعة مناهج ومقررات تدريس التربية الدينية»، ٦ فبراير ٢٠١٦.

——— «ناشطو الانترنت بالعالم يشككون في حقيقة «مجزرة فرنسا»»، ١٠ يناير ٢٠١٥.

——— «هكذا وصل صلاح عبد السلام إلى بلجيكا بعد «هجمات باريس»»، ١٢ يناير ٢٠١٦.

هيئة البحوث والإفتاء، تنظيم الدولة الإسلامية

——— «ما حكم تحريق الكافر بالنار حتى يموت؟»، الفتوى رقم ٦٠، ١٩ يناير ٢٠١٥.

وزارة العدل والحريات، المملكة المغربية

http://adala.justice.gov.ma

——— «القانون الجنائي المغربي، مجموعة القانون الجنائي»، صيغة محينة بتاريخ فاتح يونيو ٢٠١٥.

الوطن نيوز

http://www.elwatannews.com

——— «الأزهر يدين التهجير القسري لمسيحي الموصل: يتنافى مع الإسلام»، ٢٧ يوليو ٢٠١٤.

——— «بالفيديو | «داعش» تجبر مئات الإيزيديين على اعتناق الإسلام»، ٢١ أغسطس ٢٠١٤.

——— «لغز اختطاف الضحايا: مصريون شاركوا في الإرشاد عنهم وسائق سلمهم لـ «داعش»»، ١٧ فبراير ٢٠١٥.

وكالة رويترز

http://ara.reuters.com

——— «تنظيم الدولة الإسلامية يؤكد مقتل الجهادي جون»، ١٩ يناير ٢٠١٦.

ويكيبيديا الإخوان المسلمون

http://www.ikhwanwiki.com/

——— «صراعنا مع اليهود... متى بدأ؟ وما دوافعه وأسبابه؟ وما طبيعته وحقيقته؟ ومتى سينتهي؟».

يورو برس بالعربية، موقع وكالة الصحافة الأوروبية بالعربية

http://europressarabia.com/

——— «معلومات تُكشف لأول مرة عن زعيم تنظيم «داعش» الارهابي ابو بكر البغدادي»، ٢٠ فبراير ٢٠١٥.

اليوم السابع

http://www.youm7.com/

——— «ارتفاع مبيعات «القرآن» المترجم للفرنسية ٥ أضعاف بعد أحداث شارلي إبدو»، ١٤ فبراير ٢٠١٥.

——— «بالفيديو.. أحد عناصر «داعش» يعترف: نحن قوم نحب شرب الدماء»، بقلم: ناهد الجندي، إبراهيم حسان، ١٦ سبتمبر ٢٠١٤.

——— «بالفيديو.. الرئيس مرسى فى أول خطاب بعد وصوله لكرسى الحكم: لولا دماء شهداء الثورة ما كانت الحرية.. وسأكون على مسافة واحدة من الجميع.. وأعينونى متى أطعت الله فيكم..»، ٢٤ يونيو ٢٠١٢.

——— «السعودية تطالب بتجريم التشهير بالأديان السماوية والأنبياء والكتب المقدسة»، ٢٣ مارس ٢٠١٥.

——— «القاهرة والناس: وقف برنامج إسلام بحيرى احتراما للمصريين ومنعا للفتنة»، ٢٢ أبريل ٢٠١٥.

——— «موقع أمريكي: أمير داعش عميل للموساد الإسرائيلي واسمه «إليوت شمون»»، ٧ أغسطس ٢٠١٤.

قائمة المراجع الأجنبية

BBC News
http://www.bbc.com
— "Syria crisis: Omar Shishani, Chechen jihadist leader." 3 December 2013.
— "Denmark attacks: Large crowds mourn shooting victims." 16 February 2015.

CNN
http://www.cnn.com
— "After four years, American cartoonist Molly Norris still in hiding after drawing Prophet Mohammed." 14 January 2015.
— "Douglas McAuthur McCain: From American kid to jihadi in Syria." 2 March 2015.

Daily Mail
http://www.dailymail.co.uk/
—"'I love the name Terror Twin...I sound scary' What schoolgirl who fled to Syria and married an Isis fighter said after hearing her nickname." 7 August 2014.
— "Is ISIS running out of suicide bombers? Terror group suffers shortage of martyrs after dozens of fighters desert or defect to rival militias." 9 February 2015.
— "Pictured: Islamic militants stone man to death for adultery in Somalia as villagers are forced to watch."15 December 2009.
—"Prisoners convert to Islam to win perks and get protection from powerful Muslim gangs." 8 June 2010.

Fox News
http://www.foxnews.com
— "Oklahoma beheading suspect likely radicalized behind bars, say expertscom." 30 September 2014.
— "Sources: Former Guantanamo detainees suspected of joining ISIS, other groups in Syria." 30 October 2014.

Global Fire Power
http://www.globalfirepower.com
— "Countries Ranked by Military Strength."

The Guardian
http://www.theguardian.com
— "Baghdad church siege survivors speak of taunts, killings and explosions." 1 November 2010.
— "Who is Mohammed Emwazi? From shy, football-loving boy to Isis killer." 2 March 2015.
— "World's top 100 universities 2014: their reputations ranked by Times Higher Education." 6 March 2014.

ICSR, International Centre for the Study of Radicalisation and Political Violence
http://icsr.info
— "Foreign fighter total in Syria/Iraq now exceeds 20,000; surpasses Afghanistan conflict in the 1980s." 26 January 2015.

Independent
http://www.independent.co.uk
— "Saudis risk new Muslim division with proposal to move Mohamed's tomb." 1 September 2014.
— "UK ministers have started to defend Saudi Arabia's flogging of Raif Badawi–it's breathtaking." 16 June 2015.

Iowa State University
http://www.soc.iastate.edu/
— "Rational Choice Theory." By John Scott
http://www.soc.iastate.edu/sapp/soc401rationalchoice.pdf

The Legatum Prosperity Index
http://www.prosperity.com
— "The Legatum Prosperity Index".

MEMRI TV
http://www.memritv.org
— Malaysian Cleric Hussein Ye Explains Why the Jews "Have Incurred the Wrath of Allah" and Why "The Christians Have Gone Astray." 17 October 2006.

Mirror
http://www.mirror.co.uk/
— "Paris terror attack: Jewish schools and police on high alert amid terror target fears." 12 January 2015.

New York Magazine: News & Politics
http://www.nymag.com
— "These 10 People Were Also Named Al Qaeda's Most Wanted." By Katie Zavadski. 14 January 2015.

The New York Times
http://www.nytimes.com
— "Dutch Filmmaker, an Islam Critic, Is Killed." 3 November, 2004.
— "ISIS Finances Are Strong." 19 May 2015.

Pew Research Center
http://www.pewforum.org
—"The World's Muslims: Unity and Diversity," 9 August 2012, Chapter 2: "Religious Commitment."
—"The World's Muslims: Unity and Diversity," 9 August 2012, Chapter 4: "Other Beliefs and Practices."

RT
http://www.rt.com
— "'ISIS commits mass murder, advertises it': Iraq executions detailed." 27 June 2014.

The Sunday Morning Herald
http://www.smh.com.au/
— "Australian Islamic State doctor Tareq Kamleh's sudden change after mystery trip in 2013." 28 April 2015.

The Telegraph
http://www.telegraph.co.uk/
— "Shocking footage emerges of Taliban stoning couple to death." 27 January 2011.

The Wall Street Journal
http://www.wsj.com/
— "French Prosecutors Investigate Whether Gunman Targeted Jewish School." 12 January 2015.

The Washington Post
http://www.washingtonpost.com
— "How Douglas McAuthur McCain became the first American to die fighting for the Islamic State." 27 August 2014.
— "Map: How the flow of foreign fighters to Iraq and Syria has surged since October." 27 January 2015.
— "What we know about Alton Nolen, who has been charged with murder in the Oklahoma beheading case." 30 September 2014.

The Washington Times
http://www.washingtontimes.com
— "BOOK REVIEW: 'Marked for Death'." By Ray Hartwell. 13 June 2012.

The World Post, A Partnership of The Huffington Post and Berggruen Institute
http://www.huffingtonpost.com/
— "How ISIS Is Using Marriage as a Trap." 3 February 2015.

قائمة الفيديوهات

برنامج بلا حدود

http://www.aljazeera.net

——— ٢٣ سبتمبر ٢٠١٠.

برنامج في الصميم، عبد الله المديفر، قناة روتانا خليجية

——— الحلقة ١٤، ٢٣ يوليو ٢٠١٣.

خطبة الشيخ عدنان إبراهيم

https://vimeo.com/129147313

——— «Take Revenge for Muhammad»، ١٦ سبتمبر ٢٠١٢.

سؤال جريء

——— «هل كان محمد رحمة للعالمين»، الحلقة ٣٧٠، ٧ أغسطس ٢٠١٤.

https://www.youtube.com/watch?v=V6RM-M6t47M

مركز الحياة للإعلام، إحدى الأذرع الإعلامية لتنظيم الدولة الإسلامية

——— «رسالة موقعة بالدماء إلى أمة الصليب»، ١٥ فبراير ٢٠١٥.

——— «لا حياة بدون جهاد»، ١٩ يونيو ٢٠١٤.

تنظيم الدولة الإسلامية

إعلام ولاية الرقة

——— «الإصدار المرئي: لقاءات حول عمليات فرنسا المباركة»، ١٤ يناير ٢٠١٥.

إعلام ولاية حمص

——— «الإصدار المرئي: ويشف صدور قوم مؤمنين»، ٤ يوليو ٢٠١٥.

مؤسسة الاعتصام للإنتاج الإعلامي

——— «كسر الحدود»، ٢٩ يونيو ٢٠١٤.

مؤسسة الفرقان للإنتاج الإعلامي

——— «شفاء الصدور».

——— «فيقتلون ويقتلون»، ١٢ مارس ٢٠١٥.

——— «هذا وعد الله»، ٢٩ يوليو ٢٠١٤.
https://issdarat.wordpress.com/03/02/2016/wa3dallah/

——— «ولو كره الكافرون»، ١٦ نوفمبر ٢٠١٤.

مؤسسة الملاحم

——— «رسالة بشأن غزوة باريس المباركة»، ١٣ يناير ٢٠١٥.

يوتيوب عربي

——— «بسمة الخلفاوي: التكفير هو جرم وهو إلّي أدّى إلى إغتيال شكري بلعيد»، ٢٢ يناير ٢٠١٤.
https://www.youtube.com/watch?v=yec1RX8mmqw

——— «التكفير=ارهاب: المطالبة برأس شكري بلعيد ونجيب الشابي في جرجيس.. المجرمين لم يحاكموا»، ٢٢ يناير ٢٠١٤.
https://www.youtube.com/watch?v=kaqHZMdFBnk

——— «دفاع هانى السباعى عن المجاهدين فى العراق مترجم Eng عام ١٤٢٦»
https://www.youtube.com/watch?v=YmYRpNGMzow

——— «رسالة أخرى إلى أمريكا وحلفائها»، تنظيم الدولة، ٣ أكتوبر ٢٠١٤

——— «رسالة ثانية لأمريكا»، تنظيم الدولة، ٢ سبتمبر ٢٠١٤

——— «رسالة لأمريكا»، تنظيم الدولة، ١٩ أغسطس ٢٠١٤

——— «رسالة لحلفاء أمريكا»، تنظيم الدولة، ١٣ سبتمبر ٢٠١٤

——— «سلسلة السيرة النبوية»، الحلقة السابعة، الشيخ نبيل العوضي، تلفزيون الوطن (الكويتي)، ٢٠١١
https://www.youtube.com/watch?v=NWg2gMfJzxs

——— «شيخ الأزهر أحمد الطيب: المسيحيون كفار و نحن كفار عندهم»، ٦ أكتوبر ٢٠١١.
https://www.youtube.com/watch?v=gzq1OBOfj38

——— «هذه فلسطين فما هو الحل»، الشيخ محمد الفزازي، ١٤ أبريل ٢٠٠٢
https://www.youtube.com/watch?v=aGIi5AkPq_I

——— «وائل الإبراشي للشيخ ياسر برهامي هل المسيحيين كفرة؟»، ٢٢ سبتمبر ٢٠١١، لقاء الشيخ ياسر برهامي مع الإعلامي وائل الإبراشي على قناة دريم.
https://www.youtube.com/watch?v=3tE6QDhIIkk

——— «ولو كره الكافرون»، تنظيم الدولة، ١٦ نوفمبر ٢٠١٤

Youtube

— "An interview with Raif Badawi's daughter #FreeRaif." 19 November 2014, with English subtitle. https://www.youtube.com/watch?v=kPpCm_HGFtU

MEMRI TV

http://www.memritv.org

— "Libyan Leader Mu'ammar Al-Qadhafi: Europe and the U.S. Should Agree to Become Islamic or Declare War on the Muslims." 10 April 2006. http://www.memritv.org/clip/en/1121

— "Moroccan cleric Abdallah Al-Nhari in 2005: May Allah Turn Iraq into a Nail in the Coffin of American Tyranny." 2 September 2005.

داعش والإسلام

في ظل ما يحصل الآن في العالم الإسلامي من إرهاب وقتل، أسأل نفسي: هل يمكنني أن أصف والدي المسلم إمام مسجد القرية المخلص لدينه الذي يستيقظ لصلاة الفجر كل يوم حتى في ليالي الشتاء الباردة وهو يرجف من شدة البرد إرهابيا لمجرد أنه مسلم؟ وماذا عن والدتي المسلمة القروية البسيطة... هل يمكنني أن أسمّي سيدة مثل هذه بكل طيبتها ورقة قلبها إرهابية لمجرد أنها مسلمة؟

بالمقابل، أليس أعضاء داعش والقاعدة وبوكو حرام وطالبان... وغيرها من الحركات الإسلامية مسلمين؟ ألا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيمون الصلاة، ويصومون ويلتزمون حتى بأدق تفاصيل دينهم؟ فكيف نقول إذن أن المسلمين مسالمون؟ ألا تتمّ عمليات القتل تحت صراخ «الله أكبر»؟... ألا يموتون في سبيل معتقداتهم الدينية؟ فكيف نقول عنهم إنهم ليسوا مسلمين ولا يمثلون الإسلام؟

إنها معضلة تواجه العالمين الشرقي والغربي، ويواجهها رجال الإعلام والمتخصصون ورجال السياسة والناس العاديون... هذا الكتاب يفك خيوط هذه المعضلة...

الأخ رشيد، درس العلوم الاقتصادية في جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء، ثم درس الإعلاميات، بعدها حصل على الإجازة في مقارنة الأديان، ويدرس الآن ليحصل على شهادة ماجستير في دراسات الإرهاب. قدم الأخ رشيد منذ ٢٠٠٦ برامج تلفزيونية على قناة الحياة، خاصة برنامج «سؤال جريء» الذي تجاوز أربعمائة حلقة، وتطرق فيه للعديد من المواضيع الدينية خاصة بين الإسلام والمسيحية، كما ناظر بعض الشيوخ في مواضيع تتعلق بالقرآن ونبوة محمد.

